منشورات
جامعة عبد المالك السعدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تطوان



النّصُّ الذي نَحْيا بِه

قَضايا ونماذجُ في تماسُكِ النّص ووَحْدةِ بِنائه



أ.د. عبد الرحمن بودرع
جامعة عبد المالك السعدي - كلية الآداب، تطوان





مَنشورات جامعة عبد المالك السعدي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان

فريق البحث الأدبي والسيميائي

النّصُّ الذي نَحْيا بِه

قَضايا ونَماذجُ في تَماسُكِ النّصّ ووَحْدةِ بِنائه

أ.د. عَبد الرحمن بودرع

جامعة عبد المالك السعدي – كلية الآداب، تطوان



منشورات جامعة عبد المالك السعدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان
فرق البحث الأدبي والسيميائي

الكتاب: النص الذي نحيا به
المؤلف: أ.د. عبد الرحمان بودرع
الإخراج الفني: سهيلة بودرع
تصميم الغلاف: مطبعة الحمامة
الطبعة الأولى: 2018م1439-هـ
طباعة: مطبعة الحمامة - تطوان - 0539715219
رقم الإيداع القانوني: 2018MO0782
ردمك: 3-058-61-9981-978

تَقْديم :

النص الذي نَحْيا به [Text We Live By]

عنوانٌ مُستعار من كتاب ليكوف وجونسون "الاستعارات التي نَحْيا بها"[1] ؛ يُرادُ به البرهنةُ على أنَّ النصَّ لا يقفُ عندَ صفَتِهِ اللغويّة المركَّبةِ من أصواتٍ ومَقاطعَ وأبنيةٍ وتَراكيبَ ودوالَّ، ولكنّه فعلٌ وحَدَثٌ وإنجازٌ، يُرافقُ الإنسانَ في أحواله كلها؛ فهو فعلٌ وفكرٌ وحدثٌ كلاميّ وإطارٌ عام لنشاطاته المختلفَة في التواصل والتلقي والحديث والإنجاز والإبداع والتصور الذّهنيّ. النص إعادة تَركيب للعالَم وفق اختيارات وخطط ومواقعَ.

وعلم النّصّ وليد شرعيّ للسانيات، فهي التي أخرجَتْه من الخَلْط المعرفيّ الذي كان يكتنفُه ومن غُموضِ الحُدودِ إلى وُضوح المفاهيم والمصطلحات. وقَد جَعَلَ المفكرَ اللسانيُّ "فان دايك" علمَ النص يأخذُ من البَلاغة مَفاهيمَها وتطبيقاتِها، ولكنّه مَنَعَ أن تنتقلَ معياريّةُ البَلاغة الغربيّة القَديمَة إلى علم النّصّ.

في مصطلح النص:

إطلاقُ مُصطلحٍ عَربيّ خالصٍ على مَفْهومٍ حَديثٍ قد يَكونُ بعيداً عن الدّقّة والموضوعيّةِ، ويَجري تَداولُ المُصطلحِ لذلك المَفهوم وتَعميمُه، إلى حدّ يُصبح معه من المُستحيل تغيير المُصطلَح الشائع إلى مُصطلح أدقَّ منه وألصَقَ بالمفهوم المراد، منه، فتكون أقدميةُ التداول مُسوِّغاً وكأنّ العُرفَ هو المنطقُ المسوِّغُ. فقد اجتُرِحَت من التراثِ مُصطلحاتٌ وأطلقَت على مَفاهيم في العلوم الإنسانية الحديثَة، فالتَبَسَ المفهومُ القَديم بالمَفْهوم الحَديث في الأذهانِ.

والمثالُ على على عدم التوافُق بين الاصطلاح والمَفهوميّةِ اليومَ : "النّصّ" فالنّصّ في أصله العربيّ الرفعُ والإظهارُ والقَطعُ وغير ذلكَ... وهذه المَعاني لا تَصدقُ على مَفهوم النّسْج والحَبك والتأليف... الذي يدلُّ عليْه مُصطلَح Text في الإنجليزية، ولقد اجتهد باحثون عَرَبٌ

---

[1] G. Lakoff - M. Johnsen , **Metaphor we live by**, London: The university of Chicago Press, 2003

للكتاب ترجمة جيّدةٌ إلى اللغة العربية، عُنوانُها "**الاستعاراتُ التي نَحْيا بها**" أنجَزَها لباحثُ اللساني المغربي الدكتور عَبد المجيد جحفَة، ونُشرَت بدار توبقال للنشر والتوزيع، البيضاء المغرب، أكثر من مَرة؛ فقَد ظهَرَت الطبعةُ الأولى سنة 1996، والثانيةُ سنة 2009.

في إكراه "النص" على الدلالة على "النسج" وأوَّلوا ولَووا أعناقَ الشواهدِ لتحقيق التوافُق والمناسبَة، ولكن يَبْقى النص نصا والنسجُ نسجاً.

النص أنموذج لإعادة تَركيب العالَم وفقَ هيئة نفسية ومقامية مخصوصة:

إذا تأمَّلْتَ أعمالَ الناسِ واستقْرَيْتَ ما يُنجزونَ من أفعالٍ وصَنائعَ ألفيْتَهُم لا يَخرجونَ عَن قاعدةٍ كلّيّةٍ ثابتةٍ: يُعيدونَ تَركيبَ ما تَفرقَ من عَناصرَ وموادَّ يَجمَعونَها من مَيادينَ مختلفةٍ؛ فكلُّ بناءٍ يَحتاجُ من بانيه إلى وَضع تصميمٍ وإحضارِ موادِّ بناءٍ وتَركيبِ بعضِها إلى بعضٍ على أنحاءٍ مَخصوصةٍ ومَقاديرَ مَضبوطةٍ. وكذلكَ الحالُ عندَ صانعِ الحُليّ فهو في حاجةٍ إلى مادَّةٍ خامٍ وعناصرَ مُضافةٍ وصورةٍ أو هيئةٍ تُخرَجُ عليْها الحِلْيَةُ. والشيءُ نفسُه يُقالُ عن **كتابةِ نصٍّ أو تأليفِ كتابٍ أو نَظمِ شعرٍ أو إبداعِ مسرحيّةٍ أو روايةٍ**، كلُّ أولئكَ يَحتاجُ منكَ إلى ما لا يَكادُ يَنتهي من العناصرِ وإلى رَوابطَ تربطُ بيْنَها وقَواعدَ تَحكُمُ طُرُقَ البناءِ والربطِ. وهكذا سائرُ الأعمالِ فإنها تحتاجُ إلى فكر وهندسةٍ وحُسنِ رَبط وتَدبيرٍ. وفي مثلِ ذلكَ تتنافسُ الأمم وتتفاضلُ دَرجاتُ الرّقيّ؛ فليسَ إبداعُ النصوص إلا تَركيباً لنص من أصل نصوص كثيرةٍ، وكلُّ نص يَحملُ في صُلبِه ما يُناسبُ خصائصَه وأحوالَه ومقاصدَه.

ولا يَقفُ الأمرُ مع النص الأدبي اللغوي الإبداعيّ عندَ هذا الحدّ، بَل يَتجاوزُ ذلكَ إلى أُفُقِ الانطلاقِ من النص الحاضر لاستكشاف بنيات النصوص الغائبَة خلفَه، فرحلةُ الاستكشافِ هذه بحثٌ في أعماق النص عَن آلياته ومؤلّفاته وعناصره المُستوْعَبَة في أحشائه، وعمّا قيلَ، وعمّا لَم يُقَلْ، وما المانعُ من قَولِ ما لَم يُقَلْ، وكيفَ كان يَنبغي للنص أن يَكونَ لو رُفِعَ المانعُ.

ومهما يكنْ من أمر النص فإنّه يُركّبُ ولا يُبْنَى من عَدَم على غير مثالٍ سَبَقَ؛ بل «يَكتسبُ هويتَه الرمزيةَ من تَفاعُل النصوص السابقَة، على نحو ما ذهَبَت إليه "نظريةُ النص"»[1]، وكانَ لمذهَب الباحثة السيميائية "جوليا كريستيفا" أثر كبير في ذا الفَهم الذي تقدَّمَ، وهو أنّ النصَّ تَركيبُ نُصوص؛ أو هو بعبارتها، جهازُ نَقلٍ لُغَويّ يُعيد تَوزيعَ نظامِ اللغة وفقَ الدلالات الممكنة، فكلما نشأ نَسَقٌ دلالي في الذّهن نشأ تركيبٌ نصّيّ جديدٌ[2].

---

[1] **النّصّ الغائبُ في القصيدَة العَرَبية الحَديثَة**، عبد السلام الربيدي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عَمّان الأردن، 2011، ص:9.

[2] **عِلم النّصّ**، جوليا كريستيفا، ت. فريد الزّاهي، دار توبقال للنشر، البيضاء، المغرب، ط.1، 1991م، ص: 79.

الفصلُ الأول: النص الذي نَحْيا به

- **النص أنموذج لإعادة تَركيب العالَم وفقَ هيئة نفسية ومقامية مخصوصة:**
- **النص وليد شبكة اللغة يتولَّدُ من تناسُج خُيوطها :**
- **علمُ النّصّ وتَكامُلُ المَعارف في اللسانيات الحديثَة**
- **في النص ولسانيات المدونات**
- **النص ورَوابطه : قيمَة الربط في قلة عدد الروابط مع حصول الربط**
- **في النص: من النحو إلى المَعْنى**
- **النص والبلاغَتان**

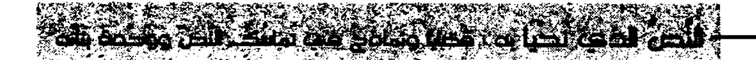
في البلاغة الجَديدة والبلاغَة البالية:

بَلاغةُ العُموم في ميزان البلاغَة: مِن بَلاغَة المُتكلّم إلى بَلاغة العُموم

المد الجديد في دراسة البلاغة

إعجاز القُرآن ودَعْوى "البَلاغة الجَديدَة"

- **النص والكليات اللغوية**
- **في النص والمصطلح**
- **في المُصطلَح المُشتَرَك**



في مُصْطَلح النّصّ

إطلاقُ مُصطلحٍ عَربيّ خالصٍ على مَفْهومٍ حَديثٍ قد يَكونُ بعيداً عن الدّقّة والموضوعيّةِ، ويَجري تَداولُ المُصطلحِ لذلك المَفهوم وتَعميمُه، إلى حدّ يُصبح معه من المُستحيل تغيير المُصطلَح الشائع إلى مُصطلح أدقَّ منه وألصَقَ بالمفهوم المراد، منه، فتكون أقدميةُ التداول مُسوّغاً وكأنّ العُرفَ هو المنطقُ المسوّغُ، فقد اجتُرِحَت من التراثِ مُصطلحاتٌ وأُطلقَت على مَفاهيمَ في العلوم الإنسانية الحديثَة، فالتَبَسَ المفهومُ القَديم بالمَفْهوم الحَديث في الأذهانِ.

والمثالُ على عدم التوافُق بين الاصطلاح والمَفهوميّةِ اليومَ: "النّصّ" فالنّصّ في أصله العربيّ الرفعُ والإظهارُ والقَطعُ وغيرُ ذلكَ... وهذه المَعاني لا تَصدقُ على مَفهوم النّسْج والحَبك والتأليف... الذي يدلُ عليْه مُصطلَح Text في الإنجليزية، ولقد اجتهد باحثون عَرَبٌ في إكراه "النص" على الدلالة على "النسج" وأوّلوا ولَووا أعناقَ الشواهدِ لتحقيق التوافُق والمناسبَة، ولكن يَبْقى النص نصا والنسجُ نسجاً.

النّصّ وليدُ شَبكة اللّغة يتولّدُ من تناسُج خُيوطها :

النص بيتٌ له محيط يُحيطُ به Peritext يشمل العنوان الفرعي والمدخل والمقدمة والتصدير والتذييل والفصل والباب والتنبيه والإضاءَة. والنص له ما يوازيه وهو النص الموازي Paratext أو يُصاحبُه من شرح أو حاشية أو طرّة[1].

لشَبَكَةِ اللغةِ أثرٌ عَميقٌ في التّواصُلِ بين الكاتبِ والقارئ؛ ففيها حَظٌّ كَبيرٌ من هذه المرآةِ التي تصلُحُ أن تَكونَ حَذْباءَ أو قَعْراءَ: لأنّ عالَم الكاتبِ وما فيه من أسرارٍ وذِكْرى وأفكارٍ ومَشاعرَ، لا يُقدَّمُ للقارئِ إلاّ بمُعجمٍ من الألفاظِ المُنتَقاةِ بأسلوبٍ دَقيقٍ وبنَظمٍ لُغويّ مَخْصوصٍ، وبصُوَرٍ أدبيةٍ مُختارةٍ.

فإذا كانَ عالَمُ الكاتبِ عالَمَ أفعالٍ ومَشاعرَ وتَجارِبَ، فهوَ أيضاً عالَمُ تَسْمياتٍ وألفاظٍ ومُصطَلَحاتٍ، تتَغشّى المَوْصوفاتِ فتمنَحُها واقعاً مَرئياً مَقْروءاً، والكاتبُ يتقدّمُ إلى القارئ، أو يُقدّمُ نفْسَه إليه، على طَبَقٍ من لُغةٍ، فمَطيّتُه الألفاظُ والتّراكيبُ والمَجازاتُ والاستعاراتُ،

---

[1] انظر ما كَتَبَه جيرار جينيت حول النص:

J.Genette1982, **Palimpsestes, la littérature au second degré**, Coll. Poétique Seuil.
J.Genette1979, **Introduction à l'architexte**, Coll. Poétique Seuil.
J.Genette1987, **Seuils**, Coll. Poétique Seuil

ولعلّ السَّببَ في ذلِكَ أنّ رُتبةَ الوُجودِ التي يتمتّعُ بها اللّفظُ –في وَهْمِ المُتكلّم- أرْقى وأكثرُ واقعيّةً من رُتبةِ وُجودِ الشّيْءِ، وأنّ «العالَم الإنسانيّ ليسَ عالَمَ إحساساتٍ ورُدودِ أفْعالٍ بَل هو عالَمُ أفكارٍ وتَحْديداتٍ لفظيّةٍ»[1]؛ وذلِك لأنّ الكلمةَ تخْلَعُ على الشيْءِ ذاتيتَه ووُجودَه[2]، وتُتيحُ للإنسانِ الانتقالَ من حالَةِ الاضْطرابِ والفَوْضى إلى حالةِ النّظامِ، وأن يتصرّفَ بالكلمةِ من بُعْد، وهو مُنفصلٌ عن عالَم الأشياءِ، يُقلّبُ العالَمَ كيفَ يَشاءُ، فيُحَسّنُ القَبيحَ باللّغةِ إذا أرادَ، أو يُقبّحُ الحَسَنَ، فرُبَّ قُبْحٍ عندَ شخصٍ هو حُسنٌ عندَ غيْرِه، وقد يكونُ وهماً عندَ ثالثٍ.

وباللُّغةِ أيضاً يُركّبُ من القِطَعِ المُتباعداتِ بناءً مُتّسقاً وعالَماً متحضّراً؛ إذْ يُحوّلُ التّجاربَ والأفكارَ والذّكرياتِ إلى عالَمٍ من المَقالاتِ، ومهمّةُ تلكَ المَقالاتِ والعباراتِ أنّها تؤلّفُ بين الأشياءِ وتُركّبُ وتُعدّلُ وتُقدّمُ وتؤخّرُ. فالكلمَةُ قُوّةٌ نافذةٌ مؤثّرةٌ ومُغيّرةٌ قبْلَ أن تَكونَ مُجرّدَ تسميةٍ مَوضوعيّةٍ، وحَقيقَةُ الكلمةِ قائمةٌ في ذاتِ الكاتبِ أكثرَ منْ مُثولِها في ذاتِها، فهي مُتلبّسةٌ بِذاتِه مُتحرّكةٌ بحركتِه ساكنةٌ بسُكونِه، إنّها فعلٌ قبلَ أن تَكونَ قولاً، وتَحملُ دلالةَ الفعلِ قبلَ أن تَكونَ أصْواتاً تَذهبُ أدْراجَ الرّياحِ.

وعندَما نَقولُ إنّ الكلمةَ تحملُ مَعْنىً مُعجمياً لازماً لَها عندَ إطلاقِ اللّفظِ، فهي لا تُغيّبُ عن أذهاننا أنّها تَخرجُ عن هذا الوَضعِ الدّلاليّ إلى أوضاعٍ أخرى فتَبْدو جَديدةً كلّما تكلّمَ بها متكلّمٌ أو استعْمَلَها مُستعملٌ. بَل تجدُ المتكلّمينَ بلغةٍ من اللّغاتِ يُهرَعونَ إلى الكناياتِ عَمّا يُستهْجنُ ذِكرُه ويُستقبَحُ نشرُه، أو يُستَحْيا من تسميتِه، أو يُتطيَّرُ منه، أو يُصانُ عنه، بألفاظٍ مَقْبولةٍ تُفصحُ عن المَعْنى وتُحسّنُ القَبيحَ وتُلطّفُ الكَثيفَ، في مُذاكَرَةِ ذَوي المُروءَةِ، فيَحْصُلُ المُرادُ مَع العُدولِ عَمّا يَنْبو عنه السّمعُ ولا يأنسُ بِه الطّبْعُ، إلى غيْرِه ممّا يَقومُ مَقامَه مع زيادَةٍ في الحَياءِ والحُسْنِ.

فهذه حَقيقةٌ من حَقائقِ الكلماتِ والألفاظِ والعباراتِ وغيْرِها من الأدواتِ اللّغويّةِ التي يتوسّلُ بها المتكلّمُون وحَمَلَةُ الأقْلامِ، لكي يُسمُّوا أحوالَهُم الشّعوريّةَ وذِكْراهُم الماضيةَ بأسماءٍ معيّنَةٍ، فيَسِمُوها بميسَمِ اللّغَة، ويُخرِجُوها من إبهامِ النّفسِ والزّمنِ الغابِرِ إلى وُضوحِ الكلماتِ.

---

[1] **مُشكلةُ الحَياة**، سلسلة مُشكلات فلسفيَة (7)، زكريّا إبْراهيم، مَكتبَة مصر، دار مصر للطّباعَة، القاهِرَة، ص:68 وما بعْدَها.

[2] ولكنّ هذا الصّفةَ الرّفيعةَ التي توجَدُ عليها اللّغةُ لا تَعْني أنّها هي التي توجِدُ عالَمَ الأشياءِ، فالعالَمُ ماثلٌ، مَوْجودٌ، موضوعياً.

ولكلّ عصرٍ إشكالاتُه الثّقافيّةُ. وتكادُ تشتركُ هذه الإشكالاتُ جميعُها في ما يُمكنُ تسميتُه بالصّراعِ وهو أصلٌ تتفرّعُ عنه فروعٌ وأنواعٌ، كالصّراعِ اللّغويّ والصراعِ الأدبيّ وهلمّ جرّاً ...

وما أكثرَ ما كتبَه الكتّابُ والنّقّادُ والباحثونَ عن الصّراعِ بين القَديم والحَديثِ أو الصّراع بين التّجديد والتقليد، أو الصّراعِ بين الأصالَة والحَداثَة. فلا يكادُ يختلفُ عصرٌ عن عصرٍ، من حيثُ الخلاف العلميّ والفكريّ، إلاّ في نوع الخلافِ أو مظهرِه؛ فقد عرفَ حقلُ النّحو خلافاً شديداً بين النّحويّينَ قيّدَه أبو البَركات في كتابِ الإنصاف وأبو البَقاءِ العُكبريّ في مَسائلِه الخِلافيّةِ. وعُرِفَ بين الفُقَهاءِ خلافٌ في الفُروع الفقهيّةِ وفي طرُقِ استنباطِ الأحكامِ من النّصوصِ، سجّلتْه كتُبُ الخلافِ العالي. وعُرف الخلافُ في النّقدِ والبَلاغَةِ وفي غيرهما من المَيادين. وأحسبُ أنّ ذلكَ الخلافَ كانَ توسّعاً و تنوُّعاً وثراءً فكرياً.

ويظلُّ أهلُ اللغةِ والنّحوِ والنّقْد يشتكونَ، وما ينبغي لهم أن تَستَقرَّ بَلابلُهُم وما ينبغي لهم أن يستريحوا؛ فإنّ أمرَ الخُروجِ عن سَمْتِ العربيّةِ أمرٌ منتظرٌ وهو من طَبائعِ الأشياءِ والنّاسِ، حتّى في الشّرائعِ والملل والنِحَلِ: فَما بُعِثَ الأنبياءُ والرُسُل إلاّ ليُجدّدوا للنّاسِ ما اعوجَّ من أمورِ دينِهم وما انحَرَفَ من عَقائدهِم، فهذه رسالةٌ لا تنقطعُ، متسلسلةٌ مُتَّصلةُ الحَلقاتِ، فأمّا في النّحوِ فَما زالَ العُلَماءُ يُصنّفونَ و يُصحّحونَ ويُجدّدون، منذُ عهدِ سيبويْه إلى عصرِنا هذا، على تَفاوتٍ بينهُم في الارتدادِ إلى التقليدِ أو جرأةِ التّجديدِ. وما زالَ أهلُ اللغةِ يُصنّفونَ المَعاجمَ ويستدرِكُ بعضُهُم على بعضٍ فَواتَه، إلى يوم النّاسِ هذا. وما زالَ أهلُ التّعبيرِ يُصنّفونَ في لَحْنِ العامّةِ بَل في لحنِ الخاصّةِ أنفُسِهم ويحرِصونَ على تصفيةِ اللغةِ من "الأوشابِ". فأنتَ تعلمُ من هذه الحَرَكَةِ الدّائمةِ الدّائبَةِ أنّ أمرَ اللغةِ عَظيمٌ وخَطَرها جَسيمٌ، وسيظلُّ كلُّ عصرٍ يجمعُ بين جَناحَيْه الانحرافَ والتّقويمِ، واللّحنَ والتّصحيحَ، واستحداثَ الشّاذِ و القياسَ على الوارِدِ المَسْموعِ.

في النص والمصطلح:

في المُصطلَح المُشتَرَك : التَّضمين

لا تختصُّ المفردات اللّغويّة وحدَها بظاهرة الاشتراكِ في الدَّلالة، ولكنّك تجدُ ذلكَ في المُصطلَحات أيضاً، وهذا ما يُمكنُ تسميتُه بالمُصطلَح المُشتَرَك، وسأضربُ أمثلةً يسيرةً على المصطلَح المُشترك بين النقد والشعر والنحو والدّلالة الأصوليّة

الأنموذجُ الأوّلُ عن المُصطلَح المُشترَكِ هو التّضمين، ولكلّ حقلٍ من حُقول المَعرفَةِ مَعْنىً ينصرفُ إليه لَفظُ التّضمين ويدلُّ عليه .

فالتضمينُ في النّحو خُروجٌ عن الأصل كتَضْمين الفعل معنى فعلٍ آخَر أو تَضمينِه مَعْنى حَرف [من الأدوات الدّالّة]، كَما في قوله تعالى: «ونَصَرْناهُ مِنَ القَوْمِ الذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا» [الأنبياء:77]، عَلى التَّضْمين، أي مَنَعْناه منهُم بالنّصر .

ولذلك عُدي أَلَوْتُ إلى مفعولين -وهو في الأصلِ قاصرٌ أي لازمٌ- وذلك في قولهم لا آلوك نُصْحاً ولا آلوكَ جهداً لَمّا ضُمِّنَ معنى لا أمنعك. ومن ذلكَ قولُه تعالى: «وما تَفعلوا مِنْ خَيرٍ فلَن تُكْفروهُ» [بالتاء في رواية ورش]، أي فلَن تُحْرَموه ولَن تُحْرَموا ثَوابَه، ولهذا عُدِّي إلى مَفْعولَيْن لا إلى مَفْعولٍ واحدٍ .

والفعلُ سَفه، لازمٌ فإذا تعدَّى فبتَضْمينِه مَعْنى أهلَكَ: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفهَ نفْسَه» [البقرة:130] : وقَد يجوزُ في النفس أن تكونَ منصوبةً لا على تضمين فعلٍ آخَرَ ولكنْ على التَّمييز المَنقولِ عن الفاعِل: وأصلُه: سَفِهَتْ نَفْسُه، أي خَفَّت وطاشَت فنُقلَ الإسنادُ من النّفسِ إلى صاحِبِها، على المَجاز العقليّ لوجودِ مُلابسَة بقصدِ المُبالَغَةِ في استغراقِ السّفاهةِ النَّفْسَ كلَّها، ثمّ انتَصبَ الفاعلُ على التّمييز تَبييناً للإبهامِ في الإسنادِ المَجازيّ.

أمّا التّضمين بمَعْناه النّقدي، وخاصّةً في المتعلّقِ ببناءِ الشّعرِ فيدلُّ على صفةٍ مذمومةٍ في الشّعر، فالتّضمينُ فيه أن يَكونَ البَيتُ الواحدُ مُعلّقاً بالبَيتِ الثّاني لا يَتمُّ مَعناه إلاّ به. وإنما يُحمدُ البَيتُ إذا كانَ قائماً بنفسه [ذكَرَه النّقّاد ويُنظر ابن عبد ربّه في العِقْد الفَريد، باب من أخبار الشّعراء]

أمّا التّضمين بمَعْناه العامّ، مثلاً في الكتابَة والتّصنيفِ، فقَد يُفيدُ مَعنى التّطعيم والتّزويد... كَما ذكَرَ الجاحظُ في مقدّمة الحَيوان في معرِضِ حديثِه عن تأليف كتابِه: «وليسَ

من الأبْوابِ بابٌ إلاّ وَقد يَدخُلُه نُتَفٌ من أبوابٍ أُخَرَ على قدْرِ ما يتَعلّق بها من الأسباب، ويَعرِضُ فيه من التّضمين...»، والتّضمين ههنا يحملُ دلالةً نصّيّة نقديّةً.

علاقَةُ طَرَفي التّضمين: المُضاف والمُضاف إليه :

أورَدَ المبرّدُ في الكامل شعراً لعبيدِ بنِ أيّوبٍ العَنبريّ، أنشدَه ثعلبٌ:

فإني وتركي الإنسَ من بعد حبّهم ... وصَبْري عَمّن كُنتُ ما إنْ أزايِلُهْ
لَكَالصّقر جلى بعد ما صاد قنية ... قديراً ومشوياً عبيطاً خَرادِلُه
أهابوا به فازداد بُعداً وصَدَّه ... عن القُرب منهم ضوءُ برقٍ ووابلُهْ

ووقَفَ عند قول الشّاعر: «ضَوءُ بَرقٍ ووابِلُه»، وقال: أمّا التّضمينُ قَوله: "ضوءُ برق ووابلُه"، أرادَ صَدَّه عنهُم ضوءُ برقٍ ووابلُه، فأضاف الوابلَ من المَطر إلى البَرق. وإنّما الإضافةُ إلى الشَّيء عَلى جِهة التّضْمين، ولا يُضافُ الشّيءُ إلى الشّيء إلاّ وهو غيرُه أو بعضُه، فالذي هو غيرُه: غُلام زيدٍ ودار عمرو، والذي هو بعضُه: ثَوبُ خَزٍّ، وخاتَمُ حَديدٍ، وإنمّا أضافَ الوابلَ إلى البَرق، وليس هو له، كما قُلت: دارُ زيدٍ، على جهة المُجاورة، وأنّهُما راجعان إلى السّحابة، وقد يُضاف ما كانَ كذا عَلى السّعةِ، كما قال الشاعر :

حَتّى أنخْتُ قَلوصي في دِياركُم ... بخيرِ مَن يَحتَذي نَعْلاً وحافيها

فأضافَ الحافيَ إلى النَّعلِ، والتَّقديرُ: حافٍ منها.

والتّضمينُ في المَعْنى أيضاً أن تقتبسَ نصّاً وتُضمّنَه نصّاً آخَر، وقَد عرَّفَ النّويريّ حُسنَ التّضمينِ، في "نهايَة الأرَب" فقال: «حُسنُ التّضمين، فَهو أن يُضمِّنَ المُتكلّمُ كلامَه كلمةً من آيةٍ أو حَديثٍ أو مَثَلٍ سائرٍ أو بَيتِ شعر»[1]، وجَعَلَه من عُلوم المَعاني. وبابُ التَّضمين أوسعُ من أن يُحاطَ به.

المُصطلَح المُشترَك الثاني: الالتفات

<u>المَعْنى اللّغوي للالتفات</u> : الانصراف إلى الشيء وعَقْد العنايَة له، وقد يكونُ الالتفاتُ مُستحسَناً، كحُسن الالتفات إلى مَن يستحقُّ أن يُعتَنى به ويُلتفَتَ إليه ويُشفَقَ عليه، وقد

---

[1] **نهايَة الأرَب في فُنون الأدَب**، شهاب الدين النويري (ت.733هـ)، نشر دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط.1، 1423هـ، ج:7، ص:126.

يكونُ غيرَ ذلكَ، كالخفّة غيرِ المحمودَة في المَرء وما يُصاحبُ ذلكَ من كَثْرة الكَلام وسُرعة الجَواب، وكثرة الالتِفاتِ والخُلوّ من العِلم، والعَجَلَة والخفّة والسَّفَه والظُّلم والغَفْلَة[1] .

وذَكَر الجاحظُ أنّ من تمام آلة العالِم أن يكونَ شديدَ الهَيْبة، رَزِين المَجْلس، وَقُوراً صَمُوتاً، بَطيءَ الالتِفاتِ، قَليلَ الإشارات، ساكنَ الحَرَكات، لا يَصْخَب ولا يغْضَبُ، ولا يُبهَرُ في كَلامِه...؛ فإنّ هذِه كلَّها مِن آفاتِ العِيّ[2].

وفي الاصطلاح عرَّفه ابن المعتزّ فقال: الالتفاتُ انصرافُ المتكلِّم عن الإخبار إلى المخاطَبَة[3]

وللنحويّينَ تعريفٌ للالتفات يتَّصلُ بالتّركيب، ويُسمّونَه الاعتراض، وهو أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كَلامين مُتَّصلَيْن مَعنى، بجملة أو أكثر لا محلَّ لها من الإعراب، نحو قول الشّاعر:

تذكرت -والذكرى تهيجك زينبا وأصبح باقي وَصلِها قد تَقضَّبا

وحلَّ بفلج فالأباتر أهلُنا وشطت فحلت غمرة فمُثقَّبا

فالْتفَتَ الشاعرُ في البيتين.

ولكنّ البلاغيّين يفرّقونَ بين الالتفات والاعتراض، فالالتفاتُ كما عرَّفه أبو هلال العسكريّ في الصّناعَتَيْن، أن يَفرغَ المُتكلمُ من المعنى، فإذا ظننتَ أنّه يُريدُ أن يُجاوزَه يعودُ إليه ويلتفتُ إليه فيَذكُرُه بغيرِ ما تقَدَّم ذكرُه به. أخبرنا أبو وقد حدَّث الأصمعيّ عن التِفاتاتِ جَرير، منها قولُه:

أَتَنسى إذ تُوَدِّعُنا سُلَيمى /// بِفَرْعِ بَشامَةٍ، سُقِيَ البَشامُ

قالَ الأصمعيُّ: ألا تَراه مُقبلاً عَلى شعره. ثم الْتفَتَ إلى البَشام فدَعا له. وقوله:

[1] **المستطرف في كل فن مُستَظرَف**، لأبي الفَتح شهاب الدّين الأبشيهي (ت.852هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط.1، 1419هـ. ج:1، ص:23

[2] **العِقْد الفَريد**، أحمد بن محمد بن عَبد ربِّه الأندلسيّ (ت.328هـ) تح. مفيد محمّد قميحة، ار الكتب العلميّة، بَيْروت، باب شَرائط العلم وما يَصلُحُ له، ج:2، ص:88.

[3] **نِهايَة الأرَب في فُنون الأدَب**، ج:7، ص:116.

طربَ الحَمامُ بذي الأرْكِ فشاقَني /// لا زلتَ في عَلَلٍ وأيكٍ ناضرِ

فالتَفَتَ إلى الحَمام فدَعا له.

ومنه قول الآخر:

لقد قتلتُ بني بكر بربّهم /// حتى بَكَيْتُ وما يبْكي لهُمْ أحَد

فقوله: وما يَبكي لهم أحد، التفات، وقولُ حَسّان:

إنّ التي ناوَلتني فَردَدْتُها /// قُتِلَتْ، قُتِلْتَ فَهاتها لم تقتلِ

فقوله: قُتِلْتَ، التفاتٌ.

ونوعٌ آخَر من الالتفات: يكونُ فيه الشاعرُ آخِذاً في مَعنى وكأنه يَعترِضُه شَكّ أو ظنٌّ أنّ رادّاً يَردُّ قَولَه، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً إلى ما قَدَّمَه، فإما أن يؤكّدَه، أو يذكُرَ سَببَه، أو يُزيلَ الشّكَّ عنه، ومثالُه قولُ المُعطّل الهُذَليّ:

تَبينُ صُلاةُ الحَربِ مِنّا وَمِنهُمُ /// إذا ما الْتقَينا، والمُسالِمُ بادِنُ

فقوله: "والمسالم بادن" رُجوعٌ من المعنى الذي قدّمه، حتى بيّنَ أنّ عَلامةَ صُلاةِ الحَربِ مِن غيرهِم أنّ المُسالمَ بادنٌ، والمُحاربَ ضامرٌ.

***

وقريبٌ من الالتفاتِ عند البَلاغيّينَ فنٌّ آخَر هو الاعتراضُ؛ وليسَ الاعتراضُ عندهُم كالاعتراضِ عندَ النّحويّين،فقَد تقدَّم أنّ الاعتراضَ عندَ النّحاةُ يكونُ بالجملةِ تَقَعَ بين متلازمَيْن وهي منقطعةٌ عمّا قبلَها إعراباً مُتّصلةٌ مَعْنىً، وأمّا الاعتراضُ عند البلاغيّينَ فغيرُ ذلِكَ وهو قريبٌ ممّا سَمّاه قُدامَةُ بنُ جعفر في العُمْدَة في مَحاسن الشّعرِ وآدابه، بالاستدراك؛ وهذا وجه من وُجوه المُصطلَح المُشتَرَك:

فالاعتراض عندَ البلاغيّينَ، هو اعتراضُ كلامٍ في كَلامٍ لم يَتمَّ، ثم يَرجعُ إليه فيُتمُّه، كقول النّابغة الجَعْديّ:

ألا زَعَمَت بنو سَعدٍ بأني /// -ألا كَذَبوا- كبيرُ السّنّ فانِي

وقول كثير:

لو أنَّ الباخلينَ -وأنتِ منهُم- /// رَأوكِ تَعَلّمُوا منكِ المطالا

وقولِ الآخَر:

فظَلَّتْ بيوم -دَعْ أخاك بمِثْلِه- /// على مشرعٍ يُروَى ولما يُصَرَّدِ

ففي قولِه: دَعْ أخاكَ بمِثْلِه، نوعٌ من أنواع الالتفات، اعترضَ به ولم يُتمَّ كلامَه السّابقَ.

وقول الآخر:

إن الثَّمانين – وبُلِّغْتَها - /// قد أحْوَجَتْ سَمْعي إلى تُرْجُمانِ

وقول البحتري:

ولقد عَلمتُ -وللشَّباب جَهالةٌ- /// أن الصِّبا بَعدَ الشَّباب تَصابي

فتبيَّنَ أنَّ الالتفات، كالتّضمين والاعتراض، من المُصطلحاتِ المُشتركَة التي تدلُّ على أكثر من مَعْنى، وأنّه يتعيّنُ على المطَّلِع على المصطلَح، أن ينظرَ في الفنّ المُستعمَلِ فيه، قبل اعتماده وفهمِه وتأويلِه.

في المُصطلَح المُشتَرَك أيضاً

نستأنفُ حديثَنا عن المُصطلَح المُشترَك، ونُشيرُ في هذا السياقِ، إلى قضيّة منهجيّة ما فتِئت الدّراساتُ العربيّةُ الحديثَة في النّقد والأسلوبيّات والسيميائياتِ والتداولياتِ والتأويليّات، تقَع فيها.

ذلكَ أنّك كلّما اطّلعْتَ على كثيرٍ ممّا يُكتَبُ اليومَ عن "التّراث" الاصطلاحيّ و"التّراث" البلاغيّ واللغويّ و"التّراث" الكلاميّ، فإنّك تجدُ الأحكامَ المُرسَلَةَ والمُصادراتِ العامّةَ لِما صُنّفَ في الفُنون والعلومِ من مَصادرَ قَديمَةٍ، وإنّما مبعثُ تلكَ الأحكامِ العَجْلى رَغبةُ كثيرٍ من الباحثينَ المُعاصرينَ في التّخلُّصِ السّريعِ من أعباءِ الحديثِ المفصّل والتّحليل المدقّق لمناهج النّظر والتناوُل التي نهَجَها القُدماءُ في مصنّفاتهم، فيَعمد هؤلاءِ إلى القَفزِ على كيانٍ ضخمٍ من قيم الزّمان والمَكان والمَعرفَة، للانتقالِ إلى الحديثِ عن الإشكالاتِ المعرفيّة المعاصرة، ولا أفهمُ من تلكَ المُصادَرَة وذلك القَفزِ المنهجيّ، إلاّ نيّةَ الاجتثاثِ، والادّعاءِ الضّمنيّ بأنّ القَضايا التي يبحثونَ فيها، لا تبدأ في الزّمان إلاّ اليومَ ولا في المَكانِ إلا حيثُ يَقفونَ، وأنّ الاجتهادَ

المُعاصرَ استقرَّ على ضرورَة مُجاوَزَة البحث فيما كان الأوّلون فيه يَبحثونَ، أو مُجاوزةِ الطّرُق والمناهجِ التي كانوا بها يبحَثونَ، وأنّه آن الأوانُ للانتقالِ إلى القَضايا والمَفاهيم التي أثارَها المفكّرون والفلاسفَةُ المُعاصرون، وأصحابُ النّظرياتِ والمناهج الحَديثَة، انتقالاً كلّياً لا رجعةَ فيه، وأنّه ينبغي تَوحيد مَقاييس انتقاء القَضايا المَبحوثِ فيها وزوايا النَظَر المَبحوث منها والأدوات المنهجيّة المَبْحوثِ بها.

والحقيقةُ أنّه ينبغي التّوقُّفُ الطّويلُ قبلَ **ثَقافَة القَفز والمُصادَرَة**، وذلكَ من أجل دراسةِ مَقولاتِ التّراثِ وقضاياه وإشكالاتِه في سياقِها الذي كُتِبَت فيه أوّلاً، ثمّ في سياقٍ جديدٍ وهو قابليّة التّمديد: تَمديد القِيَم التي فيه إلى ما بعدَه، وقابليّةُ الإمدادِ: أي استمْداد ما فيه من كلّيَاتٍ، بسببِها يظلُّ العَمَلُ حياً مستمراً، حاملاً في ثناياه أسبابَ بَقائه. وهذا إنصافٌ لهذا الجسم المعرفيّ الضّخم الذي يستقرّ في الزّمان البَشري والامتداد المَكانيّ استقراراً قوياً خالصاً سائغاً غيرَ مَحْجوبٍ عن النّاظرينَ، لا يُنكرُ ذلكَ إلاّ مَنْ غالَطَ في الحَقائقِ نفسَه وأنكَرَ حسَّه. ومَثَلُ هؤلاءِ كَمَثَلِ مَن ردَّ عليهم عبدُ القاهر الجُرجانيُّ في الدّلائل، ممّن زَهدوا في النّحو وذمّوا الاشتغالَ به، وطَعنوا على الشعرِ والشّعراءِ وعلى البلاغةِ والبُلَغاءِ: وسلسلةُ الإعراضِ عَمّا كُتبَ من نصوصٍ وما تَراكَم من مَعارفَ عبر التّاريخ، متّصِلةُ الحَلقاتِ.

وإنّما وُطّئَ **للحَديثِ عن المُصطَلَح بهذه التوطئة ليُعلَمَ أنّه لا ضيرَ في تداخُلِ المَعاني واجتماعِها** في حيّزٍ اصطلاحيّ واحدٍ، وأنّ للعلماءِ والمفكّرينَ الحقَّ في استعمالِ المُصطَلَحِ الواحدِ ذي المَعاني المُختلفَة، إذا وَجَدوه مُناسباً لمَفاهيمهم مُناسَبةً تامّةً، سواء أكانَ من قبلُ مُستعمَلاً أم لم يَكنْ، ويظلُّ السّياقُ مائزاً. فتداوُلُ الحُقولِ المُختلفةِ للمُصطلَح الواحدِ لَن ينتهي إلى إرباكِ الفكرِ أو إلى الخَلط: ما دامَ المُصطلَح مقيَّداً بقَرينةِ السّياقِ الذي يُستعمَلُ فيه.

علمُ النّصِ وتكاملُ المَعارف في اللسانيات الحديثَة :

1- لا يَدّعيَنّ أحَدٌ أنّ الحكمةَ اللّسانيَةَ جُمعَتْ في التّداوليّات أو في اللّسانيّات الصّوريّة بوجَهَيْها البنيوي والتوليديّ. أو في الدّلاليّات أو في السيميائيّات أو في التأويليّات... وإنّما اجتَمَعَت الفوائدُ في التّركيبةِ كلّها. ولعلّ **اللسانيّاتِ النّصيّةَ وتَحليلَ الخطاب** منزَعٌ جديدٌ في العُلوم الإنسانيّةِ يُقاربُ الظّواهرَ الموصوفةَ بمنظارٍ أشملَ.

2- **النّصُ إعادةُ تَوزيع نظام اللغة.** إعادةُ ترتيب المُؤلّفات المعجميّة والتّركيبيّة والصّوتيّة والدّلاليّة. نستطيع أن نبنيَ نصوصاً لا تنتهي، من المؤلّفاتِ نفسِها. وذلكَ بإعادة ترتيبها في كلّ مرة على هيئة مُختلفة. فهيئة البناء أو النّظم سمةٌ نصّيّة. والذي يتحكّمُ في البناء قواعدُ داخليّة تُحققُ التّماسُكَ. وقَواعدُ سياقيّة وتواصليّة تحققُ الانسجامَ وتُبْنى على الأولى[1].

3- علّقَ النّاقدُ اللّسانيّ برند سبيلنر B. Spillner على تعريفِ اللّسانيّين النّصَّ بأنّه متتاليةٌ من الجُمَل. وبأنّه قد يتكوّنُ النّصُ من جملةٍ واحدةٍ أو أكثر... علّقَ على حصرِ التّعريفِ في دائرةِ التّردّد بين النّصّ والجُملَة. بأنّه تعريفٌ دائريّ أو دَوْريٌّ يُعرّفُ النّصَ بالجملةِ والجملةَ بالنّصّ. وبأنّه لا يُقيمُ الحدودَ الفاصلةَ بينهما. وهذا تصوّرٌ غيرُ منهجيّ Amethodical. وهو تعريفٌ آليّ ساذَجٌ يَفتقرُ إلى تصوُّرِ مَفاهيم الرّبط والتّعليق التي تُجاوزُ روابطَ الجملةِ بين الكلمات. إلى روابطَ عُلْيا. أمّا كلاوس برنكر K. Brinker فقَد اشترَط ألاّ يكونَ النّصّ جزءاً من غيرِه أو وحدة في نظامٍ أعلى. فلا يَكونُ تعليقاً على رسم أو قطعة موسيقية أو توقيعاً على صورة أو تعليقاتٍ في طُرر الكُتُب وحواشيها؛ فمن شُروط النّصّ ألاّ يكونَ جزءاً من وحدةٍ أعلى وأشملَ. إنّه بنيةٌ كبْرى تتألّفُ من وحداتٍ مُتماسكةٍ ليسَت بالضّرورةِ جُملاً[2].

---

[1] ذَكرَت شيئاً من هذا المَعْنى جوليا كريستيفا. في بحثها حول "**علم النص**" ترجمة فريد الزاهي. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء. 1997م.

[2] يُراجعُ كتابُ: **الإحالَة وأثرها في تماسك النّص في القَصص القرآني.** أنس بن محمود فجال. منشورات نادي الأحساء الأدبي. مطابع الحميضيالرياض. 1434-2013. ص: 57 وما بعدَها

في النص ولسانيات المدونات

لسانيات المُدَوَّنات Corpora Linguistics . La linguistique de corpus، ليسَت غريبةً عن الأدبيات اللغوية والمعرفيّة العربيّة، لأنَّ هذه الأدبيّاتِ اعتمَدَت في المقام الأول على النّصّ واستخرجت منه معايير النقد والمعرفَة والتفكير والتّعبير.

اعتمَدت لسانيات المدونات على استخراج المعلومات والمعارف من النصوص اللغوية المُحْتاج إليْها في ميدان تعليم اللغات. والمدوّنة حشدٌ من الظواهر والمتناوَلاتِ اللغويّة المُجمَّعَة في إطار واحدٍ، وهي جزء من اللّسانيّات التّطبيقيّة، ولَم تَنشأ قطُّ على أساس إطارٍ نظريّ لازمٍ خاصٍ بها، فهي طريقةٌ أو منهَج جديد في النّظرِ إلى اللّغة، وتُحدّدُ الدّلالَةَ وتبحثُ عنها داخلَ الخطاب، بدلاً من البحث عنها في عقول المتكلّمين، فالكلماتُ داخلَ سياقِها هي وحدَها التي تحملُ دلالةً . والكشفُ عن مَعْنى مقطعٍ نصّيّ يعني سبرَ أغوارِ الروابط التّناصيّة التي تصلُ النصوصَ بعضَها إلى بعضٍ وتربطُها بالبُعد الزّمنيّ [الدّياكرونيّ] للنّصّ.

وتفرضُ التأويليّةُ [الهرمنوطيقا] نفسَها إطاراً نظرياً للسانياتِ المدوَّناتِ التي تبحثُ في مدّ جسور التّرابُط بين اللغة والمُجتَمَع[1].

النص ورَوابطه : قيمَة الربط في قلة عدد الروابط مع حصول الربط

من بَلاغَة الربط والتماسُك تَقْليلُ أدواتِ الرَّبْطِ مع بَقائه :

أعطيتُكَه أبلغُ من أعطيتُك إياه - نبّأْتُكَه - سألتُمونيها - "أوَمُخرجيَّ هُمْ؟" - "فسيكفيكَهُم الله"

فكلّما قلّت الروابطُ اللفظيّةُ مع بقاء الربط وشدة التماسُك اكتملَ المَعْنى وعَلَا، وكلّما كثُرَت مع إمكان الاستغناءِ عنها وبَقائه، تناقَصَت دَرَجاتُ التماسُك والبلاغَة.

لأنَّ تَقليلَ الروابط اللفظيةِ يفسَحُ المجالَ للروابط العقلية والعلاقات الذّهنيَة والقُيود المنطقيّة.

لتقومَ مَقامَ الأدواتِ اللفظيّةِ وتسدّ مسدَّها وتُغْنِيَ عَنها.

---

[1] Tognini Bonelli, E. (2001), **Corpus Linguistics at Work**. Amsterdam : Benjamins.

في النص: من النحو إلى المَعْنى

قُيودُ النفس وأغلالُها تُلجئُ الشاعرَ إلى أدوات العَطف والتعليق والإضافَة. قد يَقولُ القائلُ: هو أحوجُ إلى الانفكاك من قُيود النفس فكيف يلجأ إلى قُيود اللغة؛ الجَوابُ أنه مؤتَمَنٌ على إيصالكَ مأساتَه ومُعاناتَه وقُيودَه أيها القارئ، وله بعد ذلك أن يَنعتقَ ويَنطلقَ.

اللغةُ وسيلَةُ تَشكيل الصورَة الشعريّة، والصّورَةُ الشعريةُ وسيلةُ تَوليد اللغة وتَوسيعها، فهما معاً وسيلةٌ وغايةٌ، وعندَما تَكون الغايةُ والوسيلةُ من مَعدنٍ واحدٍ، يَزدهرُ الإبداعُ. فيرى الشاعرُ العالَمَ شعراً ولغةً. ويَرَى اللغةَ عالَماً ومَشاعرَ، وإذا حُرمَ إحداهُما توقَّفَ عن الإحساس والعبارَة مَعاً.

الشعرُ الصحيحُ الفصيحُ يُحسنُ الوسيلةَ والغايةَ، وتَجدُ الروابطَ اللغويةَ تنقلُ إلى القارئ الروابطَ النفسيةَ، وكلما انبَهَمَ الشعورُ تعمقَت الصورَةُ الشعريةُ وأحوجَت القارئَ إلى الغوص وإعمال الفكر. فاللغة أختُ المشاعر، وكل واحدة منهما تنظرُ إلى الأخرى كالمُطلَّةِ في المرآةِ على وجهها.

النص والبلاغَتان

في "البلاغة الجَديدة" و"البلاغَة البالية":

1- كثيراً ما يُردّدُ بعضَ الكُتاب الذين لهم حظٌ يسيرٌ من العلم بالنَصّ وشُروط بنائه وعُلوم الآلَةِ التي تضبِطُه. والنصوصِ التي دَخلَت في جوفِه. أنَ العبرَةَ في الدّرسِ والتّحليلِ إنّما هي بالنَصّ لا بصاحبِه. وبالمُنجَزِ في ذاتِه، لا بشُروطِ توثيقِه ونسبتِه، وليكُنِ النّصُّ لَقيطاً. وإنَما العبرةُ عندَ هؤلاءِ بالنَصّ لا بصاحبِه ولا بتوثيقِه. ويشْرَعونَ بعدَ ذلكَ في استخراجِ بلاغتِه بزعمِهم. وأيَةُ بلاغةٍ؟ إنّها البَلاغةُ الجديدةُ. وما الجديدُ فيها؟ الذي يميزُها عن البَلاغة الباليَةِ إنّما هو بضعُ كلماتٍ تُرددُها الألسنةُ وتتداوَلُها بعضُ الأطروحاتِ التي تُناقَشُ هنا وهناك. وقوامُها كلامٌ عن القارئ والمتلقّي ومُصطلَحاتٌ أجنبيّةٌ في جمالِ التلقّي وأفقِ الانتظارِ وما لَم يقُلْه النّصُّ وما اختَفى بين السّطورِ ويجبُ البحثُ عنه والتلصُّصُ عليْه. أمّا السطورُ الماثلَةُ فقَد ضلّ عنهُم أن يَقرَؤوها، وأمّا ما غابَ فهوَ محورُ القضيّة، ويبحثونَ في البَلاغةِ الجديدةِ أيضاً عن عتبات النَصّ ونهايةِ والنَصّ والنَصّ المُولَّدِ [بالمعنى المُعاصر] والنَصّ الباطنِ ولُغة لُغةِ النَصّ، وغير ذلِك من مَفاهيم "البَلاغةِ الجَديدَة". وإذا سألْتَهُم عن التشبيه التمثيليّ والمَجازِ العقليّ والمَجازِ المُرسَل والكنايَةِ والاستعارةِ المكنيةِ والطّباقِ والجناسِ التّامّ والنّاقصِ والتّوريةِ والإردافِ والتّتميمِ والتّذييلِ وحُسنِ النّسق، وغيْرِها من المَفاهيمِ التي تدخُلُ في صَميمِ بَلاغَةِ النّصّ نظروا إليْك كارهينَ واتّهموك بالاشتغالِ ببلاغةِ البِلى وتَرْك بلاغة الحَداثةِ والجِدّةِ.

2- والحقيقَةُ أنّهُم لم يكُن لهُم في حياتِهِم العلميّةِ نصيبٌ كبيرٌ من الدّرْسِ والتّحصيلِ للبلاغةِ الأصيلَةِ التي هي قوامُ مَبْنى النّصوصِ الفَصيحَةِ، ومَحْرومُ الشّيءِ لا يُعطيه.

وما مَنَعهُم أنْ يَعْلموا البَلاغةَ الأصيلةَ إلاّ بُعدُهم عن مَكانها وقلّةُ زادِهم من أغراضِها؛ ولو راموا تحليلَ النّصوص على قلّةِ ما عندَهُم منها بل فراغِهم وانقطاعِ موادِّهم وبُعدِهم؛ لدَخلوا من بابٍ ولَخرجوا من بابٍ آخَرَ كَما دَخَلوا، أمّا إن تكلّموا في البَلاغَة المُسَمّاةِ عندَهُم بالباليةِ فإنّهم سيَبخَسونَ أقوامَ البَلاغةِ القَديمةِ حظّهم وينقُصونَهم فضلَهُم، ويتعرّضون للأئمّة بالهمزِ

واللّمزِ والطّعنِ والتّجهيلِ، بَل يوهِمونَ مَن رأى البَلاغَةَ الجديدةَ، بقلّةِ زادِ البلاغيّينَ ونهايةِ وُسعِهِم وأنهم ليسوا من الفَضلِ في الفنّ كالذي عليه أهلُ البَلاغةِ الجديدةِ. فلا بُدّ من التّنبيه على الحاجةِ إلى علم البَلاغةِ في نشأتِها الأولى، والتّنويه بعُلَمائها فُضلائها والتّوقيف على أغراضِها وتَحقيقِ مُصطلحاتِها ومَفاهيمِها، وشرحِ أصولِها وامتداداتِها حتّى ينتفعَ طلاّبُ العصرِ من فوائدها وثُمُرِها وتَصيرَ جَنىً دانيَ القطافِ لمَن رامَ تفسيرَ آيةٍ أو فَهمَ حديثٍ أو شرحَ شعرٍ أو تَحليلَ قصيدةٍ . وهي موضعٌ متعدّدُ الأطرافِ دَقيقُ المَسالك عليه مَبْنى الكلامِ كلِّه: يَقولُ صاحبُ البُرهان: « **اعلَمْ أنّ هذا العلمَ شَريفُ المَحلِّ عَظيمُ المكانِ ... وشذَّ بعضُهُم فزَعَمَ أنّ مَوضِعَ صناعَةِ البلاغةِ فيه إنّما هو المعاني، فلَم يَعُدَّ الأساليبَ البليغةَ والمَحاسنَ اللَفظيَةَ. والصَّحيحُ أنّ الموضوعَ مَجْمُوعُ المَعاني والألْفاظِ إذ اللَّفْظُ مادَةُ الكلامِ الذي مِنْهُ يَتَألَّفُ. ومتى أُخرِجَت الألْفاظُ عَنْ أَنْ تَكونَ مَوْضوعًا خَرَجَتْ عَنْ جُمْلَةِ الأَقْسَامِ المُعْتَبَرَةِ.**

وَهَا أَنَا أُلْقِي إِلَيْكَ مِنْهُ مَا يَقْضِي لَهُ الْبَلِيغُ عَجَبًا وَيَهْتَزُّ بِهِ الْكَاتِبُ طَرَبًا: فَمِنْهُ التَّوْكِيدُ بِأَقْسَامِهِ، وَالْحَذْفُ بِأَقْسَامِهِ، الإِيجَازُ .التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ .الْقَلْبُ الْمُدْرَجُ، الاقْتِصَاص، التَّرَقِّي، التَّغْلِيبُ، الالْتِفَاتُ، التَّضْمِينُ، وَضْعُ الْخَبَرِ مَوْضِعَ الطَّلَبِ، وَضْعُ الطَّلَبِ مَوْضِعَ الْخَبَرِ، وَضْعُ النِّدَاءِ مَوْضِعَ التَّعَجُّبِ، وَضْعُ جُمْلَةِ الْقِلَّةِ مَوْضِعَ الْكَثْرَةِ، تَذْكِيرُ الْمُؤَنَّثِ، تَأْنِيثُ الْمُذَكَّرِ .التَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي، عَكْسُهُ، مُشَاكَلَةُ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى، النَّحْتُ، الإِبْدَالُ، الْمُحَاذَاةُ، قَوَاعِدُ فِي النَّفْيِ وَالصِّفَاتِ، إِخْرَاجُ الْكَلَامِ مُخْرَجَ الشَّكِّ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْحَقِيقَةِ، الإِعْرَاضُ عَنْ صَرِيحِ الْحُكْمِ، الْهَدْمُ، التَّوَسُّعُ، الاِسْتِدْرَاجُ، التَّشْبِيهُ، الاِسْتِعَارَةُ، التَّوْرِيَةُ، التَّجْرِيدُ، التَّجْنِيسُ، الطِّبَاقُ، الْمُقَابَلَةُ، إِلْجَامُ الْخَصْمِ بِالْحُجَّةِ، التَّقْسِيمُ، التَّعْدِيدُ، مُقَابَلَةُ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ »[1].

بَلاغةُ العُموم في ميزان البلاغَة: مِن بَلاغَة المُتكلّم إلى بَلاغة العُموم:

بَلاغةُ العُموم لَها وزنٌ واعتبارٌ، ولها أثرٌ في الحُكم النّقديّ، والفعلُ النّقدي هو التّصفيق، أو بَلاغة التصفيق، فَلتصفيق الجُمهور بَلاغَةٌ لا يُدركُها إلاّ من ألهِمَ علمَ البلاغةِ الجديدةِ. ولا نَنْسَ أنّ في العُموم رَعاعاً وغَوغاءَ وعَوامَّ وأمّيّينَ لا يَقرؤون ولا يَكتُبون، لا يُهِمُّ فالقراءَة والكتابَةُ مَعاييرُ قديمةٌ مُتجاوَزَةٌ. المهِمّ أنّ العُمومَ حَكَمٌ، وفيهم السّوقَةُ والأمّيّونَ؛

---

[1] **البُرهان في عُلوم القرآن**، بَدر الدّين الزّركشي، تح. محمّد أبو الفَضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرَة، ط.3. 1404-1984، النوع السادس والأربعون: في أساليب القُرآن: ص:382-383.

فإذا صفَّقوا فإنَ في تصفيقهم بلاغةً، فهُم بُلغاءُ بالفطرة، يُسهمون في بلاغةِ الحَدَث، لأنّهم يُصدرونَ حُكماً نقدياً على العمل الذي يُشاهدونَه، عندَما يصفّقونَ أو يصفرون، فتصفيقُهم نجاحٌ للعمَل المَعْروض، وشهادةٌ ووسامٌ يُوشَّحُ به العارضُ فنَه أو أدبَه، وصفيرُهُم شهادةٌ عليه وفشلٌ له، فصفيرُ العُموم ومُكاؤُهم وتصديتُهم أحكامٌ نقديّةٌ تخرجُ من حدِّ الحركةِ إلى حدّ النّقد العلميّ وحدّ البلاغَة، فذلكَ ملمحٌ من مَلامح البلاغَة الجَديدة، لا تنفعُ هنا مَفاهيمُ البلاغَة القديمةِ، فهي مَفاهيمُ عتيقةٌ لا تصلُحُ اليومَ، ولا تُناسبُ ما أصابَ الأدبَ وأجناسَه المُحتَرَمَة من تغيير، ولكنَ بلاغةَ التصفيق أشركَت عُمومَ النّاسِ على عِلاّتِه، في صُنع أدبِه ونقدِه وبَلاغتِه.

قدْ يُقالُ: لقَد أسأتَ إلى عُموم النّاسِ إذْ نَعَتَّ طَرَفاً منه بالسّوقيّة، أليسَ فيهم رجلٌ رشيدٌ؟ والجَوابُ أنّ الجمعَ بين السّوقيّة ومُصطلَح البلاغَة إسفافٌ يخرجُ من حدِّ الجودةِ إلى حدِّ الرّداءةِ، إنّ الجمعَ بين مُصطلَح البلاغَة الذي اقْترنَ في تاريخ الثّقافَة الإنسانيّة بجمالِ النّظمِ وجَمالِ الغَرَض وجمالِ المَعاني، وبينَ العُمومِ الذي ليسَ له نَسَقٌ واحدٌ يضبطُ رؤيتَه ومُيولَه وأذواقَه ومَعاييرَه العلميّةَ، جمعٌ بين مُتناقضَيْن أو شَبيه بالمُتناقضَيْن، فمِنْ صِفاتِ العُموم المُطلَق غير المُقيّد أن توجَدَ فيهم صفةُ الغَوْغائيّة، المُسْتَعارَةُ من عالَم الجَرادِ إذا ماجَ بعضُه في بَعضٍ قبل أن يَطيرَ، أو حينَ يَخِفُّ للطَّيرانِ، ثم اسْتُعيرَ للسَّفلةِ والمُتَسَرِّعين إلى ما لا يُحمَدُ.

ولكنْ، قدْ يُقالُ: هَبْ أنَّ العُمومَ صفّقَ عن وعيٍ وإدْراكٍ، وليسَ عن اتّباعٍ وتَقْليد، فماذا تُسمّي هذا؟ أليسَ التّصفيقُ من صَميم بَلاغة العُموم؟ أَلَيسَت هذه البلاغةُ الجديدةُ إنّما تأتي جدّتُها من أنّها تَسعى للتّأثير في عامّةِ النّاسِ، وتُعْنى أشدَّ العنايةِ بطريقَةِ اسْتجابَتهم لخطابِ المتكلّمِ أو المبدعِ؟

والجوابُ أنَ الذي فهِمْناه من هذا المُصطلَح الجديد أنّ بلاغَة العُموم تقومُ على أساسٍ واحدٍ لولا وُجودُه لانهارَت بلاغَةُ العُموم، وهذا الأساسُ هو التَّلعُّبُ بعَواطفِ العُموم وتوجيهُه والاستماعُ إلى نَبراتِ تصفيقِه وصفيرِه وإشاراتِ أيديه وعُيونه، Manipulation فالعُمومُ يُسهمُ في بناءِ بلاغةِ المتكلّم يُسهِمُ بالاستهلاكِ ثمّ بالاستجابةِ، ثمّ يُسمُّونَ هذه الاستجابةَ تجاوباً إيجابياً وإسهاماً في الإبداعِ وتَعديلاً في نصّ الكاتبِ وخطاب المتكلّم، ووجهُ الإبداعِ والإسهامِ العامّ: ردُّ الفعل والتأثيرُ في صَرفِ المتكلّم عن أشياءَ كانَ سيُلقيها وحَملِه على إلْقاءِ ما لم يكنْ في حسبانِه إلقاؤُه... أمّا الخطابُ الرّاهن ففيه المتكلّمُ يتكلّم وحدَه ولا يتدخَل

عُمومُ النَاسِ إلاّ في قَوالب تُعيّنُ ومَعاييرَ تُبْنى. فبلاغةُ الأمس بلاغةٌ [متسلِطَة] وبلاغةُ اليوم متحرّرةٌ منطلقةٌ في فضَاء الزّمان والمَكانِ لا يضبطُها ضابطٌ ولا يَحكمُها حاكم. ولستَ عليْها بمُسيطرٍ مَهْما تَبلُغْ مكانتُك في البلاغَة القَديمَة والثّقافَة المَوروثَة.

ثمّ أعودُ إلى البحثِ عن وجه الإبْداع في بلاغَة العُموم، فلا أجدُ إلاّ شيئاً واحداً هو أنّ العُمومَ المُحترَمَ صفّقَ لأنّه هزّته حركةٌ أو كلمةٌ أو إشارةٌ، فغطّت هذه النّادرةُ كلّ شيءٍ ممّا رأى وسَمعَ. فعلمتُ بذلكَ أنّ بلاغةَ العُمومِ استجابةٌ لمنبّه أو انجذابٌ لحافزٍ أو فعلٌ تُجاه إثارةٍ، مَهما يكُنْ مَضمونُها، ومَهْما يكنْ شكلُها، المهمّ أنّ الدّغدغةَ قويّةٌ ولّدت تصفيقاً حاراً فانبجَسَت البلاغةُ في أجْلى صورِها.

ليسَ من شُروط انبِجاسِ البلاغَة وانفجارِ عُيونها أن تكونَ كلّيَةً أو ضمنَ الكلّيَات Universal Rethoric وأن تحدُثَ في أيّ جَمعٍ أو تجمُّعٍ بشريّ في العالَم، أينما تَضعْها تُعطِ النتيجةَ نفسَها، كلاّ. إنّ بلاغةَ العُمومِ لا تُدرَكُ إلاّ في حُدودِ جَمعِها المُصفِّقِ لها، فإذا خرَجَت من ساحتِهم ضعُفَ بَريقُها وانطفأت شَرارتُها البلاغيّةُ، وبَدَت شأناً داخلياً، في عُيونِ ثقافةٍ أخرى، أو رَطانةً في مقاييسِ لُغاتٍ أخرى.

المد الجديد في دراسة البلاغة

المدّ الجديدُ في دراسة البلاغَة يوسّعُ مَدى الرؤيَة ويُدمجُ في المشهَدِ حُقولاً أخرى لم تكنْ مُرتادَةً من قبلُ أو كانَت ممسوسةً مساً خفيفاً. ولكن لا نغفلُ الدّلالةَ الأولى التي كان يُلمّحُ إلَيها البلاغيونَ الأوائل قبل أن تتحوّلَ البلاغَةُ إلى محسّناتٍ أو إضافات إلى جسم المَعْنى، وهذه الدّلالةُ الأولى هي أنّ البلاغةَ كلّ وسيلةٍ لغويّة بلَغت المُخاطَبَ إلى مَعْنى المتكلّم ومَقاصده. ولكنّ ذلك لم يكنْ يَعني أن تنزلَ لغةُ الخطاب إلى حدّ الإسفافِ من غيرَ أن تَحيدَ عن صفةِ البلاغَة وحدِّها ما دامَ الخطابُ البيلغُ مبَلّغاً. كانَت البلاغَة والبلاغُ والتبليغُ والتبيين والبيانُ مَفاهيمَ الأوائلِ على عهد الجاحظ ومَن قبلَه، وهي عندهُم متقاربةُ الدّلالة متظافرةٌ في كشف حُجُب المقاصد وتقريبِ المُخاطَب من عالَم المتكلّم.

هل تدخلُ اليومَ استجاباتُ المُخاطَب، في حدّ البلاغَة، وهل تُعدّ هذه الاستجاباتُ جزءاً من عمليّة التّخاطُب، فلا ندرسُ خطاباً إلاّ بعد النّظر في كلامِ المتكلّم وردّ المُخاطَب، ثم اعتراض المتكلّم ثم جوابِ المُخاطَب... فيصير الخطابُ المدروسُ الحوارَ كلَّه أو حركات

التّعجّب وإشارات الجسم والمُكاء والتّصدية... سواء على الخطاب أ نتهى مرةً واحدةً أم توقّفَ ثمَ استُؤنفَ، أم دَخَلَت في مشهدِ التّخاطُب أطرافٌ أخرى.

إذا تصوّرنا الخطابَ البلاغيَّ مُتشعّباً موزَّعاً بين متكلّم ومُخاطَبٍ وإفاداتٍ واستفادات وردودٍ وإجاباتٍ، وازدادَ الأمرُ اتّساعاً ليشمَلَ متدخّلينَ آخَرين يُناظرونَ أو يُحاورونَ أو يَعترضونَ، منهم الأصحابُ والخُلَطاءُ والشركاءُ والمُعاونونَ على الأمور والخُصومُ، ومَا لا يبلغُه المتكلمُ من حاجات نفسه إلا بغيرِه، وغيرِهم... فإنّ البلاغةَ ستضيعُ حدودُها ورُسومُها وضوابطُها وقواعدُها.

ثم إذا وسّعنا وسائلَ التّخاطُب ولم نكتف بالدّوالّ اللغويّة والتراكيب النّحويّة وأشكال التّعبير اللغويّ المُختلفَة، بل أدخلْنا الوسائلَ السّيميائيّةَ الأخرى من أصناف الدّلالاتِ، مما لا يُصورُه الخطّ، بل تُصوّرُه أدواتٌ أخرى كل أداة منها بائنةٌ في صورتها عن صورة أختها، ومتفاوتةٌ في كشفِ أعيانِ المعاني جملةً، وفي التفسير والتأويل... فسنُصبحُ أمامَ خطاب بلاغي بلا حدود ولا رسوم ولا ضوابطَ ولا قواعدَ، فكيفَ يُعالَج هذا النّسَق الجديدُ إن اتفقنا على وصفه بالنسَقيَة ؟

إعجاز القُرآن ودَعْوى "البَلاغة الجَديدَة"

إلى الذي يجترُّ أقوالَ المؤوِّلة التقليديّينَ قبلَه ويردّد: لغة القرآن عادية وليسَت معجزة:

يبدو أنّ كثيراً من الناسِ مازالَ عندَهُم غموض واضطرابٌ في تصوّر مفهوم الإعجاز عند البلاغيّين، ويخلطونَ بينه وبينَ مفهوم الصّرْفَة، ولا حاجةَ إلى التّذكير بأنّ الإعجاز يُعبّرُ عن تَحدّي القرآن الكريمِ لبُلَغاءِ العربِ وفُصَحائهم أن يأتوا بمثلِه أو بشيء من مثلِه، وقد حاوَلوا محاولاتٍ كثيرةً ولكنّها باءَت بالفشلِ وأتوا بنماذجَ مُضحكةٍ زَعَموا بها أنّهم أتوا بشيء من مثلِه. فالذي لا يُميّزُ بين أسلوب القرآن وبلاغته ونظمه وامتناعه، وبين أساليب الكتّاب والبلاغيين لا يستطيع أن يَفهَمَ الإعجازَ في حقيقته، بل يتطاوَلُ على مُعجزةِ القرآن ويقولُ: لا توجد لغةٌ معجزة، بل يخلطُ بين معجزةِ القرآن الكريم وتَحدّيه وبينَ العَجزِ اللّغويّ، أي يخلط بين جنس اللغة وبين وضع خاصّ من الأوضاع البليغَة التي وُضِعَت في تلك اللّغة. فلا يتكلّمَنّ في العلمِ إلاّ مَن يُحسنُه أمّا مَن يجهَلُ أصولَ الشّيءِ فهو إذا تكلّمَ فيه أتَى بالعَجَبِ.

فإن قالَ إنّ القولَ بالإعجاز وهمٌ وحَجرٌ على اللغة البشريّة وتنكّرٌ للبلاغة الجَديدَة، قلنا له: القول بالوهم والقول بتجاوز البلاغة الجديدة للبلاغة القديمة وغير ذلك يصدقُ

على ما يصنعه البَشَر من أشياء لحاجتهم إليها في عصرهم، فإن هم ذَهبوا ذهبَت أشياؤهم واختُرِعَت أشياء جديدة أو أنظار جديدة أو وسائلُ وأدوات ومفاهيم جديدة... ولكنّ ذلِكَ كلّه لا يصدق على القرآن الكريم ببلاغته وأساليبه ونظمه لأنّه ليس من صنع الناس ولا من وضعهم ولا من وضع الأنبياء أنفسِهم، ومَن أنكر ذلِك ممّن يقول بتاريخانية النص القُرآني ومرحليته فهو مغرّدٌ خارج السَرب، بلا علمٍ، وهنا نقطة الانفصال واستحالَة الاتصال.

سُؤالُ اللغة والبلاغَة قَديمٌ ولا يَبطلُ بظهور البلاغَة الجَديدَة :

ويظلّ سؤالُ اللغة البشريّة إشكالاً كبيراً لم يُحسَم فيه، ولَن يُحسَمَ فيه، ابتداءً ممّا تناوَلَه به الجاحظُ والشافعيَ، ثمّ ابن جنّي وعبد القاهر... ثمّ المدارس اللسانية الحَديثَة ذواتُ النظريات المتنوعة المؤسَّسَةِ على أسس فكرية وفلسفيةٍ.

غيرَ أنّ رأيَ العُلَماءِ القُدَماء المبرّزين ينبغي يؤخذَ بعين الاعتبار، عند الاطّلاع على آراء المُحدَثين وما تَناولوا به الظاهرةَ اللغوية وظاهرةَ المَعْنى وتَوْليد الدَلالة... لأنّ المُحدَثينَ أسقطوا أحمالاً وأثقالاً كثيرةً على الدّرس اللساني الحديث ونَظَروا إلى اللغة بنظرة مُثقلةٍ بالهموم الفلسفيّة والسياسيّة والثقافيّة الكَثيفَة التي تحجبُ غُيومُها بساطةَ اللغةِ البشرية وشفافيتَها ، وهذا ما حاولَ أن يَتَداركَه ويبرهنَ عليه ليكوف وجونسون في تناولهما لمسألة الاستعارَة، من خلال الأمثلَة الكثيرة الواقعيَة التي ضَرَباها للبرهنَة على أصالَة الاستعارَة بدلاً من فرعيتها، وعلى كلّ حال فالبَحثُ اللغويّ أو الدّرسُ اللسانيّ الحَديثُ غَرقَ في التأويل الفلسفيّ حتّى النخاع، وفُرِضَ على كلّ مَن أراد أن يتعرّفَ إلى الظّاهرةِ اللغوية أن يستعير نَظّارات الفَلاسفةِ هيدغر وفيدجنشتاين وبرتراند رَسل والتيارات الفلسفية عامّة.....

تحدث فَلاسفةُ اللغة والمفكّرونَ عن مركزية الاستعارة والمجاز، وأصليتهما في الأطر الفكرية المولّدَة للمَعاني، فليست الاستعارةُ عندهم مشتقّةً، إلى درجة أن تَصوَّرَ "بول ريكور" الاستعارةَ في ذاتِها قصيدةً مضغوطةً مصغّرةً، في كتابه: "**من النص إلى الفعل**"[1]

[1] **Du Texte à L'action – Essais d'herméneutique** Tome 2; Paul Ricoeur Ed. Esprit. Seuil. Paris. 1986

من خطابِ الثَّقافةِ إلى ثَقافةِ الخطابِ:

استعارةُ لسان قومٍ احتباسٌ في نَفَقِ نسَقِهِم واغْتلاقٌ في ضيقِ أفُقِهِم. الخطابُ المُتَداولُ في كلّ أمّةٍ لسانُ ثَقافتِها ومنهجُ تَفكيرِها قبلَ تَعبيرِها، إيجاباً وسلباً؛ فأمّا الخطابُ الموجبُ فهو لسانُ القومِ الأمُّ الناطقُ عنها، غيرُ المُستعارِ ولا المُستوْرَد. وأمّا الخطابُ السالبُ فهو اللسانُ المُستعارُ من أمّة أخرى والمُستوردُ من شعبٍ آخَر ذي ثقافةٍ مختلفةٍ قد يبلُغُ اختلافُها ومُباينتُها لثقافةِ المُستعيرِ المُستوْرِدِ حدَّ التَناقُضِ. وقد يَكونُ هذا الاختيارُ أو الاضطرارُ إلى استعارةِ ألسنةِ الغيرِ، سبباً في هَلاكِ الأمّةِ وانقراضِ فكرِها وبُيودِ ثَقافتِها.

فخطَرُ القضيّةِ يبدأ من مُستصغَرِ الاستعارةِ ليصل إلى مُعظَمِ شررِها: يبدأ من المُصطلحاتِ المُتداولَةِ في أوساطِ الحياةِ العامّةِ وفي المنتدياتِ الثَّقافيةِ والمؤسَّساتِ الاجتماعيّةِ والسياسيّةِ والاقتصاديّةِ والثَّقافيّة والتّعليميّةِ، بل في الشأنِ العامّ كلّه، فما من مُصطلحٍ مُتداولٍ في هذه المجموعاتِ المُتباينةِ -من أولِ قَطرٍ إلى مُنْهَمِل- إلاّ ويُخفي خلفَه مَفْهوماتٍ ذهنيّةً هي أساليبُ تفكيرٍ وطرُقُ اختيارٍ ومُيولٌ وأذواقٌ. فإذا أطْلِقَ اللفظُ اقتُطِعَ من عالَمِ المَفاهيمِ قطعةٌ ذاتُ أبعادٍ وأشكالٍ وصورٍ ومَعانٍ ومَذاهبَ في القولِ والفعلِ والحياةِ، وكانَ اللفظُ من تلكَ المفاهيمِ والمَعاني بمَثابةِ الكُوّةِ التي تُطلعُ الناطقَ باللفظِ المُتداولِ له على ما يُريدُه له اللفظُ ويدلُّه عليه لا غير، وتُخفي عنه ما غابَ عن الدّلالَةِ ولم يَدخلْ في حيِّزِها.

يَتَحصّلُ من ذلكَ كلِّه أنّ فكرَ الأمّةِ وأسلوبَ حياتِها وثقافتِها سجينُ نسَقِ المَفاهيمِ المُتداوَلَةِ المَدْلولِ عليها بالألفاظِ المُستعملَةِ فالألفاظ والعباراتُ والمُصطلَحاتُ تُنشئُ نظاماً وتَبْني نسَقاً يتحرّكُ في باطنِه مُستعمِلُ اللفظِ مُستهلِكُ المُصطلَح، وينتهي أمرُ الاحتباسِ في نَفَقِ النَّسَقِ إلى اتّساعِه عندَ قومِه ومدّه بشروطِ الحَياةِ وأسبابِ الانتشار والتَّعميرِ، وانحسارِه عند مستعيره وتقلُّصِه وبدايةِ أفولِ نجمِه وانقِراضِه.

ومن نافلةِ القولِ في هذا السياقِ التَذكيرُ بأهمّيةِ معرفَةِ لسان أقوامٍ وثقافاتٍ بل إتقانِها كلّما ارتقَوا في سلّم الثّقافاتِ والحَضاراتِ والفكرِ، فهو واقع لا ينبغي دفعُه وواجبٌ يتعيّنُ النّهوضُ به وتوكيلُ مَن يتفرّغُ له ويتخصصُ فيه. فلا يُجادلُ اليومَ أحدٌ في أنّ اللّسانَ الإنجليزيّ -بعدَ اللسانِ العربيّ المُبين- يتعيّنُ تعلّمُه وإتقانُه لأنّه صارَ المسلكَ المُبلّغَ للثقافَة اليومَ والرّابطَ الواصلَ بين المُتحاورينَ الذينَ يحرصونَ على نشرِ ثقافتِهم والتّعريف بأنفسِهم وإفادَة البشريّة بإسهامهم والإعرابِ عن ذواتهم ومواقفهم وتبليغ العالَم شكواهُم عند انتهاكِ حُقوقِهِم في ديارهِم

وهكذا، فالمُنكَرُ في القضيّةِ أن تَستعيرَ لساناً غريباً عن ذاتِكَ التي بينَ جنبَيْكَ على حسابِ لسانِكَ، للتعبيرِ عن الذّاتِ وأن تتقمَّصَ قِناعاً أجنبياً بدلاً من لَبوسِكَ الأصليّ، للتواصُل مع بَني لسانكَ، وإبداءِ الرأي والحِجاجِ المُستَميت أمامَهُم، فَمن الحُمُقِ والرأي الأخرَقِ أن تقتبسَ أسلوبَ تفكيرٍ ومَنهجَ حياةٍ بعُجَرِها وبُجَرِها غيرَ أسلوب ثقافتك ولسانكَ، للإعراب لَهُم عن أسلوبِ حياتِك وجُذورِك التي انتَعَشَ منها غرسُك. ومن مُحْصَدِ الرّأي ومُحكَمِه وسَديدِه مُخاطَبَةُ أهلِ كلِّ لسانٍ بلسانِهم والتزامُ المتكلِّم بذلِك مَع مُحاوَريه من بني قومِه

في النص والكليات اللغوية

تأمُّل في اللغة والذّهن والتّواصُل :

هل اللغةُ أداةٌ للتواصُل والتّداوُل، ولَم توجَدْ لمّا نشأتْ إلاّ لذاكَ؟

الظّاهرُ أنّ حصرَ اللغةِ في الغايةِ التّواصليّةِ اختزالٌ لَها وحصرٌ مُجحِفٌ، لأن ادّعاءَ ذلِكَ قَصرٌ للغة على مظهرٍ سطحيّ واحدٍ [تَسطيح] وزعمٌ بوحدةِ البُعدِ، وإلغاءٌ للأبعادِ الأُخْرى وزَوايا النّظرِ الكَثيرَةِ، التي يَجمعُها ويوحّدُها أنّ اللغة قُدرةٌ ومَلَكَةٌ ومَهارةٌ باطنةٌ في المَرْءِ، اللغةُ ملَكَة نفسيّة عَميقةُ الجُذور ومُشتبكةٌ معَ المَلَكات النفسيّة الأخرى، فلا قدرةَ على عَزلِ ما هو نَفْسي ذِهْنِيٌّ عَمّا هُوَ لغويّ منها، وإذا ادّعَينا أنّ اللغة أداةُ تَواصُل فليسَ بصيغة الإطلاقِ، بل ينبغي أن نتصوّرَ التواصُلَ والحجاجَ والتبليغَ وَسائلَ خارجيّةً تُحرّكُ المَلَكَة الباطنةَ وتُتيحُ لها تشكُّلاتٍ متنوّعةً وظُهوراً بمَظاهرَ شَتّى، وبما أنّ اللغةَ البشريّةَ تتضمّنُ طاقةً إبداعيّةً مُضْمَرةً هائلةً وقُدراتٍ لا تَنتهي ولا تَنحصرُ بانحصارِ المَقاماتِ الخارجيّة والمُثيراتِ: فإنّك تَجد لها قابليّةً هائلةً للتلاؤُم والتناسُب مع الأوضاع الخارجيّةِ والمُطابَقة بين بنياتها وبنيات المَقامِ، والاشتباك بعناصر تداوليّة واجتماعيّةٍ خارجيّةٍ. فيُساعدُ الدّاخلُ الذي هو بنياتُ اللغة [وهو الأصلُ في الخَلْق البَشَريّ والذّكاءِ البَشَريّ] الخارجيَّ الذي هو الأحداثُ ودَواعي التّعبيرِ، فتنشطُ البنياتُ اللغويّة عندَ اقترانها بالبنياتِ الاجتماعيّة والثقافيّةِ الخارجيّةِ[1]، والمَعْلومُ أنّ البنياتِ اللغويّةَ لا تتحرّكُ ولا تَقْترنُ بالمُثيراتِ المَقاميّةِ إلاّ بعدَ أن تَستندَ قَبْلاً إلى البنياتِ الذّهنيّةِ والأنساق العَقْليّةِ، فنحنُ إذنْ، أمامَ أبْعادٍ ثَلاثَةٍ عندَ حَديثنا عن البنياتِ اللغَويّةِ، وإذا قَصرْنا اللغة على مَفْهومِ الوظيفيّة Functionnality فسنُهملُ -جَهْلا منّا وغفلةً- مُتعلّقاتها الذّهنيّة والنّفسيّة، وهذا خطأ ارتكَبَه الوظيفيّون السّابقونَ وارتَكَبَ بعضَه التّداوليّون عندَما قَصَروا خطابَهُم العلميّ على البُعد الاجتماعيّ الواحدِ، وأغفَلوا هذه المَلَكَة العَظيمَةَ

---

[1] صناعَة النصوص تابعة لصناعة المعنى داخل المجتمَع: تحدّثَ اللسانيونَ الاجتماعيّونَ عن تَحليل النّصّ مع اعتبارِ نتائجه الاجتماعيّة، وذكَروا أنّ النتائجَ الاجتماعيّةَ تنبعُ من سَيْرورةِ صناعةِ المَعْنى، فآثارُ النصّ الاجتماعيّةُ تَبدو من خلالِ عمليّة صناعةِ المَعْنى، أو بعبارة أخرى: إنّ المَعاني هي التي تمتلك النتائجَ الاجتماعيةَ والمآلات الاجتماعيّةَ وليسَت النصوص في ذاتها هي التي تَمتلكُ الآثارَ الاجتماعيّةَ، وأهمّ ما يُمكن عَمَلُه في رَصدِ سَيْرورةِ صناعةِ المَعْنى وتتبعُ تَولُّدِه وانتقاله: القُدرةُ على بيان النصوص وتوضيحها بُغيةَ تَوضيح إسهامها في سَيرورة صناعة المَعْنى.

Fairclough , Norman 2003 : **Aalysing Discours : Textual Analysis for social research,** Rourtledge, a Member of the Taylor & Francis Group All Rights Reserved, London , p:11.

التي تُرسلُ إشاراتٍ بامتلاكِ المرءِ نُبوغاً وعبقريَةً لا حُدودَ لها، وامتلاكِها في ذاتها نشاطاً حراً وقُدرةً هائلةً على التغيُّر [لا التَطوُّر: فالذي يتطوَّرُ هو القُدرةُ اللغويّةُ لا اللغةُ] والانسيابِ مع الدَواعي والأحداث والتّجاربِ والغَوصِ في أدقَ مواقفِ التَعبير النَفسيّ والفكريّ، إنَ اللغةَ وُجدَت لإنتاجِ الفكرِ وصياغتِه ولم توجَد لتكونَ أداةً كأدوات الحِرَفيّينَ، لأنَ الإنسانَ يشتَملُ على أنظمة تَواصُلٍ متعدّدةٍ غير أنّ اللغةَ أرقاها لأنها متلبّسةٌ بالوظائفِ الذّهنيّة والمَلَكات النَفسيّة التي جَعلَت من اللغةِ المَهارةَ الأرقى والطّريقةَ المُثلى، فلو تأمّلتَ طريقةَ تَصميم اللغةِ المُعقّدَ في الذّهنِ البشريّ لَوَجَدْتَ أنّ إخْراجَها والتّوسُّلَ بها جانبٌ ضئيلٌ جداً لا يَكادُ يُوازَنُ بما للغةِ من قُوّةٍ على إنتاجِ الأفكارِ وتفسيرِ طريقَة الإنتاجِ، أمّا الطّريقةُ التي تَخرجُ بها من جهازِ النّطقِ على هَيْئةٍ بنياتٍ صوتيّةٍ مختلفةٍ من لغةٍ إلى أخْرى فهي الجُزْءُ الأصغرُ في موضوع اللغة والحَديثِ عن اللغةِ. والغَريبُ في الأمر أننا لا نتحدّثُ عن اللغةِ -في اللغويّاتِ القَديمَة وبعض الاتجاهات المُعاصرَة- إلاّ بعدَ خُروجها وإخْراجها على هيئة أصواتٍ وبنيات صرفيّة وتَركيبيّةٍ، ولا نتحدّثُ عن أشكال لغويّةٍ أخرى لا تَكادُ تنحصرُ في التّعبير عن الدّاخلِ. لا نتحدّثُ عن أشكالٍ أخْرى حسّيّةٍ غيرِ صوتيّةٍ وعن إشاراتٍ مَرئيّةٍ، فهي أشكالٌ تعبيريّةٌ غيرُ مستقلّةٍ عن اللغةِ بل هي متّصلةٌ اتصالاً شديداً بها، اتّصالاً يمرّ عبر القَنواتِ الذّهنيّة والمَسالك العَقليّة قبلَ الخُروج إلى الدّلالَة على الأشياءِ. اللغة في نهايةِ المَطافِ نظامُ إنتاجٍ وابتكارٍ، وتَفسيرٌ للذّهنِ.

المبادئ الكلية والقَواعد اللغوية

-1-

قال لي صاحبي وهو يُحاورُني متسائلاً: هل بُرمِجَ عقلُ الإنسان بالقواعد قبل الولادة؟ أيتكلم الإنسان بقواعد مسبقة في ذهنه أم يتكلم تحت رعاية الاحتياج المعنوي وعلامات أمن اللبس؟

ثم أجابَ عن سُؤال نفسِه قائلاً: الذي يبدو لي أن الإنسانَ لا يتحدثُ بقواعدَ مسبقةٍ وإنما يتكلم تحت رعاية الاحتياج المعنوي وعلامات أمن اللبس، للأسباب التالية :

1- إذا افترضنا أن الإنسان يتحدث بواسطة القواعد المبرمجة سلفا قبل ولادته فهذا يعني أن تتشابه أقوال جميع البشر الذين يتكلمون لغة معينة كالعربية...

2- واختلاف الحاجات المعنوية كذلك يؤدي إلى ظهور القواعد المركبة ،وهذا ما حصل في النحو العربي ،لأن الإنسان لا يتكلم وفق القوانين الصارمة ، والثابت لا يتحكم في المطلق ،واللغة لا نهائية. ولو جهّز العقل سلفا بالقواعد لما رأينا التطور في القاعدة النحوية على مر الزمن.

3- كما أن الصبي الصغير لا يتكلم اللغة الفصحى وفق القواعد التي جهَز بها عقله سلفا، بل هو يتعلم من البيئة التي يعيش فيها.

4- وهذا يؤيده قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وتربيت في بني سعد فأنَّى لي اللحن" والرسول الكريم لا ينطق عن الهوى

5- ويؤيده كذلك طلبه-صلى الله عليه وسلم- من زيد بن ثابت الأنصاري بتعلم لغة اليهود. وهذا يعني أن اللغة ثقافة وليست قواعد معدة سلفا في عقل المتكلم.

6- ويؤيده قولُ الأوائلِ: "رَوُّوا أبناءكم الشعر تعذبْ ألسنتُهم"[1] . ولو كانت عقولهم مبرمجة بالقواعد مسبقا لما سمعنا هذا الكلام.

7- كما أن ظهور اللحن ينفي وجود القواعد المسبقة في ذهن المتكلم.

8- بالإضافة إلى أن الإنسان قد يتكلم أكثر من لغة .فهل عقله مزوَّد بقواعد اللغات التي يتحدثها جميعا .

9- بالإضافة إلى تمايز نثر وشعر العرب من حيث الجودة والرداءة . وهذا نابع من تغير ثقافاتهم واحتياجاتهم وعقولهم وملكاتهم .

[1] نُسبَ القولُ إلى عَبد المَلك بن مَروانَ قاله لمؤدِّبِ ولَدِه: **العِقْد الفَريد**، لأحمدَ بن محمد بن عبدِ ربِّه الأندلسيّ (ت.328هـ). تحقيق: عبد المَجيد التَرحيني. دار الكُتب العلميَة. بيروت. 1404-1983. ط.1. ج:6. ص:124. ونَسَبَه ابنُ رشيق إلى العُمَري. بلفظ: " رووا أولادكم الشعر: فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على الخلق الجميل". انظر: **العُمدَة في مَحاسن الشعروآدابه**. لأبي عَليّ الحَسَن بن رَشيق القيرواني (ت.463هـ) ت. محمّد محيي الدّين عَبد الحَميد. دار الجيل. بيروت. 1401-1981. ج:1. ص:30. ونَسَبَه الحسن بن مسعود اليوسي (ت.1102هـ) إلى مُعاوية في: **زهر الأكم في الأمثال والحكم**. ت. محمد حجي ومحمد الأخضر. منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب. الشركة الجديدة. دار الثقافة. الدار البيضاء. المغرب. ط.1. 1401- 1981. ج:1. ص:45.

ولهذه الاسباب أقول: إن الإنسان يتثقفُ لغويا ويتحدثُ بمستويات متعددة وبلغات متعددة، وهو عندما يَقولُ فإنه يَقولُ وهو يفكر ويفكر وهو يقول تحت رعاية الاحتياج المعنوي وعلامات أمن اللبس.

فأما جَوابي عن سؤاله والرَدُّ على جَوابِه فأختصرُه في كلماتٍ تاليةٍ :

تحدَّثَ كثيرٌ من اللّسانيّين المُعاصرينَ عن خُصوصيّة القَواعد وعدَم كلّيّتها، وأغلبُ مَن نَفَوْا وجودَ قواعدَ عامّةٍ، إنّما فعلوا ذلك في سياقِ النّقدِ للنظريّةِ التَوليدية التّحويليّةِ[1] التي يفترضُ فيها شومسكي أنّ اللغاتِ البشريّةَ كافةً مستندةٌ في العُمقِ إلى قَواعدَ نفسيّةٍ ذهنيّةٍ عامّةٍ، ووجَدَ أنه من السّذاجةِ أن نتحدّثَ عن قَواعدَ لغويّةٍ نحوية وصوتية وتركيبية مشتركةٍ؛ فليسَ الاشتراك موجوداً بين الظواهر وإنّما هو في المَبادئ، كما سأوضحُ في الأخير.

فالاختلافُ اللغوي النّحوي والصّرفي والصّوتي بين اللّغاتِ تنوُّعٌ طبيعيّ راجعٌ إلى عَواملَ ثقافيةٍ وتاريخيّةٍ وجغرافيّةٍ هي التي تمنَحُ القَواعدَ الذّهنيّةَ الفطريّةَ سماتٍ وتمثيلاتٍ Represetationsلغويّةً نحويّةً وصرفيّةً. أمّا التّكوينُ البيولوجيّ الأحيائيّ للإنسان فهو واحدٌ وقَواعدُ الإدراك والتمثُّل والتّصوّر واحدةٌ، لولا أنّ عواملَ التّنوعِ والتجربةِ هي التي تخصّصُ العامَّ وتمنحُ القواعدَ وجهاً واقعياً من بين عدّةِ وجوه واقعيّةٍ، والفرقُ بين العام والخاصّ أو بين الكلّيّ والخصوصيّ عبّر عنه شومسكي بالنحو الكليّ والوسائط أو البارامترات التي تنزّلُ الكليّ على الخصوصيّ للحصول على الأنحاء والقَواعد الخاصّة.

ثم إني أُسائلُ: كيفَ نفكّرُ بسذاجةٍ في خصوصيّةِ القَواعدِ عن طريق أقوال وأمثلةٍ لها سياقٌ مختلفٌ، لكي ننفي بسهولةٍ ويُسرٍ قضايا نظريّةً ذاتَ عمقٍ ويَحتاجُ أمرُ نفيها إلى برهنةٍ كبيرةٍ.

-البرهانُ الأول: خذ مثلاً أيّ طفلٍ من أطفال العالَم -قبل مرحلة التعلم اللغوي- من بيئةٍ معينةٍ نشأ فيها وضعْه في بيئة مُختلفةٍ اختلافاً كبيرا ثقافةً وأصواتاً ودلالات... فسَتَرى أنّه سيتعلّم بسرعةٍ فائقةٍ لغةَ البيئةِ الجديدَةِ التي ثَقِفَ لسانَها ونشأ فيها. وهذا أمرٌ لا يحتاجُ إلى أدلّةٍ فما من طفلٍ ولد في كَنَف لغةٍ ونُقلَ إلى كنفِ أخرى قبلَ أن يتلقّى ويتلقّنَ، إلاّ وسيتعلّمُ اللغةَ الثانيةَ من غير أن يعلمَ شيئاً عن اللغة الثانية؛ لأنّ اللغةَ تُكتَسَبُ ولا تورَثُ.

---

[1] Vivian James Cook, Mark Newson, ***Chomsky's universal grammar: anintroduction***, Wiley-Blackwell, 2007

-البُرهان الثاني: كلّ مَولودٍ من بَني البَشَر لا يتلقى اللغةَ التي يسمَعُها وينشأ في كَنَفها إلاّ بناءً على استعدادٍ أحيائيّ Biological competence ولا يُتصوَّرُ الطفلُ صفحةً بيضاءَ أو حجراً غيرَ منقوشٍ؛ بل الطّفلُ يولدُ وهو مزوّدٌ بقواعدَ نفسيّةٍ ذهنيّةٍ أحيائيّةٍ تتناسبُ وتتوافقُ واللغاتِ، وهذا خلافاً للحيوانات، فلا يستطيعُ الببغاء ولا أعلى فصيلَة في القرَدَة ولا غيرهما من الحيوانات أن ينطقَ باللغة أو يتعلمَها بالطّريقَةِ المعقّدة التي يتعلّمُها بها الإنسانُ، لأنّ الإنسانَ يتعلّمُ لغةً من اللغاتِ التي وُضعَ في بيئتها لأنه يملكُ في داخله وسائلَ تعلّمها وهي تلك القَواعد الفطريّة الكلّيَة العامّة المُشتركةُ التي تُمكّنُه من التلاؤم من التجارب الخاصّة، ولا يُتصوَّرُ أن نتساءَلَ بكلّ سذاجةٍ: لِمَ لَم تُعطِنا هذه القَواعدُ المشتركةُ لغاتٍ مُشتركةً؟ فهذا سؤال ساذجٌ لأنّ القواعد كلّما عمَّت وارتفَعَت، ابتعَدَت عن الصبغة المحليةِ واقْتَرَبَت من كلّ الخصائص التي تجمعُ بين البشَرِ. ففي ذلكَ نفيٌ عن الإنسان أن تكونَ قواعدُه موغلةً في الخصوصيّةِ ولُغاتُه مُغرقةً في التنوّع وعدم التّرابُط وعدم الاستنادِ إلى قَواعدَ عامّةٍ . بل القَواعدُ الكليةُ العامَّةُ هي التي توجّه اللغاتِ وتُعيّنُ نوعَ النحو الخاصّ الذي ينبغي أن يوضَعَ لكلّ لغةٍ، وهذه القواعدُ العامّةُ تُدْعى بالمَبادئ Principles وتتعرضُ هذه المَبادئُ إلى وسائطَ لتنزيلِ العامّ على التّجاربِ اللغويّةِ والثقافيّةِ الخاصّة وفي ذلك ردّ على حكايةٍ أن الطفلَ يولَدُ ويكتشفُ فجأةً أن الذي يدفعُه إلى التكلّم هو الحاجةُ المعنويّةُ، وأنّه يفكر وهو يتكلم ويتكلم وهو يفكر. فهذا كلامٌ يحتاجُ إلى تأسيس علميّ وإلى براهينَ أدقّ وأعمَق من حكاية الاحتياج[1]

-2-

التعليقُ الذي كتبتُه رددتُ فيه على دَعْوى قولك: هل بُرمجَ عقلُ الإنسان بالقواعد قبل الولادَة؟

إنّما برهنتُ به على أنّ الإنسانَ عربيا كان أم غير عربي لا يتعلّم اللغةَ وهو خاوي الوفاض، ولا يجنَحُ إلى الأساليبِ والتراكيبِ التي يتعَلّمُها من الكبارِ من تلقاء نفسِه ولكنّه يتعلَمُ ما عُلِمَ بناءً على قَواعدَ سابقةٍ : يحفظُ ما يسمَعُ أو يتقبَّلُه ويستوعبُه تأسيساً على مبادئَ تنشأ معه أو قلْ تنشأ بنشأته؛ فهو يتعلّمُ اللغةَ التي يُلَقَّنُها، بناءً على استعداد فطري سمّاه العلماءُ بالقواعد والمبادئ؛ وقَد سبَقَ لابن جنّيّ في كتاب الخصائص ذي النّظراتِ الذّكيّة الثّاقبَةِ أن مالَ إلى تَفْسير قوله تعالى: «وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها» [البقرَة: جزء من الآيَة:31]، بأنّ الله عزّ وجلَ أقْدَرَ آدمَ على التّعلّم. ومعنى كلامِ ابن جني أنّ الإنسانَ يولَدُ مزوَّداً بالقُدرة على تعلّم أيّة

[1] منهم كلود حجيج وموريس كروس ودعاة اللسانيات النسبيّة؛ انظر في ذلِكَ كتاب: **نظرية اللسانيات النسبية، دَواعي النشأة**، محمد الأوراغي، منشورات الاختلاف / ار الأمان الرباط، 1431-2010

لغةٍ نشأ في كَنَفِها، وقادراً على المُواضَعَة عليْها. ولا ينشأ عالماً بالقَواعد أو باللغة التي نشأ فيها، فالقولُ بأنّه نشأ متعلماً اللغةَ وقواعَدَها الخاصةَ افتراض بأن اللغة الخاصّةَ كالعربيّة أو الإنجليزيّة أو غيرهما، وراثيةٌ، ولكنّ التجاربَ تدحض هذا الزعمَ وتُبطِلُه. وقد استبعَدَ ابنُ جني من طريقٍ غير مُباشرٍ أن يكونَ آدمُ عليه السلام تعلّمَ أسماءَ جميع المَخلوقات، بجميع اللغات: العربية، والفارسية، والسريانية والعبرية، والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات، وأنّه كان هو ووَلَدُه يتكلمونَ بها، ثم إنّ وَلَدَه تَفَرّقوا في الدّنيا، وعَلِقَ كلٌّ منهُم بلغةٍ من تلكَ اللّغاتِ، فغَلَبَت عليه، واضمَحلّ عنه ما سِواها، لبعد عهدهم بها. فهذا تفسيرٌ بعيدٌ لأنّه يَتنافى ومسألة تطوّر اللّغاتِ. أمّا الأمرُ المنطقيُ الواقعيَ فهو القُدرةُ المركوزةُ في النفوسِ؛ فهي قدرةٌ بشريّةٌ كليةٌ ثابتةٌ مزوّدةٌ بخصائصِ تعلّم اللغاتِ: ففي هذا الإطارِ تستطيعُ أن تتكلّم عن علاقةِ القدرةِ -بما هي قواعدُ ذهنيّةٌ نفسيّةٌ كلّيّة أو مبادئُ ذهنيّةٌ نفسيّةٌ كلّيّة: وتستطيعُ في هذا الإطارِ المنطقيَ الواقعيَ أن تَقولَ إنّ الطّفلَ العربيَّ يتعلّمُ اللغةَ التي نشأ في بيئتها وهي العربيّةُ بسرعةٍ كالتي يتعلّمُها بها غيرُه ممَن نَشَؤوا في كنفِ لغاتٍ أخرى أمّا النحويّونَ ففي التعاريفِ التي وصلتْنا عن علم النّحو والقَواعدِ، منذ القرون الأولى لوضع النّحو، فتُفيدُ أنّ النحويين الأوائلَ لم يخترعوا القَواعدَ ولم يصطنعوا الأنساقَ المنطقيّةَ ولم يَفْتَروا على اللغةِ وإنّما نظروا فيها وحاولوا أن يستخرجوا العلاقاتِ التي تشدّ أجزاءَها بعضَها ببعضٍ. وقاموا بما استطاعوا من استقراءِ الأوجه والخصائصِ المشتركة المتشابهةِ فوضعوا لكلّ سلوك عامّ مشتركٍ قاعدةً، وقاسوا ما غابَ عنهم على ما اطّردَ الحُكمُ فيه أمامَهُم وهم يَنظُرونَ في ظواهرِ العربيّةِ وشواهدِها. والدّليلُ على فعلِهم هذا أنّك إذا تأمّلْتَ في أبوابِ كتابِ سيبويْه ومسائلِه النّحويّةِ والصرفيّةِ والدّلاليّة، بعيْن، وألقيتَ عيناً أخرى على شواهد العرب وكلامها وخُطَبِها، وجدْتَ أنّ ما تَرَكَه سيبويْه من كلامٍ إنّما هو وصفٌ واعٍ عالمٌ ذكيٌّ لما غابَ عن القارئ المتوسّط من أنساقٍ وعلاقات وقَواعدَ وعللٍ واقعيّة...

فأنت تَرى ههنا أننَا لا نفرُّ كما زعمتَ ولا نعمّمُ كما ادّعيْتَ وإنّما ربطْنا القَواعدَ الفطريّةَ بالقواعدِ النحويّة وبيّنّا كيفَ تتحكّمُ تلك القَواعدُ الأولى أو المَبادئُ الأولى في نشأة أنساق اللغاتِ وقواعدِها التركيبية والصرفية قبلَ أن يأتي النحاةُ ليستخرجوها ويقيسوا عليْها

-3-

أقولُ بعد الذي ذكرتُه في الجوابِ السابقِ، وبالله التّوفيقُ :

تُعَدّ اللُّغَةُ مَلَكَةً قائِمَةً في نَفْسِ الْمُتَكَلِّمِ، الذي يولَدُ مُزَوَّدًا بِها ومُهَيَّأً لِتَعَلُّمِ أصْواتِها وتَراكيبِها ودلالاتِها، وذلِك لِما يوجَدُ مِنْ تَوافُقٍ بَيْنَ مَبادِئِ اللُّغَةِ وكُلِّيَاتِها وبَيْنَ اللُّغاتِ البَشَرِيَّةِ المُتَنَوِّعَةِ.

لَقَدْ عايَنَ العُلَماءُ العَرَبُ والمُسْلِمونَ هذِهِ القَضِيَّةَ، وَ يُسْتَنْبَطُ مِنْ مُعالَجَتِهِمْ لِلْمَلَكَةِاللُّغَوِيَّةِ القائِمَةِ في نُفوسِ الْمُتَكَلِّمينَ أَنَّها قائِمَةٌ عَلى مَبادِئَ عامَّةٍ تُؤَثِّرُ في قِيامِ الْمَلَكَةِ؛ وهِيَ مَبادِئُ نَفْسِيَّةٌ واجْتِماعِيَّةٌ تَتَّصِلُ بِضَرورَةِ الاجْتِماعِ وَ التَّواصُلِ والْحاجَةِ إِلى وَضْعٍ لُغَوِيٍّ لِلتَّداوُلِ، يَغْتَرِفُ مِنْ قُوى الْمَعْرِفَةِ وَ التَعَلُّمِ النَفْسِيَّةِ الْباطِنِيَّةِ التي يَشْتَمِلُ عَلَيْها الإِنْسانُ بِالْقوَّةِ والْفِطْرَةِ، وهِيَ القُوى التي تَتَرَتَّبُ عَلَيْها الْمَعْرِفَةُ المُحَصَّلَةُ الْمُكْتَسَبَةُ. وقَدْ تَحَدَّثَ الْمَناطِقَةُ وَ الْمُفَكِّرونَ الْعَرَبُ عَنِ «الْعِلْمِ الأَوَّلِ» و«الْعُلومِ الأَوَّلِيَّةِ» و«الْعِلْمِ السّابِقِ»؛ يَقولُ ابْنُ سينا في هذا الْمَعْنى: «وكُلُّ تَعْليمٍ وتَعَلُّمٍ ذِهْنِيٍّ وفِكْرِيٍّ، فَإِنَّما يَحْصُلُ بِعِلْمٍ قَدْ سَبَقَ: وذلِكَ لأَنَّ التَّصْديقَ والتَّصَوُّرَ الْكائِنَيْنِ بِهِما إِنَّما يَكونانِ بَعْدَ قَوْلٍ –قَدْ تَقَدَّمَ– مَسْموعٍ أَوْ مَعْقولٍ ويَجِبُ أَنْ يَكونَ ذلِكَ الْقَوْلُ مَعْلومًا أَوَّلاً، ويَجِبُ أَنْ يَكونَ مَعْلومًا لا كَيْفَ اتّفق، بَلْ مِنْ جِهَةٍ ما مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكونَ عِلْمًا ما بِالْمَطْلوبِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْفِعْلِ فَبِالْقُوَّةِ وفي الصِّناعاتِ الْعَمَلِيَّةِ أَيْضًا إِنَّما يُتَوَصَّلُ [إِلى] التَّعْليمِ والتَّعَلُّمِ مِنْ عِلْمٍ مُتَقَدِّمٍ »

وقَدْ فَرَّقَ ابْنُ رُشْدٍ بَيْنَ وَحْدَةِ الْمَعاني في النَّفْسِ وَ اخْتِلافِ الدَّوالِّ التي تَدُلُّ عَلَيْها: «إِنَّ الأَلْفاظَ التي يُنْطَقُ بِها، هِيَ دالَّةٌ أَوَّلاً عَلى الْمَعاني التي في النَّفْسِ، والْحُروفُ التي تكْتبُ هِيَ دالَّةٌ أَوَّلاً عَلى هذِهِ الأَلْفاظِ، وكَما أَنَّ الْحُروفَ الْمَكْتوبَةَ – أَعْني الْخَطَّ – لَيْسَ هُوَ واحِدًا بِعَيْنِهِ لِجَميعِ الأُمَمِ، كَذلِكَ الأَلْفاظُ التي يُعَبَّرُ بِها عَنِ الْمَعاني لَيْسَتْ واحِدَةً بِعَيْنِها عِنْدَ جَميعِ الأُمَمِ [...] وَ أَمّا الْمَعاني التي في النَّفْسِ فَهِيَ واحِدَةٌ بِعَيْنِها لِلْجَميعِ، كَما أَنَّ الْمَوْجوداتِ التي الْمَعاني التي في النَّفْسِ أَمْثِلَةٌ لَها وَ دالَّةٌ عَلَيْها هِيَ واحِدَةٌ وَ مَوْجودَةٌ بِالطَّبْعِ لِلْجَميعِ ».

وأَثْبَتَ الْقاضي عَبْدُ الْجَبّارِ أَنَّ «العِلْمَ الضَّرورِيَّ لا يَقَعُ بِحُجَّةٍ» و«أَنَّ ذلِكَ يَقَعُ مُبْتَدَأً»؛ لأَنَّهُ عِبارَةٌ عَنْ أَوائِلَ لا يُبَرْهَنُ عَلَيْها، وَ تُتَّخَذُ مُقَدِّماتٍ وَ أُصولاً يُتَوَصَّلُ مِنْها إِلى اكْتِسابِ عِلْمٍ جَديدٍ.

إنَّ الْحَديثَ عَنِ الْمَعْرفَةِ الْفِطْرِيَّةِ لَدى الْمُتَكَلِّمِ هُوَ حَديثٌ عَنْ مَفْهومِ النِّظامِ الْمَعْرِفِيِّ وما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِن اسْتِعْمالٍ لُغَوِيٍّ وَ اخْتِيارٍ وَ إرادَةٍ وَ مُشارَكَةٍ مَقامِيَّةٍ في بَثِّ الْكَلامِ وَ اسْتِقْبالِهِ . وقَدْ عَرَّفَ السُّهَيْلِيُّ صِفَةَ الْفِطْرَةِ الْكَلامِيَّةِ وصِفَةَ الْمُشارَكَةِ الْمُتَكَلِّمِيَّةِ بِقَوْلِهِ: «الْكَلامُ صِفَةٌ قائِمَةٌ بِنَفْسِ الْمُتَكَلِّمِ يُعَبِّرُ لِلْمُخاطَبِ عَنْهُ بِلَفْظٍ أَوْ لَحْظٍ أوْ خَطٍّ ... ». فالْمُتَكَلِّمُ بهذا المعْنى مُعَدٌّ لإرْسالِ الْكَلامِ واسْتِقْبالِهِ إعْدادًا فِطْرِيًّا، ومُزَوَّدٌ بِأَدَواتِ إرْسالٍ واسْتِقْبالٍ مَرْكوزَةٍ في نَفْسِهِ وقائِمَة عِلَلُها في عَقْلِهِ وحِسِّهِ[1]

-4-

مصادر ومراجع في الجوامع المشتركة بين اللغويات العربية القديمة والمراجع اللسانية الحديثة:

حُرِّرَتْ في مَوْضوعِ التَّناظُرِ بَيْنَ جَوانِبَ مِنَ اللُّغَوِيّاتِ الْمُعاصِرَةِ وَ أُخْرى مِنَ اللُّغَوِيّاتِ الْعَرَبِيَّةِ [نَحْوًا أَوْ لِسانًا] مَعَ اخْتِلافٍ في الْمَناهِجِ وَ طُرُقِ الْعَرْضِ وَ لُغَةِ التَّأْليفِ، كُتُبٌ وَ مَقالاتٌ عَديدَةٌ يَعْسرُ حَصْرُها، ومِمّا أُلِّفَ في الْمَوْضوعِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلى سَبيلِ الْمِثالِ:

- عَبْد الْقادر الفاسي الفهري: اللِّسانياتُ وَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، نَماذِجُ تَرْكيبِيَّةٌ وَ دَلالِيَّةٌ . دار توبقال لِلنَّشْرِ، 1985 (جزءان)

- أَحْمَد الْمُتَوَكِّل: دِراساتٌ في نَحْوِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْوَظيفِيِّ. دار الثَّقافة. الدّار البيضاء 1986.
– نِهاد الموسى: نَظَرِيَّةُ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ في ضَوْءِ مناهِجِ النَّظَرِ اللُّغَوِيِّ الْحَديثِ. دار البشير، الأردن ط/2، 1987

- خَليل أحمد عَمايره : رَأْيٌ في بِناءِ الْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ وَ قَضاياها ، دِراسَة وَصْفِيَّةٌ ، مجلَّةُ التَّواصُلِ اللِّسانيّ ع:1 ، مارس 1990

- مازِن الوَعْر : نَحْوَ نَظَرِيَّةٍ لِسانِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ حَديثَةٍ لِتَحْليلِ التَّراكيبِ الأَساسِيَّةِ في اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . دار طلاس لِلدِراساتِ وَ التَّرْجَمَةِ وَ النَّشْرِ . دِمَشْق ، ط/1 ، 1987

– الرَّشيد أبو بَكْر : اِسْتِخْدامُ التَّحْويلاتِ النَّحْوِيَّةِ في دِراسَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . الْمَجَلَّةُ الْعَرَبِيَّةُ لِلدِّراساتِ اللُّغَوِيَّةِ ، السَّنة 1 ، ع:1، أغسطس 1982

---

[1] يُنظرُ التفصيلُ في كتاب: **من ظَواهر الأشباه والنّظائر بين اللغوياتِ العربيّة والدّرس اللّسانيّ المُعاصر**. عبدالرحمن بودرع. نشر حَوْليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة. جامعة الكويت، 1426-2005م. ص:27-28

– ميشال زكريا : الأَلْسُنِيَّةُ التَّوْليدِيَّةُ وَ التَّحْويلِيَّةُ وَ قَواعِدُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . الْمُؤَسَّسَةُ الجامِعِيَّةُ لِلدِّراساتِ وَ النَّشْرِ وَ التَّوْزيعِ، بَيْروت ، ط/1 ، 1983.

– حِلْمي خَليل : اَلْعَرَبِيَّةُ وَ الْغُموضُ ، دِراساتٌ لُغَوِيَّةٌ في دَلالاتِ الْمَبْنى عَلى الْمَعْنى. دارُ الْمَعْرِفَةِ الْجَامِعِيَّةِ ، الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ط/1، 1988

– عَبْده الرّاجِحي : اَلنَّحْوُ الْعَرَبِيُّ ، بَحْثٌ في الْمَنْهَجِ ، دارُ الْمَعْرِفَةِ الْجامِعِيَّةِ ، الإِسْكَنْدَرِيَّة ، 1988.
–د. محمّد حَماسة عَبْد اللَّطيف : مِنَ الأَنْماطِ التَّحْويلِيَّةِ في النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ ، مَكْتَبَةُ الْخانجِيِّ الْقاهِرة، ط/1 1990

– حُسام البهْنساوِيّ: اَلْقَواعِدُ التَّحْويلِيَّةُ في ديوانِ حاتِمٍ الطّائِيِّ، القاهِرَة: 1992.
–د. محمّد فتيح: [مُقَدِّمَةُ تَرْجَمَتِهِ لِكِتابِ : الْمَعْرِفَة اللُّغَوِيَّةِ، لنوام شومسكي] وَ عَرَضَ في هذه الْمُقَدِّمَةِ أُسَسَ تَعْريبِ النَّظَرِيَّةِ التَّحْويلِيَّةِ: ص: 11-39. دارُ الفِكْرِ الْعَرَبِيِّ، الْقاهِرَة : 1993.

- رَشيد بوزيّان : قِراءاتٌ في اللِّسانِيّاتِ التَّوْليدِيَّةِ : مِنَ الْعامِلِيَّةِ وَ الرَّبْطِ إِلى الْبَرْنامَجِ الأَدْنى، نادكوم 1999 . (في كتابيْنِ) ويُعَدُّ هذا الْكِتابُ دِراسَةً نَظَرِيَّةً وَ إِجْرائِيَّةً في مَوْضوعِ التَّرادُفِ، بَذَلَ فيهِ صاحِبُهُ جُهْدًا مَشْكورًا، وَ أَسَّسَ فيهِ وَضْعًا مُبْتَكَرًا وَ صاغَهُ بِبَلاغَةٍ في الأُسْلوبِ ، ولُطْفٍ في النَّظَرِ وَ الاسْتِنْتاجِ

- وهُناكَ مُقارَباتٌ لِسانِيَّةٌ عَديدَةٌ لِوَصْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، دَلالِيًّا وتَرْكيبِيًّا وتَداوُلِيًّا، انْطَلَقَتْ مِنْ نَماذِجَ لِسانِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ كَنَظَرِيَّةِ الْحَواجِزِ، في اللِّسانِيّاتِ التَّوْليدِيَّةِ، ونَظَرِيَّةِ الرَّبْطِ الْعامِلِيِّ، ونَظَرِيَّةِ الْمَبادِئِ والْوَسائِطِ وَ بَرْنامَجِ الْحُدودِ الدُّنْيا... وَ كِتاباتٌ في مَوْضوعِ الاتِّصالِ والانفصالِ بَيْنَ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ وَ النَّماذِجِ اللِّسانِيَّةِ الْمُعاصِرَةِ... نُشِرَتْ في مَجَلاَّتٍ مُخَصَّصَةٍ لِنَشْرِ أَعْمالِ النَّدَواتِ[1] .

-6-

ما زالَ الكلامُ مُسترسِلاً في الرّدّ على من ادّعى أنّ الكَلامَ يقومُ بالاحتياج المعنويّ و أنْ لا دَخْلَ لقواعد اللغةِ في إقامته وبنائه وتنسيقِه. فالمُجادلُ يتصورُ عبارَاتِ اللغةِ ألفاظاً ومراتبَ فيها تقديم وتأخير وكَفى وأنّ المتكلّمَ كلّما أراد أن يُقدّمَ قدّمَ وكلّما أراد أن يؤخّرَ أخّرَ، بحسبِ ما يعنّ له من غير دَخْلٍ لقواعد اللغة. ولكنّه ينسى أو يتناسى أن الإسنادَ بنية عَميقةٌ تشدّ أركان العبارات. ولولا الإسْنادُ والتركيبُ لانهار بنيان العبارَة ولَمَا ساغَ تقديمٌ ولا تأخيرٌ ولا حذفٌ ولا ذكْرٌ: فالنظمُ والتّركيبُ والإسنادُ أولاً، ثمّ يأتي التفاضُل بين العبارات بالتقديم والتأخير والذكرِ والحذف...

---

[1] مِنْها مَثَلاً : اَللِّسانِيّاتُ وَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ وَ التَّطْبيقِ. من منشورات كلّيّة الآداب بمكناس (1992) ، و[مَكانَةُ الأَنْحاءِ التَّقْليدِيَّةِ في اللِّسانِيّاتِ الْحَديثَةِ] من منشوراتِ كلّيّة الآداب بمكناس 1997

والحَقيقةُ أنّ الرّجمَ بعَصا "الاحتياجِ المَعنويّ" ليسَ طريقةً سديدةً في الاستدلالِ العلميّ والحِجاجِ العقليّ؛ فكلّما اعترَضَ معترضٌ كررَ المُجادلُ الكلمةَ نفسَها، وهذا ما يُدْعى بالدَّوْرِ المُغْلَق أي الكَلام الذي يَدورُ حولَ نفسِه دَوراً مُغلَقاً.

هذا، وإذا سلّمْنا بأنّ اللغةَ أداةٌ للتواصُل والتعبيرِ عن الأفكارِ والأحاسيسِ والحاجاتِ اليوميّة، فإنّ اللّجوءَ إليْها ليسَ خبْطَ عَشْواءَ وليسَ اعتسافاً للطّريقِ وإنّما هو إعمالُ فكرٍ في طريقةِ التعبيرِ؛ لأنّ للتعبيرِ طرُقاً ومَسالكَ لولاها لَما عَبَرَ المتكلّمُ تلكَ المَسالكَ، ولَما عبّرَ عَمّا في نفْسِه ، وهذا أوضَحُ من أن يُستدلّ عليْه. وبه يُرَدّ على حكايَةِ "الحاجةِ المعنويّة" المُهلهلةِ التي لا يحكمُها ضابطٌ.

-7-

ثُمّ بعدَ ذلِك؛ يبدو أن القولَ بخلوّ اللغة من القَواعد ضربٌ من العَبَث لأنه نفيٌ للعلم أصلاً : علم اللغة وعلم النحو في القَديم والحَديثِ. ومَن يُريدُ إثباتَ ظاهرةٍ جزئيةٍ هي جزءٌ من كلّ، إنّما يُحاولُ عبثاً ويَتعامى عن التراكم المعرفيّ الذي أثبَتَه العُلَماءُ قديماً وحَديثاً في الشرق والغربِ، وضربٌ من الهَذيان المعرفيّ. حتّى المَدارس التّداوليّة في اللسانيّات العربيّة والغربيّة على السّواءِ، تُقيّدُ الوَظائفَ التّداوليّةَ بقيود تركيبيّة، فإذا اختلّت القواعد التّركيبيّة تعذّر بيانُ المَعاني والمَقاصدِ والمَقاماتِ، والأمرُ نفسُه يُقالُ عن اللسانيّات التّوليديّة في اتّجاهها الدّلاليّ الذي يَذهبُ إلى مركزيّةِ الدّلالة واشتقاقِ التّركيبِ، لا يُتصوَّرُ قيامُ مَعانٍ دلاليّةٍ خارجَ الإطارِ اللّغويّ المَضبوطِ بضَوابطَ تركيبيّة ، فكيفَ يَدّعي المُجادلُ وحدَه دونَ غيرِه خلوَّ اللغة والاستعمالِ اللغويّ من القَواعدِ. فهَب أنّنا أسقطنا الجانبَ التنظيميّ التّركيبيّ الذي يشدّ البنيانَ اللّغويّ من حيثُ الألفاظ و تراكيبها وروابطها، فماذا سَيبْقى؟ بل مَعْنى ذلك أنّه سينهارُ كلّ شيء، وسنلجأ إلى نظامٍ تواصليّ آخَر هو الإشارات أو غيرها

-8-

قد يقولُ القائلُ: إنّ مسألة الحاجةِ المعنويّة تتحكّمُ في التواصُل اللغويّ و لا حاجةَ للمتكلّمِ إلى قَواعدِ نحوٍ أو صرفٍ ، وإنّما يُختصَرُ الأمرُ كلُّه في مسألة انتِقاءِ الألفاظِ.

والجوابُ عن ذلِك أنّ انتقاءَ لفظ دونَ لفظ إنّما يدخلُ في باب المناسَبَة المعجميّة، وحسْبُ، وهذه المُناسبةُ لا تُسقطُ عن المتكلّم وجوبَ التقيّد بقواعد الإسناد السّليم والتّركيب الصّحيح، سواء عليْه أقدّم وأخّر أم حَذَفَ و ذَكَرَ .... فهو مُلزَمٌ في جميع أحوالِ الكَلامِ

وأوضاعِه بالقواعد على كلّ حالٍ، و لا يُغني الاحتياجُ عن لزوم القَواعد، و إلاّ انحلّ العَقْدُ الذي بين المتكلّم والمُخاطَب وفُقدَ التّفاهُم والتواصُل أما حكايةُ الاحتياج فيعلمها الخاصّ والعامّ ، ولنا في كُتُب التناسُب عند المفسرين مثل الإسكافيّ وابن الزّبيرِ الغرناطيّ وغيْرِهما مَغْنى وكفايَة، وهم أنفسُهم يشترطونَ في المناسَبَة المَقامية تناسُباً آخَر هو التناسُب النحويّ أو التّركيبيّ.

-9-

وهكذا فإنّ حكايةَ الاحتياج المعنويّ مسألةُ مألوفة تتّصلُ بحاجةِ الإنسان إلى التّعبيرِ عن حاجاتِه المادّيّة والنّفسيّة ... وليسَت نظريّة من النّظرياتِ ، ومَن ادّعى أنّ حكاية الاحتياج نظريّةٌ فقَد افْتَرى وزَعَمَ الإتيانَ بجديدٍ، بينَما هو أتى بلفظٍ أجوفَ أو مصطلَحٍ ليسَ تحتَه إلاّ حاجة اللفظ إلى المَعْنى وحاجة المَعْنى إلى اللفظِ المُناسبِ، وقَد هُرِعَ الناسُ في زَماننا هذا إلى لَفْت الأنظارِ بكثرةِ المُصطلحاتِ والألفاظ، والحقيقَة أنّ الحاجةَ المعنويّةَ ليسَت نظريّة ولا قضيّةً ولا شيْئاً من الأشياءِ الجَديدَة، إنّما العبرةُ برغبة الإنسانِ في التواصُل والتعبيرِ ، وانتقائه اللفظَ المناسبَ أو التركيبَ المناسبَ المضبوط بالقَواعد والقُيود، ولو خرَقَ المتكلّمُ القَواعدَ لتعذّرَ على مُخاطَبيه أن يَفهموه ولكانَ أقربَ ما يَكونُ إلى مَن يُحدّثُ نفسَه ويهذي هذَياناً، فلينظرْ هل سيُسعفُه ذلِكَ في تبليغه مَعْناه الذي يَحْتاجُ إليه

-10-

واستأنفتُ مُحاورَةَ صاحبي في الرّدّ على ادّعائه الإتيانَ بنظرية الاحتياج المعنويّ بقولي له: أنت لم تأتِ بنظرية اسمُها الاحتياج المعنوي، ولكنّك نثرتَ خواطرَ متفرقةً في نقد النحو العربي، وفي الطّعنِ على النّحويين، ويحسُن بك أن تعودَ إلى صنفيْن من المراجع لاستكمال هذه الخواطر وتطويرِها بدلاً من أن تُبدئَ وتُعيدَ وتنتهي إلى العبارَة نفسِها، وهي قولُك: فتبيّنَ أنّ الكلامَ يحكمُه الاحتياج.... عليْك بدلاً من الجدالِ الذي لا ينتهي أن ترجعَ إلى صنفيْن أو ثلاثة أصناف من المراجع:

-**أولاً كتب نقد النحو**، فقَد أنجِزَت في نقد النحو العربيّ وما فيه من علل على اختلافها عَشرات المَراجع ، منها ما اتبَع المنهَج الوصفيّ التّيسيريّ، ومنها ما استمدّ من مناهج الدّرس اللغويّ الحَديث...

-ثانياً كتب اللسانيات الحَديثة. خاصّة المتعلّقة بنظريات الدّلالَة والمدارس والاتجاهات التي تربط استعمالَ اللغة بالوَظيفَة. ومن هذه المَدارس الوظيفيّةُ والتّداولياتُ وغيرُها.

-ثالثاً كتب حديثة جدا في نظرية الدلالة التوليدية التي تنتقد التركيبية التوليدية وتميلُ إلى أنّ الدّلالة مركز البنية اللغوية أمّا البنية التّركيبيّة فليسَت إلاّ مشتقّةً من الدّلالَة. وهذه نظريّة متطوّرة صاحبُها هو راي جاكندوف [2002م] من خلال بحثه: الدّلالة مَشروعاً ذهنياً[1].

يتعيّنُ عليك قبلَ أن تتحدّث في ما دعوتَه بنظرية الاحتياج أن تتأمّل في إسهام اللسانيات الحديثَة في تطوير الاهتمام بالدّلالَة وإقامَة اسس نظرية للدلالَة. وهي نظرية سجَلَت تقدّماً هاماً في فهم المَعْنى وكيفية تَوليده أو إنتاجه. فتلك النظرية اجتهَدَت وما زالَت. في وضع مَبادئ نظرية لرصد القواعد المتحكّمَة في تنظيم المَعاني وترتيب المدلولات...

اجتهادٌ ثانٍ يُمكن أن نوسّع فيه النّقاشَ حول المَعْنى وهو الوظائف التداوليّة التي تُسنَد إلى مكونات الجملة، وأنّ هذه الوَظائفَ المتعلقَة بالمَقام والمَقاصد والمُخاطَب هي التي تحدّد نوع الكلمات التي يُركّبُ منها التركيبُ، ونوع الرتَب التي تُرتَّبُ عليْها تلك الكلمات. في هذا الإطار يُمكن أن نتحدّث عن نظرية المَعْنى أو ما دعوتَه بنظرية الحاجَة إلى التعبير عن الدّلالة، أمّا أن تأتي بخواطر متفرقة وملاحَظات حول النصوص وتقول في خاتمة كل مثال مثّلْتَ به أو شاهدٍ زعمْتَ أنّه استدْللْتَ به: « فتبيَّن أنّ الحاجة المعنويّةَ هي التي تتحكّم في القول وليس القواعد » فهذا كلامٌ سطحيّ ساذجٌ لا يستحقّ أن يُنعَتَ بالنّظريّة، وأنصحُك ألاّ تنسبَ إلى نفسِكَ أنّك أنشأتَ نظريةً، لأننا ابتُلينا في زماننا هذا بأنّ كلّ مَن قيّدَ خواطرَ وتوسّع فيها سَمّى ملحوظاته بالنظرية وهذا أمرٌ مثيرٌ للاستغراب .

-11-

وختمْتُ مُحاوَرتي لَه بالرّدّ على زَعمٍ زَعَمَه، قالَ فيه: «من المعروف أن اللغة العامية مستوى متدَنٍ من اللغة العربية، إلا أن المتحدثين بها يتحدثون بها ويتفاهمون فيما بينهم عن طريقها مع افتقارها إلى القواعد وعلامات أمن اللبس...»

[1]R.Jackendoff; **Foundations of language**, Brain, Meaning, Grammar, Evolution
Oxford University Press, 2002

وأتى بكلامٍ ركيكٍ جداً ليُمثّلَ به على القُدرةِ السّريعةِ على التّفاهُم بالعامّيةِ، وعلّقَ على مثالِه المصنوعِ، بقوله: «هذه قصة [...] يقولها العامّي، وهو لا يعرف القواعد، وهي قصة تفتقر إلى القواعد وعلامات أمن اللبس، وهي قصة مفهومة أوردتها لأبرهن على أن اللغة تقوم على الاحتياج المعنوي ،لا على القواعد.» هكذا...

فأجبْتُه بما يَلي: هذا الكَلامُ العامّيّ الطّويلُ الذي جئتَ به للتّمثيلِ على زعمِكَ كلامٌ عربيّ نالَه بعضُ التحريف التركيبي والصوتي، أي إن خروجَه عن القَواعد ظاهرٌ، ولكنّه خروج محدودٌ، ولو جئتَ بجمل عاميةٍ أخرى ابتعَدَت عن القَواعد لرأيتَ أنّها لا يفهمُها إلاّ المتكلمون بتلك العامّية، وكلّما اقتَرَبَت العاميةُ من الفصيحةِ اتّسَعَت قاعدَةُ الفاهمينَ الذي يتلقّونَ جُمَلَها بالقَبول، فالمقياسُ في قَبول الكَلام الاقترابُ من الفصيحَة، أمّا البُعدُ عنها فيحصرُ اللهجةَ في متكلميها المَعْدودينَ المَحْدودين، فالعربيّةُ معيارٌ ضابطٌ لأنّها لغةٌ مضبوطةٌ بالقَواعد، والنتيجَةُ أنّ ما كانَ مضبوطاً بالقَواعد تيسّرَ التواصُلُ به لأنّ اللغةَ المنظّمَةَ بالقَواعدِ ميثاقٌ بين متكلّميها ثمّ إنّكَ تنطلقُ في سؤالك أو في استنكارِك، من منطلقات خاطئة؛ إذ تجعَلُ العربيّةَ لغةً والعامياتِ لغاتٍ أجنبيّةً عنها غريبة عنها كلّ الغَرابَة لا يربطها بها رابطٌ، وكأنّ الناطقينَ بالعربيّة قومٌ والناطقين بالدّوارج قومٌ أجانبُ. هذا هو الخطأ بعيْنه: لأنّ تنظرُ إلى الأمورِ نظرةً آليةً ميكانيكيّةً متصلّبةً، والحقيقةُ أنّ الدّوارجَ متفرّعةٌ عن العربيّة.أصابَها انحرافاتٌ صوتيّةٌ وصرفيّةٌ وتركيبيّةٌ، ولو كانَت الدّوارجُ والفَصيحةُ فصيلَتَيْن لغويتَيْن متباعدَتَيْن كلّ البُعد لَما فَهِمَ العَوامّ نشراتِ الأخبارِ وخُطَبَ الجمعَة والأحاديثَ النبويّةَ .

-12-

وهكذا ، فاللغةُ لا تقومُ على إرادَة المَعْنى مُطْلَقاً كَما زَعَمَ مُحاوِرُنا . فهي لا تقومُ على إرادةِ المَعْنى إلاّ مقيّدَةً بضابط الكَثْرَة والاطّرادِ؛ و من صفتَي الكثرَة والاطّرادِ وُضعَت القواعدُ النحويّةُ. فالنحاة لم يفْتَروا قَواعدَ النحو من عندِ أنفسِهم ولكنّهم استنبَطوها من سُلوكِ اللغةَ مَسالكَ الاطّرادِ . أمّا ما شذّ فلا يُهمَلُ ولكنّه يُسمَعُ ولا يُقاسُ عليْه. وهكذا فإنّ حكايَةَ الحاجَةِ المعنويّة لا مَعْنى لَها إلاّ في ظلّ التّوافُق والانسجامِ مَع القَواعد والضّوابِط.

وأدعوكَ بالمُناسَبَة إلى أن تَعودَ إلى الجهاتِ العشرِ التي يأتي الاعتراضُ على المُعرب من جهتِها . كَما بَسَطَها ابنُ هشام الأنصاري في مُغْني اللبيب. لكي تُدرِكَ بما لا يَدَعُ مَجالاً للشّكّ أنّ تَحكيمَ المَعْنى وحدَه في الفهمِ وإهمالَ قَواعدِ الصّناعَةِ مَزلَقٌ ينحرفُ بالواقعِ فيه عن فهم المَعْنى المُرادِ نفسِه . ومن هذه الجهاتِ:

-أن يراعي المعربُ معنى صحيحاً، ولا ينظرَ في صحته في الصناعةِ [أي في الإعرابِ ومراعاة القَواعد]، ومن ذلِكَ أنَ بعضَ المُعربينَ أعربَ ثَموداً في قوله تَعالى: (وثَموداً فَما أبْقى) مفعول مقدم، وهذا ممتنع لأن ما النافيةَ لها الصّدر وتمنَعُ أن يعمَلَ ما بَعدَها في ما قبلَها، وإنما هو معطوفٌ على عاداً أو هو بتقدير: وأهلك ثموداً

-ومن مَزالقِ المُعربينَ أيضاً أن يُخَرِّجَ المُعربُ الكَلامَ على ما لم يَثبُتْ في العربية، وذلكَ إنما يقع على جهْلٍ أو غفلةٍ

-ومن مَزالقهم أيضاً ألاّ يُراعوا الشروطَ المختلفةَ بسبب الأبواب، فإن العرَبَ يَشترِطونَ في بابٍ شيئاً ويشترطون في آخرَ نقيضَ ذلكَ الشَّيءِ على ما اقتضته حكمةُ لغتِهم وصحيحُ أقيستهم، فإذا لم يتأمل المعربُ اختلطت عليه الأبوابُ والشرائطُ.

وهناك جهاتٌ أخرى بيَّنَ فيها المُصنِّفُ أخطاءَ المُعربينَ في مراعاتِهم الصناعَةَ أو المَعْنى، من غيرِ جمعٍ بينَهُما.

الفصلُ الثاني : النَّصُّ والخِطابُ

- من استراتيجيات الخطاب، أو خطط الخطاب ومواقعه
- الإضافات المَجازيَّةُ أو
- النُّعوتُ، في الخطاب السياسيّ والاجتماعيّ المُعاصر
- بَلاغةُ النّصّ وخِطابُ الأخلاق الاجتماعيّة، في الأمثال العربيّة
- نَسَق النص الشعري والسياق التاريخي

النَّصُ والخِطابُ[1]

النّصُّ وحدةٌ نحويةٌ دلاليةٌ ينتظمُ عناصِرَها اتِّساقٌ نحويٌّ وانسجامٌ فكريٌّ موضوعيّ ومَقصدٌ عامٌّ وإنجازٌ كلاميٌّ أكبر (Macro-act of speech) تنتظمُ فيه أفعالُ الكلامِ الموجودةُ فيه كلُّها. ولكنّ النّصّ لا يقفُ عند هذه الحُدودِ؛ فقد دخَلَت في النّظرِ إلى مَفْهومِ النّصّ مَباحثُ أعلى، تكشفُ عن بنياتِه الكبْرى، كأجناسِ الخطابِ وأنماطِه، وغيْرِها من المَجالاتِ التي تتداخلُ فيها مَباحثُ لسانيّاتِ النّصّ وتَحليل الخطابِ فيما بيْنَها. وقد بَلَغَ أمرُ تعقُّد الظّاهرةِ النّصيّةِ عندَ كثيرٍ من الباحثينَ إلى حدٍّ صَعُبَ مَعه اختزالُ النّصّ في وحدةٍ مُحدّدةِ المَعالمِ تركيباً ومَعْنىً. فكانَ مَفهومُ النّصّ فَتْحاً كبيراً خلَّصَ البحثَ اللّسانيَّ من وطأة الجملةِ، وسَمَحَ بالانفتاحِ على الخطابِ، في أجناسِه وأنماطِه المُختلفة. والنّاتجُ من هذا التّطوّرِ أنّ الخطابَ يَحملُ في صُلبِه النّصّ اللغويّ في بنائه وتَماسكه، ويزيدُ عليْه بإدماجِ أطرافِ التّخاطُبِ ومَقاصد الخِطابِ وظُروفِ الزّمانِ والمَكانِ التي تُنجَزُ فيها أفعالُ الكلامِ. وأصبحَ من مهامّ نَحوِ النّصّ رَصدُ بناءِ النُّصوص ونَسْجِ الخطابِ في مقامٍ مُعيّن، حتّى يُحقّقَ للنّصّ أغْراضَه التّداوليّةَ ويكشفَ عن التّناسُبِ بينَ بنية النّصّ وظروفِ إنجازِها.

تحليل الخطاب: لا شكَّ أنَّ تَحليلَ الخطابِ ذي الأساسِ اللغويّ[2] ، لا يقومُ ولا يتحصَّلُ إلاّ بشَرطِ المرورِ على طريقِ لسانياتِ النّصّ؛ لأنّ هذه اللسانياتِ مرحلةٌ في بناءِ الجسمِ اللُّغويّ الذي للنّصّ. فإنْ لم يَتحقَّقْ شَرطُ البناءِ اللّغويّ المُتماسكِ الذي يؤلّفُ بين أجزاءِ النّصّ المُنجَزِ ومُؤلّفاتِه، فلا يُتصوّرُ قيامُ خطابٍ يَستحقُّ التّحليلَ. فبناءُ النّصّ أكبرُ رافدٍ لقيامِ الخِطابِ. ويَجدُ تحليلُ الخِطابِ أيضاً جُذورَه في لسانيّاتِ النّصّ: فلَقد كانَ للسانياتِ النّصّ أثرٌ مَشهودٌ، منذُ أواخرِ القرنِ الماضي، في إخراجِ الدّرسِ اللّسانيّ من ضيقِ الجملةِ إلى سعةِ النّصّ. ولا شكّ في أنّ مفهومَ الجملة ولسانيات الجُملَة، الذي تُجووزَ إلى مَفْهوم النّصّ

---

[1] تَعيين المَفاصل التّعريفيّةِ بين مُصطلَحَي النّصّ والخطاب، شرطٌ في تَمايُز المَفاهيم: في زَمن صَخب المُصطلَحاتِ، وما ترتّبَ على صخَبِها من اختلاط المَفاهيمِ وتَداخُلِها، ومن مَتاهاتِ الأنفاقِ في طَريقِ البَحثِ العلميّ. ولا تستقيمُ لغةُ البحثِ العلميّ إلاّ بضبطِ المُصطلَح وتَمييزِ المَفْهومِ ووُضوحِ المَنهَج لوقايةِ القارئِ والمتلقّي من تَناقُض المَعاني في الذّهن.

مصطلح الخطاب: يتَحَرّكُ المَعْنى المُعجميّ لمُصطلح "خِطاب" من الفكرِ إلى الكَلامِ، بمعانيه ومستوياته وأشكاله المُختلفَة، ومن الكَلام إلى النّصّ، مع اتّجاه نحو مقاصد الإفادَة أو التّلقين أو البَرهَنة والإقناع... أمّا في الاستعمالِ المُعاصرِ فنُميّزُ بين الخِطابِ بمَعْنى النّصّ الموحَّد المُتماسِك، من حيثُ المَوضوع أو المَوقف، والخطاب بمَعْنى النّظام اللغويّ بوصفه شبَكَةً من علاقات المعرفَة الاجتماعيّة.

[2] تَمييزاً له عن الخطاب المُفتَرَض ذي الأساسِ المَجازي كالصور والإشارات والأيقونات وغيرها.

ولسانياتِ النّصّ، مفهومٌ وصفيّ بَحتٌ لأنّه يصفُ جزءاً من بنيةِ الكَلامِ بالاقتطاعِ منه وبافتراضِ التّجزيء في جسمِ الظّاهرةِ اللّغويّةِ، وما مِن مُستوى لسانيٍّ أو وَحدةٍ من وَحداتِ البَحث اللّسانيّ التي تَقلُّ عن وَحدةِ النّصّ، كالفونيم أو الحَرف، والمورفيم أو الوحْدَةِ الصّرفيّة، واللّيكسيم أو الوَحْدَة المعجميّةِ، والتّرْكيب أو الوحْدَة الجُمليّة،إلاّ وتُعدُّ وحدةً افتراضيّةً[1] صَنَعَتها النّظريّةُ اللّسانيّةُ لتسهيلِ الوصْفِ والتّفْسيرِ ولتعْيين مَفاصلَ افتراضيّةٍ لبنيةِ النّصّ/الخِطاب الطّبيعيّةِ الواقعيّةِ.

هذا وإنّ الباحثينَ اختَلَفوا في كلّ وحدةٍ افتراضيّةٍ من الوَحداتِ المذكورةِ آنفاً، ومن أدلّ الأدلّةِ على الاختلافِ تعدُّدُ وجهاتِ نظَرِ الباحثينَ اللسانيّينَ في مصطلَح الجُملَة؛ فقَد برَزَ في هذا التّعدّد ما يُقاربُ ثَلاثمائة تَعْريفٍ.

أمّا النّصّ فهو بنيةٌ لغويّةٌ طبيعيّةٌ عُلْيا، تختلفُ عن البنى الافتراضيّة الدّنيا المُشارِ إليها، لأنّه إنجازٌ مَترابطٌ، يختصُّ بصفَتَي التّماسُك والانسجامِ والمناسبَة Cohesion, Coherence and Pertinence[2]، وليسَ رصفاً للكلماتِ والجُمَل التي انتظمَت بشكل عفويّ اعتباطيّ.

أمّا **الخطابُ** فهو كلامٌ مَلفوظٌ أو مَكتوبٌ، مَضبوطٌ بقَواعدَ صَوتيّةٍ ومعجميّةٍ وتركيبيّةٍ وأسلوبيّةٍ، ويُمكنُ أن يُنظَرَ إلى تَعريفِ الخِطاب من خلال محاورَ مُختلفةٍ : كالحَدَث والدّلالَة، والتعيين الإفراديّ والإسناد العامّ، وفعل الإنجاز، والمَعْنى والمَرجع، والإحالَة إلى الواقعِ والإحالَة إلى المُتَحاورِين... كلُّ خطابٍ يُنجَزُ بوصفِه حدَثاً؛ أي إنّ حَدَثاً ما يَحْصُلُ عندَما يُنطَقُ بالقولِ أو الخطاب. ولكنّ هذا التوارُدَ Occurrence أمر عَرَضيّ فقَد يظهرُ وقد يَختفي. إنه حَدثٌ "مُختنقٌ"، ولكنّ المَعنى ثابتٌ ويَظلُّ حاضراً، وهو ما يَمتازُ به الخطابُ.[3]

قد يُقالُ إنّ علاقةَ النّصّ بالخطابِ علاقةُ ثابتٍ بمتغيّرٍ: وهذا قولٌ يوهِمُ بمركزيّةِ النّصّ وثَباتِه وتَعاليه وأنّ أدواتِ التّحليلِ النّصّي هي التي تُهيمنُ على المَسارِ الذي يَسلُكه

---

[1] نظر ما ذكَرَه دو بوغراند عن افتراضية بعض الأنظمة اللسانية كالجمل:

النص والخطاب والإجراء، ترجمة د.تمام حسان، عالَم الكتب، القاهرة، ط.2، 2007م، ص: 97.

[2] **Cohésion, cohérence et pertinence du discours** : Michel Charolles To cite this version: Travaux de Linguistique : Revue Internationale de Linguistique Française, De Boeck Université, 1995, pp.125-151.

[3] **Discours et communication,** in La Communication. Actes du XVè. Congrès de l'association des sociétés de philosophie de langue française. Université de Montréal, 1971, Montréal 1973. V. aussi: **La métaphore et le problème central del'herméneutique**, Paul Ricœur : Revue Philosophique de Louvain. Quatrième série, tome 70, n°5, 1972. Pp : 93-112

الخطابُ ويَمشي في سَنَنِه، وأنّ كلّ نَمطٍ خطابيّ لا يقومُ إلاّ بتغييرِ المَعْلومات الكامنةِ في بَرنامج النّصّ. والحقيقةُ أنْ ليسَ كلُّ خطابٍ مُجرّدَ إنجازٍ يأتي من شُروطِ النّصّيّة. فمَسألةُ الخطابِ أعمقُ من افتراضِ إسقاطِ أدواتٍ لغويةٍ وتقنياتٍ نصّيّةٍ للحُصولِ على نَمطِ الخطابِ المُرادِ، فلا شكّ أنّ الخطابَ يتأثّرُ بأوضاع اللغةِ وطُرُق تنظيمِ الكَلامِ داخلَ النّصّ، وحَركةِ تَرتيبِ المُفرَداتِ، ولكنَّ الذي يَطبَعُ كلّ خطابٍ بميسَمٍ خاصٍّ فيتأثّرُ النّصُّ بذلِك الطّابِعِ، هو مُقتَضياتُ الخطابِ ومُستلزماتُه التي يَصنعُها سياقُ الكلامِ ومقاصدُ المتكلّمِ وظروفُ المَقامِ الخارِجَةُ عن عهدةِ النّصّ، وكذلكَ بناءُ الخِطابِ وفقَ "استراتيجيّةٍ" أو تَخطيطٍ حِجاجيّ، يَلجأ معَه المتكلّمُ إلى استعمالِ وَصائلَ حِجاجيّةٍ تُساعدُه على بناءِ خطّتِه الحِجاجيّةِ وتوجيه عمليّةِ الفَهْمِ والتأويلِ لَدى المُخاطَبِ[1]. فمعرفةُ الخططِ الخطابيّةِ يُساعدُ على تَحليلِ كلامِ المتكلّمِ أو نصِّ الكاتبِ ومعرفةِ مَقاصدِه والمواقعِ التي يتّخذُها لإقْناعِ مُخاطَبيه أو تَبليغِهم مَعْنًى ما.

من استراتيجيات الخطاب، أو خطط الخطاب ومواقعه

Stratégie de Communication / Stratégie de Discours

سنُعالجُ موقعَيْن من هذه المَواقع، من خلال النّظرِ في بعض نصوص القرآن الكريم:

موقع التّلميح Stratégie d' Insinuation

وموقع التضامن أو التعاون Stratégie de Coopération

نلاحظُ الموقعَيْن اللذَيْن اتّخذَهُما المتكلّمُ في حوارِه، أو أُمِرَ أن يتّخذَهُما، في قوله تعالى: « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السّماواتِ والأرْضِ قُلِ اللهُ وإنّا أو إيّاكُم لَعَلى هُدىً أو في ضلالٍ مُبينٍ» سبأ:24

وإليكم تفصيل الموقعَيْن [التلميح والتعاوُن] :

1- **التلميح:**

عُطِفَت جملةٌ على جملةٍ في الآيَة الكريمَة: عطفَت جملة [وإنّا أو إيّاكم] على جُملةِ الاستفهام، وفيها إبرازُ المَقْصدِ الخَفيّ بطريقة بَليغةٍ [وهذا تَلْميح] تُوقِع الخصمَ في شَرَكِ

---

[1] تتعيّنُ الإشارةُ إلى أنّ عملية الفَهم قبل التأويلِ شرطٌ في عمليات الحِجاج، انظرْ أهمية "الفَهم" في مقالَة: **الَفهم والتأويل والحِجاج**، عزّ الدّين الحكيم بناني، منشور ضمن كتاب جماعي في الحِجاج: **الحِجاج: مَفهومُه ومَجالاتُه، دراسات نظريّة وتَطبيقيّة مُحكَمَة في الخَطابَة الجَديدَة**، ابن النديم للنشر والتوزيع هران الجزائر– دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت، ج:2، ص:255

المَغلوبيّة وذلكَ بحَصرِ حالتي الفَريقَيْنِ المُتَجادلَيْن بينَ موافَقَة الحقّ والهُدى ومُوافَقَة الباطلِ والضَلال؛ ولذلكَ جاءَ حرف العطفِ أو ليُفيدَ التّرديدَ بين حالَتَيْن. «وهذا اللّونُ من الكلام يُسمّى الكَلامَ المُنصِفَ، وهو أن لا يَترُكَ المُجادلُ لخَصمِه موجِبَ تَغيُّظٍ واحْتدادٍ في الجِدالِ، ويُسمى في علم المُناظرة [الحِجاج] إرخاءَ العنانِ للمُناظِر، ومع ذلكَ فقَرينة إلزامِهم الحُجّةَ قَرينةٌ واضحةٌ.» [التحرير والتنوير].

ومن لَطائفِ الآيَة وبَلاغتها ومواقع المتكلّمِ أنها اشتَمَلت على إيماءٍ [وهذا تلميح] وهو إيماءٌ إلى ترجيح جانبٍ من الجانبَيْنِ في احتمالٍ من أحدِ الاحتمالَيْنِ بطريق مُقابلة الجانبين في التّرتيب: فقَد رُتِّبَت حالتا الفَريقَيْن بما يُعرَفُ باللّفّ والنّشرِ؛ فقد ذَكَرَ ضَميرَ جانبَ المُتكلم ومَن مَعَه وجانبَ المُخاطَبين، ثم ذَكَر حالَ الهُدى وحالَ الضَلال على ترتيب ذِكْرِ الجانبين، فأوماً ولَمَّحَ إلى أنَ الأوَّلِينَ مُهتَدونَ أو موجَّهون إلى الهدى أمّا الآخرون فهم على ضلالٍ مبينٍ، حصلَ هذا التّرتيبُ كلّه بعدَ الفائدةِ التي حَمَلتْها قَرينةُ الاستفهام، وهذا أيضاً من الإيماءِ والتّلميحِ والتَعريض، وهو أبلَغُ من التَصريحِ وأوقعُ في النّفسِ.

2- التَّعاوُن أو التّضامُن في بيان الحقّ:

الآيةُ تُعرِبُ عن الغايَة في النَّصَفَة في الجدالِ والاعتدال في الحوارِ والمُحاجَّة؛ فالمُحاوِرُ الرّاغبُ في الوصولِ إلى الحقّ يقول للمشركين: أحدُنا على هدى، والآخر على ضلال، من غيرِ تَعيين: ليثير في المُخاطَبينَ التدبر والتفكر في هدوء لا تعتريه عزةٌ بإثم ولا رغبة في جدالٍ ومُحال. فإنما المُحاورُ صلى الله عليْه وسلَّمَ هادٍ ومُعلمٌ، يبتغي هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم، لمجرد الإذلال والإفحام. والجدلُ على هذا النحو المُهذَّب أقربُ إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين، على الإذعان والاستسلام، وأجدرُ أن يثير التدبر الهادئ والاقتناع العميق. والإنصافُ والاعتدالُ منهجٌ قويمٌ سديدٌ في الحجاج: «قُلْ لا تُسألون عَمّا أجْرَمنا، ولا نُسألُ عَمّا تَعملونَ».

فائدةٌ :

1- أداةُ الاستفهامِ «مَنْ» فيها ما يُفيدُ التَّنبيهَ على الخَطأ، ولذلكَ أعقب بالجَواب من قِبَلِ السائل بقوله: «قل الله» لإثباتِ أنّهُم لا يُنكرونَ ذلكَ الجوابَ. وفي سورةٍ أخرى: «فَسَيَقولون الله» فهذا جوابٌ يُجيبون به ولا يُنكرونَ خَلْقَ الله، فلا يَملكونَ أن يُماروا في الحقّ البيّنِ ولا أن يَدّعوا غيرَه.

2- عندَما أورَدَ جانبَ أهلِ الحقّ والهُدى جاءَ بحرف الجرّ المُفيدِ الاسْتِعلاءَ المُسْتَعارَ للتّمكن [على]، وذلِكَ تمثيلاً لحال المهتدي بحال المتصرّف في أموره وأدواته كما يَشاءُلبُلوغِ مَقْصِدِه. وأورَدَ في جانب أهلِ الباطلِ والضَّلالِ حرفَ الجرّ [في] الذي يُفيدُ الظّرفيةَ المُستعارَةَ لشدَّة التَّلبُّس بصفة الباطلِ والضَلالِ، «تَمثيلاً لحالهم في إحاطة الضَّلال بهم بحال الشيء في ظرف محيط به لا يتركه يُفارقه ولا يتطلع منه على خلاف ما هو فيه من ضيق يلازمه.»

الإضافات المَجازيَةُ أو النُّعوتُ، في الخطاب السياسيّ والاجتماعيّ المُعاصر

من مَظاهرِ العصرِ تَداخُلُ العناصرِ وتَفاعُلُها ائتلافاً وتَنافياً، تناسُباً وتناقُضاً؛ فَما كانَ بالأمسِ مرفوضاً أصبحَ اليومَ مألوفاً وما كانَ بعيداً أصبَحَ بتغير المَقاييس حاضراً ومُلازماً، وقَد عبّرَ الخطابُ الاجتماعيّ السّيّاسيّ اليومَ عن هذه الظّاهرةِ وعَكَستها مُصطلحاتُه ومَفاهيمُه، حتّى باتَت من المُتلازمات الاصطلاحيّة بعدَ أن كانَت من المتنافراتِ.

وأقصدُ بالمُتلازماتِ الاصطلاحيّة تلكَ الألفاظَ الاصطلاحيّةَ ذات المَعاني المُحدَّدَة، وتتقاربُ فيما بينها في الحقل الدّلالي المألوفِ أو الاصطلاحي، بحُكم العادَة في الدّلالة والاستعمال،فيُجمَعُ في كلّ مُتَلازمةٍ اصطلاحيّةٍ بين لَفظيْن قد يكونان متباعدَيْن متنافرَيْن أو متقاربَيْن مؤتَلفَيْن. فالمُتلازماتُ ذاتُ أساس تداولي أو اصطلاحيّ لأنّها مجموعة لفظيةٌ ثابتةٌ تحمل في مجموعها مَعنى اصطلاحياً خاصاً.

وقيمةُ المتلازِماتِ الاصْطلاحيّة تكمنُ في تَحديث المُعجم العربي، وتطوير مَنهج البَحث الاصْطلاحيّ والمعجميّ، وتُساعد في حوسَبَتِه. فالحاجةُ ماسّةٌ إلى جَمع التعابير الاصطلاحية والسياقية في العربية اليومَ، وتصنيفِها بحسب أقسام الكلم، أو بطريقةٍ من طرقِ التّصنيفِ المُعجميّ الاصطلاحيّ، وتحليلِ العَلاقات اللفظيّة والمَعْنويَة التي تربط بين مُفرداتها، أي بين مفردات كلّ مُتلازمةٍ.

وأختارُ أقدّمُ فيما يَلي، أنموذجاً محدوداً جداً من هذه المُتلازماتِ على سَبيل التّمثيل: من هذه العبارات الاصطلاحيّة المُتَداوَلَة اليومَ في الخطابِ السياسيَ والاجتماعيّ المُعاصِر:

– **الفُجورُ السيَاسيّ** : ولَم يعُدُ الفُجورُ قصراً على الأخلاق في أصلها بل تعدّاه إلى الأخلاق السّياسيّة.

– **الذّعارَة الفنّيَة** : لأنّ الفنّ قد يخرجُ عن مقاصده إلى الاستباحَة والاستغلال والإثارَة.

– **السِّلم الاجتماعيّ** : والسّلم في الأصل ضدّ الحَرب، فتَحوّل من ميدان الوَغَى إلى مَيْدان الصّراع الاجتماعيّ، تحوُّلاً مجازياً.

– **اللُّعبَة السّياسيَة**: ويُعْنى بها الخطط أو الاستراتيجيّات المَنْحُوَّةُ في عالَم التّدبير السّياسيّ.

.- **عنف المَجالس**: وهو مُصطلَح حديثٌ جداً أسفَرَ عنه رَفعُ الصّوت في المحاوَرات والطاولات المُستديرَة والمناظَرات والندوات... فنُقلَ العُنفُ من القوّةِ الجسديّة والتّعنيف الجسدي الى القهر النّفسيّ الذي يُمارسُه رافعُ الصّوتِ على مُخاطَبه. وهذا المصطلح يدخلُ في دائرة الحِجاج، وطريقَة الإقناع التي تتخذُ من رفعِ الصّوت وشكل الحوار وسيلةً من وسائل التّمكين للرأي، أو الإكراه النّفسيّ غير المباشر أو التّهويل، وهو ضربٌ من ضُروب المناظرَة أو المحاوَرَة

– **الإرهاب الفكري**: ويُرادُ منه نقلُ التّرويع والتّخويف من حَقلِ الإكراه الجسديّ إلى القَمع الفكريّ والنّفسيّ.

– **الأمن الرّوحي، والأمن الغذائيّ، والأمن القوميّ** : وهي متلازماتٌ اصطلاحيَةٌ ذواتُ معانٍ متقاربة، وكلُّ زوجٍ منها مؤلَّفٌ من متباعدَيْن في الأصل...

وكأنّي بأبي مَنصور الثّعالبيّ، يُمكن أن يُعدَّ أنموذجاً في هذا الفنّ، على اختلافٍ في المَقاصد وطريقةِ الجمع والتّصنيف... وذلك في كتابِه: ثمار القُلوب في المُضاف والمنسوب، والشّاهدُ عندَنا من الكتابِ تراكيبُ الإضافَة الموزّعةُ على الحُقول الدّلاليّة لا غيرُ، وإلاّ ففرقٌ بين موضوع الكتاب وموضوعنا هذا، وعلى ذلك، يظلّ هذا الذي أنشأه الثّعالبيّ مشروعًا معجميًّا يُمكن أن يُحتَذى ويُطوَّر.

بَلاغةُ النّصّ وخِطابُ الأخلاق الاجتماعيّة، في الأمثال العربيّة

كلمةٌ في المنهَج:

لا يستقيمُ للكاتب منهجٌ يُعالجُ به قضيّةً من قَضايا الأدبِ ويكشفُ به ظَواهرَه وبَواطنَه، إلاّ إذا شرَعَ في بيانِ وجه المُناسَبَة بين القضيّةِ والمنهَج. ولا يُغْنيه ما اطّلعَ عليْه من عُدّةٍ لسانيةٍ وعَتادٍ تداوليّ وثقافةٍ سيميائيةٍ، وما درجَ عليه الكتّابُ اليومَ من إسْقاطِ رُكامِ الثّقافاتِ الحَديثةِ على النّصوصِ القَديمةِ وتطويعها لَها، أَبَتْ أم استجابَتْ، ولا يَكفيه أن يَنتهيَ بالبَحثِ والتنقيرِ في النصّ إلى ما ارْتَضاه المنهَجُ وإن أكْرِه النّصُّ؛ فإنّ طَرَفي القضيّةِ وهما النّصّ والمنهَجُ، يفْرِضانِ على كلّ باحثٍ يَرومُ طَريقَ السّدادِ والدّقّةِ أن يُناسبَ منهجُه موضوعَه ويُعانقَ قَضاياه التي تُحيطُ به وعَناصرَه التي تؤلّفُه. فالمُناسَبَةُ والتَوافُقُ شرطٌ في تَنزيلِ المنهجِ على النّصّ.

والحقيقةُ أن منهَجَ القِراءَة والفَهْمِ، والوَصفِ والتحليل، ليسَ بناءً ثابتاً يُقْحَمُ على حِمى النّصّ ولا قواعدَ صارمةً تُطبَّقُ عَليْه، ولكنّ المَنهَجَ الأمثلَ يبتدئُ عندَ استنطاقِ النّصّ ومُحاوَرَته بما استَوى للباحثِ من أدواتٍ وما عاناه من قراءاتٍ واطّلاعٍ على تَجاربِ الوَصفِ والتّحليلِ وما اكتسَبَه من خبْرةٍ تكوَّنَت بفعلِ المُثاقَفَة والقِراءَةِ والتّحليلِ والنّقدِ، فيجمَع الباحثُ شَتاتَ المنهَجِ ويُؤصّلُ أصولَه ويتتبّعُ آثارَه في ثَنايا العباراتِ، ويظلّ يتتبّعُ آثارَ هذا المنهَج ويُركّبُ أجزاءَه جزءاً جزءاً مُستشِفّاً خَفاياه ومُستنبطاً دَفينَه وجامعاً أشْتاتَه، ومُستعيناً على الغوصِ على دقائقِه وأسْرارِه بما ثَقِفَه من علومِ آلةٍ قديمةٍ وجَديدةٍ. فالمَنْهَجُ فنٌّ دَقيقُ المسلَك وبناءٌ يُركّبُ وطَريقٌ يُطلَبُ؛ ولا تصحُّ المُطالبةُ إلاّ بما يُتصوَّرُ وجودُه أو إمكانُ بنائه.

ثمّ إنّ المَنهَجَ الذي يُبْنى على علوم الآلةِ القَديمة والحَديثَةِ ويُركّبُ من عناصرِ القراءَة الصحيحَةِ والفَهم المستوعِبِ، لن يبلغَ الغايةَ المرجوّةَ من مُعالجةِ النصّ واستقصاءِ أنحائه وأعماقه إلاّ إذا مازَجَ القارئُ المَقْروءَ له وتتبّعَ أسرارَ إبداعه وإجادتِه وتذوّقَ جَمالَ البناء والعناصِرَ المَبْنيَّ منها، وبذلَ من نفسِه ما يُسعفُ في استكشافِ كُنه النّصّ وجوهرِه في انسجامِ مَعانيه وَتماسُك مَبانيه وتَلاحُم صورِه. فَلا تَكْفي المَواقفُ (attitudes) التي يتخذُها المحللُ من النّصّ ولا المَواقعُ (positions) التي يَقفُ فيها ولا الخططُ (stratégies) التي يَبْنيها، حتى يكونَ تمازُجُ الذّوات وتَفاعُل الوجدان والقياس بالذّوقِ، لافتاتٍ في طريق الوُصولِ إلى كنه النّصّ وعلاماتٍ يُهْتَدى بها إليه.

لا شكَّ في أنّ ذاتَ الكاتب عندَما تتّصلُ «بالآخَر» وبالعالَم، تتّقدُ بداخلِها الرّغبةُ في المعرفةِ والتّعرُّف، فتلجأ إلى اللغةِ للإعرابِ عن هذا الدّافعِ المعرفيّ: يبتدئُ التّعبيرُ عن النّفسِ -لغةً ولفظاً- بالكلمةِ ثمّ يعبُرُ إلى العبارَة وينتهي عند النصّ والخطابِ، ويبتدئُ -مَعْنىً- من تصوّر الموضوعِ أو الإحساسِ نصّاً في أصلِه وخطاباً، وإذا بهذا الخطابِ يُصبحُ مُعادلاً ذاتياً وموضوعياً للإحساسِ بالعالَم وللرؤيَةِ المتولّدَةِ من مُعاناةِ الأشياءِ.

وينتهي الباحثُ المحللُ إلى إعادةِ تركيبِ النّصّ كما بَناه صاحبُه، و "التّفاعُلِ معه" كَما "تَفاعلَ صاحبُه مع" الذّاتِ الخارجيّةِ، فيُصبحُ اتّصالُ المحلِّل بالنّصّ وما في النّصّ من قَضايا وقيمٍ، مُعادلاً لاتّصالِ المُبدعِ بالعالَم بما في هذا الاتّصالِ من مُعاناةٍ وتَفاعُل، ويحرصُ الباحثُ المحلّلُ على تذوُّقِ النّصّ والغَوصِ فيه واغْتراقِه لاستخراجِ أوجُه دلالتِه على حالِ صاحبِه، وتَمييز أسلوبِه عن أسلوبِ غيْرِه، حرصاً يُجنّبُه حَصرَ النّصّ في الشّروح اللّغويّةِ المجرّدَة من غيْرِ مُجاوزةِ الشّرحِ إلى الدّلالاتِ العامّة.

أصلُ المثَلِ في كَلام العَرَب التّماثُلُ بينَ الشّيئين في الكَلامِ: وضَرْبُ المَثَل جَعْلُه يَسيرُ في البلاد[1]، ومِنَ المَعْلوم أنَّ الأمثالَ العربيّةَ الفَصيحةَ مادّةٌ لغويةٌ تدلُّ على قيمٍ كثيرةٍ، أولاها قيمَةُ الفَصاحةِ، وهي قيمةٌ جعَلتْ منها مادّةً لغويّةً يُستدلُّ بها في استخراجِ قوانينِ اللغةِ، أو لمعرفَة وُجوه الخُروجِ عن هذه القَوانين والشّذوذِ عنها، ومن هذه القِيَم أنّ الأمثالَ العربيّةَ تُعدُّ وعاءً اجتماعياً لعادات المجتمَع وتَقاليدِه وثَقافتِه ونظرتِه إلى الحَياةِ وخُلاصةً لتجاربه، ثمّ يأتي المَعْنى الخُلقيّ في الأمثالِ ليجعَلَ منها مادّةً صالحةً لتحليل الخطابِ الأخلاقيّ في الأمثال العربيّة.

وأهمُّ الجَوانبِ التي يُنظرُ منها إلى الأمثالِ العربيّةِ يَتَّصِلُ بِمَقامِ الْكَلامِ و أَثَرِ السّياقِ في فَهْمِ الْمَعْنى. وهي قبل كلّ شيءٍ ضَرْبٌ مِنَ الأَلْفاظِ المَخصوصةِ التي أَطْلَقَها الْعَرَبُ في مُناسَبَةٍ مُعَيَّنَةٍ وأَصْبَحَتْ تُسْتَحْضَرُ كُلَّما حَضَرتِ الْمُناسَبَةُ، وتُؤَدّى عَلى ما فَرَطَ بِهِ أَوَّلُ أَحْوالِ وُقوعِها. وهذِهِ الأَلْفاظُ الْمَخْصوصَةُ نَوْعٌ مِنْ أَنْواعِ الْكَلامِ اسْتَحَقَّ مِنَ النّحويينَ والبلاغيّينَ والأدباءِ أَنْ يَخُصّوه بِعِنايَةٍ مَلْحوظَةٍ، وأَنْ يَعُدُّوهُ نَوْعاً مِنَ الْعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ بِالنَّظَرِ إلى الْجِهَةِ التي أنتجتها. فَقَدْ عُرِّفَ عِلْمُ الأَمْثالِ بِأَنَّهُ: « مِنْ فُروعِ عِلْمِ اللُّغَةِ، وهُوَ مَعْرِفَةُ الأَلْفاظِ الصّادِرَةِ عَنِ الْبَليغِ، الْمُشْتَهَرَةِ بَيْنَ الأَقْوامِ بِخُصوصِ أَلْفاظِها، وهَيْئاتِها، ومَوْرِدِها وسَبَبِ وُرودِها، وقائِلِها، وزَمانِها، ومَكانِها ، لِئَلاّ يَقَعَ الْغَلَطُ عِنْدَ اسْتِعْمالِها في مَضارِبِها، و هِيَ

[1] أبو هلال العَسكري: جَمْهرَة الأمثال

الْمَواضِعُ و الْمَقاماتُ. ولا بُدَّ لِمَعاني تِلْكَ الأَلْفاظِ مِنْ غَرابَةٍ ولأَلْفاظِها مِنْ فَصاحَةٍ . ومَوْضوعُهُ: الأَلْفاظُ الْمَذْكورَةُ مِنْ حَيْثُ وُرودُها في مَوارِدِها وتَعْيينِ مَضارِبِها بِالنَّوْعِ»[1]

و تخْتَصُّ الأَمْثالُ بأَنَّها قَدْ تَخْرُجُ عَنِ الْقِياسِ، و تُحْكى كَما سُمِعَتْ، والعَرَبُ «تُجْري الأَمْثالَ عَلى ما جاءَتْ، ولا تَسْتَعْمِلُ فيها الإِعْرابَ»[2] . وقَدْ عَبَّرَ سيبَوَيْهِ عَنْ هذِهِ الصِّفَةِ بِقَوْلِهِ: «ومِنْ كَلامِهِمْ أَنْ يَجْعَلوا الشَّيْءَ في مَوْضِعٍ عَلى غَيْرِ حالِهِ في سائِرِ الْكَلامِ»[3]. وتَفْسيرُ الاخْتِصاصِ أَنَّ دلالَةَ الْمَقامِ وأَحْوالِ الْخِطابِ مِنْ دلالَةِ اللَّفْظِ عَلى الْمَعْنى، وذلِكَ لِما اعْتَرى اللَّفْظَ مِنْ نَقْصٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ تَضْمينٍ أَوْ خُروجٍ عَنِ الأَقْيِسَةِ. ويُعدُ الْمَثَلُ نَوْعاً مِنَ الْقَوْلِ مَخْصوصاً يُسْتَعارُ لِلتَّمْثيلِ. فَهُوَ عِبارَةٌ عَنِ اسْتِعارَةٍ تَمْثيلِيَّةٍ يُسْتَعارُ فيها لَفْظُ الْمُشَبَّهِ بِهِ لِلْمُشَبَّهِ[4] .

وتُتَداوَلُ الأَمْثالُ كَما سُمِعَتْ عَنِ العَرَبِ، ولَوْ خالَفَتِ الْقِياسَ. ويُحافَظُ عَلى صِيَغِها بِلا تَبْديلٍ ولا تَصَرُّفٍ ولا تَغْييرٍ[5]. ويَجْري مَجْرى الأَمْثالِ كُلُّ ما كَثُرَ اسْتِعْمالُ الْعَرَبِ لَهُ عَلى وَجْهٍ مَخْصوصٍ، فَيَأْخُذُ حُكْمَها ويُعامَلُ مُعامَلَتَها. والمَشْهورُ في الأَمْثالِ أَنَّهُ يُتَرَخَّصُ فيها ما لا يُتَرَخَّصُ في غَيْرِها مِنْ أَنْواعِ الْقَوْلِ. ورُخَصُهُ كَضَرائِرِ الشِّعْرِ[6]، و« واسْتُجيزَ مِنَ الْحَذْفِ ومُضارِعِ ضَروراتِ الشِّعْرِ ما لا يُسْتَجازُ في سائِرِ الْكَلامِ»[7].

---

[1] طاش كُبْري زادَة: **مِفْتاحُ السَّعادَة ومِصْباح السِيادَة**. مَط. دار المَعارِف. حَيْدَر آباد1328هـ. 247/1 .

[2] السَيوطِيَ: **الْمُزْهِر** : 487/1-488 .

[3] **الْكِتاب** : 51/1 .

[4] وُضِعَتْ في الأَمْثالِ كُتُبٌ كَثيرَةٌ مِنْها كِتابُ "الأَمْثال" لأَبي عُبَيْدٍ الْقاسِمِ بْنِ سَلاّمٍ، و"مَجْمَعُ الأَمْثالِ لِلْمَيْدانِيِّ" و"زَهْرُ الأَكم" لأَبي الْحَسَنِ الْيوسيِّ، و"جَمْهَرَةُ الأَمْثالِ لأبي هلالٍ العَسْكَرِيِّ" و"التَّمْثيلُ والْمُحاضَرَةُ" لأَبي مَنْصورٍ الثَّعالِبِيِّ.

[5] وهِيَ في ذلِكَ خاضِعَةٌ «لِقاعِدَةٍ مَشْهورَةٍ هِيَ: أَنَّ **"الأَمْثال لا تُغَيَّرُ، بَلْ تجْرى كَما جاءَتْ"**» (السَيوطِيَ: **المُزْهِر**: 487/1)

[6] و قَدْ قالَ ابْنُ جِنِّيَ في هذا الْمَعْنى : « الأَمْثالُ تَجْري مَجْرى الْمَنْظومِ في تَحَمُّلِهِ لِلضَّرورَةِ » (أبو الفَتْحِ ابْنُ جِنِّيَ: **الْمُحْتَسَب في تَبْيينِ شَواذِّ وُجوهِ القِراءاتِ**. تح. عَلِيّ الجُنْدِيّ ناصِف و عَبْد الحَليم النَجّار وعَبْد الفَتّاح إسْماعيل شَلَبي، لَجْنَة إحْياء التُّراث الإسْلامِيّ. القاهِرة. 1386هـ. 19/1 ، وانْظُرْ أيْضًا: السَيوطِيَ: **الْمُزْهِر**: 487/1)

[7] السَيوطِيَ: **الْمُزْهِر**: 487/1. وقَدْ رَجَعَ بَعْضُ الْباحِثينَ سَبَبَ خُروجِ الأَمْثالِ عَنْ قِياسِ اللُّغَةِ إِلى حِرْصِ الْعَرَبِ عَلى تَأْدِيَتِها بِضُروبِ الْمُحَسِّناتِ اللَّفْظِيَّةِ التي تَضْطَرُّهُمْ إِلى الْخُروجِ عَنِ الْقِياسِ. ومِنَ الأَمْثالِ ما خالَفَ الْقِياسَ لِصُدورِهِ عَنْ فِئاتٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمينَ لا تُحْكِمُ قَواعِدَ اللُّغَةِ، وتَقَعُ في اللَّحْنِ ثُمَّ تَسيرُ بِاللَّحْنِ الرُّكْبانُ (أُنْظُرْ: عَبْد الْمَجيد قطامِش **"الأَمْثالُ الْعَرَبِيَّةُ-دِراسَةٌ تاريخِيَّةٌ"**، دار الفِكْر، دمشق، ط.1، 1404-1988. ص:208-209)

الأمثال وخطاب التأويل النّحويّ:

مِنْ نَماذِجِ خُروجِ الأَمْثالِ عَنِ الْقِياسِ، كَما وَرَدَ في كِتابِ سيبَوَيْهِ، ما خَرَجَ عَنِ الْقِياسِ في بِنْيَةِ الْكَلِمَةِ، نَحْو قَوْلِهِمْ: "تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِيِّ لا أَنْ تَراهُ". قالَ سيبَوَيْهِ: «لأَنَّهُ مَثَلٌ، و هُوَ أَكْثَرُ في كَلامِهِمْ مِنْ تَحْقيرِ "مَعَدِّيٍّ". فَإِنْ حَقَّرْتَ "مَعَدِّيٌّ" ثَقَّلْتَ الدّالَ فَقُلْتَ "مُعَيْدِّيٌّ" »[1]. و مِنَ الأَمْثالِ ما خَرَجَ عَنْ أَقْيِسَةِ التَّراكيبِ، وذلِكَ نَحْو: "عَسى الْغُوَيْرُ أَبْؤُساً" حَيْثُ «جَعَلوا "عَسى" بِمَنْزِلَةِ "كانَ"»[2]، و «لَها [...] حالٌ لا تَكونُ في سائِرِ الأَشْياءِ»[3]، «فَهذا مَثَلٌ مِنْ أَمْثالِ الْعَرَبِ أَجْرَوْا فيهِ "عَسى" مَجْرى "كانَ"»[4]، ولَوْ حُمِلَ عَلى أَفْعالِ الْمُقارَبَةِ لَكانَ الْقِياسُ أَنْ يَأْتِيَ الْخَبَرُ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً.

ومن الأمثالِ ما « يُضْمَرُ فيهِ الْفِعْلُ الْمُسْتَعْمَلُ إِظْهارُهُ بَعْدَ حَرْفٍ... قَوْلُ الْعَرَبِ في مَثَلٍ مِنْ أَمْثالِها: "إِنْ لا حَظِيَّةٌ فَلا أَلِيَّةٌ" أَيْ "إِنْ لا تَكُنْ لَهُ في النّاسِ حَظِيَّةٌ فَإِنّي غَيْرُ أَلِيَّةٍ"»[5].

ومِمّا يُحْذَفُ فيهِ الْفِعْلُ النّاصِبُ لِلْمَفْعولِ بِهِ في سِياقِ الأَمْرِ والنَّهْيِ أَوِ الدُّعاءِ «قَوْلُ الْعَرَبِ "أَمْرَ مُبْكِياتِكَ لا أَمْرَ مُضْحِكاتِكَ" و"الظِّباءَ عَلى الْبَقَرِ". يَقولُ "عَلَيْكَ أَمْرَ مُبْكِياتِكَ" و"خَلِّ الظِّباءَ عَلى الْبَقَرِ"»[6]. ومِنْ ذلِكَ قَوْلُ الْعَرَبِ "كِلَيْهِما وتَمْراً"، فَهذا مَثَلٌ قَدْ كَثُرَ في كَلامِهِمْ واسْتُعْمِلَ، وتُرِكَ ذِكْرُ الْفِعْلِ لِما كانَ قَبْلَ ذلِكَ مِنَ الْكَلامِ، كَأَنَّهُ قالَ "أَعْطِني كِلَيْهِما و تَمْراً". و«مِنْ ذلِكَ قَوْلُهُمْ: "كُلَّ شَيْءٍ ولا هذا" و"كُلَّ شَيْءٍ ولا شَتيمَةَ حُرٍّ" أَيْ " ائْتِ كُلَّ شَيْءٍ ولا تَرْتَكِبْ شَتيمَةَ حُرٍّ"، فَحُذِفَ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمالِهِمْ إِيّاهُ»[7] و«مِنْ ذلِكَ قَوْلُ الْعَرَبِ في مَثَلٍ مِنْ أَمْثالِهِمْ "اللَّهُمَّ ضَبُعاً وذِئْباً" إِذا كانَ يَدْعو بِذلِكَ عَلى غَنَمِ رَجُلٍ. وإِذا سَأَلْتَهُمْ ما يَعْنونَ قالوا "اللَّهُمَّ اجْمَعْ أَوِ اجْعَلْ فيها ضَبُعاً وَ ذِئْباً"، وكُلُّهُمْ يُفَسِّرُ ما يَنْوي. وإِنَّما سَهُلَ تَفْسيرُهُ عِنْدَهُمْ لأَنَّ الْمُضْمَرَ قَد اسْتُعْمِلَ في هذا الْمَوْضِعِ عِنْدَهُمْ بِإِظْهارٍ»[8]. و«مِنْ ذلِكَ قَوْلُ بَعْضِ الْعَرَبِ "فاهَا لِفيكَ"، و إِنَّما تُريدُ "فا الدّاهِيَةِ" كَأَنَّهُ قالَ: "تُرْباً لِفيكَ" فَصارَ بَدَلاً مِنَ اللَّفْظِ بِالْفِعْلِ

---

[1] الكتاب : 44/4 .

[2] الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ : 51/1.

[3] نَفْسُه : 159/1 .

[4] نَفْسُهُ : 158/3 .

[5] نَفْسُهُ : 261-260/3 .

[6] نَفْسُهُ : 256/1 .

[7] نَفْسُهُ : 281-280/1 .

[8] نَفْسُهُ : 255/1 .

وأضْمَرَ لَهُ... فَصارَ بَدَلاً مِنَ اللّفْظِ بِقَوْلِهِ "دَهاكَ اللّهُ"... »[1]. و«مِنْ ذلِكَ قَوْلُ بَعْضِ الْعَرَبِ "أَغُدَّةً كَغُدَّةِ الْبَعيرِ ومَوْتاً في بَيْتِ سَلوليَّةٍ؟" كَأَنَّهُ إِنَّما أَرادَ "أَأُغَدُّ غُدَّةً كَغُدَّةِ الْبَعيرِ وأَموتُ مَوْتاً في بَيْتِ سَلوليَّةٍ؟"...»[2] وفيهِ دَليلٌ عَلى حَذْفِ عامِلِ الْمَصْدَرِ الْمَنْصوبِ بَعْدَ الاسْتِفْهامِ الإِنْكاريِّ.

و مِنَ الْمَواضِعِ التي وَرَدَ فيها الْحَذْفُ شُذوذاً حَذْفُ حَرْفِ النِّداءِ إِذا وَرَدَ الْمُنادى نَكِرَةً مَقْصودَةً «قالَ في مَثَلٍ "اِفْتَدِ مَخْنوقُ" و"أَصْبِحْ لَيْلُ" و"أَطْرِقْ كَرا" ولَيْسَ هذا بِكَثيرٍ ولا بِقَويٍّ»[3] ومِنْ مَواضِعِ نونِ التَّوْكيدِ الفِعْلُ الذي زيدَت قَبْلَه "ما" للتّوكيدِ يُشَبِّهونَها بِاللاّمِ اللاّزِمَةِ للفِعْلِ في القَسَمِ، «قَوْلُهُمْ في مَثَلٍ "في عِضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شَكيرُها"، وقالَ أَيْضاً في مَثَلٍ آخَرَ "بِأَلَمٍ ما تُخْتَنِنَّهُ"، وقالوا "بِعَيْنٍ ما أَرَيَنَّكَ" ... »[4].

عندَ تأمُّل التّأويلِ الذي يُقدّمُه النّحويّونَ لكلّ مَثلٍ، نَرى أنّ عَمَلَهُم يَقْتصرُ على اسْتِكْمالِ نَقصٍ مُفترضٍ في عباراتِ الأمثالِ؛ وأنّ ما ندَّ منها عن بنيةِ القَواعدِ فينبغي أن يُردَّ إليه بلَطيفِ الصّنعةِ التّقديريّة، وهكذا كانَ لأهل الصّنعةِ النّحويّةِ قَوالبُ لقراءَة نُصوصِ الأمثالِ وفهمِها، وبنيةٌ ذهنيّةٌ تُحدّدُ هيئةَ البنيةِ اللّفظيّة[5].

---

[1] نَفْسُه : 315/1 .

[2] نَفْسُهُ : 338/1 .

[3] نَفْسُهُ: 231/2 .

[4] نَفْسُهُ: 517/3 . وأصْلُ بَعْضِ هذِه الأمثالِ شِعْرٌ. مِثْل قَوْلِهِم: "**في عِضَةٍ مَا يَنْبُتَنَّ شَكيرُها**" فهذا مَثَلٌ دَخَلَ في شِعْرٍ. والبيتُ بِتَمامِه:

وَمِنْ عِضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شَكيرُها \\\\// قَديمًا ويقتط الزّنادَ مِنَ الزّندِ

"**خِزانَة الأدَب**" نَقْلاً عَن مُحَقِّقِ كِتابِ سيبَوَيْه: الكِتاب: 517/3. هامش رقم 2. و انظُرْ : **لِسان العَرَب**: مادّة عضه، ومادّة شكر.

[5] هيمَنَة تأويل النّحاة للشّعر، أو السّلطة النّحويّة في توجيه النّظر إلى الشّعر:

تَنوَّرْتُها من أذرعاتٍ، وأهلُها /// بيَثرِبَ. أدْنى دارِها نَظرٌ عالي

البيتُ لامرئ القَيس بن حجر الكندي. من قصيدة مطلعها:

ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطّلَلُ البالي /// وهلْ يَعِمَنْ مَن كانَ في العصرِ الخالي

وَهَل يَعِمَن إلّا سَعيدٌ مُخَلّدٌ /// قَليلُ الهُمومِ ما يَبيتُ بأَوجالِ

الأمثالُ وأركان الحِجاج:

تِلْكَ نَماذِجُ شاهِدَةٌ عَلى نَفْسِها، دالَّةٌ عَلى غَيْرِها. تُفيدُ أَنَّ الأَمْثالَ العربيّةَ الفَصيحةَ أَنْماطٌ مِنَ الأَقْوالِ تَدُلُّ بِلَفْظِها. ولكِنَّ وَراءَ اللَّفْظِ مَقاصِدَ وأَحْوالاً وظُروفَ خِطابٍ بِها تُفْهَمُ الأَمْثالُ ومِنْها يُبْلَغُ إِلى مَعْناها ومَقاصِدِها.

ومن هذه المَعاني والمَقاصِدِ **القيمُ الأخلاقيّةُ التي تؤلّفُ ثقافةَ الأمثالِ**: أو خطابُ الأخلاق الذي هو أهمّ وظيفةٍ من وَظائف الأمثال؛ ذلِك أنّ الأمثالَ صياغةٌ لغويّةٌ أو خطابٌ لغويّ مُوجّه إلى أفراد المجتمَع المُخاطَبينَ بِه، أو ضربٌ من **الخطابِ الحِجاجيّ** الذي يُتّخَذُ وَسيلةً إقْناعِيّةً أو وَسيطاً إقناعياً ودعامةً أخلاقيّةً لإقرارِ سُلوكٍ أو التّذكيرِ بأصول ثقافةٍ مجتمعيّةٍ، ويَستمدُّ خطابُ الأمثالِ حُجّيّتَه من قُوّته المَرجعيّةِ: فهو في ذاتِه مرجعٌ ثقافيّ اجتماعيّ أخلاقيٌّ كَبيرٌ يَركنُ إليْه أفرادُ المُجتمَع أو يُردّونَ إليه بسُلْطَة الضّميرِ الجَمْعيّ وبحجّةِ الأصالَةِ وثَقافةِ الأجدادِ وعاداتِ البَلَدِ التي لا تَبْلى. وكلُّ ذلِكَ يُنزّلُ الأمثالَ منزلةَ الحَقائقِ المُسلَّمِ بها. وما زالَت الأمثالُ في كثيرٍ من الثّقافاتِ رصيدَ أمّةٍ يُرجَعُ إليه وبه تكونُ بَلاغةُ الإقناعِ ونُفوذ الحِجاجِ.

وَهَل يَعِمَن مَن كانَ أحدَثُ عَهدِهِ /// ثَلاثينَ شَهراً في ثَلاثَةِ أَحوالِ

دِيارٌ لِسَلمى عافِياتٌ بِذي خالٍ /// أَلَحَّ عَلَيها كُلُّ أَسحَمَ هَطّالِ

إلى أن يَقولَ: تنوَّرْتُها... والضّميرُ يعودُ على سَلْمى أو ديار أهلها. والغريبُ أنّ الشعرَ الفصيحَ مثل الذي ذكرْنا منه نماذجَ من شعرِ امرئ القيسِ، أكثر ما نَتذكّره ونستحضره، إنّما نتذكّره على النّحو الذي يَرويه النّحاةُ ويستَدلّون به ويبحثونَ فيه عن وَجه الاستشهاد. ولا يَكادُ يُساوي البيتُ كلّه قيمةً إلاّ كلمة أذرعات التي هي مَدارُ الكلام: فأهمّ ما في البيت عندهُم هذه الكلمةُ التي تُروى بِكَسرِ التاء مُنوّنةً، وبكَسْرِها بلا تَنوينٍ، وبفَتْحِها، وكلُّ وجهٍ يُناسبُ مذهَباً في النّحو.

وقلّما يُلتَفَتُ إلى دلالاتِ الألفاظِ الأُخرى كالفعلِ "تَنوَّرتُها" الذي يَعْني أنّ امرأ القيس نَظَرَ إلى مَرئيّتِه مِنْ بُعدٍ، وأصلُ التّنوّر النّظرُ إلى النّارِ من بُعدٍ: واستطاعَ الشاعرُ أن يَراها لأنّه حَريصٌ على رؤيتِها لا يُخطئُها عن ناظرَيْه البُعدُ. وأصلُ الأذرعاتِ بَلدٌ في أطراف الشّام، وأهلُ سَلْمى بيثربَ. فبيْنَه وبيْنَها مسافةٌ عظيمةٌ ومَراحلُ كثيرةٌ. وهذا البُعدُ كلُّه لا يَحولُ دون تَنوُّرِها وتَمييزِ صورتِها... وكأنّي بامرئ القيسِ يُنشئُ هذا المَشهدَ من مُخيّلتِه، **فلا هو بأذرعاتٍ ولا هي بيثربَ، ولكنّها المُغامَرةُ المَجازيّةُ تَنطقُ الكلماتِ بما وقعَ وبما لَم يَقعْ.**

وهذا بابٌ يدلُّك على ما نحنُ فيه من غَلَبة نظرِ كلِّ ذي نظرٍ على النّصّ، وتوجيهِه له وتأويلِه، مع احتمالِ إهدارِه لباقي مؤلّفاتِ النّصّ أو قلّةِ عنايته بها.

وقَد جاءَت الأمثالُ على صِـفاتٍ من العُموم والشّـمولِ، تؤهّلُها لتَسـتوعبَ الأحوالَ الخاصّةَ وتتنزّلَ على الظّواهرِ والجزئيّاتِ الطّارئةِ، وكأنّها قاعدةٌ عامّةٌ تصلحُ لإجراءِ الحِجاجِ، وقَويَت قُوّةَ الدّليلِ في الجمعِ بينَ سُـلطةِ الحُجّةِ الجاهزةِ وبَلاغةِ القولِ التي لا تَخْلو من قوّةِ التأثيرِ في المُخاطَب.

وبناء على لفظ المَثَل وقيمَتِه الأخلاقيّةِ وقُوّة التأثيرِ به في المُخاطَب، يبدو أنّ تَبليغَ المَثَل وتحقيقَ وظيفة الحجاجِ بِه يقومُ على ثلاثةِ أركانٍ[1]، هي **القولُ البَليغُ، وأخلاقُ القائلِ، والتأثيرُ في المُخاطَب**.

نَستنتجُ من التّقسيم أنّ الأمثالَ بُنِيَتْ على أساسٍ أخلاقيّ، وكأنّ الذي وَضَعَ الأمثالَ ونَشَرَها بينَ النّاسِ خَطيبٌ يُقنعُ الناسَ بالأخلاقِ الحَميدَةِ والمَواعِظِ والحِكَمِ، فاقْتنَعَ المُخاطَبونَ وحَدَثَت بينهُم وبين هذا المتكلّمِ الافْتراضيّ ألفةٌ وثقةٌ عبرَ السّنين؛ إذ أسهَمَ خُلُقه في قَبولِ خطابِه قَبولاً حسَناً وإنجازِ الأفعالِ بناءً على تلكَ الأقوالِ. فقَد استوْعَبَت الأمثالُ المَشاعرَ والانفعالاتِ البشريّةَ، واستخلَصَت تجاربَ البَشرِ السويّةَ وطرُقَهم السَّليمةَ في مواجهةِ المَصاعبِ والمُشكلاتِ، حتّى يستخلصَ الناسُ الاختياراتِ الصّائبةَ من دونِ أن يُحاولوا محاولاتٍ قد تضطربُ بين الصَّوابِ والخطأ؛ فمن أخلاقِ الأمثالِ أنّها تُقدّمُ المَشورةَ وتَنصحُ بالحلّ الأمثَل والاختيارِ الأنسَبِ، وتُقْنعُ المُخاطَبَ بها[2]، وتؤثّرُ فيه تأثيراً يجعلُه يَبْني موقفاً.

ولكنَّ أهمَّ ركن من أركان الحِجاجِ تُبْنى عليْه بَلاغةُ الأمثالِ: **رُكنُ الخطابِ في ذاتِه**، أو **بَلاغةُ خطابِ الأمثال**. وما يَدخلُ في تركيبِه من أدواتٍ وتقنياتٍ تُسهِمُ في قوّةِ الإقناعِ وفي نَقْل الرّسالَةِ الأخلاقيّةِ التي تَنطوي عليْها الأمثالُ: فَقَد رأى أهلُ البَلاغةُ منذ القَديم أنّ المرءَ

---

[1] لقَد كانَت البَلاغةُ منذُ أرسطو بحثاً عن طُرقِ الإقناعِ، و لا يُتوصَلُ إلى الإقْناعِ إلاّ بأركانٍ ثَلاثةٍ: أورَدَها أرسطو في كتاب الخطابَة، أوّلُها **أخْلاقُ القائل أو حُجّة الإيتوس (*Ethos*)، ثمَ تَحويل السَامع إلى حالةٍ نفسيَة معيَنَة أو التأثير فيه، وهذه حجّةُ الباتوس (*Pathos*)، ثمَ القولُ في ذاتِه من حيثُ الإثبات أو عدَمه، أو حجَة اللوغوس (*Logos*)**.

انظر: أرسطو: **الخطابة**، ترجمة عَبْد الرحمن بدوي، بغداد، ط.2، 1986، 1355.

[2] إقْناعُ المُخاطَب والتأثير فيه حتّى يذْعنَ، هذه غايةُ البَلاغة الجَديدةِ التي طوّرَها كلٌّ من بيرلمان ونيتيكا :

M Meyer (sous la direction de); ***Histoire de la Rhéthorique des Grecs à nos jours***, coll. Le Livre de Poche, p:59.

وانظر أيضاً: عباس صولة: **البَلاغَة العَربيّة في ضَوء البَلاغة الجَديدَة أو الحِجاج**، بحث منشور في كتاب جَماعي: الحِجاج، مَفْهومُه ومَجالاتُه، تَحرير وإشراف: حافظ إسماعيلي علوي، نشر: ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر/دار الروافد الثقافيّة-ناشرون، بيروت، ط.1، 2013م، ص: 127-161.

يحتاجُ بعدَ السَلامةِ من اللَحنِ إلى الشَاهدِ والمَثَلِ. «والشَذرةِ والكَلمَةِ السَائرةِ؛ فإنَ ذلكَ يزيدُ المنطقَ تفخيماً ويُكسبُه قَبولاً... ويَدعو القُلوبَ إلى وَعيِه ويَبعثُها على حفظِه، ويأخذُها باستعدادِه لأوقاتِ المُذاكرةِ والاستظهارِ به أوانَ المُجاوَلَةِ في مَيادين المُجادَلَة... وإنّما هو في الكلامِ كالتَفصيلِ في العِقدِ والتّنويرِ في الرّوضِ... وما كانَ منه مَثلاً سائراً فمعرفتُه ألزَمُ؛ لأنَّ معرفتَه أعمَ والجَهلَ به أقبحُ.

ولَمَّا عَرَفت العربُ أنّ الأمثالَ تتصرَّفُ في أكثرِ وُجوه الكلامِ...أخرَجوها في أقواها من الألفاظِ؛ ليخفَّ استعمالُها ويسهُلَ تداوُلُها؛ فهي من أجَلِ الكلامِ وأنبلِه وأشرفِه وأفضلِه؛ لقلَةِ ألفاظِها وكثرةِ مَعانيها ويَسيرِ مَؤونتِها على المتكلِّم، مع كَبيرِ عنايتِها وجَسيمِ عائداتِها

ومن عَجائبِها أنّها **مع إيجازِها تعملُ عملَ الإطنابِ**. ولها روعةٌ إذا برَزَت في أثناءِ الخطابِ، والحفظُ مُوَكَّلٌ بما راعَ من اللّفظ، ونَدرَ من المَعْنى.

والأمثالُ أيضاً نوعٌ من العلمِ مُنفردٌ بنفسِه، لا يقدرُ على التّصرُّف فيه إلاّ من اجتهدَ في طلبِه حتّى أحكمَه... وإنّما يحتاجُ الرّجلُ في معرفتِها مع العلمِ بالغريبِ، إلى الوقوفِ على أصولِها، والإحاطةِ بأحاديثِها...[1]

فقَد تَبيَنَ أنَ ضربَ المَثَلِ علمٌ يُبلَغُ به إلى طَلَب المعْنى بأبلغ لفظٍ وأوضحِ بُرهانٍ؛ ويُصارُ إليه لكَشف المعاني وإدْناء المتَوَهَّمِ من الشّاهدِ.

الأمثالُ وخطابُ الأخلاق:

ضربُ الأمثالِ في الأدب العربيِّ يُقصدُ منه مَقاصدُ أخلاقيَةٌ كثيرةٌ: التّذكيرُ والنّصحُ والحضُّ والزّجرُ والعِبْرَةُ والتّقريرُ وتَقريبُ المطلوبِ إلى العقل وتَصويرُه بصورة المُحَسِّ، وتشبيه الخَفيِّ بالمُشاهَدِ الحاضرِ، بطرُق حجاجيّةٍ مُقنعةٍ تعتمدُ التّجربةَ والبُرهانَ العقليَّ، فذلِكَ أثبتُ في الأذهان لحاجةِ العَقلِ إلى البُرهان.

قال الزّمخشري: فإن كان المَمثَّلُ له عظيماً كان الممثَّلُ به مثلَه، وإن كان حقيراً كان المثَّلُ به كذلكَ. وقال الأصبهاني: لضَرْبِ العَربِ الأمثالَ واستحضارِ العُلماءِ النَّظائرَ شأنٌ ليس بالخَفيِّ في إبرازِ خَفيّاتِ الدّقائقِ ورَفعِ الأستارِ عن الحقائقِ، تُريكَ المتخيَّلَ في صورة

---

[1] أبو هلال العسكريّ: **جَمهرة الأمثال**، تحقيق: أحمد عبد السلام/محمد بسيوني زغلول، دار الكُتب العلمية، بيروت، 1408-1988، ج:1، ص: 9-10

المتحقِّقِ، والمتوهَّمَ في معرض المتيَقَّنِ، والغائبَ كأنه مُشاهَدٌ. وفي ضرب الأمثال تَبْكيتٌ للخَصم الشديدِ الخُصومة، وقَمعٌ لسَوْرَة الجامِحِ الأبيّ، فإنّه يؤثِّرُ في القُلوبِ ما لا يُؤَثِّرُ وصفُ الشيء في نَفسِه[1].

فأنتَ تَرى كيفَ أنّ المُصنِّفينَ في أدب الأمثالِ رَبَطوا بين الأمثالِ والعناصرِ المُمثَّلِ بها؛ وعَدُّوا **المَثَلَ بَلاغةً في القولِ، والتّمثيلَ به مُبالغةً في تَبليغِ خطابِ الأخلاقِ**؛ والعربُ قَديماً لم يَكونوا أصحابَ فصاحةٍ وبَلاغةٍ وتَزْيين للكَلامِ رغبةً في ذلكَ؛ ولكنّهم آثَروا اللّفظَ الحَسَنَ للمَعْنى الكَريم؛ وقَد عَقَدَ اللغويّونَ لهذه العنايةِ أبواباً في مُصنّفاتهم: فهذا ابن جنّيّ يردُّ على مَن اتّهمَ العربَ بعِنايتِها بالألفاظِ وإغْفالِها المَعاني، يقولُ: «بابٌ في الرّدّ عَلى مَن ادَّعى عَلى العَربِ عنايَتَها بالألفاظِ وإغْفالَها المَعاني... وذلكَ أنّ العَربَ كما تُعْنَى بألفاظِها فتُصْلِحُها وتُهذِّبُها وتُراعيها، وتُلاحِظُ أحكامَها، بالشِّعْرِ تارةً، وبالخُطَبِ أخْرى، وبالأسْجاعِ التي تَلْتَزِمُها وتَتكلّفُ استمْرارَها. فإنّ المَعانِيَ أقْوى عندَها، وأكرمُ عليها، وأفخمُ قَدْراً في نُفوسِها. فأوّلُ ذلكَ عنايَتُها بألفاظِها. فإنّها لمّا كانَتْ عُنوانَ مَعانيها، وطَريقاً إلى إظْهارِ أغْراضِها، ومَراميها، أصْلَحوها ورَتَّبوها، **وبالَغوا في تَحبيرِها وتَحْسينِها، ليكونَ ذلكَ أوْقَعَ لَها في السَّمْعِ، وأذْهَبَ بِها في الدّلالةِ على القَصْدِ**؛ ألا تَرى أن المَثَلَ **إذا كانَ مَسجوعاً لَذَّ لِسامعِه فَحَفظَه. فإذا هو حَفظَه كانَ جَديراً باستِعْمالِه**، ولو لَمْ يَكُنْ مَسجوعاً لم تَأنَس النَفْسُ به، ولا أنِقَتْ لمُسْتَمعِه، وإذا كانَ كَذلكَ لم تَحفظْه، وإذا لم تَحفظْه لم تُطالِبْ أنفُسَها باسْتعمالِ ما وُضِعَ له، وجيءَ به من أجْلِه.»[2]

مَلامحُ من خطاب الأخلاق في الأمثال:

قَواعدُ لُزوم الجَماعَة مُستنبَطَةٌ من الأعرافِ التّداوليّة المتجذّرة في الحياةِ العربيّة، وتَكاد تستوعبُ جلَّ الأمثال العربيّةِ، ولا يَكادُ يَخْلو مثلٌ من عظةٍ يُخاطَبُ بها فردٌ في جَماعةٍ أو جَماعةٌ في قَبيلةٍ

يَغلبُ على أكثرِ الأمثالِ العربيّةِ الفَصيحَةِ أن تَسوقَ العظاتِ والعِبَرَ التي تحضُّ على القِيَمِ الاجتماعيّةِ وأخلاق التَّرابُطِ بين الأفْرادِ، ولكنْ لَمْ يَغبْ عن أذهانِ المُصنّفينَ في الأمثالِ وأصحابِ شأن الأخلاقِ الجَماعيّةِ أن يُنبّهوا على تأصُّلِ الخلافِ في النّفوسِ، فقَد نطَقَت

[1] السيوطيّ: **الإتقان**: 1041/2

[2] ابن جنّي: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النّجار، نشر دار الكُتُب المصريّة، المكتبة العلميّة، ج1/ص:215-216.

الأمثالُ باختلافِ أحوالِ النّاسِ وتبايُنِ أخلاقِهِم قبلَ أن يُربّوْا على أخلاقِ الجَماعةِ وروحِ القَبيلةِ؛ فقَد وطّأَ المَثَلُ العربيَّ لأخلاق الجَماعَةِ باختلافِ أحوالِ الأفرادِ؛ فقال: «النّاسُ أخْيافٌ» أي مُتفرّقون في أجسامِهم وأخلاقِهم، وشأنُهم تبايُنٌ واختلافٌ أيّةً سَلَكوا، بل الأغربُ أن يحضَّ المَثَلُ على رعايَةِ التّبايُنِ؛ فـ« لن يَزالَ النّاسُ بخيرٍ ما تَبايَنوا فإذا تَساوَوْا هَلَكوا »[1] تَجمعُهم الفَضيلةُ الواحدةُ وتُفرّقُهم الخِلالُ المُتباعدةُ

البُعدُ النّفسيّ في الأخلاق الاجتماعيّة :

ويتّخذُ خطابُ الأخلاقِ الاجتماعيّةِ في الأمثالِ العربيّةِ بُعداً نفسياً يُساعدُ على تَثبيتِ تلك القِيَمِ والأعرافِ في النّفوسِ، وتركيزِها:

* ففي المَثَل: «إذا كنتَ في قومٍ فاحلُبْ في إنائِهم»[2]، أي وافقْهُم في أمورهم وشاركهُم في حُلْوِهِم ومُرِّهم، ويزدادُ الأمرُ إلحاحاً إن كنتَ في قومٍ لَستَ منهم، وفي ذلكَ أنشَدَ الجاحظُ في كتابِ الحَيوان شعراً لخالد بن نَضلةَ في تمجيد الأقارب، قالَ فيه:

لَعَمْري لَرَهْطُ المَرءِ خَيْرٌ بَقِيةً /// عليه ولو عالَوْا به كلَّ مَركبِ

منَ الجانِبِ الأقصَى وإنْ كان ذا نَدى /// كثيرٍ ولا يُنْبِيك مثلُ المجرِّبِ

إذا كنْتَ في قومٍ عِداً لستَ مِنْهُمُ /// فكلْ مَا عُلِفْتَ مِنْ خَبيثٍ وَطَيِّبِ[3]

فرهطُ المرءِ وقومُه خيرٌ لَه من غيرِهم وإن هم أركَبوه المَراكبَ الصّعبةَ. أما إذا كانَ في قومٍ غُرَباءَ أو عِداً فليلتزِمْ بما ألزِمَ.

* وفي المَثَل: «إنّ المُوَصَّيْنَ بَنو سَهْوان»[4]: مَثَلٌ يُقالُ للمُخاطَب، يُقالُ لَه فيه إنّما يَحتاجُ إلى الوَصيّةِ مَن يَسْهو ويَغفُلُ. فأمّا أنتَ فَغيرُ مُحتاجٍ إليها لأنّك لا تَسهو. وعَقلُكَ وأدَبُكَ يُغني عن وصايَتِكَ بعد أن تَعرفَ الحاجَةَ. ومن أمثالِهم السّائرةِ في الناس في هذا السياقِ: أرْسِلْ

---

[1] أبو الرّبيع سُلَيْمان الكلاعيّ. **مَجْمَع الأمثال ونَفْثة السّحر الحَلال**. تحقيق علي إبراهيم كردي. نشر: دار سعد الدّين. دمشق. 1416-1995. ص: 75.

[2] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**. ج1/ص: 91

[3] الجاحظ. **الحَيَوان**: 103/3. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط. مصطفى البابي الحلبي وأولاده. ط.2. 1965-1385.

[4] أبو الفَضل المَيْداني: **مَجمَع الأمثال**. تحقيق: محمد أبو الفَضل إبراهيم. المَكتبَة العَصريّة. بيروت. 1432هـ-2011م. ج1/ص:15.

حَكيماً ولا تُوصِه[1]. وهنا يُمدَحُ المُخاطَبُ بالمَثَل، بأبلغِ لفظٍ، وإن لم يَظهَرْ في بنيةِ المَثَل اللفظيّةِ؛ لأنّ السياقَ يقتَضي أنّ الخطابَ ليسَ مجرّدَ إخبارٍ عن بني سهوانَ أنّهم يحتاجونَ إلى التّوصيةِ لكثرةِ سَهوِهِم، ولكنّ وراءَ الخطابِ مَعْنىً مراداً هو أنّ المُخاطَبَ غيرُ بني سهوانَ ولا يَحتاجُ إلى أن يُوصى كَما يُوصَوْنَ، فهو مُستَغْنٍ بحكْمتِه عن الوصيّة. وهذا أنموذجٌ للمَرءِ المحمودِ الذي يُرْجى أن يَكثُرَ سوادُه في المجتمَع؛ فقَد دأبَ العربُ في أدَبِهِم ومُخاطَباتِهم على الرّمز والكنايَة

في هذا المَثَلِ كنايةٌ عن أنّ الذينَ يُوَصَّوْنَ بالشّيءِ يَسْتَوْلي عَلَيهِم السَّهوُ حَتّى كأنّه مُوَكّلٌ بهم، وفيه تَعليمٌ للمُخاطَبِ أن يحرصَ على التّذكُّرِ وعَدمِ السّهو: **فالسّهوُ يُخرِجُ الفردَ من الجَماعةِ ويُضْعِفُ ارْتباطَه بها**، لقلّةِ عنايَتِه بما أوصِيَ به.

* وإذا اتّسَعَ الشّقُّ بين الأفرادِ رُقِعَ؛ فإنّ دَواءَ الشّقّ أن تَحوصَه، أي أن تَرْتقَ فَتقَه، فيرجِعَ الفَردُ إلى الجَماعَة، ومن صفاتِ الفَرْدِ الشّجاعةُ، فَلا جُبْنَ داخلَ الجَماعةِ، فَمن جَبُنَ نزَلَ حتفُه مِن فوقِه؛ لأنّ التّحرّزَ ممّا ينزلُ من فَوق غيرُ ممكنٍ، والحتفُ أسرعُ إلى الجَبانِ منه إلى الشّجاعِ[2].

فالفردُ لا يجبنُ، ولا ينخدعُ أيضاً؛ لأنّ المُعافَى غيرُ مَخْدوعٍ، فإذا حصَلَ له أن يُخادَعَ اعْتَبَرَ، فلَم يضرّه بعدَ أن عوفِيَ، شيءٌ.

* ومن أمراضِ الجَماعةِ المُغتفَرةِ لدى العرَبِ ما يَكونُ بينَ الحَماةِ والكَنّةِ من عَداوةٍ مُفرّقةٍ، فهي عَداوةٌ غريزيّةٌ مُستحكمةٌ لا تَقْوى عليْها يَدُ القَبيلةِ. وقَد أنشدوا في ذلِكَ بيتاً جَرى مجْرى المَثَلِ:

إنّ الحَماةَ أُولِعَتْ بالكَنَّه /// و أولِعَت كَنّتُها بالظّنّه

ولَعلّ الذي سَوّغَ العَداوةَ والخُصومةَ بينهُما وتَركَ نارَها مُستعِرةً، لا تمتدُّ إلى حمى القَبيلةِ كلّها، أنّ العَداوةَ إنّما هي بين امرأتيْن، ولو جَرَت العادَةُ أن تكونَ العداوةُ بينَ رجليْن من رجالِ القَبيلةِ الواحدةِ لسَارَعَت الجَماعةُ إلى وأدِها، وفي ذلِك ما فيه من قلّةِ العنايةِ

---

[1] إذا كُنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً /// فأرسِلْ حَكيماً ولا توصِه

قالَه الزُّبيرُ بنُ عبدِ المطّلب. انظر: **جَمْهَرَة الأمثال** لأبي هلال العَسكريّ. تحقيق أحمد عبد السلام ومحمّد سَعيد زغلول، دار الكُتب العلميّة، بيروت، 1408 – 1988. ج1/ص:83.

[2] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص:17

بالمرأةِ، في الخطابِ الأدبيّ الاجتماعيّ العربيّ. وأنّ خصامَ النّساء لا يُسقطُ بنيانَ القَبيلةِ، على عادةِ العربِ قَديماً.

* ومن الزلاّتِ المُغتفَرَةِ، التي لا تَعصفُ ببُنيانِ القَبيلةِ ولا تذهَبُ بهيْبَتها، زلّةُ الجَوادِ؛ فتُغْتَفَرُ الزّلّةُ من الجَوادِ[1]. وهو مَثَلٌ يُضربُ لمن يَكونُ الغالب عليه فعل الجَميلِ، ثمّ تَكونُ منه الزّلّةُ فَلا تُخْرِجُه عَن جودِه وكَرمِه ومَكانتِه بين الجَماعةِ. فإذا كانَ للجَماعَةِ أكثرُه فلْيَتجافَوْا عن أيْسَرِه

أمَا العالِمُ فلا تُغتفَرُ زلّتُه؛ لأنّه إذا زلَّ زلَّ بزلّتِه عالَمٌ، فهُم به مُقْتَدونَ، إذا غَوى غَوَوْا مَعه فَضاعَ وضيَّعَ مثل السّفينةِ إن هَوَت في لُجّةٍ تغرَقْ ويغرقْ كلُّ ما فيها

ولكن إذا غُفِرَت زلّةُ الجَوادِ فلا تُغتفَرُ كثرةُ المَعاذيرِ؛ فإنّها زلّةٌ كبيرةٌ يَشوبُها الكذبُ ويتّسعُ بكثرتِها الخَرقُ على الرّاقعِ؛ وبذلِك ورَد المَثَلُ العربيُّ:

قَدْ عَذرْتُكَ غَيرَ مُعتذِرٍ /// إنّ المَعاذيرَ يَشوبُها الكَذِبُ[2]

وهكذا، تظلُّ للقبيلَةُ مركزيتُها التي لا تُنقَضُ بشذوذ الفردِ، بل تُحفَظُ ويُحتَمى بها.

* وقد تظهرُ الدّاهيةُ العَظيمةُ في الفجوةِ الصّغيرةِ، فَلا ينبغي استسهالُم الفَجْوَةَ؛ فَقد يخرُجُ منها ما يُفرّقُ الجَماعةَ ويُشتّتُ شملَها؛ وبذلِكَ نَطَقَ المثلُ: «إنّ الخَصاصَ يُرى في جَوفِها الرّقِمُ». والخَصاصُ الفُرجَةُ الصَّغيرةُ بَين الشّيئينِ، والرَّقِمُ الدّاهيةُ العَظيمةُ. ومَعْناه أنّ الحَقيرَ يُخفي وَراءَه الشيءَ العَظيمَ، ومَلامحُ الشّرِّ العَظيمِ تَتراءى خَلْفَ مُستصْغَرِ الشّررِ: فلا يَحْقِرنَّ امرؤٌ من الأشياءِ شيئاً، فكَم من ثَغرةٍ لم يُلْقِ لَها المرءُ بالاً كانَت عليه وَبالاً.

ومثلُه أنّ «الدَّواهِيَ في الآفاتِ تهتَرِسُ». من الهَرْسِ وهو الدَّقُّ أي إنّ الآفاتِ يدقُّ بعضُها بعضاً ويَموجُ بعضُها في بعضٍ كثرةً. وفي ذلِك كِنايةٌ عن اشْتدادِ الزّمانِ واضْطِرابِ الفِتَنِ، وتنبيهٌ للنّاسِ على أنّ صغارَ الأمورِ طَريقٌ إلى كبارِها. وهذا ضربٌ من تَعليمِ المُجتَمَعِ الحكمةَ وتَلقينِه منهَجَ استخْلاصِ العِبَرِ.

---

[1] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص:19

[2] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص:19

أخلاقُ الجَماعةِ وتربيةُ النفوس:

* وكانَت للعربِ قديماً طريقةٌ عَجيبةٌ في مُعامَلةِ بعض النّفوسِ وتربيتِها؛ فقَد دأبوا على إكرامِ الكَريمِ وإهانةِ اللّئيمِ، ووَجدوا أنّ الهَوانَ للّئيمِ مَرأمَةٌ وعَطفٌ؛ وهو خيرٌ له من الإكرام، لأنّهم إذا أكرَموا اللّئيمَ تَمَرّدَ واستخفَّ وإذا أُهينَ خَنَعَ وانكَسَرَ. فلا يستَقيمُ عندَهم أن يوضَعَ النّدى في مَوضعِ السّيفِ، مثلَما أنّه لا يوضَعُ السيفُ مَوضعَ النّدى. فكلاهُما مرٌّ مُضرٌّ. وفي المَثَل: «إنّ الهوانَ للئيم مَرأمةٌ»[1]؛ ومِن أمْثالِهم في هذا المَعْنى: «لا أخا لَكَ باللَّئيمِ»، يُرادُ به النّهيُ عن إكرام اللَّئيم، ذلكَ أنّكَ إذا قُلتَ له: يا أخي، جَهِلَ قَدْرَه، ورَأى أنّه فَوقَكَ[2].

* ومن أخلاق الجَماعةِ أن يسعى المرءُ معَ صاحبِه وقتَ الشّدائدِ؛ «فإنّ أخا العَزّاءِ مَن يَسعى مَعك»[3]؛ فلا يخذُلُك في الشّدائدِ.

ومن الشّدائدِ الصّبرُ على الأذى، ومن ذلكَ جَفاءُ الإخوانِ، فهو شديدٌ على النَفسِ، والجَماعةُ تأمرُ المَجفُوَّ بالصّبر. فقَد وعظته في نفسِه موعظةً بليغةً قائلةً: «إن لم تَعَضَّ على القَذى لم تَرضَ أبداً»[4]، والعَضُّ كنايةٌ عن المُبالغةِ في الصبرِ وتحمُّلِ الهجران.

أخذُ المرءِ بالعَزمِ والحَزمِ في الأمورِ خُلُقٌ من أخلاقِ الجَماعَة:

وتحتملُ القبيلةُ أبناءَها على ما فيهم، وفي ذلِكَ تَقولُ العربُ: «أنفُك منكَ وإن كانَ أذَنَّ»[5]. وأنفُك منكَ وإن كانَ أجدَعَ، فلا يَذِلُّ مَن كانَت وراءَه قبيلتُه؛ إنّما الذّليلُ الذي ليسَت له عَضُدٌ، والذّليلُ مَن خذَلَه ناصرُه، ومَرجعُ الرّجُل قَبيلتُه وإلى أمّه يلهفُ اللّهفانُ. ولكنّ اعتمادَ الرّجُلِ على قومِه وبَني قَبيلتِه وجَماعتِه لا يُعفيه من الأخذ بالحَزمِ؛ فلأن تَرِدَ الماءَ بماءٍ أكيَسُ لَك، أي أن تَرِدَ الماءَ للسّقي ومَعك ماءٌ –إن احتَجتَ إليه- اكيَسُ [1]، وخيرٌ من أن تفرّطَ فيه، ولعلّكَ لا تجدُ ماءً فترجعُ إلى الذي في يدِكَ، فلا تُضيّعْ ما معَك ثقةً بوُرودكَ.

وهكذا، أخذُ المرءِ بالعَزمِ والحَزمِ خُلُقٌ من أخلاقِ الجَماعَة؛ فإذا اطّردَ هذا الخلُقُ عند سائرِ القومِ أصبحَ الحزمُ خُلُقاً اجتماعياً يُقوّي الجماعةَ.

---

[1] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص:23، والمرأمَةُ والرّتمانُ الرّأفةُ والعَطفُ.

[2] أبو هِلال العَسْكريّ: **جَمْهَرَة الأمثال**، ج2/ص:315.

[3] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص: 83

[4] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص: 91

[5] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص:31، الأنفُ الأذنُّ: الذي يَسيلُ مُخاطاً [لسان العرب/مادّة ذنن]

* ومن أخلاقِ الجَماعةِ العدلُ والإنصافُ بينَ أبناء القَبيلةِ الواحدةِ، وفي ذلكَ ذكَرَ المُنذريّ مثلاً مشهوراً من أمثال العرب: «إذا أتاكَ أحدُ الخَصمَيْن وقَد فُقئَت عيْنُه فَلا تَقضِ له حتّى يأتيكَ خصمُه، فلعلّه قد فُقِئَت عَيْناه جَميعاً»[1]، فلعلّ التَرَيُّثَ في القَضاء يُفضي إلى الإنصافِ ودَرءِ المظلمَة.

* ومن ذلِكَ أيضاً الحثُّ على الجدّ في طَلَب الأمور والتَّحذيرُ من السّآمَة؛ فقَد أوصى أبجَر بنُ باجر العجليّ ابْنَه حجازاً، قائلاً : «إيّاكَ والسّآمةَ في طلَبِ الأمورِ فتقذفكَ الرّجالُ خلفَ أعقابِها»[2]، إياك وأن تكونَ لك همّةٌ دونَ الغايَة االقُصوى، فإنّك إن سئمْتَ قذَفتْكَ الرّجالُ خَلفَ أعقابِها؛ وإذا دَخلتَ مصراً فأكثِر من الصَّديقِ؛ فإنّكَ على العَدوّ قادرٌ؛ وإذا حضرتَ بابَ السّلطانِ فلا تُنازِعنَّ بَوّابَه على بابِه، فإنّ أيسرَ ما يَلقاكَ منه أن يُعلقَك اسماً يَسبُّكَ الناسُ به؛ وإذا وَصلتَ إلى أميرِكَ فَبوّئْ لنفسِكَ منزلاً يَجمُلُ بك؛ وإيّاكَ أن تجلسَ مجلساً يَقصُرُ بك. وإنْ أنتَ جالسْتَ أميرَك فلا تُجالسْه بخلافِ هَواه، فإنّك إنْ فعلتَ ذلكَ لم آمَنْ عليكَ -وإن لم تُعجِّلْ عقوبتُك- أن يَنفرَ قلبُه عليكَ؛ فلا يزالُ منك مُنقبضاً... ولا تكنْ حُلواً فتُزْدَرَدَ ولا مُراً فتُلفَظَ. واعلمْ أنّ أمثلَ القوم رُتبةً الصّابرُ عندَ نزولِ الحَقائقِ، الذّابُ عن الحُرَمِ[3].

فمُخالطةُ الرجالِ ومُعاشرةُ الكبارِ لا تخلو من آدابٍ وقَواعدَ اجتماعيّةٍ إذا رُعيَت وروعِيَت سَلمَ الرّاعي والمُراعي، وأمنَ في قَومه، وإذا ضُيّعَت ضاعَت أخلاقُ الجَماعَةِ وذهَبَ بأسُها وهيبتُها بين القَبائل.

* ومن أخلاقِ الجَماعَةِ مؤاخاةُ الأكفاءِ ومُداهنَةُ الأعداءِ[4] : فالأكفاءُ من القومِ يستحقّونَ المُخالصَةَ والمُصافاةَ، أمّا الأعداءُ فيُخالَقونَ بالمَعروفِ من غير ودٍّ. وذلكَ أنفعُ للقبيلَةِ وأجمَلُ بها حتّى لا يَذهبَ ريحُها إذا نشبَت حربٌ مع الأعداءِ.

هذه الأخلاقُ تستندُ إلى أعرافٍ يلتزمُ بها الأفرادُ والجَماعةُ، **ويُصبحُ الوجهُ العُرفيُّ والمظهَرُ الاجتماعيُّ الذي في تلك المَسالكِ أصلاً يُعتلُّ به وقاعدةً يُحتجُّ بها، من غيرِ نظرٍ في موافقَةِ القاعدةِ الاجتماعيّةِ أو مُفارقتِها لوسائل الحجاجِ العَقليّة**، واكتسَبَت مع طولِ

---

[1] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص:94.

[2] العَسْكري: **جَمهرَة الأمثال**:

[3] المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج3/ص:36.

[4] «آخِ الأكْفاءَ وداهِن الأعداءَ»: المَيْداني: **مَجْمَع الأمثال**، ج1/ص:116.

الإلفِ والعادَةِ وكثرةِ الاستعمالِ قوّةَ الدّليلِ العقليّ الذي يُتعلّقُ به في مواجهةِ الظّروفِ. فقَويَت العادةُ العُرفيّةُ والسّلطةُ الاجتماعيّةُ قُوّةَ الحُجّة المنطقيّة. إذا رُفِعَت في وجه المُخاطَب أذعَنَ ورَضِيَ.

بَلاغة الاحتجاج بأدوات البَيان:

يُستثمر التشبيه ومَعاني التّفضيل وباقي الألوان البيانيّة لإخراج الحِجاج بمظهر بَلاغي مُقنع: يقومُ مقامَ الحجّة العقليّة: فَمن بَلاغة الإقْناع انتقاءُ اللفظ البليغِ للمَثَل البَليغ: من ذلِكَ ما جاءَ على "أفعل من"، كقولهم:

- «أبلَغُ من قُسٍّ»[1] و«أخطَبُ من قُسّ»، و«أنْطَقُ من قُسٍّ غَداةَ عُكاظِها»، وهو قُسّ بنُ ساعدةَ الإيادي حَكيم العَرَب، وأوّلُ مَن قالَ "أمّا بعدُ" وأوّلُ مَن قالَ "البيّنةُ عَلى من ادّعى واليَمينُ على مَن أنكرَ"، وأوّل من أقَرَّ بالبَعثِ من غَير عِلمٍ.

لقَد جَمَعَ المَثَلُ الموجَزُ المركّزُ ما تناثَر من مَعاني البَلاغَة في الكلام والمَهارَة فيه. فَلا يُستعمَلُ هذا المَثَلُ إلاّ إذا عَرفَ المتكلّمُ قُسّاً ومنزلته في البلاغة والحكمةِ وفَصلِ الخطابِ، لأنّ من شرطِ ضربِ المَثَلِ معرفةَ منزلةِ المُمَثّلِ به وسياقِ ورودِ الكَلامِ فيه.

- و«أبصَرُ من زرقاءِ اليَمامة»[2]: وزرقاءُ اليَمامة مَعروفةٌ: قالَ أبو عَمرو بن العلاء: داهيتا نساءِ العَرَبِ هِندُ الزرقاءُ، وعنزُ الزرقاء، وهي زرقاءُ اليَمامَة[3]. ويُفيدُ المَثَل دقّةَ بصرِ زرقاءِ اليَمامة. وأنّ مَن ضُرِبَ به المَثَلُ ففيه كنايةٌ عن حدّةِ البصَرِ، وفيه تشبيه ضمنيٌّ بزرقاءِ اليَمامَةِ في ما اشتهرَت به.

---

[1] المَيْداني: **مَجمَع الأمثال**. ج1/ص:169.

[2] المَيْداني: **مَجمَع الأمثال**. ج1/ص:170.

[3] أورَدَ قصّتَها كثيرٌ من أهلِ العلم والأدب. انظر: باب ذِكْر أسماء الخُطَباء والبُلَغاء والأنبياء وذكر قَبائلهم وأنسابهم: الجاحظ: **البَيان والتَّبيين**. ج:1. ص:313.

نَسَقُ النّصّ الشّعريّ وسياقُه التّاريخيّ، من خلالِ شرح المرزوقي لديوان حَماسَة أبي تمّام[1]:

ديوان الحَماسة عبارةٌ عن اختيارات شعريّةٍ لأبي تَمّام، وقد بَنَى الاختيارَ على معيارِ "المَعاني الشّعريّة"[2]، وهذا ما جَعَلَه يَبْني اختيارَه على البَيت والبَيْتَيْن **من القَصيدةِ كلّها إذا أعجَبَه منها مَعْنىً أو مَعانٍ معيّنةٌ.**

ذَكَرَ المرزوقي في مُقدمَة شرحِه أنّ أبا تَمّامٍ مَعروفُ المذهَبِ في ما يَقرضُه « مُتوصِّلٌ إلى الظّفَرِ بمطلوبِه من الصَّنْعَةِ... مُتغلغِلٌ إلى تَوعيرِ اللّفظِ وتَغميضِ المَعنى أنّى تأتّى لَه وقَدرَ ». ولعلّ مَذهبَه في نظمِ الشعرِ أثّر في منهجِه في اختيارِ الأشعارِ وانتقاءِ بعضِها دون بعضٍ؛ فقَد جمع في أشعارِ المتقدّمينَ ما جمَعَ بين شَرَف المعنى وصحَّتِه، وجَزالةِ اللفظِ واستقامتِه والإصابةِ في الوصفِ، والمُقاربةِ في التّشبيه، والْتحامِ أجزاءِ النّظمِ والْتئامها، ومُشاكَلَة اللفظِ للمعنى، وشدّةِ اقتضائه للقافيةِ.

ولكنّ المرزوقيَّ يَعجبُ كيفَ أنّ أبا تمامٍ خرَج من اختيارِه عَن ميدان شعرِه وفارقَ فيه ما يَهواه؛ فقَد أورد من الشعرِ ما يَستجيدُه، حتّى إذا انتهى إلى لَفظةٍ تَشينُ البيتَ غيَّرها، وجَبرَ نَقيصَةَ البيتِ وسدَّ ثلمتَه بلفظةٍ أخرى.

ثمّ نصلُ بعد التّقديمِ إلى بابِ "الأضيافِ" وهو البابُ السادسُ بعدَ الحَماسَة والمَراثي والأدبِ والنسيبِ والهجاءِ، ويأتي بعدَ باب "الأضيافِ" أبوابٌ أخرى هي المَدحُ والصفاتُ والسَّيْرُ والنُّعاسُ والمُلَحُ ومَذمَّةُ النّساءِ.

لقَد جَمَعَ أبو تَمّام في هذا البابِ أشعاراً في "الضّيافَةِ والأضيافِ" جمَعَت مَعانيَ الكرَم وكلَّ ما يتَّصلُ بصفاتِ الضّيوفِ والعلاماتِ التي يتوسَّلون بها ليُنتَبَه إليهم وليَلفتوا انتباهَ المُضيّفينَ. ويَبدو أنّ أهمَّ وسيلةٍ كان يَعمدُ إليها طُلاّبُ الضّيافةِ هي النُّباحُ ليلاً وذلك لتَسمَعَهُم كلابُ الحيِّ فتنبحَ أو لكي يَفزَعَ النُّوَّمُ إليهم فيُقْروهُم. وقد تكرَّرَت هذه المَعاني في جلِّ أشعارِ البابِ، نحو قول الشاعر:

---

[1] **شَرح ديوان الحَماسَة**، لأبي عَلي المرزوقي (ت.421هـ) علّق عليه وكَتَبَ حَواشيَه غريد الشّيخ، وضع فهارسَه العامةَ إبراهيم شمس الدين، باب الأضياف، مَنشورات محمد علي بيضون، دار الكتُب العلمية، بيروت، ط.1. 1424 – 2003. الجُزء الرابع، ص: 1089

[2] خلافاً لمنهَج التّبريزي في شرح ديوان الحَماسَة، الذي عُنِيَ بالنحو واللغةِ أكثرَ من العنايَة بمَعاني الشّعر.

ومُستنبِحٍ قالَ الصَّدَى مثلَ قولِه /// خَضأتُ لَه ناراً لها حَطبٌ جَزلُ

فقُمتُ إليه مُسرِعاً فغَنِمتُه /// مَخافةَ قَومي أن يَفوزوا به قَبلُ

فأوْسَعَني حَمداً فأوسعْتُه قِرىً /// وأرْخِصْ بحَمدٍ كانَ كاسبَه الأكلُ [1]

السياقُ التاريخيُّ: سياقُ الشعرِ التاريخيُّ يُستفادُ منه أنّ العَرَبَ كانوا أمَّةَ قِرىً وكَرَم ونَدىً، وقد تَعَدّدت الأشعارُ التي ثبَّتَت هذه القيمةَ، وأكثرُها أشعارُ الجاهليّينَ، ثمّ الإسلاميّين والأمويّينَ والعبّاسيّينَ، واقترنَ القِرى بأنّه سُلوكٌ أو عادةٌ مَحمودةٌ يُمدَح صاحبُها؛ فقَد تَفاخَرَت القبائلُ التي تُضيِّفُ الضَيفَ وتقْرِيه، ومُدحَ الخُلَفاءُ والوُلاةُ بهذه القيمةِ الخُلُقيّةِ الاجتماعيّةِ، بل تجدُ أنّ الشعرَ العربيَّ احتفظَ لنا بمُعجمٍ ضَخمٍ اشتمَل عَلى مَعاني الكَرَم وألفاظِه وما يتَّصلُ بها من مَعانٍ قَريبةٍ أو بَعيدةٍ. فالكَرمُ يقتضي العنايةَ بالمُكْرَمين وتَضييفَهُم وإكرامَهُم بأجودِ الطّعامِ والشرابِ، والحِرصَ على أسبابِ راحتِهم ورِضاهُم. وقد بذلَ الشعراءُ لهذه المَعاني جهداً بلاغياً مَلحوظاً؛ فقَد شبَّهوا الكريمَ بالبحرِ عَطاءً وسَخاءً وصوَّروا بيتض الكريمِ بصورٍ تشبيهيّةٍ واستعاريّةٍ ومَجازيّةٍ؛ فهو كَثيرُ رَمادِ القِدرِ وقليلُ نُباحِ الكَلبِ، من كثرةِ زيارةِ الضّيوفِ والزّوّارِ.

وهذا بابٌ يَطرُقُه عابرُ السبيل إن كان سارياً، فهو يَطرُقُ بابَ المُضيِّفِ باستنباحِ الكلابِ ليلاً، مثلَ ما قالَه القائلُ:

ومُستنبِحٍ قالَ الصَّدَى مثلَ قولِه /// حَضأتُ لَه ناراً لها حَطبٌ جَزلُ[2]

وهذا ممّا وردَ برسالَة "قِرى الضَيف" للحافظ ابنِ أبي الدُّنيا (ت281هـ) [3].

فالضيفُ المُستنبِحُ جاء على مطيَّةٍ يَبغي المَبيتَ، أضافته الكلابُ النوابحُ من حيثُ لا تَدري، وطرحَت به الخُطوبُ الطوارحُ إلى أهل الدارِ من الكرامِ، الذينَ يَهبّونَ مُستقبِلين مُضيّفين، ولا يَظلّون قابعين في أماكنِهم، كما يَظلُّ البخيلُ الشحيحُ، عادتُهُم ودَيْدنُهم: أهلا وسهلا ومَرحباً بالضَّيف العَزيز، فَما ضاقَت بلادٌ بأهلِها، ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضيقُ.

---

[1] **شَرح ديوان الحَماسَة**، ص: 1098، القطعة رقم: 677.

[2] **المصدرنفسُه**، الجزء 4 ، ص: 1098

[3] تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، نشر أضواء السلف، الرياض، الجزء 4 ، ص: 1098

ومن نباهةِ القَبيلة ما قالَه الجاحظُ في "الحَيَوان" في شعرِ ابنِ هرمَةَ :

ومُستنبِحٍ نبَّهتُ كَلبي لصَوته /// وقلتُ له قُمْ في اليَفاعِ فَجاوبِ

فرحَّبتُ واستبشرْتُ حتّى بسطتُه /// وتلكَ التي ألقى بها كلَّ آئبِ[1].

وهذا من أثَر الشعرِ في نَباهةِ القَبيلَةِ أو خُمولها. لقد كان الشعراءُ يَمدحونَ الكريمَ النديَّ، جَبانَ الكَلب، الموطَّأَ البيتِ. وغلبَ على أشعارِهم مَدحُ الناسِ بمَدحِ كلابهم، وهَجْوُهُم بهَجوِ كلابِهم. فاستنباحُ الضَّيْفِ الكلبَ كنايةٌ عَن طلَب النزولِ، ومَدحُ الشُّعَراءِ الكلابَ كنايةٌ عن كرَم أصحابِها، وهجوُهُم الكلابَ كنايةٌ عَن هَجوِ أصحابِها بالبُخلِ[2].

ومن المَعلوم أنّ العربَ بَكَت بالدّموعِ الغِزارِ من وَقعِ الهجاءِ في النفوسِ. وهذا أول كَرَمِها، كما قال الجاحظُ[3]: فقَد بَكى مُخارقُ بنُ شهاب، وبَكى علقمةُ بنُ علاثةَ، وبَكى عبدُالله بنُ جدعانَ من بَيتٍ هَجاهُ فيه خداشُ بنُ زهير. وما زالَ يهجوه من غير أن يكونَ رآه، ولو كان رآه ورأى جمالَه وبهاءَه ونُبلَه والذي يَقعُ في النفوسِ من تَفضيلِه ومحبَّتِه ومِنْ إجلالِه والرِّقّة عليه لأمْسَكَ[4].

النَّسَقُ الشعريُّ :

كثيرٌ من الأشعارِ التي صَدَّرَها أصحابُها باستنباحِ الكلابِ غير مَنسوبةٍ إلى شاعرٍ بعيْنه: وهذا يدلُّ على الاستنباحَ كانَ مُتداوَلاً مَشهوراً .

يفتتح الشاعرُ الأبياتَ بأسلوبِ التَّقْليلِ (و مُسْتنبِحٍ) ، ويدلُّ ذلك على أنَّه ينتظرُ استنباحَ طارقٍ بلَيلٍ ليفتَحَ له ويُضيِّفَه، ولكنَ النفوسَ مُهيَّأةٌ لإجابةِ الدّاعي. ومن صفاتِ هذا الطّارقِ المُستنبِحِ أنّ الصَّدى يُجيبُه بمثلِ صَوتِه عندَما يُصوّتُ. ويدلَ ذلك على أنّه طارقٌ بليلٍ لأنّ الصَّدى أوضَحُ باللّيل، فهو مُستنبِح الكلابَ بالليل. وسرعانَ ما استجابَ الشاعرُ للضَّيف فحَضَأ له النّارَ أي أوقَدَها بحطبٍ جَزلٍ وحرَّكَ جَمرَها حتّى ترتفعَ ولا تخمدَ، ثم هبَّ

---

[1] **كتاب الحَيَوان**، للجاحظ تحقيق: عبد السلام هارون، ط. البابي الحلَبي، القاهرة، 1384-1965، ج:1 / ص:367.

[2] **كتاب الحَيَوان**، ج:1 / ص:367. هَجْوُ الناسِ بهَجْوِ كلابهم.

[3] **نفسُه:** هَجْوُ الناس بهجْوِ كلابِهم.

[4] **نفسُه** : ج:1، ص:364

إليه يَستقبلُه قبل أن يَفوزَ به غيرُه من أهلِ الحيِّ، وكأنّ الضَّيفَ غَنيمةٌ يَتنافسُ عليها الناسُ، وهذه بلاغةٌ في الجودِ والكَرَم.

صورةٌ جَميلةٌ ينسجها الشّاعرُ في البيت الأوّل تدلُّ على بلاغةِ الكرَم: حَرَكَةٌ تنبعثُ من الضّيف هي الاستنباحُ فتستجيبُ الكلابُ نابحةً ويَستجيبُ الصَّدى مُرجعاً ويَستجيبُ الشاعرُ مُستقبِلاً ومُوقِداً ومُطعِماً . ثم يَرضَى الضيفُ فيحمدُ لصاحبِ الدارِ صَنيعَه فيوسعُهُ إطراءً وحَمداً، فما أرخصَ الحمدَ الذي يجلبُه الأكلُ .والقِرى. ويظهر ثمَّة اختلاف بين رواية محقق الكتابِ، لهذا الشعر حيثُ أوردَ قولَه "وأرْخِصْ بحمدٍ كان كاسبَه الأكلُ"، وبين الروايَة التي بَنى عليها المَرزوقيُّ شرحَه "وكانَ كاسبَه أكلُ" إذ جعلَ النكرةَ اسمَ "كان" والمعرفةَ خبراً، وهي أصحُّ من رواية المحقق: لأن روايةَ المرزوقيِّ مُطابقةٌ لشرحِه وتَعليلِه، وهي أنّ تَنكيرَ الاسم وإبْهامَه في هذا الموضعِ أبلغُ في المَعْنى المُستَفادِ. أما روايَة التعريف "وأرْخِصْ بحمدٍ كان كاسبَه الأكلُ". فهي واردةٌ غيرُ مُستبعَدةٍ، ولكن روايَة "التعريف" ليس فيها نكتةٌ بلاغيةٌ كالتي في إبهامِ التنكير .

وفي الأبياتِ صورٌ بلاغيةٌ بَديعةٌ، منها إسنادُ القَولِ إلى الصَدى مجازاً، ومنها تَنزيلُ الضّيفِ منزلةَ ما يُغنَمُ من المالِ كنايةً عن الحَظيَةِ، وأُسنِد فعلُ الكَسبِ إلى المصدر "الأكل"، وكأنَ الأكلَ جلَبَ المدحَ، وهو مَجازٌ يدلُّ على صاحبِ الأكلِ.

وأمّا المقطوعاتُ الأخرى التي تدخلُ في بابِ الأضيافِ ففيها جزئيّاتٌ وعناصرُ أخرى تأتلفُ منها الصَورةُ العامَةُ، منها أنَ الضَّأنَ تتمنّى لو كانَ الذّئبُ راعياً لها بدلاً من صاحبِها الذي يطرقُها كلَّ يومٍ والمُديةُ في يدِه ليُقدِّمَها قرىً للأضيافِ:

تَركتُ ضَأني تودُّ الذِئبَ راعيها ... وأنّها لا تَراني آخرَ الأبَدِ
الذِئبُ يطرقُها في الدَهرِ واحدةً ... وكلَّ يومٍ تَراني مُديةٌ بيدي

بعدَ هذا العرضِ السريعِ لنماذجَ من مَعاني الكرَمِ والضيافةِ في الشّعرِ، نقفُ عندَ أنموذجٍ من القصائدِ، وهي قطعةٌ شعريّةٌ من تسعةِ أبياتٍ لعُتبةَ بنِ بُجَيْر الحارثيِّ، وهي قولُه:

ومُستنبِحٍ باتَ الصَّدَى يَستَتيهُهُ ... إلى كُلِّ صَوتٍ فهو في الرَّحلِ جانحُ
فقُلتُ لأهلي ما بُغامُ مَطيّةٍ ... وسارٍ أضافَتْهُ الكلابُ النَّوابحُ
فَقالوا غَريبٌ طارقٌ طَرَّحَت به ... مُتونُ الفَيافي والخُطوبُ الطَّوارحُ
فقُمتُ ولم أجثِمْ مَكاني ولَم تَقُمْ ... مع النَّفْسِ عِلّاتُ البَخيلِ الفَواضِحُ

ونادَيْتُ شِبْلاً فاسْتَجابَ ورُبَّما	ضَمِنّا قِرى عَشْرٍ لِمَنْ لا نُصافِحُ
فَقامَ أبو ضيفٍ كَريمٌ كأنّه	وقد جَدَّ مِن فَرْطِ الفُكاهَةِ مازِحُ
إلى جِذْمِ مالٍ قَد نَهكْنا سَوامَهُ	وأعْراضُنا فيهِ بَواقٍ صَحائحُ
جَعَلْناهُ دونَ الذَمّ حَتّى كأنّهُ	إذا عُدَّ مالُ المُكْثِرينَ المَنائحُ
لَنا حَمْدُ أربابِ المِئينَ ولا يُرَى	إلى بَيْتِنا مالٌ مَعَ اللَّيْلِ رَائحٌ

التَّلقّي :

وقبلَ النَّظرِ في هذه الأبياتِ تَجدرُ الإشارةُ إلى أنّ القصيدةَ كسائرِ قصائد الشعرِ العربيّ، لم تَكنْ لتصلَ إلينا لَولا العنايةُ بقضيّةِ تَلقّي الشّعرِ، والمُرادُ بالتّلقّي ها هُنا « تَلقّي النّصّ الشّعريّ » ومَسالكِ وُصولِه إليْنا، وعَلاقةِ التّلقّي بالمُبدِعِ والمُتلقّي وأثرِ النّصّ الشّعريّ في المتلقّي[1].

فمن مَسالِكِ التّلقّي وقَنَواتُه الاختياراتُ الشّعريّةُ التي تُعدُّ نَمَطاً من تَنظيمِ الشّعرِ المَقْروءِ وتَصنيفِه ليَسهُلَ التّعاملُ معه ومُعالجتُهُ والعِنايةُ به، ومن أظْهرِ هذه الاختياراتِ "ديوانُ الحَماسةِ" لأبي تَمّام، وهو ديوانُ أشعارِ العَرَبِ، رتَّبَه جامعُه بحسبِ الأغراضِ المشهورةِ التي نُظِمَ عليها الشِّرُ العربيُ. ووجَّهَهُ إلى "القارئ العامّ" ليقرأه بعدَ التّرتيبِ والتّبويبِ.

ومِن مَسالِكِ التَّلقّي أيضاً شُروحُ الشّعرِ. ويُعدُّ "شَرحُ المَرزوقيّ" لديوانِ الحَماسَة أنموذجاً للقارئ الشّارحِ الذي اتّبعَ منهجاً مُحدَّداً ذا مرجعيّةٍ مُعيَّنةٍ كان لها أثرٌ في أصدقُ على شَرحِ الشّعرِ وبَيانِ مَعانيه. ولعلّ مَفهومَ القراءَةِ أصدقُ على "شُروحِ الشعرِ" منها على الاختياراتِ: فالشّارحُ يَصدرُ عن ثَقافةٍ مَرجعيّةٍ تُمدُّه بأدواتِ تَوليدِ المَعْنى: فَيكون القارئُ العامُّ مَحكوماً في قراءَته بمنهَجِ الشّارحِ في بَيان المَعْنى.فهو قارئٌ بالواسطةِ. ومن نَماذجِ هذه الوَسائطِ شَرحُ المرزوقيّ: فهو شَرحٌ يتَّسمُ بشرحِ المعاني المعجميّةِ للألفاظِ، ثمّ يَشرحُ المعنى العامّ لكلّ بيتٍ . ولعلّ الذي يَجعلُه ضرباً من القراءاتِ المتخصِّصةِ للشّعرِ العربيّ أو يَجعلُه على الأقلّ واسطةً جيّدةً من وسائطِ قراءَةِ أبي تمّام، أنّ المرزوقيّ بَنى اختيارَه للدّيوان المشروحِ على الذّوقِ الأدبيّ والجَزالةِ اللّغويّة. وقد نوّه المرزوقيُّ بديوان الحَماسةِ وأثنى على جَودةِ

[1] يُراجَعُ كتابُ: **مَعالم وعَوالم في بَلاغة النّصّ الشّعريّ القَديم**، د.محمد الأمين المؤدّب، مَنشورات مؤسسة الرحاب الحَديثة، 2014م.

مَقاييسِ الاختيارِ: « وَقَعَ الإجماعُ من النّقّادِ على أنّه لم يَتّفقْ في اختيارِ المقَطّعاتِ أنقى ممّا جَمَعَه، ولا في اختيارِ المقَصَّداتِ أَوْفَى ممّا دوَّنَه المفضّل ونَقَدَه »[1].

وقَد اورَد حاجّي خليفة في "كَشف الظّنون" أسماءَ عشرينَ شارحاً ممّن شَرَحوا ديوانَ الحَماسَة، وفَضَّلَ شَرْحَ أبي عليّ المرزوقيّ المُتوَفَّى سنةَ 421 للهجرة. وعدَّه شَرحاً مُعتبراً مَشهوراً[2]. ولا شكّ في أنّ قراءَة المرزوقيّ بَليغةٌ مُعتَبَرَة لأنّ صاحبَها تَتَبّع مَعانيَ الشّعرِ[3] في قَصائد الحَماسَة، وأورَدَ الاحتمالاتِ الممكنةَ التي تُوسّعُ مدارِكَ القارئ وتُنبّهُه على الآفاقِ المُنتَظَرَة وجَمالياتِ التّلقّي المُحتَمَلَةِ، وتَفْتَحُ لَه آفاقاً من الفَهمِ والتأويلِ قَصَدَ إليْها الشاعرُ أم لم يَقصِدْ.

نَعودُ إلى قَصيدةِ عُتبةَ بنِ بُجيرٍ الحارثيّ لنقرأها بِعَيْنٍ تَرى أنّ القَصيدَةَ العربيّةَ في العصر الجاهليّ نَصٌّ « يَتّسمُ بالتّماسُك والانسجامِ، لدرجةٍ قدْ تُصبحُ مَعها القصيدَةُ بكاملِها كلمةً أو كالكلمةِ »[4].

ويبدو أن عُتبةَ بنَ بُجير شاعرٌ مُقلٌّ لم يُرْوَ له من الشّعرِ إلاّ القليلُ، وأشهرُ ما رُويَ له يَدخلُ في بابِ "الأضياف"، وفي ذلكَ يَقولُ ياقوت الحَمَويّ في "مُعجَم الأدباء": « قالَ عَليُّ بنُ عيسى الرّبعيُّ: استدْعاني عَضُدُ الدّولةِ ليلةً وبين يَدَيْه "الحَماسةُ"، فوضَعَ يَدَه على بابِ "الأضيافِ" وقالَ : ما تَقولُ في هذه الأبياتِ:

ومُستنبِحٍ باتَ الصَّدَى يَستَتيهُهُ	إلى كُلِّ صَوتٍ فهو في الرَّحلِ جانحُ
فقُلتُ لأهلي ما بُغامُ مَطيّةٍ	وسارٍ أضافَتْهُ الكلابُ النَّوابحُ

فقُلتُ : هذا قولُ عُتبةَ بنِ بُجيرٍ الحارثيّ، ومَعناه أنّ العربَ إذا ضَلّت في سَفَرٍ وصارَت بحيثُ تظنُّ أنّها قَريبةٌ من حلَّةٍ نَبَحَت لتسمَعَها الكلابُ فتُجيبها فيَعْرفونَ به مَوضعَ القَوم

---

[1] **شَرح ديوان الحَماسَة**. مقدّمة الكتاب. ص: 7.

[2] **كَشف الظّنون عَن أسامي الكُتب والفُنون**. مصطفى بن عَبد الله المَشهور بحاجي خليفَة. تصحيح: محمد شَرَف الدّين بالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي. دار إحياء التراث العَرَبي. بيروت. مجلد:1. ص: 691-692.

[3] انظرْ في تتبُّع المَعاني المتعددة: **بَلاغَة النّصّ الشّعريّ القَديم. مَعالم وعَوالم**. د.محمد الأمين المؤدّب. ص:99.

[4] **بَلاغَة النّصّ الشّعريّ. دِراسَة نصّيَة في عَينيَة الحادرَة الذّبيانيّ**. ضمن كتاب: **بلاغة النص التراثي. مُقاربات بَلاغية حِجاجيّة**. إعداد د.محمد مشبال. دار العَيْن. 2013. ص:71.

فيقصدونَه، فيَستضيفونَ فيُضافونَ. فقالَ: إنّ قوماً يتشبَّهونَ بالكلابِ حتّى يُضافوا لَقومٌ أدنياءُ النُّفوس، فوجمْتُ بينَ يَدَيْه حَتّى يردُّ طرْفَه، قالَ: ثمّ فكّرَ فَقالَ: لا بَل إنّ قوماً يَستَنْبِحونَ في هذا القَفْرِ المَكانِ الجَدْبِ فَيَستَضيفونَ فيُضافونَ مَع الإقلالِ والعَدَمِ لقَومٌ كِرامٌ... »[1].

مَنهجُ القِراءَة :

تُساعدُ هذِه التَوطِئَةُ التي تُضيءُ بعضَ المَعالِمِ في سياقِ القَصيدةِ، على فَهمِ أبياتِها وقراءَتِها « قِراءةً داخليّةً تَفاعليّةً تُعْنى بتتبُّعِ الاستخدامِ اللُّغويِ للشّاعرِ ... وتَحرصُ على التأمُّلِ في العلائقِ التي تَحكُمُ عَناصرَ ذلكَ الاستخْدامِ... »[2]

بِناءُ القَصيدَة ومُؤَلّفاتُ البِناء :

القَصيدةُ مؤلَّفةٌ من جُملةٍ من القِيَم الاجتماعيّةِ السّائدَة المُتداوَلَةِ في سياقِ الكَرَمِ والضّيافةِ، ولا سبيلَ إلى التعبيرِ عَن كَرمِ الضّيافةِ إلاّ بالتّوطئةِ والعَتباتِ المُفضيةِ إلى هذا الغَرَضِ. والمقصودُ بذلِكَ أنّ للشعرِ طَريقتَه في وصفِ الأغراضِ وما سُمّيَت أغراضاً شعريّةً إلاّ لأنّ للشّعرِ أسلوباً وضرْباً من النّظمِ للوُصولِ إلى بَيانِ الغَرَضِ يَختلفُ عن طَرائقِ القولِ الأخرى. ومن عناصر التأليف :

1 - **الضّيافة** : والضّيافةُ لا تَثبُتُ إلاّ بوجودِ ضيفٍ طارقٍ ليلاً، ولا طُروقَ إلاّ بوَسائلَ مُتعارَف عليْها بين أفرادِ القَبيلةِ. ومن هذه الوسائلِ استنباحُ الطّارقِ كلابَ الحيّ ورَفعُه الصّوتَ ثمّ مَيْلُه لسماعِ الصّدى بما يَحملُه من أخبارٍ: أَحَمَلَ صوتُه استجابةً أم لم يَحملْ بعدُ شيئاً. وقد يلجأ الطّارقُ المَقْرورُ [3]، ليلاً إلى وسيلةٍ أخرى للنّداءِ وهي أن يَحملَ ناقَتَه على الرُّغاء[4]، إيذاناً بنَفْسِه. وفي المَثَل السّائرِ: « كَفى بِرُغائها مُنادياً »[5].

---

[1] **مُعجَم الأدباء: إرْشادُ الأريب إلى مَعرفةِ الأديب**، ياقوت الحَمَويّ، ت. إحسان عَبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1993م، ج:، ص:1830-1831.

[2] **بَلاغة النّصّ الشّعريّ. دِراسَة نصّيَة في عَينيَة الحادرَة الذّبيانيّ**. ص: 71.

[3] المَقْرورُ الذي أصابَه القَرُّ وهو شدّةُ البَرد.

[4] الرُّغاءُ صَوتُ البَعير.

[5] **شَرح ديوان الحَماسَة**. رقم القطعة الشعرية: 674، ج:4، ص:1089.

فالطّارقُ المُستنبِحُ ليسَ لَه وَسيلةٌ في الليلةِ الباردَةِ إلاّ الإصغاءُ إلى صَدَى صَوْته بِماذا سَيَرجعُ، أو حَمْلُ الرّاحِلَةِ على البُغامِ .

2 - **الحِوار**: تتطوّرُ حركةُ الطّارقِ وتتنامى حَتّى تُصبحَ مَوضوعَ حَديثِ الشّاعرِ وأهلِه؛ وقد استخدمَ الشّاعرُ أسلوباً جديداً لإنماءِ الغَرَضِ وتَطويرِه وتفريعِ وُجوهِه، وهو الحوارُ (فقُلتُ لأهلي:...؛ فَقالوا:...). وقَد يُثارُ سؤالٌ في السِّياق: هل يَجهلُ الشاعرُ الغايةَ من الاستنباحِ أو الرُّغاءِ أو البُغامِ، حَتّى يُضطرَّ إلى سُؤالِ أهلِه؟ لعلّ الجوابَ في أنّ الشاعرَ يَعلمُ غايةَ الطّارقِ، ولكنّه بسطَ المَعاني في الأبياتِ بأسلوبِ السؤالِ والجَوابِ ليُشهِدَ السامعَ والقارئَ، وليُحبّبَ إلى نَفْسِه التي بينَ جَنبَيْه موضوعَ الضِّيافةِ ويَتغنّى به شعراً. فذِكْرُ الشيءِ وتَرديدُه إنّما يَكونُ من بابِ المحبّةِ له والشّوقِ إليه، ولَقد جَمَعَت الأبياتُ عَناصرَ كثيرةً تُؤلّفُ جَميعاً عناصرَ الغرضِ: الشاعر وأهله، والطّارق والمُستنبِح، والكِلاب النَّوابحُ، والمَطاياالرّاغيَة، والزّمان والمَكان (الليالي والفيافي)، والحالُ، (الغُربَة)، وعلة الطَّرْق (خُطوب الدّهر).

3 - **البُؤرَة**: وَظّفَ الشاعرُ العناصرَ كلَّها لبيانِ غرضِ الضِّيافةِ أو "حُرْمَةِ الضّيافةِ"، وجعَل الكونَ المحيطَ به (مِن إنسان وحَيوان وبيئة...) يَألفُ الضَّيفَ ويَدلُّهُ عَلى مكانِ نُزولِه، ولكنَّه جعَل الطّارقَ "بُؤرةَ الكلامِ" ومَعْقِدَ العنايةِ ومَحطَّ الاهتمامِ، والذي يدلُّ على هذا التّركيزِ المُبالَغ فيه (أو وَظيفَة البُؤرَة) كثيرٌ من القرائنِ اللّغويّة :

* التّكثير : يدلُّ عليه أسلوبُ التّكثيرِ المُعبَّر عنه برُبَّ أو واوِها (وَمُسْتَنْبِحٍ...)
* الوَصفُ : وُصف الضيفُ بالمُستنبِح، ووُصفَ بالجانِحِ، والغَريبِ، والطّارِق...
* الإضمارُ: دلّ عليه الضمير المتصل في: "يَستتيهُه" و"أضافته" و"به"، والمنفصلُ في "هو".
* بعضُ اللوازِمِ: مطيّةُ الطّارق التي تُلازمُه.

4- **المُتكلم / الشاعر**: ويأتي في المقام الثاني بعد البؤرَة الشاعرُ ، فهو المُضيِّفُ، وله حُضور قويّ لافتٌ للنّظرِ بعدَ حُضورِ الضّيف، ولولا الشاعرُ لَما حَظي الضّيفُ **بوظيفةِ العنايةِ والاهتمامِ (البُؤرَة).**

يتجلّى حُضورُ الشاعرِ في عدّةِ عَناصرَ، وتدلُّ عليه عدّةُ قرائنَ :

* فهو الرّاوي لأحداثِ القصّة، الواصفُ لتطوُّرِها ومآلها.

* والمُستجيبُ الذي تُحرّكُه الأحداثُ الخارجيّةُ وتَدعوه إلى الاستجابَةِ بالسؤال (قُلتُ لأهلي..)، وبإعدادِ العُدّةِ للضّيافَة، وبالهَيْئةِ ("قُمتُ ولم أجثمْ"، دَفْع المَوانع والتّغلُّب على أسبابِ العَجزِ والبُخلِ ("ولَم تَقُم مع النفسِ علاّتُ البَخيل"...)، الاستعانةُ بالأهلِ والوَلَد ("ناديتُ شبلاً"...).

* وهو المُضيفُ الكَريمُ الباذلُ الذي يَرعى حُرمةَ الضّيفِ وحقَّ الضّيافةِ. ومن أخلاقِه القيامُ بواجبِ الضّيافَةِ وبَذلُ الكَرَم وبَسطُ الوَجه والفُكاهةُ والإيناسُ والتّلطُّفُ للضّيف.

5- **البناءُ السّرديّ** : ومن القِيم الفنيّةِ التي تُواكبُ القيمَ الاجتماعيّةَ وتدلُّ عليْها، أنّ أبياتَ القصيدةِ بُنيَت بناءً قصصياً سردياً؛ فلِلقَصيدةِ بَدءٌ ونهايةٌ، وبينهُما تسلسلُ أحداثٍ وتعدُّدُ أشخاصٍ (فيهم الضيفُ والشاعرُ وأهلُه وولدُه وأربابُ المئِينَ) . والشاعرُ يَروي ويقُصُّ أحوالَ الطّارقِ الغريبِ لجانحٍ في رَحلِه، قبلَ أن يَصيرَ ضَيفاً أليفاً تُرعى حُرمَتُه ويُستَجابُ لندائه. ويَتفاعلُ هؤلاءِ الأشخاصُ ويتوزَّعون في شبكةٍ من العلاقاتِ يتحكّمُ في تنظيمِها ونَسجِها الغَرَضُ الأكبرُ وهو إكرامُ الضيفِ.

ففي القصيدةِ قضيةٌ وعُقدةٌ وأشخاصٌ ونهايةٌ وانفراجٌ. وتَحكُمُ حَركاتِ هذه المنظومةِ السرديّةِ قَواعدُ وأعرافٌ اجتماعيّةٌ لَها قيمةٌ حِجاجيّةٌ مُعتمَدةٌ، أهمُّها مُسلَّمَةُ إكرامِ الضّيفِ وانتشالِه من حالةِ الغُربةِ والقَرّ والجوعِ؛ وقد عَبَّر عن هذا التسلسلِ السّرديّ الذي يَحكُمُه منطقُ الحِجاجِ الاجتماعيّ تسلسلٌ في الكلماتِ والعباراتِ: فقَد استهلَّ الشاعرُ قَصيدتَه بواو رُبَ، وهي عادةٌ عند الشعراءِ[1]، وتُفيدُ التّكثيرَ: لأنّ الغالبَ عَلى الاستنباحِ أن يُتّخذَ وسيلةً لطلَبِ الضّيافَةِ. ثُم يَستأنفُ الشاعرُ بواوِ الاستئنافِ (فقُلْتُ لأهلي...)، بعدَ فَراغه من وصفِ حالِ الضّيفِ وهَيئةِ اقترابِه من ديارِ الشّاعرِ. ثمَ يَعطفُ بواو العَطفِ (فَقالوا) وبفاءِ العَطفِ (فقُمتُ) ثمَ الواو مرّةً أخرى (ولَم أجثمْ – ولَم تَقُمْ - وناديْتُ) ثمَ الفاءُ (فاستجابَ...) ثم واو الحالِ (وقَد جَدَّ مِن فَرطِ الفُكاهةِ...) . وما بين كلِّ حرْفٍ رابطٍ وحَرفٍ آخَرَ أدواتُ ربطٍ أخرى تَدخلُ على عباراتِ القصيدَةِ فتُحوّلُها إلى بناءٍ متماسكٍ مُتَّسِقٍ.

---

[1] يدلُّ عليْه مَطالعُ القصائدِ: ومُستنبحٍ باتَ الصدى يَستتِهُه (عُتبةُ بنُ بُجيرٍ الحارثيّ) - ومُستنبحٍ نَبَهتُ كَلبي لصوتِه– ومُستنبحٍ بعدَ الهُدوءِ دَعوتُه (الأخطَل) – ومُستنبحٍ تَهْوي مَساقطُ رأسِه إلى كلِّ شَخصٍ فهو للسمعِ أصْوَرُ (ضابئ بن الحارث) – ومُستنبحٍ أوقدتُ ناري لصوتِه – ومُستنبحٍ والليلُ بَيني وبينَه (الفرزدَق) – ومُستنبحٍ في لُجّ ليلٍ دَعوتُه – ومُستنبحٍ قال الصدى مثلَ قوله (شاعرٍ آخَر) – ومُستنبحٍ بَعد الهُدُوِّ دَعوتُه (علي بن جبلة) – ومُستنبحٍ يَبغي المَبيتَ ودونَه... (شُريح بنُ الأحوص) ...

الفَصلُ الثالثُ : في الحِجَاج

- تَقْديم
- القيمةُ الحِجاجيَةُ للعبارَة القرآنيَة
- من بلاغة الحجاج : خطَة التَرويح
- بَلاغة الجواب
- بَلاغَةُ الاسْتدْراج

تَقديم:

لَم يَغبْ عَن بالِ أهلِ اللغةِ والنحو والبلاغَةِ والمَعارِفِ العربيَةِ تَعليلُ الأحكامِ اللغويّةِ، وقَد يصلُ بهم أمرُ التَّعليلِ للحُكمِ الواحدِ إلى جدَلٍ طَويلٍ واختلافٍ ومُناقشاتٍ ومُعارَضاتٍ وردٍّ بعضِهم على بعضٍ، ولكنّ أبا الفتحِ ابنَ جنّيَ ألحَّ على نسبَة التَّعليل إلى العَرَب: قال مُحاولاً تَقريبَ هذا الأصلِ: « باب في أن العَربَ قد أرادَت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها، وحملناه عليها:

« اِعلمْ أنّ هذا مَوضعٌ في تَثبيتِه وتَمكينِه مَنفعةٌ ظاهرةٌ، وللنَّفسِ به مُسْكَةٌ وعِصْمةٌ؛ لأنّ فيه تَصحيحَ ما نَدَّعيه عَلى العَرب: من أنها أرادَت كَذا لكذا. وفعَلَتْ كَذا لكذا. وهو أحْزَمُ لها، وأجْمَلُ بها، وأدَلُّ على الحكمة المنسوبةِ إليها، مِن أن تَكونَ تَكلَّفَتْ ما تَكلَّفتْه: من اسْتمرارِها على وَتيرةٍ واحدة، وتَقرّيها مَنهجاً واحداً، تُراعيه وتُلاحظه. وتتَحمّلُ لذلكَ مَشاقَّه وكُلَفَه. وتَعتذرُ من تَقصيرٍ إن جَرى وقتاً منها في شيء منهُ.

وليس يجوزُ أن يكونَ ذلك كلُّه -في كلِّ لغة لهم، وعندَ كُلِّ قَوم منهم، حتى لا يَختلِفَ ولا يَنتَقِضَ، ولا يَتهاجَرَ، على كثرتهم، وسعةِ بلادِهم، وطولِ عَهد زَمانِ هذه اللغة لهم، وتَصرُّفِها على ألسنتِهم- اتفاقاً وَقَعَ، حتّى لم يَختلِفْ فيه اثنان، ولا تَنازَعَه فريقان، إلا وهم له مُريدون، وبسِياقِه على أوْضاعِهم فيه مَعنيُّون، ألا ترى إلى اطِّرادِ رَفع الفاعل، ونصب المفعول، والجرِّ بحروف الجر، والنصب بحروفه، والجزمِ بحروفه، وغيرِ ذلكَ من حديث التثنية والجمع، والإضافة والنسب، والتحقير، وما يطولُ شرحُه، فهل يَحسُنُ بذي لُبٍّ أن يَعتقدَ أن هذا كلَّه اتفاقٌ وقعَ، وتَواردٌ اتَّجَه ! »[1]

القيمةُ الحِجاجيّةُ للعبارَة القرآنيَة :

[1] الخصائص، لأبي الفتح عُثمان بن جنّي. (ت.392هـ). تح. محمد عليّ النّجّار. دار الهُدى للطّباعة والنّشر. بيروت، ج:1، ص:237-238. هذا عن عِللِ اللغةِ، أمّا عللُ النَّحويِّين فيُنظرُ في نقد العلل المُتمحَّلَة ما ذَكَرَه أبو حيّان: فقَد ذكَرَ أنّ النّحويّينَ مولَعونَ بكثرَة التّعليل. ولو كانوا يَضَعون مَكانَ التعاليلِ أحكاماً نحويّةً مُستندةً للسَماعِ الصَّحيحِ لَكان أجدى وأنفَعَ... انظر: **مَنهَج السّالِك إلى ألفية ابن مالِك**. لأبي حيّانَ النّحويّ الأندلسيّ. إخراج: سيدني جليزر، الجمعية الشرقية الأمريكية، نيوهافن، 1947. فهو يَرى أنّ الأحكامَ النّحويّةَ أجْدى للغةِ وأنفعُ لَها من تعليل الأحكام والاحتجاج لَها.

الخطابُ الحِجاجي[1] يعتمد على الأدوات اللغويّة والأساليب البلاغيّة من أجل بيان المَعْنى المُطابق لِمَقاصد المتكلم والمُراد تبليغه للمُخاطَبِ وإقْناعُه به. أي من أجل أداء وظيفةٍ إقناعيّةٍ استدلاليّةٍ، وهي تغيير وجهةِ النَظرِ لدى المُخاطَب وحَمله على التّحوّل عن موقفِه.

ونجدُ للكلمةِ المُفردَة نفسِها حَمولةً حِجاجيّةً أو طاقةً حِجاجيّةً عندَما نُدرِكُ أنّ مَعْناها في الأصلِ زِيدَ عليْه مَعْنى آخَر أو قيدٌ شرعيٌّ أو أخرِجَ من حَقيقةٍ إلى مَجازٍ أو نُقِلَ من نَسَقٍ عَقَديَ إلى نَسَق عَقديَ مُناقضٍ... فقَد جاءَ القُرآنُ الكريمُ بجملةٍ من الألفاظِ المعجميّةِ المتداوَلَة سابقاً ليبنِيَ عليْها مَعانيَ غير مُتداوَلَةٍ، ويبني مَجْهولاً جديداً على مَعْلومٍ سابقٍ.

ولا نُدركُ الحَمولةَ الحجاجيّةَ للكلمةِ إلاّ بمُناسبتِها لسياقِها الذي ورَدت فيه واستحْقاقِها مَكانَها دون غيرِها مما قارَبَها من الألفاظِ المعجميّةِ أو العبارات [وهذه الحرَكَة الكامنة في الكلمَة هي التي سَمّاها د.عبد الله صولَة بحرَكَة الكلمة الحِجاجيّة[2]، وهي حرَكَةٌ قائمةٌ في الكلمةِ بناءً على ما سَمّاه هرمان باريه بالتّداوليّة المُدمَجَة (Pragmatique integrée)[3]

القيمةُ الحِجاجيّةُ لقوله تَعالى: «أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ» [آل عمران: 20]، فيه تلقين عام شامل، ليواجه به النبي – صلى الله عليه وسلم – كل المخالفين له في العقيدة: إنْ حاجّك: يا محمد، النفرُ من نصارى أهل نجران قدموا المدينةَ للمحاجّة. وظاهر المُحاجَ فيه

---

[1] يُخشى على "علم الحِجاجِ" ما كانَ يُخشى على بعض العُلوم القَديمَةِ التي قيلَ عنها إنها نَضِجَتْ حَتّى احْتَرَقَتْ: فقَد أصبحَ كثيرٌ مِمَّن تكلّمَ في المعرفة يستدعي هذا المُصطَلَحَ الجَميلَ المُغريَ، عَلِمَ دلالتَه أم جَهلَها، وأصبحَ بعضٌ ممَن تكلم في الحِجاجِ من ناشِئةِ المعرفَة يَتَهافَتونَ عليْه في بُحوثِهم تَهافُتَ الأكَلَةِ على القَصْعَة، وإذا سألتَهُم عن مَفاهيمِ الحِجاجِ التي تَدورُ في فَلَكه وحَقْلِ دلالاته، أو عَن مُعْجَم الحِجاج منذُ أن نَشَأ إلى أن انتهَى به المَطافُ في النظريات الحجاجيّةِ، لم يُقْنعْكَ ولم يُفِدْكَ وإنما ظل يردِدُ كلماتٍ حَفظها وزاد عليْها من فَهمه الخاص ... إذا استمرَّ الحالُ على هذا النَحو فسَنكونُ في أزمة معرفيّةٍ مُحقَّقَةٍ واختباسٍ وتيهٍ وشُرودٍ، وسَيظلُّ هذا الجيلُ يَنتظرُ "قطراتِ الرَّحْمَة" من نظريات الغَرب لكي يُمدَّه بما يتكلم فيه وينشغل به، و"قَطرات الرحمَة" لمَن يُترجمُ لَه تلك النظريات إلى العربية.

[2] انظر: **الحِجاج في القُرآن**. عبد الله صولَة . ص 169. وانظرْ أيضاً: **مِن إشكاليات تَطبيق المَنهج الحِجاجيّ على النصوص "حِجاجيَة المُفْرَدَة القُرآنيَة نموذجاً"**. صابر الحباشة، ضمن كتاب جَماعي: **الحِجاج: مَفهومُه ومَجالاتُه**. ص:847.

[3] انظر كتابَه: **تلوين الخطاب**. ترجمة صابر الحباشة. الدار المتوسطية للنشر. تونس. 2007. ص:179... **محاولات في تحليل الخطاب**. صابر الحباشة. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. 1430-2009. ص:135.

(المُحاجَجَ فيه) أنه دين الإسلام، لأنه السابق. وجواب الشرط هو: "فقُل أسلمت وجهي لله" في أمر عيسى عليه السلامُ، وجادَلوكَ في أمر التّوحيدِ، وخاصموك بالباطل. وقد يَعودُ الضميرُ على جميع الناس، لقوله تعالى بعدُ: "وقل للذين أوتوا الكتاب والأمّيين" انقدْتُ لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي. وإنما خَصّ جل ذكره بأمره بأن يقول:"أسلمت وجهي لله"، لأن الوجه أكرمُ جوارح ابن آدم عليه، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه. وأسلم من اتبعني على ديني، يقولُ كمقالتي. لقن الله عزّ وجلّ نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يدرج من اتبعه -في إسلامه- وجهَه لله ليكون إسلامُهم بإسلام نبيهم صلى الله عليه وسلم لا بإسلام أنفسهم، لتلحق التابعة من الأمة بالأئمة، فيما أوتوه من الانقياد وبراءتهم من الرجوع إلى أنفسهم في أمر الدين، كما كانوا يقولون عند كل ناشئة علم أو أمر: الله ورسوله أعلم ، فمن دخل برأيه في أمر نقص حظه من الاتباع بحسب استبداده. فقال تعالى عاطفاً على الضمير المرفوع المتصل لأجل الفعل: "ومَن" أي وأسلم مَن اتَّبَعَني وأتْبَعوا وُجوهَهم له سبحانه وتعالى.

وللمفسّرين في المراد من هذا القول طرائقُ، أشهرُها: أنّه مُتارَكةٌ وإعْراض عن المجادلة أي: اعترفتُ بأن لا قدرة لي على أن أزيدكم بياناً، أي أنّي أتيت بمنتهى المقدور من الحجّة فلم تقتنعوا، فإذ لم يُقنعْكم ذلك فلا فائدة في الزيادة من الأدلة النظرية، فليست محاجّتكم إياي إلاّ مكابرة وإنكاراً للبديهيات قال فخر الدّين الرّازي: فإن المُحِقّ إذا ابتُلي بالمُبْطل اللَّجوج فليقُلْ: أمّا أنا فمنقاد إلى الحق [1].

وعلى هذا الوجه تكون إفادة قطع المجادلة بجملة : "أسلمت وجهي لله ومن اتّبعن" وقوله: "أأسلمتم" دون أن يقال: فأعرضْ عنهم وقُل سلام، ضَرْباً من الإدماج: إذ أدمج في قطع المجادلة إعادةَ الدعوة إلى الإسلام، بإظهار الفرق بين الدينين.

يتبيَّنُ من مَعْنى الآيَة أنّ القيمةَ الحِجاجيّةَ لعبارة «فقُلْ أسلمْتُ وجهي لله ومَن اتَّبَعنِ» تختزلُ مراحلَ كثيرةً وتطوي جدالاً لا فائدةَ فيه، فبدلاً أن يُبادلَهُم مُحاجَّةً بمُحاجَةِ أمِرَ بقطع دابر الجدالِ: لأنّه عُلم علمَ اليقينِ أنّ المحاجَّةَ لن تُفضيَ إلى نتيجةٍ، وكأنَّ معرفةَ المَقاصد وأحوالِ المتكلمينَ المُحاجّينَ تَقْضي بمُتاركتِهم والإعراضِ عن مُجادلتهم وليس عنهم.

[1] **التحرير والتنوير**، الشيخ الطاهر ابن عاشور، الدّار التّونسيّة للنّشر، ج: 3، ص:201-202.

من بلاغة الحجاج : خطّة التّرويح

نوعٌ غَريبٌ من الحِجاج، ذكَرَه الجاحظُ، وهو حجاجٌ ليسَ مبنياً على برهان عقلي أو حجّة منطقية، أو سُلّميّة حِجاجيّة، ولكنَ وراءَ استدعائه مَقاصدَ أخرى منها التّرفيه وتَنشيطُ السّامعِ حتّى يستجمع قُواه لما سيأتي من الكَلام:

«وأنا أستظرفُ أمرَين استظرافاً شديداً: أحدهما استماعُ حديثِ الأعراب، والأمرُ الآخَر احتجاجُ متنازِعَينِ في الكلام، وهما لا يحسنانِ منه شيئاً؛ فإنّهما يُثيرانِ من غَريبِ الطِّيب ما يُضحِك كلَّ ثَكْلانَ وإن تشدَّد، وكلَّ غضبانَ وإن أحرقَه لَهيبُ الغضَب، ولو أنَّ ذلك لا يحلَ لكان في باب اللَّهو والضَّحِك والسُّرورِ والبَطالة والتشاغُل، ما يجوز في كلِّ فن »[1]

يُمكنُ أن نقولَ عن نص الجاحظ إنّه يُعبّرُ عن موضوع آخَر: هو أنَ انتقاءَه لتلك المُحاوَراتِ إنّما اعتَمَدَ فيه على استراتيجيّة خطابية معيّنة Stratégie du discours أحبّ أن أسمّيَها تسميةً عربيّةً خالصةً هي خطط الخطاب أو مواقع المتكلم التي يتخذها في التّخاطُب: خطّة التّرويح.

بَلاغة الجواب:

من بَلاغة الجَواب أن يأتي مُوافقاً للسؤال، مُطابقاً لقَصد السائل، غيرَ مُنحرفٍ عن المرادِ، فلا يَتعدّى ولا يقصرُ، بَل يتّخذُ بين ذلكَ سبيلاً: وهذا تَقليدٌ من تَقاليد العرب في كَلامها، ففي أمثال العَرَب: «أَساءَ سَمْعاً فأَساءَ جابةً» نُصبَ السمع والجابةُ على التمييز أو على المَفعوليّة. وأَصلُ هذا المَثَل أَنَه كانَ لسَهلِ بن عَمْرٍو ابنٌ مَضْعُوفٌ فَقالَ له إنسانٌ: أين أَمُّكَ (بفتح الهَمزَة) أي أَين قَصْدُكَ ؟ فظَنَّ أَنه يقول له أَين أُمُّكَ (بضم الهمزة) فقال ذهَبَتْ تَشْتَري دَقِيقاً؛ فقال أَبُوْه أَساءَ سَمْعاً فأَساءَ جابةً. وقال الأصمعيُّ: هذا مَثلٌ في المُجيب على غير فَهم [انظرْ كتاب الأمثال لابن سلّام[

والجابةُ اسم يُقُومُ مَقامَ المصدر، كقولنا: إنه لَحَسَنُ الجيبةِ بالكسر أَي الجَوابِ؛ قال سيبويه أَجاب مِنَ الأَفْعال التي اسْتُغْني فيها بـ "ما أَفْعَلَ فِعْلَه وهو أَفْعَلُ فِعْلاً" عَنْ "ما أَفْعَلَه"

---

[1] **الحَيَوان**، الجاحظ، ج:3 / ص:6، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط. مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط.2، 1385-1965.

وعن "هُوَ أَفْعَلُ مِنكَ" فيقولون: ما أَجْوَدَ جَوابَه وهو أَجْوَدُ جَواباً ولا يقال ما أَجْوَبَه ولا هو أَجْوَبُ منك وكذلك يقولون أَجْوِدْ بَجَوابهِ ولا يقال أَجوِبْ به.

وأَما ما جاءَ في حديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَيُّ اللَّيْلِ أَجْوَبُ دَعْوَةً ؟ قَالَ: جَوْفُ اللَّيْلِ الغابِرِ" [المعجم الكبير للطبراني، الحديث رقم:30 في بقية مسند عبد الله بن عمر] فقَد فسَّره شمر فقال أَجْوَبُ من الإِجابةِ أَي أَسْرَعُه إِجابةً، وهو من باب أَعْطَى؛ لأَنَّ الإِجابةَ ليست لِلَّيل إِنما هي لله تعالى فيه. فَمعناه أَيُّ الليلِ اللهُ أَسرع إِجابةً فِيه مِنه في غَيْرِه. وما زاد على الفِعْل الثُّلاثي لا يُبْنَى مِنْه أَفْعَلُ مِنْ كذا إِلا في أَحرف جاءَت شاذة، وقال الفرَّاءُ: قيل لأَعرابي يا مُصابُ فقال أَنتَ أَصْوَبُ مني قال والأَصل الإِصابةُ مِن صابَ يَصُوبُ إِذا قَصَدَ، وانجابَتِ الناقةُ مَدَّت عُنُقَها للحَلَبِ، وكَأَنَّها أَجابَتْ حالِبَها.

ويُقالُ: لَمَعَ فلانٌ لَمْعِ الأَصَمِّ، إِذا أَكثَرَ الإِشارَةَ بأَصبعه؛ لأَن الأَصَمَّ لا يسمعُ الجوابَ فهو يُدِيمُ اللَّمْعَ.

بَلاغَةُ الاسْتدْراج :

من البلاغَة الأصيلَة في التراث البلاغي العربي: الاستدراجُ أو **بلاغة الاستدراج** : وهي بلاغة حِجَاجيّة يَراها ابنُ الأثيرِ محورَ الخطابِ البلاغيَ كلَه، وهذا بالضَبطِ شيءٌ ممّا عَناه لسانيو الخطاب الغربيونَ الذين كَتَبوا في خطط الخطاب أو مواقع الخطاب Discours Strategyومَعْناه ههنا أن الاستدراجَ خطَةٌ وموقعٌ ، ترتبط بركنٍ رئيس من أركان الخطاب هو القَصدُ:

يَعُدُّ ابنُ الأثير "الاستدراجَ" باباً من أبوابِ البلاغةِ: « وهو **مُخادَعاتُ الأقوالِ التي تَقومُ مَقامَ مُخادَعات الأفعال**، والكلامُ فيه وإن تَضمَّنَ بَلاغةً فليس الغرضُ ههنا ذكرَ بلاغَتِه فقط. بل الغرضُ ذكرُ ما تَضمَّنه مِن النّكتِ الدقيقة في **استدراج** الخصم إلى الإذعان والتَّسليم. وإذا حُقِّقَ النظرُ فيه عُلِمَ أنَ مَدارَ البَلاغةِ كلها عليه لأنه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها. **والكلامُ في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيرا في خلابه. لا قَصيرا في خِطابه**. فإذا لم يتصرف الكاتب في استدراج الخَصْم إلى إلقاءِ يَدهِ وإلا فليس بكاتبٍ، ولا شبيهٍ له إلا صاحب الجَدَل فكما أن ذاك يَتصرَّفُ في المغالطات القياسية فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية.

فمن ذلك قوله تعالى: « وقالَ رجلٌ مُؤمنٌ مِن آلِ فرعونَ يكْتُم إيمانَه أتقتُلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبًا فعليه كَذِبُه وإن يكُ صادقا يُصِبْكُم بعضُ الذي يَعِدُكُم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب »

ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطفه، فغنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم،فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا فكذبه يعود عليه ولا يتعداه، أو يكون صادقا وإن يكن صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له، وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك فأقول: إنما قال " يصبكم بعض الذي " وقد علم أنه نبي صادق وأن كل ما يعدهم به لا بد وأن يصيبهم، لا بعضه؛ لأنه احتاجَ في مقاولة خُصوم موسى عليه السلام، أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، ليكون أدعى إلى سكونهم إليه، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم إياه، فقال " وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم " وهو كلام المنصف في مقابلة غير المشتط. وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد به، لكنه أردف بقوله : " يصبكم بعض الذي يعدكم " ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا، فضلا عن أن يتعصب له، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل، كأنه برطلهم في صدر الكلام بما يزعمونه لئلا ينفروا منه،وكذلك قوله في آخر الآية: " إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب " أي هو على الهدى، ولو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة، ولا عضده بالبينات، وفي هذا الكلام من خداع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به وقد تضمن من اللطائف الدقيقة ما إذا تأملته حق التأمل أعطيته حقه من الوصف.»[1]

« إذا حُقِّقَ النَّظرُ فيه [أي في بابِ الاسْتدراجِ، وهو من أبواب البَلاغَة الحِجاجيّةِ] عُلِمَ أنّ مَدارَ البَلاغة كلِّها عليه لأنه لا انتفاعَ بإيراد الألفاظ المَليحة الرّائقة ولا المَعاني اللطيفةِ الدّقيقةِ دونَ أن تَكونَ مُستجْلَبَةً لبلوغ غَرضِ المُخاطَب بها، والكلامُ في مثلِ هذا ينبغي أن يكونَ قَصيراً في خِلابِه، لا قَصيرا في خِطابه، فإذا لم يَتصرّفِ الكاتبُ في استدراجِ الخَصمِ إلى

[1] المَثَل السّائر في أدبِ الكاتبِ والشّاعِر. ضياء الدّين ابنُ الأثير. (المتوفى: 637هـ)، تح. أحمد الحوفي، بدوي طبانة، نشر دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة. القاهرة، ج:2، ص:250-255

إلقاء يَده وإلاّ فلَيس بكاتب، ولا شَبيه له إلا صاحبُ الجَدل؛ فكَما أنّ ذاكَ يتصرّفُ في المُغالَطاتِ القياسيّةِ فكَذلكَ هذا يَتصرفُ في المُغالطات الخِطابية.»[1] .

[1] نفسُه

الفصلُ الرّابع : في الدلاليات والسيميائيات

- الدلالة السيميائية : الدّوالُ والمَدلولاتُ، وجوداً وعدَماً
- من وَحْيِ الصَورَة: الصّورةُ مصدراً من مَصادِرِ السَيرَةِ الذّاتيّة
- الرُؤيةُ الدّلاليَة في كتابِ "أسرار البلاغة" لعبدالقاهر الجرجاني، وقوانين المعاني والبيان –مقاربة لغوية-
- الدلالة السيميائية للمكاء والتصدية
- بلاغة الإشارَة في عملية الدلالَة
- دلالة الاستدبار في الخطاب السيميائيّ
- دلالة البنية الصرفية
- الدَّلالة الكَثيفَةُ في اللفظ الواحد

في الدلاليات والسيميائيات

الدّلاليات، علمٌ عظيمٌ لأنّه مقصدُ العُلوم والفنون والدّراسات؛ وله فروعٌ ومشتقّات منها المعجَم وعلم الدّلالَة والسيمياء وعلم المَعاني والمَقامات وعلم التّداوُل والتّخاطُب والتّبالُغ، والرّاجحُ في هذا العلم العَظيم أنّه يُركّزُ على العَلاماتِ والأماراتِ الدّالّة في النّصّ، سواء أكانَت مُنتَهيةً مَحصورةً مُقيّدةً أم كانَت مُتسلسلةً يُفضي منها المَعْنى إلى المَعْنى وهذا إلى ثالث وثالثٌ إلى رابع... [وهو ما يَدخلُ تحت السيميوزيس[1] أو السيمياء التسلسليَّة]:من الأصواتِ والكلماتِ والأبنيَة الصّرفية والجُمَلِ والتّراكيب والفقَرات وأدواتِ الرّبطِ، وأساليب الحذف، والتّكرار، والحشو والإطناب، والإيجاز والاختصار وأنواع الأصوات المُختارَة ودلالاتها وتردّدها، ونقاط الحذف للدّلالَة على المسكوت عنه، ونوع الخطّ إن كان النّصّ مخطوطاً، ونوع البحرِ الشّعريّ أو التّفعيلَة إن كان النّصّ شعرا، ومعجم الكلمات المُنتَقاة، ونوع التّقديم أو خطبَة الكِتابِ إن كان النّصّ مؤلّفاً، ونوع الخِتام أو خُلاصةُ الكَلام... فكلّ ما اتُّخِذَ في النّصّ أداةً لتَوصيلِ المعاني ومُخاطَبَةِ القارئ أو البَوْحِ عن الذّاتِ، فهو موضوع للدّراسَة السيميائيّة.

غير أن هذا الذي قدّمتُه أعلاه، إنّما هو كلامٌ عامّ يتّصلُ بأصلِ المسألة قبل أن يوغِلَ فيها النّظرُ فيعقّدَها ويشعّبها ويُفرّعها تَفريعاتٍ لا حدودَ لها.

ولا بأسَ أن أضيفَ هنا أنّ الذي ذكرتُه إنّما يتعلّق بالدّلالات اللغوية أو الدّلائل اللغوية في أوضاعها المختلفَة، ولو وسّعنا القولَ لاتّسع مجالُ تعداد ميادين السيمياء ولَدَخَلَت الأيقوناتُ ولافتاتُ الدّعاية وعلاماتُ المرورِ وأنمّاطُ اللباسِ والتّحيّة والعلاقاتِ الاجتماعيّةِ ورموز التواصُل الشبكي (الإلكترونيّ) بين المتحاورِين... وكلّ الهيئات والمَشاهد التي تحملُ في ذاتها دلالةً يُقصَد بها المُخاطَبُ بها أو الناظرُ إليها أو المُسترشدُ بها... ولو تأمّلت وفَحَصْتَ لوجدْتَ أنّ العلومَ أنفسَها أماراتٌ وعلاماتٌ على حَقائقَ أو مَبالغَ بلغَها العقلُ البشريّ في ميدانِ ذلك العلم.

وإذا مددتَ بصرَك وأطلقتَ عنانَ عقلك في الكون فستجدُه كلّه أدلةً على مدلولات وأمارات على معانٍ ومقالات في مقاماتٍ، إنها دلالات الأحوال النّاطقة بغير اللّفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهرٌ في الكون الواسع، في صامته وناطقه وجامده ومتحركه ومُقيمه

---

[1] Bains, Paul. ***The Primacy of semiosis: An ontology of relations***. Toronto: University of Toronto Press. (2006)
Hoffmeyer, Jesper. ***Signs of Meaning in the Universe***. Bloomington: Indiana University Press. (1996)

وراحِلِه؛ فالصَّامتُ ناطق من جهة الدّلالة، وكذلك القائمُ الذي لا يسيرُ. فمَتى دلّ الشّيءُ على معنىً فقد أعرَبَ عن نفسِه وإن لم ينطقْ.

قال خطيبٌ من الخطباء، حين قام على سَرير الإسكندر وهو ميّت: «الإسكندر كان أمْسِ أنطَقَ منه اليومَ، وهو اليومَ أوْعَظُ مِنْه أمس»[1].

ويُضافُ إلى الذي سبقَ أنّ الإنسانَ أفادَ من دلالات الكون، أفادَ من الأهلّةِ مواقيتَ ومَواعيدَ ومن الكواكب والأنجم طرُقاً واتّجاهاتٍ...

الدلالة السيميائية
الدّوالُّ والمَدلولاتُ، وجوداً وعدَماً

1

المَعاني والأفكار، المَفاهيمُ وصورُ الذّهنِ، الأحاسيسُ والمَشاعرُ، الذّكرياتُ والمَخْزونات، المَبادئُ المُجرَّدةُ والصّورُ العقليّةُ المُنتزَعَةُ من المرجعِ الخارجِ... توجدُ بوُجودِ ألفاظِها وكلماتِها المعبّرَة عنها وأصواتِها المركّبَة الدّالّة عليْها ومُصطلَحاتِها المُتداوَلَة، فإذا ضَلّت عنكَ الكلماتُ الدّالّةُ ضاعَت المُسمَّياتُ المَدْلولُ عليْها، فالمُسمّى موجودٌ في الذّهنِ قائمٌ في النّفسِ ما دامَ اسمُه قائماً في اللّسانِ أو شبهَ قائمٍ أو قريباً من الإثارَة ليُستحْضَرَ. فَما غابَ عن اللّسانِ غابَ عن الاهتمامِ والعنايَة وأصبحَ مَعْدوماً عند صاحبِه -فقَط- أو شبهَ مَعْدومٍ، وإنّما قُلْنا عندَ صاحبِه فقَط، ولم نقُلْ مُطْلقاً، لأنّ المَعْدومَ عند شخصٍ قد يكونُ موجوداً عندَ شخصٍ آخَر.

هَلْ يولَدُ المَعْنى من اللفظ، أو يولَدُ اللفظُ من المَعْنى، أو يولَدان مَعاً من المَفاهيم والتصورات الذّهنيّة، وهل لأحد هذه العناصر مركزية وفَضْلٌ على الأخرى.

إذا فَحصنا كل طرفٍ وجدْنا للفظ عالَمَه وأجزاءَه التي هي الأصواتُ والحروف والمقاطعُ الصرفية والصيغُ والتراكيبُ والنصوص، ووجدْنا للمَعْنى عناصرَه التي من جنسه وهي: الأفكارُ والتصوراتُ الذّهنيةُ والمفاهيم النَّسقيّةُ الجاهزةُ للتسمية، والذي يَبدو منطقيا أنّ نظريةَ التوافُق في بناء الدلالَة أقربُ من نظرية التوالُد؛ أي ينشأ اللفظ والمعنى والصور الذّهنيّة

[1] البَيانُ والتّبيين، أبو عُثمانَ عَمروُ بْنُ بَحر الجاحظُ، تح. عبد السَّلام محمّد هارون، مَكتبَة الخانجي، القاهرَة، 1998 1418، ج:1، ص:81.

داخل أطر الفكر نشأة واحدةً متكاملةً متفاعلةً، أمّا إذا قُلنا بنظرية التوالد فسَنَقَعُ في القول بأسبقية طرف من الأطراف على غيره في مراتب الوجود، وهو افتراضٌ ليسَت عليه أدلّة قويّة.

عندما أقول المعنى مُؤَلَّفٌ من عناصرَ فالمقصود بذلك أنّه ليسَ جسماً صلباً لا يقبلُ الانشطارَ ولا تدخلُ في تركيبه مؤلّفاتٌ، ولكنّه جسمٌ ركّبَتْه أجسامٌ وفقَ قَواعدَ. فللمعنى جهاتٌ نَراه منها ومؤلّفاتٌ يتألّف منها، فمنها الأفكار والصور الذّهنيّة ونتاجُ التأمل والتفكير وحصيلَة العمليات الذّهنيّة والعُرفية الاجتماعيّة والنفسيّة، لأنّ الإنسان عندَما يُشغلُ فكرَه تتحرّك قَواعدُ إنتاج المَعْنى بتفاعُل "الذّهنيّ المنطقيّ" و"النّفسيّ" و"الاجتماعيّ التّداوليّ" وهي جهاتٌ وَقواعدُ متعددةٌ متكاملةٌ متفاعلةٌ لا يُتصورُ لها انفصام ولا انفصال عند إنتاج الدلالَة، واعلَمْ أنّ وظيفة الذّهن في إنتاج المعاني والصور والأفكار لا يُتصوّرُ لها شكلٌ ولا مَلمَحٌ إلاّ من خلال الدّوالّ التي تسمّي كلّ شيء باسمِه وكلّ مفهوم بمصطلحه، إذ لا يُعقَل المعنى إلاّ باللفظ الذي يَقبضُ عليْه ويُمسكُه، ولا يُتصور وجود منطقي مقبول للفظ إلاّ إذا حمل دلالةً تملأ مُحتَواه.

2

كيفَ يصحُّ لنا أن نتحدّثَ عن مفهومِ "السيميوزيس" Semiosis عند العالم السيميائي الأمريكي شارلز أندرس بيرس وما تفرّعَ عن هذا المفهوم من مَفاهيمَ أخرى بُنيَت عليها النظريةُ السيميائيّةُ، كالسيروَة Processus التي تُدرجُ شيئاً ما في نسقِ العلاماتِ فيتّخذُ قانونَها السيميائيَّ الدّلاليّ ليُصبحَ علامةً سيميائيّةً دالّةً. كيفَ يُنتَهى بالنّشأة الأولى لذلك المَفهوم إلى سقفٍ قاصرٍ قصيرٍ ويُعرَضُ عمّا ذكرَه أدباءُ العربيّة ولغويّوها وبلاغيّوها من أفكارٍ عميقةٍ في دلالات الأشياءِ وقَوانين هذه الدّلالاتِ، مثلما فعلَ الجاحظُ عندَما تكلّم عن أصنافِ الدّلالات، وما ألّفَه مَن كتَبَ في أيام العَرَب، وما ألّفه فَخر الدّين الرّازي في "**الفراسَة: دليلك لمعرفة أخلاق الناس وطباعهم**" وفي الأنساب وفي علم القيافَة، وما الطرُقُ والوسائلُ التي كانَت تُعتَمدُ ويُتوسَّلُ بها لبُلوغ العلم بدلالاتها...

وأقفُ وقفةً قصيرةً عندَ دلالات الأزمنة عند العرب: فممّا لا شَكَّ فيه في سياق هذه الدّلالات السّيميائيّة أنّ عُلَماءَ اللّغةِ تَرَكوا تُراثاً يَتَناوَلُ الأزمِنَةَ و الأنواءَ في العربيّةِ ، بالعَرْضِ و الشّرحِ، وقَرَنوا بَيْنَ الأزمِنَةِ والأنواءِ لأنّ اعْتِمادَ العَرَبِ عَلى الاهْتِداءِ بالأهلّةِ و النُّجومِ دَفَعَهُم إلى رصْدِ تَغَيُّراتِها و ما يَنْجُمُ عَنْها مِن اخْتِلافِ مَنازِلِ النُّجومِ و الأقْمار ، و آثارِ هذِه التَّغيُّراتِ في الكَوْنِ والحَياةِ و الحَيَوانِ وُ في كُلِّ ما لَه اتِّصالٌ بِوُجودِ العَربِيّ وحَياتِه.

أمّا هذا التُّراثُ اللّغويّ فلَم يكنِ التّأليفُ فيه وَقْفاً على أهلِ الفَلَكِ و الجُغْرافِيا، مِن أمْثالِ عبدِ الرّحمن الصّوفِيّ (ت.376)، و أبي معْشر جعفَر بْنِ محمّد البَلخيّ و ابنِ خرداذبَة والحَسَنِ بن سَهْلِ بْنِ نوبَخْت وسِنان بْنِ ثابِت بْنِ قُرَّةَ... و لكنّه تَعَدّاه إلى أهلِ اللّغةِ والنَّحْوِ كمُؤرج السَّدوسيّ والنّضرِ بنِ شميل والأصْمَعِيّ و قُطرُبٍ وابْنِ الأعرابيّ وابْنِ درسْتَوَيْه والفَرّاء والمُبَرِّد والأَخْفَشِ الأَصْغَر... فذَكَروا الفُصولَ الأربَعَةَ والحَرَّ والبَرْدَ والأمطارَ والرِّياحَ، وأمورَ الفَلَكِ وبُروجَ الشّمسِ ومَنازِلَ القَمَرِ والنُّجومَ الثّابِتَةَ والسَّيّارَةَ وأحوالَ اللّيلِ والنَّهارِ وأيّامَ العَرَبِ والعَجَمِ والشُّهورَ و السّنينَ والدَّهْرَ، وما جاءَ في كُلِّ ذلِكَ من الأخْبارِ والأشْعارِ . ومِن هذِه الكُتُبِ [الأيّام واللّيالي و الشُّهور] لأبي زَكَرِيّا الفَرّاءِ (ت.207)، تح. إبراهيم الأبياري، [نشر وزارة التّربية والتّعليم المصرية، 1956م]، و كِتاب [الأيّام واللّيالي] لأبي يوسُفَ يَعقوب بنِ السّكّيتِ (ت.244) ذَكَرَه لَه أصْحابُ التَّراجِم، وكِتاب [الأنْواء في مَواسِمِ العَرَب] لأبي محمّد عبدِ الله بنِ مُسلِم بن قُتيبَةَ الدّينوريّ (ت.276) ، ط. حَيْدَرأباد الدّكن بالهِنْد 1965م، وكِتاب [الأنْواء والأزْمِنَة] لأبي العَبّاس المُبرّد (ت.285)، ذَكَرَه لَه أصْحاب التَّراجِم، وكِتاب [الأنْواء و البَوارح] لأبي طالِبِ المُفَضَّلِ بْنِ سَلَمَةَ (ت.291)، وكِتاب [الأزمِنَة وتَلْبِية الجاهِلِيّة] لأبي عَليّ محمّد بنِ المُسْتَنير قُطْرُب (ت.206) [تح. د. حَنّا جَميل حدّاد، مكتبة المَنار، الأردن، الزّرقاء، ط/1 ، 1405-1985]

وممّا ورَدَ في الأدبِ -وهو أكثرُ من أن يُحصى- قولُ الشّاعر نُصيب مادحاً سُليمانَ بنَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ:

فعاجُوا فأثنَوْا بالذي أنتَ أهْلُه/// ولو سكتُوا أثنَتْ عليك الحقائبُ

مُفردُها الحَقِيبةُ والحَقِيبةُ الرِّفادةُ في مُؤَخّر القَتَبِ والجمع الحَقائبُ وكلُّ شيءٍ شُدّ في مؤَخَّر رَحْل أو قَتَب فقد احْتُقِبَ. وكنّى الشّاعرُ بثناءِ الحَقائبِ على المدوحِ على أنّه يُشهدُ بفضله وبالذي هو أهلُه. وكقولك: السَّحابُ يَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ ويَتَحَدَّث أجمَلَ الحديث. معناه: أنَ حَديثَ السّحابِ الرَّعْدُ وضَحِكَه البَرْقُ وشَبَّهه بالحَديث: لأَنه يُخْبِر عن المطر وقُرْبِ مجيئه فصار كالمُحَدِّث به. وهذا الضَربُ كثير في كلام العربِ وأشعارهم. ولعلّه يُرادُ بالضحك افْتِرارُ الأَرض بالنبات وظهور الأَزْهار وبالحديث ما يَتَحدَّثُ به الناسُ في صفة النبات وذِكْرِه. ويُسمى هذا النوعُ في علم البيان المجازَ التَّعْليقِيَّ وهو من أَحْسَن أنواعه.

وأكثر المَجازاتِ والاستعاراتِ والكناياتِ يدخلُ في بابِ ما دلّ بغيرِ لفظِه على مَعْناه.

3

وبعدُ ...فلا يُعتمَدُ الشيءُ في بابِ الدّلالة السّيميائيّةِ ولا يُدرَسُ سيميائياً ولا يُتّخذُ موضوعاً للعلم به إلاّ إذا قيسَت الدّراسَةُ ووُزِنَت بميزان القاعدَة أو القانون أو النّسق :

– فلا تدلُّ الألفاظُ على مَعانيها إلاّ بقاعة الدّلالة المعجميّة

– ولا دلالةَ نحويّة إلاّ وفقَ القواعدِ النّحويّةِ

– ولا دلالةَ اجتماعيّة للصور والأيقونات واللاّفتاتِ والعادات والطّقوسِ وأنماط العيش واللباسِ والتّحيّة والجُلوسِ والاحتفالِ إلاّ وفقَ قوانينَ اجتماعيّةٍ تضبطُ العلاقات والدّلالات

– ولا دلالة سيميائية للرموز المختلفة والعلامات الكونية وغيرها إلاّ وفق أنساقٍ طبيعيّة أو عقليّة منطقيّة.

وعليه، لا نتحدّثُ عن خطابٍ سيميائيّ في الأدب أو النّقد أوالإبداع أو غيرها، إلاّ إذا التزمَ مُنتجُ الخطابِ بقواعدِ إنتاجِ المَعْنى وتوليد الدّلالة. فإن كانَ صاحبُ الخطابِ يكتبُ عن دلالةٍ ما من غيرِ اعتمادٍ علىٰ قاعدة أو قانون أو نسقٍ أو معيارٍ، فلا يُعدُّ كتابُه خطاباً سيميائياً، وأمّا إذا ما كانَ الخطابُ عبارةً عن مدوّناتٍ تُسطّرُ على هيئةِ آراء وخواطرَ شَخصيّةٍ حول المَدْلولاتِ، ولم يُلتَزَمْ فيه بقاعدةٍ أو قانون دلاليّ محدّد، فإنّ هذه الآراءَ لا تَعدو أن تكونَ عبارةً عن تأويلات وضروب من الاحتمالات والخواطر...

4

وأخيراً: ماذا عن سيميائيات الصورة ؟ : الوَجْه الآخَر لسيميائيات الصورَة وثقافَة التصوير:

ثقافةُ الصّورةُ لها حَسناتٌ كثيرةٌ من دون شكٍّ ؛ ولكنَ لها مَساوئَ، لا ينتبه إليها كثيرٌ من النّاسِ. وأكبرُ مساوئ الصّورةِ أنّها قامَت مَقامَ الذّاكرَةِ، فضاقَ نطاقُ التّذكُّرِ وحلَّت محلَّه الصّورةُ، ولم يعد النّاسُ يحفظونَ أو يعقلونَ الأمورَ في ذاكرتهم، بل أصبحت الصّورةُ علامةً كبْرى على المعرفَةِ، فما غابَ عن البصرِ غابَ عن العلم، وما مَثُلَ أمامَ البصرِ وشَخَصَ أو حملتْه عَدساتُ التّصويرِ فهو حاضرٌ في الذّهنِ والعنايةِ والاهتمامِ، ويُبْنى عليه علمٌ.

والأصلُ في المسألةِ أنَ الثّقافةَ الحديثةَ المُستوْحاةَ من فلسفةِ الغربِ في تدبيرِ المعرفةِ، ثقافةٌ مادّيةٌ لا تعترفُ إلاّ بما يُشخَّصُ وما تَراه العينُ، ولذلِك تجدُ عندهم التّماثيلَ والصّورَ تملأ كلّ مكانٍ، بل اتّخذوا للأنبياءِ والزّعماءِ والعُظماءِ ممّن رأوهُم وممن لم يُتح لهُم أن يَروْهُم، اتّخَذوا لَهُم صوراً تخيّلوها، وأغلبُ صورهم أجسامٌ عاريةٌ، من وحي خيالهم وميولهم الجنسيّةِ وفلسفاتهم المادّيةِ ومذاهبهم الوضعيّةِ في الحياةِ، فلا حاجةَ إلى ذاكرةٍ، ولْتقم الصّورُ مَقامَها.

لَقَد غَدت الصّورةُ اليومَ ثقافَةً راسخةً وعلامةً على العصرِ، فلا تكادُ تجدُ اليومَ كتاباً يخلو من صورةٍ أو نشاطاً ثقافياً يَخْلو من ملصقٍ أو خبراً لا تصحبُه صورٌ أو سلعةً لا تُلصَقُ على ظهرِها صورٌ، إلاّ وتُعدُّ عاريةً عن الإفادةِ وعرضةً للإهمالِ. وما زالَت الصّورةُ تُهيمنُ على حياةِ الإنسانِ اليومَ حتّى ضعُفَت الذّاكرةُ ومالَت إلى الشَّيخوخةِ المبكّرةِ وتعذّرَ التّعليمُ والتّواصُلُ الذي لا تتبوّأ فيه الصّورةُ مقعدَ الصّدارةِ... و لا نغفُل في سياق القولِ بحُلول الصّورةِ محلّ الذّاكرةِ، ما فتحته الصّورةُ وتقنياتُها من طرقٍ واسعةٍ في الإيهامِ والاحتيالِ والتّزويرِ وحملِ المُخاطَبِ على التّصديقِ، والاحتجاجِ بالصّورةِ ، من غيرِ أن يَسأل إن كانَ المشهدُ مركّباً مُلْبِساً أو بسيطاً صحيحاً.

من وَحْيِ الصّورَة: الصّورةُ مصدراً من مَصادِرِ السِّيرَةِ الذّاتيّة

ما الدلالةُ السّيميائيّةُ للصّورة، وما أثَرُ الصّورَةِ في إثارَةِ الذِّكْرى وابْتِعاثِها مِنْ مَرْقَدِها؟ وما عَلاقَةُ الصّورةِ بالطُّفولَةِ؟ وهَلْ من سَبيلٍ إلى فَكِّ رُموزِ الصّورَةِ وحُسْنِ فَهْمِها؟

إنّ العِبْرَةَ كلَّ العِبْرَةِ في مَهارَةِ قِراءَةِ الصّورَةِ وحُسْنِ تأويلِ مَشاهِدِها وفَكِّ مُركّباتِها وتَفْسيرِ رُموزِها وشَرْحِ أبْعادِها وخَلْفِيّاتِها، وكُلّما كانَ القارئُ دَقيقَ المَلْحَظِ **وُفِّقَ لاسْتِخْراجِ مَقالةٍ من هَيْئةٍ، وتاريخٍ من لَقْطَةٍ، وحِكايَةٍ من صورةٍ.**

الصّورةُ صورٌ؛ فمنها الصّورةُ الذّهنيّةُ التي في الدّماغِ وهي صورةٌ مركّبةٌ ممزوجةٌ بالمعرفةِ والشّعورِ، والصّورةُ البَصريّةُ الملموسةُ، والصّورةُ النّمطيّةُ التي في أذهانِ النّاسِ عن معنى أو مبدإٍ أو شيءٍ أو بلدٍ، والصّورة الخَياليّةُ التي تنتجُ عن قدرةِ العقلِ على إنتاجِ الصّورِ وتركيبِها وإعادةِ تركيبِها، وصورِ الذّاكرةِ وهي ناتجةٌ عن استدعاءِ الأحداثِ من الماضي.

تتركّبُ السيرةُ الذّاتيةُ من معلوماتٍ وذكرى، مصدرُها الصّورُ الملتقَطةُ والصّورُ الذّهنيّةُ المُخزَّنَةُ في الذّاكرةِ وغيرِها من المصادرِ. ويُهِمُّنا في هذا السّياقِ أن نقفَ عندَ مَشاهدَ وأمثلةٍ من أثرِ الصّورةِ المُلتَقطةِ في إعادةِ بناءِ الذّكرى وكتابةِ السّيرةِ الشّخصيّةِ.

تُذكِّرُكَ الصّورةُ بأشخاصٍ وأزْمِنَةٍ وأمكنَةٍ وهَيْئاتٍ، وحَيْثُما أجَلْتَ فِكْرَكَ وأنّى تَطلّعْتَ، مُنجداً أو مُتْهِماً، مُعرِقاً أو مُشئماً، نَبَتَتْ لَكَ من الأمْسِ الدّابِرِ وُجوهٌ وأحداثٌ وحكاياتٌ. ولَقَدْ أدرَكَ كُتّابُ السّيَرِ الذّاتيّة خَطَرَ الصّورَةِ وما تُخْفيه من دلالاتٍ، فَجَمَعوا أو جُمِعَ لَهم من الصُّوَرِ ما لا يَكادُ يُحْصى.

يقولُ مفهوم الصُّوَر التي سادَت في سني ما بعدَ استقلالِ كثيرٍ من البلدان العربيّة الإسلاميّةِ، الكامنُ خلف منطوقِها: إنّه ذاكَ الشّخصُ الماثلُ في الصّورة، أو تلك الأسْرَةُ النّاشئةُ التي كُتِبَ لها أن تَحْيا السنينَ الأولى من اسْتِقْلالِ البَلَد، حيثُ كانَ البَلَدُ حديثَ عَهْدٍ بخُروجِ المستعْمِرِ الذي ما خَرَجَ حَتّى تَرَكَ وَراءَه أوزاراً من العاداتِ والمصائبِ للبَلَدِ الفَتِيِّ، ولكنّ المستعْمِرينَ لم يكونوا ينعَمونَ بالاسْتِقْرارِ الذي حَلَموا به عندَما تَوَهَموا أنّهم اسْتوطَنوا أرضاً جَديدَةً غَيْرَ أرضِهم وسَكَنوا دِياراً غَيْرَ دِيارِهم، ووطَنوها وأهْلَها على الالْتِحاقِ ببلدِهم. فَقد اسْتَفاقوا من أحْلامِهم الزّائفَةِ مَذعورينَ، عَلى أهلِ بَلَدٍ كانَ لهُم من إباءٍ وعِزّةِ نَفْسٍ وغيرةٍ عَلى الأرضِ والعِرْضِ ما غيّرَ حساباتِهم التي حَسبوها ونَبَّهَهُم على أضغاثِ أحلامِهم، فرُدّوا على أدبارِهم ودُفِعوا إلى حيثُ جاؤوا.

لكنَ هذا المُستعْمِر لَم يَشَأ أن يخْرُجَ خاسراً، فقَد فاوَضَ أهلَ الوطَنِ على الخُروجِ بشُروطٍ، منها تَنشئةُ مُخاطَبِينَ يُفكِّرونَ بتَفْكيرِه وينهجونَ نَهجَه، وسيُجازيهم بمَنْحِهم فُرصةَ استكمالِ الدّراساتِ الجامعيّةِ العُلْيا في الغرب؛ لِيَتَسنّموا عِنْدَ عَوْدِهِم إلى بَلَدِهِم مَناصبَ التّسييرِ والتّدبيرِ. فَيكونوا للمُستعمِر الغربيّ خيرَ ممثِّلٍ وخيرَ سَفيرٍ وخيرَ مُحافظٍ عَلى وُجودِه ومَصالحِه. فكانَ للغرب ما أرادَ وتَحقّقَ لَه ما لَم تُنْجِزْه المدافعُ والطّائراتُ؛ أبرَمَت مع البَلَد الذي مُنحَ الاستقلالَ، مَواثيقَ لإدخالِ بَرامجِها التّعليميّةِ والثّقافيّةِ إلى البِلادِ، لتَوطينِ مواطني البَلَد عَلى الحَياةِ الغربيّةِ والتّفكيرِ الغربيّ والذّوقِ الغَرْبيّ ونَمَطِ الحَياةِ الغرْبيّةِ؛ إذ كانَت تَعْلَمُ أنّ التّعليمَ الغربيّ سيُفَرّخُ مُسَخاً منْ أوربا في البَلَد العربيّ المُسلِم، تستأنِفُ بالبلَدِ ما فاتَها أن تُنْجِزَه، وتَضمَنُ لَها مُخاطَباً مُوالياً وسوقاً رائجَةً ومُناصراً لقضاياها وحَليفاً مُعَضِّداً. ولَقَد وَجَدَت في بَعضِ الأعْيانِ وبعضِ الوُجوهِ التي فَقَدت ماءَ الوُجوه، مَن يقبَلُ خططَها في الامْتدادِ الثّقافيّ والاقْتصاديّ، فجعلتْهُم لَها مَطايا واتّخذتْهُم سخرياً لاستئْنافِ مَشْروعِها. وبذلِكَ يَكونُ الاستعمارُ قَد خَرَجَ من البِلادِ من بابٍ وعادَ فدَخَلَ من بابٍ آخَر ، ومَهّدَ له الدُّخولَ نُخْبَةُ النَفوذِ السياسيّ والثّقافيّ والاقْتصاديّ التي كَوّنَها ورَبّاها، دخلَ المستعمِرُ ثانيةً مُستكبِراً على الأمّةَ اسْتقْلالَها، تَتعاظَمُه جُرأةُ المعْتَدي فيُغْري أبناءَ الأمّةِ الأحْرارَ بالإذْلالِ. فَغدَت بذلِك حَياةُ أهلِ في كثيرٍ من مَناحيها غربيّةً، لكنّها مُترجمَةٌ إلى الدّارجةِ ليفهَمَها كلّ مواطنٍ ويُشْرَبَها.

كيفَ يُعقلُ أنّ يُصبحَ نمطُ حياةِ البَلَدِ بعدَ الاستعمارِ مُجْتلَباً ممّا وراءَ البِحارِ ، مُستعاراً من دُوَلِ الاحتلالِ التي امتصّتْ دمَ البلادِ العربيّة قرابةَ قرنٍ من الزّمانِ وما فَتِئت. كيفَ يُقالُ إنّ الحُكوماتِ لا تُشتَرى ولا تُباعُ ولكنّها تَخْرُجُ من رحِمِ صناديقِ الاقْتراعِ، لكنَ الحَقيقةَ المرّةَ أنّ أكثرَ أصحابِها من العرب كانوا يسْتَعينونَ بالغَربِ، في ضيقِ شُعوبِهم بظُلمِهِم، ويلجأُ إليه أكثرُهُم لفلتِ الطّوقِ عن نظامِه، مثلَما كانَ مُلوكُ الطّوائفِ في الأندلُسِ يستعينونَ على رَعاياهُم بعَسْكرِ الفرنْجِ، فتكرّرَ المشْهَدُ اليومَ في الاستعانَةِ بالأجنبيّ. وابْتُكرَت أنماطُ تَسييرٍ سَياسيٍّ صُنِعَت في ديارِ الغربِ ثمّ جيءَ بِها مَحمولةً على ظهرِ دبّابةٍ، ظاهرُها فيه الرّحمةُ وباطنُها من قِبَلِه العَذابُ. فتمخّضَت تلكَ الأنماطُ عن اسْتعلاءِ الرّاعي على الرّعيّةِ ورُكوعِ الرعيّةِ للرّاعي باسمِ الشّرعيّةِ.

يَتَذكَرُ الكاتبُ هذه **المَعانيَ التي حَمَلَتْها صورَةُ الأُسرَةِ الفتيّةِ** في ذلِكَ الزّمَنِ الغابِرِ (1960م). والحَقيقَةُ أنّ **هَيئةَ المَشهدِ المُنْتَزَعَةَ من الصّورَةِ** تَحْكي زَمَناً كانَ له ما بعْدَه؛ فَلَم يكُن البَلَدُ آنذاكَ قد انفَكَّ من بَراثِنِ المستعْمِرِ، وإن أُعْلِنَ عن الانفكاكِ رَسمياً، وإنْ زَعَمَ ذَووهُ أنّه يَنعَمُ بالحرّيّةِ وادّعَوْا.

الصورةُ الثانية :

وتَتْلو هذه الصّورَةَ صورةٌ أخْرى يَقفُ فيها الصّبيّانِ بَعْد حَفْلِ الاخْتتانِ، تتوَسّطُهُما أختُهُما الجَوْهَرَةُ الصّغيرَةُ ممتلئةَ الجِسْمِ بَيْضاءَ البشرَةِ يَعْلو مُحَيّاها ابْتسامٌ بَريءٌ بَرِئَتْ مَعانيه من التّصنُّعِ، وهي في الصّورَةِ تَكادُ تَخْطو خُطوةً إلى الأمامِ؛ بَعْدَ أنْ دَعاها المصوّرُ باسْمِها لتنظُرَ إلى عَدَسَةِ التّصويرِ، فظنّتْ أنّه يُناديها لتُقْبِلَ. فظَلّت الخُطْوَةُ مجمّدَةً في ذاكِرَةِ الصّورَةِ إلى يَومِنا. أمّا أخَواها بِجانِبَيْها فَقَدْ وَقَفا وَقْفَةً حائرةً وعلى كلّ واحدٍ منهُما قَميصٌ تَقْليديٌّ طَويلٌ أُلْبِسَه بَعْدَ الخِتانِ، وهُما يَحْملانِ في ثَغْرَيْهِما بَسْمَةً بَريئَةً أيْضاً ولكنّها لا تَخْلو من حَيْرَةٍ ودَهْشَةٍ. ولَمْ يَكُنْ يَدْري كاتبُ السّطورِ وهو صبيٌّ كَباقي أقْرانِه سِحْرَ آلةِ التّصْويرِ وتأثيرَها في الواقِفِ أمامَها وكأنّها تأمرُه بالصّبْرِ والانْضِباطِ واخْتيارِ أفْضَلِ ما يَمْلِكُهُ من أوْضاعٍ وهَيْئاتٍ وحَرَكاتٍ يُقَدِّمُها هَديّةً لمَنْ سينظُرُ إلى الصّورَةِ.

أمّا عَنْ حَفْلِ الخِتانِ فَلا يَذْكُرُ هو وأخوه منه شيْئاً إلاّ الألَمَ والدّموعَ، ثُمّ عنايَةَ الوالدِ رحمه الله بِهما ومُعالَجَتَهُما بالأدويةِ والنّظافَةِ، ولا يذْكُرُ أنهُما قَد أخْرِجا في مَوْكبِ إشْهارِ الخِتانِ عَلى ظهرِ الحِصانِ كَما جَرَتِ العادَةُ مَعَ الصِبْيَةِ عندَما كانوا يُساقونَ إلى الحَلاّقِ كأنّما يُساقونَ إلى الموْتِ أو يُساقونَ إلى المجْهولِ وهُم لا يَشْعُرونَ. والحَلاّقُ رجلٌ تَعَدّدَتْ وَظائفُه إذْ جَمَعَ بينَ حَلْقِ الرأسِ والحِجامَةِ والخِتانِ، عَلى بَساطةِ أدواتِه وما قَدْ يَعْلَقُ بِها من عَوامِلِ المرَضِ والعَدْوى. لا يَذكُرُ الصّبيُّ أنّه خَضَعَ لِمَراسيمِ المعْرِضِ وما يَكونُ فيه مِنْ رَفْعِ الأصواتِ بالزّغاريدِ وعَزْفِ المزاميرِ ودَقِّ الطّبولِ؛ فتلْكَ عاداتٌ بَغيضةٌ كانَ يأنَفُ منها الأبُ ويَكْرَهُها. فأُعْفِيَ بذلكَ ابْناه من امْتِحانِ العَرضِ والتّشْهيرِ، ولكنّهُما لَنْ يُعْفَيا من امْتحانِ الصّبرِ على ألمِ ما بَعْدَ الخِتانِ. فَما كانَ أكثَرَ دُروس الصّبْرِ التي يَتَعلّمُها الأطفالُ قبْلَ أنْ يَصيروا رِجالاً ونِساءً، أباء وأمّهاتٍ، يتَذكّرُ الكاتبُ نفْسُه ذلِكَ وقَد دَفَعَ بابْنه إلى الخِتانِ كَما دُفِعَ هو. فقَد حَمَلَتْه الذّكْرى إلى يَوْمِه هو ويَوْمِ أخيه، وما كانَ بعْدَ ذلِكَ من ألَمٍ داوَتْ جِراحَه الأيّامُ وزياراتُ النّاسِ وتَهْنِئَتُهُم بسُنَّةِ الإسْلامِ، وإكْرامُهُم للطّفْلَيْنِ بالهَدايا والحلْوَياتِ، فَقَدْ أنْسى حُلْوُ العَطيّةِ مُرَّ البَليّةِ.

من بَلاغة الصّورَة ودلالتها السيميائية :

من الصُّورِ التي ألِفَها الكاتبُ وألِفَها أبْناءُ جيلِه في الكَتاتيبِ القُرآنيّةِ: صورَة اللوح الخَشبيّ والقَلَم القَصَبيّ والحبرِ النّباتيّ، فوقَ حصيرٍ من العيدان الصّفْراءِ الجافَةِ في مَبْنى بسيطٍ يَخْلو من مظاهِرِ الرّئْيِ والزّخْرَفَة :

المحافَظَةُ على شكلِ الأدواتِ العَتيقِ مَطلوبٌ في زَماننا؛ لِما له من تأثيرٍ نفسيٍّ جَميلٍ في الكاتبِ على الألواحِ والقارئ فيها والنّاظرِ إليْها؛ ولا عليْكَ أن يكونَ باطنُ القَلَم جديداً، مُراعاةً لسُرعةِ الإنجازِ وجودتِه، ولكنَّ ظاهرَه قَديمٌ وللقَديمِ في كلّ عصرٍ أماراتُ الأصالَةِ.

فالمرادُ عندَنا هو منظرُ الأدواتِ الذي يحملُ النّاظرَ إلى أجيالِ التّاريخِ المغربيّ العَتيقِ وسلسة الشُّيوخِ والحَفَظَةِ ومن تخرَّج على أيديهم من طلاّبٍ حافَظوا على سَمْتِ المدرسَةِ القُرآنيّةِ المغربيّةِ، على مرّ السنينَ.

ألا تَرى أنّ لمنظرِ اللّوحَةِ الخَشَبيّةِ والقَلَمِ القَصبيّ والحبرِ النّباتيّ والحَصيرِ المنْسوجِ... دلالاتِ البَساطَةِ والتّواضُعِ وغِنَى العُمقِ وقلّة شَواغِلِ العَيْنِ، والمَيْل إلى الزّهدِ في القُشور وتَصحيحِ مَقاييسِ النّظرِ والاختيارِ والتّفضيلِ...؟ فلا يَغيبَنَّ عن القارئ والمقرئ والحافظِ هذا التّقْليدُ البَديعُ ولا يَمّحيَنَّ عن أذهانِهم هذا الرّفيقُ الصّامتُ الذي يتحدّى نَواخرَ الزمَنِ ويظهَرُ على هادِماتِ القيَمِ وداهِماتِها؛ بل ينبغي أن تخرُجَ هذه الأدواتُ من حيّزِ المتْحَفيَّةِ والتُّحَفِ، والطَّرائفِ الجَميلةِ والنُّتَفِ، إلى حيّزِ التّداوُلِ والتّناوُلِ.

أوَ لا تَرى أيضاً أنّ البُلدانَ المتقدّمةَ التي اقْتبسْنا منها تَعْليمَنا العصريَّ، تُعْنى بلديّاتُها ومصالحُها العموميّةُ بحَياةِ الماضي في الحاضرِ، فلا شكّ أنك سمعْتَ «بمدرسَة أيّام زَمان» في بعض مُدنِ فرنسا [L' école d' autrefois]، تلكَ المدرسة القَديمَة التي أصبحَتْ اليومَ تُحفَةً نَفيسةً تَحتفظُ ببنائها العَتيقِ، وبسجلاّتِ المدرسَةِ في إدارة المديرِ، وبأسماء التّلاميذِ الذين إذا بحثتَ عنهم اليومَ وجدتَهم قد رمّتْ عظامُهم في قُبورِهم منذ سنين، بل تجد في هذا المتحَفِ قاعات الدّرسِ على هيئاتِها التي كانَت عليْها وتجدُ الطّاولاتِ والمحابرَ والدّفاترَ والرّيشاتِ والمناشِفَ الورقيّةَ والمحافظَ الجلديّةَ العَتيقةَ والمباذِلَ أو أزْياء التّلاميذِ والمعلّمِ، ووسائلَ الإيضاحِ... وأصبَحَ المواطنُ الأوربيُّ في بلدِه مَسموحاً له أن يَحْيا حَياةَ الماضي في الحاضرِ وأن يزورَ قاعاتِ الدّرسِ ويجلسَ على كرسيّ حيثُ كان يجلسُ التّلاميذُ، ويستمعَ إلى معلّمٍ طاعنٍ في السّنّ وهو يُملي عليْه الأماليَّ و يَتْلو يُردّدُ على مَسامعِه دروسَ القِراءَةِ والحسابِ، بأصواتٍ فصيحَةٍ لم تعدْ تسمعُ مثلَها اليومَ في بلدانِهم...

وهذا كلُّه من وَحْيِ الصّورَةِ ومن بَلاغَةِ الصّورَة: فَقَد عَلَّمَتْ صُوَرُ الطّفولَةِ المَحْفوظَةُ في سجِلّ الصُّوَرِ، هذا الطِّفْلَ الصّغيرَ ، بعْدَ أن كَبرَ وأصبحَ يفهمُ دلالاتِ الصّوَرِ، أنّه كُلّما تأمّلَ النّواتئَ التي كانَ يُقاسيها أبْناءُ فَجْرِ الاسْتقْلالِ وما رافقَها من مِحْنَةِ إعادَةِ البِناءِ، تَمَلّكَه شُعورٌ بأنّ تلْكَ الظّروفَ العَصيبةَ كانَتْ مُوقَّعَةً تَوْقيعاً مُحْكَماً، في الزّمانِ والمَكانِ، لتأتيَ

بنَتيجةٍ مُحدَّدةٍ هي: هذا الطِّفْلُ وأقْرانُه في ذينِكَ الزّمانِ والمَكانِ، فَهُوَ يعْلَمُ أنّه لَم يكُنْ وَحْدَه في احْتمالِ ما احْتَمَلَ والِداهُ والمواطنونَ المُخلصونَ جَميعاً من سَرّاءَ وضَرّاءَ، وحُلْوٍ ومُرٍّ، فأمْثالُه يُعَدّونَ بالآلافِ بَلْ بِعَشراتِ الآلافِ، ولا بُدّ لهذا الجيلِ منْ أنْ يُؤثّرَ في مَجْرى تاريخِ البَلَدِ، ويُسخَّرَ لِخِدْمَتِه وبِنائِه، وهَل البَلَدُ إلاّ بأبْنائِه الذينَ يتَسلَّمونَ لِواءَ القِيادَةِ من أيْدي الآباءِ، ولا يَنْسَلِخونَ قِيدَ أُنْمُلَةٍ عَن قِيَمِه، فالشُّجاعُ مَن حَمَلَ من قبلُ اللِّواءَ، والجَريءُ مَن اقْتَفى، لكنَّ البَطيءَ مَن لم يزدْ على أن حَدَّثَ نَفْسَه ونَوى، ولَوْلا تلكَ المَعاني لَما أُرِيقَت دِماءٌ ولا بُذِلَتْ تَضْحياتٌ جِسامٌ بَرْهَنَت للعدُوّ خَطَرَ القَضيَّةِ وجِدَّ أهْلِها وعَزْمَهُم؛ فَطهُرَتْ بدِمائهم الأرضُ مِن دَنسِ العَدُوِّ ووُطِئَتْ أكْنافُها لِمَن أتى بعْدَهُم، لكنَ هؤلاءِ الآتينَ الجُدَدَ منهُم مَن اسْتأنَفَ حَمْلَ الهَمّ ومنهُمْ مَن ركِبَ المَطيّةَ لكَسْبِ الجاهِ والمالِ والسُّمْعَةِ، فأفسَدَ ما أصلَحَ مَنْ كانَ قبْلَه. حَلَّ زَمانٌ مَحْلٌ عَصيبٌ إذْ هاجرَت النّسورُ أرضَ الوَطنِ، وحلَّ بِها البُغاثُ الأرذَلُ.

هذه بَعْضُ قَطَراتٍ من العُمرِ النَّدِيّ تَتَبَخّرُ وتَتَبَدّدُ في سَماءِ الحَياةِ فَتَصيرُ سَراباً. لُماظةُ أيّامٍ في سَماءِ أحلامٍ. أيّام يَعِزُّ رَجْعُها إلى نَشأتِها الأولى، فيَشْرَعُ الكاتبُ إلى الْتماسِ آثارِها في قَرائنَ وأشْباهٍ ونَظائِرَ من الحَياةِ، **ومَراجِعَ من الصُّوَرِ** والأحْياءِ والأشْياءِ، وذلِكَ لقَفْوِ الأثَرِ بَعْدَ خَفاءِ الخَبَرِ.

أمّا اليومَ فإنَ الحياةَ لم تعُدْ تُتصَوّرُ من دونِ صورٍ، فهي مبثوثَةٌ في كلِّ حدبٍ وصوْبٍ ولا تكفُّ عن التّدفُّقِ في كلّ مَجاري الحياةِ المعاصرةِ، إنّنا نعيشُ في عصرِ الصّورةِ وحَضارةِ الصّورةِ، واخْتُزِلَت آلافُ الكَلماتِ في الصّورةِ الواحدةِ والصّورتيْنِ وبضعِ صورٍ، وأصبَحَ للصّورَةِ أثرٌ عَميقٌ في تَشكيلِ وعيِ الإنسانِ المعاصرِ، بَل في تَكْوينِ خَيالِ الطّفلِ منذُ الصّغرِ. إنّ الصّورةَ «حاضرةٌ في التّربيةِ والتّعليمِ، وفي الأسواقِ والشّوارعِ، وعبرَ وَسائلِ الإعلامِ، وفي قاعاتِ العرضِ... وفي بِطاقاتِ الهويةِ، والحَواسيبِ وعَبْرَ شَبكاتِ الإنترنيت والفَضائياتِ والهَواتفِ المحْمولَةِ...»[1].

[1] شاكِر عَبْد الحَميد، **عَصر الصّورَة، السّلبيات والإيجابيات**، سلسلة عالَم المعرفَة، ع:311، يناير 2005م، ص: 7-8.

الرُّؤيةُ الدّلاليّة في كتابِ "أسرار البلاغة" لعبدالقاهر الجرجاني، وقوانين المعاني والبيان –مقاربة لغوية-

يُثيرُ هذا البحثُ إشكالاتٍ مَنْهَجِيَّةً في الكَشفِ عَنْ بَعْضِ مُقَوّماتِ النَّصِّ الأَدَبِيّ. وَوَجْهُ تَطويرِ الإشْكالاتِ مُحاوَلَةُ إثارَتِها بِأسئلَةٍ حَديثَةٍ، أو تَصنيفُ العَناصِرِ المَنْهَجِيَّةِ القَديمَةِ في أَبْوَابٍ حَديثَةٍ، وَجَعْلُها تَنْدَرِجُ تَحتَها. وَيَدخُلُ في هذا مُحَاوَلَةُ تَطْوِيرِ المَفاهِيمِ النَّقْدِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، وجَعْلِها قادِرَةً عَلى تَحْليلِ النَّصِّ رائِدَةً فيهِ، وذَلِكَ لِكَيْ يَرقَى التَّحْليلُ العَرَبِيُّ إِلَى مُسْتَوَى الأُنَموذَجِ المَنْشودِ في التَّحليلِ.

ويَنْحَصِرُ البحثُ في محاولَةِ استخراجِ تَصويرِ عبد القاهر الجرجانيّ للمعنى الشِّعرِيّ وطَريقةِ تَركيبِه في كِتابِ "أسْرارِ البَلاغَةِ". ويُقاربُ هذا التَّصَوُّرَ بِأداةٍ لُغَوِيَّةٍ، لِمُحاوَلَةِ صَوْغِ تَصَوُّرٍ عن الرُّؤيَةِ الدَّلالِيَّةِ التي ينْطَلِقُ منْها والأساسِ النَّظَرِيّ الذي وَضَعَهُ. وينطلقُ من كِتابِ "أسرار البلاغةِ" الذي عدَّه مُحَقِّقُه، إلى جانبِ صِنْوِه "دلائل الإعجاز"، أصْليْنِ جليليْنِ، أسَّسا قواعِدَ النَّظرِ في علمِ بلاغَةِ الألسِنَةِ عامَّةً وبلاغَةِ اللِّسانِ العَرَبِيّ المُبينِ خاصَّة[1]، بعدَ أن ألَمَّ بالعَرَبِيّةِ مرضُ الوقوفِ عِند ظواهِرِ قوانينِ النَّحوِ ومدلولِ الألفاظِ المُفرَدَةِ والجملِ المُرَكَّبَة، والانصراف عن معاني الأساليب، ومدلولاتِ التّراكيبِ، ومناحي القولِ في ضُروبِ التَّجوُّز والكِناية[2]

إنَّ أبرزَ قَضِيَّةٍ يُمْكِنُ الحديثُ عَنهَا في إطارِ تَصَوُّرِ عَبدِ القاهرِ لِبنْيَةِ المَعْنَى الشِّعرِيّ أو الصّورَةِ هِيَ أنَّ لَهُ رُؤيَةً دَلالِيَّةً واضِحةً في وَصْفِهِ لِنَظْمِ الشِّعْرِ. ولَيْسَ المُرادُ بالرُّؤْيَةِ الدَّلالِيةِ اختزالَ التَّصَوُّرِ إلى قَضِيَّةِ "اللَّفْظِ والمعنَى" التي طالَ الجَدَلُ حَولَها، وَصُنِّفتْ مَذاهِبُ النَّقْدِ العَرَبِيّ القَديمِ وفْقَهَا، وعُدَّتْ مُجَرَّدَ مَسْأَلَةٍ لُغَوِيَّةٍ لِتَصَوُّرِ صِناعَةِ الشِّعرِ ومسالِكِ القَوْلِ الأُخْرَى. ولَكِنَّ المَقْصُودَ بِالرُّؤْيَةِ الدَّلالِيَّةِ تِلكَ **النَّظرَةُ الكُلِّيَةُ النَصِيَّةُ** التي تَرجِعُ مزايا الكَلامِ البَليغِ إلى قِيَمِ المَعنى بِمَراتِبِهِ ومَظاهِرِهِ المُختَلِفَةِ، هذِه القِيَم التي تُحَدِّدُ نَوعَ الصّياغَةِ اللَّفظِيَّةِ وَطريقَةَ النَّظْمِ والتَّركيبِ المُناسِبَةِ. وَيُمكِنُ أن نَنْعَتَ بَلاغَةَ عبدِ القاهِرِ في "أسْرارِ البلاغَةِ"

---

[1] الأستاذ محمود محمّد شاكر، ص:3، مطبعة المدني، القاهرة، ط.1/1412-1991، ويُنظَر أيضاً ما قاله يحيى ابنُ حمزةَ العلوي في مقدّمة كِتابِه: [**كِتاب الطِّراز المُتَضَمِّن لأسرارِ البَلاغَةِ وعُلومِ حقائقِ الإعجاز**: ليحيى بن حمزةَ العَلَويّ اليمَنِيّ (ت.749)، مراجعة جماعةٍ من العلماء، دار الكُتب العلميّة، بيروت 1402-1982] عن كِتابَي "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز".

[2] انظر تفصيلَ ذلك في كلام الشّيخ رشيد رضا، في مقدّمة نشره لكتاب "أسرار البلاغة"

بِأنّها تقعيدٌ لِلْمَعْنَى أو وَضْــعُ نحوٍ للمَعْنى الشّــعريّ، وذلِك لأنَّه يُديرُ كلامَهُ كُلَّهُ على طُرُقِ الإمْســاكِ بِأطرافِ المَعنَى وتقييدِ أوابدِه. وَتتمَيَّزُ هـذِه الرُّؤيـةُ الـدَّلالِيَـةُ بميزَةِ الشُّــمولِ والاســتِقْطابِ لأنَّها تَسْـري في كلّ أَدواتِ التَّحلِيلِ وتَسـتَغرِقُ أجزَاءَ الرُّؤْيَةِ وتفاصـيلَها. وَأكبَرُ دَليلٍ على تَصَوُّرِهِ المَذكورِ قَوْلُهُ:

"غَرَضـي في هَذا الكَلاَمِ الذي ابْتَدَأتُهُ والأسـاسِ الذي وَضَـعتُهُ أنْ **أتَوَصَّـلَ إلى بَيَانِ أمْرِ المَعَاني كَيْفَ تَختَلِف وتَتَّفِقُ**، ومِن أيْنَ تَجْتَمِعُ وَتَفتَرِقُ وأُفَصِّــل أجناسَــها وأنواعَها، وأتَتَبَّع خاصَّـها ومُشـاعَها، وأُبَيّنُ أَحْوالَها في كَرَمِ مَنْصِبِها مِن العَقْلِ وَتَمَكُّنِها في نِصَـابِهِ، وَقُرْبِ رَحِمِها مِنهُ أو بُعدِها حينَ تنْسبُ عَنْهُ... وَهَذَا غَرَضٌ [أي بيانُ أمْرِ المَعَاني] لا يُنالُ عَلى وَجْهِهِ، وطَلِبَةٌ لا تُدرَكُ كَما يَنبَغِي إلاَّ بَعدَ مُقَدّماتٍ تُقَدَّمُ وَأصــولٍ تُمَهَّدُ وَأشْــياءَ هِيَ كَالأدَواتِ فيهِ حَقُّها أنْ تُجمَعَ". وَقَوْلُهُ: "وَأَوَّلُ ذَلِكَ وأوْلاَهُ، وأَحَقُّه بِأَنْ يَستَوفِيَهُ النَّظَرُ وَيَتَقَصَّاهُ، القَوْلُ على التَّشْبيهِ والتَّمثيلِ والاسـتِعَارَةِ، فَإنَّ هَذِهِ أُصُــولٌ كبيرَةٌ كَأنَّ جُلَّ مَحاسِــنِ الكَلاَمِ – إن لَمْ نَقُل كُلَّها – مُتَفَرّعَةٌ عَنهَا وراجِعَةٌ إلَيْهَا، وكَأنَّها أَقْطابٌ تَدور عَلَيْها المعاني في مُتَصَرَّفاتِها..."[(1)]

هذا نصٌّ جامِعٌ يَتَحَدَّثُ فيهِ عبدُ القاهِرِ عَن **أُصُــولِ النَّظَرِ في بِنيَةِ المَعْنَى الشّــعريّ**، وسَمَّى أُصولَ النَّظَرِ هذِهِ باسْمٍ جامِعٍ هُوَ "**بَيانُ أمرِ المَعَاني**"، وهُوَ مُصْطَلَحٌ لِصِناعَةٍ أَوْ فَنّ أوْ عِلْمٍ وَضَــعَهُ هُوَ نَفْسُــهُ وسُــمّيَ فيما بَعدُ بالبَيَانِ، ففيه « تَوظيفُ البيان والأســاليب البلاغيّةِ للكشــفِ عَن المَعاني التي تَكمُنُ وَراءَ المعاني الظّاهِرَة»[2] ويُمكِنُ أَن نَقول إنَّهُ أنشـأَ كِتابَ الأسْـرَارِ لِتَمحيص رُؤيَةٍ واضِحَةٍ، مَفادُهاَ أَنَّ قوامَ العَمَلِ الأَدَبِيّ بِنيَةٌ دَلاَلِيَةٌ مُتَماسِكَةٌ في صُورَتِها مُتَحَكِّمَةٌ في طَرِيقَةِ الصِيَاغَةِ المُعَبّرَةِ عَنهَا. ومَدارُ تَصَوُّرِ الرَّجُلِ على بَيَانِ أمْرِ المَعَاني في حالَتَي التَّحلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ، وعَلَى مَنْهَجِهِ في مُعَايَنَةِ تَحلِيلِ المَعانِي وضَــوَابِطِ تَركيبِهَا، وسَــمّى طَرِيقَتَهُ فِي المُعَايَنَةِ **بِالمُقَدّمَةِ وَالأُصُولِ والأَدَواتِ**.

مظاهِرُ الرُّؤيَةِ الدَّلاَلِيَةِ، أَو مَظَاهِرُ النَّظَرِ في المَعْنَى الشّعْرِيّ :

أصولُ النَّظرِ في المعاني الشّعْريّة :

[(1)] **أسرار البلاغة**: 26-27. وأشار الشّيخ رشيد رضا إلى أن عبارة: "الأساس الذي وضعته" نصّ من عبد القاهر على أنه هو الواضع لهذا الفنّ: [هامش (1) ص:19، من طبعة المنار].

[2] **الدَّرس الدّلاليّ عندَ عَبْد القاهِرالجرجاني**، تراث حاكم الزبادي، دار صَفاء للنشر والتوزيع عمّان – مؤسسة دار الصّادق الثّقافيّة العراق، ط.1، 1432-2011. ص: 343

لا شكَّ في أنَ عَبد القاهر نَظَرَ في ما أُلِفَ قبلَه في "مَعاني الشّعر" واتِّفاقِها واختلافِها بينَ الشُّعَراء، وتتبَّعَ حِرْصَ النُّقّادِ قبلَه عَلى تحليل المعاني والبحثِ في أحوالِها وعلاقات بعضها ببعض، وانتقالِها بين الشُّعَراءِ، وفي شَأنِ الابْتِكارِ والتَّقْليدِ؛ فقَد كتَبَ الخالِديّانِ "الأشباهَ والنَّظائرَ" في بَيانِ أمرِ المَعاني وانتقالِها، وفي المَعاني الجيِّدَةِ والمَعاني المُتَداوَلَة والمَعاني المُحْدَثَة... وعَقَدَ الموازنات بينَ مَعاني الأبياتِ ، وكيفَ أنَ الشعراءَ اللاّحقِينَ نَظَروا إلى مَعاني المُتقدّمين، وهُم يَنْظِمونَ، بل قَد يَأتي بيتُ المُتأخِّرِ أظرَفَ لفظاً وأجودَ قسمةً، كما وُصفَ بيتُ ابنِ المُعتزّ :

فَما راعَه إلاّ أسنَّةُ عَسكرٍ /// كظُلمَةِ لَيْلٍ ثُقِبَت بنُجومِ[1]

وقَد أخذَ ابنُ المعتزّ المَعْنى من قول عنترةَ:

نَهَنَهْتُ أوَّلَهُم بعاجِلِ ضَربةٍ /// ورَشاشِ نافذةٍ كلَونِ العَنْدَمِ

ما أكثر المَعاني الشعريةَ التي ثبَّتَها النُّقّادُ في "مُعجم المعاني الشعريّة" وتناقَلوها وتَوارَدوها حتّى أوشكَت أن تُصبحَ **أصولاً لمعاني الشعر** مُتفرّعةً عن أغراضه؛ فأصول المَعاني التي أصَّلَها المتقدمونَ ومنهُم قُدامةُ بنُ جَعفر (ت.337هـ) المديحُ والهجاءُ والمَراثي والتشبيهُ والوَصفُ والنسيبُ، وأما الصِّفاتُ الكلّيّةُ التي تَعمُّ المعاني الشعريةَ في ذاتِها، فَصِحَّةُ التقسيمِ وصحَّةُ المقابلَةِ وصحَّةُ التفسيرِ والتتميمُ والمُبالغةُ والتكافُؤُ والالتفاتُ ، وأمّا التي تَعمُّ المعاني في عَلاقتِها بالألفاظِ فالمُساواةُ والإشارةُ والإردافُ والتمثيلُ والمُطابقةُ والمُجانسةُ[2] .

أمّا المَعاني الخاصَّةُ المفصَّلَةُ التي تتصلُ بأعرافِ الشعراءِ فقَد أحْصى منها الخالديّانِ (ت.380/ت.391): قتال الأقارِب بكُرْه القُلوب، وعُرف الحَبيب بالديارِ، والرُّشد في المَكارِه، ووَصل السُّيوفِ بالخُطَى، والاستغناء بالسِّلاحِ عَن الحُصونِ، وسُرعَة تَحدُّر الدَّمعِ، وخَفَقان القَلب وما إليْه، وقِلَّة الغيرَة وضدّه، والصبر على القَتل، والاستغناءِ بالسلاحِ عَن الحُصون، واقتحامِ الحَرب والعِفَّة عندَ المَغنَم، وذمّ مَن قصَّر عن آبائه، والهِجاءِ والاستهانةِ بغَضَب المَهجوّ، ومُكافأة المَركوبِ بعدَ بُلوغِ المطلوبِ، وتأكيد المَدح بما يُشبه الذّمّ، وتأكيد الذّمّ بما يُشبه المدحَ، والمَخافة وضيق الأرض برحْبِها، ومعنى "ليسَ الكريمُ عَلى القَنا بمُحرَّم"[3].

---

[1] **الأشباه والنظائر من أشعارِ المتقدّمينَ والجاهليّةِ والمُخضْرَمين**، للخالديَين أبي بَكرمحمَّد وأبي عُثمانَ سَعيد ابنَيْ هاشم (ت.380/ت.391)، ت. السّيّد محمّد يوسُف، لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرَة، 1965م ج:2، ص:2.

[2] **نَقْد الشّعر**، لأبي الفَرَج قُدامةَ بن جَعفرٍ، ت.محمّد عَبد المُنعم خَفاجي، دار الكتُب العلمية، بيروت، ص: 91–163.

[3] **المصدرُ نفسُه**: يُنظرُ صفحات الكتاب كلّه.

مَفْهُومُ الخَصَائص الدَّلاَلِيَّةِ في "أسرار البلاغة":

1- المَظهرُ الأولُ: المَقْصُودُ بالخَصَائِصِ الدَّلاَلِيَّة :

وهو مَجْمُوعُ العَناصِر الدَّلاَلِيَةِ وَمُقَوِّماتِ المَعْنَى الماثِلَةِ فِي اللَّفْظِ، وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُها إلَى مُقَوِّماتٍ أو خَصَائِصَ نَحْوِيَّةٍ تُحَدِّدُ وَظيفَةَ اللَّفظِ النَّحويَّةَ في التَّركيب، والمِثالُ عَلَى ذَلكَ قَولُ بَعْضِ النُّحَاةِ فِي خَصائِصِ الاسْمِ: "الاسمُ تَخُصُّهُ أَشْياءُ يُعْتَبَرُ بِهَا..."[1]، ومُقَوِّماتٍ أو خَصَائِصَ مُعْجَمِيَّةٍ تُحَدِّدُ وَظيفَةَ اللَّفظِ الدَّلالِيَةَ، وقد حَاوَلَ عُلَماءُ اللُّغَةِ وَأَصحَابُ المَعَاجِمِ أَنْ يَحْصروها فِي تَعْرِيفِهِم الشَّيْءَ بما يَتَضَمَّنُهُ مِنْ عَناصِرَ مُعْجَمِيَّةٍ، وَمُقَوِّمَاتٍ أو خَصَائِصَ بَلاَغِيَةٍ تُحَدِّدُ وَظيفَةَ اللَّفْظِ الشِّعْرِيَةَ، إلاَّ أَنَّ الخَصَائِصَ النَّحْوِيَةَ والخَصَائِصَ المُعْجَمِيَّةَ عَناصِرُ وَمُقَوِّمَاتٌ ثَابِتَةٌ فِي اللَّفْظِ تُوجَدُ فِيهِ بِالوَضْعِ والأَصَالَةِ وَبِهَا يَتَحَدَّدُ. أَمَّا الخَصَائِصُ البَلاَغِيَةُ فَهِيَ عَناَصِرُ تَنتَقِلُ إلَى الكَلِمَةِ بَعْدَ أن لَمْ تَكُنْ فِيها، تَنتَقِلُ إلَيْهَا بِضَرْبٍ مِن النَّقلِ والاسْتِعَارَةِ والتَّجَوُّزِ والتَّشْبِيهِ وَسَائِرِ تِقْنِياتِ تَحْوِيلِ المَعْنَى، وَهِيَ فَرعِيَّةٌ غَيْرُ ثَابِتَةٍ، وَلاَ تُدرَكُ إلاَّ مِن خِلاَلِ المُقَوِّماتِ الأَصْلِيَّةِ الثَّابِتَةِ، وذَلِكَ للتَّمَكُّنِ مِن إدرَاكِ حَرَكَةِ الانتقَالِ التِي حَصَلَتْ فِي اللَّفْظِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبْدُ القَاهِر الجُرْجَانِي:

"اِعْلَم أَنَّ كُلَّ لَفْظَةٍ دَخَلَتْهَا الاسْتِعَارَةُ المُفِيدَةُ فَإِنَّهَا لاَ تَخْلُو مِنْ أَنْ تَكُونَ اسْماً أَو فِعْلاً، فإِذَا كَانَتْ اسْماً فَإِنَّهُ [...] تَنْقُلُهُ (الاسْتِعَارَةُ) عَنْ مُسَمَّاهُ الأَصْلِيِّ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ ثَابِتٍ مَعْلُومٍ فَتُجْرِيهِ عَلَيْهِ [...] عَلَى سَبيلِ الاسْتِعَارَةِ وَالمُبَالَغَةِ فِي التَّشْبِيهِ، وَمِثَالُهُ قَوْلُ لَبِيدٍ:

وَغَداةَ ريحٍ قَدْ كَشَفْتُ وقِرَّةٍ إذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمامُهَا[2]

وذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَ للشَّمالِ يَداً، ومَعْلومٌ أَنَّهُ لَيْسَ هُناكَ مُشَارٌ إِلَيْهِ يُمْكِنُ أَنْ تَجْرِيَ اليَدُ عَلَيْهِ... أَمَّا الفِعْلُ فَلاَ يُتَصَوَّرُ فِيهِ أَنْ يتَنَاوَلَ ذَاتَ شَيْءٍ كَمَا يُتَصَوَّرُ فِي الاسْمِ... وَوَصْفُ الاسْمِ بِأَنَّهُ مُسْتَعَارٌ حُكْمٌ يَرجِعُ إلى مَصْدَرِهِ الذي اشْتُقَّ مِنْهُ... وَيَكُونُ اسْتِعَارَةً مِنْ جِهَةِ فَاعِلِهِ... وَيَكُونُ أُخْرَى اسْتِعَارَةً مِنْ جِهَةِ مَفْعُولِه..."[3].

يَظْهَرُ مِنْ هَذَا النَّصّ أَمْرَانِ: أَوَّلُهُمَا: أَنَّ تَحليلَ الصُّورَةِ خُصُوصاً، وَالنَّص الشِّعْرِيَ عُمُوماً، يَقْتَضِي تَحْلِيلَ الأَلْفَاظ المُسْتَعْمَلَةِ إِلَى عَناصِرِها ومُقَوِّمَاتِها المُعْجَمِيَّة؛ لأَنَّ

---

[1] **الأصول في النّحو** لابن السراج: 37/1.

[2] وفي روايَة جمهَرَة أشعار العَرَب لأبي زيد القُرشي: وغَداةَ ريحٍ قَدْ وَزعْتُ... كذا في العُمدَة لابن رَشيق القيرواني

[3] أسرار البلاغة: 44،45....

الخَصَائِصَ المُعْجَمِيَّةَ لِكُلِّ كَلِمَةٍ فِي التَّرْكِيبِ تَأْتَلِفُ وخَصَائِصَ الكَلِمَةِ المُجَاوِرَةِ، وَيَحْصُلُ مِنْ هَذَا الائْتِلاَفِ بِنْيَة دَلاَلِيَةٌ تُسْنَدُ إِلَى الجُملَةِ كُلِّهَا.

أَمَّا الأَمْرُ الثَّانِي فَمفَادُهُ أَنَّ الفِعْلَ لاَ يَتَضَمَّنُ فِي ذَاتِهِ هَذِهِ المُقَوِّمَاتِ، وَلَكِنَّهُ رَابِطٌ يَربِطُ مَجْمُوعَ مُقَوّماتِ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَجْموعِ مُقَوِّمَاتِ الكَلِمَةِ المُجَاوِرَةِ لَهَا، لِتَحْصِيلِ البِنْيَةِ الدَّلاَلِيَةِ. فَإِذَا ثَبتَ تَعْلِيقُ المُقَوِّمَاتِ الدَّلاَلِيَةِ بالأَسْمَاءِ دونَ الأَفعَالِ، فإنَّ وَصْفَ الفِعْلِ بالاسْتِعَارَةِ أَمْرٌ غَيْرُ رَاجِعٍ إِلَىَ الفِعْلِ فِي ذَاتِهِ، وَلَكِن إِلَى المَصْدَرِ الذِي اشْتُقَّ مِنهُ، وَيكون استِعَارةً مِن جِهَةِ فَاعِلِه أَو مَفْعُولِهِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ المَصْدَرَ وَالفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءٌ، وَذَلِكَ نَحْوَ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

جُمِعَ الحَقُّ لَنا فِي إمامٍ   قَتَلَ البُخْلَ وأحْيا السَّماحَا

فالفِعْلاَنِ "قَتَلَ" و"أَحْيَا" إِنَّمَا صَارَا مُسْتَعَارَيْنِ بِأَنْ عُدِّياً إِلَى البُخْلِ وَالسَّمَاحِ.

2- المَظْهَرُ الثَّانِي: بِنْيَة المَعْنَى الشِّعْرِي:

بِنيَة المَعْنَى هِيَ الأَصْلُ فِي تَولِيدِ الشِّعْرِ. وَبِنيَةُ الصِّيَاغَةِ تَابِعَةٌ لِبِنْيَةِ المَعْنَى موافقَة لَهَا، وَيَظْهَرُ هَذَا الحُكْمُ وَاضِحاً فِي عَدِّ المَعْنَى الأَدَبِي جِسْماً ثَابِتاً مَوضُوعاً يَكْتَشِفُهُ الشُّعَرَاءُ وَيَبْذُلُونَ الجُهْدَ لإِخْرَاجِهِ؛ فَالتَّشْبِيهُ – الذِي هُوَ صنعة الرَّبطِ بينَ المُتَبَاعِدَيْنِ – لاَ يتَصَور فِي مُطلَقِ التَّأْلِيفِ، ولَكِن هناكَ مذهَباً يُصَابُ فِيهِ الرَّبْطُ بَيْنَهُما. وَالذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَعْنى عَميقاً ثابِتاً فِي الأَصْلِ يَبْحَثُ عَنْهُ الشُّعَرَاءُ فِي اسْتِنْطَاقِهِمْ الأَشْيَاءَ المُتَبَاعِدَةَ، وَمُحَاوَرَتُهُم لَهَا للرَّبْطِ بينَهَا وفْقاً لِذَلِكَ المَعْنَى. أَنَّ المُدَقِّقَ فِي المَعَانِي يُشَبَّهُ بِالغَائِصِ عَلى الدّرّ؛ يَقُولُ عبدُ القاهر: "استَحْقَقتَ الأُجْرَة عَلى الغَوْصِ لا أنّ الدّرَّ كَان بك"[1]، ويقُولُ: "أَلاَ تَرَى أَنَّ التَّشْبِيهَ الصَّرِيحَ إِذَا وَقَعَ بَيْنَ شَيئَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ فِي الجِنسِ، ثُمَّ لَطُفَ وَحَسُنَ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ اللُّطْفُ وَذَلِكَ الحُسْنُ إِلاَّ لاتِّفَاقٍ كَان ثَابِتاً بَيْنَ المُشَبَّهِ وَالمُشَبَّهِ بِهِ مِنَ الجِهَةِ التِي بِهَا شَبَّهْتَ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ خَفِيّاً لاَ يَنْجَلِي إِلاَّ بَعْدَ التَّأَنِّي فِي اسْتِحْضَارِ الصّوَرِ وَتَذَكُّرِها"[2].

الأَقْيِسَةُ وَالصُّوَرُ العَقْلِيَّةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ العَالَمُ مُنَظَّماً فِي شَكْلِ مُتَشَابِهَاتٍ وَمُضَارَعَاتٍ، وَالشَّاعِرُ حِينَ يَصِلُ إِلَى الصُّورَةِ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ وَضَعَ اليَدَ عَلَى مُشَابَهَةٍ بَيْنَ

---

[1] أسرار البلاغة: 152-153.

[2] أسرار البلاغة:4.

طَرَفَيْنِ، ثَابِتَةٍ قبلاً، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ بِهَذا العَمَلِ يَسْتَجِيبُ لِأَصْلٍ فِي التَّصَوُّرِ البَلاَغِيِّ، هُوَ أَنَّ البَلاَغَةَ طَرِيقَةٌ مِن طُرُقِ النظرِ والتَّفْكِيرِ والتَّصَوُّرِ وَالإِدْرَاكِ وَطَرِيقَةٌ مِن طُرُقِ تَنْظيمِ العَالَمِ، فَالمَعْنَى الأَدَبِيُّ جِسْمٌ ثَابِتٌ، وَالصُّورَةُ التِي يَأْتِي بِهَا الشَّاعِرُ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ اقْتِطَاعِ ذَلِكَ المَعْنَى، مِثْلَمَا أَنَّ اللُّغَةَ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ تَقْطِيعِ الوَاقِعِ وَتَنْظيمِهِ وَإِدْرَاكِهِ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ ثُبُوتَ المَعْنَى بِالنَّظَرِ إِلَى المَعْنَى اللُّغَوِيِّ الأَصْلِيِّ، فَبِهِ يَتَحَدَّدُ أَنَّهُ حَصَلَ انْتِقَالٌ مِنَ المَعْنَى الأَصْلِيِّ، وَتَحَوُّلٌ منه ومَجازٌ، إلى المَعْنَى الفَرْعِيِّ أَوْ مَعْنَى المَعْنَى أَو المَعْنَى الثَّانِي. ويَكونُ تَحْدِيدُ الانْتِقَالِ بِالقِيَاسِ عَلَى أَصْلِ المَعْنَى، ولا يَستقيمُ النَّظَرُ إِلَى الصُّورِ إلاَّ إِذَا رُوجِعَ الأَصْلُ الذِي عَنْهُ انْحَرَفَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ، وَلَكِنَّ مُرَاجَعَةَ الأَصْلِ لاَ تَعْدُو أَنْ تَكُونَ إِلْحَاقاً للنَّاقِصِ بِالزَّائِدِ، وَالغَامِضِ بِالأَوْضَحِ، وَقِيَاساً لِلمَجْهُولِ عَلَى المَعْلُومِ.

3- مَرَاتِبُ تَحْلِيلِ المَعْنَى الشِّعْرِيِّ:

أ- المُسْتَوَى اللُّغَوِيُّ: وَهُوَ أَهَمُّ المَرَاتِبِ اللُّغَوِيَّةِ التي يُبْنَى عَلَيْهَا المَعْنَى الشِّعْرِيُّ أَوِ الصُّورَةُ، ويُرادُ به العَلاَقَاتُ النَّحْوِيَّةُ أَوِ المَعَانِي النَّحْوِيَّةُ، والمَعاني النحويّةُ عِبَارَةٌ عَنْ وَظَائِفَ تُسْنَدُ إِلَى الأَلْفَاظِ فِي الجُمْلَةِ، فَتُعَلِّقُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَتُصَيِّرُهَا دَالَّةً؛ يَقُولُ عَبْدُالقَاهِرِ: " وَالأَلْفَاظُ لاَ تُفِيدُ حَتَّى تُؤَلَّفَ ضَرْباً خَاصّاً مِنَ التَّأْلِيفِ..."[1]. وَ تَتَبَيَّنُ أَهَمِّيَةُ التَّعْلِيقِ النَّحْوِيِّ فِي شَرْحِ بَعْضِ الصُّوَرِ الأَدَبِيَّةِ نَحْوَ شَرْحِ عَبدِ القَاهِرِ لِبَيْتِ بَشَّارٍ:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوى كَوَاكِبُهُ

يَلْتَقِي التَّفْسِيرُ البَلاَغِيُّ بِالتَّفسيرِ النَّحْوِيِّ لِبَيَانِ وَحْدَةِ الصُّورَةِ وَتَمَاسُكِهَا وَمَجِيئِهَا عَلَى شَكْلِ بِنْيَةٍ. وَعَلَيْهِ فَإِنَّ المَقْصُودَ بِالبَيْتِ الهَيْئَةُ الخَاصَّةُ الحَاصِلَةُ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّقْعِ للسُّيُوفِ المُتَحَرِّكَةِ وَكَأَنَّهَا مُخَالَطَةُ اللَّيْلِ لِلكَوَاكِبِ المُتَهَاوِيَةِ:

" وَلِذَلِكَ وَجَبَ الْحُكْمُ بِأَنَّ الكَلاَمَ إِلَى قَوْلِهِ "وأَسْيافَنا" فِي حُكْمِ الصِّلَةِ لِلمَصْدَرِ وَجارٍ مَجْرَى الاسْمِ الوَاحِدِ، لِئَلاَّ يَقَعَ فِي التَّشْبِيهِ تَفْرِيقٌ وَيُتَوَهَّمَ أَنَّهُ كَقَوْلِنَا "كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ لَيْلٌ وَكَأَنَّ السُّيوفَ كَوَاكِبُ". وَنَصْبُ الأَسْيَافِ لاَ يَمْنَعُ مِنْ تَقْدِيرِ الاتِّصَالِ وَلاَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي تَقْدِيرِ الاسْتِئْنَافِ، لأَنَّ الوَاوَ فِيهَا بِمَعْنَى مَعَ..."[2].

---

[1] أسرار البلاغة: 4

[2] أسرار البلاغة: 195.

يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَعْنَى الشِّعْرِيُّ –أَوِ الصُّورَةُ- يَقْتَضِي الْجَمْعَ بَيْنَ طَرَفَيْ التَّشْبِيهِ دُونَ التَّفْرِيقِ، تَعَيَّنَ بَيَانُ تَرَابُطِ المَعَانِي النَّحْوِيَّةِ واتِّصَالِهَا. وَيَفْرِضُ مُقْتَضَى المَعْنَى الشِّعْرِيِّ تَقْدِيرَ اتِّصَالٍ نَحْوِيٍّ فِي أَجْزَاءِ الْكَلاَمِ لا انْفِصَالٍ مَعَ تَقْدِيرِ اسْتِئْنَافٍ.

وَفِي بِنَاءِ الصُّورَةِ وَتَركِيبِهَا نَجِدُ البِنْيَةَ النَّحْوِيَّةَ تَسْتَجِيبُ لِبِنْيَةِ المَعْنَى الشِّعْرِيِّ وَتَتْبَعُهَا، أَمَّا فِي تَفْكِيكِ الصُّورَةِ وَتَحْلِيلِهَا فَنَجِدُ أَنّ البِنيَةَ النَّحْوِيَّةَ دَالَّةٌ عَلَى بِنْيَةِ الْمَعْنَى الشِّعْرِيِّ. فَالنَّحْوُ –فِي شَأْنِ تَفْكِيكِ الصُّوَرِ- مَدْخَلٌ إِلَى البَلاَغَةِ، وَإِذَا جَاءَتِ الصِّيَاغَةُ مُعْتَسَفاً فِيهَا وَمُعَقَّدَةً فَإِنَّ النَّحْوَ لَنْ يَهْتَدِيَ إلى إصْلاحِهَا، وَهَذَا أَمْرٌ تَمَيَّزَ بِهِ شِعْرُ أَبِي تَمَّامٍ كَقَوْلِهِ:

ثَانِيهِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ ... لاثْنَيْنِ ثانٍ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ[1]

وَمِنَ المَرَاتِبِ اللُّغَوِيَّةِ التِي يَتِمُّ عَلَى أَسَاسِهَا فَهْمُ الصُّورَةِ وَتَحْلِيلُهَا مُسْتَوَى اللُّغَةِ وَالْمُعْجَمِ، فَمِنْ خِلاَلِ المَعْنَى الْمُعْجَمِيِّ نَحْكُمُ بِأَنَّ هُنَاكَ صُورَةً شِعْرِيَّةً تَوَلَّدَتْ ثُمَّ انْحَرَفَتْ عَنِ الأَصْلِ اللُّغَوِيِّ الْمُعْتَادِ، فَمَعْرِفَةُ الأَصْلِ اللُّغَوِيِّ إذاً شَرْطٌ فِي تَحْدِيدِ حُصُولِ الانْحِرَافِ وَإِدْرَاكِ خَرْقِ الْمُعْتَادِ، لأَنَّ الْمُخْتَرِقَ مَعْنًى فَرْعِيٌّ ثَانٍ وَالْمُخْتَرَقَ مَعْنًى أَوَّلُ ثَابِتٌ. يَظْهَرُ هَذَا الشَّرْطُ فِي قَوْلِ عَبْدِ القَاهِرِ: "اعْلَمْ أَنَّ الاسْتِعَارَةَ فِي الجُمْلَةِ أَنْ يَكُونَ لِلَّفْظِ أَصْلٌ فِي الوَضْعِ اللُّغَوِيِّ مَعْرُوفٌ، تَدُلُّ الشَّوَاهِدُ عَلَى أَنَّهُ اخْتصَّ بِهِ حِينَ وُضِعَ[...] ثُمَّ يَسْتَعْمِلُهُ الشَّاعِرُ أَوْ غَيْرُ الشَّاعِرِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الأَصْلِ، وَيَنْقُله إِلَيْهِ نَقْلاً غَيْرَ لاَزِمٍ، فَيَكُونُ هُناك كَالعَارِيَّةِ"[2].

فَأَنْتَ تُلاَحِظُ أَنَّهُ لاَ تُعَدُّ الصُّورَةُ صُورَةً أَوْ مَعْنىً شِعْرِياً إِلاَّ إِذَا كَانَ الْمُنْطَلَقُ فِي النَّظَرِ إِلَيْهَا الأَصْلَ اللُّغَوِيَّ، أَوْ مَا عَبَّرَ عَنْهُ بالأَصْلِ فِي الوَضْعِ اللُّغَوِيّ، وبِالْمُسَمَّى الأَصْلِيِّ، والْمَوْضِعِ الأَصْلِيِّ، والحَقِيقَةِ، والصُّورَةِ الأَصْلِيَّةِ، والوُقُوعِ فِي وَضْعِ الوَاضِعِ[3].

ب- الْمُسْتَوَى غَيْرُ اللُّغَوِيّ: المَقْصُودُ بِالْمُسْتَوَى غَيْرِ اللُّغَوِيِّ أَوِ المَرَاتِبِ غَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ الْمُتَكَلِّمُ وَالْمُخَاطَبُ وَظُرُوفُ الخِطَابِ، وَهِيَ اعْتِبَارَاتٌ وَأَطْرَافٌ غَيْرُ نَصِّيَةٍ تُسَاعِدُ فِي تَحْلِيلِ النَّصِ، وَاسْتِخْرَاجِ المَعْنَى الشِّعْرِيِّ:

---

(1) أسرار البلاغة: 143

(2) أسرار البلاغة:30

(3) أسرار البلاغة:34-92-304

- المُتَكَلِّمُ: "اَلْمُتَكَلِّمُ مَنْ وَقَّعَ الكَلاَمَ...بِحَسَبِ أَحْوَالِهِ مِنْ قَصْدِهِ وَإِرَادَتِهِ وَاعْتِقَادِهِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ الرَّاجِعَةِ إِلَيْهِ حَقِيقَةً أَوْ تَقْدِيراً"[1]. إِنَّ المُتَكَلِّمَ أَسَاسٌ أَوَّل مِن أُسُسِ بَيَانِ الْمَعْنَى الشِّعْرِيِّ لأَنَّهُ الرُّكْنُ المُوَلِّدُ لِلْكَلاَمِ، وَتَظْهَرُ عَلاَقَتُهُ بِالْمُخَاطَبِ فِي كَونِه يَتَّبِعُ قَوَاعِدَ إِخْرَاجِ الشِّعْرِ وَوُضُوحِ الْمَعْنَى الشِّعْرِيِّ وَمُرَاعَاة السَّامِعِ، وَبِاخْتِصَارٍ تَتَجَلَّى أَهَمِّيَتُهُ فِي تَوْلِيدِهِ النَّصَّ وَأَدَائِهِ وَظِيفَةَ التَّعْبِيرِ، "يَجْتَهِدُ المُتَكَلِّمُ فِي تَرتِيبِ اللَّفْظِ وَتَهْذِيبِهِ وَصِيَانَتِهِ مِنْ كُلِّ مَا أَخَلَّ بِالدَّلاَلَةِ وَعَاقَ دُونَ الإِبَانَةِ"[2].

من مَظَاهِرِ الاحْتِكَامِ إِلَى المُتَكَلِّمِ فِي بَيَانِ الصُّورَةِ مَعْرِفَةُ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فِي التَّصْوِيرِ، أَيْ العِلْمُ بِمَقَاصِدِ صَاحِبِ النَّصِّ. فَقَدْ يَحْضُرُ طَرَفٌ مِنْ أَطْرَافِ الصُّورَةِ وَيَغِيبُ طَرَفٌ، ولا دَليلَ عَلَيْهِ مِنَ اللُّغَةِ إِلاَّ بِالبَحْثِ عَنْ هَذَا الخَبِيءِ فِي نَفْسِ المُتَكَلِّمِ: "إِذَا قُلْتَ: عَنَّتْ لَنَا ظَبْيَةٌ... وَأَنْتَ تَعْنِي امْرَأَةً... لَمْ يَكُنْ ذِكْرُكَ [لِلاسْمِ] فِي كَلاَمِكَ هَذَا لإِثْبَاتِ الشَّبَهِ المَقْصُودِ الآنَ. وكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُقْصَدَ إِلى إِثْبَاتِ الشَّبَهِ... وَأَنْتَ لَمْ تَذْكُر [قَبْلَهُ] شَيْئاً يَنْصَرِفُ إِثْبَاتُ الشَّبَهِ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ الشَّبَهُ مِنْ طَرِيقِ الرُّجُوعِ إِلَى الحَالِ وَالبَحْثِ عَنْ خَبِيءٍ فِي نَفْسِ المُتَكَلِّمِ"[3].

فَلاَبُدَّ مِن اقْتِرَانِ المَذْكُورِ فِي النَّصِّ بِالوَارِدِ فِي النَّفْسِ أَوِ الحَالِ لِكَيْ يَتَحَدَّدَ قَصْدٌ مُعَيَّنٌ وَهُوَ أَنَّ المُرَادَ مَرْحَلَةٌ ثَانِيَةٌ فِي التَّصْوِيرِ، وَهِيَ إِسْنَادُ فِعْلٍ لِفَاعِلٍ مُسْتَعَارٍ، لا المَرْحَلَةُ الأُولى التِي هِيَ إِثْبَاتُ شَبَه شَيْءٍ بِشَيْء، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الصُّورَةَ مُرَكَّبَةٌ وَلاَ تُفكُّ إِلاَّ بِعَرْضِهَا عَلَى مَقَاصِدِ المُتَكَلِّمِ.

يَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ العَلاَقَةِ أَنَّ ظَاهِرَ النَّصِّ لاَ يَكَادُ يَفِي بِالمُرَادِ لأَنَّهُ وُضِعَ هَكَذَا انْتِهَازاً وَاقْتِضَاباً عَلَى المَقْصُودِ فِي الْوَضْعِ اللُّغَوِيِّ، وَيَحْتَاجُ أَمْرُ الفَهْمِ إِلَى أَداة تَنفذُ إِلَى الصُّورَةِ، وَأَدَاة النَّفَاذِ هِيَ مُرَاجَعَةُ قَصْدِ المُتَكَلِّمِ وَتَوسِيطُهُ فِي إِعادَةِ تَرْكِيبِ الْمَعْنَى. فَقَدْ تُشَبَّهُ غرةُ الفرَسِ بالصبحِ فَيُقَالُ إِنَّهُ وَقَعَ عَلَى أَصْلِهِ لأَنَّهُ شُبّه فَرعٌ بِأَصْلٍ وَلَكِنَّ قَصْدَ المُتَكَلِّمِ أَنَّ التَّشْبِيهَ لَمْ يَقَعْ عَلَى جِهَة المُبَالَغَةِ، كَمَا يُبَيّن الظَّاهِرُ، وَإِنَّمَا قُصد أَمرٌ آخَرُ: وَهُوَ وُقُوعُ مُنِيرٍ فِي ظُلْمٍ وَحُصُولُ بياضٍ فِي سَوَادٍ، ثُمَّ البَيَاضُ صَغِيرٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى السَّوادِ، وَهُوَ مَا يَظْهَرُ فِي قَوْلِ ابن المُعْتَزّ:

---

[1] سر الفصاحة: 44

[2] المصدر السابق:144

[3] أسرار البلاغة:327

والصّبحُ فِي طُرّةِ لَيْلٍ مسفر كَأنَّهُ غُرّة مَهرٍ أشْقَر

وَقَدْ يُثَارُ سُؤَالٌ حَوْلَ طَبِيعَةِ المُتَكَلِّمِ أَفَرْدٌ هُوَ مُتَجَلٍّ فِي شَخْصِيَّة الشَّاعِرِ، أَمْ قَوَاعِد أَدَبِيَّةٌ صَاغَهَا النُّقَّادُ وَعَرَضُوهَا عَلَى القَارِئِ لِيَفْهَمَ النَّصَّ مِنْ خِلاَلِهَا. أَمْ نِظَامٌ اجْتِمَاعِيٌّ وَأَعْرَافٌ تَوَاطَأَ المُتَكَلِّمُونَ عَلَى الالتِزَامِ بِهَا وَالتَّفَاهُمِ بِوَاسِطَتِهَا؟

إِنَّ الجَوابَ عَلَى ذَلِكَ يَجْعَلُنَا نَسْتَحْضِرُ دَوْماً خُصُوصِيَّاتِ الخِطَابِ الشِّعْرِيِّ القَدِيمِ وَتَمَيُّزه عَنِ الحَدِيثِ، فَقَدْ كَانَ النَّصُّ الأَدَبِيُّ فِي عُمُومِهِ خَاضِعاً لِشُرُوطِ التَّدَاوُلِ اللُّغَوِيِّ التي عَلَى رَأْسِهَا الصِّفَةُ الاجْتِمَاعِيَةُ، وَالشَّاعِرُ مُحَاوِرٌ يُطْلِعُ قَارِئَهُ أَوْ سَامِعَهُ عَلَى مَا يَعْرِفُ، وَيُطَالِبُهُ بِمُشَارَكَتِه فِي المُعْتَقَدِ وَالمَعْرِفَةِ، وَلاَ عِبْرَةَ بِالاعْتِرَاضِ هنَا عَلَى قَاعِدَةِ "الاجْتِمَاعِية فِي التَّدَاوُل" بِأَنَّ بَعْضَ الشُّعَرَاءِ لَمْ يَكُن يُهِمُّهُم إلاَّ التَّعْبِيرُ عَنْ ذَوَاتِهِم سَواء عَلَيْهِم أَفَهِمُوا أَمْ لَمْ يَفْهَمُوا، كَمَا فِي كَثِيرٍ مِنْ أَشْعَارِ أَبِي تَمَّام وَبَعْضِ أَشْعَارِ المُتَنَبِّي، إِذْ يُمكِنُ أَنْ نَتَصَوَّرَ لِهَؤُلاَءِ طَائِفَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ القُرَّاءِ الذِينَ يُخَاطَبُونَ بِهَذَا الشِّعْرِ.

- المُخَاطَبُ: يشغل المخاطَب حيزَ الإفهام والتَّبلِيغِ، أي تَتَّصِلُ وَظيفَةُ التَّلَقي لَدى المُخَاطَبِ بِوَظيفَةِ التَّعْبيرِ لَدى المُتَكلمِ، وَهُنَا نَجِدُ المُخَاطبَ نَفسَهُ يُحَكِّمُ قَاعِدَةَ "التَّداوُلِ اللُّغَوِيِّ" الاجْتِماعِيَةَ لِفَهْمِ المَعْنَى. وَيَظْهَرُ اتصَالُ الوَظيفَتَيْنِ فِي بَعْضِ القَوَاعِدِ، وَمِنْهَا:

* قَاعِدَةٌ مِن قَوَاعِدِ الإِدرَاكِ وَهِيَ نَقْلُ المُخَاطَبِ النَّصَّ "عنِ العَقْلِ إِلَى الإِحْسَاسِ، وَعَمَّا يُعْلَم بِالفِكرِ إِلَى مَا يُعْلَمُ بالاضطرار والطَّبعِ، لأَنَّ العِلْمَ المُسْتَفَادَ مِن طُرُقِ الحَوَاسِ أو المَرْكُوزِ فيهَا مِنْ جِهَةِ الطَّبْعِ وَعَلَى حَدِّ الضَّرُورَةِ، يَفضُل المستفادَ من جهة النَّظَرِ والفكر فِي القُوَّةِ وَالاستحْكَامِ [...] كما قَالوا: "لَيسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ" و"لا الظَّنّ كَاليَقِينِ"[1]، وَفِي ذَلِكَ يَقولُ عَبد القَاهِر: "أُنْسُ النُّفُوسِ مَوقُوفٌ عَلَى أن تُخْرِجَهَا من خَفِيٍّ إِلَى جَلِيٍّ وَتَأتِيَها بِصَرِيحٍ بَعد مَكْنِيٍّ"[2].

* القاعِدة الثَّانِيَةُ: اشْتِرَاطُ تَكَافُؤ جُهد التَّوليد وجُهد الإدراكِ: أي مُطَالَبَةُ المُخَاطَبِ بأن يَكُونَ تَقْدِيرُهُ للصُّورَةِ بِالقوَّةِ ذاتِها التّي بُنِيَت بها وَصِيغَت: "وإِنْ تَوَقَّفتَ فِي حاجَتِكَ أَيُّها

[1] أسرار البلاغة:121.
[2] أسرار البلاغة:121.

السَّامِعُ لِلمَعْنَى إِلَى الفكْرِ فِي تَحْصِيلِه فَهَل تَشُكُّ فِي أَنَّ الشَّاعِرَ الذي أَدَاه إِلَيكَ [...] قَد تَحَمَّل فِيه المَشَقَّةَ الشَّدِيدَةَ..."[1].

* القاعدةُ الثَّالِثَة: اشـتِراطُ التَّفْصِيلِ فِي قِرَاءَةِ الصُّـورَةِ، أَو الإِدْرَاكُ التَّفْصِيلِيُّ بَعْدَ الإِدرَاكِ الإِجْمَالِيِّ: يَقُولُ عبد القاهر فِي هَذا المَعنى: "وَلَكِنَّكَ تَرَى بِالنَّظَرِ الأَوَّلِ الوَصْفَ عَلَى الجُمْلَةِ ثُمَّ تَرى التَّفْصِيلَ عِنْدَ إِعَادَةِ النَّظَرِ"[2]. وَفَائِدَةُ إِعَادَةِ النَّظَرِ وَتَفْصِيلِ القِرَاءَةِ أَنَّهَا تَكْشِفُ عَنَاصِرَ وَدَقَائِقَ لَم تُدرك بِالقِرَاءَةِ الأُولَى، أَو تَكُونُ هُنَاكَ عَنَاصِرُ غَيْرُ مُرَادَة فَيَلْزَمُ مَعْرِفَتُهَا لِتَنْحِيَتِهَا، فَفِي الصُّورَةِ الآتِيَةِ ما يُفيدُ هَذَا المَعْنَى: لَهَا حَدَقٌ لم يَتَّصِلْ بِجُفُون – كَأَنَّهَا نَرْجَسَةٌ بِلا وَرَق - سَنَا لَهَبٍ لم يَتَّصِل بدخان... فالقارِئُ يَتْبَعُ الشَّاعِرَ فِي نَظَرِ الإِجْمَالِ فَيُدْرِكُ الجِسْمَ كُلَّهُ (الحدق، النرجسة، اللهب) ثمَّ يَفْصل عُنْصُراً ما مِنَ الجِسْم (الجفون، الورق، الدخان). وَأَخِيراً يَتَصَوَّر ذَلِكَ الجسم مَعْزولاً عن مُلازِمِه...

وَهَذِهِ القَوَاعِدُ وَغَيْرُهَا يُمكِن أَن تُؤَلِّفَ لَنا "نِظَام القَارِئِ الاجْتِمَاعِيّ".

- ظُرُوفُ الخِطَاب: المُرَادُ بِظُرُوفِ الخِطَابِ أَوِ السِّيَاق القَرَائِنَ وَالمُلاَبساتِ المُصَاحِبَةَ. وَهِيَ عِبَارَةٌ عَن مَجْمُوعِ الأَحْدَاثِ وَالمُصاحِبات التِي تُرَافِقُ إِنْتَاجَ النَّصِّ وَتُلاَبِسُهُ وَتُؤَثِّرُ فِي فَهْمِ المَعَانِي، إِنَّهُ إِنجَازُ الفِعْلِ اللُّغَوِيِّ فِي سِيَاقٍ مُحَدَّدٍ، وَلَيْسَ مُرَادُ عَبْدِ القَاهِرِ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ الخَارِجِيِّ تَحْوِيلَ النّصِّ إلى وَثِيقَةٍ أَو شَهَادَةٍ عَلَى التَّارِيخِ، بَلِ المُرَادُ تَفْكِيكُ النَّصِّ فِي ضَوْءِ شُرُوطِهِ الخَارِجِيَّةِ لِإِدْرَاكِ طَرِيقَةِ تَرْكِيبِه وَبِنْيَةِ تَرْكِيبِ المَعْنَى بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ. أَمَّا السِّيَاقُ اللُّغَوِيُّ الذِي يُفِيدُ قَرَائِنَ النَّصِّ الدَّاخِلِيَّةَ فَهُوَ أَمْرٌ وَارِدٌ عِنْدَ النُّقَّادِ، وَقَدِ اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ بِمُصْطَلَحَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلَ "دَلِيلِ الحَالِ" و"إِفصَاحِ المَقَالِ بَعْدَ السُّؤَالِ" و"فَحْوَى الكَلاَمِ وَمَا يَتْلُوه منَ الأَوصَافِ"[3]. وهوَ دَلِيلٌ يُنْشِئُهُ النَّصُّ مِن تَآلُفِ الخَصَائِصِ الدَّلاَلِيَّةِ المَاثِلَةِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، نَحْوَ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

تَرَنَّحَ الشَّرْبُ وَاغْتَالَتْ حُلُومَهُم شَمْسٌ تَرَجَّلُ فِيهِمْ ثُمَّ تَرْتَحِلُ[4]

وَيُسْتَدَلُّ هُنَا بِذِكْرِ الشَّرْبِ وَاغْتِيَالِ الحُلُومِ وَالارْتِحَالِ أَنَّهُ أَرَادَ قَيْنَةً لاَ الشَّمْسَ على وَجْه الحَقِيقَة، فَمَجْمُوعُ الخَصَائِصِ الدّلاَلِيَّةِ فِي الشَّرْبِ وَاغْتِيَالِ الحُلُومِ وَالارتحَالِ يُؤَلِّفُ

[1] نفسه:145.
[2] نفسه:138.
[3] أسرار البلاغة: 320.
[4] نفسه:320.

بِنْيَةً دلاَلِيَّةً تتعَلَّقُ بِأَحْوَالِ النَّاسِ فِي الحَرَكَةِ، وَهَذِهِ البِنْيَةُ تُخَصِّصُ المُرَادَ بِذِكْرِ الشَّمْسِ فِي البَيْتِ الشِّعْرِيِّ.

أَمَّا السِّيَاقُ الخَارِجِيُّ الذِي يُفِيدُ قَرَائِنَ النَّصِّ الخَارِجِيَّةَ، نَحْوَ ظُرُوفِ الخِطَابِ وَزَمَانِهِ وَمَكَانِهِ، فَإِنَّهُ يُعدُّ أَكْبَرَ قَرِينَةٍ مِنْ قَرَائِنِ تَرْكِيبِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ وَتَحْلِيلِهِ فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ، إِنَّهُ قَرِينَةُ ارْتِبَاطِ الأَقْوَالِ بِالأَحْوَالِ. أَمَّا اخْتِلاَفُ النُّحَاةِ فِي تَوْجِيهِ الشَّوَاهِدِ وَالاسْتِدلاَلِ بِهَا فَإِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى اسْتِنَادِهِمْ إِلَى ظَاهِرِ النَّصِّ دُونَ مَقَامِهِ.

فَالغُفُولُ عَنْ هَذِهِ القَرِينَةِ يُسْقِطُ فِي الاحْتِمَالِ، حَتَّى إِنَّ ذَلِكَ قَدْ أَدَّى بِبَعْضِ أُصُولِيِّي النُّحَاةِ إِلَى الحُكْمِ عَلَى الدَّلِيلِ بِأَنَّهُ إِذَا احْتَمَلَ سَقَطَ الاسْتِدْلاَلُ بِهِ، وَهُوَ حُكْمٌ تَرَتَّبَ عَلَى عَدَمِ مُرَاعَاةِ سِيَاقِ النَّصِّ وَظُرُوفِ قَوْلِهِ. وَنَجِدُ السِّيَاقَ مِقْيَاساً عِنْدَ النُّقَّادِ وَالبَلاَغِيِّينَ عِنْدَمَا عَرَضُوا النُّصُوصَ وَالأَبْيَاتَ فِي إِطَارِ سِيَاقِهَا وَمَقَامِهَا ووَجَّهُوا فَهْمَ القَارِئِ إِلى المَعْنَى المُرادِ، وَنَجِدُ السِّيَاقَ مِقْيَاساً عِنْدَ المُفَسِّرِينَ عِنْدَمَا ضَبَطُوهُ بِمَا سُمِّيَ بِعِلمِ أَسْبَابِ النُّزُولِ.

وَمِنَ النَّمَاذِجِ عَلَى ذَلِكَ تَنْبِيهُ عَبدِ القَاهِرِ عَلَى طَرِيقَةِ فَهْمِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

﴿**وقالوا ما هِيَ إلّا حَياتُنا الدُّنْيا نَموتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إلّا الدَّهْرُ**﴾[1] : فقائِلُ هَذَا الاعْتِقَادِ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى أَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ فَيُنْعَتَ قَوْلُهُ بِالمَجَازِ، أَيْ إِهْلاَك الدَّهْرِ عَلَى المَجَازِ، وَلَكِنَّهُ أَطْلَقَهُ إِطْلاَقَ مَنْ يَضَعُ الصِّفَةَ فِي مَوْضِعِهَا وَلاَ يُعْرَفُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالرُّجُوعِ إِلَى اعْتِقَادِ القَائِلِينَ بِإِهْلاَكِ الدَّهْرِ لِلنَّاسِ عَلَى الحَقِيقَةِ عِنْدَهُمْ، وَلَكِنَّنَا عِنْدَ الاحْتِكَامِ إِلَى مَا وَرَاءَ اللَّفْظِ نَجِدُ أَنَّ الآيَةَ تَخْلو منَ الصُّورَةِ الأَدَبِيَّةِ.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ **مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ** ﴾[2]، فَفِيهِ إِسْنَادُ الإِهْلاَكِ للرِّيحِ عَلَى المَجَازِ، وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ القَائِلِ. فَظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي الآيَتَيْنِ مُتَّفِقٌ وَلَكِنَّ أَحْوَالَ الخِطَابِ اخْتَلَفَت فَاخْتَلَفَ المَعْنَى.

وَمِمَّا جَاءَ فِي الشِّعْرِ مِن ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الكَبِيـ ـرَ كَرُّ الغدَاةِ وَمَرُّ العَشِيِّ

---

[1] الجاثية: 24.

[2] آل عمران: 117

وَقَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَهْلَكَنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَار مَعاً   وَالدَّهْرُ يَغْدُو مُصَمِّماً جَذعا

وَقَدْ عَلَّقَ عَبدُ القَاهِرِ عَلَى البَيْتَيْنِ بِقَوْلِهِ: "فَإِذَا سَمِعْنَا [ذَلِكَ] كانَ طَرِيقُ الحكمِ عَلَيْهِ بِالمَجَازِ أَنْ تَعْلَمَ اعْتِقَادَهُم التَّوحِيدَ إِمَّا بِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِم السَّابِقَةِ أو بِأَن تَجِدَ فِي كَلاَمِهِم من بعدِ إطلاَقِ هَذَا النَّحو، مَا يَكْشِفُ عَن قَصْدِ المَجَازِ فيهِ"[1]. وَفِي كَلاَمِهِ هَذَا إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى السِّيَاقِ الخَارِجِيّ، فَأَيُّهُمَا أَسْعَف بِالوُصُولِ إِلَى الصُّورَةِ فَهُوَ المُرَادُ بِالسِّيَاقِ.

يَظْهَرُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ بَعْضَ النُّصُوصِ مُغْلَقٌ وَلاَ يُفْتَحُ لِلْفَهْمِ إِلاَّ بِمَفَاتِيحَ خَارِجِيَّةٍ، مِثْل مَقَاصِدِ المُتَكَلِّمِ، وَهِيَ الخَبِيءُ النَّفْسِيُّ الذِي يُوجَدُ فِي حَيَاةِ صَاحِبِ النَّصِّ وَمُعْتَقَدِهِ وَثَقَافَتِهِ التِي يَشْتَرِكُ مَعَهُ فيها القارئُ، فَيَكُونُ القارئُ مَحْكوماً بِها فِي الفَهْمِ مُلْزَماً بِأَدَوَاتِها في اسْتِخْرَاجِ الصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ، وهِيَ طُرُقُ العَرَبِ فِي كَلاَمِهَا، وَمَذَاهِبُهَا فِي قَوْلِ الشِّعْرِ وَالتَّصْوِيرِ، وَقَوَاعِدُهَا فِي الاستِعَارَةِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ وَالمَجَازِ وَالكِنَايَةِ، نَحْوَ: "رَأَيْتُ أَسَداً" وَأَنتَ تَعْنِي شُجَاعاً، وَ "بَحْراً" تُرِيدُ كَرِيماً، وَ "بَدْراً" تُرِيدُ مُضِيءَ الوَجْهِ، و"سَلَلْتُ عَلَى العَدُوِّ سَيْفاً" تُرِيدُ رَجُلاً مَاضِياً فِي نُصْرَتِكَ... وَقَدْ سَمَّى النُّقَّادُ القَارِئَ للشِّعْرِ العَارِفَ بِثَقَافَتِهِ المُبِينَةِ المُلِمَّ بِشُرُوطِ قِرَاءَتِهِ: "بِأَهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ" و"أَهْلِ نَقْدِ الشِّعْرِ" و"العَارِفِينَ ذَوْقَ الكَلاَمِ" و"المُتَمَهِّرِينَ فِي فَصْلِ جَيِّدِهِ مِن رَدِيئِهِ". وهِيَ مُصْطَلَحَاتٌ ومَفَاهِيمُ يُمكِنُ أَنْ تُحَدِّدَ لَنَا صورةَ "القَارِئِ المُخَاطِبِ" فِي شَكْلٍ مِن أَشْكَالِهِ.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقْرَأَ النَّصَّ الشِّعْرِيَّ القَدِيمَ فَإِنَّنَا سَنَجِدُ أَنْفُسَنَا مُلْزَمِينَ بِأَن نَدْخُلَ فِي نِظَامِ القَارِئِ المُقَيَّدِ بِقُيُودِ الثَّقَافَةِ التِي تُحيطُ بِذَلِكَ الشِّعْر وتَكونُ له بمنزلةِ المُعجَم الكَشَّافِ؛ لأَنَّ الشِّعْرَ عِنْدَ العَرَبِ كَانَ عِلْمَ قَوْمٍ لم يَكُنْ لَهُم عِلْمٌ أَصَحّ مِنْهُ. لاَبُدَّ مِنَ النَّصِّ عَلَى هَذِه الأُصُولِ المَعْرِفِيَّةِ.

ثمَ لا بُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ تَطْبِيقَ المَنَاهِجِ الحَدِيثَة عَلَى نُصُوصِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، مَحْفُوفٌ بِكَثِيرٍ مِنَ المَزَالِقِ وَالمَخَاطِرِ وَالعَقَبَاتِ، إِنْ أَغْفَلَتْ هَذِهِ المَنَاهِجُ سِيَاقَ الشِّعْرِ التَّارِيخِيَّ وَالاجْتِمَاعِيَّ وَقَوَاعِدَ التَّعْبِيرِ الشِّعْرِيِّ التِي صِيغَت مِنْهَا عُلُومُ الآلَةِ كَالنَّحْوِ وَالبَلاَغَةِ وَالعَرُوضِ.

---

[1] أسرار البلاغة: 337-338.

لاَبُدَّ مِنَ الانْتِبَاهِ إِلَى خَطَرِ النَّصِ القَدِيمِ؛ لأَنَّهُ جِسْمٌ تَتَفَاعَلُ فِيهِ اللُّغَةُ وَالدَّلاَلَةُ وَقِيَمُ النَّفْسِ وَالمُجْتَمَعِ وَالتَّارِيخِ، وَلَهُ طَاقَةٌ عَلَى استِيعَابِ القِيَمِ اللُّغَوِيَّةِ وَغَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ وَعَلَى صَهرِهَا وَتَحْوِيلِهَا ومَنْحِها حَيَاةً وَحَرَكَةً وَامْتِدَاداً. فَيُصْبِحُ مَيداناً لِحَرَكَةِ اللُّغَةِ وَلِتَفَاعُلِ نُصُوصٍ أُخْرَى دَاخِلَهُ.

4- أَدَوَاتُ تَحْلِيلِ المَعْنَى الشِّعْرِيِّ وَقُيُودُهَا:

لَقَد انطَلَقَ عَبدُ القَاهِرِ فِي تَحْلِيله للنَّصِ الشِّعْرِيِّ مِن جُملَةٍ مِنَ المَفَاهِيمِ الإِجْرَائِيَّةِ التِي يُمكِنُ عَدُّها آلاتٍ للتَّحْلِيلِ، يُمكِنُ اخْتِصَارُهَا فِي مَفْهُومِ الأَصْلِ وَالفَرعِ، وَمَفْهُومِ النَّقْلِ، وَمَفْهُومِ التَّأَوُّلِ، وَمَفْهُومِ التَّبَايُنِ، وَمَفْهُومِ الانْتِزَاعِ. وَالرَّابِطُ بَيْنَ هَذِهِ المَفَاهِيمِ أَنَّهَا أَدَوَاتٌ نَقْلِيَّةٌ تَرْبِطُ المَعْنَى الشِّعْرِيَّ بِالمَعْنَى المُعْجَمِيِّ وَتُعَيِّنُ طَرِيقَةَ تَحَوُّلِ الثَّانِي عَنِ الأَوَّلِ وَخُرُوجِهِ عَنْهُ. وَيُمْكِنُ الاقْتِصَارُ عَلَى مَفْهُومَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا النَّقْلُ وَالانتِزَاعُ:

1- مَفْهُومُ النَّقْلِ:

وَمَعْنَاهُ نَقْلُ الكَلِمَةِ عَنِ المَعْنَى إِلى المَعْنَى بِسَبَبِ اخْتِصَاصٍ وَضَربٍ مِنَ المُلاَبَسَةِ بَيْنَهُمَا. وَتَتَجَلَّى شَاعِرِيَّةُ الصُّورَةِ فِي حَرَكَةِ الانتِقَالِ هَذِهِ وَفِي العَلاَقَةِ بَيْنَ المَنْقُولِ مِنْهُ وَالمَنْقُولِ إِلَيْهِ وَفِي طَاقَةِ التَّعْبِيرِ الأَدَبِيِّ عَلَى أَنْ يُتِيحَ لِلْقَارِئِ اخْتِرَاقَ الظَّاهِرِ إِلَى المُرَادِ. وَيَتَجَلَّى مَفْهُومُ النَّقْلِ فِي كَثِيرٍ مِن أُصُولِ التَّصْوِيرِ الأَدَبِيِّ، التِي هِيَ التَّشْبِيهُ والتَّمثِيلُ والاسْتِعَارَةُ وَالمَجَازُ... فَمِن ذَلِكَ قَوْلُ عَبدِ القَاهِرِ فِي الاسْتِعَارَةِ: "اعْلَم أَنَّ الاسْتِعَارَةَ فِي الجُمْلَةِ أَن يَكُونَ للفْظِ أَصْلٌ فِي الوَضْعِ اللُّغَوِيِّ مَعرُوفٌ، تَدُلُّ الشَّوَاهِدُ عَلَى أَنَّهُ اخْتُصَّ بِهِ حِينَ وُضِعَ، ثُمَّ يَسْتَعْمِلُهُ الشَّاعِرُ[...] فِي غَيْرِ ذَلِكَ الأَصْلِ، وَيَنْقُلُهُ إِلَيْهِ نَقْلاً غَيْرَ لاَزِمٍ فَيَكُون هُنَاكَ كَالعَارِيَّةِ"[1]، وَقَوْلُهُ: "الاسْتِعَارَةُ [...] تَنْقُلُ [الاسم] عَن مُسَمَّاهُ الأَصْلِيِّ إِلَى شَيْءٍ آخَر ثَابِتٍ مَعْلُومٍ فَتُجْرِيهِ عَلَيْهِ، وَتَجْعَلُهُ مُتَنَاولاً لَهُ تَنَاوُلَ الصِفَةِ لِلمَوْصُوفِ"[2]، وَقَوْلُهُ فِي المَجَازِ: "[...] إِذَا عُدِلَ بِاللَّفْظِ عَمَّا يُوجِبُهُ أَصْلُ اللُّغَةِ وُصِفَ بِأَنَّهُ مَجَازٌ [...] ثمَّ اعْلَم بَعْدُ أَنَّ إِطلاَقَ المَجَازِ عَلَى اللَّفْظِ المَنْقُولِ عَن أَصْلِهِ شَرْط وهُوَ أَنْ يَقَعَ نَقْلُهُ عَلَى وَجْهٍ لاَ يَعرى مَعَهُ مِن مُلاَحَظَةِ الأَصْلِ..."[3].

كُلُّ تِلْكَ الوَسَائِلِ عَمَلِيَّاتٌ نَقْلِيَّةٌ يَنْتَقِلُ بِهَا التَّعْبِيرُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى صُورَةٍ عَمِيقَةٍ. وَالمُلاَحَظُ أَنَّ وَسَائِلَ التَّعْبِيرِ اللُّغَوِيَّةَ تُسْعِف بِتَحْقِيقِ النَّقْلِ لأَنَّهَا تُسْنِدُ فِعْلاً إِلَى غَيْرِ فَاعِلِهِ فِي

---

[1] أسرار البلاغة: 30.

[2] أسرار البلاغة: 44.

[3] أسرار البلاغة: 395.

الحَقِيقَةِ، أَيْ تُسْنِدُهُ إِلَى فَاعِلٍ مُدَّعَى فِي الخَيَالِ وَالتَّصَوُّرِ. وَيَتَبَيَّنُ أن وَسَائِلَ التَّصْوِيرِ – التِي تَحَدَّثَ عَنْهَا البَلاَغِيونَ وَحَاوَلَ عَبدُ القاهِرِ أن يَضَعَ لَهَا قَوَاعِدَ وَأُسُساً، والتِي اصْطَلَحُوا عَلَيْهَا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ وَالاسْتِعَارَةِ وَالمَجَازِ وَغَيرِ ذَلِكَ- يمكِنُ أن تُجْمَعَ فِي مَفْهُومٍ وَاحِدٍ هُوَ النَّقْلُ، بِاعْتِبَارِ الوَظِيفَةِ التِي تُؤَدِّيهَا تِلكَ الوَسَائِلُ، وَمَدَارُ البَلاَغَةِ عَلَى ضَبْطِ آلَةِ النَّقْلِ الشِّعْرِيِّ [وهو مَا يُعبّرُ عَنهُ اليَومَ بالانحِرافِ أو الانزِيَاحِ[1]]. وَآلةُ النَّقلِ الأَدَبِيِّ هَذِهِ ليسَت مُطْلَقَةً وَلَكِنَّهَا مُقَيَّدَةٌ بِقُيُودٍ ذَكَرَهَا النُّقَّادُ فِي حُدُودِهِم:

وَأَبْرَزُ قَيْدٍ عَلَى النَّقْلِ مَا سُمِّيَ بِعَدَمِ الاستِئْنَافِ فِي المَجَازِ. فَقَدِ اشْتَرَطَ عَبْدُ القَاهِرِ ألاَّ يَكُونَ المَعْنَى المُدَّعَى مُسْتَمِراً فِي غَيْرِ ذَلِكَ المَوْضِعِ الذِي جَازَ بِهِ الشَّاعِرُ. وَالمِثَالُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ لَفظَ "الأصبع" فِي قَولِهِم عَن رَاعِي الإِبِلِ: "إِنَّ لَهُ عَلَيْهَا أصبعاً" لا يَتَجَاوَزُ مَا وُضِعَ لَه فِي هَذَا السِّيَاقِ وَهُوَ أَنَّ "له عَلَيهَا أثراً حَسَناً"، وَلاَ يُسْتَأْنَفُ بِهِ إِلَى سَائِرِ المَوَاضِعِ. فَلاَ يُقَالُ "لَهُ أصبعٌ حَسَنَةٌ وأصبعٌ قَبِيحَةٌ" عَلَى مَعنى "أَثَر حَسَن وَأَثَر قَبيح" لأَنَّ الأَثَرَ لَيْسَ المَعْنَى الأَصلِيَّ الذِي وُضِعَ لَفظُ الأصبعِ حَتى يُستَأْنَفَ بِهِ إِلَى سَائِرِ الأَوْضَاعِ اللُّغَوِيَّةِ.

وَالقَيْدُ الثَّانِي فِي المَجَازِ اعْتِبَارُ الادِّعَاءِ فِي النَّقْلِ، وَفِي ذَلِكَ يَرَى عبد القَاهِرِ أَنَّ إِطلاَقَ المَجَازِ عَلَى اللَّفْظِ مَشْرُوطٌ بِتَصَوُّرِ الأَصْلِ وَاعْتِبَارِهِ، حَتَّى يَبْقَى مُسْتَحْضَراً فِي الذِّهْنِ خُروجُ اللَّفْظِ عَن مَوْضِعِهِ، فَالمَجَازُ إِذاً نَقْلٌ إِلَى وَضْعٍ مُدَّعىً وَغَيْرِ مُسْتَأنَفٍ.

2- مفهُوم الانتِزَاعِ: الانتِزَاع مِن نَزَعَ يَنْزَعُ نَزْعاً، وَقَالَ سِيبَوَيه: انْتَزَعَ اسْتَلَبَ، وَفِي "اللسان": انتَزَعَ بِالآيَةِ وَالشِّعرِ، تَمَثَّلَ، وَيُقَال لِلرَّجُلِ إِذَا اسْتَنْبَطَ مَعنى آيَةٍ مِن كِتَاب اللهِ عزَّ وَجلَّ: قَدِ انْتَزَعَ مَعْنىً جَيِّداً، وَنَزَعَهُ اسْتَخْرَجَهُ[2].

---

[1] انظر نظرية الانزياح عند 'جان كوهين': **structure du langage poétique**, J.COHEN, Champs Flammarion, 1966, p:45-...

التي تعني أن الشعرَ هيئةٌ لغوية مخصوصة ذاتُ نَظم مُعيَّن ووظيفة إبْلاغية مخصوصة، تخالف هيئة النظم في النثر وعلاقاتِ الكلم بعضِها ببعضٍ فيه، وتتمثل هذه العلاقات المخصوصةُ في أمرين اثنين: أولهما إيقاع الشعر، والثاني دلالات الشعر، أو ما هو معروف ببلاغة الشعر وصوره، وتتفاعل هذه القيم الشعريةُ جميعُها، فتعرض على هيئة انزياح [Ecart] أو خرق [Violation] لقوانين اللغة المألوفة:

Violation systématique des lois du langage ordinaire

[2] **لسان العرب**: نزع: 351/8.

وَالمُرَادُ بِمُصْطَلَحِ "الانْتِزَاعِ" فِي كتاب الأَسْرَار اسْتِنبَاطُ الصُّورَةِ مِنَ الكَلاَمِ وَهُوَ أَمْرٌ عَقْلِيٌّ، لأَنَّ التَّرَكِيبَ الذِي رُكِّبَت بِه الصُّورَةُ تَركِيبٌ عَقْلِيٌّ سَمَّاهُ البَلاَغِيُّونَ التَّشْبِيهَ العَقْلِيَّ وَالاسْتِعَارَةَ العَقْلِيَّةَ وَالمَجَازَ العَقْلِيَّ. لَكِنَّ هَذَا الانْتِزَاعَ لا يَحصلُ إلاَّ بِشُرُوطٍ:

- أَوَّلُها أَنَّ المُنْتَزَعَ مِنهُ مَجمُوعُ كَلِمَاتٍ أَو جُملَةٌ أَو جُمْلَتَانِ أَو أَكْثَرُ.

- ثانيها أَنَّهُ إِذَا كَان المُنْتَزَعُ مِنهُ جملاً فَلاَبُدَّ أَن يُتَصَوَّرَ دخُولُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ وَامْتِزَاجُ مَعَانيهَا فِيما بَيْنَهَا حَتَّى تَصِيرَ "نَسَقاً مَخصُوصاً" عَلى اصْطِلاَحِ عَبد القَاهِر.

- ثالِثُها بُطْلاَنُ الصُّوَرِ المُفْرَدَةِ المُسْتَخْرَجَةِ مِنَ الكَلِمَاتِ المُفْرَدَةِ.

إِنَّ الصُّورَةَ المُنْتَزَعَةَ هِيَ نَتِيجَةُ تَأْلِيفٍ وَاقْتِرَانٍ وَاتِّحَادٍ. تَأَلَّفَت مَجمُوعَةٌ مِنَ الجُمَلِ فَتَأَلَّفَت مَعَانِيهَا وَأَعْطَى المِزَاجُ مَعْنىً أَدَبِياً كُلّياً نَاسِخاً المَعَانِيَ الجُزْئِيَّةَ مُبْطِلاً إِيَّاهَا. وَقَد عَبَّرَ عَبدُالقَاهِرِ عَن الانتِزَاعِ بِالاسْتِخْرَاجِ أَيْضاً، وعَبَّرَ عَن اجْتِمَاعِ صُوَرِ الجُمَلِ وَمَعانيها بِدُخول بَعْضِها في بَعْضٍ، وَجَمْعِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ، وَمَزْجِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ، وَبِالتَّأْلِيفِ، وَالتَّرْتِيبِ، وَالاتِّحَادِ، وَالاقْتِرَانِ، وَعَبَّرَ عَن حُصُولِ الصُّورَةِ المُرَكَّبَةِ بِالنَّسَقِ المَخْصُوصِ، وَمُقْتَضَى المَجْمُوعِ، وَنَتِيجَةِ المؤَلَّفِ.

وَيَبْدُو أَنَّ الانْتِزَاعَ مَفْهُومٌ يَتَعَلَّقُ بِأَدَاةٍ مِن أَدَوَاتِ الكَشْفِ عَنِ المَعْنَى الشِّعْرِيِّ وَاسْتِخْرَاجِهِ وَتَحْلِيلِهِ وَمَعْرِفَةِ مُؤَلِّفَاتِهِ؛ لأَنَّ المَعْنَى الاصْطِلاَحِيَّ هُنَا يَتَّجِهُ إِلَى حَالَةِ التَّرْكِيبِ الدَّلاَلِيِّ وَإِبْطَالِ المَعَانِي المُفْرَدَةِ، وَوَظِيفَةُ هَذَا المَفْهُومِ مُزْدَوجَةٌ: فَهُوَ أَدَاةٌ وَصْفِيَّةٌ وَتَحْلِيلِيَّةٌ، وَصْفِيَّةٌ لأَنَّهَا تَصِفُ شَكْلَ الصُّورَةِ، وَتَتَعَلَّقُ بِالقسمِ الدّلاليِّ العَامِّ المُسْتَخْرَجِ مِنَ الكَلاَمِ كُلِّهِ، وهِيَ تَحْلِيلِيَّة لأَنَّهَا تَعْنِي طَرِيقَةَ تَرْكِيبِ الصُّورَةِ وَتَفْكِيكِهَا، وَيَصفُ عَبدُ القاهر طَرِيقَةَ التَّرْكِيبِ هَذِهِ بِأَنَّهَا مَزِيجٌ لا مُجَرَّدُ جَمْعٍ، أي انتِزَاعٌ من عِدَّةِ أُمُورٍ يُجْمَعُ بَعْضُها إلى بَعْضٍ، ثُمَّ اسْتِخْرَاجٌ للصُّورَةِ مِن مَجمُوعِ هَذِهِ المُفْرَدَاتِ؛ فَيَكُونُ سَبِيلُهُ سَبِيلَ الشَّيْئَيْنِ يُمْزَجُ أَحَدُهُمَا بِالآخَرِ، حَتَّى تَحدُثَ صُورَةٌ غَير مَا كَانَ لَهُمَا فِي حَال الإفرَاد، لاَ سَبِيلَ الشَّيْئَيْنِ يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا وَتُحْفَظُ صُورَتُهُمَا"[1].

فَالقَارِئُ يُرَكِّبُ الصُّورَةَ مِن مُقْتَضَى العَنَاصِرِ اللُّغَوِيَّةِ وَقِيَمِهَا المُصَاحِبَةِ وَلاَ يُعَلِّقُ تَرْكِيبَ الصُّورَةِ بِمَعْنَى عُنْصرٍ لُغَوِيٍّ دُونَ آخَرَ، لأَنَّ تَرْكِيبَ الصُّورَةِ بِالانْتِزَاعِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ نَاسِخاً غَيْرَ المُرَادِ مُبْطِلاً لَهُ. وَالمَقْصُودُ بِالقِيَمِ المُصَاحِبَةِ للعَنَاصِرِ اللُّغَوِيَّةِ أَنَّ طَاقَةَ اللُّغَةِ فِي

---

[1] أسرار البلاغة: 101

اسْتِخْرَاجِ الصُّورَةِ مَحْدُودَةٌ، وَيَعْتَمِدُ المُحَلِّلُ عَلَى قَوَاعِدَ تَتَعَلَّقُ بِالمَقَامِ وَالمُتَكَلِّمِ وَالمُخَاطَبِ وَالذَّوقِ، فَإِنَّهَا تُمِدُّهُ بِطُرُقٍ أُخْرَى فِي بَيَانِ الصُّورَةِ: "وَمَتَى وَصَفْنَا بِالمَجَازِالجُمْلَةَ مِنَ الكَلاَمِ كَانَ مَجَازاً مِن طَرِيقِ المَعْقُولِ دُونَ اللُّغَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الأَوْصَافَ اللاَّحِقَةَ لِلْجُمَلِ مِن حَيْثُ هِيَ جُمَلٌ لاَ يَصِحُّ رَدُّهَا إِلَى اللُّغَةِ ولا وَجْهَ لِنِسْبَتِها إلى واضِعِها... وَذَلِكَ شَيْءٌ يَحْصُلُ بِقَصْدِ المُتَكَلِّمِ"[1].

وَمُقْتَضَى كَلاَمِهِ هُنَا أَنَّ الصُّورَةَ المُرَكَّبَةَ بِالقِيَمِ اللُّغَوِيَّةِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَلِّلَهَا بِأَدَوَاتٍ لُغَوِيَّةٍ. وَمِثَالُهُ أَنَّ وَصْفَ الكَلِمَةِ بِالمَجَازِ حُكْمٌ يُبْنَى عَن طَرِيقِ اللُّغَةِ نَفْسِهَا، لأَنَّ المُرَادَ أَنَّ المُتَكَلِّمَ قَد بَيَّنَ الصُّورَةَ عَنْ طَرِيقِ نَقْلِ الكَلِمَةِ عَنْ أَصْلِهَا الذِي وُضِعَتْ لَهُ، وَذَلِكَ لِمُلاَبَسَةٍ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ.

لَكِنَّ الصُّورَةَ المُرَكَّبَةَ بِقِيمٍ غَيْرِ لُغَوِيَّةٍ تُحَلَّلُ بِأَدَوَاتٍ غَيْرِ لُغَوِيَّةٍ فِي أَصْلِهَا، وَمِثَالُهُ أَنَّ تَرْكِيبَ الصُّورَةِ مِن جُمْلَةٍ أَوْ عِدَّةِ جُمَلٍ تَرْكِيبٌ عَقْلِيٌّ، وَتَحْلِيلُهَا إِنَّمَا يَحصُلُ مِن طَرِيقٍ عَقْلِيٍّ هُوَ قَصْدُ المُتَكَلِّمِ، لأَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ مَجَازٌ مِنْ طَرِيقِ المَعْقُولِ دُونَ اللُّغَةِ. وَالمِثَالُ عَلَى الصُّورَةِ المُرَكَّبَةِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ ... فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

وَقَدْ عَلَّقَ عَبْدُ القَاهِرِ عَلَى البَيْتِ بِقَوْلِهِ: "هَذَا مَثَلٌ فِي أَنْ يَظْهَرَ لِلْمُضْطَرِّ إِلَى الشَّيْءِ، الشَّدِيدِ الحَاجَةِ إِلَيْهِ، أَمارَةُ وُجُودِهِ ثُمَّ يَفُوتُهُ وَيَبْقَى لِذَلِكَ بِحَسْرَةٍ وَزِيَادَةِ تَرَحٍ. وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ قَوْلَكَ "أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ" تَشْبِيهٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ لاَ حَاجَةَ بِهِ إِلَى مَا بَعْدَهُ [...] فِي إِفَادَةِ المَقْصُودِ الذِي هُوَ ظُهُورُ أَمرٍ مُطْمِعٍ لِمَنْ هُوَ شَدِيدُ الحَاجَةِ، إِلاَّ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ حَقَّنَا فِي أَنْ نَنْظُرَ فِي مَغْزَى المُتَكَلِّمِ فِي تَشْبِيهِهِ [...] [وَهوَ] أَنْ يَصِلَ ابْتِدَاءً مُطْمِعاً بِانتِهَاءٍ مُؤْيِسٍ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي وُقُوفَ الجُمْلَةِ الأُولَى عَلَى مَا بَعْدَهَا [...] إِلاَّ أَنَّ الغَرَضَ الأَوَّلَ [هُوَ قَوْلُهُ:] أَبْرَقَتْ قَوماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ..."[2].

وَمِنَ الأَدِلَّةِ أَيْضاً قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ**

(1) أسرار البلاغة: 408
(2) أسرار البلاغة: 110-....

بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]. فَالصُّورَةُ مُنْتَزَعَةٌ مِنْ مَجْمُوعِ الجُمَلِ لاَمِنْ جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآيَاتِ لَيْسَتْ مُشَبَّهَةً بِمُطْلَقِ المَاءِ، وَلَكِنْ بِمَاءٍ مَخْصُوصٍ مُقَيَّدٍ بِصِفَاتٍ ذَكَرَتْهَا الجُمَلُ اللاَّحِقَةُ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً آيَاتُ الإِنْفَاقِ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

فَالحَاجَةُ إِلَى الجُمَلِ وَالتَّرَاكِيبِ الطَّوِيلَةِ حَاصِلَةٌ لأَنَّ اسْتِخْرَاجَ الصُّورَةِ المُرَكَّبَةِ أَمْرٌ عَقْلِيٌّ، وَالتَّشْبِيهُ كُلَّمَا كَانَ أَوْغَلَ فِي كَوْنِهِ عَقْلِيّاً مَحْضاً كَانَتِ الحَاجَةُ إِلى الجُمْلَةِ أَشَدَّ، وَقَدْ ظَهَرَ مِنَ الآيَاتِ السَّابِقَةِ – المُتَعَلِّقَةِ بِتَمْثِيلِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا – أَنَّ فِيهَا عَشْرَ جُمَلٍ دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ حَتَّى كَأَنَّهَا جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ لأَنَّ وَرَاءَهَا نَواةً دَلاَلِيَّةً عَقْلِيَّةً تَشُدُّ الجُمَلَ – بِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ مَعْنىً – بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ وَهَذِهِ النَّوَاةُ الدَّلاَلِيَّةُ هِيَ الصُّورَةُ المُنْتَزَعَةُ.

وَإِذَا كَانت هَذِهِ المَفَاهِيمُ الإِجْرَائِيَّةُ ضَوابِطَ لاسْتِخْرَاجِ الصُّورَةِ وَتَحْلِيلِ أَجْزَائِهَا وَرَدِّهَا إِلَى أَصْلِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ لاَ يَعْنِي أَنْ لاَ قِيمَةَ لِبَعْضِ الطُّرُقِ الذَّاتِيةِ فِي فَهْمِ الصُّورَةِ، ذَلِكَ أَنَّ عَبدَ القَاهِرِ قَدْ عَقَدَ فِي كَثِيرٍ مِنْ فُصُولِ الأَسْرَارِ كَلاَماً عَنْ وَسَائِلِ القَارِئِ الخَاصَّةِ فِي تَذَوُّقِ جَمَالِ الصُّورَةِ وَفَهْمِهَا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبد القَاهِرِ: "وَاعْلَم أَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ التي قَصَدْت البَحْثَ عَنْهَا، أُمُورٌ كَأَنَّهَا مَعْرُوفَةٌ مَجْهُولَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّهَا مَعْرُوفَةٌ عَلَى الجُمْلَةِ لا يُنْكِرُ قِيَامَهَا فِي نُفُوسِ العَارِفِينَ، ذَوْقُ الكَلاَمِ [...]، ومَجْهُولَةٌ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَتَّفِقْ فِيهَا أَوْضَاعٌ تَجْرِي مَجْرَى القَوَانِينِ التِي يُرْجَعُ إِلَيْهَا [...] حَتَّى تُعْلَمَ عِلمَ اليَقِينِ غَيْرِ المَوْهُومِ"[3].

***

فِي خِتَامِ البحث يُثارُ سؤالٌ : هَلْ يُمْكِنُ أَن نَعُدَّ تَصَوُّرَ عَبْدِ القَاهِرِ لِلنَّصِّ الشِّعْرِيِّ نَظَرِيَّةً فِي تَحْلِيلِ النَّصِّ ذَاتَ رُؤْيَةٍ دَلاَلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ، خَاصَّةً أَنَّهُ سَلَكَ فِي كِتَابِهِ "الأَسْرَار" بِقَوَانِينِ المَعَانِي وَالبَيَانِ مَسْلَكَ العُلُومِ النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِيَّةِ عَلَى السَّوَاءِ، فَكَانَ يقْرِنُ فِي كَثِيرٍ مِن مَوَاضِعِ كِتَابِهِ بَيْنَ الصُّوَرِ وَالأَمْثِلَةِ المُفَصَّلَةِ، وَالصُّورَةِ الكُلِّيَةِ المُجْمَلَةِ؟

---

[1] يونس: 24

[2] البقرة: 261.

[3] أسرار البلاغة:260.

1- إنَّ الجَوَابَ الحَاسِمَ أمْرٌ صَعْبٌ، وَلَكِنْ يُمْكِنُ إطْلاَقُ صِفَةِ النَّظَرِيَّةِ عَلَى تَحْلِيلِهِ بِمُرَاعَاةِ اعْتِبَارَاتٍ دُونَ أُخْرَى، إذْ لَو رُوعِيَتْ كُلُّ الاعْتِبَارَاتِ لَصَعُبَ الإطْلاَقُ، وَاعْتِبَارَاتُ الإطْلاَقِ – كَمَا مَرَّ بِنَا – هِيَ وُجُودُ تَصَوُّرٍ عَامٍّ يَسْرِي فِي كَلاَمِهِ كُلِّهِ عَنْ صِنَاعَةِ الشِّعْرِ.

2- وَنَظَرِيَّتُهُ هَاتِهِ نَظَرِيَّةٌ دَلاَلِيَّةٌ لأَنَّ مَبْحَثَ المَعْنَى الأَدَبِيِّ هُوَ الغَالِبُ عَلَى كِتَابِ "الأسرَار". وَأَهَمُّ نَصٍّ فِي الكِتَابِ كُلِّهِ، كَاشِف عَن مَقَاصِدِ الرجلِ، هُوَ مَا عَبَّرَ عَنهُ بِبَيَانِ أَمْرِ المَعَانِي: "اعْلَم أَنَّ غَرَضِي فِي هَذَا الكَلاَمِ الذِي ابْتَدَأْتُهُ وَالأَسَاسِ الذِي وَضَعْتُهُ أَن أَتَوَصَّلَ إِلَى بَيَانِ أَمْرِ المَعَانِي كَيْفَ تَتَّفِقُ وَتَخْتَلِفُ وَمِنْ أَيْنَ تَجْتَمِعُ وَتَفْتَرِقُ، وَأفصل أَجْنَاسَهَا وَأَنْوَاعَهَا...".

بَيَانُ أَمْرِ المَعَانِي هَدَفٌ نَظَرِيٌّ بَعِيدٌ يَقْتَضِي مَنْهَجاً وَأَدَوَاتٍ إِجْرَائِيَّةً عَبَّرَ عَنهَا عَبد القَاهِرِ بِقَوْلِهِ فِي بِدَايَةِ كِتَابِهِ: "وَهَذَا غَرَضٌ لاَ يُنَالُ عَلَى وَجْهِهِ إِلاَّ بَعْدَ مُقَدِّمَاتٍ تقدَّمُ وَأُصُولٍ تُمَهَّدُ وَأَشْيَاءَ هِيَ كَالأَدَوَاتِ فِيهِ حَقُّهَا أَن تُجْمَعَ".

3- لَقَد بَحَثَ الرَّجُلُ قَضِيَّةَ بَيَانِ أَمْرِ المَعاني، فَبَيَّنَ أنوَاعَ المَعَانِي وَطَرِيقَةَ تَحْلِيلِهَا وَتَرْكِيبِهَا وَحُصُولِهَا فِي تَرْكِيبَةٍ عَبَّرَ عَنْهَا بِ **البِنْيَةِ وَالصُّورَةِ والهَيْئَةِ**، ورَصَدَ لِذَلِكَ أَدَوَاتٍ عَبَّرَ عَنْهَا **بِالأَصْلِ وَالفَرْعِ، وَالانتِزَاعِ، وَالتَّبَايُنِ، وَالتَّأَوُّلِ** وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَبَحَثَ فِي أَطْرَافِ تَحْقِيقِ المَعْنَى فَوَجَدَ شُرُوطاً وَأَرْكَاناً جماعُهَا: **الشَّاعِرُ وَالمُتَلَقِّي وَمَقَامُ قَولِ الشِّعْرِ وَبِنْيَةُ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ**، وَغَيرُ ذَلِكَ.

4- ولا أظُنُّ أَنَّهُ مِنَ المُجَازَفَةِ أن تُدْعَى طَرِيقَتُهُ فِي التَّحْلِيلِ بِنَظَرِيَّةِ عَبدِ القَاهِرِ فِي تَحْلِيلِ النَّصِّ، وأنْ تَأْخُذَ مَكَانَهَا بَيْنَ بَاقِي النَّظَرِيَّاتِ الحَدِيثَةِ، فتُطَبَّقَ فِي تَحْلِيلِ بَعْضِ النُّصُوصِ القَدِيمَةِ وَالحَدِيثَةِ، مَعَ مُرَاعَاةِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ المَنْهَجِ وَالنَّصِّ وَمُرَاعَاةِ خُصُوصِيَّةِ النُّصُوصِ.

***

الدلالة السيميائية للمكاء والتصدية

المُكاء مُخففُ الصَّفِير، والفعلُ منه : مَكا الإنسان يَمْكُو مَكْواً ومُكاء صَفَرَ بفِيه. والتَّصْدِيَة التصفيقُ بالأيدي، وهو من الصَّدَى وهو الصَّوْتُ الذي يَرُدُّهُ عليكَ الجَبَلُ. والمُكاءُ والتَّصْدِيَة لَيْسَا بصَلاةٍ، ولكنَ العُراةَ الطّائفينَ جعلوا مكانَ الصَّلاةِ الَّتي أُمِروا بها المُكاءَ والتَّصْدِيَةَ. لقَد كانَ الصفيرُ والتصديَةُ علامةً على الصلاةِ أو نوعاً من العبادَة مقترنةً بالطوافِ والتّجرُّدِ من الثّيابِ، وهي صفةٌ مذمومةٌ ذمّها القُرآن الكريمُ: «وما كان صلاتُهم عندَ

البيت إلا مُكاءً وتَصْدِيَةً» أي كانَت صلاتُهم الصفير والتصفيق، في حالةِ العُري والتّجرّد التّامّ من السّتر. ثمّ تطوَّرَ الأمرُ بعدَ ذلِكَ فأصبَحَ الصّفيرُ فعلاً من أفعالِ الكلاّبينَ أي أصحابِ الكلابِ في الصيدِ، يصفرون للكلاب علامةً على المُناداة ولفت الانتباه، قال الشاعرُ يصفُ مفازةً:

كأنَّ تَجاوُبَ أَصْدائِها ... مُكاءُ المُكَلِّبِ يَدْعُو الكَلِيبَا

فتلك علامةٌ ذاتُ دلالةٍ سيميائيّةٍ مقترنةٍ بثقافةٍ معيّنة، أو طُقوسٍ معيّنةٍ، ثمّ تطوَّرَت فأصبحَت صوتاً لنداءِ الكلابِ في الصّيدِ؛ أمّا اليومَ فَقَدْ تطوّرَ المكاءُ والتصديةُ تطوّراً مختلفاً وفقَدا دلالاتَيْهما القَديمَة وأصبَحا مُستساغَيْنِ إذ يُعبّرُ بهما إنسانُ اليوم عن الإعجابِ النّفسيّ بالمشهَد الذي يَراه ، مهما تكن مَقاييس ذلك المشهَد وقيمتُه العلميّةُ أو العقليّةُ أو الثقافيّةُ فقَد تغيرَ السياقُ الثّقافيّ والاجتماعيّ. ولكن هل ظلّ للمُكاء والتّصدية بعضُ الدّلالات القديمَة تُرافقُهما ولا تنفكّ عنهُما .

بلاغة الإشارَة في عملية الدلالَة

ما مَوْقِعُ الإشارَةِ من اللّغةِ ؟ و هَلْ نشأتِ اللّغةُ في كَنَفِ الإشاراتِ؟ هَلْ نَشَأتِ اللّغةُ من مُكوِّنٍ إشاريّ ؟ وهلْ يصحُّ أن نُقرّرَ أنّه: في البَدْءِ كانَتِ الإشارَة؟

ذَهَبَ بَعْضُ الباحِثينَ الغَرْبِيّينَ[1] إلى نَظَرِيّةٍ في نَشأةِ اللّغَةِ البَشَرِيّةِ مفادُها أنّ اللُّغةَ نَشأتْ مِنْ مُكَوِّنٍ إشارِيّ وَحيدٍ هُو الذي سادَ عَمَلِيّاتِ الاتّصالِ بَيْنَ الأفْرادِ، وتَطَوَّرَتْ مِنْ مَرْحَلَةٍ إيمائيّةٍ وإشاراتٍ باليَدِ والوَجْه. ثُمّ أخذَ هذا النِّظامُ الإشارِيّ يَتَطَوَّرُ اتّساعاً وعُمْقاً وتَعَقُّداً، تَبَعاً لتطَوُّرِ الأفْرادِ والمُجْتَمَعاتِ وظُهورِ الصّناعاتِ وتَعَقُّدِ مَرافِقِ الحَياةِ. وهكذا

---

[1] في نَشْأة اللُّغَة. مِن إشارَةِ اليَدِ إلى نُطقِ الفَم. تَرْجَمَة : مَحْمود ماجِد عُمَر ، سِلْسِلة عالَم المَعْرِفَة، المَجْلِس الوَطَنِيّ للثّقافَة والفُنون والآداب، الكويت، ع:325، مارس 2006.

وانظر أيضا:

–**لغة الجسد: كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم**. ترجمة: سهيلة العسافين، نشر: مؤسسة علاء الدّين للطّباعة والتّوزيع، 2004م

–**لغة الجسد**. غدويس وغروست. ترجمة: هيلانة صالح شقير. نشر دار علاء الدّين للطّباعة والتّوزيع، ط.1، 2005م

– **الفراسة أو قراءة لغة الجسد**، نادين كنت. ترجمة: كامل إسماعيل، نشر شركة الحوار الثقافي، ط.1، 2005

تَطَوَّرَ التَّواصُلُ الإشارِيُّ إلى نَوْعٍ مِن اللُّغةِ الأوّليّةِ لِتتحَوَّلَ بَعْدَ ذلِك إلى لُغةٍ نَحْوِيّةٍ مُزوّدَةٍ بِجِهازٍ صَوْتِيّ، يَنْمو ويَتَطَوَّرُ باطِّرادٍ، حَتّى وَصَلَ الكَلامُ إلى الصّيغةِ الحديثةِ ذاتِ الأداءِ الصّوتيّ الخالِصِ، ومَعَ ذلِك لَمْ تتمكّن اللّغةُ من التّخلُّصِ من النّظامِ الإشارِيّ، ولم يتمكّنِ الإنسانُ من التّخلّصِ من ماضيه الإشاريّ، بَل ظلّتِ الإشاراتُ مُصاحبةً للأصواتِ، تَدْعمُها وتُكمّلُ وَظيفَتَها، فكانَ من المُناسبِ أن تظهَرَ بعضُ النّظريّاتِ في الموضوعِ كالنظريّة الإشاريّةِ لفيلسوف القرن الثّامن عَشَر "كونديلاك."

ولكن برزت اليومَ مُسوّغاتٌ جديدةٌ لتنميةِ البحثِ في النّظريّاتِ الإشاريّة، أهمُّها مُرافقَةُ الإشاراتِ للكلامِ مرافقةً مستدامةً غيرَ منقطعةٍ؛ فاللّغةُ تنقُلُ الخبرَةَ بينَ النّاسِ إعْلاماً وتعلُّماً وتعليماً، والإشاراتُ تكمّلُ النّقلَ وتعضدُه. ومن النّظريّاتِ اللسانيّةِ ما ذهبَ إلى أنّ الإشاراتِ صنفٌ من أصنافِ التّواصُل[1]؛ لأنّ التّواصُلَ من حيثُ طبيعةُ أداتِه ثلاثةُ أصنافٍ كُبْرى:

-تواصُل لُغويّ ، بالكلماتِ والجُملِ والعباراتِ ...

–وتواصُل غير لغويّ ، بالإشاراتِ والرّموزِ والصّور ...

–وتَواصُل مركَّب يُزاوِجُ بَيْنَ أدواتٍ تواصليّةٍ متعدّدةٍ لُغويّةٍ وغيرِ لغويّة...

ومن الباحثينَ مَن قرنَ بينَ التّواصُلِ وبينَ المَعْنى فجعَلَ التّواصُلَ غيرَ اللّغويّ منتسباً إلى المعنى المَقاميّ، وجعلَ التّواصلَ اللّغويَّ مُنتسِباً إلى المَعْنى المَقاليّ ؛ وتَفْصيلُ ذلكَ أنّ المَعْنى إنّما هو مُتَعيّنٌ من الدّلالاتِ اللّغويّة البنيويّة فقَط، أي من المُتَحَصِّلِ من جسمِ اللّغة، وما يُقدّمُه جسمُ اللّغة إنّما هو المعنى البنيويّ المَقاليّ، ولا بدّ بعدَ ذلكَ من محيط خارجيّ يشتملُ على المَعْنى اللّغويّ ويؤثّرُ فيه، وهو سياقُ الحالِ والأنظارُ الخارجيّةُ والقَرائنُ، وغيرُ ذلكَ ممّا يؤثّر في تشكيلِ المَعنى، فالمَعْنى العامّ يأتلفُ منْ رافديْنِ أو مَجْريينِ: المَعْنى المَقاليّ[2] أو المَجْرى

---

[1] من هذه النّظريّاتِ اللّسانيّة نظريّةُ النّحو الوظيفيّ. انظرْ في التّعريفِ بالتّواصُلِ غيرِ اللّغويّ في النّحو الوظيفيّ كتابَ: المَنْحى الوظيفيّ في الفكرِ اللّغويّ العربيّ. الأصول والامتداد، 158-159، نشر: مكتبة أمان، مطبعة الكرامة – الرّباط، ط.1، 1427 هـ/2006م

[2] ملامحُ من ظاهرةِ التّواصُلِ غير اللّفظيّ في التّراثِ اللّسانيّ العَربيّ: [341/1]. د. مهدي عرار، مقال نُشر ضمنَ أشغال "ندوة إسهامات اللّغة والأدب في البناء الحَضاريّ للأمّة الإسلاميّة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانيّة، الجامعة الإسلامية العالَميّة بماليزيا، دار التّجديد للطّباعة والنّشر والتّرجمة،

الصّائتُ، والمَعْنى المَقاميّ أو المَجْرى الصّامتُ، وممّا ينتسبُ إلى المَعْنى المَقاميّ التّواصُلُ غيرُ اللّغويّ عامّةَ، ويدخُلُ فيه الإشاراتُ ولغةُ الجَسَدِ التي تُعدّ رافداً معنويّا أميناً ذا وظائفَ متبايِنَةٍ؛ فقد تُغني الإشاراتُ والحَرَكاتُ وتَعابيرُ الوجهِ،عن الكَلامِ جملةً[1].

دلالة الاستدبار في الخطاب السيميائيّ:

إذا ولّيْتَ أحداً الدّبرَ ، فدلالتها السّيميائيّة بيّنةٌ: الإعراضُ والغَضَبُ، أو الاستهانَةُ والاحتقار... والثانيةُ هي ما لَقِيَه روّاد موازين من راقصة أمريكا التي استدبرتْهُم بسَوْءَتِها شرَّ استدبار، واقتلَعَت عُيونَهم من مَحاجرها وأموالَهم من الجُيوبِ، وركبَت بهم كلّ سوءٍ، وكأنّها تقولُ، بل هي تَقولُ: أيّها الأغبياء المُغفَّلونَ، تستحقّونَ منّي ما نِلْتُم وزيادةً: حركات فاحشةٌ وإيقاعٌ مهيّجٌ يُرقصُ عليْه، في بلَد عُمرُه قُرون، سالَت على ثَراهُ دماءُ التّحريرِ من بَغْيِ البُغاةِ وبِغاءِ البَغايا وظُلم المُحتَلّين، لَقَد خرَجَ الشّرُّ -مُرْغماً ذليلاً- من بابٍ، ثمّ أدْخِلَ مُعزّزاً مكرَّماً من كلّ بابٍ. هل أصبَحَ القومُ شعباً بلا ذاكرة. ما أسوأها من ذاكرةٍ ناسية، بالذّلّ راضيَة، هذه نقطة سوداءُ اتسَعَت حتّى خرقَت الثّوبَ وبَدا من جَسَد البلَد من ذلكَ الخَرْقِ كلُّ عُوارٍ، وأعانَ عليْه شماتَةُ القَناة المَشبوهَة، التي نَشَرَت غسيلَ الفضائح أمامَ أنظار العالَم .

سهرةٌ في عَراء الطبيعَة ماجنةٌ عاريَة، ليسَ فوقَها سقفٌ، ولا حَوْلَها حيطانٌ ساترةٌ، بل عُيونٌ جبّارةٌ نُصِبَت شاهدةً، ولعَراء المَعارضِ والمنصّاتِ المَحميّة دلالاتُها؛ والرسالةُ في ذلكَ صريحَةٌ، ثقافةٌ تنتشرُ كلّ عامٍ وتشيعُ، في موعدٍ مناسبٍ اجتَمَع فيه موسم الامتحانات وقُرب الشّهرِ الكَريم، فالمُجاهَرَة شعارُها والإمعانُ مطيّتُها والإصرارُ غايتُها. ثمّ يتكرّرُ في العامِ القابلِ، لتثبيتِ ما نُسِيَ وتأكيده في النّفوس.

أيُّها البَلَدُ الكريمُ ، أيّها البَلَد الجَريحُ، ليسَت ثقافة الموازين ثقافةً لَك ولَن تُلحقَ اسمكَ بالنجوم الكونيّة إلاّ من أقذر الأبواب، ولَقَد كانَ أهلُكَ إذا ما رَهِبُوا الفَضائِحَ لَبِسُوا الصَّفائِحَ

ط.1، 1428هـ، 2007م

المرجعُ نفسُه

[1] المصدرُ نفسُه

دلالة البنية الصرفية

تَولَّى برُكْنه:

من مَعاني صيغَة تَفَعَّلَ: مَعْنى اتَّخَذَ؛ وتَولَّى اتَّخذَ وليّاً، انظُرْ كيفَ تُؤثّرُ الصّيغةُ الصّرفيّةُ المفرَدَة في فَهم المَعْنى وبناءِ المَعْنى...

اتّخذَ ولياً: ناصرا عاصماً مُعيناً، ورُكنُه قِبْلَتُه التي يتوجّه منها إلى ربِّه، أمّا رُكنُ فرعونَ فجنودُه وخَيْلُه ورَجْلُه. والباءُ [برُكنه]: فيه إلصاقٌ مَجازيٌّ مَعنويٌّ: تمسَّكَ بوليِّه الذي هو جُندُه وعزُّه ومَنَعَتُه... مع تَقديرِ اليَدِ المُتمسِّكَة المُلْصَقَة مجازاً

كَثافةُ الدّلالَة في الكلمة الواحدَة

تعدُّدُ مَعاني اللفظ الواحد على ضُروب؛ فمنها اللفظُ الحَمَّالُ الأوجه من المَعاني، وهذه المعاني المُحتَمَلَةُ مُتعاقبةٌ إن ترجَّحَ مَعْنىً غابَت المَعاني الأخرى، ومنها المَعاني المتضادَّةُ التي يدلُ عليها هذا اللفظُ ويُرجّحُ السياقُ اللفظَ المناسبَ. والذي يَعْنينا في هذه المَقالَة **ضربٌ آخَر غير الذي ذكرْنا: فكثيرٌ من كَلِمِ اللغة العربيّة تَمتازُ بمِيزةٍ دلاليّةٍ اكتسبتْها من المُعْجَمِ الذّهني للناطقينَ بها؛ فتَجدُ الفعلَ مَثلاً يدلُ على حَرَكاتٍ لا حركةٍ واحدةٍ، وأحداثٍ لا حَدَثٍ واحدٍ، وكلها تجتمعُ في الفعلِ الواحد من غَيْرِ حاجةٍ إلى ألفاظٍ مُساعدةٍ تُعينُ على حَملِ الأثقالِ الدّلاليّةِ الطّارئَة**؛ من ذلك فعلُ "وزع" الذي يدلُ في الأصلِ على كَفِّ النَّفْس عن هَواها، وزَعَه ووَزَعَ به يَزَعُ ويَزِعُ وزْعاً كفَّه فاتَّزَعَ هو أي كَفَّ. ووزعَ الجيشَ إذا حَبَسَ أَوَّلَهم على آخرهم، أي رَتَّبَهم وسَوّاهُم وصَفَّهُم للحربِ فكأنه يَكُفُّهم عن التفرُّقِ والانْتِشارِ. وفي حَديث أبي بكر رضي الله عنه أنَ المُغيرَةَ رَجُلٌ وازعٌ يريد أنه صالح للتقدم على الجيش وتدبيرِ أَمرهم وترتيبهم في قتالهم وفي التنزيل: "فهُم يُوزَعُونَ" أي يُحْبَسُ أَوَّلُهم على آخِرهم...

فلاحظْ كيفَ أنّ الفعلَ "وزع" إذا بُنِيَ للمَفْعولِ ازدادَ امتلاءً بالمَعْنى: الكَفُّ أو الحَبْسُ + الحرصُ على الْتحاقِ الأخيرِ بالأوّلِ + الحرصُ على التَّنظيمِ. فذلكَ من خَصائصِ بعض الكلمِ في العربيّةِ، ويُمكن تسميتُها **الكَثافَة الدَّلاليّة في الكلمة المُعجميّةِ**. وهي صفةٌ بلاغيّة تتّصلُ بالإيجازِ والجَمْعِ: وإذا فصَّلْنا الأمرَ وجدْنا أنّ المَعاني الكثيرةَ المُتضَمَّنَةَ في اللفظِ الواحدِ مَفاهيمُ قائمةٌ في المُعجم الذهنيّ الذي يَحملُه المتكلّمُ في ذهنِه ويَصدرُ عَنه، فالمتكلّمُ ينتزعُ المَعاني المتعدّدةَ ويربطُ بيْنَها ويَنتقي لَها اللفظَ الجامعَ الذي يَأسِرُها ويَصوغُها في بناءٍ جاهزٍ.

فالكَثافةُ الدّلاليّةُ، صفةٌ في الدّلالَة المركّبَة التي في اللفظ؛ والتكثيفُ الدلالي صفةٌ في كثير من الأفعال العربية، بل تَتَعدّى هذه الصّفةُ الأفعالَ إلى الأسماءِ؛ فمن الأسماء المجتمعَة

المَعاني "النِّصْعُ" بكسر النون المشددة؛ والنِّصْعُ ضَرْبٌ من الثِّيابِ شديدُ البياض؛ قالَ لَبيدُ ابنُ رابعةَ العامريُّ:

فَاجْتَازَ مُنْقَطِعَ الكَثِيبِ كَأَنَّهُ /// **نِصْعٌ** جَلَتْهُ الشمْسُ بَعْدَ صِوَانِ[1]

وقال شاعرٌ:

يَرْعَى الخُزامى بذِي قارٍ فقد خَضَبَتْ /// منه الجَحافِلَ والأَطْرافَ والزَّمَعا
مُجْتابُ نِصْعٍ يَمانٍ فوْقَ نُقْبَتِه /// وبالأَكارِعِ من دِيباجِه قِطَعا[2]

وعَمَّ بعضُهم به كلَّ جلدٍ أَبيضَ أَو ثوبٍ أَبيضَ: قال الشاعرُ يَصفُ بقرَ الوَحْش:

كأَنَّ تَحْتِي ناشِطاً مُوَلَّعا
بالشَّأمِ حتى خِلْتُه مُبَرْقَعا
بنيقة مِنْ مرْحَلِيِّ أَسْفَعا
تَخالُ **نِصْعاً** فَوْقَها مُقَطَّعا
مُخالِطَ التَّقْلِيصِ إذْ تَدَرَّعا

فالنِّصْعُ الثّوبُ النّاصعُ البَياض، الناصعُ صفةٌ في كل لَون خَلَصَ ووَضَح؛ قَالَ الأصمعيّ: «وَأَكْثَر مَا يُقَال فِي الْبَيَاض» وقالَ أَبُو عبيد: «أَبيض ناصعٌ ويَقَقٌ». وهكذا، فقد جَمَع اللفظُ الواحدُ بين ثلاثة مَعانٍ متواكبةٍ متصاحبةٍ تحضرُ إلى الذّهنِ عندَ إطلاقِ اللفظِ. وهي مَعْنى **الثوبِ**، ومَعْنى **اللون وهو البَياض**، ومَعنى **صفة اللون وهو النصاعَةُ** أو شدةُ البياضِ، فهي **ثلاثة مَعانٍ في لفظ واحدٍ**.

تتحقَّقُ الكثافَةُ الدّلاليّةُ أيضاً ببابٍ جليلٍ من أبوابِ النحو والبلاغةِ، هو بابُ "**التَّضمين**". والتَّضمينُ أَنْ تُضَمِّنَ اسْمًا مَعْنَى اسْمٍ لِإِفَادَةِ مَعْنَى الِاسْمَيْنِ جَمِيعًا، أي **إفادةِ المعنيين مَعاً في آن واحدٍ من غير تَعاقُبٍ ولا تَناوُب**؛ كَما فِي قَوْله تعالى: «حَقِيقٌ عَلى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» [الأعراف: 105]؛ فقَد ضُمِّنَ "حَقِيقٌ" مَعْنَى "حَرِيصٍ" لِيُفِيدَ أَنَّهُ مَحْقُوقٌ بِقَوْلِ الْحَقِ وَحَرِيصٌ عَلَيْهِ. والتَّضمينُ نوعٌ من التَّوسُّع في دلالَة الكلمَة وعَدم

[1] **شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري** : تح: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962م. ص: 146

[2] **المعجم المفصل في شواهد العربية**، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط.1، 1417هـ - 1996م، ج:4/ص:234

الاقتصار على دلالتها الأصليّة؛ فالكلمة تدلُ على معنى مُركَّبٍ: مَعناها المُعجميَ وتَستَعيرُ معنى ثانياً .

وذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ في كتاب:" المعاني المتبدعة " أن التضمين واقع في القرآن خلافا لماأجمع عَلَيْهِ أَهْلُ الْبَيَانِ وَجَعَلَ مِنْهُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي الصَّافَّاتِ: « لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأولين لكنا عباد الله المخلصين» .
وَيُطْلَقُ التَّضْمِينُ أَيْضًا عَلَى إِدْرَاجِ كَلَامِ الْغَيْرِ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ لِتَأْكِيدِ الْمَعْنَى، أَوْ لِتَرْتِيبِ النَّظْمِ وَيُسَمَّى الإبْداعَ، كَإِبْدَاعِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حِكَايَاتِ أَقْوَالِ الْمَخْلُوقِينَ[1] كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ: « قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا من يفسد فيها ويسفك الدماء » .

ويُستَعانُ على الكثافَة الدّلالية في الأفعال بتعدّيها بحروف جرّ تُعينُ على تَضْمين مَعْنىً جديدٍ: « تَقْتَضِي [عَن] مُجَاوَزَةَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ نَحْوَ غَيْرِهِ وَتَعَدِّيهِ، عَنْهُ تَقُولُ أَطْعَمْتُهُ عَنْ جُوعٍ أَيْ أَزَلْتُ عَنْهُ الْجُوعَ وَرَمَيْتُ عَنِ الْقَوْسِ أَيْ طَرَحْتُ السَّهْمَ عَنْهَا وَقَوْلُكَ أَخَذْتُ الْعِلْمَ عَنْ فُلَانٍ مَجَازٌ لِأَنَّ عِلْمَهُ لَمْ يَنْتَقِلْ عَنْهُ وَوَجْهُ الْمَجَازِ أَنَّكَ لَمَّا تَلَقَّيْتَهُ مِنْهُ صَارَ كَالْمُنْتَقِلِ إِلَيْكَ عَنْ مَحَلِّهِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره} لِأَنَّهُمْ إِذَا خَالَفُوا أَمْرَهُ بَعُدُوا عَنْهُ وَتَجَاوَزُوهُ »[2]

الكثافَة الدلاليةُ في فعل المرور:

دلالَةُ المُرور والتغاضي وعَدَم الاكتراث في فعل المُرور: والشاهدُ عليه قولُه تعالى: « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ » [الأعراف: 189]؛ فَالمُرور في قَوله تعالى: «حَملت حَمْلاً خفيفاً فمَرَّت به. فلمّا أثقلَتْ دَعَوَا الله ربّهُما لئن آتينا صالحاً لنَكونَنَّ مِن الشّاكرين » جَوازٌ أو اجتياز، ويُستعار للتغاضي والتغافُل وعدم الاكتراث، كما في قَوله: «فلمّا كَشَفْنا عنه ضُرَّه مَرَّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه» [يونس: 72] نَسِيَ دُعاءَد رَبَّه، وأعْرضَ عن شكره؛ لأنّ المارَّ بالشيء لا يقف عنده ولا يكترثُ لَه، وقوله: « وإذا مَرَوا باللغو مروا كراماً» [الفرقان: 72][3].

---

[1] **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين الزركشي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ج: 3، ص: 343-344...

[2] **البُرهان**: ج:4 ، ص:420

[3] يُراجعُ تفسير الشيخ الطّاهر ابن عاشور، **التّحريروالتّنوير**، الدار التونسية للنشر، 1984، ج:9، ص:212.

الفصلُ الخامسُ : في القراءَة والتّلقّي وبلاغة التأويل

- تأمُّل في اللغة والذّهن والتّواصُل
- المبادئ الكلية والقَواعد اللغوية
- النص والكاتب : أفكارُ الكاتب عَلى طَبَق مِن نَصٍّ
- الإجْحافُ في القراءَة
- النص والمتلقي :

في ثقافَة التلقّي، وعُموم المتلقّين، ونقد استجابة القارئ

أنموذَجٌ من قَضايا التلقي : النَّسَقُ القرآنيُ الكلّيّ وأنساقُنا الذّهنيّة الجزئيّةُ

- مسألة بلاغية في الجهل بمكان الإساءَة
- من النحو إلى البَلاغَة
- من النحو إلى المَعْنى
- إنزال اللباس من السماء
- انسجام التأويل في تمثُّل الشعر العَرَبي
- من بلاغَة المَجاز تلازمُ المَعاني مع التّنافي
- بَلاغةُ التَّقْديم والتأخير، والعُدول عن الأصل
- دلالَة التّشبيه وجهاته الفرعيّة في "كأنّ"

في القِراءَة والتَّأويل والتَّلقّي

في ثقافَة التلقّي، وعُموم المتلقّين: رأي في بلاغة العُموم :

في الحَديث عن نظريات التلقّي Reception theory لا جماليةَ في التّلقّي Aesthetic of Reception إلاّ بتربيةِ الذّوق الجماليّ للمتلقّي، وللتواصُل البلاغيّ حركيّةٌ وتفاعلٌ بين المُرسِل والمتلقّي، فلَم يُلْغَ المُرسِلُ ولم يُقْصَ من هذه الحركيّة ولَم يُحكَمْ على موتِ المؤلّف، بل ما زالَ يُعدُّ ركناً أساسًا في التواصُل البلاغيّ والإلقاءِ والتّلقّي الجَماليّين، خلافاً لما يشيعُ عن نظريات التّلقّي من أنّها انتقَلَت من بلاغَةِ مُلْقي النّصّ إلى بلاغَة متلقّيه؛ فقد وُضعَ مَفهوم حركيّة التّواصُل بينهماcommunication activity ، لخَرْق قاعدَة البنية المُغلَقة التي سَنّها البنيويّون:

المتلقّي من عُموم النّاس: في كلّ شأن من شُؤون الحَياة ينبغي تأهيلُ عُموم النّاس المُخاطَبين بمشروع أو إبداع بليغ أو رأي أو فنّ ذي جماليّة، وتربيتهم على إصدارِ فعلٍ أو سلوكٍ أو خلُق أو علمٍ مناسبٍ يرْقى إلى درجةِ الرّسالَة الإبداعيّة؛ فإذا أهمِلَ التأهيلُ وعُطِّلَ هاجسُ التربيّة، فسنحصلُ على استجاباتٍ سلبيّة من عموم الناس، وأنواعٍ من السلوك والفهم والتّعاطي تُفسدُ المشروعَ وتؤثّرُ في صدقِه وقوّته وإبداعيّته. ولا يُنتظَرُ أيّ تفاعلٍ إيجابيّ يأتي من عُمومٍ غير مؤهّل يفتقرُ إلى مقوّمات الوعي والتفكير والثّقافَة ولا يَرْقى بالمشروع الذي قُدّمَ له وعُرضَ عليه إلى درجات الإبداع والإنضاج.

يصحّ أن نقولَ : عُموم الناس في الغرب - خاصّة في أوربّا الغربيّة والشّماليّة - بحكم ثقافته العالية وبفعلِ تراكُم النّظريّاتِ البلاغيّة والحجاجيّة والتّداوليّة، وبفعلِ انتشارِ مَفاهيمِ القارئ المتلقّي من خلال نظريّات التلقّي وجماليته وأفقِ انتظارِ القارئ... يستطيعُ عُموم النّاسِ بفعلِ الثقافَة الرّاقيةِ أن يكونَ متفاعلاً مُستجيباً استجابةً إيجابيّةً لكلّ مشروع يُقدّم لفائدته، أو أنموذجاً للتّفاعل الإيجابيّ المَحسوب المَدروس.

أجَلْ، يوجدُ في الغرب ثقافَة التّوعيّة والتّحسيس Awareness ونشر المعلومَة Information، والتأهيل Rehabilitation، والتربية على اليَقَظَة Vigilence والتربية على المواطنَة والمسؤوليّة Education on responsibility and citizenship

في نظريّة التّلقّي ونقْد استجابات القارئ

من الذين ألفوا في استجابَة المتلقي: جين ب.تومبكنز، الذي جَمَع مقالات لكتاب ونقاد في موضوع التلقي، وألف كتاباً جماعيا، عنوانُه: نقد استجابة القارئ، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية[1].

لقَد أصبحَت مفاهيمُ كالمؤلفين والمتكلمين والقُرّاء والقراء الصّوريين، والاعتقاد في النص، ونقد النص، ونقد استجابَة القارئ للنص... من المفاهيم الرئيسة في قضية القراءَة والتلقي والتأويل، بل أصبَحَت مقولةُ: "نقد استجابة القارئReader-Response Criticism "، ركناً من أركان نظرية ستانلي فيش الوجودية، ونظرية إيزر في جمالية التلقي، وأهم ما طبَعَ نظريات التلقي وميّزها عن النظريات النقدية السابقَة، نبذُ مقاصد المؤلف عموماً، وحصر المَعْنى في المتلقّي للنص. و لهذا تسمى نظريته بنقد استجابَة المتلقي، مَثلاً : يزعم ستانلي فيش أن الجماعة المؤولة هي التي تُنشئُ واقع النص، وهي التي تسبغ على النص معنى. غير أنّ هذا المَعْنى ليسَ للنص، بل للقارئ ، أو للجماعة القارئة . فمَعاني النص يُنشئُها القارئُ، لأنّ القارئَ مركزُ اهتمام كلّ تأويل، والمَعْنى الذي يكشفُه القارئُ ليسَ شيئاً يتوصّلُ إليْه بل هو أمرٌ يحملُه في نفسه ويُعدّ جزءاً من رؤيته وتصوُّره ومهاراته، فلا وُجودَ لأساس ثابت للمعنى. ولا وجودَ لتأويل صحيح مُطلقاً؛ لأن المَعْنى عندَه لا يوجد في حيّز معيّن، ولكنّه قائمٌ في ذاتِ القارئ. ويتحصّل من هذا التصّور النسبيّ أنّ المَعانيَ التي يولّدُها القارئُ يدخلُ في توليدها وتشكيلها والتأثيرِ فيها السياقُ الاجتماعيُ أيضاً؛ إذ كلُّ تفكير أو معرفةٍ أو تأويلٍ لا ينبثقُ إلاّ من السياق الاجتماعي الذي يُحيطُ بالقارئ.

فإذا أُسنِدَتْ للقارئ قراءةٌ مُعتمَدَةٌ مركزيّةٌ فإنّه يُعدّ مسلكا وواسطة لحُضور المُجتمَع الذي يعيشُ هو فيه، بثقافته ورؤاه وتقاليده وعَقائده.

[1] **Reader-Response Criticism: From Formalism to Post-Structuralism**. The Johns Hopkins Press Ltd. London; 1980

إعادَة النظر في بعض قَضايا نظريَات التّلقّي

المَقصودُ بذلكَ: ضرورةُ إعادة النّظر في أوضاعِ الأطرافِ الثّلاثَة المَعنيّة بإشكالِ النّصّ : المُلْقِي والمُتلقّي والنّصّ وذلك بإدماجِ المُلْقي في التّركيبَة الجَديدَة وعَدّه الرّكنَ الأوّلَ المُنتجَ المُعتمَدَ في تأويل النّصّ أو على الأقلّ المُسْتَعان به في التّأويل.

وعندَما نَقولُ الأطراف الثّلاثَة المَعنيّة بإشكالِ النّصّ فلا نحصرُ نَظَرَنا في التّصوّر البسيط أو المُبسَّط لعمليّة إبداع النّصّ وتلقّيه وتّاويله، ولكنّا ننظرُ إلى المسألَة من زاويةٍ أكبرَ وأشمَلَ وأعمَقَ ، فالأركانُ الثّلاثَةُ ليسَت مجرّدَ كاتبٍ مبدعٍ وقارئٍ متلقٍ ونصٍ مُلْقًى به ، ولكنّها ثلاثُ مؤسّساتٍ فكريّة إبداعيّة نفسيّة اجتماعيّة تتضافَرُ وتتعاوَنُ وتتحاورُ في عمليّة تواصليّة حِجاجيّةٍ متكاملةٍ متماسكةٍ مؤتلِفَة. لا بدّ من عَقد الصُّلح مَعَ الركن التّقليديّ الذي هو صاحبُ النّصّ ، وفكّ الطّوق البنيويّ عَنه وإخراجِه من قَبضةِ السّجنِ والإهمالِ والنَّبْذِ والمُلْقي أو المُؤلّفُ نَوعان: مؤلف نَمطي ومؤلفٌ ضمنيّ، أو إن شئتَ فقُلْ: هما مُؤلفٌ تقليديّ بالمَعْنى الزّمنيّ وآخَرُ مُتطوّر يستوعبُ العصرَ وإشكالاته ويكون في مستوى تَطلُّعاتِ مؤسّسةِ المتلقّي، ويُعوّلُ كثيراً على هذا القارئ الضّمنيّ الافتراضيّ المتطوّر.

النص والكاتب :

أفكارُ الكاتب عَلى طَبَق مِن نَصٍ

ما من كاتبٍ إلاّ ويتقدّمُ إلى قارئه، أو يُقدّمُ نفْسَــه إليه، **على طَبَقٍ من لُغةٍ**، فمَطيّتُه الألفاظُ والتّراكيبُ والمَجازاتُ والاستعاراتُ، ولعلّ السَّببَ في ذلِكَ أنّ رُتبةَ الوُجودِ التي يتمتّعُ بها اللّفظُ –في وَهْمِ المُتكلّمِ- أرْقى وأكثرُ واقعيّةً من رُتبةِ وُجودِ الشّيءِ، وأنّ «العالَم الإنسـانيّ ليسَ عالَمَ إحســاســاتٍ ورُدودِ أفْعالٍ بَل هو **عالَمُ أفكارٍ وتَحْديداتٍ لفظيّةٍ**»[1]؛ وذلِك لأنّ الكلمةَ تخْلَعُ على الشــيءِ ذاتيتَه ووُجودَه [2]، وتُتيحُ للإنســانِ الانتقالَ من حالَةِ الاضْــطرابِ والفَوْضى إلى حالةِ النّظامِ، وأن يتصــرّفَ بالكلمةِ من بُعْد، وهو مُنفصلٌ عن عالَم الأشـياءِ، يُقلّبُ العالَمَ كيفَ يَشــاءُ، فيُحَسّــنُ القَبيحَ باللّغةِ إذا أرادَ، أو يُقَبّحُ الحَسَــنَ، فرُبّ قُبْحٍ عندَ شــخصٍ هو حُســنٌ عندَ غيْرِه، وقد يكونُ وهماً عندَ ثالثٍ. وباللُّغةِ أيضــاً يُركّبُ من القِطَعِ المُتَباعداتِ بناءً مُتّســقاً وعالَماً متحضّــراً؛ إذْ يُحوّلُ التّجارِبَ والفِكرَ والذّكْرى إلى عالَمٍ من المَقالاتِ، ومهمّةُ تلكَ المَقالاتِ والعباراتِ أنّها تؤلّفُ بين الأشياءِ وتُركّبُ وتُعدّلُ وتُقدّمُ وتؤخّرُ. فالكلمَةُ قُوّةٌ نافذةٌ مؤثّرةٌ ومُغيّرةٌ قبْلَ أن تَكونَ مُجرّدَ تســميةٍ مَوضــوعيّةٍ، وحَقيقَةُ الكلمةُ قائمةٌ في ذاتِ الكاتبِ أكثرَ منْ مُثولِها في ذاتِها، فهي مُتلبّســةٌ بِذاتِه مُتحرّكةٌ بحركتِه ســاكنةٌ بسُــكونه، إنّها فعلٌ قبلَ أن تَكونَ قولاً، وتَحملُ دلالةَ الفعلِ قبلَ أن تَكونَ أصْــواتاً تَذهبُ أدْراجَ الرّياحِ. وعندَما نَقولُ إنّ الكلمةَ تحملُ مَعْنىً مُعجمياً لازماً لَها عندَ إطلاقِ اللّفظِ، فهي لا تُغيّبُ عن أذهاننا أنّها تَخرجُ عن هذا الوَضعِ الدّلاليّ إلى أوضــاعٍ أخرى فتَبْدو جَديدةً كلّما تكلّمَ بِها متكلّمٌ أو اســتعْمَلَها مُســتعملٌ. بَل تجدُ المتكلّمينَ بلغةٍ من اللّغاتِ يُهرَعونَ إلى الكناياتِ عَمّا يُستهْجنُ ذِكرُه ويُستقبَحُ نشـرُه، أو يُسـتَحْيا من تسـميتِه، أو يُتطيّرُ منه، أو يُصانُ عنه، بألفاظٍ مَقْبولةٍ تُفصحُ عن المَعْنى وتُحسّـنُ القَبيحَ وتُلطّفُ الكَثيفَ، في مُذاكَرَةِ ذَوي المُروءَةِ، فيَحْصُـلُ المُرادُ مَع العُدولِ عَمّا يَنْبو عنه السّـمعُ ولا يأنسُ بِه الطّبْعُ، إلى غيْرِه ممّا يَقومُ مَقامَه مع زيادَةٍ في الحَياءِ والحُسْنِ.

---

[1] **مُشكلةُ الحَياة**، زكريّا إبْراهيم. **سلسلة مُشكلات فلسفيّة** (7)، مَكتبَة مصر، دار مصر للطّباعَة، القاهِرَة. ص:68 وما بعْدَها.

[2] ولكنّ هذا الصّفةَ الرّفيعةَ التي توجَدُ في اللّغةِ لا تَعْني أنّها هي التي توجِدُ عالَمَ الأشياءِ، فالعالَمُ ماثلٌ، مَوْجودٌ، موضوعياً.

فهذه حَقيقةٌ من حَقائقِ الكلماتِ والألفاظِ والعباراتِ وغيْرِها من الأدواتِ اللّغويّةِ التي يتوسّلُ بِها المتكلّمُون وحَمَلَةُ الأقْلامِ، لكي يُسمُّوا أحوالَهُم الشّعوريّةَ وذِكْراهُم الماضيةَ بأسماءٍ معيَّنَةٍ، فيَسِمُوها بميسَمِ اللّغَة، ويُخرِجُوها من إبهامِ النّفسِ والزّمنِ الغابِرِ إلى وُضوحِ الكلماتِ.

وعندما يكتبُ الكاتبُ فإنّه يُشارِكُ الناسَ هُمومَهم وأحزانَهم ويَشترِكُ في مُعالجَة أمورِ الحياةِ وحلّ مُشكلاتِها، ويَقترحُ من الحُلول ما أنضجتْه قُدورُ تَجارِبه، وأسْفرَ عنه صُبحُ عُمرِه، فإذا اختلَفوا عليْه وأنكروا رأيَه اعتزَلَهم فصارَ وحيداً، كأنّه أمّةٌ في فردٍ ولُمعَةٌ من بطنِ برقٍ ورَعْد. أجَلْ، يَحرصُ على الالتحاقِ بركْبِ الأحداثِ والغَوصِ فيها حتّى الرُّكب، ومُواكبَةِ وَقْعها وإيقاعِها، بل المُشارَكةِ في صنعِها أو جَبرِ مَكسورِها وتصحيحِ مُعْوَجِّها، وإنّما يُسهِمُ الكاتبُ – في مُشاركَته- **بصُنعِ المفاهيم** التي بها تُتناوَلُ الإشكالاتُ ويُنفَذُ منها إلى التّحليل والمُعالجَة، فتكونُ **لغتُه التي منها اشتقاقُ مَفاهيمِه** ويَكونُ ما أبدعتْهُ مُفكّرتُه ومُخيّلتُه وناطقَتُه، حظَّه الذي يَملكُ من صنعِ الحَدَث أو توْجيهه وتَقويمه والانفتاحِ على مُمْكناته، لأنّه يَعلمُ أنّ **الكلمةَ مسؤوليّةُ مَن يَملكُ زمامَها** ويُحسنُ نظمَها على النّحو الذي يُنشئُ بها نَسَقاً مؤتلِفاً مَسبوكاً حسنَ الصّنعَة، **يكونُ نصّاً لغويّاً ثمّ يُفضي إلى خطابٍ تَدخلُ في تداوُله أطرافٌ كثيرةٌ**، فتصيرُ حَرَكَةُ الانسلاكِ في تَداوُل القَضايا في ظلّ خطابٍ لغويّ، عيْنَ الاشتراكِ في صنع الحَدث أو تَوجيهِ مَصنوعِه. والكاتبُ إذا انفتحَ على المُمكناتِ فإنّما يَفعلُ ذلكَ بما يَملكُه من طاقةٍ لغويّةٍ تُعربُ بالدّقّة اللازمَةِ عن طاقةٍ فكريّةٍ نافذةٍ في جسمِ الأحداث وخضمِّها، فتكونُ الأحداثُ الممكنةُ والمَخارجُ المُحتَمَلَةُ التي لم تحدثْ بعدُ عبارةً عن مَفاهيمَ في كلماتٍ. وكلّما أخذَتْ المَفاهيمُ اللُّغويّةُ حظّها من الواقعيّةِ والصّدقِ والتّماسُك المَنطقيّ والمصلحَة العامّة، تحوّلَت من ألفاظٍ ذاتِ طابعٍ صوتيّ يحملُ في جوفِه دَوالّ ومَدلولاتٍ إلى أحْداثٍ تَجْري في واقعِ النّاسِ وتُتداوَلُ في مَسالِك حَياتِهم وتُصنَعُ منها القراراتُ السّديدُ التي تَقودُ رَكبَهُم أو توجّهُ مَسيرَتَهُم وتتحكّمُ في طرُق عيشِهم وتنميةِ أوضاعِهم...

الإجْحافُ في القراءَة :

جَحْفُ الشيءِ قَشْرُه. والجَحْفُ أَخْذُ الشيء واجْتِرافُه، والجَحْفُ شِدّةُ الجَرْفِ إلاّ أن الجَرْفَ للشيء الكثير والجَحْفَ للماء والكُرَةِ ونحوهما. وجَحَفَ الشيءَ بِرجْله يَجْحَفُه جَحْفاً إذا رَفَسَه حتى يرمي به.

هذه مَعاني مادَّة جَحَفَ. وإذا نَقلْناها إلى القراءَةِ انتقَلَتْ وظَهَرَتْ بلاغتُها في التعبيرِ؛ والمثالُ الذي يُمكنُ تَقديمُه هنا : أنّ كثيراً من قُرّائنا وأئمتنا الذينَ يَتلونَ القرآن الكريمَ يُجْحفونَ عندَ قراءَة كثير من الحُروفِ: وأكثرُ الأصواتِ تعرُّضاً للإجْحافِ الفَتْحَةُ المُصاحبةُ للحَرْفِ والسابقَةُ على السُّكونِ، نحو تَسكين واو القَسَم في: "وَالضُّحَى" "والسماء والطارق"، وتسكين الجيم في "جَلاَّها، تسكين الباءِ في "إلاَ بَغْتَةً"، فأَصَّدَّقَ [تسكينُ الصَّادِ الثانية وتَعريضُها للإجحاف]، ولَا الضّالّين [تسكينُ اللام في "لا"]........ فيظنُّ الذي لا يَعلَمُ بالخَبَر، عندَ سَماعِه القراءَةَ المُجحفةَ، أنّ "للقُرَّاء المُجحفينَ" قراءةً خاصّةً.

والإجحافُ ظُلمٌ وتَجْريدٌ من الحَقِّ فَمَن ظَلَمَ الحَرفَ فأخرَجَه من إعرابه إلى سُكونٍ فقَد طَمَسَه طَمْساً وأنزَلَ به من الأذى ما يَمحوه من موقعِه، فَماذا يَضيرُ القارئَ لَو نَطَقَ الحَرْفَ مَفْتوحاً فتحةً بَيّنَةً كاملةً مُسْتَوْفاةً ؟ والغالبُ أنّ آفَةَ الإجحافِ يَرتكبُها مَن حَفظَ حفظاً مُجَرَّداً عن قَواعد التِّلاوَةِ أو قَوانين القراءَة والنُّطقِ عامةً، فلَم تَقترِن القراءةُ -عندَه- بقَواعد إخراجِ الأصوات والنُّطقِ بها.

أنموذَجٌ من قَضايا التلقي :

النَّسَقُ القرآنيُّ الكلّيّ وأنساقُنا الذّهنيّة الجزئيّةُ

سأثيرُ مشكلةً تتعلّقُ بالتّلقي، تلقّي المَرء للخطابِ القُرآنيّ بأدواتٍ ضعيفةٍ ضحلةٍ أغلبُها خَواطرُ وأوهامٌ:

كَثيراً ما نَشكو العَجزَ عن مُتابَعَة المَعاني القُرآنيّة الدّقيقَة والرَّبط بينَها وتأليف المَعْنى العامّ، عندَ التلاوَة، وقد يَخرُج الواحدُ منّا من القراءَة كَما دَخَلَ فلا يَعقلُ مَعْنى ولا يقفُ على جَواهرَ ودررٍ، وأنّه إنْ عَزَمَ على اكتشافِ بعضِ تلك المَعاني فعلَيْه أن يَكتفيَ بتدبّر بعض الآياتِ فقط، والاستعانةِ بأمّهات التّفاسيرِ...

والذي يَبدو في تَفسير أسبابِ هذه المُشكلةِ، أنّ أحَدَ الأسبابِ ذاتيٌّ مَحضٌ، ومفادُه أنّنا لا نَقْوى على مُوافَقَة الأنساق اللغويّة والبلاغيّة والمنطقيّة والرّوحيّة العَميقَة التي تُؤلّفُ مُجتمعةً نَسَقَ الخطابِ القرآنيّ، ولا نَقَعُ عليْها ولا نُواكبُها سرعةً وعُمقاً وقوّةً؛ فأنساقُنا الذّهنيّة بَطيئةُ الحَرَكَة مُهلهلَة النَّسْجِ مَعطوبةٌ بكثرة أحوال المادّة ومَطالبِ الجسمِ والرُّكون إلى العاداتِ القَديمَة في تَفسيرِ الأشياء، ولذلك تحتاجُ الأنساقُ الذّهنيّةُ منّا لاسْتصلاحِها إلى تَرويضٍ مُستمرّ وتَدريبٍ متواصلٍ على الغَوْصِ على مثلِ هذه الهَيْئاتِ الخَفيّةِ واستكشافِ تلك الأنْساقِ والنُّظُم الدّقيقَة المَحجوبَة، ولا شَكَ أنّ عَجزَنا راجعٌ إلى الانجذابِ إلى هَيئاتنا العقليّة السَطحيّة البسيطة في الرؤيةِ والتّفكيرِ، فكلُّ ما حَوْلَنا يَحولُ دون غَوصِنا ويجذبُنا لنطْفُوَ عَلى سطح الأمور وسذاجة التّفكير، حتّى أهواؤُنا ومشاغلُنا ومُحيطنا المتغيّر كلُّ أولئكَ يزيدُ في الشّدّ والتّقييد.

وبناءً على هذه العلّة يتعيّنُ على كلّ قارئٍ أن يَتجرّدَ من نزوعه الذّاتي بل يروّض نفسَه على سرعة التّخلّصِ من الانكفاء إلى باطن ذاته التي تَحجبُ عنه الحَقائقَ، ولا يَزالُ المرءُ يتدرَّبُ المرّة تلو الأخرى حتّى يَكتسبَ بعض المَهارَة في الانفكاك من أحوال الذّات السّطحيّة والمقامات المتغيّرة ويَلتحقَ بركبِ المَعاني القرآنيّة العَميقَة.

ثقل الأمانة المنزلة عبر الخطاب القرآني تستلزم خفة أحوال الروح والفكر، أما الهبوط المادي والروحي فلا يمكن من حمل الأمانة الثقيلة التي تنوء بحملها الجبال الشم.

إذا تمَّ له هذا اليُسرُ والسّلاسَةُ في الانفكاكِ عن ذاته ووُضوحِ الرّؤيَة فسيُدركُ أنّ القرآنَ الكريمَ ألّفَ كثيراً بينَ المَعاني المُختَلِفَة في السّورَةِ الواحدَةِ، وألقى بيْنَها تَداعياً معْنويّاً ونَظميّاً، ولَمْ يكُن يَستَرْسِلُ في الحَديثِ عَن الجِنْسِ الواحِدِ اسْترسالاً يَبعثُ عَلى المَلَل، ولَم يكُن يَنتَقلُ من مَعْنىً إلى آخَرَ انتقالاً يُخرجُه إلى حَدّ المُفارَقاتِ التي تَجْمعُ أشتاتاً من غيْرِ نِظامٍ. فَلَم يكُن يَدَعُ الأجناسَ المختلفةَ والأضدادَ المُتباعدَةَ حَتّى يُجاورَ بيْنَها ويُبرِزَها في صورَةٍ مُؤتَلِفَةٍ، وحتى يجعلَ من اختلافِها نَفسِه قوامًا لائتِلافِها؛ فَتقويمُ النَّسَقِ وتَعديلُ المزاجِ بين الألوان والعناصرِ المُختلِفة أشدُّ عناءً من تَعديلِ أجزاءِ العُنصُرِ الواحدِ.

فالعِبْرَةُ في كلّ ذلِك: النّظرُ إلى النّظامِ المجْموعِ والسّلْكِ العامّ المُنتَظم. وقد ضَربَ الأستاذُ محمّد بن عَبد الله دَرّاز، رَحمَه الله، مثلاً بسورةِ البقَرَة، فهيَ سورةٌ عَلى طولِها تَتألّفُ وحْدتُها منْ مُقدّمةٍ، وأربَعةِ مَقاصدَ، وخاتمةٍ. فأمّا "المقدِّمةُ" فَفي التّعريفِ بِشأنِ القرآنِ الكَريمِ، وبَيانِ أنّ ما فيهِ مِنَ الهدايَةِ قدْ بَلغَ حَدًّا منَ الوُضوحِ لا يَترَدَّدُ فيه ذو قَلبٍ سَليمٍ. وإنّما يُعرِضُ عَنه مَن لا قَلبَ لَه، أو مَن كانَ في قَلبِه مَرضٌ[1].

---

[1] بَسَطَ صاحبُ "النّبأ العَظيم" بَيانَ نِظامِ عِقْدِ المَعاني في سورةِ البَقَرَةِ، في سبعٍ وأربَعينَ صفحةً: من ص:163 إلى ص:210

مسألة بَلاغيةٌ في الجهل بمَكان الإساءَة :

من بلاغة نَقد الشّعر: وَضعُ اليَد عَلى ما لَحَنَ فيه الشُّعراءُ وهُم لا يَشعُرون

1- لكلّ علمٍ أصولٌ وقَوانينُ مُتواضَعٌ عليها، يُبْنى عليْها ويُعتَصَمُ بها ويُرجعُ إليْها عند الاختلاف والخطإ. وإذا تكلّمَ المتكلّمُ قيسَ كلامُه بمقياسِ تلك القَوانينِ فإن وافقَها فقَد وافقَ الصّوابَ وإن خرجَ عليْها فقَد جانبَ الصّواب إلاّ ما كانَ من وُجوه معلَّلة بصحّة الضّرائر؛ فالمقاييسُ مُعوّلٌ عليها في الحِجاجِ والاستشهادِ، ولا يَكفي في سلامَةِ القولِ أن يُقالَ إذا صَفَت القَرائحُ وصحَّت الأذواقُ: حسُنَ الكلامُ وارتقى في مَراقي البَلاغَة والفَصاحَة والسّلامة.

ثمَّ لا يَكفي الأديبَ أن يَجتهدَ في لُزوم القَواعدِ ويدَّعيَ الإحاطةَ بالقَوانين حتّى ينجُوَ من آفةِ الشُّبهَةِ في القولِ ومُجانبَة الصّوابِ.

ولقَد حرّرَ عُلَماءُ القول البَليغِ والنُّقادُ الصّحائفَ في الكشف عن مَزالق النظم والتركيب واستخراجِ دقائق هفواتِ اللغة والنّحو ممّا لا يَكادُ يَتَراءى للنّاظر فيه شبهةٌ.

وكانَ لنقّاد الشّعرِ إسهامٌ كبير في تأصيل قواعدَ لنقد الشّعر، منهُم الأصمعيّ في فُحولَة الشّعراء، وابنُ سلاّم الجُمَحي (ت.231هـ) في طَبَقات فُحول الشّعراء، والجاحظُ (ت.255هـ) في البيان والتّبيين والحَيَوان، وابنُ قتيبَةَ في الشّعر والشّعراء (ت.276هـ) وأبو العَبّاس المبرّد (ت.285هـ) في قَواعد الشّعر، وأبو العَبّاس ثَعلَب في قواعد الشّعر أيضاً، وابنُ المعتزّ (ت.296هـ) في البَديع، وأبو هلال العَسكريّ في الصّناعتَيْن، وابنُ رشيق في العُمدة، وابنُ سنان الخَفاجيّ في سرّ الفَصاحَة، وقُدامَة بنُ جعفَر في نَقْد الشّعر (ت.327هـ)...

وقسّموا العلمَ بالشّعر إلى علم بالعَروض والوزن والقَوافي والمقاطع، وعلم بالغَريب واللّغَة والنّحو، وعلم بمَعاني الشّعر وأغراضه وَمقاصد الشّعَراء، وعلم بالجيّد والرّديء.

وكانَ للغَة الشعرِ ومطابقَتها للقَواعد حُضورٌ كبيرٌ في نقد النقّاد؛ فَما من شعرٍ لا يَجري على سبيلِ الإعرابِ واللغةِ إلاّ ويَكونُ عُرضةً للحن ومظنّةً للخطأ.

2- من ذلكَ قولُه: « وإنّكَ لتَنظرُ في البيتِ دَهراً طَويلاً. وتُفسّرُه ولا تَرى أنّ فيه شَيئاً لم تَعلَمْه. ثم يَبدو لكَ فيه أمرٌ خَفيٌّ لم تَكن قَد عَلِمتَه. مثالُ ذلكَ **بيتُ المتنبي**. [الكامل]:

عَجَباً له حَفِظَ العِنانَ بأنمُلٍ *** ما حفْظُها الأشياءَ مِن عاداتِها

مَضى الدّهرُ الطويلُ ونحنُ نقرؤه، فلا نُنكِرُ منه شَيئاً، ولا يَقعُ لنا أنّ فيه خطأً، ثم بانَ بأخَرَةٍ أنّه قد أخطأ. وذلكَ أنه كانَ **ينبغي أن يقولَ: ما حفْظُ الأشياءِ مِن عاداتِها فيُضيفُ المصدرَ إلى المفعول، فَلا يَذكُر الفاعلَ. ذاك لأن المعنى على أنه يَنفي الحفظَ عن أناملِه جملةً، وأنه يَزعمُ أنه لا يكونُ منها أصلاً. وإضافَتُه الحفظَ إلى ضَميرِها في قولِه: ما حِفْظُها الأشياءَ، يَقتضي أنْ يكونَ قد أثبتَ لها حفظاً.** ونظيرُ هذا أنَكَ تقولُ: **ليسَ الخُروجُ في مثلِ هذا الوَقتِ من عادَتي**، ولا تقول: **ليسَ خُروجي** في مثلِ هذا الوَقتِ من عادَتي. وكذلك تقولُ: ليسَ ذَمُّ النّاس مِن شَأني، ولا تقولُ: ليسَ ذَمّي النّاسَ مِن شَأني. لأنّ ذلكَ يوجبُ إثباتَ الذّمّ ووُجودَه منكَ.

ولا يصحُّ قياسُ المصدرِ في هذا على الفعلِ، أعني لا يَنبغي أن يُظَنَّ أنّه كَما يجوزُ أن يُقالَ: ما مِنْ عادَتِها أن تَحفَظ الأشياءَ، كذلكَ يَنبغي أنْ يَجوزَ: ما مِنْ عادَتِها حِفْظُها الأشياءَ. ذاكَ أنّ **إضافَةَ المصدرِ إلى الفاعلِ يَقتضي وُجودَه**، وأنّه قد كانَ منه. يُبيّنُ ذلكَ أنّكَ تَقولُ: أمَرتُ زَيداً بأن يَخرجَ غَداً ولا تَقولُ: أمَرتُه بخُروجِه غداً.»[1] .

3- ومما أخطأ فيه الشعراءُ ما هو غايةٌ في الخفاء كقول المتنبّي، [البسيط]:

ولا تَشَكَّ إلى خَلْقٍ فتُشمِتَه * شَكْوى الجَريحِ إلى الغِربانِ والرَّخَمِ**

الشكوى مَفْعولٌ مطلقٌ أو نائبٌ عنه لاختلاف الصيغَة وإن اتّحد الأصلُ المعجميّ، والأصلُ أن يَقولَ: لا تَشكَّ تَشَكِّيَ الجَريحِ... أمّا وجه الخَلل في التّركيبِ أنّكَ « إذا قُلتَ: لا تَضْجَرْ ضَجَرَ زيدٍ، كُنتَ قد جعلتَ زيداً **يَضْجَرُ ضَرباً مِن الضَّجَر** مثل أنْ تجعَلَه يُفْرِطُ فيه أو يُسرعُ إليه. هذا هو موجِبُ العُرف. ثمّ إنْ لم تَعْتَبِرْ خُصوصَ وَصفٍ، فلا أقلَّ من أن تَجعلَ الضَّجرَ على الجُملة من عادَتِه، وأن تجعلَه قد كانَ منه. وإذا كان كذلكَ اقتضى قولُه:

شَكْوى الجريحِ إلى الغِربان والرَّخَمِ

---

[1] عبدُ القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، 1410-1989، ص:551-552

أن يكونَ هاهنا جَريحٌ قد عُرف من حالِه أن يكونَ له شَكوى إلى الغِرْبان والرخم، وذلك محالٌ. وإنما العبارةُ الصحيحةُ في هذا أن يقال: لا تَشَكَّ إلى خَلْقٍ فإنّكَ إن فَعَلتَ كان مَثَلُ ذلكَ مَثَلَ أن تُصوِّرَ في وَهمك أنّ بَعيراً دَبِراً كَشَفَ عَن جُرحِه، ثمّ شَكاه إلى الغِرْبانِ والرَّخَم.»[1]

4- عُيوبُ اللفظ:

أحصى النّقادُ على الشُّعراءِ عُيوباً لفظيّةً؛ منها أن يأتيَ اللفظُ مَلحوناً وجارياً على غَير سَبيل الإعراب واللغة، وقَد اسْتقصى هذا الفَنَّ أصحابُ الصّناعَةِ النّحويّة، منها أن يَرتكبَ الشّاعرُ ما ليس يُستَعمَلُ إلاّ شاذاً، وذلكَ هو الحوشيُّ الذي مَدحَ عُمرُ بنُ الخطّاب زُهيراً بمُجانَبتِه له وتَنكُّبِه إيّاه، فَقال: كانَ لا يتتبعُ حوشيَّ الكلامَ.

وهذا الباب مُجَّوزٌ للقُدماء، ليس من أجل أنه حَسنٌ، لكن من شُعرائهم مَن كانَ أعرابياً قد غَلبَت عليه العَجرفيَةُ، ومسَّت الحاجَةُ إلى الاسْتشهادِ بأشعارهِمْ في الغَريب، ولأنّ مَن كان يأتي منهُم بالحوشيِّ لم يكُن يأتي به إلاّ على جِهة التّطلُّب والتّكلُّف لما يستعمله منه، لكن بعادَتِه وعلى سَجيّة لَفظِه. فأمّا أصْحابُ التّكلفِ لذلك، فهم يأتونَ منه بما يُنافِرُ الطّبعَ وينبو عنه السّمعُ...»[2]

5- وممّا خطّأ فيه النّقّاد واللّغويّونَ الشعراءَ مواضعُ الضّرائرِ الشّعريّة؛ فهذا أبو العبّاس المبرّد يردُّ على مَن يمنَعُ الاسمَ المنصرفَ من الصّرفِ:

وهذه قاعدةٌ لا يَكاد يختلف فيها النحويونَ؛ فللضَّرورَة وجْهٌ يجِبُ أَنْ تُخرَّجَ عليه، وإلاّ عُدَّ الخروجُ خَرْقًا لا سَندَ لَهُ ولا مُسَوِّغَ. قالَ سيبَوَيْه: « ولَيْسَ شَيْءٌ **يُضْطَرَونَ** إلَيْهِ إلاّ وهُمْ **يُحاوِلونَ بِهِ وَجْهًا**» (4) . وقالَ السِيْرَافِيُّ مُفَصِّلاً: « وليْسَ في شيءٍ مِنْ ذلِكَ رَفْعُ مَنْصوبٍ، ولا نَصْبُ مَخفوضٍ، ولا لَفْظٌ يكونُ المتَكَلّمُ فيه لاحِنًا، ومَتى وُجِدَ هذا في شِعْرٍ كانَ ساقِطًا مُطّرَحًا ولم يَدْخُلْ في بابِ الضَّرورَةِ»(5)، وقالَ المُبَرِّدُ: « «واعَلمْ أنّ الشّاعرَ إذا اضْطُرّ صَرَفَ ما لا يَنصرفُ. جازَ له ذلكَ؛ لأنَه إنّما يَردُّ الأسماءَ إلى أصولِها. وإن اضْطُرّ إلى تَركِ صرفِ ما يَنصرفُ لم يجُزْ له ذلكَ؛ وذلكَ **لأنَ الضَرورةَ لا تُجوِّزُ اللّحنَ**، وإنّما يجوزُ فيها أن تردَّ الشّيءَ إلى ما كانَ له قبلَ دُخولِ العلّة، نحو قَولكَ في رادٍّ إذا اضطُرِرْتَ إليه: هذا رادِدٌ؛ لأنّه "فاعلٌ" في وَزن ضارِب، فلَحِقَه الإدْغامُ، كَما قالَ قعنب:

---

[1] نفسُه: ص: 552-553

[2] قُدامة بنُ جَعفر، **نَقْد الشّعر**، تحقيق: محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، ص:172

مَهلاً أَعاذلَ قد جربتِ من خلقي * إني أجُود لأقوامٍ وإن ضَنِنُوا**

لأن ضَنّ إنما هو ضَنِنَ، فلحقه الإدغام »[1]، فضاعَفَ ما لا يجوزُ أن يُضاعَفَ في الكلام،

وكلُ ضرورة ألجأت الشاعرَ إلى مخالَفَة أصل القاعدَة أدّت إلى لَحنٍ[2]، من ذلكَ قولُ العبّاس بن مرداس السّلميّ:

فَما كانَ حصنٌ ولا حابسٌ * يَفوقانِ مِرْداسَ في مَجْمَع**

انتقَدَه المرزبانيّ (ت.384هـ) في كتابه: المُوَشَّح في مآخذِ العُلَماء على الشّعراء، وقال: « وهذا قَبيحٌ لا يَجوزُ ولا يُقاسُ عليه لأنّه لَحنٌ[3].

وعابَ المرزبانيّ أيضاً على الفرزدَق قولَه:

فلو كانَ عبدُ الله مولىً هجوتُه * ولكنَّ عبدَ الله مَوْلى مَواليا**

فنصبَ المَوالي. وعابَ على الشاعر رفعَ المضارع المجزوم بلَم:

ألَم يأتيكَ والأنباءُ تَنمي * بما لاقَت لَبونُ بنُ زياد**

وحذفَ الشاعرُ الإعرابَ وليسَ بالحسن، أنشَدَه سيبويه:

فاليومَ أشْربْ غيرَ مُستحقِبٍ* إثماً من الله ولا واغل**[4]

وهكذا فَقَد انتقَد العُلماءُ ارتكابَ الشعراءِ عيوباً نحويةً وصرفيةً في التقديم والتأخير وتصغير ما لا يُصغَّر في الكَلام، ومضاعة ما لا يَجوز أن يُضاعَفَ...

---

[1] سيبويه: **الكتاب**: 32/1 .

[2] السّيرافيّ، "**شَرْحُ كِتابِ سيبَوَيْه**" : 2/95-96 . و "**ما يَحْتَمِلُ الشِّعْر مِن الضَّرورَة**" : 34 .

[3] أبو العباس المبرّد، **المقْتَضَب** : 354/3 . و: أبو عُبَيد الله محمَد بن عِمرانَ المرزُبانيّ **الموشّح في مآخِذِ العُلَماء على الشُّعَراء**، نشر: جمعيّة نشر الكُتب العلميّة، المطبعة السّلفيّة، القاهرة، 1343، ص: 94.

[4] المرزبانيّ: **الموشّح في مآخِذِ العُلَماء على الشُّعَراء**، ص: 93-96

من النحو إلى المَعْنى

قُيودُ النفس وأغلالُها تُلجئُ الشاعرَ إلى أدوات العَطف والتعليق والإضافَة. قد يَقولُ القائلُ: هو أحوجُ إلى الانفكاك من قُيود النفس فكيف يلجأ إلى قُيود اللغة: الجَوابُ أنه مؤتَمَنٌ على إيصالكَ مأساتَه ومُعاناتَه وقُيودَه أيها القارئ، وله بعد ذلك أن يَنعتقَ ويَنطلقَ.

اللغةُ وسيلَةُ تَشكيل الصورَة الشعريَة، والصّورَةُ الشعريةُ وسيلةُ تَوليد اللغة وتَوسيعها، فهما معاً وسيلةٌ وغايةٌ، وعندَما تَكون الغايةُ والوسيلةُ من مَعدنٍ واحدٍ، يَزدهرُ الإبداعُ. فيرى الشاعرُ العالَمَ شعراً ولغةً، ويَرى اللغةَ عالَماً ومَشاعرَ. وإذا حُرمَ إحداهُما توقَّفَ عن الإحساس والعبارَة مَعاً.

الشعرُ الصحيحُ الفصيحُ يُحسنُ الوسيلةَ والغايةَ، وتَجدُ الروابطَ اللغويةَ تنقلُ إلى القارئ الروابطَ النفسيةَ، وكلما انبَهَمَ الشعورُ تعمقَت الصورَةُ الشعريةُ وأحوجَت القارئَ إلى الغوص وإعمال الفكر. فاللغة أختُ المشاعر، وكل واحدة منهما تنظرُ إلى الأخرى كالمُطلَّةِ في المرآةِ على وجهها.

أنموذج من قَضايا التلقي : النَّسَقُ القرآنيُّ الكلّيّ وأنساقُنا الذّهنيّة الجزئيّةُ:

سأثيرُ مشكلةً تتعلّقُ بالتّلقّي، تلقّي المَرءِ الخطابَ القُرآنيَّ بأدواتٍ ضعيفةٍ ضحلةٍ أغلبُها خَواطرُ وأوهامٌ :

كَثيراً ما نَشكو العَجزَ عن مُتابَعَة المَعاني القُرآنيّة الدّقيقَة والرّبط بينَها وتأليف المَعْنى العامّ، عندَ التلاوَة، وقد يَخرُج الواحدُ منّا من القراءَة كَما دَخَلَ فلا يَعقلُ مَعْنى ولا يقفُ على جَواهرَ ودررٍ، وأنّه إنْ عَزَمَ على اكتشافِ بعضِ تلك المَعاني فعلَيْه أن يَكتفيَ بتدبّر بعض الآياتِ فقط، والاستعانةِ بأمّهات التّفاسير...

والذي يَبدو في تَفسير أسبابِ هذه المُشكلةِ، أنّ أحَدَ الأسبابِ ذاتيٌّ مَحضٌ، ومفادُه أنّنا لا نَقْوى على مُوافَقَة الأنساق اللغويّة والبلاغيّة والمنطقيّة والرّوحيّة العَميقَة التي تُؤلّفُ مُجتمعةً نَسَقَ الخطابِ القرآنيّ، ولا نَقَعُ عليْها ولا نُواكبُها سرعةً وعُمقاً وقوّةً؛ فأنساقُنا الذّهنيّة بَطيئةُ الحَرَكَة مُهلهَلَة النَّسْجِ مَعطوبةٌ بكثرة أحوال المادّة ومَطالبِ الجسمِ والرُّكون إلى العاداتِ القَديمَة في تَفسيرِ الأشياء، ولذلك تحتاجُ الأنساقُ الذّهنيّةُ منّا لاسْتصلاحِها إلى تَرويضٍ مُستمرّ وتَدريبٍ متواصلٍ على الغَوصِ على مثلِ هذه الهَيئاتِ الخفيّةِ واستكشافِ تلك الأنساقِ والنُّظُم الدّقيقَة المَحجوبَة، ولا شَكّ أنّ عَجزَنا راجعٌ إلى الانجذابِ إلى هيئاتنا العقليّة السّطحيّة البسيطة في الرؤيةِ والتّفكيرِ، فكلُّ ما حَوْلَنا يَحولُ دون غَوصِنا ويجذبُنا لنطْفُوَ عَلى سطح الأمور وسذاجة التّفكير، حتّى أهواؤُنا ومشاغلُنا ومُحيطنا المتغيّر كلُّ أولئكَ يزيدُ في الشّدّ والتّقييد.

وبناءً على هذه العلّة يتعيّنُ على كلّ قارئٍ أن يَتجرّدَ من نزوعه الذّاتي بل يروّض نفسَه على سرعة التّخلّصِ من الانكفاء إلى باطن ذاته التي تَحجبُ عنه الحَقائقَ، ولا يَزالُ المرءُ يتدرّبُ المرّة تلو الأخرى حتّى يَكتسبَ بعض المَهارَة في الانفكاك من أحوال الذّات السّطحيّة والمَقاماتِ المتغيّرةَ ويَلتحقَ بركبِ المَعاني القرآنيّة العَميقَة.

ثقل الأمانة المنزلة عبر الخطاب القرآني تستلزم خفة أحوال الروح والفكر، أما الهبوط المادي والروحي فلا يمكن من حمل الامانة الثقيلة التي تنوء بحملها الجبال الشم.

إذا تمّ له هذا اليُسرُ والسّلاسَةُ في الانفكاكِ عن ذاته ووُضوحِ الرّؤيَة فسيُدركُ أنّ القرآنَ الكريمَ ألّفَ كثيراً بينَ المَعاني المُختَلِفَة في السّورَةِ الواحدَةِ، وألقى بيْنَها تَداعياً معْنويّاً ونَظمياً، ولَمْ يكُن يَستَرسِلُ في الحَديثِ عَن الجِنْسِ الواحِدِ اسْترسالاً يَبعثُ عَلى المَلَل، ولَم

يكُن يَنتَقلُ من مَعْنىً إلى آخَرَ انتقالاً يُخرجُه إلى حَدّ المُفارَقاتِ التي تَجْمعُ أشتاتاً من غيْرِ نِظامٍ. فلَم يكُن يَدَعُ الأجناسَ المختلفةَ والأضدادَ المُتباعدَةَ حَتّى يُجاورَ بيْنَها ويُبرِزَها في صورَةٍ مُؤتَلِفَةٍ، وحتى يجعلَ من اختلافِها نَفسِه قوامًا لائْتِلافِها؛ فتَقويمُ النَّسَقِ وتَعديلُ المزاجِ بين الألوان والعناصرِ المُختلِفة أشدُّ عناءً من تَعديلِ أجزاءِ العُنصُرِ الواحدِ.

فالعِبْرَةُ في كلّ ذلِك: النّظرُ إلى النّظامِ المجْموعِ والسّلْكِ العامّ المُنتَظِم. وقد ضَربَ الأستاذُ محمَّد بن عَبد الله دَرّاز، رَحمَه الله، مثلاً بسورةِ البقَرَة، فهيَ سورةٌ عَلى طولِها تَتألّفُ وحْدتُها منْ مُقدّمةٍ، وأربَعةِ مَقاصِدَ، وخاتمةٍ. فأمّا "المقدّمةُ" فَفي التّعريفِ بِشأنِ القرآنِ الكَريمِ، وبَيانِ أنّ ما فيهِ مِنَ الهدايَةِ قدْ بَلغَ حَدًّا منَ الوُضوحِ لا يَترَدّدُ فيه ذو قَلبٍ سَليمٍ. وإنّما يُعرِضُ عَنه مَن لا قَلبَ لَه، أو مَن كانَ في قَلبِه مَرضٌ. [بَسَطَ صاحبُ "النّبأ العَظيم" بَيانَ نِظامِ عِقْدَ المَعاني في سورةِ البَقَرَة، في سبعٍ وأربَعينَ صفحةً: من ص:163 إلى ص:210]

***

انسجام التأويل في تمثُّل الشّعر العربيّ، وتَحويل السياق:

ذَكرَ عبدُ القاهر الجُرجاني في دَلائل الإعْجاز، أنّ الحسَنَ البصريَّ رحمه الله، كانَ يتمثَّلُ في مَواعظِه بالأبياتِ من الشّعرِ وكان من أوجعِها عندَه قولُ الشاعر:

اليَومَ عندكَ دَلّها وحَديثُها /// وغَداً لغيْرِكَ كفُّها والمِعصَمُ

والبيتُ أيضاً في بَهْجَة المَجالس وأنس المُجالس، وفي رواية أخرى للبيتِ :

"اليَومَ عندَك دلُّها ودَلالُها...". وهو أبلَغُ، للتجنيس.

نَعَم، هو بيتٌ موجِعٌ، قيلَ في المرأة، ولكنَّ الحسَنَ البصريَّ كانَ يتمثّلُ به في غيْرِ النّساءِ، وينقلُه إلى مَعانٍ أخرى، إذ جَعَلَ لكلّ ما يَفتنُ المرءَ دلاً ودَلالاً وكفّاً ومعصماً، فأهملَ المعاني المُرادَةَ، في أصلِ البيتِ، وقَصَدَ إلى مَعانٍ جديدةٍ غيرِ مُرادةٍ واستعارَ لكلّ ما يَملكُ قَلبَ المرءِ من مال أو جاه أو نَسَب... استَعارَ له الدّلّ والدّلالَ.

وهذه قراءَةٌ وتأويلٌ يخرجُ بالشعرِ عن مَقاصده التي توافقُ قائلَه إلى مَعانٍ جديدةٍ قابلةٍ لأن تتّسعَ لها الأبياتُ. ويُلاحظُ أنّ في إخراج الشعرِ العربيّ من مَعانيه الأولى إلى معانٍ جديدةٍ انسجامَ تأويلاتٍ وتعانُقَ قراءاتٍ، وليسَ صراعَ تأويلاتٍ على نحو ما ذَكَرَه بول ريكور في كتابِه صراع التأويلات Conflits des intérpretations .

بل يُمكن تَوجيهُ مَفهوم "تأويل النّصّ" وجهةً أخرى سَمّاها "نورمان فاركلوف" بتجديد السياق Recontextualization[1] أو تَحويل سياق نص إلى نص آخَر يَقبَلُ أن يتلبَّسَ به

ومن ذلكَ أنّ أسماءَ النّساء في أشعار الغَزَل لم تكُن بالضّرورةِ مقصودةً بأعيانها؛ وإنّما هي كناياتٌ عن مُسمّياتٍ أخرى: فقَد افتتح كعبٌ قصيدَته بذكرِ سُعاد:

بانَت سُعادُ فَقَلبِي اليومَ مَتبولُ /// مُتيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكبولُ

وأنشدَ أبو الفَرَجِ الأصبهاني صاحبُ الأغاني للنابغَة الذّبياني :

بانتْ سُعادُ وأمسى حبلُها انجَذَما /// واحتلَّت الغمرَ فالأجراع من إضَمَا

---

[1] Fairclough , Norman 2003 : **Aalysing Discours : Textual Analysis for social research**, Rourtledge, a Member of the Taylor & Francis Group All Rights Reserved, London, p:

إحدى بَليٍّ وما هام الفؤادُ بها /// إلا السَّفاهَ وإلا ذِكْرةً حُلُمَا
هلاّ سَألتِ بَني ذُبيانَ ما حَسَبي /// إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأشْمَطَ البَرِمَا

وأنشدَ صاحبُ المفضّليّات، لربيعةَ بن مقروم:

بانَتْ سعادُ فأَمْسَى القَلبُ مَعْمُودَا /// وأَخْلَفَتْكَ ابنَةُ الحُرِّ المَوَاعِيدَا
كأَنَّها ظَبْيَةٌ بِكْرٌ أطَاعَ لها /// مِن حَوْمَلٍ تَلَعَاتُ الجَوِّ أَوْ أُودَا

ورَوى التنوخي في "الفَرَج بعد الشّدّة" لعديّ بن الرِّقاع :

بانت سعاد وأخلفت ميعادها

فدلَّ ذلكَ أنّ اسمَ المرأة يُتأوَّلُ بها أحوالُ الشّاعر وظروفَه التي تطرأ عليه وما يَعْتريه من نائباتٍ. فكأنّه وهو يَقولُ: بانَت سُعادُ، يريدُ بانَت أحوالُه وتغيَّرَت إلى ما لا يُحمَدُ وإلى ما يؤلمُ القلبَ...

من بلاغَة المَجاز تلازمُ المَعاني مع التّنافي:

أهابوا به فازداد بُعداً وصَدَّه /// عن القُرب منهم ضوءُ برقٍ ووابلُهُ

الضّميرُ في مَعمول أهابوا يَعودُ على الصَقر، المذكور في البيت السابق. والشّاعرُ عُبيد ابنُ أيّوب العنبريُّ يشبّه نفسَه بالصَقر ، وليسَ بمُطلق الصُقور، ولكن بصقرٍ من صِفاتِه أنَ الصّائدينَ أهابوا به فابتَعَدَ ونأى بجَنبِهِ عنهُم وزادَه بُعداً عنهُم ضوءُ بَرقٍ ووابلُ مَطرٍ يعقُبُ البرقَ ويلْزَمُ عنه، لأنّك إذا تأمّلتَ أنكرتَ أن يُضافَ الوابلُ إلى البرقِ، وليسَ له، ولكنّ قرينَةَ الملازمَة والمُصاحَبَة أجازَت المَجازَ، فضُمِّنَ البرقُ مَعْنى من مَعاني المَطَر.

وقال الحُطيْئة:

حَتّى أنخْتُ قَلوصي في دِياركُم ... بخَير مَن يَحتَذي نَعْلاً وحافِيها

أناخَ الشّاعرُ قَلوصَه في مَناخِ قِلاصٍ وهي ديارُ المُخاطَبينَ [المُخاطَب هُنا ابنُ شمّاس] والجميلُ البليغُ في البيتِ إضافتُه الحافِيَ إلى النّعلِ. والحافي لا يَكونُ إلاّ حافِيَ القَدَمَيْن لا حافي

النّعل، وإنّما أضافَ الشّيءَ إلى غيرِ ما هو لَه للاقتضاء؛ أو للتّنافي فلا يُذكرُ أحدُها إلاّ ويُذكرُ خلوُّه من نقيضِه، فحافي النّعلِ حافٍ منهُما وخلوٌّ منهُما

بَلاغةُ التَّقْديم والتأخير، والعُدول عن الأصل

بلاغةُ التّقديم والتأخيرِ في قولِه تَعالى: « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وأما الذين ابيضَّتْ وُجوهُهُم ففي رَحمة الله هُم فيها خالدونَ » [آل عمران: 106-107].

أثيرَ في مجلسٍ من مَجالسِ العلم نقاشٌ حول الآيَة الكريمَة، وذهبَ أحدُهُم إلى أنّ الابْيِضَاضَ قُدّمَ في الأوّلِ على الأصلِ، ثمّ أخِّرَ من بعدُ، عُدولاً عن الأصلِ، ويظلُّ السؤالُ المُثار: كيفَ يكونُ تَقْديمُ الشَّيء عَلى الشَّيء للعنايةِ والاهتمامِ، في موضعٍ، ثمّ يكونُ تقديمُ ما أُخِّرَ سابقاً، على ما قُدِّمَ سابقاً، للعناية والاهتمام أيضاً، على سبيل العدول عن الأصل؟

فهل العدولُ عن الأصل مُسوِّغٌ للتصرف في الرتبة، أم هَلْ تتحكَّمُ في التّرتيبِ بواعثُ من المَعْنى ومَقاصد المُتكلّمِ، وليس يتحكّمُ فيه التصرفُ في الأصل، لأنّ التصرف في الأصلِ أو العدولَ عنه، لا يبدو مُسوِّغاً منطقياً أو بلاغياً تَداولياً لتعليل التّصرُّف في ترتيب الكلامِ، ويبدو أن المُخاطَبَ يعلَمُ بوقوع ابْيِضَاضِ الوُجوه واسْودادِها في ذلك اليوم، يعلمُ المُخاطبُ ذلِكَ مِن طريقِ إحالَة الظّرفِ "يومَ" على مَعْلومٍ عندَه؛ ويدلُّ على هذا العلمِ السابقِ قولُه تعالى: «ويومَ القيامة تَرى الَّذين كَذَبوا على الله وُجوهُهُم مُسوَدّة» [الزمر: 60] وقوله: «وُجوهٌ يَومَئذٍ مُسفرةٌ ضاحكةٌ مُستبشرةٌ، ووُجوه يَّومئذٍ عَليها غَبَرَةٌ تَرهَقُها قَتَرَة» [عبس: 38-41] فلعِلْمِه بذلك اليوم أحيلَ على وقوع الابيضاض والاسوداد...

أمّا مسألةُ التّرتيبِ ففي قولِه تعالى: «فأمّا الذينَ اسْوَدَّتْ وُجوهُهم أكَفرتُم بَعدَ إيمانكم»، نشْرٌ مَعْكوسٌ للَّفِّ السّابقِ، وعكسٌ في التّرتيبِ؛ ففي اللّفِّ تقدّمَ الابيضاضُ وفي النّشرِ الذي هو تفصيلٌ للإجمال السابق، تقدّمَ الاسودادُ، وفيه إيجاز.

ومن المُفيدُ ههنا إيرادُ تَعليل الشيخ الطّاهر بن عاشور رحمه الله للترتيب في اللّفّ، ولعكس الترتيب في النشر: « قَدّم عند وصف اليوم ذكرَ البياض، الَّذي هو شعارُ أهلِ النَّعيم، تَشريفاً لذلك اليوم بأنَّه يوم ظُهور رحمة الله ونعمته، ولأنّ رحمة الله سَبَقت غَضَبَه، ولأنّ في ذكر سِمَة أهل النّعيم، عَقب وَعيد بالعَذاب، حسرةً عليهم؛ إذْ يَعلمُ السَّامع أنّ لهم عذاباً

عظيماً في يومٍ فيه نَعيمٌ عَظيمٌ، ثُمَ قدَم في التَفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساءتهم.» [انظر التحرير والتنوير/تفسير سورة آل عمران].

فتبيّنَ أنّ العنايةَ والاهتمامَ مَعْقودان وواقعانِ على ترتيب اللّفَ لأنّه هو الذي ورَدَ به الإخبارِ عن أحوالِهم وهو أوّل ما يطرقُ سمعَ المُخاطبِ . والله أعلَمُ.

تَفصيلُ المُجمَل ورَوابطُه :

من بَلاغة القرآن الكَريم الإجمالُ ثم التفصيلُ، إرسالُ الكليات ثمَّ إتْباعُها بالجزئياتِ المؤلَّفَة. ثم الربطُ بين تلك المُؤلّفاتِ بروابطَ لغويّةٍ دقيقة تدلُّ على غايةِ البلاغَةِ ومُنْتَهاها في النظمِ والترتيبِ:

ومن شواهدِ ذلكَ تَقريرُ حقيقةٍ: «والذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الكِتابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » [فاطر: 31]

لاحظْ أنّ اسمَ الموصولِ مَعقدُ العنايَة والاهتمام، فسيُخبَرُ عَنه بخبرٍ -وهو "الحَقّ" - يُعدُّ البؤرَةَ في مَعْنى الكلام كلّه، وأُحيطَ الخبرُ "البُؤرَةُ" المُخبَرُ به عن المُبتدأ "مَعْقد العنايَة" بروابطَ مَتينةٍ مُحكَمَةِ الضّمّ. منها رابطُ ضَميرِ الفَصْل "هو". الذي يُفيدُ تَأكيدَ القَصرِ والحَصْرِ في الخَبَرِ. وأداةُ التعريفِ في "الحَقّ" رابطٌ يُفيدُ عُمومَ الجنسِ. وضميرُ الفَصل وأداةُ التعريف، أي قصر جنس الحق على المُوحَى به. وهو قَصرُ مُبالَغَة يُفيدُ عَدَمَ الاعتداد بما عداه من الكتب في درجة الحَقّ.وارتَبَطَت الصّفَةُ "مُصَدِّقاً" بقرينَة مَعنويةٍ هي الحاليّةُ من الموصوف بها وهو "الكتاب". وارتبطَت إعراباً بالعامِل فيها وهو الفعلُ "أوحينا" ليُفيد أنه مع ظهوره على الكُتُبِ السماويّة الصَّحيحَة السابقَة، فهُوَ مُصدِّق لها فيما اشتملت عليه من الحَقّ. واللامُ رابطٌ يَصلُ اسم الفاعل "مصدقاً" بالمَعمول "ما". أمّا المركَّبُ الظرفيُّ "بَيْنَ يَديْه" فإنّه تَقْييدٌ ظرفيٌّ لحَدَث التَّصديق، بالمَكان المَجازيّ.

ثُمَ خُتمَت الآيَةُ بما دَعاهُ البلاغيونَ وعُلَماءُ عُلوم القرآن بالتَّذييل، في قَوله تعالى: "إنّ الله بعبادِه لَخَبيرٌ بَصيرٌ": وهو تَذْييلٌ جامعٌ لما اشتمَلَت عليْه الآياتُ السّابقةُ، ورابطٌ لفظيٌّ يدلُّ على الخيطِ الجامعِ لما تَفرَّقَ قبلُ من مَعانٍ.

ثمّ يأتي مَساقٌ آخَر من الآياتِ يُفتتَحُ برابط عطفيّ جَديد "ثُمَّ" وهو رابطٌ يُفيدُ الترتيبَ والتعقيبَ والتَّراخيَ، وفيه دلالَةُ التَّرقّي. كما قالَ البلاغيّون. قال الشيخُ الطاهر بن عاشور: «

وهذا ارْتقاءٌ في التّنويه بالقُرآن المُتَضمّنِ التَّنويهَ بالرّسول صلى الله عليه وسلم، وعُروجٌ في مَسَرّته وتَبْشيره، فبَعْدَ أن ذكّر بفَضيلَة كِتابه - وهو أمرٌ قد تَقَرّر لدَيه - زِيدَ تَبشيراً بدَوام كتابه وإيتائه أمّةً هُمُ المُصْطَفَوْنَ مِن عبادِ الله تعالى، وتَبْشيره بأنّهم يَعْمَلون به ولا يَتركونَه كَما تَرَكَ أممٌ مِن قَبلِه كُتُبَهُم ورُسُلَهُم، لقوله: "فمنهُم ظالمٌ لنَفسِه" الآية، فهذِه البِشارةُ أهمُّ عندَ النّبيّ صَلى الله عليه وسلم مِن الإخبارِ بأنّ القرآنَ حقٌّ مُصدِّقٌ لِما بينَ يَديه؛ لأنّ هذِه البشارةَ لم تَكنْ مَعلومةً عندَه فَوَقْعُها أهمُّ».

وبعدَ رابطِ التَّرقّي يأتي محورٌ فعليٌّ جديدٌ هو "أورثْنا" يَعملُ فيما بعدَه، ومِن مَعْمولاته المَفْعولان المَنصوبانِ ["الكتاب" و "الذين"] ومُقتضى الظّاهر نَصْبُ المَفعول الآخذِ في المعنى وهو "الذين"؛ وإنما خولِفَ فقُدّم المفعولُ الثاني لأمْنِ اللَّبس قصداً للعنايَةِ بالكتاب المُوَرَثِ. وأما التنويه بآخذي الكتابِ فتُفيدُه صلةُ الموصول "اصطفَيْنا". ثمّ تفرّعَ المَنصوبُ الثاني نفسُه عن صلةٍ ورابطٍ لها، ثمّ يأتي تَفريعٌ لهذا المفعول الثاني وهو تَفْريعُ تَفصيل، ورابطُه الفاءُ.وعُرّفَ الكتابُ بأل العَهديّة الذِكْريّة.

ثمّ يأتي تَفصيلُ ذكرِ أحوالِ وارثي الكتابِ. وفيها بَيان أنّهُم مَراتبُ فيما بُشّروا به، وجيءَ بالتفريع والتّفصيل "فَمنهُم ظالمٌ لنفْسِه"... لإفادَةِ أنّه تَفصيلٌ لمَراتبِ المُصْطَفَيْن لتَشملَ البشارةُ جميعَ أصنافهم: حتّى الظالمُ لنفسه لا يُحرَمُ منها؛ لأنّ مَناطَ الاصطفاء الإيمانُ والإسلامُ. «وقُدّمَ في التفصيل ذكْرُ الظّالمِ لنفْسِه لدَفع تَوَهُّمِ حِرمانِه من الجنّة وتَعجيلاً لمَسَرّته» [التحرير والتنوير/فاطر].

الفصلُ السّادسُ: في النّصّ والنَّسيج النَّحوي :

في النص والنسيج النحوي :

أركان الخطاب النحوي

الخطابُ النحويُّ الذي وردَ في كتبِ النّحو العربيّ منذ سيبَويْه، خطابٌ علميّ بُنِيَ على استحضار أطراف ثلاثةٍ: هي الوضع، والاستعمالُ، والصنع، أو الواضعُ والمخاطَبُ والنّحويُّ.

فالواضعُ مُشرِّعٌ تؤخذ عنه اللغة وتُراعَى أوضاعُه في صحة الكلام. والمخاطَبُ متكلّمٌ مُستعملٌ مُستهلِكٌ يُدْعَى لتجريب صحة تلك الأوضاع كما يتصوَّرها النحوي. والنحوي ناظر صانع منافس للواضع، ويزعمُ وجودَ مُطابقةِ عِلَلِه لما أرادَه، وتسير عمليةُ تحليل الأوضاع الكلامية مراعيةً حضورَ هذه الأركان.

أما الصنعُ أو الصناعةُ، فهو الوجه المقابلُ للوضع يرادُ به التمثيل والاصطناع. ولذلك أمثلة كثيرة منها قول سيبويه: « وأما قولُ النحويين: قد أعطاهوك أعطاهوني فإنما هو شيءٌ قاسوه لَمْ تَكَلَّمْ به العرَبُ، ووَضَعوا الكلامَ في غير موضِعه، وكان قياسُ هذا لو تكلمنا هيناً » . وقوله: « رأيتُ الرجلَ زيداً نفسَه، وزيدٌ بدلٌ ونَفْسُه على الاسم. وإنما ذكرتُ هذا للتَّمثيل" ، وقوله: "قال الخليلُ: لو كنتُ مُحَقِّراً هذه الأسماءَ لا أحذفُ منها شيئا كما قال بعضُ النحويينَ، لقلتُ: سُفَيْرِجْلٌ، كما ترى، حتى يصير بزِنَةِ دُنَيْنير، فهذا أقربُ وإن لم يكُنْ من كلام العرب » . وقوله: « إذا سميتَ رجلا برَجُلَيْنِ فإنّ أقْيَسَهُ وأجْودَه أن تقولَ هذا رَجلانِ ورأيتُ رَجلَيْنِ ومَررتُ برجُلينِ... ومن النحويين من يقولُ: هذا رَجُلانُ كَما تَرى، يجعلُه بمنزلة عُثمانَ » ، وقوله: « هذا باب استكرهه النحويون وهو قبيح فَوَضَعوا الكَلامَ فيه عَلى غَيرِ ما وَضَعَتِ العَرَبُ ». وقال الحسنُ بنُ قاسم المرادي: «قال ابنُ مالك: وما يوجدُ في كُتب النحويين من نحو (ما قامَ سعدٌ لكن سَعيدٌ) فمن كَلامِهِم لا مِن كَلامِ العرب» . وقال السيوطي في مسألة من مسائل الترخيم: «ولم تَعتمِد النحاةُ في ترخيمِه على سماعٍ، وإنما قالوه بالقياس...».

فظهر من هذه النصوص أن للنحويين دخلاً كبيرا في فهم اللغة وتَقْديمها للناس، فهم لا يروون ما نطقَت به العربُ من ظواهر اللسان فحسبُ: ولكنهم صنعوا ظواهرَ غيرَ واردة في لسان العرب ووضعوا تعميماتٍ لم يُشرِّعْها الواضعُ. فكانَت هذه أجزاءً لبُنيانٍ نظري أُنْشِئَ على بنيان وضعي. عندما يقولُ السيوطيّ إنّ الكسائيَّ "كانَ يسمعُ الشاذَّ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسدَ النّحوَ": فإنّه يدُلُّنا بحُكمِه على صَنيع الكسائيّ

على أنّ النحوَ بناءٌ نظريّ مُتماسكٌ الأصلُ فيه أن يَنْتَقِيَ من ظواهر اللسانِ ما يناسبُه ويشدُّ بنيانَه النّضيدَ ويَزيدُه تماسُكاً، فإذا عَرَضَ منها ما يخالفُ ممّا سُمّي شاذا فلا بد أن يُعمَدَ إلى تلافي نَفْرَةِ الاختلاف وتجَنُّبِ "إفسادِ النحو" حتى شاعَ أن نحويّي البصرة أخلصوا للبُنيانِ النّظريّ وأنّ نَحويّي الكوفة أخْلصوا لظواهر اللسان.

وجه المقابلة بين الوضع والصنع أن النحويين يفترضون أمثلة يمكن تسميتها "بالنص المصنوع" ويعملون على أن تكون مقيسةً على الشواهد أو "النص الموضوع"، يعني ذلك تحويلَ لغة النصوص الوضعية في أشكال وتمثيلات وتجريدها عما كان يصاحبها من معانٍ مقامية لتصير يسيرة على التأويل خاضعة لضروب التفسير مطابقة لظن الناظر وحُسْبانِه.

وهكذا فإنّ النصوصَ المصطنعة كثيرة يصنعها النظر ويمثل بها على تصور اللسان وظواهره. بل يمكن عَدُّ النحوِ في أغلب مسائله وأبوابه برهنةً على طرق النحويين –مع تفاوت فيما بينهم – في صُنع نماذجَ نحويةٍ وإقامتِها بنياناً فوق وضع الواضع. وقد عبر سيبويه – وكثير من النحويين بعدَه – عن صنيع النحويين في بناء نماذجَ نظريةٍ على بنْياتِ اللسان العربي «بقياس النحويين»، ووضعِ الكلام في غير موضعه ، والتمثيلِ الذي يُمثّلُ به ولا يُتكلَّمُ به، وما ليس من كلام العرب ، وبعَقد أبواب للافتراضات والتمارين[1]...

[1] كتاب سيبويه / خصائص ابن جني / همع الهوامع للسيوطي

قيمَةُ الشيء في تَركيبه

إذا ائتلَفَت الأصواتُ قدَحَ التأليفُ في الذّهن شرارَةَ مَعْنىً أو مَفهوم، وإذا ضُمَّت أصواتٌ إلى أخرى من غير أن يكونَ للتّركيب وجودٌ في المعجم الذّهنيّ، فإنّ الذّهنَ يُهرَع للتفتيش والبَحث عن دلالة ذلك التركيب الصَّوتي، فإن لم يجدْ أهمَلَ المسألةَ . أمّا إذا ائتلَفَت الحروفُ المكتوبةُ رَمَزَ التأليفُ

الخطّيّ إلى صورةٍ صوتيّةٍ ويُنظَرُ بعد ذلك هل يوجَدُ لذلك التأليف الخطّيّ مُقابلٌ أو نظيرٌ في عالَم الأصوات ؟ فإن وُجدَ كان للحروف مرجع ثابتٌ في الأصوات ، وإن لم يوجَدْ أُهمِلَ ذلك التأليفُ الخطّيّ. والخلاصَةُ أن الحروفَ المكتوبةَ تبحثُ عن دلالاتها في مرجعيتها الثابتَة التي هي الأصوات وتبحثُ الأصواتُ عن دلالاتها في مرجعيتها الثابتَة التي هي مَفاهيم الذّهن وصورُه العقليّةُ. وتستقرُ مرجعيّةُ المَفاهيم الذّهنيّة، في آخِرِ المَطافِ، في عالَم الواقع والممكن، أو العالَم العينيّ المُدرَك حساً أو عقلاً أو تذكُّراً...

وجماعُ القول أنّ كلّ وجود يبحثُ عن مرجعيته في الوجود الذي فوقَه ولا يتخطّاه: فالحرف المَكتوبُ يُترجمُ دلالَة الأصوات، والصوتُ اللغويُّ يترجمُ دلالَة المفهوم، والمفهومُ يترجمُ دلالَة الواقع

ولا تَركيبَ إلاّ بأدواتِ الربط

اللغةُ وسيلَةُ تَشكيل الصورَة الشعريّة، والصّورَةُ الشعريةُ وسيلةُ تَوليد اللغة وتَوسيعها، فهما معاً وسيلةٌ وغايةٌ، وعندَما تَكون الغايةُ والوسيلةُ من مَعدنٍ واحدٍ، يَزدهرُ الإبداعُ. فيرى الشاعرُ العالَمَ شعراً ولغةً، ويَرَى اللغةَ عالَماً ومَشاعرَ، وإذا حُرِمَ إحداهُما توقَّفَ عن الإحساس والعبارَة مَعاً.

الشعرُ الصحيحُ الفصيحُ يُحسنُ الوسيلةَ والغايةَ، وتَجدُ الروابطَ اللغويةَ تنقلُ إلى القارئ الروابطَ النفسيةَ، وكلما انبَهَمَ الشعورُ تعمقَت الصورَةُ الشعريةُ وأحوجَت القارئَ إلى الغوص وإعمال الفكر. فاللغة أختُ المشاعر، وكل واحدة منهما تنظرُ إلى الأخرى كالمُطلَّةِ في المرآةِ على وجهها.

مَدارُ أمرِ النّصّ المَنْسوجِ على الرِّباطِ النّاظِمِ

أسماءُ اللغة العربية وألفاظها وحُروفُها وأصواتُها ظروفٌ وأوعيةٌ للمعاني وحَواملُ لها، ولا يُدرِكُ المرءُ جميعَ المعاني المحمولةِ على تلك الألفاظ والأسماءِ، ولا تَكمُلُ معرفتهُ لاستيفاء جميع وجوه النَّظم والتّركيبِ التي يَحصُلُ بها الائتلافُ والارتباطُ بين الألفاظ والتَّوصُّلُ بهذا الائتلافِ اللفظيِّ إلى الائتلافِ المَعْنَويِّ الفكريِّ. « وإنّما يقومُ الكلامُ بهذه الأشياء الثلاثة: لَفْظ حامِل، ومَعْنىً به قائِم، ورِباط لهما ناظِم. وإذا تأملتَ القرآنَ وجدتَ هذه الأمورَ منه في غايةِ الشرَفِ والفَضيلةِ حتى لا تَرى شيئًا من الألفاظِ أفصحَ ولا أجزلَ ولا أعذبَ من ألفاظه، ولا ترى نَظمًا أحسنَ تأليفًا وأشَدَّ تَلاؤماً وتَشاكلاً من نظمه. وأمّا المعاني فلا خَفاءَ على ذي عَقلٍ أنها هي التي تَشهَدُ لها العقولُ بالتقدم في أبوابها، والتَّرقّي إلى أعلى دَرَجاتِ الفَضلِ مِن نُعوتها وصِفاتها »[1].

وقَد جَعَلَ عبدُ القاهِرِ **نَظمَ الكلماتِ التي بها يَنتظمُ "النّصُّ" علماً وأصلاً من الأصول**: «اِعْلَمْ أنّ ههُنا أصْلاً أنتَ تَرى الناسَ فيه في صورةِ مَنْ يَعرِفُ مِن جانبٍ ويُنْكِر مِن آخَر، وهو أنّ الألفاظَ المفردَةَ التي هيَ أوْضاعُ اللُّغة، لم توضَعْ لِتُعْرفَ مَعانيها في أنفُسِها، ولكنْ لأنْ يُضَمَّ بَعضُها إلى بَعض، فَيُعرَفَ فيما بَينَهُما فَوائدُ. وهذا عِلْمٌ شَريفٌ، وأَصْلٌ عظيم»[2]. فمَبْنى النّصّ على ائتلافِ أفرادِهِ وأدواتِه وتَضامِّها على نَسَقٍ مَخصوصٍ.

من بلاغة الترتيب، المقابلة في الألفاظ والتناسُب في المَعاني

فائدتان من فَوائد ترتيب الكَلام:

أولاهُما صوتيّة والثانيّة مَعْنويّة: « لئِنْ بَسطْتَ إليَّ يَدَكَ لتقتُلَني ما أنا بِباسِطٍ يَدي إليكَ لأقتلَك » [المائدَة: 28]؛ بسطْتَ : مَدَدْتَ. قَدَّمَ -في عَجُز الآيَة دونَ صَدرِها- ما تَعدّى إليه الفعلُ بنفسه، كَما في قولِه تَعالى: «وهو الذي كَفَّ أيديَهُم عنكُم وأيديَكُم عنهم » . كيفَ تَوخّى حُسنَ التّرتيب في عَجُز الآيةِ دونَ صَدرها ؟

---

[1] **بيان رسالة القُرآن**، لأبي سُلَيمان الخطّابي (ت.388هـ)، ضمنَ كتاب: ثَلاث رَسائلَ في إعجازِ القُرآن، للرّمّاني والخَطّابي وعبد القاهِر الجُرجانيّ. تحقيق: محمد خَلَف الله أحمد ومحمد زَغلول سلاّم. ط. دار المَعارف، القاهرة، ط.3، 1976م. ص: 27.

[2] **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني (ت.471هـ). تح. محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط.3، 1413هـ-1992م. ص: 539.

الجوابُ أنّ الذي مَنَعَ حُسنَ التّرتيبِ في صَدر الآيةِ أيضاً، مانعٌ أقْوى:

1- وهو مَخافةُ أن يَتَوالى ثَلاثةُ أحرفٍ مُتقارباتِ المَخرجِ [ت.ي.د.ك] فيثقُل الكَلامُ بسبب ذلكَ؛ فإنّه لَو قيلَ: لئن بَسَطْتَ يَدَكَ إليَّ، والطّاء والتّاء مُتقاربة المَخرجِ، فلذلكَ حَسُنَ تَقْديمُ المَفعول المُتعدّى إليْه بحرف الجرّ، على المَفعول الذي تَعدّى إليه بنفْسِه.

2- ولمّا أُمِنَ هذا المَحذورُ في عَجُز الآيةِ لِما اقتضَتهُ البَلاغةُ من الإتيان باسم الفاعل مَوضعَ الجُملة الفعليّةِ لتَضَمُّنه مَعنى الفعلِ الذي تصحُ به المُقابلةُ، جاء الكلامُ على تَرتيبِه من تَقديم المَفعول الذي تعدّى الفعلُ إليه بنفسه على المَفعول الذي تَعدّى إليه بحرف الجر. وهذا أمرٌ يرجعُ إلى تَحسين اللَفظ، وأمّا المَعنى فعَلى نَظمِ الآية؛ لأنّه لمّا كانَ الأوّلُ حَريصا على التّعدّي على الغَير قَدَّمَ المُتَعدَّى عَلى الآلةِ فَقالَ: إليَّ يدَكَ. ولمّا كانَ الثّاني غَيرَ حَريصٍ على ذلكَ -لأنّه نَفاه عنه- قَدَّمَ الآلةَ فَقال: يَدي إليكَ؛ ويدلُّ لهذا أنّه عبَّر عن الأوّل بالفعلِ وفي الثّاني باسم الفاعل.

تَرتيبُ الصُّدور المُتَواليَة:

قد يَجتمعُ أكثرُ من أداة من أدواتِ التّصدُّرِ في التَّركيبِ الواحد: وأشدُّ الأدواتِ إيغالاً في التّصدُّرِ همزةُ الاستفهامِ لأنّها أمُّ البابِ في الاستفهامِ ولأنّها تُشربُ الكلامَ الذي وَقَعَت عليْه مَعْناها وتُحوِّلُه إلى فَضاءِ استفهامٍ [حقيقيّ أو إنكاريّ أو تَقريريّ أو مَجازيّ]: **فالفاء في الآياتِ التاليةِ**:

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ

أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ

مُؤَخَّرَةٌ عَن هَمزةِ الاستفهامِ لأحقّيَة حرفِ الاستفهام بالتّصدير، للسبب الذي ذكرْنا آنفاً وهو إشرابُ التّركيبِ مَعْنى الاستفهام. والاستفهامُ تقريريٌّ. ثُمَّ يأتي بعدَ الصَّدرِ الاستفهاميّ حرفُ استئنافٍ هو الفاءُ أُخِّرَ عَن الهمزة لأحقّيتها عليْه في التّصدُّرِ.

فهمزةُ الاستفهام في الآياتِ أعلاهُ دلَّت عَلى إنكار تَماثُلِ حالَتَيْن: حالة مَن أسلَموا بعد أن كانوا مشركين، وهي مُشبَّهَة بحال مَن كان ميّتاً في ظلمات القبرِ، فصار حيّاً في نورٍ أبلَجَ، وسار في الطّريق الموصّلة، وحالة المشرك وهي مشبّهة بحالة مَن هو في الظلام الدامس لا يَقوى على الخُروج منه.

ثُمَّ يأتي تَركيبُ الهمزَة وواو الاستئنافِ

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ

أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ

فهو أقلُّ وُروداً من سابقِه

ثمَّ يأتي الاستئنافُ بثُمّ وهو أقلُّ: « أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ »

ولا يَنبغي أن يَلتبسَ التّركيبُ السابقُ المؤلَّفُ من همزة استفهام وحرف استئنافٍ ومَن الموصوليّة ، بتركيب مختلفٍ، مؤلَّف مِن هَمزةِ استفهامٍ وحَرف استئنافٍ ومِن الجارَّة، نحو قوله تَعالى: « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ »؛ لأنّ ترتيب الكلام في أصله: أتعجَبون من هذا الكَلامِ؛ ولكنَ المقامَ اقتضَى تقديمَ الجار والمجرور للعنايَة والاهتمام.

تَوالي المَنصوبات :

« وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »

هل تَرتيبُ الكلام في أصل اللفظِ قبل دُخول اعتبار القصد والمقامِ، هو: جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ شَياطِينَ الإنس والجن عَدُوًّا ؟ فقدّمَ ما يُظنُّ أنه مَفعولٌ ثانٍ على ما يُظنُّ أنّه مَفعولٌ أولُ؟ وأنَ تقديمَ الثاني على الأوّل لشدّة العنايَة به ؟

الجَوابُ : كلاَّ : فلَو عَدَدْنا الشياطينَ مفعولاً أولَ مؤخراً، والعدوَّ مَفعولاً ثانياً مُقدَّماً، فسيَتحَوّلُ الكلامُ إلى مَعْنى آخَر غيرِ مُرادٍ، وهو قصدُ الإخبار عن أحوال الشّياطين، أو عن تعيين العدوّ للأنبياء مَن هو، وذلكَ مَنفيٌّ، فلاحظْ أنّ إعرابَ الكلام لا يَنفكُّ عَن مَعْناه وعَن مَقاصدِ المتكلّمِ به، وعن البلاغَة المَرْجوَّةِ منه. والحقيقةُ أنّ العدوَّ مَفعولٌ وحيدٌ للجَعْلِ، والشياطين بَدَل من العدوّ، وجملة يوحي حالٌ من الشياطين.

وَظيفةُ تَقْييد المُطلَق، في الظُّروف وحُروف الجَرّ

« قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ »

لاحظْ كثرةَ حُروف الجر، ويَعْني ذلكَ كثرةَ القُيود الموضوعَة على الأحداثِ؛ فالدخولُ ليسَ مطلقاً بل هو مُقيَّد بمَكان مَدخولٍ فيه [في أمم]، والفعلُ خَلا [أي مَضَى وانْقَرَضَ] مقيدٌ بزمن غير زمن صيغَة الفعل، وهو الماضي [مِن قَبلِكُم]، ومقيَّدٌ ببيانِ نوع الفاعل في خَلا [مِن الجنّ]، وفعلُ الدخول الأولُ مقيَّدٌ أيضاً بمَكان مَدخول فيه مُستقَرٍ فيه [في النار]

لو أسقطنا القُيود لحصلنا على أحداث مُطلقةٍ لا تَكاد تُفيدُ الإفادةَ الدقيقةَ المُفصَّلَةَ الموافقةَ لمقاصد التنزيل؛ لو أسقطنا كل القُيود من حروف الجرّ لكانت النتيجَة مُثيرةً للغرابَة وهي عَدَم الحُصول على مَعْنى مُطلقاً: [قالَ ادْخُلُوا]

فائدة أخرى: أنّ حرف الجر الأول "في" [في أمَمٍ] يدلُّ على الظَّرفية المَجازيّة، وهي أنَّهُم سَيكونونَ على هَيئةٍ واحدة وحُكمٍ واحد، سواء أَدَخلوا النّار في وَسَط الأُمَم أم دخلوا قبلَها أو بَعْدَها، فحرف الجر [في] يدلُّ على معنى [مع] أي ادخُلوا مَعَ أمم، وليسَ المقصودُ حُلُّوا فيهم كَما يَحلُّ الضيفُ بصاحبِ الدّار، فأنتم وإياهم حالُّونَ بالناروإن اختَلَفَ ترتيبُ الدُّخول. وقَد جَعَلَ صاحبُ «الكشاف» [في] التي في الآيَةِ نَظيرَةَ في التي في قول عُروةَ بنِ أذينَةَ:

إنْ تَكُنْ عن حسن الصّنيعة مأفُو /// كاً ففي آخرينَ قد أُفِكُوا[1]

يريد: فأنت في جملة آخرين، وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد

الاختلاف بين مقتضى الإعراب ومُقتضى المعنى البليغ

مواطنُ البَيان في قَوله تعالى: « قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا» [الإسراء:100]
ميّز الزّمخشريُّ بين مُقْتَضى الإعراب ومُقْتَضَى البَيان:

« لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ » : يَقْتَضي علمُ الإعراب ما يَلي: فيه إضمار فعلٍ بَعد حرف الشرط "لَوْ" وتقديره لو تَمْلكونَ...، أضْمِرَ فعلُ الشرط على شريطة التفسير، وأبْدِلَ من الضميرِ

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم الزمخشري جار الله (ت.538هـ)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط.3، 1407 هـ، ج:4، ص:197.

المُتَّصل الذي هو "الواو" ضَميرٌ مُنفصل "أنتم"، لسُقوط ما يتصلُ به من اللفظ، "فأنتم" فاعل الفعل المضمر، و"تَملكونَ" تفسير الفعل المُضمَر.

ويقتضي علم البيان أنّ "أنتُم تَملكونَ" فيه دلالةُ على الاختصاص: وأنّ الناسَ هُم المُخْتَصّونَ بالشُّحّ المُتبالغ. ونحوُه قولُ حاتم: **لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي ...**
وقول المتلمس: **وَلَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أرَادُوا نَقِيصَتِي ...**
وذلكَ لأنّ الفعلَ الأولَ لمَّا سَقط لأجل المُفَسِّر، بَرَزَ الكلامُ في صورَة المُبتدأ والخَبَر.

النحو ومصطلح أصل المَعْنَى:

قالَ السكّاكيّ في مفتاح العلوم[1]:

« علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا».

1- تعريفُ أصل المَعْنَى:

الغرضُ من وَضْعِ الحروف الاختصارُ والزيادة تنافيه، ولهذا متى حكمنا على حرف بزيادة لم تُردْ سوى أن أصلَ المعنى بدونه لا يختل وإلا فلا بد من أن تثبت له فائدة.

2- أصل المَعْنَى ومُقْتَضى الحال:

قال في: الفصل الأول، في ضبط معاقد علم المعاني والكلام فيه: « اعلمْ أن مساقَ الحديث يستدعي تمهيدا وهو أن مقتضى الحال عند المتكلم يتفاوت... فتارة قتضي ما لا يفتقر في تأديته على أزيد من دلالات وضعية وألفاظ كيف كانت، ونَظم لها لمجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم النعيق وهو الذي سميناه في علم النحو أصل المعنى ونزلناه ههنا منزلة أصوات الحيوانات وأخرى تقتضي ما نفتقر في تأديته على أزيد...يتبيّنُ من النّصوص المورَدَة أنّ مُصطلحَ أصلِ المَعْنى يرادُ به مَعْنى التّركيب في أساسِه وحدّه الأدنى الذي ليسَ بعدَه إلاّ اللّحْن.

---

[1] القسم الثاني من الكتاب: علم النحو، الفصل الأول: علم النحو ما هو.

تَحرير القَولِ في مَنْهَج الإعراب: من القَواعدِ إلى المَبادئ

تَقْديم

الإعْرابُ هو التَّطبيقُ لقَواعدِ اللُّغةِ، وهو طَريقةُ عُلماءِ العَربيةِ لبَيانِ مَواقعِ الكَلِمِ اعْتماداً على القَواعدِ التي بُنِيتْ عليها، ووَسيلةُ إيضاحٍ للمُتعلّم ليُدرك بها تَركيبَ الجُمَلِ ويميزَ المَعانيَ بَعْضَها مِن بَعضٍ .

ولَقَد اهْتَمَّ عُلَماءُ العربيَةِ مُنذ القَديمِ بوَضعِ مُؤَلَّفاتٍ ومُخْتَصَراتٍ تُعينُ الطّالِبَ عَلى تَحليلِ العِباراتِ وفَهْمِها، فَوَضَعوا قَواعِدَ وضَوابِطَ في فُنونٍ شَتّى، يُذْكَرُ منها الإعْرابُ، والصَّرْفُ، والبَلاغَةُ، والعَروضُ، والتَّجْويدُ... وعَلى رَأسِ الفُنونِ التي اسْتَأْثَرَتْ بوضْعِ قَواعِدَ موجَزَةٍ: الإعْرابُ، فإنّ الطُّلاّبَ يُزاولونَ الإعْرابَ بطَريقةٍ بَعيدةٍ عَن الإيفاءِ بالمَقْصودِ، مِنَ الأَوْضاعِ التي تَعارَفَها فُصَحاءُ العَرَبِ، وهيَ أوْضاعٌ تُمكِّنُ المتكلِّمَ مِن أنْ يَنْقُلَ ما في ضَميرِه إلى ذِهنِ سامِعِه، فهو مُحْتاجٌ من أجلِ ذلِك إلى مَعْرِفَةِ اللّغةِ التي يُريدُ الإبْلاغَ بِها، منْ جِهةِ مُفْرَداتِها و هَيْآتِ تَراكيبِها و غَيرِ ذلِك ممّا يحْصُلُ من عِلْمِ اللّغةِ والنّحوِ والصّرفِ[1] .

التّأليفُ في قَواعِدِ الإعْراب

1- قَواعِدُ الإعرابِ في كُتُبِ النُّحاةِ :

اهتمَّ كثيرٌ من أئمّة النّحويّينَ بِوَضْعِ مُختصَراتٍ تأخذُ بأيدي النّاشئةِ في طَريقِ تعلّمِ الإعْرابِ وقَواعِدِ النَّحْو، عِنْدَما أحسّوا بِفُشُوّ اللّحْنِ و بُدُوّ الضّعفِ وضَياعِ هِمَمِ التّعلُّم،

---

[1] و يُذكَر أنّ الكِسائيَّ ألّفَ مختصراً في النحو، و ألفَ ابنُ خياط "الموجَز في النَّحو"، وألف ابنُ النَحاس "التفّاحة". وألّفَ ابنُ جني "اللُّمَع". وألّفَ ابنُ قُتيْبَة "تلقين المتعلم"، و ألّفَ ابنُ خالويه "المبتدئ". و ألّفَ ابنُ درستويه "الإرشاد في النحو" ، و ألّفَ المُفضّل بنُ سَلَمَة "المَدْخَل إلى النَّحْو" ، و ألّفَ الزّبيدي "الواضِح في النَّحْو"، وألّفَ المُطَرِّزِيّ "المِصْباح"، وألّفَ الشّلوبين "التّوْطِئة"، وألّفَ أبو الفَرَج الصَقِلّيّ "مُقَدمة في النحو"... وهي مؤلّفات يظهر من عَناوينها رَغبةُ مؤلفِيها في التّيسير والإيضاح والإرْشاد، كَما يَطغَى عَليها الجانبُ التَّعليميّ. (عَن كِتابِ: **المَنْظومَة اللّغويّة وتَكامُل المعرِفة"** د. رشيد بلحبيب، دار العالم العربي للنشر و التّوزيع بالإمارات العربية المتحدة سنة 2005) بنصّه. و انظُرْ سلسلةً طويلةً من أسماء أئمّة النّحو الذين اهتموا بوضع الملخّصاتِ والمُخْتَصَرات للنّاشئة، ذَكَرَها الدّكتور صَبْري إبراهيم السّيّد في كِتابِه "**الكافي في النَّحْوِ وتَطْبيقاته"** ج:1/ص:8 (دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ط.2-1994)

ثُمَّ يُضـافُ إلى ذلِك ما عَرَفَه النَّحْوُ مِن تَعَدّدِ الآراءِ واخْتِلافِها والإغْراقِ في التّأويلِ و التَّعْليلِ و التَّقْديرِ، والإكْثارِ مِنَ الطّولِ المُفْرِطِ الناشِئ عَنِ التَّكرارِ والاسْتِطرادِ و الحَشْوِ و الفُضـولِ، ومُعالجَةِ المَسائلِ الأجنبيةِ التي لا صِلَةَ لَها بالنّحوِ، فَضلاً عَن الشَّغَفِ بالمُناقَشاتِ والجَدَلِ، والمُبالَغَةِ في تتبُّع العِلَلِ، والإكثارِ مِنَ التَّقسيمِ والتَّفريعِ[1]، ومِنْ كُتبِ النحوِ ما يتعذّرُ استيعابُه على الدّارسينَ المُتخصّصينَ أنفُسِهم؛ وذلِك لامْتِلائِها بالحَشْوِ، أو كَما قالَ ابنُ مَضاءِ القُرطبيّ «بالمُماحَكاتِ و التَّخْييلِ»، ففيها حُشودٌ من المُجادَلاتِ الذّهنيّةِ العَقيمةِ وألوانٌ من العِلَلِ و العَوامِلِ التي يُسوّغُها منطِقُ العَقلِ لا مَنْطِقُ اللّغةِ.

1- فَممّن ألّفَ في قَواعِدِ الإعْرابِ و تَيسيرِ النّحوِ خَلَفُ الأحْمَرُ الذي وَضَعَ "مُقدّمَة في النّحو" ، قالَ في أوّلِه : « لَمّا رأيت النّحويين وأصحابَ العَربيةِ قَد استعْملوا التَّطويلَ وأكْثروا العلَلَ وأغْفلوا ما يَحتاجُ إليه المُتبلّغُ في النّحوِ مِن المُختَصَر ...أمْعنتُ النَّظرَ في كتابٍ أؤلفُه وأجمعُ فيه الأصولَ والأدَواتِ والعَواملَ على أصولِ المبتدئينَ ، لِيستغنِيَ به المُبتدئُ عن التَّطويلِ »[2] .

و لهذِه الأسبابِ عَمدَ المُختَصِرونَ إلى وضعِ مُختَصَراتِهم عِلْماً منهم أنّ اللّغةَ مَلَكَةٌ راسِخَةٌ في الطَّبْعِ ، تُكْتَسَبُ بكَثْرَةِ تَرْديدِ النُّصوصِ الفَصيحَةِ و تَعلُّمِها وحِفْظِها - « و المَلَكاتُ لا تَحْصُلُ إلاّ بِكَثْرَةِ الأفْعالِ »[3] - و لَيسَ بحفظِ كثرةِ القَواعِدِ النَّظَرِيّةِ التي تُجرَّدُ مِنْ نُصوصِها التّطبيقيّةِ .

2- و مِمّن ألّفَ في قَواعِدِ الإعْرابِ أبو الحَسنِ الخاوراني الشّوكاني (ت.571) ولَه في المَوضوعِ كِتابُ "القَواعِد و الفَوائِد في الإعْرابِ"[4] ، وهو مُختصَرٌ في عِلْمِ الإعْرابِ، جَعلَه على ثلاثةِ أقسامٍ : قِسم في مُقدّماتٍ تتعلّقُ ببيانِ النّحوِ والكلِمِ والكَلامِ و الإعرابِ والبِناءِ، وقِسم في المَقاصدِ وهي العَواملِ المُختلِفةِ: الرّوافِعِ والنّواصبِ و الخَوافضِ والجوازِمِ، وقِسم في اللّواحقِ ، منها بيانُ المعرفةِ والنّكرةِ و التّوابعِ، وقَواعِد في التّصغيرِ والنّسبِ والإمالةِ

---

[1] في إصلاح النحو العربي دراسة نقدية ، د. عبد الوارث مبروك ، دار القلم الكويت ط1 ، 1985 م

[2] مُقدِمَة في النَّحْو : 34 ، لخَلَف الأحْمَر ، تحقيق عز الدين التنوخي ، دمشق 1961م

[3] أبجد العُلوم/ الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ، القنوجي صدّيق بن حسن خان البخاريّ ، تح. أحمد شمس الدّين ، دار الكتب العلمية ، بيروت. ط.1 / 1420-1999 . البابُ الخامس، مطلَبٌ في أنّ اللّغةَ مَلَكَةٌ صِناعيّة

[4] تح. د. عبد الله بن حَمَد الخثْران. دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، 1413هـ-1993م .

والوَقفِ. وتتخلّلُ هذه الأقسامَ قواعدُ و فوائدُ لا يستغني عَنها طالبُ الإعْرابِ، وتَنتَهي بعَشرِ مَسائلَ مِن المُشكِلاتِ، كالفرقِ بين "مَنْ" و"ما" و الفرقِ بين "إذا" و "إنْ"، وإضافةِ ظروفِ الزّمانِ إلى الفعلِ، ووُقوعِ الجارِّ و المجرورِ صِفةً و حالاً، وبَعضِ أحكامِ التقديمِ والتّأخيرِ... وهُوَ بتَصْريحِ صاحِبه مُخْتَصَرٌ في الإعرابِ جَمَعَه ممّا سَمِعَه مِن أفواهِ العُلَماءِ و أملاه عَلى بعضِ تَلامذتِه .

3- و ممّن ألّفَ في القَواعدِ الموجزَةِ أيضًا أبو العَبّاسِ شِهابُ الدّينِ القَرافيّ (ت.684) العالِمُ الفقيهُ اللُّغويُّ صاحبُ المُصَنّفاتِ الكثيرةِ المبنيّةِ على أساسِ القواعدِ والمسائلِ، ومنها رِسالَتُه الموجَزَةُ في "القواعدِ الثلاثينَ في علم العربيةِ"[1] التي تتضمَّنُ مادَّةً نَحويةً وصَرفيةً وشَواهدَ فَصيحةً ، و تعالجُ قضايا تركيبيةً و إعرابيةً يحتاجُ إليها الطّالِبُ في علمِ العربيّةِ ، كمسألةِ التّعلُّقِ في الظّروفِ و حروفِ الجرّ، و اخْتلافِ الجملِ و أشباهِ الجملِ بعد النّكِراتِ و المعارِفِ ومسألةِ عَودِ الضّميرِ عَلى متقدّمٍ أو متأخّرٍ ، وأنواعِ الحالِ باعتبارِ الزّمانِ وباعتبارِ الذّاتِ .

4- و ألّفَ جمالُ الدّينِ ابنُ هشامٍ الأنصاريُّ (ت.761) كِتابَ "مُغْني اللّبيبِ عن كُتُبِ الأعاريبِ"[2]، وهو كِتابٌ ضخمٌ لم يَجْرِ عَلى مثالٍ سَبَقَ في التّصنيفِ النّحويّ: إذْ تَناولَ موضوعاتٍ نحويّةً مُختلفةً تَناولاً شاملاً مُفصّلاً. فقدْ عقَدَ أبوابًا لمَعاني الحُروفِ والأدَواتِ، وباباً في تَفسيرِ الجُملِ وذِكرِ أقْسامِها و أحْكامِها الإعْرابيّةِ وباباً في الظّرفِ والجارّ و المَجْرورِ وهُو شِبه الجُملةِ. وأبواباً في أحْكامِ الإعْرابِ وما يَنبَغي للمُعْرِبِ أن يَعْلَمَه وما يَقْبُحُ به أن يَجْهَلَه. وباباً في كُلّيّاتٍ نَحويّةٍ يتخرّجُ عليها ما لا يَنحَصِرُ من الصّوَرِ الجُزئيّةِ .

ويهمُّنا من أسبابِ التأليفِ التي ذَكَرَها في مُقدِّمةِ كِتاب "المُغْني" أنّه قصَدَ به إلى تَيسيرِ فَهمِ القُرآنِ الكريمِ وفَتحِ أغْلاقِ مَسائلِ الإعرابِ وإيضاحِ ما أشكَلَ على الطّلاّبِ فهمُه من قَواعِدِ النّحوِ و عَويصِ مَسائلِه. وتَصْحيحِ أخْطاءِ المُعرِبينَ...

---

[1] تح. د. طه محسن،و الرّسالةُ منشورةٌ بمجلّة آداب الرّافدين، وقد قدّم لها المحقّق بمقدّمةٍ في اثنتين و ثلاثين صفحةً. انظر: مجلّة **آداب الرّافدين**. الصّادرة عن كلية الآداب. جامعة الموصل، ع:12 ، 1400هـ-1980م،

[2] تح. د. مازن المُبارَك و ذ. محمّد عليّ حَمد الله، و مُراجعَة د. سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت.،ط/5، 1979 وقد حظيَ هذا الكِتابُ باهتمامٍ كثيرٍ من العُلَماء فألفوا فيه الشُّروحَ والحَواشي، منها شرح الدّمامينيّ (ت.828) وشرح ابن الملاّ (ت.1003)وشرح القاضي مصطفى الأنطاكي (ت.1100) ... و شرح الشّواهِد الصّغرى وشرح الشّواهِد الكُبْرى، للمؤلّف نفسِه، و حاشية الشّمنّي(ت.872) المُسمّاة "المُنصف من الكلامِ على مُغْني ابنِ هِشام"، و حاشية الدّسوقي (ت.1230)، و حاشية الأمير (ت.1232)

5- ومن كُتُبِه أيضـاً "الإعْرابُ عن قَواعِد الإعْراب"[1]، وهو كِتابٌ صـغيرُ الحجمِ كَبيرُ الفائِدَةِ، ألّفَه قَبْلَ "مُغْني اللّبيب" تَناولَ فيه ابْنُ هشـامٍ الجُملَةَ وأحْكامَها وشِـبهَ الجُملَةِ وأموراً يحْتاجُ إليها المُعْرِبُ ...

6- و قد تَناوَلَه بالشَّرحِ عَدَدٌ من العُلَماءِ مِنْهُم مُحْيي الدّين الكافيجيّ (ت.879) في كِتابِه "شَـرْح قَواعِـد الإعْراب"[2] ، هو كِتابٌ في أصـولِ الإعْرابِ وتَطْبيقاتِه « يضـمُّ خِبْرَةَ قُرونٍ مُتَوالِياتٍ ، و يَبْسُـطُ نَماذِجَ عمليّةً لتطوّرِ أسـاليبِ المُعْرِبينَ، وصُـوَراً مُختلِفةً من ضُـروبِ التَّحْليلِ النّحويّ للنُّصـوصِ ، فيُهيّءُ سُـبُلَ تَمرينِ الخاطرِ و النَّظَرِ ومَعالِمِ التّدريبِ العَمَليّ للدّارِسِ و الباحثِ و المُحقِّق »[3].

7- و شرَحه أيضاً الشّيخُ خالِدٌ الأزهَرِيّ (ت.905) في كِتابِه "موصِل الطّلاّب إلى قَواعِد الإعْراب" ؛ قالَ فيه: «هذا شَرحٌ لَطيفٌ عَلى قَواعِدِ الإعرابِ سَألَنيه بَعضُ الأصْحابِ يحلُّ المَباني ويُبينُ المَعاني، سَمّيتُه "موصل الطُّلاّبِ إلى قَواعدِ الإعْراب"»[4]

***

ونَعودُ إلى كِتابِ "مُغْني اللَّبيب"، فَنَرى أنّ ابنَ هشـام قد أوْلى "مَنْهَجَ الإعْرابِ" و"خِدْمَةَ الإعْرابِ للمعنى" اهْتمـاماً بـارزاً؛ فقـد اشْـتَرَطَ على المعرِبِ أن يفهَمَ مَعنى مـا يُعْرِبُـه مُفرَداً ومُركَّباً؛ وأن يجعَلَ الإعْرابَ أداةً لبُلوغِ المَعنى، على ألاّ يقتَصِـرَ عليْه وألاّ يجْعلَ الصِّـناعةَ الإعرابيّةَ مقصـودةً لذاتِها، أو يلتَمِس المَعْنى وحدَه ويُهْدِر القَواعِدَ النّحويّةَ ، فَرِعايَةُ المَعْنى

---

[1] و سَمّاه مُصنّفُه "**بالمُقدّمة الصُّغْرى**" أيضاً ، و كِتابُ "الإعْراب عَن قَواعِد الإعْراب" حَقّقَه رَشيد عَبْد الرّحن العبيدي، ونُشِرَ في بَيْروت سنةَ 1970م .

[2] تح. د. فَخْر الدّين قَباوة، ط. طلاس للدّراسات و التّرجمة و النّشر، سوريا، ط/2 ، 1993 .

[3] مُقدّمة تحقيق كِتاب "**شَرْح قَواعِد الإعراب**" ص:7 ، د. فَخر الدّين قَباوة .

[4] موصِل الطّلاّب إلى قَواعِد الإعْراب : 23/1 للشّيخ خالِد بنِ عبدِ الله الأزهريّ (ت.905) ، وقدْ وَضَعَ هشام السّيّد محمّد المغاوري تهذيباً لشرحِ الشّيخ خالدٍ الأزهريّ على كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب للعلامة ابن هشام الأنصاري ، سمّاه "**إرْشاد الطّلاب إلى قَواعِد الإعراب**" نَشر أبي محمّد هشام السيد محمد المغاوري، السعودية (2005) [نسخة إلكترونية : نُشِرت في صيغة ملف Adobe eBook Reader] وهو إخراج لقواعد الإعراب في صورة عصرية توضح القواعد بأيسر سبيل وأسهل عبارة يفهمها المبتدئ والمنتهي ، وذلك دون الإخلال بالأصل .

مصْحوبَةٌ بِرِعايةِ الصِّناعَةِ الإعرابيّةِ[1]، وكَلَّفَه هذا النَّظَرُ السَّديدُ بِناءَ كِتابِه عَلى مَصادِرَ كثيرَةٍ منها آراءُ كِبارِ أئمّةِ النّحوِ البصرِيِّ كالخَليلِ بنِ أحمدَ ويونُسَ بنِ حبيبٍ وسيبَوَيْهِ، ومنها الأخذُ عنِ أئمّةِ المدرَسَةِ الكوفيّةِ كالكِسائيِّ والفَرّاءِ و ثَعْلَبٍ، وعَن نُحاةِ الأمصارِ الأخرى، وكَلَّفَه هذا النَّظَرُ أيضاً تأسيسَ كِتابِه عَلى مادَّةٍ علميّةٍ غزيرةٍ ومُتَعَدّدةٍ؛ فلَم يقتصِرْ عَلى المَسائلِ النّحويّةِ الخالِصةِ، ولكنّه أدرَجَ في منهجِه موادَّ لغويّةً ممّا يخدمُ تفسيرَ المَسائلِ النّحويّةِ، وضمّنَ كِتابَه كثيراً من اللّهجاتِ العربيّةِ، والفَوائِدِ البَلاغيّةِ والبَيانيّةِ، وكثيراً من آراءِ المُفسِّرين والفُقَهاءِ[2] . وهذِه الثّقافَةُ الواسعةُ المُتنوّعةُ مكّنتْه من إيلاءِ المَعْنى ما يستحقُّه من قيمةٍ في أثناءِ الإعرابِ، ومنْ رِعايةٍ لقواعِدِ الصّنْعةِ الإعرابيةِ، وهو منهجٌ مُتكامِلٌ برهَنَ عليه صاحبُه بالنَماذِجِ التّطبيقيّةِ والأدلّةِ المَلْموسةِ .

***

2- قَواعِدُ الإعْرابِ في كُتبِ المُعاصِرينَ :

أمّا في العَصرِ الحَديثِ فقدْ أُلِّفَت كُتبٌ كثيرةٌ في فنِّ الإعرابِ وتَلْقينِ مَبادئه مع سُلوكِ سبيلِ التّبسيطِ والتَّيْسيرِ[3]، على أيدي كثيرٍ من عُلَماءِ اللّغةِ والباحثينَ المُنادينَ بتجديدِ بنيةِ النّحوِ العربيِّ وتبسيطِ الإعْرابِ ومُراجعَةِ القَواعِدِ وتَصحيحِ طريقةِ التّلْقينِ ، مِثْل أحمد ابن

[1] انظُرْ تفصيلَ الكَلامِ عن هذِه الشُّروطِ الإعْرابيّةِ ، في البابِ الرّابِعِ الذي عَقَدَه ابنُ هشامٍ لِذكْرِ الجِهاتِ التي يَدْخُلُ الاعْتِراضُ عَلى المُعْرِبِ مِنْ جِهَتِها ، و عِدّةُ صَفَحاتِه ما يُقارِبُ المائتَيْنِ: **مُغْني اللّبيب**: من ص:588 إلى ص:782

[2] انظر تفصيلَ الكلامِ عن منهجِ ابنِ هِشامٍ: **منْهَج ابْنِ هِشامٍ مِن خِلالِ كِتابِه "المُغْني"**: من ص:157 إلى ص:250 د. عمران عبد السلام شعيب الدّار الجماهيريّة للنّشر والتّوزيع . ط/1 ، 1986م .

وانظُرْ أيضاً: **ابن هِشام وأثَره في النَّحْو العَرَبِيّ**، د.يوسُف عَبد الرّحمن الضّبع. دار الحديث، القاهرة، ط.1 / 1418هـ-1998م ، وكَذا: **ابْن هِشام النَّحْوِيّ**. د.سامي عوض. دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر. دمشق. ط.1 / 1987م

[3] -**ظاهرة الإعراب والنحو العربى وتطبيقها فى القرآن الكريم**. أحمد ياقوت - **فى إعراب القرآن**. محمود نحلة

-**مبادئ الإعراب**، شرف الدين الراجحى -**البسيط فى علم الصرف**، شرف الدين الراجحى -**قواعد العربية**. زين الخويسكي -**سر الإعراب**، زين الخويسكى -**الميسر في قواعد الاعراب**، خليل ابراهيم -**المرشد في قواعد النحو والصرف**. خليل إبراهيم -**موسوعة القواعد والاعراب**، عباس صادق -**المدخل النحوي تطبيق وتدريب في النحو**، بهاء الدين بوخدود -**الرشيد في النحو العربي**، محمد الحموز -**أساسيات اللغة العربية**، حفظي اشتية -**قواعد اللغة العربية. شرح شامل مع أمثلة**، عارف الحجاوي ...

سليمان بن كمال باشا شمس الدين[1]، ورفاعَةُ الطّهطاوي[2]، وعَلِيّ الجارِم[3]، ومُصطفى أمين4، وإبراهيم مصطفى[4]، وأمين الخولي[5]، وشَوقي ضَيف[6]، وسَعيد الأفغاني[7]، وإبْراهيم أنيس[8]، وعَبّاس حَسَن، وتَمّام حَسان وغيْرِهم...[9]

1- ومِنَ النّماذجِ التي يُمكنُ أن تُذكرَ في هذا المِضمارِ كتابُ **أسرار النّحو** لشمسِ الدّين أحمدَ بنِ سُليْمانَ المعْروفِ بابن كَمال باشا (ت.940هـ-1534م)[10]. ويأتي تأليفُ هذا الكتاب في عصرٍ –هو العصرُ التّركيُّ- تَراجَعَت فيه قُوّةُ التّصنيفِ في العلمِ وعَرَفَت العربيّةُ جفافاً والعُقولُ ضعفاً في الإبداعِ، واكْتُفِيَ بالشّروحِ والحَواشي على المُتونِ النّحويّةِ المتقدّمةِ، ولكن اسْتُثْنِيَ من هذه القاعدةِ كُتبٌ أجادَ أصحابُها في تَصنيفِها وترتيبِ موادّها وتَقْريبِ فَوائدِها، ويأتي كتابُ ابنِ كَمال باشا في طَليعةِ المؤلّفينَ الذين اجتهَدوا في إحياءِ النّحوِ وذلِك بتنقِيَته من الشروحِ والحَواشي ومَسائلِ الخِلافِ، وبتقْديمِه إلى القُرّاءِ في هيئةٍ تُقرّبُه من الأذهانِ، وكتابُ أسرارِ النّحو-وإن كانَ ينهجُ طريقَةَ الزّمخشريّ في تَقسيمِ أبوابِ المُفصَّلِ النّحويّةِ واخْتصارِ مَباحثِه، فقَد امْتازَ عنه بتَخْليصِ مَسائلِ النّحوِ من مَسائلِ الصّرفِ، وعَدّ الصّرفِ

[1] اللّغويّ الفقيه ذو التّصانيفِ في علوم الحَديثِ ورجالِه، قلّما وُجِدَ فنٌّ من فُنون العلوم الشرعيّة واللغويّةِ ليسَ له فيه مُصنَّفٌ أو رسالَةٌ، انظر ترجمتَه في: **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، خير الدين الزّركلي، دار العلم للمَلايين، بَيروت، ط.15، مايو 2002م، ج:1/ص:133.

[2] يُذكَر له كِتابٌ في تجديدِ النّحو و تَيْسيرِه هو : **التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية** - 1873م .

[3] انظُرْ سلسلةَ عليّ الجارِم و مُصطَفى أمين المَشْهورَةَ بـ"**النّحْو الواضِح في قَواعِدِ اللّغةِ العربيّة**"، طبعة دار المَعارِف بمصر، ط/14 ، 1376هـ-1956م . و الكِتابُ في أجزاء كثيرةٍ، ويَقومُ مَنْهَجُ الكِتابِ على عَرضِ الأمْثِلَةِ ثُمّ وَصْفِها وتَحْليلِها ثُمّ اسْتِخْراجِ القاعِدَة منها .

[4] **إحياء النّحْو** ، القاهِرة 1937

[5] **مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب** ، القاهرة 1961م

[6] **تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده** ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف 1986م

[7] **الموجَز في قَواعِد اللّغة العربية**

[8] **من أسرار اللغة** . القاهرة . ط/4 . 1966م

[9] وانظرْ في مسألةِ تجديدِ النّحوِ و تبسيطِ قواعِدِه البَحْثَ القيّمَ الذي أنجزَه الدّكتور رشيد بلحبيب و نُشِر بكتابٍ ضمّ أشغالَ مؤتمر "**العَربية وقَرن من الدّرس النّحوي**" الذي عقد بكلية دار العلوم. قسم النحو والصرف. بالقاهرة سنة 1423هـ. كَما نُشِر ضمنَ كِتابٍ له بعنوان: "**المَنْظومَة اللّغويّة وتَكامُل المعرِفة**" ، صَدَر الكتابُ عن دار العالم العربي للنشر و التّوزيع بالإمارات العربية المتحدة سنة 2005

[10] **أسرار النّحو**، تحقيق أحمد حَسَن حامد. دار الفكرِ للطّباعَة والنّشر والتّوزيع، ط.2، 1422هـ/2002م.

علماً لتوليدِ الكلماتِ وحقُّه أن يُقدّمَ على النّحوِ في ترتيبِ التّعليمِ، وليس له أن يُؤخّرَ على نحوِ ما كانَ يفعلُه النّحاةُ المتقدّمونَ من تَذييلِ كتُبهم بالمَباحثِ الصّرفيّةِ.

لَقَد خلّصَ ابنُ كَمال باشا كتابَه من الخلافاتِ، واستَقى مادّتَه من ينابيعِ النّحوِ الأولى وهي أقوالُ سيبَويْه وأبي عَمْرو بن العَلاءِ وأبي عليّ الفارسيّ والمازنيّ والكسائيّ والفَرّاء، وابن هشام الأنصاريّ من المتأخّرين.

لكنّ طريقَ الانتقاءِ والتّخليصِ لم يشفَعْ لمَنهجِ الكتابِ؛ ذلك أنّ عنوانَ الكتابِ وهو أسرار النّحو لا توجَدُ له حقيقةٌ داخلَ الكتابِ؛ فأنت تقرأ الكتابَ بحثاً عن الأسرارِ فلا تجدُ إلاّ ما قد تجدُه في كتابِ المُفصّل للزّمخشري أو المُقرّب لابن عُصفور الإشبيليّ من أبوابٍ وطريقَة بَسْطٍ لموادّ الكتابِ.

2- أمّا الكِتابُ الذي ألّفه الأسْتاذ سَعيد الأفْغاني رحِمه الله، فهو "الموجَز في قَواعِدِ اللّغةِ العَربيّة"[1]، وكانَ وَراءَ تأليفِه غاياتٌ مُتعدّدَةٌ:

- غاياتٌ يَنشُدُها طلاّبُ العِلْم، فقدْ أُلقي مُعظمُ أبْحاثِ هذا الكتابِ عَلى طَلَبةِ كُلّيةِ الآداب في دِمشقَ، و كانوا قَد وَجَدوا فيها شَوقاً لمُتابَعةِ أسْرارِ اللّغةِ العَربية، تَدبُّراً و تَذوُّقاً

- وغاياتٌ تنبّه كلّ ذي رَشَدٍ وذوقٍ على أسلوب دِراسةِ اللّغةِ العَربيةِ، وما انْحَدرَت إليه مِنَ الضَّحالة والسّطحيّةِ والضّعف، مَع كلِّ ما انْتهى إليه طُلاّبُها مِن فَسادِ الذّوقِ وعُجْمَةِ اللِّسانِ، وفَهاهَةِ البَيانِ.

-وغاياتٌ تَردُّ على مَن يُحاولونَ التّشكيكَ والشّكوى مِن أنّ الصُّعوبةَ التي يَجدُها الطّلابُ كامِنةٌ في اللّغةِ العَربيةِ نَفسِها، أو في نَحْوِها و أحرفِها و إعرابِها كما يُنادي بَعضُهم بإبعادِ هذه الأمّةِ عَن ثَقافتِها العَربيةِ، وحَجْبِها عَن فَهمِها وتَذوّقِ أسْرارِها .

- وغاياتٌ تناسب تطوّرَ هذا العصر، فلم يَعُدْ عَرضُ القَواعد في الجامِعاتِ دونَ مُناقشَةِ ما تَستَنِدُ إليه منْ شَواهدَ مَقبولاً؛ لأنّ الشّواهدَ روحُ تلكَ القَواعدِ تُضفي عَليها حَياةً ومتعةً وأصالةً. وعَلى هذه المادّةِ في الجامِعاتِ أن تَكونَ ثَقافةَ شَواهدَ أكثَر ممّا هي ثَقافةُ قَواعِدَ .

[1] **الموجَز في قَواعِد اللّغة العربيّة**، دار الفكر، دمشق .

3- وألّفَ الدّكتور عَبده الرّاجحي كِتابَ "التّطْبيق النّحويّ"[1] لِتَدْريبِ الطّلاّبِ على دَرسِ النَّحْوِ دَرْساً تطبيقيّاً ومُعالَجَةِ أبوابِه و نُصوصِه مُعالَجَةً عَمَليّةً ، وقَسَّمَه إلى قِسمَيْن: قِسمٍ للكَلِمة وآخَرَ للجُمْلَةِ، وبَوّبَ كِتابَه بحَسَبِ أبوابِ النّحوِ، ثُمّ عرضَ في كلّ بابٍ القواعِدَ والأحْكامَ عَرضاً تطبيقِيّاً ، و ذلِكَ مِن خِلالِ الإعرابِ المُفصّلِ للأمثِلةِ .

4- و ألّف الدّكتور عَبدُ العال سالِم مكرم كتابَ "تَطْبيقات نَحْويّة وبَلاغيّة" وهو كِتابُ قواعِدَ وتَطبيقٍ نَهَجَ فيه صاحبُه مَنْهجاً تَعليميّاً بإيرادِ الأمثِلةِ المُخْتارَةِ لاستنباطِ القَواعدِ مِنها، وحُسنِ اخْتيارِ النَّماذِجِ التي ترْشِدُ الطّالِبَ إلى مَعرِفةِ قَواعدِ العربيّةِ بنفْسِه، وقد صَنّفَ كِتابَه بطريقةِ عَرضِ أبوابِ النَّحْوِ عَرْضاً مُيَسَّراً واسْتخراجِ القاعدةِ النّحويّةِ بأسلوبٍ حَديثٍ مُيَسَّرٍ ، وقد دَفعَه إلى وَضعِ كِتابِه ما لاحَظَه من صِراعٍ حَولَ النّحوِ وتَعليمِه، واضْطِرابٍ في تَقْسيمِ المَوضوعاتِ، فقدّمَ كِتاباً يَجمَعُ بَينَ القَواعدِ الأصيلةِ و الشّواهدِ البَليغةِ و التّمارينِ التّطبيقيّةِ الكثيرة[2] .

5- و ألّفَ الدّكتور صَبْري إبْراهيم السّيّد كِتابَ " الكافي في النَّحْوِ وتَطْبيقاتِه "[3] ، فجاءَ كِتابُه مُحاولَةً جديدةً في إطارِ إيضاحِ النّحوِ و تَبْسيطِه، وقدْ نَهَجَ فيه صاحِبُه مَنْهَجَ التَّرْكيزِ على التّطبيقِ و الإكْثارِ منْ أمثِلةِ الإيضاحِ، واسْتِعْمالِ قِياسِ المِثالِ على المِثالِ ، وتَنْويعِ مَصادرِ الاستِشْهادِ و التَّمْثيلِ، والالْتِزامِ بوجْهٍ إعرابيٍّ واحدٍ و مصطلَحٍ إعرابيٍّ واحدٍ اتّقاءَ البلْبَلَةِ و التّشويشِ والخَلْطِ ، والأخذِ برأيِ ابْنِ السّرّاجِ في أنّ الظّرفَ و المَجْرورَ قسمٌ برأسِه و ليسَ منْ قَبيلِ المُفْرَدِ أو الجُملةِ ، و مِن ثَمّ فلا داعِيَ لتقْديرِ محذوفٍ، والأخذِ برأيِ الكوفيّينَ في إعمالِ حُروفِ النّصبِ دونَما حاجَة إلى افْتراضِ "أنْ" المُضْمَرَة، ثمّ إتْباع كلّ بابٍ بِتَدْريبٍ إعرابيّ و أمثِلةٍ تطبيقيّةٍ .

---

[1] التّطبيق النّحْويّ، د. عَبْدُه الرّاجحي، دار النّهضة العربية، بيروت، 1975 .

[2] تَطبيقات نحويّة وبَلاغيّة، د. عبد العال سالِم مكرم، دار البُحوث العلمية، ط/2 ، 1398هـ-1978م . وانظر آراءَ العُلَماءِ والباحِثينَ في هذا الكِتابِ، بالمُقدّمة (ص:3-4)

[3] ط. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط/2 ، 1994 .

6- وألّفَ الدّكتور محمّد عيد كِتابَ "النَّحْو المُصَفّى"[1]؛ لأنّه رأى من الواجِبِ بَذْل جُهْدٍ مُخْلِصٍ لِتَخْليصِ المُفيدِ في هذا النَّحْوِ من الزّائِدِ المُعَوِّقِ والإبْقاء عَلى "نَحوِ اللّغةِ" لا "نَحْو الصَّنْعَةِ"[2].

7- و ألّفَ الدّكتور فَخر الدّين قَباوة سِـلْسِـلَةَ كُتُبٍ هي حَلقاتٌ مُبارَكَةٌ، في ميدانِ التّطبيقِ الإعرابِيّ والصَّـرْفي، منها كِتابُ "المَوْرِدِ الكَبير"[3] وكِتاب "المَوْرِد النَّحْويّ الكَبير"[4] وكِتاب "المَوْرِد النَّحْويّ"[5] وكِتابُ "نُصـوص نَحْويَّة"[6]، وتَضـمُّ هذِه "المَوارِدُ" المَذْكورَةُ نَماذِجَ تَطبيقِيّةً رائِدةً في ميدانِ الإعْرابِ والصَّـرْفِ، وزادَ المؤلِّفُ في بعضِـها نَماذِجَ تطبيقِيّةً في بَيانِ مَعاني الأدواتِ، وعزَّزَها بِفَهارِسَ تَفصـيلِيّةٍ وافِيَةٍ تُرْشِـدُ الطّالِبَ والباحثَ إلى المُصْـطَلَحاتِ النّحويّةِ والصّـرفِيّةِ وما يُقابِلُها منَ الأمثِلَةِ والشّـواهِدِ المُناسِـبَةِ، أمّا في مَيْدانِ التَّطْبيقِ فقد اخْتارَ المُؤَلّفُ نُصـوصـاً فَصـيحةً من الشَّـواهِدِ الأدبيّةِ، وأعْرَبَ مُفْرَداتِها وجُمَلَها إعْراباً مُفصَّلاً، و بَيّنَ الفَوائدَ الصَّرْفيَّةَ في أبْنيَةِ كَلِمِها، وبَيّنَ مَعاني أدواتِها بِحَسبِ ما وَرَدَتْ عَلَيْه في السِّياقِ.

***

من القَواعدِ إلى المَبادئ:

تلكَ المَراجِعُ الإعرابيّةُ التي اتَّجَهَت نَحوَ تَيسـيرِ الإعرابِ، لم تُحدِّد المَبادئَ المَنْهجيّةَ للإعرابِ السَّـليم[7]، التي يَنبَغي أنْ يُراعِيَها المُعربُ في إعرابِه للكَلامِ، ولكنَّها وَقفَت عِندَ مَنهجِ

---

[1] **النَّحْو المُصَفّى**، د. محمّد عيد، نَشْر مَكْتَبَة الشَّباب، مصر .

[2] انظُرْ مُقَدّمةَ كِتابِه "**النَّحْو المُصَفّى**"

[3] صَدرت الطّبعة الأولى سنة 1392هـ-1972م ، و الطّبعةُ الثّانيةُ سنةَ 1398هـ-1978م، عن دار الآفاق الجَديدَة ببيروت .

[4] صَدرَت الطّبعةُ السّابِعةُ سَنَةَ 1998م بِدمَشْقَ

[5] صَدرت الطّبعة الأولى سنة 1391هـ-1971م ، و الطّبعةُ الثّانيةُ سنةَ 1399هـ-1979م عن دار التّقدّم-دار القَلَم العربيّ بحَلَب، والطّبعةُ العاشرةُ بِدمشقَ سَنَةَ 1994م .

[6] صَدَرَت الطّبْعَةُ الأولى سَنَةَ 1418هـ-1997م ، و الطّبعةُ الثّانيةُ سنةَ 1419هـ-1999عن دارِ الفكْرِ بِدمشقَ .

[7] تُسْتَثْنى من كتُبِ تَيْسيرِ القَواعِدِ سِلْسِلَةُ "**المَوارِدِ**" القَيّمةُ التي ألّفَها الأستاذ الدّكتور فَخر الدّين قَباوة، فهي سلسلةٌ موجّهَة إلى صُفوفِ طُلّابِ الجامِعاتِ، ومن سِماتِها المَنْهجيّةِ البارزةِ أنّها تَرْفَعُ مُسْتَوى طالِبِ الإعْرابِ، و *تُحسّنُ مَهارَتَه الإعرابِيّةَ، و تُذلّلُ أمامَه الصّعابَ النّفسِيّةَ المُتَراكِمَةَ عَبْرَ السّنينَ، ولا تنزِلُ إلى حَضيضِ التّبسيطِ* المُسِفّ، وأمّا الجانِبُ النّظَرِيُّ المُتَعَلّقُ بِمَبادِئِ الإعْرابِ السّليمِ والمَعالِمِ المَنْهجيّةِ التي ينبَغي أن يَسْتَرْشِدَ بِها طالِبُ الإعرابِ قَبْلَ أن يَلْتَمِسَ التّطبيقَ، فَقَد بَسَطَها مُؤلّفُ "المَوارِدِ" في كُتُبٍ أخرى، وعَرَضَها عَرْضاً منهجيّاً دَقيقاً

التّبسيطِ والتّيْسيرِ وانتقاءِ ما ينفعُ الطّلاّبَ لفَهْمِ أوجه إعْرابِ الكَلامِ، ولتعلُّم النّحوِ التّطبيقيّ الذي يُسعفُ في إعْرابِ النُّصوصِ فَحَسْب، أي اكْتَفَتْ بالجانِبِ التَّعْليميّ، ولم تَمَسَّ الجانِبَ النَّظَرِيّ إلاّ مَسّاً خَفيفاً، وخاصّةً في مُقَدّماتِ المُؤَلّفاتِ، حيثُ تَعَرّضَتْ لدَواعي التّأليفِ في تَبْسيطِ النَّحْوِ وتيسيرِ قواعِدِه للمُعْرِبينَ، جَرْيا –عِنْدَ بَعْضِها- على سَنَنِ النَّظَرِيّاتِ اللّغويّةِ الحَديثةِ واسْتِثْماراً لمَناهِجِ الوَصْفِ والتَّفْسيرِ في اللّسانِيّاتِ الحديثَةِ، التي تَدْعو إلى تَطْبيقِ مُقَرَّراتِ هذه النَّظَرِيّاتِ في تَعَلُّمِ اللُّغَةِ و تَعْليمِها .

3- عَمَلي في هذا البَحثِ والقصدُ منه:

و سأتَعَرَّضُ في هذا البَحْثِ الموجَزِ لِبَعْضِ المَبادئِ المَنْهَجيّةِ للإعرابِ السّليم، وأقْصِدُ بِها **المَبادِئَ الأساسَ التي يَحْتاجُ إليها المُعْرِبُ في فهمِ مَقاصِدِ النّحوِ، ويَسْتَرْشِدُ بِها في إعرابِه لِلكلامِ، مُفْرَداتٍ وجُمَلاً، قبلَ أن يَشْرَعَ في التّطبيقِ الإعرابيّ، وهِيَ مَبادئُ عامّةٌ تَتَحَكَّمُ في طَريقَةِ الإعْرابِ السَّليمِ** .

و تُعَدُّ هذِه المَبادِئُ مَقاصِدَ عُلْيا وقَوانينَ عامّةً تَحْكُمُ قَواعِدَ الإعرابِ وتُراعَى في إنْجازِه وتَطْبيقِه، حَتّى يتَوافَقَ الشّكْلُ الذي أُعْرِبَ بِه الكَلامُ والمَعْنى المُرادَ من الكَلامِ المُعْرَب. وتَرومُ هذِه المَبادِئُ المَنْهَجِيَّةُ -في أثْناءِ الإعرابِ- مُراعاةَ **مَقاصِدِ الخِفَّةِ، والسُّهولَةِ، ومُطابَقَةِ اللَّفظِ لِمُقْتَضى الحالِ في التَّخاطُبِ، ودَفْعِ اللَّبْسِ في المَعْنى، ودَفْعِ الاسْتِثْقالِ في اللَّفظِ، ورَوْمِ الإيجازِ والاخْتِصارِ**... وتَعْمَلُ هذِه المَبادِئُ وغيرُها –أيضاً- عَلى تَرْجيحِ وُجوهٍ تَرْكيبِيَّةٍ في

يتّسمُ بشُموليّةِ التّصوُّرِ وتماسُكِ البِناءِ النّظريّ ووُضوحِ الأهدافِ و الغاياتِ. والمُطّلِعُ على سائِرِ كُتُبِ الأستاذ الدّكتور - في الأدبِ والنّحوِ و الإعرابِ و التّحقيقِ - يَلْمَسُ بما لا يَدَعُ مَجالاً للشّكِّ أو الغُموضِ أنّ هذِه المُؤلّفاتِ برُمّتِها **مؤسَّسَةٌ لغويّةٌ مُتماسِكةٌ** . و **مَدْرَسَةٌ أصيلَةٌ** تَرْمي إلى تَرْبِيَةِ "**المَهاراتِ اللّغويَةِ وعُروبَةِ اللِّسانِ**" في نُفوسِ الطّلاّبِ والباحِثينَ، وتُعَلِّمُهُم مَنْهَجَ "**تَحْليلِ النّصّ النَّحْويّ**". و تَأْخُذُ بيدِهِم نَحْو "**قِراءَةٍ مُوَجَّهَةٍ لِمَصادِرِ التُّراثِ في رِحابِ المَكْتَبَةِ العَرَبِيَةِ**". وتُمِدُّهُمْ بِطَريقَةِ مُعالَجَةِ إشْكالِيّاتٍ أدبيّةٍ ولُغَويَّةٍ كَثيرَةٍ، منها "**إشْكالِيّاتُ في البَحْثِ والنَّقْدِ النَّحْوِيّينِ**" و"**تَطَوُّر مُشْكِلَةِ الفَصاحَة**" و"**تاريخ الاحْتِجاجِ النَّحْويّ بالحَديثِ الشّريف**" و"**مُشْكِلَة العامِلِ النَّحويّ ونَظرِيَة الاقْتِضاء**"... وهكذا فإنّ الإطارَ النَّظَرِيّ و المَنْهَجِيّ لِبِناءِ المَهاراتِ الإعرابِيّةِ و المَلَكاتِ النَّحويّةِ و اللّغويّةِ تُلْتَمَسُ في مِثْلِ هذِه الكُتبِ المَذْكورَةِ .

الاسْــتِعْمالِ عَلى وُجوهٍ أُخْرى، وإِعْرابٍ دونَ إعْرابٍ؛ لأَنَّ الْوُجوهَ الرّاجِحَةَ تَعَيَّنَتْ بِموجِبِ الْمَبادِئِ والْمَعاييرِ الْمُتَحَكِّمَةِ في التَّداوُلِ اللُّغَويّ[1] .

وللعَرَبِيّةِ مَبادِئُ مَنْهجيّةٌ للإعرابِ السّليمِ يُمكنُ اسْتِخْراجُها من كُتُبِ أصولِ النّحوِ، واسْتِقْراؤُها من الطُّرُقِ التي اتَّبَعها النُّحاةُ في إرشادِ المُعرِبين وتَعْليمِهم، بعدَ تَخْليصِها من الأمثِلةِ التَّطبيقيّةِ التي رافَقَتْها، وتَجْريدِها لِتَكونَ صالِحةً لأن تُعْرَضَ عَلى شكلِ مبادِئَ عامّةٍ في مَنهجِ الإعْرابِ الصّحيحِ، يَستَفيدُ مِنْها المُسْتَرْشِدُ بالمَبادئِ الموطِّئةِ للإعرابِ السّليمِ، والمُتَلَمِّسُ للقَواعدِ العامّةِ، التي تُراعى في إدراكِ عَلاقاتِ الكَلِمِ بعضِها ببَعضٍ .

***

وسأعرِضُ لِبَعْضِ هذِه المَبادئِ المَنْهَجيّةِ في هذا البَحْثِ الموجَزِ، على سَبيلِ القَصْرِ لا الحَصْرِ؛ فَأَقْتَصِرُ عَلى ما أقْتَصِرُ عَلَيْه مِنْها لِيَكونَ دَليلاً على ما فاتَ ذِكْرُه؛ إذ لا سَبيلَ إلى اسْتِقْصائها والإحاطَةِ بِها، وأصلُ هذه المَبادئ قواعدُ كلّيّةٌ مبثوثةٌ في كتبِ بعض النحاة الذين عُنوا بالأصول النَحويّة، من أمْثالِ ابن جنّي في "الخَصائص"، وأبي البَرَكات ابن الأنباريّ في "الإنصاف في مَسائل الخِلاف" و"لُمَع الأدلّةِ" و"الإغرابِ في جَدلِ الإعْراب"، وابنِ هشامٍ في "مُغْني اللَبيب"، والسيوطيّ في "الاقْتراح في أصول النَحو" و"الأشباه والنّظائر في النَحو"، وغيْرِهم :

1- المَبْدأ الأوّلُ: قَرينَةُ تَرْجيحِ وجهٍ إعرابيّ عَلى آخَر:

من المَبادئِ المنهجيّةِ أن يعْرِفَ المعرِبُ وُجوهَ الإعرابِ المختلفةَ و يُميّزَ بينَ الوُجوهِ المتَشابِهةِ، كالتّمييزِ بينَ المبتدإِ والخَبَرِ، واسْمِ الفاعلِ والصّفةِ المشبّهةِ، والحالِ والتّمييزِ، وغَيْرِها من الوُجوهِ التي قدْ تَرِدُ مُتَشابِهةً فيُشْكِلُ أمرُ إعرابِها:

أ- ما يُعْرَفُ به المُبْتَدَأُ من الخَبَرِ إذا اتَّحَدا في التّعريفِ أو التّنكيرِ :

---

[1] انظرْ قيمَةَ المبادئ في كتاب: "**مِنْ ظَواهِرِ الأَشْباه و النَّظائرِ بين اللُّغويّاتِ العربيّةِ و الدَّرْسِ اللّسانيّ المُعاصِر**"، د. عبد الرحمان بودرع، ص:120 ، حَوْليّات الآداب و العُلوم الاجتماعيّة، مجلس النّشر العلمي ، جامعة الكويت، الحولية25، 1426هـ-2005م .

فإن اتّحَدا في التّعريفِ حُكِمَ بابْتِداثيّةِ المُقَدَّمِ منهُما، فَتَكون الرّتبَةُ قَرينةً تَميزُ المبتدأ من الخَبرِ وذلك نحو "الله ربُّنا" و"القائمُ زيدٌ"[1]، إلاّ إذا ظهرت قرينةٌ من المَعْنى تُرجّحُ ابْتدائيّةَ المُؤخَّر، نَحو قولِ الشّاعرِ:

بَنونا بَنو أبْنائِنا، وبَناتُنا /// بَنوهُنّ أبْناءُ الرّجالِ الأباعدِ[2]

أو قَرينَةٌ من عِلْمِ المُخاطَب كأن يَعلَمَ المُخاطَبُ أحدَ الاسْـمِيْنِ المَعرِفَتَيْن دون الآخَر، فيكون المَعْلومُ عِندئذٍ هو المُبتدَأ والمَجْهول هو الخَبَر، والمِثالُ عَلى ذلِك أن نَقولَ "زَيْدٌ أخو عَمرٍو"، فأيّ الاسْميْنِ كانَ مَعْلوماً عندَ المُخاطَبِ فهو المبتدَأ.

ب- ما يُعرَف به عطفُ البيانِ من البَدَلِ:

عَطفُ البَيانِ لا يَكونُ ضَميراً ولا تابِعاً لِضَميرٍ، مثلَما أنّ الضَميرَ لا يُنعتُ، وإنّما عَطفُ البيانِ اسمٌ ظاهِرٌ وتابِعٌ لاسمٍ ظاهِرٍ نَحو قَولِه تَعالى: ﴿جَعَلَ الله الكَعْبَةَ البيتَ الحَرامَ قِياماً للنّاسِ﴾[3] فالبَيْت الحَرام عَطْفُ بَيانٍ عَلى جهةِ المَدْحِ لا عَلى جهةِ الإيضاحِ، أمّا البَدَلُ فيَجوزُ أن يَكونَ تابِعاً للضَّميرِ نَحْو: ﴿وما أنْسانيه إلاّ الشَّيْطانُ أن أذْكُرَه﴾[4].

و عَطْفُ البَيانِ يُطابِقُ مَتْبوعَه في التّعريفِ و التّنْكيرِ ، نَحو : ﴿إنّما أعِظُكُم بواحدةٍ: أن تَقوموا لله مَثْنى و فُرادى﴾[5] "أن تَقوموا" عَطفُ بيانٍ لـ"واحِدَة" ، أمّا البَدَلُ فَيَجوزُ فيه مُخالَفَةُ مَتْبوعِه نحو : ﴿و إنَّكَ لَتَهْدي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ، صِراطِ الله الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[6].

---

[1] وقيلَ: يجوزُ تقديرُ كلٍّ منهما مُبتدأ وخبَراً مُطلَقاً، و قيلَ: إنّ المُشتقَّ هو الخَبَرُ و إن تَقَدَّمَ، و قيلَ: إنّ المبتدأ ما كانَ أعرَفَ "كزيدٍ" في قولِنا "القائمُ زيدٌ" (**مُغْني اللّبيب**: 588)

[2] البيتُ منسوبٌ للفرزدق وليسَ في ديوانِه، وهو من شواهدِ النّحاة، انظر: **شرح ابن عقيل**، بهاء الدين عبد الله بن عقيل،. مط. السعادة بمصر، ط.14، 1384هـ/1964م. ج1، ص233 رقم الشاهد 51

[3] المائدة : 97

[4] الكَهْف : 63

[5] سبأ : 46

[6] الشورى : 52-53

وعَطْفُ البَيانِ لا يَكونُ جُملَةً. أمّا البَدَلُ فَعلى خِلافِ ذلِك نحو قَوله تَعالى: ﴿ما يُقَالُ لَكَ إلاّ ما قَدْ قيلَ للرُّسلِ مِن قبلِك إنّ ربَّكَ لَذو مغفرةٍ وذو عِقابٍ أليمٍ﴾[1]

ج- ما يُعْرَفُ بِه اسمُ الفاعِلِ من الصّفةِ المُشبَّهَةِ[2]:

اسمُ الفاعِلِ يُصاغُ من اللاّزِمِ و المُتَعدّي أمّا الصّفةُ المُشبَّهَةُ فَلا تُصاغُ إلاّ من اللازِم . و يَدلُّ على الأزمنةِ الثّلاثةِ و الصّفةُ لا تدلُّ إلاّ على الحاضِرِ، و يجوزُ أن يتقدَّمَ منصوبُ اسم الفاعلِ عليه فيُقال "زيدٌ عمراً ضاربٌ" بخلافِ الصّفةِ المشبّهةِ: فَلا يُقال "زيدٌ حَسَنٌ وَجْهَه". و يجوزُ حذفُ اسمِ الفاعلِ و بَقاءُ مَعْموله نحو "هذا ضارِبُ زَيْدٍ و عَمْراً" بكسْرِ زيدٍ و نَصب عَمْرٍو بإضمارِ فعلٍ ، و لا يَجوزُ في الصّفةِ المشبّهةِ "مَررتُ برجلٍ حسَنِ الوَجْهِ و الفِعْلَ" لأنّها لا تعملُ محذوفةً ، و ما لا يَعْمَلُ لا يُفسِّرُ عاملاً .

د- ما اخْتلَفَ فيه الحالُ عن التَّمييز:

الحالُ و التّمييزُ اسْمانِ فَضلَتانِ نَكِرتَان مَنْصوبَتانِ رافِعَتانِ للإبهامِ، لكنّ الحالَ يأتي جملةً أو مُتعلّقاً بِه شبهُ جُمْلةٍ نحو "قَدِمَ المُسافِرُ بَين مُرافِقيه" و﴿فَخَرَجَ عَلى قومِه في زينَتِه﴾[3] ، أمّا التّمييزُ فلا يأتي إلاّ اسْماً . و الحالُ يتوقّفُ معنى الكلامِ عَليها نحو : ﴿لا تَقْرَبوا الصّلاةَ و أنتُم سُكارى﴾ . بِخلافِ التّمْييز . و حَقُّ الحالِ أن تأتي مُشتقّةً و قد تأتي جامدةً نحو: ﴿وتَنْحِتونَ الجِبالَ بُيوتاً﴾[4]، وحقُّ التّمييزِ الجُمودُ وقد يأتي مشتقّاً نحو "للهِ درُّك فارِساً" ..

***

2- المَبْدأ الثّاني: تَصحيحُ أمورٍ اشْتهرَت بين المُعربينَ خطأً :

أ- اشْتهرَ على ألسنةِ المُعْربِينَ أنّ "لَو" تُفيدُ امْتِناعَ الشّرطِ و امتناعَ الجوابِ[5]، وينْقُضُه المَعْنى الذي وَرَدَت به الشّواهدُ في مَواضِعَ كثيرةٍ . منها قولُه تعالى: ﴿و لَوْ أنّنا نَزّلْنا إليهم

---

[1] فُصّلت : 43
[2] **مُغْني اللّبيب** : 598
[3] **القصص** : 79
[4] **الأعراف** : 74
[5] **مُغْني اللّبيب** : 339

المَلائكةَ و كَلَّمَهُم المَوْتى و حَشَرْنا عَلَيْهِم كُلَّ شَيْءٍ قبلاً مَا كانوا لِيُؤْمِنوا﴾[1]. وبَيانُ هذا الإعرابِ الشّائعِ أنّ كلَّ شيءٍ امتنَعَ ثبَتَ نَقيضُه. وعلَيه يَلْزَمُ ثُبوتُ إيمانِهم مَعَ عَدَمِ نُزولِ المَلائكةِ. وهو عَكْسُ المُرادِ: إذ إنّ علاقةَ لَوْ بِما بَعْدَها قد تَكونُ عَلاقةً شَرطيّةً يرْتبِطُ فيها السّببُ بالمسبَّبِ. أو لتقريرِ الجَوابِ على كلِّ حالٍ وُجدَ الشّرطِ أو فُقِدَ.

فأمّا العَلاقةُ السّببيّةُ فنَحو قَولِه تَعالى : ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[2] فقد انحصَرَت نتيجةُ الثّاني في سببيّةِ الأوّلِ ، و أمّا ما يُفيدُ امتِناعَ الثّاني مُطلَقاً فكالآيةِ السّالِفةِ ﴿ولَوْ أنّنا نَزَّلْنا إليهِم المَلائكةَ و كَلَّمَهُم المَوْتى و حَشَرْنا عَلَيْهِم كُلَّ شَيْءٍ قبلاً مَا كانوا لِيُؤْمِنوا﴾، ففيها تَقْريرُ الجَوابِ -و هو "عَدَمُ إيمانِهِم"- وُجِدَ الشّرطُ -وهو "إنزالُ المَلائكةِ..."- أو فُقِد .

ب- و ممّا شاعَ أيضاً : قولُ المُعربينَ إنّ حُروفَ الجرّ ينوبُ بعضُها عن بعضٍ و الصّحيحُ أنّ هذِه النّيابَةَ غيرُ مطلقةٍ ، و لكنَّها مقيّدةٌ بما وردَت به النّصوصُ وأيّدتْه الشّواهدُ. و لو صَحَّ القَولُ بالنّيابَةِ المُطْلَقَةِ لَجازَ مثلُ "مررْتُ في زيدٍ" و "دخلتُ من عمْرٍو" ولكنَّ النّيابةَ لا تصحُّ إلاّ في مواضعَ معيّنةٍ و لا تطّردُ[3] .

3- المَبْدأ الثّالثُ: إعطاءُ اللّفظِ في الإعرابِ حُكمَ مُشابِهِه :

قد يأخذُ اللّفظُ حُكْمَ مُشابِهِه، في الإعرابِ، ومِنْ صُوَرِ ذلِكَ: مُشابَهَةُ "لَمْ" النّافِيَةِ للفعلِ المضارعِ بـ"لَيْسَ"، في جرِّ الخَبَرِ بالباءِ الزّائدَةِ: نَحْوَ قوله تَعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ، بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى، بَلى إِنَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4]. فهو في معْنى "ليسَ"[5] وقَدْ وَرَدَ الأصلُ مَعَ "لَيْسَ" في قَوْله تَعالى : ﴿ أَوَلَيْس

---

[1] لقمان : 27
[2] الأعراف: 175-176
[3] ذهبَ البصريّونَ إلى أنّ حرفَ الجرّ باقٍ على أصلِه و لم تحصلْ نيابةٌ. وإنّما الذي حصَلَ أنّ العاملَ ضُمّنَ معنى عاملٍ متعدٍّ بذلك الحرفِ . فحصلَ التّضمينُ في العاملِ الذي هو الفعلُ.
[4] الأحقاف: 33
[5] قال السّمينُ الحَلَبي: «زيدت الباءُ لأنه في معنى: أوَلَيس الله بقادرٍ» **تفسير السمين الحلبي (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)**. تحقيق الشيخين علي معوض وعادل عبد الموجود. دار الكتب العلمية-بيروت. 1994م. انظر تفسير. انظر تفسيرَ الآيَة 33 من سورَة الأحقاف.

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلى وهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾[1]، وقوله: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[2]، فالباءُ للتَّوكيدِ[3] كالباءِ في قَولِه تَعالى: ﴿ وكَفى بِاللهِ حَسيباً﴾[4]؛ أكّدَت صِلَةَ الفِعْلِ بلفْظِ الجَلالةِ، و﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [5].

4- المَبْدأ الرّابِعُ: إعطاءُ اللّفظِ في الإعرابِ حُكمَ مُجاوِرِه:

وذلِكَ نحو قولِهم: هذا جُحرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، والأكثرُ رَفعُ الخَرِب، وإنّما جَرّوا الصِفَةَ لِمَيْلِهم إلى الحَملِ عَلى الأقْربِ، ولأمْنِهم الالتباسَ؛ ومثلُه في الحملِ على المَعْنى قولُه تعالى: ﴿يَطوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنْزِفُونَ وفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[6].

5- المَبْدأ الخامسُ: مُراعاةُ ظاهِرِ الصِّناعَةِ ومُقتضى المَعنى في الإعراب، مُجتَمِعَيْنِ:

فإنّ الاقتصارَ على أحدِهما وإغفالَ الآخرِ إخراجٌ للكلامِ عمّا وُضِعَ له، فأوّل واجبٍ على المُعرِبِ أن يفهَمَ معنى ما يُعربه، وهذا منهجٌ سَلَكه ابنُ هشامٍ الأنصاريّ، متّخذاً معيارَ

---

[1] يَس: 81

[2] القِيامة : 40

[3] تَوْكيدُ النّفْيِ بِزِيادةِ الباءِ .

[4] النِّساء : 6

[5] المؤمنون : 20 . اختلفَ أهل العَربيةِ في وَجهِ دُخولِ الباءِ في قَولِه "بِقادرٍ" فَقالَ بَعضُ نَحْوِيِّي البَصرَة: هذِه الباءُ كالباءِ في قَولِه "كَفى باللهِ" وهو مثلُ "تَنبُتُ بِالدُّهْنِ" وقالَ بَعضُ نَحويّي الكوفَةِ: دَخَلَت هذِه الباءُ لِلَمْ، والعَربُ تُدخِلُها مَعَ الجُحودِ إذا كانَت رافِعَةً لِما قَبلَها وتُدْخِلُها إذا وَقَعَ عَلَيها فِعلٌ يحتاجُ إلى اسمين مِثل قَولِكَ "ما أظنّكَ بِقائمٍ، وما أظنّ أنّكَ بِقائمٍ وما كُنتُ بِقائمٍ"، فإذا حذفتت الباء نصبت الذي كانَتْ تَعْمَل فيه، ولو ألقِيَتِ الباءُ مِنْ "قادِرٍ" في هذا المَوضِعِ رُفِعَ لأنّه خَبرٌ. و قيلَ: هذِه الباءُ دَخَلَت للجَحْدِ لأنَ المجُحودَ في المعنى وإن كانَ قدْ حالَ بَينهُما بأنَّ "أوَلَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ قادِرٌ عَلى أنْ يُحْيِيَ المَوتى" فأنَّ وما بَعْدَها مَفْعولُ "يَرَوْا" وما بَعدَها في صِلَتِها ولا تَدخلُ فيه الباءُ ولكنَّ مَعناه الجَحْدُ فَدَخَلَت للمَعْنى. [**تَفسير الطَّبري**: 35/26-36] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت.310) دار الفكر، بيروت، 1405. وانظُر في مسألةِ الزّيادةِ في حُروفِ المَعاني وما يُصاحِبُها من دلالاتٍ الفَضْلَ القيّمَ : "مُشْكِلَة الزّيادَةِ لِحُروفِ المَعاني" في كِتابِ [**إشْكاليَات في البَحْثِ والنَّقْدِ النَّحْوِيَّيْن**: 53-102] أ.د. فَخْر الدّين قَباوة، **سلسلة بُحوث ودِراسات في عُلومِ اللّغةِ والأدَب**(8)، حلَب-سورية، ط.1/1425-2004

[6] الواقعة: 17-23.

فهمِ المَعْنى قبلَ إعرابِ اللفظ؛ قالَ: «سَـــألني أبو حيان -وقد عرضَ اجتماعنا- عَلامَ عُطِفَ "بحقَلَّد" مِنْ قَولِ زُهير:

تَقيٌّ نقيٌّ لم يُكثِّر غَنيمةً /// بنَهْكَةِ ذي قُربى ولا بحقلَّدِ[1]

فقلتُ: حَتى أعرفَ ما الحقلدُ؟ فنَظَرْناه فإذا هو سَيِّءُ الخُلُق. فقلتُ: هو مَعطوفٌ على شيء مُتوهَّمٍ؛ إذ المعنى: ليسَ بمكثرٍ غَنيمةً...»[2]. ويأتي تَقْديرُ مَعْنى الكَلامِ بعدَ فهمِ مَعْنى الكلمةِ المُشكلةِ: تقيٌّ نقيٌّ ليس بمُكثِّرٍ غنيمةً بنهكةٍ، وليسَ بحقَلَّدٍ، أمّا من حيث اللفظ وصناعَة الإعرابِ، فالحقلَّدُ معطوف على مَعْنى متصوَّر سمّاه ابنُ هشامٍ بالمَعْنى المتوهَّمِ، وفي هذا المَنهَجِ ميلٌ إلى بناءِ الإعرابِ اللّفظي الصّناعيّ بعدَ بناءِ المَعْنى في الذّهنِ والتّصوُّر، وترتيبُ البناءِ الأوّل على الثّاني إنّما هو مبدأ يحكمُ الإعرابَ والنّحوَ، ولا يُتصوَّرُ علمٌ نحويّ ولا صناعةٌ إعرابيّةٌ إلاّ وفقَ مَبدأ مُطابقةِ الإعرابِ للمَعْنى.

ومن الشّواهدِ التي يَستَوجبُ إعرابُها السَّليمُ مُراعاةَ المَعْنى المرادِ المُطابقِ لمَقاصدِ المتكلِّم: قَولُه تعالى: ﴿أصلاتُك تأمرُكَ أنْ نترُكَ ما يَعبدُ آباؤنا أو أن نَفعلَ في أموالنا ما نَشاءُ﴾[3]؛ فإنّه يَتبادرُ إلى ذهنِ مَن يُعربُ اللّفظَ من غيْرِ تَحقيقِ المَعْنى، عطفُ "أنْ نَفعلَ" على "أنْ نترُكَ"، وهو عَطفٌ غيرُ صحيحٍ لأنّه يَقودُ إلى مَعنىً باطلٍ: ذلِكَ أنّ نبيَّ الله شُعَيْباً عليه السّلامُ لم يأمرهُم أنْ يَفعلوا في أموالِهِم ما يَشاؤونَ، وإنما أمرَهُم بتركِ هذا الفعلِ بتاتاً، فقولُه "أنْ نفعَلَ" مَعطوفٌ على اسمِ الموصولِ "ما"، فهو معمول لفعلِ التَّرْك السّابقِ، والمعنى: أصَلاتُكَ تأمرُكَ أنْ نترُكَ ما يَعبدُ آباؤنا أو أن نَتركَ أن نَفعَلَ في أموالنا ما نَشاءُ، وموجِبُ الوَهم المذكور[4] أن المعربَ يرى أنْ والفعلَ مَرّتين، وبينهما حرفُ العَطف، فيحسبُ أنّ الثّانيَ معطوفٌ على الأوّل.

وقد يَلْحَقُ الخطأ الصّناعةَ الإعرابيّةَ إذا روعِيَ المعْنى الصَّحيحُ وحدَه؛ كأنْ يُعربَ المعربُ ثَموداً في قوله تَعالى: ﴿وأنّه أهلَكَ عاداً الأولى، وثَموداً فَما أبْقى﴾[5] مَفْعولاً مُقدّماً، وهو إعرابٌ

---

[1] **ديوان زُهير بن أبي سلْمى**، تَقديم وشَرْح: علي حسَن فاغور، دار الكُتُب العلميّة، بيروت، 1408هـ/1988م ص:40. والنّهكَةُ الإضرارُ والنّقصُ، والحَقلَّدُ البَخيلُ السّيِّءُ الخُلُق.

[2] **مُغْني اللّبيب**، ص: 685

[3] هود: 87.

[4] **مُغْني اللّبيب**، ص: 686

[5] النّجم: 50-51.

ممتنعٌ[1] لأنّ حرفَ النّفْيِ من حُروفِ الصّدارةِ التي تَمنعُ أن يعمَلَ ما بعدَها فيما قبلَها، والصّوابُ أن يُعربَ الاسمُ المنصوبُ "ثَموداً" مَعْطوفاً على "عاداً".

وأكثر ما يَدخُلُ الاعتراضُ على المُعربين، إنّما يَدخلُ من جهة تَعْليقِ شبه الجُملةِ من ظُروف الزّمانِ والمَكانِ وحُروفِ الجَرّ، وذلِكَ كأن يُعربَ المُعربُ ظرْفَ الزّمانِ "إذْ" في قوله تَعالى: ﴿إنّ الذينَ كَفَروا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أكبرُ منْ مَقْتِكُم أنفُسَكم إذْ تُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ فتَكْفُرونَ﴾[2] مُتعلّقاً بالمَصدرِ الأوّلِ [مَقْت الله] أو الثّاني [مَقتكُمْ أنفسَكُم]، وكِلا التَّعْليقَيْن غيرُ مُعْرِبٍ عن المَعْنى المَقصودِ من الآيَةِ: فأما امْتناعُ تعليقه بالمَقتِ الثّاني فلأنَ المَعْنى فاسدٌ لا يُعقلُ أن يَتحقّقَ؛ لأنّ الذين كَفَروا لا يَمقتون أنفُسَهم في الدّنيا عندَما كانوا يُدعوْنَ إلى الإيمان، وإنما يَمقتونَها في الآخرة، حيثُ لا ينفَعث مَقْتٌ ولا نَدامةٌ، وإنّما تتعلّقُ بفعل المَقْت الإلهيّ المُستَفادِ من المصدرِ الأوّلِ، وإنّما امتَنَعَ التّعليقُ بالمصدرِ الأوّلِ وإن وافَقَ المَعْنى: لِما بينَه وبينَ الظّرفِ من فَصلٍ، وتَقْديرُ التّعليقِ: مَقَتَكم إذْ تُدعَوْنَ[3].

وهكذا، فإنّ إهمالَ مَبدأ المُطابقةِ بين الإعرابِ والمَعْنى، يوقِعُ المُعربِينَ في خطأ جَسيمٍ ويَبعدُ بهم عن المَعْنى المُرادِ.

6- المَبْدأ السّادسُ: مُراعاةُ تغيُّرِ الإعْرابِ كلّما زيدَت كلمةٌ على التّركيبِ:

وقد عقَدَ ابنُ هشام لهذا المبدإ باباً قالَ فيه: «يَكونُ للشّيءِ إعرابٌ إذا كانَ وَحدَه، فإذا اتّصلَ به شَيءٌ آخَر تَغيرَ إعرابُه»[4]. ومن الأمثلةِ على ذلِكَ، قولُكَ سائلاً: ما أنتَ، وما شَأْنُكَ، فكلٌّ من جملةٍ تتكوَنُ من مُبتدأ وخبرٍ، ما لم تَأت بَعدَهما بنحو قَولكَ "وزيداً" فإن دَخَلَت هذه الزّيادةُ فالضّميرُ المنفصلُ الذي كانَ خبراً أصبَح بعدَ الزّيادَةِ مَرفوعاً بفعل محذوفٍ، والأصل: ما تصنعُ وزيداً، أو ما تَكونُ وزيداً، فلمّا حُذفَ الفعلُ بَرزَ الضَّميرُ "أنتَ" وانْفصَلَ، وارتَفَعَ بالفاعلية، أو عَلى أنه اسمٌ لكانَ.

7- المَبْدأ السّابعُ: إشرابُ لفظ مَعْنى لفظ وإعطاؤُه حُكمَه، وهو التّضمين:

---

[1] مُغْني اللّبيب، ص: 698

[2] غافر: 10.

[3] مُغْني اللّبيب، ص: 699

[4] مُغْني اللّبيب، ص: 882

وهو أن تُضمّنَ كلمةٌ مَعْنى كلمةٍ، فيُراعى هذا التّضمينُ في الإعرابِ، كَما في قولِه تَعالى: ﴿ولا تأكُلوا أمْوالَهُمْ إلى أموالِكُمْ﴾[1]، أي لا تَضمّوها، وشبه الجُملَة متعلقةٌ بحال محذوفةٍ؛ و« التّقديرُ "مَضمومةً إلى أموالكُم". وقيلَ: تتعلقُ بالفعلِ "تأكلوا" على مَعنى التَضمين: أي ولا تَضُمّوا أموالَهُمْ في الأكل إلى أمْوالكُم[2]؛ فالأكلُ يَتَضمّنُ معْنى الضّمّ، ومثلُ ذلكَ في قولِه تَعالى: ﴿ولا تَعْدُ عَيْناكَ عنهُم تُريدُ زينةَ الحَياةِ الدّنيا﴾[3]، أي لا تقْتحمْ عَيْناكَ مُجاوِزَتَيْن إلى غيْرِهم[4]، وعلى هذا التّضمين يُبْنى الإعرابُ لأنّه يُرشحُ التّقديرَ الدّلاليّ المُناسبَ، ويأتي الإعرابُ تابعاً للتّقديرِ الدّلاليّ بعدَ ذلِكَ.

قالَ ابنُ هشام موضحاً قيمةَ التَّضمين وأهميتَه في الإعرابِ: «قوله تَعالى: ﴿لِلّذينَ يُؤْلُونَ من نِّسائِهِم﴾[5] أي يَمتنعونَ من وَطْءِ نسائِهم بالحَلفِ؛ فلهذا عُدّيَ بـ"مِنْ"، ولَمّا خَفِيَ التّضمينُ على بعضِهِم في الآيَة، ورأى أنّه لا يُقالُ "حَلَفَ مِن كَذا"، بَل حلَفَ عليْه، قالَ: "مِنْ مُتعلّقةٌ بمَعْنى "لِلَّذينَ"، كَما تَقولُ: لِي منكَ مَبرَّةٌ، قال: وأمّا قولُ الفُقَهاءِ: آلى من امْرأتِه فغَلَطٌ أوقعهُم فيه عدَمُ فهمِ المُتعلَّقِ في الآيَة»[6]

وقد أورَدَ أبو حَيّان في البَحْرِ المحيط[7] وُجوهاً وأعاريبَ عدّةً لتقْدير تعلُّقِ حرفِ الجرّ "مِنْ" في هذه الآيَةِ، ولكنَّ الرّاجحَ ما أوّلَه به ابنُ هشامٍ[8].

ومن صُوَرِ التّضمينِ **التّعبيرُعن مَعْنى حُصولِ الفعلِ بمُشارَفَته**، كَما في قَولِه تَعالى: ﴿وإذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فَأمْسِكُوهُنَّ بِمَعْروفٍ أوْ سَرِّحوهُنّ بِمَعْروفٍ﴾[9]، فالفعلُ

---

[1] غافر: 10.

[2] **تفسير لكَشّاف**، لأبي القاسِم الزّمخشري، ضبط وتَصحيح: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، تفسير الآيَة 10 من سورَة غافر.

[3] الكهف: 28.

[4] **تفسير الكَشّاف**، للزّمخشري، تفسير الآيَة 28 من سورَة الكهف.

[5] البقرَة: 226.

[6] **مغني اللّبيب**، ص: 898-899.

[7] **البَحر المُحيط**، تحقيق عادل عبد الموجود وعليّ معوض، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2001م، الجزء الأول في تفسير سورَة البقرَة، الآيَة 226.

[8] **مغني اللّبيب**، ص: 898-899

[9] البقرة: 231.

"طلّقتُم" في الآيَة انتقَلَ من الدّلالةِ الأصليّةِ وهي حُصولُ زمنِ "بُلوغِ العِدّةِ"، إلى دلالةٍ فرعيّةٍ هي مُشارفَةُ انقضائِها ومُقاربَتُه[1].

ومن صُوَرِ التّضمينِ **التّعبيرُعن مَعْنى حُصولِ الفعلِ بإرادَةِ تَحصيلِه**[2]. كَما في قَوله تَعالى: ﴿فإذا قرأتَ القُرآنَ فاستعِذْ بالله من الشّيطانِ الرّجيم﴾[3]، أي إذا أردْتَ قِراءَةَ القُرآنِ فاستعِذْ بالله. وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فَاغْسِلوا وُجوهَكُمْ وأيْديَكُمْ إلى المَرافِقِ وامْسَحوا بِرُؤوسِكُمْ وأرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْنِ﴾[4]، أي إذا أردتُم القيامَ إلى الصّلاةِ. وأكثرُ ما يكونُ هذا الأسلوبُ بعدَ أداةِ الشّرطِ.

وقَد يُعبّرُ بالفعلِ عَن إرادَةِ وُقوعِه، في غيرِ الشّرطِ: نحو قوله تعالى: ﴿فأخرجْنا مَن كانَ فيها مِن المُؤمِنينَ. فَما وَجدْنا فيها غيرَ بيتٍ من المُسلمينَ﴾[5]، أي فأردْنا إخْراجَ مَن كانَ فيها...

8 - المَبْدأ الثّامن: تَنزيلُ زَمنٍ منزلةَ زَمَنٍ آخَرقصدَ استحضارِه في الذّهنِ:

فقَد يُعبَّرُ عن أمرٍ مَضى وأمرٍ آتٍ بعبارةٍ مُشابهةٍ لما يُعبَّرُ به عن الشّيءِ الحاضرِ، وذلك قصدَ إحضارِه في الذّهنِ حَتّى كأنّه مُشاهَدٌ رأيَ العيْنِ حالةَ الإخبارِ به، وذلك نحو قوله تَعالى: ﴿وإنّ ربَّك لَيحكُمُ بينَهُم يومَ القيامَةِ﴾[6]، جَعَلَه حكايةً عن الحال الآتية[7]: قالَ أبو حيّان: «يحتملُ تأويلُ هذه الآية إقرار اللاّم مخلصةً المضارعَ للحالِ بأنْ يُقدَّرُ عاملٌ في "يوم القيامة"»[8]؛ فاللامُ غالباً تُخلصُ المضارعَ للحال، فقَد دَخَلَتْ على المضارع الذي يحتملُ أن يكونَ عاملاً في ظَرفٍ مُستقبلٍ وهو يومُ القيامة. والحقيقةُ أنَّ العاملَ في يوم القيامة مقدرٌ، وإن كان في أمر التّقدير نظرٌ؛ لأنّ فيه تهيئةً للعاملِ للعملِ ثُمّ قَطْعاً عنه. ومهما يكنْ، فإنّ

---

[1] **البَحْرالمُحيط**، الجزء الأول في تَفسير سورَة البقرَة، الآيَة 226.

[2] عبّرَ ابنُ هشام عن هذه الصّورةِ بالقاعدةِ الخامسةِ

[3] النّحل: 98.

[4] المائدة: 6.

[5] االذّاريات: 35-36.

[6] النّحل: 124.

[7] **البَحْرالمُحيط**: تَفسير سورَة النحل، الآيَة 124،

[8] **تفسير القُرطبي**: تَفسير سورَة النحل، الآيَة 124،

لامَ الابتداءِ التي دَخَلَت عَلى الفعلِ المُضــارعِ تُفيدُ الحالَ، ولكنَّ الفعلَ يُرادُ به المُســتقبَلُ، وإنّما عُبّرَ عن الآتي بالحالِ قَصدَ إحْضارِه إلى الذّهنِ.

ومثلُ ذلِك أنّ اسمَ الإشارَةِ يُشيرُ إلى حاضرٍ وقتَ التكلُّم، لتَقْريبِه من المُخاطَب؛ ولكنّه قد يُخْرَجُ به عن هذا المَعْنى، كما في قوله تعالى: ﴿هذا مِنْ شــيعَتِه وهذا من عَدوّه﴾[1]، فليسَ المُرادُ في هذِه الآيَةِ تَقْريبَ الرَّجُلَيْنِ من النبيّ صلّى الله عليه وسلّمَ، وإنّما كانَت الإشــارةُ إليهما على عهدِ موسى عليْه السّلامُ؛ « فحُكِيَتْ »[2]

- ومثلُه قولُه تعالى: ﴿والله الذي أرسَــلَ الرّياحَ فتُثيرُ سَــحاباً، فسُــقْناه إلى بَلَدٍ ميّتٍ فأَحْيَينا به الأرضَ بعدَ موتِها، كذلِك النُّشورُ﴾[3]، فالمَقصودُ من الفعلِ "تُثيرُ" إحضارَ الصورَةِ «البَديعة الدّالةِ على القُدرةِ الباهرةِ من إثارة السَّــحابِ، تَبدو أولاً قِطعاً ثم تَتضــامُّ مُتقلبةً بين أطوارٍ حَتى تَصــيرَ رُكاماً»[4] ولو أريدَ الزّمنُ الماضــي لَقيل: فأثارَت سَــحاباً. وبناءً على هذا *المَعْنى المَعدولِ إليْه يُعرَبُ اللفظُ*.

9 - المَبْدأ التّاسعُ: تَقديرُ المُقدَّرِ، في الإعْراب:

سَــمّى ابنُ هشــامٍ هذا المبدأ بقاعدَة «أنّ اللفظَ يَكونُ على تَقديرٍ، وذلِك المُقدَّرُ على تَقْديرٍ آخَر»[5]. ومن الشّــواهدِ عليْه قولُه تعالى: ﴿وما كانَ هذا القُرآنُ أن يُفْتَرى من دونِ الله﴾[6]. فالفعلُ "يُفْتَرى" وحرف النّصبِ "أنْ" يُؤوَّلانِ بالافْتراءِ، والمَصدرُ المُقدَّرُ (افْتراء) يُؤوَّلُ مرّةً أخْرى إلى اســم مَفْعولٍ مُناســبٍ للســياقِ: "مُفْتَرى"؛ فقد احْتيجَ إلى تَقْديرِ المصــدرِ اســمَ مَفْعولٍ ليصحَّ الإخبارُ. ومثلُه قولُ الشّاعرِ:

لعَمْرُكَ ما الفِتْيانُ أن تَنْبُتَ اللِّحَى /// ولكنَّما الفتْيانُ كلُّ فَتىً نَدي

فالمَصــدرُ المُؤوَّلُ من "أنْ والفعل" خبرُ "الفتيان"، وتَقديرُ المُؤوَّلِ: نَبات اللِّحى، ثمّ يُعادُ تَقْدرِ المُقدَّرِ إلى اسمِ الفاعِلِ: نابِتي اللِّحَى، قَد يُقالُ لا حاجةَ إلى تقْديرِ المُقدَّر، ويُكتَفى بالأوّلِ

---

[1] القصص: 15.

[2] **مُغْني اللّبيب**: 905.

[3] فاطر: 9.

[4] **مُغْني اللّبيب**: 905.

[5] **مُغْني اللّبيب**: 907.

[6] يونس: 37.

للمُبالَغَةِ، فيَكون المَعْنى المُرادُ في الأوّل: ما كانَ هذا القُرآنُ افْتراءً، ويَكون في الثّاني: ما الفتيانُ نَباتُ اللِّحى، كما يُقالُ: إنما السَّخاءُ حاتمٌ والشِّعرُ زهيرٌ؛ والجَوابُ أنّه إن صحّ في الشّعرِ فإنّه لا يصحُّ في الآيَةِ لأنّ المُرادَ يأبى ذلِكَ.

ومثلُه قولُه تَعالى: ﴿والذينَ يُظاهِرونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعودونَ لِما قالوا فتَحْريرُ رَقَبةٍ مِنْ قَبْلِ أنْ يتَماسّا﴾[1]، فالتّقديرُ الأوّلُ: يَعودونَ للقَوْلِ، والتّقديرُ الثّاني يُؤَوَّلُ فيه القَولُ إلى مَقول؛ لأنّ المُرادَ أنّهنّ يَعودونَ للمَقولِ فيهنَّ لَفظُ الظِّهارِ.

10- المَبْدأ العاشِرُ: يُغتَفَرُ في الثّواني ما لا يُغتَفَرُ في الأوائلِ. فتُراعى هذه العَلاقَةُ عندَ الإعرابِ[2]:

ومن ذلكَ قولُ بَعضِ العَرب: "كُلُّ شاةٍ وسَخلَتِها". فالسّخلةُ[3] مَعْطوفةٌ على الشّاةِ، وكان ينبغي أن تَكونَ مُضافاً إلى "كلّ" ولكنّ ذلِك لم يجُزْ لأنّ "كُلّ" لا تُضافُ إلى المُفْرَد المَعْرفَةِ فلا تَقولُ: كُلُّ شاةٍ وكُلُّ سَخْلتِها، فاغتُفِرَ في الثّاني "السّخلَة" ما لا يُغتَفَرُ في الأوّلِ "شاة". وقد قدّرَ سيبويْه العبارَةَ بقولِه: «أي وسَخلةٍ لها، ولا يجوز حتى تَذكُرَ قبلَه نكرةً فيُعلَم أنكَ لا تريد شيئاً بعينه»[4].

وقالَ الشّاعِر: # وأيُّ فَتَى هَيْجاءَ أنتَ وجارِها #

فعَطَفَ "جارها" وهو معرفَةٌ، على "فَتى جارِها". والتّقديرُ: أيُّ فَتى هَيْجاءَ وأيُّ جارِها أنتَ. فالجار وإن كانَ نكرةً في المَعْنى لا اللفظِ، لم يُسلَّطْ علَيها "أيّ"؛ لأنّه يُغتفَرُ في الثّواني ما لا يُغتفَرُ في الأوائلِ.

خُلاصَـةٌ: وبَعدُ، فَهذه مَبادئُ مَنهجيّةٌ مُنتَقاةٌ من بَعضِ كتُبِ النّحوِ أورِدَتْ في هذا البَحْثِ الموجَزِ، على سَبيلِ القَصْرِ لا الحَصْرِ؛ اقْتُصِرَ عليْها لِتَكونَ دَليلاً على ما فاتَ ذِكْرُه؛ إذ لا سَبيلَ إلى اسْتِقْصائها والإحاطَةِ بها، وأصلُ هذه المَبادئ قواعدُ كلّيّةٌ مبثوثةٌ في كتبِ

---

[1] المُجادلَة: 3.

[2] **مُغْني اللّبيب**: 908.

[3] السّخلَةُ وَلَدُ الشّاةِ من المَعزِ والضّأنِ.

[4] **الكتاب لسيبويْه**، تحقيق عَبْد السّلام محمّد هارون، ط.الخانجي بالقاهرة، ط.2، 1408هـ/1988م. باب إجراء الصفة فيه على الاسم: ج: 2/ص: 55

بعض النحاة الذين عُنوا بالأصــول النّحويّة، وإنّما أريدَ منها ههنا وَضـع اليَدِ على منهجِ الإعرابِ السّــليمِ الذي يُراعى فيه رَبطُ اللّفظِ بالمَعْنى حتّى يكونَ الإعرابُ مُناســباً لمَعاني العباراتِ وموافقاً لمَقاصدِ المتكلّمِ ومُطابقاً لمُقْتَضى الحالِ.

تصورُ الكلامِ جَواباً عن سؤالٍ، في منهج سيبويه

السُّؤالُ اسْتِفْهامٌ بَيانِيٌّ يوضِحُ الْعُنْصُرَ الْمُسْتَفْهَمَ عَنْهُ أَوِ الْمُرادَ مَعْرِفَتُهُ، فَيَكونُ هذا الْمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ حَظِيّاً بِعِنايَةِ الْمُتَكَلِّمِ و اهْتِمامِهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ عَناصِرِ الْجُمْلَةِ.

و مِنَ الأَمْثِلَةِ عَلى هذا الْمَنْهَجِ – في كتاب سيبويه – ما جاءَ في ،،بابِ ما يَكونُ مِنَ الْمَصادِرِ مَفْعولاً،، «و إِنَّما يَجيءُ ذلِكَ عَلى أَنْ تُبَيِّنَ أَيَّ فِعْلٍ فَعَلْتَ أَوْ تَوْكيداً . فَمِنْ ذلِكَ قَوْلُكَ عَلى قَوْلِ السّائِلِ: "أَيَّ سَيْرٍ سيرَ عَلَيْهِ ؟" فَتَقول : "سيرَ عَلَيْهِ سَيْرٌ شَديدٌ" ... فَأَجْرَيْتَهُ مَفْعولاً. والْفِعْلُ لَهُ ». و مَعْلومٌ ههُنا أَنَّ الاسْتِفْهامَ تَصْويرٌ لأَصْلِ الْمَسْأَلَةِ و بَيانٌ لأَصْلِ اللَّفْظِ . وقَدْ وَرَدَ اللَّفْظُ الْمُرادُ مَعْرِفَتُهُ بَياناً لِنَوْعِ الْفِعْلِ الْواقِعِ . « تَقولُ عَلى قَوْلِ السّائِلِ "كَمْ ضَرْبَةً ضُرِبَ بِهِ ؟" ، و لَيْسَ في هذا إِضْمارُ شَيْءٍ سِوى "كَمْ"، و الْمَفْعولُ "كَمْ". فَتَقولُ "ضُرِبَ بِهِ ضَرْبَتانِ" ، وَ "سيرَ عَلَيْهِ سَيْرَتانِ" ، لأَنَّهُ أَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ الْعِدَّةَ ، فَجَرى عَلى سَعَةِ الْكَلامِ و الاخْتِصارِ » . و الاسْتِفْهامُ إِثارَةٌ لِمَعْدِنِ الْمَعْنى الْمُرادِ بَيانُهُ، والْمَعْنى ههُنا مَعْرِفَةُ عِدَّةِ الْمَفْعولِ الْواقِعِ عَلَيْهِ الْفِعْلُ (ضُرِبَ بِهِ ضَرْبَتانِ).

و مِمّا جاءَ في هذا الْمَنْهَجِ ما وَرَدَ في « بابِ وُقوعِ الأَسْماءِ ظُروفاً وتَصْحيحِ اللَّفْظِ عَلى الْمَعْنى. فَمِنْ ذلِكَ قَوْلُكَ "مَتى يُسارُ عَلَيْهِ ؟" و هُوَ يَجْعَلُهُ ظَرْفاً ، فَيَقولُ : الْيَوْمَ أَوْ غَداً أَوْ بَعْدَ غَدٍ أَوْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ...». فَالاسْتِفْهامُ في الْمِثالِ واقِعٌ عَلى زَمانِ الْفِعْلِ. واللَّفْظُ الذي يَحْمِلُ عِنايَةَ الْمُتَكَلِّمِ واهْتِمامَهُ هُوَ الدّالُ عَلى الزَّمانِ.

و مِنَ الأَمْثِلَةِ عَلى الْبَيانِ الْمَذْكورِ ما وَرَدَ في الْمُخْتَصِّ بِالْمَدْحِ، وذلِكَ نَحْو "عَبْدُ اللهِ نِعْمَ الرَّجُلُ" ... كَأَنَّهُ قالَ "نِعْمَ الرَّجُلُ" فَقيلَ لَهُ : "مَنْ هُوَ ؟" فَقالَ: "عَبْدُ اللهِ" . و إذا قالَ "عَبْدُ اللهِ" فَكَأَنَّهُ قيلَ لَهُ: "ما شَأْنُهُ ؟" فَقالَ : "نِعْمَ الرَّجُلُ" . فَنِعْمَ تَكونُ مَرَّةً عامِلَةً في مُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ ما بَعْدَهُ... وتَكونُ مَرَّةً أُخْرى تَعْمَلُ في مُظْهَرٍ لا تُجاوِزُهُ ... » . وهكَذا فَإِنَّ مَنْهَجَ السُّؤالِ يُبَيِّنُ مَعْنى الْجُمْلَةِ بِتَصَوُّرِها جَواباً. وذلِكَ لأَنَّ السُّؤالَ ((يَهْمِزُ)) اللَّفْظَ الْواقِعَ عَلَيْهِ الاهْتِمامُ و ((يَنْبِرُهُ)) و يُرَكِّزُ عَلى جِهَةِ الْعِنايَةِ فيهِ . و مِنَ الأَمْثِلَةِ أَيْضاً ما وَرَدَ في بابِ ما تَسْتَوي فيهِ الْحُروفُ الْخَمْسَةُ ، و ذلِكَ نَحْو "إِنَّ زَيْداً مُنْطَلِقٌ الْعاقِلُ اللَّبيبُ". « فَ"الْعاقِلُ اللَّبيبُ" يَرْتَفِعُ عَلى وَجْهَيْنِ

: عَلى الاسْمِ الْمُضْمَرِ في "مُنْطَلِق" كأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ ، فَيَصيرُ كَقَوْلِكَ "مَرَرْتُ بِهِ زَيْدٌ" إذا أَرَدْتَ جَوابَ "بِمَنْ مَرَرْتَ ؟" فَكَأَنَّهُ قيلَ لَهُ: "مَنْ يَنْطَلِقُ ؟" فَقالَ : "زَيْدٌ الْعاقِلُ اللَّبيبُ" و إِنْ شاءَ رَفَعَهُ عَلى "مَرَرْتُ بِهِ زَيْدٌ" إذا كانَ جَوابَ "مَنْ هُوَ ؟"، فَتَقولُ "زَيْدٌ"، كَأَنَّهُ قيلَ لَهُ "مَنْ هُوَ ؟" فَقالَ "الْعاقِلُ اللَّبيبُ« "

فَالْجُمْلَةُ مُتَصَوَّرَةٌ واقِعَةً في سِياقٍ مُعَيَّنٍ لا مُنْقَطِعَةً عَنْهُ . و جِهاتُ الرَّفْعِ أَوِ النَّصْبِ في الاسْمِ جِهاتٌ إِعْرابِيَّةٌ لَفْظِيَّةٌ مُقَيَّدَةٌ – في إفادَتِها لِلْمَعْنى – بِالسِّياقِ و مَقاصِدِ الْمُتَكَلِّمِ . والذي يَكْشِفُ عَنِ السِّياقِ هُوَ رَجْعُ الْكَلامِ إِلى أَصْلِهِ في الْمَسْأَلَةِ ، فَتَظْهَرُ الْجُمْلَةُ مُنْتَهى سِلْسِلَةٍ مِنَ الْكَلامِ ، يَعْمَلُ عَلى إِنْجازِها الْمُتَكَلِّمُ و الْمُخاطَبُ أَوِ السّائِلُ وَالْمُجيبُ

وِمِثْلُهُ « قَوْلُكَ "إِنَّ الذي في الدّارِ أَخوكَ قائِماً" كَأَنَّهُ قالَ : "مَنِ الذي في الدّارِ ؟" فَقالَ : "إِنَّ الذي في الدّارِ أَخوكَ قائِماً ... "».

ومِمّا وَرَدَ فيهِ السُّؤالُ مُفَسِّراً الإِضْمارَ أَوِ الْحَذْفَ في الْجَوابِ ، فَظَهَرَ السُّؤالُ كَأَنَّهُ كَلامٌ سابِقٌ أَوْ دَليلٌ مِنَ الْحالِ ، ما حَدَّثَ بِهِ أَبو الْخَطّابِ الأَخْفَشُ أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ الْعَرَبِ وقيلَ لَهُ : "لِمَ أَفْسَدْتُمْ مَكانَكُمْ هذا ؟" فَقالَ : "الصِّبْيانَ بِأَبي" ، كَأَنَّهُ حَذِرَ أَنْ يُلامَ فَقالَ : "لُمِ الصِّبْيانَ !" » . فَعِبارَةُ الْجَوابِ [الصِّبْيانَ بِأَبي] لا يَفْهَمُ لَها الْمُخاطَبُ مَعْنىً إِلاّ إِذا رَتَّبَها عَلى سُؤالٍ سابِقٍ مُوَطِّئٍ ، أَيْ إِذا أَوْرَدَها في تَرْتيبِ الْكَلامِ بَعْدَ مَسْأَلَةِ الْمُتَكَلِّمِ . وأَمّا النّاظِرُ النَّحْوِيُّ ، فَإِنَّهُ لا يُعْرِبُ وَجْهَ النَّصْبِ ، إِلاّ بِتَقْديرِ ناصِبٍ يُمْليهِ سِياقُ الْحالِ، ويُرَجِّحُهُ

و مِمّا يُفْتَرَضُ الْكَلامُ فيهِ جَواباً مِنَ الْمُخاطَبِ عَنْ سُؤالٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ فَيَكونُ الْخِطابُ مُنَزَّلاً بَيْنَهُما قَوْلُهُ "مَرَرْتُ بِرَجُلَيْنِ مُسْلِمٍ و كافِرٍ" جَمَعْتَ الاسْمَ و فَرَّقْتَ النَّعْتَ ، وإِنْ شِئْتَ كانَ الْمُسْلِمُ و الْكافِرُ بَدَلاً، كَأَنَّهُ أَجابَ مَنْ قالَ "بِأَيِّ ضَرْبٍ مَرَرْتَ؟" وإِنْ شاءَ رَفَعَ كَأَنَّهُ أَجابَ مَنْ قالَ "فَما هُما؟" فَالْكَلامُ عَلى هذا وإِنْ لَمْ يَلْفِظْ بِهِ الْمُخاطَبُ، لأَنَّهُ إِنَّما يَجْري كَلامُهُ عَلى قَدْرِ مَسْأَلَتِكَ عِنْدَهُ لَوْ سَأَلْتَهُ ».

و"افْتِراضُ الْكَلامِ جَواباً،، هُوَ تَقْديرُ "بِنْيَةٍ ذِهْنِيَّةٍ،، ماثِلَةٍ خَلْفَ "الْبِنْيَةِ اللَّفْظِيَّةِ،، و كاشِفَةٍ عَنْ نِيَّةِ الْمُتَكَلِّمِ و قَصْدِهِ إِلى جِهَةٍ في الْمَعْنى . و مِمّا جاءَ في هذا الْمَعْنى أَيْضاً قَوْلُهُ: « و قَدْ يَجوزُ أَنْ تَقولَ "مَرَرْتُ بِقَوْمِكَ، الْكِرامَ" إِذا جَعَلْتَ الْمُخاطَبَ كَأَنَّهُ قَدْ عَرَفَهُمْ، كَما قالَ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ زَيْدٌ" فَتُنَزِّلُهُ مَنْزِلَةَ مَنْ قالَ لَكَ : "مَنْ هُوَ ؟" و إِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ...

هَلْ أخطأَ سيبويْه في ثَمانِينَ مَوضعاً، كَما رُوِيَ عن ابنِ تيميّةَ[1] ؟

يُروى أنّ أبا حيّان النّحويّ الأندلسيّ اجتَمَع بابنِ تيميّةَ، ودارَ كلامٌ بينهما، فَجَرى ذِكْرُ سيبويهِ؛فذَكَرَ ابنُ تيمية أنّ سيبويْه أخطأ في ثَمانينَ مَوضِعاً مِن مَواضعِ كتابِه، فَنفرَ عن ذلكَ أبو حَيانَ ولم يَلتمِسْ له العُذرَ، ثمّ عادَ أبو حيّانَ ذامّاً ابنَ تيميّةَ في مَجالسِه وفي كُتبِه.

والرّوايَةُ الوارِدَة لهذا الخَبَرِ هي أنّ ابنَ تيميّةَ، رحمهم الله جميعاً، قالَ لأبي حيّان: «ما كانَ سيبويهِ نَبيَّ النّحوِ ولا كانَ مَعصوماً بل أخطأ في الكتابِ في ثَمانينَ مَوضعاً ما تَفْهمُها أنتَ. فَكانَ ذلكَ سببَ مُقاطَعتِه إيّاه... »

والخَبرُ ذَكَرَه ابنُ حجرٍ العَسقلانيُ في "الدُّررِ الكامنة في أعْيانِ المائةِ الثّامنة" [باب ذِكْرِ مَن اسمُه أحمدُ]. بَل ذَكَر ابنُ حجر في الدّرر أيضا، في باب ذِكْر مَن اسمُه محمّد: أنّ مُحمدَ بنَ إدريسَ القُضاعيَّ أبا بكر القَلَلْوسيَّ، الإمامَ في العربية والعَروض، أنّه كانَ شَديدَ التّعصُّب لسيبويه مع خفة فيه، وأنّه وردَ على القاضي أبي عمرو وكانَ شَديدَ المَهابة فتكلّم في مَسألة في العَربيّة نقلَها عن سيبويه، فقال له القاضي: أخْطأ سيبويه، فكادَ القَلَلْوسيُ يُجَنّ ولم يقدرْ على جَوابه لمَكان مَنصبه. فجَعَلَ يَدورُ في المَسجدِ ودُموعُه تنحدرُ وهو يقولُ أخْطأ مَن خَطّأه، ولا يَزيدُ عَليها.

وأمّا هذِه الأخطاءُ المَزعومَة فَلَم يَردْ لها ذكْرٌ في المَصادر التي نَقَلَت الخبَرَ، والظّاهرُ أنّ بنَ تيميّةَ رحمه الله، إنّما أرادَ بذلكَ أنّه يُخالفُ سيبَويْه في مَذهبِه النّحويّ في مسائلَ كثيرةٍ، ولا يقصدُ أنّ سيبوَيْه أخطأ بالمَعْنى المألوف، وأمّا دلالةُ الثّمانينَ فليسَت على الحَقيقَة وإنّما جاءَت كنايةً عن التّكثيرِ فَقط، وهذا مَعهودٌ من شيخ الإسلام رحمه الله الذي عُرِفَت عنه حدّة المزاج والسُّرعةُ في الجوابِ، ولكنّ ذلكَ كلَّه لا يَنفي ولا ينقصُ من مَشيختِه في العُلوم

---

[1] انظرْ: الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة لابن حجر العسقلاني، ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية-بيروت، 1998م

وجاءَت القصةُ أيضاً كتاب:البَدر الطّالع بمَحاسنِ مَنْ بَعدَ القَرن السّابع، لمحمد بن علي الشوكاني. دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرَة.

وكتاب: الرد الوافر، لمحمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط.1393،1

وكتاب: الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف نشر دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.1، 1404 هـ

العَربيةِ والإسلامية، بل العلومِ العقلية والمنطقية نفسِها، ومُؤلفاتُه الكثيرةُ وما فيها من عِلم واسعٍ ومناقشاتٍ وتحليلٍ وتعليل تشهدُ له بالإمامَة والمشيخة في العلم.

هل في عبارَة سيبويه شك

ذهبَ أحدُ الباحثين، في منتدى علمي لغوي، إلى أنَ سيبويْه عندما تكلم عن تقديم الفاعل والمفعول، وقال: [كأنهم إنّما يُقدِمون الذي بيانُه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يَهُمّانِهم ويَعنِيانِهم] فقَد شكَ، وأنَ قولَه: كأنَ... أسلوبٌ يدلّ على شكّه في دلالة التقديم على العنايَة والاهتمام. وليس على اليَقين، وأنّه استخدمَ كلمةَ "كأنهم" فلم يكن متأكدا من كلامه، وهي كلمة تدل على الشك ...

والرأي عندي -في سياقِ الرّدّ على هذا الرأي- أنّ عبارةَ سيبويْه الواردَة في الكتاب بخصوص نية المتكلم ومراده من الكلام وهو يقدم ويؤخر، ليسَ فيها شكّ و لا ارتيابٌ إطلاقاً، واحتمالُ الشكّ منه منفيَ عنه وهو الذي درسَ لسانَ العرب ونظرَ فيه وعلمَ أسرارَه ومناهج العرب فيه... ولكنَ عبارَتَه المذكورةَ أعلاه إنّما تدلّ على التّقريب للمَعْنى بألطف الألفاظ وهو لفظ كأنَ الذي يدلّ على التشبيه[1]، حتّى يتجنّبَ الأحكامَ التقريريّةَ الصّارمةَ، وهذا احتياطٌ لا ارتيابٌ.

فليس في العبارَة شكّ، ولكنَ فيها مُقاربةً واحتمالاً، ولا أفهم منها وجودَ شكّ بين حالتيْن، وقَد عبّر سيبويْه عن الاحتمال بأداة التشبيه [كأنّ] وجاء المَعْنى على أنّه: يحتملُ ويُفترَضُ أنَ العربَ يُقدّمون بعضَ الكلام على بعض للعناية والاهتمام، وهو لا يشك في ذلك هل يُقدّمونه للعنايَة أم يُقدّمونَه لغرض آخر. وقَد صرّح في مواضعَ أخرى بهذين المُصطلَحَيْن بصيغة المصدر إذ قالَ: «إن قدمتَ الاسمَ فهو عربيٌ جيّدٌ كما كان ذلكَ عَربياً جَيداً، وذلكَ قولُكَ: زيداً ضربت، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء، مثله في ضرب زيد عمراً وضرب عمراً وزيد« أمّا قولُه: وإن كانا جميعاً يُهمّانهم ويَعنيانهم، فهي تدلّ على أنّ الألفاظَ في التركيب كله مفيدة مهمة، سواء أقُدّمَت أم أُخّرت، فتقديم الفاعل وتأخير المَفْعول أو تَقْديمُ المَفْعولِ وتأخيرُ الفاعلِ كلّ ذلِكَ عربيٌّ جيّد كثيرٌ، نطقَت به العَربُ، ولكنّهم أرادوا بالمَفْعولِ مُقدَّماً ما لم يُريدوه بِه مؤخّراً ؛ فما قُدّمَ مما حقه التأخير أو ما أخّر ممّا حقّه التّقديمُ إنما تحصُلُ به

---

[1] ألَم يُصرّحْ سيبَويْه، مثل شيخه الخَليل، أنَ الأداةَ "كأنَ" تُفيد التنشبيه؟ لقَد تكلّم سيبويْه عن التّشبيه بالأداة كأنَ وبالكاف وبغيرِ ذلِك، فتبيَّنَ أنّه يستخدمُ أداةَ التّشبيه لإفادَة التّقريبِ

غايةٌ زائدةٌ على مجرّد الإفادَة؛ إذ لم يُقدّمْ بعضُ الكلام على بعض إلاّ لغرض العناية المُحتمَلَة المُفتَرَضَة لا المشكوك فيها، فلا مَعْنى للشكّ في عبارَة سيبويه.

ومن باب التنبيه على أنّ العنايةَ والاهتمامَ لم تكن العلّةَ الوحيدَةَ لتغيير رتبة الكلمات: فقَد يحصلُ تغييرُ المَراتبِ بغرض "تنبيه المُخاطَب إلى المُحدَّث عنه "[1]

وقَد يحصُلُ التقديمُ والتأخيرُ لعلّة ثالثةٍ هي الشّكّ الذي يَعْتري المتكلّمَ بعدَ اليَقين، وقد تحدّث عنه في باب الأفعال التي تُستعملُ وتُلْغى

مَنْهجُ سيبَويْه في النَّظَرِفي شَواهدِ الْقُرْآنِ الْكَريمِ:

مَوْضوعُ هذه المَقالَة عَرْضُ نَماذجَ مُنْتَقاةٍ مِنْ تَحْليلِ سيبَوَيْهِ لِبَعْضِ الآياتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَذلِكَ لاسْتِخْراجِ نَظَراتِهِ النَّحْوِيَّةِ في الْمَوْضوعِ، التي بَناها عَلى الْقِراءاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمَرْوِيَّةِ، وبَيانِ طَرِيقَةِ الإِعْرابِ النَّحْويِّ في الكَشْفِ عَنْ مَعْنى الآياتِ القُرآنيّة وما إذا كانَ "نَحْوُ" الكَلامِ المَأْلوفُ مُناسِبًا لِوَصْفِ مَعاني القُرْآنِ الكَريمِ أَوْ قاصِرًا عَنْ وَصْفِها. ولَعَلَّ كِتابَ سيبَوَيْهِ مِنْ أَقْدَمِ كُتُبِ النَّحْوِ التي اتَّخَذَتِ النَّصَّ القُرْآنِيَّ الكَريمَ عَلى رَأْسِ الأَدِلَّةِ التي اسْتُنْبِطَتْ مِنْها أَحْكامُ النَّحْوِ، وإِنْ كانَتْ شَواهِدُ الشِعْرِ تَفوقُ في كتابه شَواهِدَ الْقُرْآنِ عَدَدًا .

1- مَوْقِفُ سيبَوَيْهِ مِنَ الْقِراءاتِ الْقُرْآنِيَّة[2] :

يَعُدُّ إمامُ النَّحْويّينَ سيبَوَيْهِ الْقِراءَةَ مُحَكَّمَةً مَهْما تَكُنْ مُخالَفَتُها لِوَجْهٍ مِنْ وُجوهِ الاطِّرادِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، يَدُلُّ عَلى ذلِكَ قَوْلُهُ: « القِراءَةُ لا تُخالَفُ؛ لأَنَّ الْقِراءَةَ السُّنَّةُ»[3]. وقَدْ أَوْرَدَ رَأْيَهُ هذا في سِياقِ القَوْلِ بِأَنَّ رَفْعَ الاسْمِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ بِجُمْلَةٍ فِعْلِيَّةٍ مُقْتَرِنٍ بِها ضَميرُ ذلِكَ الاسْمِ أَقْوى مِنْ نَصْبِهِ: «لأَنَّهُ عامِلٌ في الاسْمِ الذي بَعْدَهُ»[4]؛ «لأَنَّهُ إِنَّما هُوَ اسْمٌ مُبْتَدَأٌ ثُمَّ ابْتُدِئَ بَعْدَهُ، أَوِ اسْمٌ قَدْ عَمِلَ فيهِ عامِلٌ ثُمَّ ابْتُدِئَ بَعْدَهُ، وَ الْكَلامُ في مَوْضِعِ خَبَرِهِ. فَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ

---

[1] باب ما يَكونُ فيه الاسمُ مبنياً على الفعلِ قُدِّمَ أو أُخِّرَ، وما يَكونُ فيه الفعلُ مبنياً على الاسم«

[2] أُنْجِزَتْ في هذا الْمَوْضوعِ دِراساتٌ عِدَّةٌ مِنْها : "**الْقِراءاتُ وَاللَّهَجاتُ**" [عَبْد الْواحِد حَمّودَة] ، "**سيبَوَيْهِ وَالْقِراءاتُ**" [أَحْمَد مَكّي الأَنْصارِيّ] ، "**دِراساتٌ في كِتابِ سيبَوَيْهِ**" [خَديجَة الْحَديثي] ، "**أَثَرُالْقِراءاتِ في الدِّراساتِ النَّحْوِيَّة**" [عَبْد الْعال سالِم] ، "**اَلنَّحْوُوكُتُبُ التَّفْسيرِ**" ، [إِبْراهيم عَبْد الله رُفَيْدَه] . وَ قَدْ أَنْشَأَ د.أَحْمَد مَكّي الأَنْصارِيّ كِتابًا بِعُنْوانِ: "**نَظَرِيَّةُ النَّحْوِ الْقُرْآنِيّ**" عَرَضَ فيهِ - مِنْ جُمْلَةِ ما عَرَضَ - الْقَواعِدَ النَّحْوِيَّةَ التي تُعارِضُ بَعْضَ الْقِراءاتِ، واقْتَرَحَ تَعْديلَ تلك القَواعِدِ حَتّى تَكونَ مُسْتَوْعِبَةً لِما وَرَدَ في لِسانِ الْعَرَبِ و لا تهدرُهُ.

[3] اَلْكِتابُ: 148/1 .

[4] اَلْمَصْدَرُ نَفْسُهُ : 147/1 .

شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [1] ، فإنَّما هُوَ عَلى قَوْلِهِ : "زَيْدًا ضَرَبْتُهُ"، وهُوَ عَرَبِيٌّ كَثيرٌ، وقَدْ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [2]. إلاّ أَنَّ الْقِراءَةَ لا تُخالَفُ؛ لأَنَّ الْقِراءَةَ السُّنَّةُ »[3].

ورَأْيُ سيبَوَيْهِ في الْقِراءَةِ جُزْءٌ مِنْ رَأْيِهِ في لِسانِ الْعَرَبِ عُمومًا، حَيْثُ كانَ يَحْكُمُ عَلى الْمُطَّرِدِ الْمَقيسِ بِالْقُوَّةِ وَ الْكَثْرَةِ، وعَلى ما كانَ أَقَلَّ وُرودًا بِأَنَّهُ وَجْهٌ عَرَبِيٌّ جَيِّدٌ. مِنْ ذلِكَ ما قَرَّرَهُ سيبَوَيْهِ مِنْ أَنَّ الظَّرْفَ يُقَدَّمُ إذا أَفادَ الاسْتِقْرارَ ويُؤَخَّرُ إذا أُلْغِيَ. ولكِنَّهُ اسْتَدْرَكَ عَلى هذا التَّقْريرِ عِنْدَما واجَهَتْهُ هذِهِ الآيَةُ: ﴿وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [4]. بِقَوْلِهِ: «وجَميعُ ما ذَكَرْتُ لَكَ مِنَ التَّقْديمِ وَ التَّأْخيرِ وَ الإِلْغاءِ وَ الاسْتِقْرارِ عَرَبِيٌّ جَيِّدٌ كَثيرٌ ...»[5]. وقَدْ خالَفَتِ الآيَةُ الْقاعِدَةَ النَّظَرِيَّةَ الْمُقَرَّرَةَ ، فَتَقَدَّمَ الظَّرْفُ الْمُلْغى كَتَقَدُّمِ الْمُكْتَفى بِهِ ، وَ لَمْ يَتَأَخَّرْ كَتَأَخُّرِ الْمُسْتَغْنى عَنْهُ، والْقاعِدَةُ النَّظَرِيَّةُ تَنُصُّ عَلى أَنَّهُ «إذا أَرَدْتَ الإِلْغاءَ فَكُلَّما أَخَّرْتَ الذي تُلْغيهِ كانَ أَحْسَنَ. وإِذا أَرَدْتَ أَنْ يَكونَ مُسْتَقَرًّا تَكْتَفي بِهِ فَكُلَّما قَدَّمْتَهُ كانَ أَحْسَنَ؛ لأَنَّهُ إذا كانَ عامِلاً في شَيْءٍ قَدَّمْتَهُ»[6] .

ولكِنَّ بَواعِثَ الْمَعْنى في الآيَةِ ، جَعَلَتْ سيبَوَيْهِ يَميلُ إِلى الاسْتِدْراكِ والتَّعْديلِ، وَقَدْ فَسَّرَ شُرّاحُ الْكِتابِ باعِثَ الْمَعْنى بِقَوْلِهِمْ: « قَوْلُهُ: "لَهُ" وإِنْ لَمْ يَكُنْ خَبَرًا فَإِنَّ سُقوطَهُ يُبْطِلُ مَعْنى الْكَلامِ، فَلَمّا كانَتْ كَذلِكَ صارَتْ بِمَعْنى الْخَبَرِ الذي لا يُسْتَغْنى عَنْهُ وإِنْ لَمْ تَكُنْ خَبَرًا»[7] .

وقَدْ حَرَصَ سيبَوَيْهِ عَلى تِبْيانِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَريمَ نَزَلَ بِلِسانِ الْعَرَبِ، ويَنْبَغي الالْتِزامُ بِالْمَنْصوصِ عَلَيْهِ مِنْ وُجوهِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَقالَ :

« بابٌ مِنَ النَّكِرَةِ يَجْري مَجْرى ما فيهِ الأَلِفُ واللاّمُ مِنَ الْمَصادِرِ والأَسْماءِ، وَذلِكَ قَوْلُكَ "سَلامٌ عَلَيْكَ" وَ "لَبَّيْكَ" وَ "خَيْرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ" [...] فَهذِهِ الْحُروفُ كُلُّها مُبْتَدَأَةٌ مَبْنِيٌّ عَلَيْها ما بَعْدَها ، وَ الْمَعْنى فيهِنَّ أَنَّكَ ابْتَدَأْتَ شَيْئًا قَدْ ثَبَتَ عِنْدَكَ ، وَ لَسْتَ في حالِ حَديثِكَ تَعْمَلُ في إِثْباتِها وَ تَزْجِيَتِها [...] كَما أَنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلوا "سَقْيًا" وَ "رَعْيًا" بِمَنْزِلَةِ هذِهِ الْحُروفِ، فَإِنَّما تُجْرِيها كَما أَجْرَتِ

---

[1] سورَة القَمَر : 49 .

[2] سورَةُ فُصِّلَتْ : 17 .

[3] اَلْكِتاب : 148/1 .

[4] سورَةُ الإِخْلاص : 4 .

[5] اَلْكِتاب : 56/1 .

[6] اَلْمَصْدَرُ نَفْسُهُ .

[7] الأَعْلَم الشَّنتَمَرِيّ، النُّكَتُ، تح. عَبد الْمُحْسِن سُلْطان، نَشْرُ جامِعَةِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ : 193/1، أبو القاسِمِ الزَّمَخْشَرِيّ، اَلْكَشّاف، ط.1، دار الفِكْرِ، بَيْروت، 1397-1977، 299/4.

الْعَرَبُ، وَ تَضَعُها في الْمَواضِعِ التي وُضِعْنَ فيها ، وَ لا تُدْخِلَنْ فيها ما لَمْ يُدْخِلوا مِنَ الْحُروفِ [...] فَهذا يَدُلُّكَ وَ يُبَصِّرُكَ أَنَّهُ يَنْبَغي لَكَ أَنْ تُجْرِيَ هذِهِ الْحُروفَ كَما أَجْرَتِ الْعَرَبُ، وَ أَنْ تَعْنِيَ ما عَنَوْا بِها [...] ومِثْلُ الرَّفْعِ : ﴿طوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ﴾ [1]، يَدُلُّكَ عَلى رَفْعِها رَفْعُ "حُسْن مَآبٍ". وَ أَمّا قَوْلُهُ تَعالى جَدُّهُ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [2]وَ ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [3]. فَإِنَّهُ لا يَنْبَغي أَنْ تَقولَ إِنَّهُ دُعاءٌ ههُنا ؛ لأَنَّ الْكَلامَ بِذلِكَ قَبيحٌ ، وَ اللَّفْظَ بِهِ قَبيحٌ، ولكِنَّ الْعِبادَ إِنَّما كُلِّموا بِكَلامِهِمْ وَ جاءَ الْقُرْآنُ عَلى لُغَتِهِمْ وَ عَلى ما يَعْنونَ . فَكَأَنَّهُ – واللهُ أَعْلَمُ – قيلَ لَهُمْ :﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، وَ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ، أَيْ : "هَؤُلاءِ مِمَّنْ وَجَبَ الْقَوْلُ لَهُمْ": لأَنَّ هذا الْكَلامَ إِنَّما يُقالُ لِصاحِبِ الشَّرِّ وَ الْهَلَكَةِ ، فَقيلَ : هَؤُلاءِ مِمَّنْ دَخَلَ في الشَّرِّ والْهَلَكَةِ وَ وَجَبَ لَهُمْ هذا. وَ مِثْلُ ذلِكَ قَوْلُهُ تَعالى:﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [4]، فَالْعِلْمُ قَدْ أَتَى مِنْ وَراءِ ما يَكونُ. "ولكِنْ اذْهَبا أَنْتُما في رَجائِكُما وطَمَعِكُما وَمَبْلَغِكُما مِنَ الْعِلْمِ". ولَيْسَ لَهُما أَكْثَرُ مِنْ ذا ما لَمْ يَعْلَما. ومِثْلُهُ:﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾[5] فَإِنَّما أُجْرِيَ هذا عَلى كَلامِ الْعِبادِ وبِهِ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ »[6] .

وَ مِثْلُ ذلِكَ مِمّا يُحْمَلُ عَلى لِسانِ الْعَرَبِ مِنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ الْكَريمِ في اللَّفْظِ والْمَعْنى ما وَرَدَ في قَوْلِهِ عَنْ " أَمْ " الْمُنْقَطِعَةِ: « وبِمَنْزِلَةِ "أَمْ" ههُنا قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَّ : ﴿ آلم، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [7]، فَجاءَ هذا الْكَلامُ عَلى كَلامِ الْعَرَبِ [...] لِيُعَرَّفُوا ضَلالَتَهُمْ [...]. وجاءَ عَلى حَرْفِ الاسْتِفْهامِ لِيُبَصَّروا ضَلالَتَهُمْ...»[8].

وَ قَدْ يَسْتَدِلُّ سيبَوَيْهِ عَلى صِحَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغاتِ بِالْقُرْآنِ ، مِثْلَما فَعَلَ في بابِ « ما يَنْتَصِبُ مِنَ الْمَصادِرِ لأَنَّهُ حالٌ صارَ فيها الْمَذْكورُ » ، وَ ذلِكَ نَحْو "أَمّا سِمَنًا فَسَمينٌ". عَلى رَفْعِ بَني تَميمٍ لِنَحْوِ "أَمّا الْعِلْمُ فَعالِمٌ" . « كَأَنَّهُ قالَ : "فَأَنا ، أَوْ فَهُوَ ، عالِمٌ بِهِ ، وَ كانَ إِضْمارُ هذا

[1] سورَةُ الرَّعْد : 29
[2] سورَةُ الْمُرْسَلاتِ : 15
[3] سورَةُ الْمُطَفِّفينَ : 1 .
[4] سورَة طَه : 44 .
[5] سورَةُ التَّوْبَةِ : 30 .
[6] اَلْكِتاب : 330/1، 331، 332 .
[7] سورَةُ السَّجْدَة : 1-2 .
[8] الكِتاب : 172/3، 173 .

أَحْسَنَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَنْ يُدْخِلوا فيهِ ما لا يَجوزُ، كَما قالَ سُبْحانَهُ :﴿...يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ ﴾ [1] ، أُضْمِرَ "فيهِ" »[2].

وَ لَقَدْ كَثُرَتِ الشَّواهِدُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَريمِ في كَثيرٍ مِنَ الأَبْوابِ . يَدُلُّ عَلى كَثْرَتِها وَمُكْنَةِ الاسْتِشْهادِ بِها و يُسْرِهِ، قَوْلُهُ: «وَ هذا النَّحْوُ كَثيرٌ في الْقُرْآنِ الْكَريمِ»[3]، و «هذا الضَّرْبُ في الْقُرْآنِ كَثيرٌ »[4]، و «كَذلِكَ جَميعُ ما جاءَ مِنْ ذا في الْقُرْآنِ»[5]، و «مِثْلُ ذلِكَ كَثيرٌ في الْقُرْآنِ»[6].

وَ يُضافُ إِلى إِكْثارِ سيبَوَيْهِ مِنَ الاسْتِدْلالِ بِالآياتِ اعْتِناؤُهُ بِإِسْنادِ الْقِراءاتِ إِلى الْقُرّاءِ وَ نَصُّهُ عَلى أَسْمائِهِمْ . و مِنْ ذلِكَ قَوْلُه: « وقَرَأَ الأَعْرَجُ: ﴿ يا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرُ﴾[7] فَرَفَعَ»[8] وكانَ عيسى [أَيْ عيسى بْنُ عُمَرَ] يَقْرَأُ هذا الْحَرْفَ: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ:إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾[9] أَرادَ أَنْ يَحْكِيَ »[10]. وأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبي إِسْحاقَ فَكانَ يَنْصِبُ هذِهِ الآيَةَ [أَيْ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَ نَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [11] »[12] « وَ قَدْ قَرَأَهُ الْحَسَنُ [أَيْ :﴿وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وحُورٌ عِينٌ﴾]»[13] و مِثْلُ هذا : ﴿وَ حُورًا عِينًا﴾ في قِرَاءَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ »[14]، « و كانَ أَبو عَمْرٍو [أَيْ ابْنُ الْعَلاءِ] يَقولُ: ﴿ يَا عِبَادِي فَاتَّقُونِ ﴾ ... »[15] . وَ النَّماذِجُ كَثيرَةٌ.

وَ مِنَ الْمَعْروفِ أَنَّ الْقُرّاءَ تَعَرَّضوا لِلطَّعْنِ وَ النَّقْدِ وَ التَّلْحينِ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ النَّحْوِيّينَ وَ اللُّغَوِيّينَ وَ الْمُفَسِّرينَ . ومِنْ ذلِكَ تَوْهيمُ الفَرّاءِ للأَعْمَشِ ويَحْيى بْنِ وَثّابٍ في قِراءَتِهِما –وهِيَ قِراءَةُ

[1] سورَةُ البَقَرَة : 48

[2] الكتاب : 1/384-386 .

[3] اَلْمَصْدَرُ نَفْسُهُ: 2/39 .

[4] نَفْسُهُ : 2/325 .

[5] نَفْسُهُ : 3/142 .

[6] نَفْسُهُ : 3/143 .

[7] سورَةُ سَبَأ : 10

[8] الكتاب : 2/187 .

[9] سورة القَمَر : 10

[10] الكتاب: 3/143 .

[11] سورَةُ الأَنْعام : 67

[12] الكتاب: 3/44 .

[13] المصدر نَفْسُهُ : 1/172 .

[14] نَفْسُهُ : 1/95 .

[15] نَفْسُهُ : 2/210

حَمْزَةَ أيْضًا-: ﴿وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ﴾ [1] بِكَسْرِ الْياءِ الْمُشَدَّدَةِ[2]، وتَخْطِئَةُ الْمازِنِيِّ والْمُبَرِّدِ لِنافِعٍ الْمَدَنِيِّ في قِراءَةِ "مَعايِش" بِالهَمْزِ بَدَلاً مِنَ الْياءِ[3]، وتَخْطِئَةُ ابْنِ قُتَيْبَةَ لِحَمْزَةَ[4]، و قَدْ رَجَعَ أَبو الْفَتْحِ بْنُ جِنِّيّ سَبَبَ ذلِكَ - في نَظَرِهِ - إلى ضَعْفِ دِرايَةٍ لا ضَعْفِ أَمانَةٍ[5]، و في ذلِكَ يَقولُ الزَّمَخْشَرِيُّ: « وَ لا يَضْبِطُ نَحْوَ هذا إلاّ أَهْلُ النَّحْوِ »[6]. ويَقولُ ابْنُ جِنِّيّ: « وهُوَ –يَعْني سيبَوَيْهِ- أَضْبَطُ لِهذا الأمْرِ مِنْ غَيْرِه مِنَ القُرّاءِ »[7]، ويَقولُ في تَعْليلِ غَلَطِ العَرَبِ في بَعْضِ الأَلْفاظِ والمَسائِلِ –و منْها أَلْفاظٌ قَرأَ بِها بَعضُ القُرّاءِ- : « لأَنَّهُم لَيْسَتْ لَهُمْ قِياساتٌ يَسْتَعْصِمونَ بِها و إنَّما يُخْلِدونَ إلى طَبائِعِهِمْ »[8]. وقَدْ رَدَّ طائِفَةٌ مِنَ الْعُلَماءِ عَلى النَّحْوِيّينَ، و مِنْهُم ابْنُ الحاجِبِ، قالَ: « والأَوْلى الرَّدُّ على النَّحْوِيّينَ [...] فَلَيْسَ قَوْلُهُمْ بِحُجَّةٍ عِنْدَ الإجْماعِ، ومِنَ الْقُرّاءِ جَماعَةٌ مِنَ النَّحْوِيّينَ، فَلا يَكونُ إجْماعُ النَّحْوِيّينَ حُجَّةً مَعَ مُخالَفَةِ الْقُرّاءِ لَهُمْ [...]، فَإِنَّهُمْ [أي القُرّاء]

---

[1] سورَةُ إبْراهيم : 22

[2] يَحْيى بْنُ زِيادٍ الفَرّاءُ، "**مَعاني الْقُرْآنِ**" تح. محمّد عليّ النّجّار و أحمد نَجاتي، ط.2، عالَم الكُتُب، بَيْروت، 1980، 75/2. أبو الطَّيِّبِ عَبْدُ الواحِدِ بْنُ عَلِيّ اللُّغَوِيُّ، "**مَراتِبُ اللُّغَوِيّينَ**"، تح. محمّد أبو الفَضْلِ إبْراهيم، دار نَهْضَةِ مِصْرَ ، القاهِرَة، ص:26و27 .

[3] أبو العَبّاسِ الْمُبَرِّدُ، "**اَلْمُقْتَضَبُ**". تَح. د.محمّد عَبْد الْخالِق عضيمَة ، عالَمُ الْكُتُبِ . بَيْروت. 123/1 .

[4] اِبْنُ قُتَيْبَةَ، "**تَأْويلُ مُشْكِلِ الْقُرْآنِ**"، ط.3، تح. السّيّد أحمد صَقْر. المَكْتَبَةُ العِلْمِيَّةُ بالمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، 1401-1981، ص: 40-42 .

[5] اِبْنُ جِنّيّ، **اَلْخَصائِصُ**، تح. مُحَمّد عَلِيّ النَّجّار ، ط.2 ، دارُ الْهُدى ، بَيْروت : 73/1 .

[6] الزَّمَخْشَرِيّ، "**اَلْكَشّافُ**" : 171/1 .

[7] ابْنُ جِنّيّ، **الْخَصائِص**: 72/1-73

[8] ابْنُ جِنّيّ، "**اَلْمُنْصِفُ في شَرْحِ كِتابِ التَّصْريفِ للمازِنِيّ**" تح. إبْراهيم مُصْطَفى وعَبْد الله أمين. مَكْتَبَة البابي الحَلَبِيّ، ط.1، 1954، 311/1، محمّد عَبْد الخالِق عضيمَة، **دِراساتٌ لأُسْلوبِ الْقُرْآنِ الْكَريم**، دار الحديث، القاهِرة، 22/1-23-24. وقَدْ رَجَعَ الأُسْتاذُ مُحَمّد عَبْدُ الْخالِق عُضيمة -رَحِمَهُ اللهُ- أَسْبابَ تَلْحينِ النَّحْوِيّينَ لِلْقُرّاءِ إلى:

* أَنَّهُمْ كانوا يَحْتَكِمونَ إلى ما وَضَعوهُ مِنْ قَواعِدَ وَ ما سَنّوهُ مِنْ قَوانينَ .
* و أَنَّهُمْ كانَ يَخْفى عَلى بَعْضِهِمْ تَوْجيهُ الْقِراءَةِ فَيُسارِعُ إلى تَلْحينِها .
* وَ أَنَّ بَعْضَهُمْ كانَ يَنْظُرُ إلى الشّائِعِ مِنَ اللُّغاتِ وَ يَغْفُلُ عَنْ غَيْرِهِ .
* وَ أَنَّ بَعْضَهُمْ كانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَحْصى أَوْزانَ الْعَرَبِيَّةِ ، فَوَجَدَها تَخْلو مِنْ بَعْضِ الأَوْزانِ، فَيُلَحِّنُ ما جاءَ عَلَيْها مِنْ قِراءاتٍ
* وَ مِنْهُمْ مَنْ لَحَّنَ بَعْضَ الْقِراءاتِ الْمُتَواتِرَةِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ مُوافَقَتِها لأَقْيِسَتِهِمْ ...

ناقِلونَ لِهذِهِ اللُّغَةِ، وهُمْ مُشارِكونَ النَّحْوِيّينَ في نَقْلِ اللُّغَةِ. فَلا يَكونُ إجْماعُ النَّحْوِيّينَ حُجَّةً دونَهُمْ. وإذا ثَبَتَ ذلِكَ كانَ الْمَصيرُ إِلى قَوْلِ القُرّاءِ أَوْلى [..] لأَنَّ الْقِراءاتِ ثَبَتَتْ مُتواتِرَةً [..]»[1]

وَ قَدْ ذَكَرَ أبو حَيَّان في مَواضِعَ كَثيرَةٍ أَنَّ الْقِراءَةَ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ - مِثْلَما ذَكَرَ سيبَوَيْهِ مِنْ قَبْلِهِ - وَ فيها الْفَصيحُ وَ الأَفْصَحُ[2] ، وَ لَيْسَ الْعِلْمُ مَحْصوراً عَلى نَقْلِ الْبَصْرِيّينَ وعِلْمِهِمْ ، بَلِ الْقُرّاءُ الْكوفِيّونَ يَكادونَ يَكونونَ مِثْلَ قُرّاءِ الْبَصْرَةِ[3] و« لَسْنا مُتَعَبَّدينَ بِأَقْوالِ نُحاةِ الْبَصْرَةِ »[4] . وَ قَدْ رَدَّ أبو حَيَّانَ عَنْ أَكْثَرِ الْقُرّاءِ ما تَعَرَّضوا لَهُ مِنْ تَلْحينِ النُّحاةِ بِقَوْلِهِ : « اِبْنُ عامِرٍ عَرَبِيٌّ صَريحٌ ، كانَ مَوْجودًا قَبْلَ أَنْ يوجَدَ اللَّحْنُ ؛ لأَنَّهُ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلى عُثْمانَ بْنِ عَفّان وَ نَصْرِ بْنِ عاصِمٍ أَحَدِ الأَئِمَّةِ في النَّحْوِ ، وَ هُوَ مِمَّنْ أَخَذَ النَّحْوَ عَنْ أَبي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ مُسْتَنْبِطِ عِلْمِ النَّحْوِ »[5]

وَ مِنَ الْقُرّاءِ السَّبْعَةِ الذينَ تَعَرَّضوا لِتَلْحينِ النَّحْوِيّينَ ابْنُ عامِرٍ وَ ابْنُ كَثيرٍ وأَبو عَمْرٍو بْنُ الْعَلاءِ وَ نافِعٌ وَ عاصِمٌ وَ الْكِسائِيُّ وَ حَمْزَةُ ... وَ الْمِثالُ عَلى ذلِكَ وُرودُ التَّلْحينِ في الْكِتابِ ؛ فَقَدْ رَوى سيبَوَيْهِ عَنْ يونُسَ أَنَّ أَبا عَمْرٍو بْنَ الْعَلاءِ رَأَى قِراءَةَ مَنْ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعالى :﴿هَـٰؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ ﴾[6] بِنَصْبِ "أَطْهَر" لَحْنًا[7] . وَ قَدْ رَدَّ سيبَوَيْهِ بَعْضَ الْقِراءاتِ وَعَدَّها رَديئَةً ، وَ ذلِكَ مِنْ خَصائِصِ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ فيما خالَفَ الْقِياسَ وَ خَرَجَ عَنْهُ[8] .

. وَ سُجِّلَ عَلى سيبَوَيْهِ أَنَّهُ ذَكَرَ قُبْحَ "كُلّ" الْمُضافَةِ إِلى نَكِرَةٍ في أَنْ تَلِيَ الْعَوامِلَ، فَقالَ: « "أَكَلْتُ شاةً كُلَّ شاةٍ" حَسَنٌ ، وَ "أَكَلْتُ كُلَّ شاةٍ" ضَعيفٌ ؛ لأَنَّهُمْ لا يَعُمّونَ هَكذا فيما زَعَمَ

---

[1] ذَكَرَه ابْنُ الحاجِبِ في "**شَرْحِ المُفَصَّلِ**"، فيما نَقَلَه الشَّيْخُ عَبْد الخالِق عُضَيمَة: "**دِراساتٌ لأسْلوبِ القُرْآنِ الكَريمِ**" 27/1

[2] أبو حَيّان مُحَمَّدُ بْنُ يوسُفَ الأنْدَلُسِيُّ، "**اَلْبَحْرُ الْمُحيطُ**"، ط.2، دارُ الفِكْرِ، بَيْروت، 1403-1983، 261/7 .

[3] المَصْدَرُ نَفْسُه: 362/2-363 .

[4] نَفْسُه : 271/4 .

[5] نَفْسُه : 136/4 ، 229 ، 271 ...

[6] سورَةُ هود : 78

[7] سيبَوَيْه، "**اَلْكِتاب**" : 396/2-397 .

[8] خِلافًا لِما ذَهَبَتْ إِلَيْهِ دة. خَديجَةُ الْحديثِيّ مِنْ أَنَّ سيبَوَيْهِ « لَمْ يُخَطِّئْ قارِئًا وَ لَمْ يُلَحِّنْ قِراءَةً » انْظُرْ كِتابَها: "**دِراساتٌ في كِتابِ سيبَوَيْه**"، نَشْرُ وَكالَةِ المَطْبوعاتِ، الكويت، 1980، ص: 47،

الْخَليلُ رَحِمَهُ اللهُ ... وَ ذاكَ أَنَّ مَوْضِعَها في الكَلامِ أَنْ يُعَمَّ بِبَعْضِها [...] بَعْدَما يُذْكَر الاسْمُ... »[1] . وَ قَدْ جاءَتْ مُضافَةً إلى نَكِرَةٍ مَفْعولاً بِهِ في مَواضِعَ شَتّى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَريمِ[2] .

وَ مَنَعَ إِدْغامَ الرّاءِ في اللاّمِ : « وَ الرّاءُ لا تُدْغَمُ في اللاّمِ وَ لا في النّونِ : لأَنَّها مُكَرَّرَةٌ [...] فكَرِهوا أَنْ يُجْحِفوا بِها فَتُدْغَمَ مَعَ ما لَيْسَ يَتَفَشّى في الْفَمِ مِثْلها وَ لا يُكَرَّرُ »[3] . وَقَدْ قَدَّمَ لِهذا الْمَنْعِ عِلَّةً هِيَ بِمَثابَةِ قانونٍ صَوْتِيٍّ يَحْكُمُ عَلاقَةَ الْحُروفِ بَعْضِها بِبَعْضٍ، ولكِنَّ الْقِراءَةَ وَرَدَتْ بِمِثْلِ هذا الإِدْغامِ الذي مَنَعَهُ سيبَوَيْهِ، في قَوْلِهِ تَعالى :﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[4] حَيْثُ أَدْغَمَ أَبو عَمْرٍو الرّاءَ في اللاّمِ[5] .

ومَنَعَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْمُضافِ وَ الْمُضافِ إِلَيْهِ . وَ هذِهِ قاعِدَةٌ مِنْ قَواعِدِ النَّحْوِيّينَ الْمَشْهورَةِ، قالَ في ذلِكَ : « [...] قَبُحَ أَنْ تَفْصِلَ بَيْنَ الْمُضافِ والاسْمِ الْمُضافِ إِلَيْهِ [...] وَهذا يَجوزُ في الشِّعْرِ؛ لأَنَّ الشّاعِرَ إِذا اضْطُرَّ فَصَلَ بَيْنَ الْمُضافِ والْمُضافِ إِلَيْهِ ...»[6]. وَقَدْ وَرَدَ الْفَصْلُ في غَيْرِ ضَرورَةِ الشِّعْرِ، في قِراءَةِ ابْنِ عامِرٍ :﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ ﴾[7] ، بِرَفْعِ "قَتْل" وَ جَرِّ "شُرَكائِهِمْ" وَ نَصْبِ "أَوْلادهمْ" مَفْعولاً لِلْمَصْدَرِ "قَتْل"، وَجاءَ الْمَصْدَرُ فاصِلاً بَيْنَ الْمُضافِ وَ الْمُضافِ إِلَيْهِ . أَمّا سيبَوَيْهِ فَقَدْ أَوْرَدَ قِراءَةَ الْحَسَنِ بِرَفْعِ الْمَصْدَرِ وَ جَرِّ "الأَوْلادِ" بِالشُّرَكاءِ عَلى الفاعِلِيَّةِ ، وَ لَيْسَ فيهِ فَصْلٌ[8] .

وَ غَلَّطَ مَنْ تَكَلَّمَ بِما فيهِ الْعَطْفُ بِالرَّفْعِ عَلى مَوْضِعِ "إِنَّ" قَبْلَ اسْتِكْمالِ خَبَرِها، فَقالَ: « وَ اعْلَمْ أَنَّ ناسًا مِنَ الْعَرَبِ يَغْلَطونَ فَيَقولونَ : "إِنَّهُمْ أَجْمَعونَ ذاهِبونَ" وَ "إِنَّكَ وزَيْدٌ ذاهِبانِ"؛ وذاكَ أَنَّ مَعْناهُ مَعْنى الابْتِداءِ، فَيُرى أَنَّهُ قالَ: "هُمْ" ... »[9]. وعَلَّلَ ابْنُ الأَنْباريِّ غَلَطَ

---

1 سيبَوَيْه: الكتاب : 116/2 .
2 محمّد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 6/1
3 سيبَويه، الكِتاب : 448/4 .
4 سورَة البقرة : 284
5 الحافِظُ ابْنُ الجَزَرِيّ، "النَّشْرُ في الْقِراءاتِ الْعَشْرِ"، تَصْحيح أَحْمَد دَهْمان، طَبْعَة التَّوْفيق، دِمَشْق، 1345هـ، 337/2 .
6 سيبَوَيْه، الْكِتابُ : 280/2 .
7 سورَة الأَنْعام : 137 .
8 سيبَوَيْه، الْكِتابُ : 290/1 .
9 مصدَرٌ نَفْسُهُ : 155/2 .

الْعَرَبِيَ الْمُتَكَلِّمِ بِأَنَّهُ « يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ إذا اسْتَهْواهُ ضَرْبٌ مِنَ الْغَلَطِ فَيَعْدِلُ عَنْ قِياسِ كَلامِهِ »[1] ، أَمّا قَوْلُهُ تَعالى :﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَ الذينَ هَادُوا وَ الصَّابِئُونَ﴾[2] فَقَدْ حَمَلَ فيهِ سيبَوَيْهِ ﴿الصَّابِئُونَ﴾ عَلى التَّقْديمِ وَ التَّأْخيرِ كَأَنَّهُ ابْتِداءُ كَلامٍ جَديدٍ بَعْدَ مُضِيِّ خَبَرِ "إِنَّ"[3]. ولَكِنَّ الْمُفَسِّرينَ ذَكَروا لِلصَّابِئِينَ وُجوهًا إِعْرابِيَّةً عِدَّةً مِنْها قَوْلُ الْعُكْبَرِيِّ إِنَّهُ « يُقْرَأُ بِالْهَمْزِ وَالنَّصْبِ عَطْفًا عَلى "الذين" ، وَ هُوَ شاذٌّ في الرِّوايَةِ صَحيحٌ في الْقِياسِ ... وَ الْمَشْهورُ في الْقِراءَةِ الرَّفْعُ ، وَ فيها أَقْوالٌ : أَحَدُها قَوْلُ سيبَوَيْهِ : وَ هُوَ أَنَّ النِّيَّةَ بِهِ التَّأْخيرُ بَعْدَ خَبَرِ "إِنَّ"، وتَقْديرُهُ: "ولا هُمْ يَحْزَنونَ" ، و "الصّابِئونَ" كَذلِكَ فَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَ الْخَبَرُ مَحْذوفٌ »[4] وَذَكَرَ الْعُكْبَرِيُّ أَوْجُهًا إِعْرابِيَّةً أُخْرى صَحَّحَ بَعْضَها وَ رَدَّ بَعْضًا آخَرَ .

وَ مَنَعَ النَّصْبَ في الْفِعْلِ الْمُضارِعِ إِذا وَقَعَ بَعْدَ الْفاءِ غَيْرَ جَوابٍ. وَ ذلِكَ نَحْو « "إِنَّهُ عِنْدَنا فَيُحَدِّثُنا" وَ "سَوْفَ آتيهِ فَأُحَدِّثُهُ" ، لَيْسَ إِلاّ ، إِنْ شِئْتَ رَفَعْتَهُ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَوَّلِ، وَ إِنْ شِئْتَ كانَ مُنْقَطِعًا: لأَنَّكَ قَدْ أَوْجَبْتَ أَنْ تَفْعَلَ، فَلا يَكونُ فيهِ إِلاّ الرَّفْعُ... »[5] أَيْ رَفْعُ الْفِعْلِ الْمُضارِعِ عَطْفًا عَلى ما قَبْلَهُ أَوْ عَلى الْقَطْعِ والاسْتِئْنافِ، كَما وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى :﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[6] ، «كَأَنَّهُ قالَ: إِنَّما أَمْرُنا ذاكَ فَيَكونُ. وقَدْ يَجوزُ النَّصْبُ في الْواجِبِ في اضْطِرارِ الشِّعْرِ، ونَصْبُهُ في الاضْطِرارِ، مِنْ حَيْثُ انْتَصَبَ في غَيْرِ الْواجِبِ؛ وذلِكَ لأَنَّكَ تَجْعَلُ "أَنْ" الْعامِلَةَ »[7]. وقَدْ وَرَدَ النَّصْبُ في قِراءَةِ ابْنِ عامِرٍ والكِسائِيِّ لِـ"يَكونُ" مِنْ قَوْلِهِ تَعالى:﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[8].

وَ بَعْدَ عَرْضِ نَماذِجَ مِنْ قَواعِدِ الْمَنْعِ في نَحْوِ سيبَوَيْهِ، يُمْكِنُ أَنْ نَتَصَوَّرَ اسْتِدْراكًا يَخْرِقُ قَواعِدَ الْمَنْعِ وَ يُوَسِّعُها، حَتّى تُصْبِحَ قادِرَةً عَلى اسْتيعابِ الْوارِدِ مِنْ لِسانِ الْعَرَبِ وَمِنَ الْقِراءاتِ

---

[1] أبو البَرَكاتِ الأنْباريّ، "**الإنْصافُ في مَسائِلِ الْخِلافِ بَيْنَ النَّحْوِيّينَ البَصْرِيّينَ والكوفِيّينَ**"، تح. محمّد مُحْيي الدّين عَبْد الحَميد، دار الفِكْرِ للطِّباعَةِ والنَّشْرِ والتَّوْزيعِ، بَيْروت، ص: 185 .

[2] سورَة المائِدَة : 69

[3] سيبَوَيْهِ، "**اَلْكِتابُ**" : 155/2 .

[4] أبو البَقاءِ العُكْبَرِيّ، "**التِّبْيان في إِعْرابِ الْقُرْآنِ**" [اَلْمُسَمّى خَطَأً بِـ"إِمْلاءِ ما مَنَّ بِهِ الرَّحْمنُ"] ط.1، دارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، بَيْروت، 1399-1979، ص: 185] .

[5] سيبَوَيْه، **اَلْكِتابُ** : 83/3 .

[6] سورَة النَّحْل : 40

[7] سيبَوَيْه، "**اَلْكِتابُ**": 39/3 .

[8] سورَةُ يَس : 82 ، وانظُرْ كِتابَ أبي بَكْرِ بْنِ مُجاهِدٍ (ت.324): "**السَّبْعَة في القِراءاتِ**" تح. د.شَوْقي ضَيْف، ط.2، دار المَعْرِفَة، القاهِرَة، 1400هـ.

وَ ضَرائِرِ الشِّعْرِ، وتَصيرَ "قَوَاعِدَ طَبيعِيَّةً" تَحْكي واقِعَ اللِّسانِ . ويَصيرَ كُلُّ حُكْمٍ بِالْمَنْعِ أَوِ الرَّداءَةِ أَوِ الْقِلَّةِ أَوْ عَدَمِ الْجَوازِ مَعْكوسًا وَ مُتَّجِهًا نَحْوَ الإجازَةِ وَ الصِّحَّةِ ما دامَتِ الشَّواهِدُ قائِمَةً وارِدَةً، ولَوْ كانَ وُرودُها قَليلاً أَوِ اضْطِرارِيًّا أَوْ شاذًّا![1]

2- صَنيعُ سيبَوَيْهِ فِي الاسْتِدْلالِ بِالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ:

مِنْ خَصائِصِ مَنْهَجِ الاسْتِدْلالِ بِالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ في كِتابِ سيبَوَيْضضه أَنَّ شَواهِدَ الْقُرْآنِ الْكَريمِ تَعْقُبُ أَمْثِلَةَ النَّحْوِ الْمَصْنوعَةَ وَ شَواهِدَ الشِّعْرِ الْمورَدَةَ ، وَ تَأْتي مُتَأَخِّرَةً عَنْها في تَرْتيبِ الاسْتِدْلالِ . و هذا أَمْرٌ يَحْمِلُ عَلى الظَّنِّ أَنَّ الْبابَ يُبْنى عَلى الْمِثالِ الْمَصْنوعِ قَبْلَ غَيْرِهِ مِنَ الشَّواهِدِ التي يَنْبَغي أَنْ تَكونَ مُعْتَبَرَةً ، لكِنَّ حَصيلَةَ الْمَعْرِفَةِ النَّحْوِيَّةِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنَ الْبابِ تُعْرِبُ عَنْ تَقَدُّمِ الشَّواهِدِ الشِّعْرِيَّةِ وَ الْقُرْآنِيَّةِ عَلى الأَمْثِلَةِ فِي الْعِنايَةِ وَ الاهْتِمامِ لا في تَرْتيبِ الْوُرودِ. أَمّا صَدارَةُ الأَمْثِلَةِ الْمَصْنوعَةِ في التَّرْتيبِ الظّاهِرِ فَمَرَدُّهُ إِلى قابِلِيَّتِها لإِجْراءِ مَنْهَجِ النَّظَرِ عَلَيْها وإِخْضاعِها لِلتَّأْويلِ وَ التَّقْديرِ . و أَمّا نُصوصُ الْقُرْآنِ الْكَريمِ فَإِنَّها تَتَأَبّى عَلى النَّظَرِ الْمُتَأَوِّلِ ، أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يُقالَ إِنَّ النَّظَرَ يَحْتَرِزُ مِنْ أَنْ يَصْنَعَ بِنُصوصِ الْقُرْآنِ الْكَريمِ صَنيعَهُ بِالأَمْثِلَةِ الْمَأْلوفَةِ، حَتّى لا يَقَعَ فِي الإِشْكالِ الْمَعْروفِ بِ،،التَّفْسيرِ بِالرَّأْيِ،، الذي ذَمَّهُ الْمُفَسِّرونَ وَ حَذَّروا مِنْهُ. فَالْمِثالُ مِنْ صُنْعِ النّاظِرِ وَتَدْبيرِهِ وَ تَفْكيرِهِ ، و لكِنَّهُ بَناهُ وَفْقَ كَلامِ الْواضِعِ و لَمْ يَفْتَرِضْهُ مِنْ فَراغٍ وَ لَمْ يَبْنِهِ مِنْ تَجْريدٍ . و مِنْ خَصائِصِ هذا الْمِثالِ الْمَصْنوعِ أَنَّهُ بَسيطٌ وَ خالٍ مِنَ الاعْتِباراتِ التَّداوُلِيَّةِ الْمُعَقَّدَةِ التي تَشْتَمِلُ عَلَيْها أَحْوالُ الْمُتَخاطِبينَ وَ أَقْوالُهُمْ، وحَمّالٌ لِتَقْليبِ النَّظَرِ وتَوْجيهِهِ... وتُعَدُّ الْمُراوَحَةُ بَيْنَ النَّصِّ الْوَضْعِيِّ والْمِثالِ الْمَصْنوعِ حَرَكَةً نَظَرِيَّةً يُجَرِّدُ بِها النَّظَرُ شَكْلاً عامِلِيًّا مِنَ النُّصوصِ الْوَضْعِيَّةِ والشَّواهِدِ، ويَصْنَعُ مِنْ هذا "الْكائِنِ الْمُجَرَّدِ،، نُصوصًا جَديدَةً وَ أَمْثِلَةً .

وهكَذا، فَإِنَّ النُّصوصَ الفَصيحَةَ الْمُنتسبةَ إلى اللغةِ الطّبيعيّة – التي هِيَ الْقُرْآنُ الْكَريمُ ثمّ كَلامُ الْعَرَبِ – مادَّةٌ لُغَوِيَّةٌ تُسْتَنْبَطُ مِنْها قَوانينُ النَّحْوِ وقَواعِدُهُ وأُصولُهُ، وتُسْتَخْرَجُ مِنْ تِلْكَ الْقَواعِدِ أَشْكالٌ عامِلِيَّةٌ وعَلاقاتٌ تَرْكيبِيَّةٌ مُجَرَّدَةٌ، وتُلْقى هذِهِ الأَشْكالُ عَلى نُصوصٍ مَصْنوعَةٍ، وذلِكَ لِلْحُصولِ فِي النِّهايَةِ عَلى أَمْثِلَةٍ مَقيسَةٍ عَلى الشَّواهِدِ الأولى، ولكِنَّ هذِهِ الأَمْثِلَةَ يَحْسُنُ في نَظَرِ "النّاظِرِ النَّحْوِيِّ" أَنْ تُصَدَّرَ بِها أَبْوابُ النَّحْوِ ومَسائِلُهُ، وذلِكَ لِتَكونَ عُرْضَةً لِلاعْتِراضِ ومَجالاً لِلنَّظَرِ وإِعادَةِ النَّظَرِ ...

---

[1] وَ ذلِكَ عَلى غِرارِ ما تَصَوَّرَهُ د. أَحْمَد مَكّي الأَنْصارِيّ في كِتابِهِ « **نَظَرِيَّةُ النَّحْوِ الْقُرْآنِيِّ** » ط.1، دارُ القِبْلَةِ لِلثَّقافَةِ الإِسْلامِيَّةِ، 1405هـ .

وهكذا، فَإِنَّ سيبَوَيْهِ لا يَصِلُ إلى إقْرارِ الْقاعِدَةِ بِالشّاهِدِ الْقُرْآنِيِّ إلاّ بَعْدَ أَنْ يَطَّوَّفَ بِالأَمْثِلَةِ الْبَسيطَةِ، وَ يُبْرِزَ مِنْها أَوْجُهَ التَّغَيُّرِ الإِعْرابِيِّ ، لِكَيْ يَلْفِتَ الانْتِباهَ إلى مَواطِنِ الاسْتِشْهادِ . وَ بَعْدَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ ذلِكَ يَنْتَقِلُ إلى اسْتِدْعاءِ الآيَةِ لِتَكونَ عَلَمًا قارًّا على الْبابِ الْمَعْقودِ . وَ الأَدِلَّةُ عَلى هذا الاحْتِرازِ في الْكِتابِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصى ، وَ مِنْها قَوْلُهُ عَلى سَبيلِ الْمِثالِ :

1- «[...] "أَلَمْ تَأْتِنا فَتُحَدِّثَنا" [...]،﴿لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيَسْحَتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾[1] »[2]

2- «"أُريدُ أَنْ تَأْتِيَنِي ثُمَّ تُحَدِّثَنِي" [...]، ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾[3] »[4] .

3- « "رَأَيْتُ زَيْدًا أَباهُ" [...] ﴿ للهِ عَلَى النَّاسِ حجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[5] »[6] .

4- «"اِذْهَبْ أَنْتَ وزَيْدٌ"... ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلاَ ﴾[7] و﴿ اُسْكُنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[8] »[9].

5- « "حَسِبْتُ زَيْدًا هُوَ خَيْرًا مِنْكَ" [...] ﴿وَ يَرَى الذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ﴾[10]»[11] .

يَسْتَبينُ مِمّا سَبَقَ ذِكْرُهُ في بابِ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ وَ الْقُرْآنِ الْكَريمِ أَنَّ الشّاهِدَ الْقُرْآنِيَّ في كِتابِ سيبَوَيْهِ – وَ هُوَ النَّموذَجُ الْمُقَدَّمُ بِامْتِيازٍ في كُتُبِ النَّحْوِ – سَيِّدُ الشَّواهِدِ وَ رَأْسُها؛ لأَنَّهُ يُوافِقُ الشّاهِدَ الشِّعْرِيَّ وَ يَرْبو عَلَيْهِ . فَهُوَ يُوافِقُهُ عِنْدَما يَعْقِدُ سيبَوَيْهِ الْبابَ بِالأَدِلَّةِ الْوافِرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، ويَرْبو عَلَيْهِ لأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَوْجُهًا إِعْرابِيَّةً مُخْتَلِفَةً لا تَكادُ تَرِدُ بِها الشَّواهِدُ الأُخْرى.

---

[1] سورَة : طَه : 61 .
[2] سيبَوَيْه، "اَلْكِتاب" : 34/3 .
[3] سورَة آل عِمْران : 79 .
[4] سيبَوَيْه، "اَلْكِتاب": 52/3 .
[5] سورَة آل عِمْران : 97 .
[6] سيبَوَيْه، "اَلْكِتاب" : 152/1 .
[7] سورَة المائِدَة : 24 .
[8] سورَة البَقَرَة : 35 .
[9] سيبَوَيْه، "اَلْكِتاب" : 247/1 .
[10] سورَة سبأ : 6 .
[11] سيبَوَيْه، "اَلْكِتاب" : 390/2 .

وقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ النَّظَرَ النَّحْوِيَّ في الْكِتابِ شَديدُ الاحْتِرازِ في بِناءِ الْقَواعِدِ ، مِنَ الْوُقوعِ في إِهْدارِ النُّصوصِ اللُّغَوِيَّةِ الْوارِدَةِ في الْقُرْآنِ الْكَريمِ. وما مِنْ قاعِدَةٍ يُقَرِّرُها النَّظَرُ في صَدْرِ الْبابِ إلاَ وتَعْقُبُها اسْتِثْناءاتٌ وقُيودٌ، مِمّا تُمْليهِ النُّصوصُ الْمُتَأَبِّيَةُ عَلى صَرامَةِ الْقَواعِدِ. وذلِكَ لأَنَّ الْقاعِدَةَ تَحْمِلُ في أَصْلِ وَضْعِها خَصائِصَ الأَدِلَّةِ التي وَقَعَ مِنْها الاسْتِنْباطُ. وهذا ضَرْبٌ مِنَ "النَّقْصِ الْمُسْتَوْلي عَلى الْقاعِدَةِ". فَلا تُسَدَّدُ الْقاعِدَةُ - والحالَةُ هذِهِ – إلاّ بِتَقْييدِها والْحَدِّ مِنْ صِيَغِ الإِطْلاقِ فيها .

ولَعَلَّهُ غَيْرُ بَعيدٍ عَنِ الصَّوابِ أَنْ يُقالَ إِنَّ عُلُوَّ الْقاعِدَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلى كَثْرَةِ الشَّواهِدِ وَتَنَوُّعِها يَسْمَحُ لَها بِأَنْ تَكونَ أَوْعَبَ[1] لِلظَّواهِرِ، وأَقْدَرَ عَلى وَصْفِ الْمُطَّرِدِ والشّاذِّ، مِنَ الْقَواعِدِ الْمَبْنِيَّةِ عَلى ما اطَّرَدَ مِنْ أَشْعارٍ وأَمْثالٍ، وقَدْ تَكونُ صِفَةُ الْعُلُوِّ والاسْتيعابِ فيها مُقَدِّمَةً لِلْقَوْلِ بِإِمْكانِ وُجودِ «نَمَطٍ مِنَ الأَنْحاءِ خاصٍ بِالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ»؛ لِما فيهِ مِن اخْتِلافِ وُجوهِ القِراءَةِ، ولأَنَّهُ حَمّالُ أَوْجُهٍ في الإِعْرابِ وَ الْمَعاني. ويَكونُ هذا الافْتِراضُ مُضافًا إلى افْتِراضٍ آخَرَ سَبَقَ ذِكْرُهُ في مَبْحَثِ "ضَرورَةِ الشِّعْرِ" مِنْ إِمْكانِ الْقَوْلِ بِوُجودِ "نَحْوٍ لِلضَّرورَةِ". ويُضافُ إلى هذا النَّحْوِ الْمُؤَيَّدِ بِالْقِراءاتِ وَ الشَّواهِدِ الْقُرْآنِيَّةِ ، أَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلى أَساسِ بِنًى لُغَوِيَّةٍ وتَراكيبَ تَفوقُ حَجْمَ الْجُمْلَةِ وَ تَمْتَدُّ إلى عَلاقاتٍ كَلامِيَّةٍ كُبْرى تَقْتَضيها مَعاني الآياتِ وَ مَقامُ وُرودِها. أَمّا "النَّحْوُ الْمَأْلوفُ" فَإِنَّهُ نَحْوٌ لِلْجُمْلَةِ في أَغْلَبِ جَوانِبِهِ، وذلِكَ بِالنَّظَرِ إلى ما تَأَلَّفَ مِنْهُ وبُنِيَ عَلَيْهِ، وما أُقيمَ مِنْ أَجْلِهِ.

[1] يْ أَجْمَع لِلظَّواهِرِ وأَشَدَّ اسْتيعابًا واسْتِقْصاءً، انظرْ في شَرْحِ فِعْلِ "وَعَبَ" ابْنَ مَنْظورٍ، "لِسان العَرَبِ"، دار ـفكرِ، بَيْروت، مادّة "وَعَبَ"

البُعدُ الاجتماعيّ التَّداوليّ في منهج سيبويْه

تَقْديم:

ليسَ المَقْصودُ بالبُعد التّداوليّ في منهج **سيبويه** إسقاطَ النَظَرِ اللّسانيّ التّداوليّ الحَديثِ على فكر **سيبويه** اللّغويّ، على النّحوِ الذي أنتجَه به الاتّجاهُ النّسَقيّ بزعامَة **مالينوفسكي وفيرث وهاليداي**، أو الاتّجاه التّداوليّ المَنْسوبِ إلى **سيمون ديك** الذي سَعى في أبحاثه إلى ربطِ البنيةِ اللغويّةِ بالاستعمالِ وبالمَقاصدِ التّداوليّةِ، وإن كانَ مفهومُ سياقِ الحال الذي قال به "**فيرث**" ومَفْهوم التّداوُل والاستعمالِ، قريباً من المُعالجَة اللغويّة والبَلاغيّة العربيّة للمَقام وظروف الخِطاب، وما يترتّبُ على المُعالَجَةِ والربطِ من تفسيرِ ظروفِ المَقامِ التّخاطبيّةِ والاجتماعيّةِ لبنياتِ المَقالِ وتراكيبِه.

لَقَدْ كانت النّظريّاتُ اللّسانيّةُ الغربيّةُ مُتنافسةً ومُختلفةً إلى حدّ التّصادُمِ أحياناً؛ إذْ تَجدُ اتّجاه التّركيبِ التّوليديّ -مَثَلاً- يميلُ إلى أنّ التّركيبَ مكوّنٌ توليديّ مركزيٌّ أمّا الدّلالَةُ فليسَت سوى مستوىً تأويليّ، وفي المُقابلِ تجدُ الدّلاليّينَ التّوليديّينَ يذهَبونَ إلى مركزيّةِ الدّلالَةِ في بناءِ البنيةِ اللّغويّةِ التّركيبيّةِ، وفي السياقِ نفسِه نجدُ التّداوليّينَ يذهَبون خلافاً للسانيّين التّركيبيّين إلى أنّ نظامَ القواعدِ التّركيبيّة والدّلاليّةَ مَضبوطٌ بالنّسَق التّداوليّ الذي يربطُ المتكلّمَ بالمُخاطَبِ في مَقاماتٍ معيّنَةٍ، خلافاً لمَن يرى أنّ قواعدَ البناءِ التّركيبيّ هي التي تُفرزُ المَقامَ التّخاطُبيّ.

أمّا اللغويّاتُ العربيّةُ القَديمَةُ فهي وإن تباعَدَت بعضُ فُنونِها وأنواعها بين نَحوٍ وصرفٍ وبَلاغَةٍ وصناعَةِ مَعاجمَ وشُروحٍ للشعرِ، في طرُقِ التأليفِ؛ فإنّ الإطارَ المعرفيّ الذي كانَ يضبطُ حَرَكتَها، مكوَّنٌ من أسُسٍ وأصولٍ محدّدةٍ متجانسةٍ غيرِ متنابذَةٍ، نابعةٍ من النّسَقِ اللّغويّ ذاتِه، وهكذا فقَد قامَت عُلوم العربيّة منذُ نشأتِها على أسس اجتماعيّةٍ وعَقديّةٍ وفكريّةٍ أسّسَت أرضيتَها التّداوليّةَ، وضمنَت تماسُكَ مشروع التّصنيفِ العلميّ في الذّهنيّةِ العربيّة الإسلاميّة للعُلَماءِ، وعَدَم تعارُضِ أجزائه مثلَما وَقَعَ لكثيرٍ من النّظريّاتِ الفلسفيّةِ واللّسانيّةِ الغربيّةِ المُتنابذَةِ.

وسيُحاولُ هذا البحث أن ينظرَ في بعض قَضايا البُعد التّداوليّ في لغويّاتِ **سيبويْه**، وعلى رأسها قَضِيّةُ «**المُتكَلِّمِ والواضِعِ والنّاظِرِ**»، وما يَدورُ في رَحاها مِنْ مَسائِلَ كالمَرْجِعِ الاجتماعيّ للدّلالَةِ اللُّغَوِيَّةِ [وما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوالِ الْمَقامِ ونُظُمِ الاعْتِقادِ وأَحْوالِ الْمُجْتَمَعِ

والأَعْرافِ والأَمْثالِ]، ومَسْأَلَةِ التَّمْثيلِ وإِشْكالِ الاسْتِدْلالِ عَلى قَضايا النَّحْوِ بِأَمْثِلَةٍ مُنْتَقاةٍ مُناسِبَةٍ لِبابِها النَّظَرِيِّ، [وما يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنْ أَحْكامٍ نَحْوِيَّةٍ يُصْدِرُها النَّاظِرُ عَلى الْعِباراتِ اللُّغَوِيَّةِ بِنَوْعَيْها: الْوارِدِ والمُمْكِنِ، أَوِ المَوْضوعِ والمَصْنوعِ].

اَلْواضِعُ و الْمُتَكَلِّمُ و النّاظِرُ

« ... اَلعِلمُ بالإعْرابِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ العَرَبِ كُلِّهِمْ وَلَيْسَ مِمّا يُسْتَنْبَطُ بِالفِكْرِ...
فَلَيْسَ أَحَدُهُمْ بِأَنَّ إعْرابَ الفاعِلِ الرَّفْعُ أَوِ المَفْعولِ النَّصْبُ بِأَعْلَمَ به مِنْ غَيْرِه.
ولا ذاكَ مِمّا يَحْتاجونَ فيهِ إلى حِدَّةِ ذِهْنٍ وقُوَّةِ خاطِرٍ...»
(دَلائِلُ الإعْجازِ: 395-396)

1- اَلْمُتَكَلِّمُ والواضِعُ:

إِنَّ الْمَباحِثَ الْمُتَّصِلَةَ بِالْواضِعِ والمُتَكَلِّمِ نَصٌّ في أَنَّ الْواضِعَ مُشَرِّعٌ والمُتَكَلِّمَ مُسْتَعْمِلٌ والنّاظِرَ وَسيطٌ. ولَيْسَ الْمُتَكَلِّمُ مُجَرَّدَ ناطِقٍ بِالعِباراتِ اللُّغَوِيَّةِ التي وَضَعَها الْواضِعُ، ولكِنَّهُ إِطارٌ عامٌّ يَدْخُلُ فيهِ «مَفْهومُ النِّظامِ الْمَعْرِفِيِّ» وما يَتَرَتَّبُ عَلى هذا النِّظامِ مِن اسْتِعْمالٍ لُغَوِيٍّ واخْتِيارٍ وإِرادَةٍ، و«مَفْهومُ الْمُشارَكَةِ» في صِياغَةِ الْبِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ داخِلَ مَقامِ الْكَلامِ وظُروفِ الخِطابِ المُخْتَلِفَةِ. وفي هذا الصَّدَدِ عَرَّفَ **السُّهَيْلِيُّ** صِفَةَ الْفِطْرَةِ الكَلامِيَّةِ وصِفَةَ المُشارَكَةِ المُتَكَلِّمِيَّةِ بِقَوْلِهِ: «الكَلامُ صِفَةٌ قائِمَةٌ بِنَفْسِ المُتَكَلِّمِ يُعَبِّرُ لِلْمُخاطَبِ عَنْهُ بِلَفْظٍ أَوْ لَحْظٍ أَوْ بِخَطٍّ. ولَوْلا المُخاطَبُ ما احْتيجَ إِلى التَّعْبيرِ عَمّا في نَفْسِ المُتَكَلِّمِ... ثُمَّ لَمّا كانَ المُخاطَبُ مُشارِكاً لِلْمُتَكَلِّمِ في مَعْنى الْكَلامِ: إِذْ كانَ الْكَلامُ مَبْدَؤُهُ مِنَ المُتَكَلِّمِ ومُنْتَهاهُ عِنْدَ الْمُخاطَبِ، ولَوْلا المُخاطَبُ ما كانَ كَلامُ الْمُتَكَلِّمِ لَفْظاً مَسْموعاً ولا احْتاجَ إِلى التَّعْبيرِ عَنْهُ، فَلَمّا اشْتَرَكا في الْمَقْصودِ بِالْكَلامِ وفائِدَتِهِ، اشْتَرَكا في اللَّفْظِ الدّالِّ...»[1].

لَيْسَ "الْمُتَكَلِّمُ" طَرَفاً مُقابِلاً لِلْمُخاطَبِ وحَسْبُ، ولكِنَّهُ جِهَةٌ في بِناءِ الْكَلامِ. وهُوَ باعْتِبارِهِ كَذلِكَ، مُعَدٌّ لإِلْقاءِ الْكَلامِ وتَلَقّيهِ إِعْداداً فِطْرِيّاً، ومُزَوَّدٌ بِأَدَواتِ إِلْقاءٍ وتَلَقٍّ مَرْكوزَةٍ في نَفْسِهِ، قائِمَةٍ عِلَلُها في عَقْلِهِ وحِسِّهِ.

(1) أبو القاسِم السُّهَيْلِيّ، **نَتائِجُ الفِكْرِ في النَّحْو**، تح. محمّد إبراهيم البنّا، منشورات جامعة قاريونس، 1398-1987، ص218-219-220.

لَقَدْ تَنَبَّهَ الْعُلَماءُ قَديماً إلى مَسْأَلَةِ التَّمْييزِ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ الْفِطْرِيَّةِ والْمَعْرِفَةِ الْمُكْتَسَبَةِ. وقَدْ ضَرَبَ **ابْنُ حَزْمٍ** لِذلِكَ مَثَلاً بِالصَّبِيِّ الصَّغيرِ «في أَوَّلِ تَمْييزِهِ إذا أَعْطَيْتَهُ تَمْرَتَيْنِ بَكى وإذا زِدْتَهُ الثّانِيَةَ سُرَّ. وهذا عِلْمٌ مِنْهُ بِأَنَّ الأَقَلَّ أَكْثَرُ مِنَ الْجُزْءِ، وإِنْ كانَ لا يَنْتَبِهُ لِتَحْديدِ ما يَعْرِفُ مِنْ ذلِكَ. ومِنْ ذلِكَ عِلْمُهُ بِأَنّه لا يَجْتَمِعُ الْمُتَضادّانِ... ومِنْ ذلِكَ عِلْمُهُ بِأَنَّهُ لا يَكونُ الْجِسْمانِ في مَكانٍ واحِدٍ... ومِنْها عِلْمُهُ بِأَنَّهُ لا يَكونُ شَيْءٌ إلاّ في زَمانٍ... ويَعْرِفُ أَنَّ لِلأَشْياءِ طَبائِعَ وماهِيَةً تَقِفُ عِنْدَها ولا تَتَجاوَزُها... ومِنْها عِلْمُهُ بِأَنَّهُ لا يَكونُ فِعْلٌ إلاّ لِفاعِلٍ... ومِنْها مَعْرِفَتُهُ بِأنّ في الخَبَرِ صِدْقاً وكَذِباً... هذا كُلُّهُ مُشاهَدٌ مِنْ جَميعِ النّاسِ في مَبْدَإِ نَشْأَتِهِمْ... فَهذِهِ أوائِلُ الْعَقْلِ التي لا يَخْتَلِفُ فيها ذو عَقْلٍ... ولَيْسَ يَدْري أَحَدٌ كَيْفَ وَقَعَ الْعِلْمُ بِهذِهِ الأَشْياءِ كُلِّها بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجوهِ. ولا يَشُكُّ ذو تَمْييزٍ صَحيحٍ في أنَّ هذِهِ الأَشْياءَ كُلَّها صَحيحَةٌ لا افْتِراءَ فيها...»[1].

وهكَذا، ومِنْ خِلاَلِ مَفاهيمِ الْعُلَماءِ عَنِ الْمُتَكَلِّمِ ومَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ مَعْرِفَةٍ فِطْرِيَّةٍ وَمَعْرِفَةٍ كَسْبِيَّةٍ، يُمْكِنُ اسْتِنْباطُ مَفْهومٍ لِلْمُتَكَلِّمِ الْعَرَبِيِّ مِنْ كِتابِ **سيبَوَيْه**؛ لأَنَّ **سيبَوَيْه** نَفْسَهُ مُتَكَلِّمٌ عارِفٌ بِلِسانِ الْعَرَبِ[2] قَبْلَ أَنْ يَكونَ ناظِراً فيهِ، أَوْ هُوَ أُنْموذَجٌ لِلْمُتَكَلِّمِ النّاظِرِ.

---

(1) أبو مُحَمّد عليّ بْن أحمد بن حَزْم الظّاهِرِيّ، "**الْفِصَلُ في الْمِلَلِ والأَهْواءِ والنِّحَلِ**" تح. محمد إبراهيم نصر وعبد الرّحمن عميرة، ط. دار الجيل، بيروت، 1/5-6.

ولَعَلَّ أَصْلَ الْمَسْأَلَةِ التي عَرَضَها ابْنُ حَزْمٍ مَوْجودٌ في الْمُحاوَرَةِ التي جَرَتْ بَيْنَ ..سُقْراط.. ..مينون.. حَوْلَ الْمَمْلوكِ الذي كانَ يُجيبُ عَنْ مَسائِلَ حِسابِيَّةٍ بَديهِيَّةٍ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ، وأَنَّ الاسْتِفْسارَ هُوَ الذي كانَ يوقِظُ فيهِ الأَجْوِبَةَ الصَّحيحَةَ. (أُنْظُرْ في الْمَوْضوعِ:

Georges Passcal: «Les Grands Textes de la Philosophie» Ed. Bordas, 1964, pp20-26

(2) عِنْدَما يُتَكَلَّمُ عَنِ «**الْمُتَكَلِّمِ الْعَرَبِيِّ**» فَإِنَّما يُعْنى بِهِ مَنْ صَدَرَ عَنْهُ لِسانُ الْعَرَبِ ونَطَقَ بِهِ وجُمِعَتْ مِنْهُ اللُّغَةُ، ويَدْخُلُ فيهِ لُغاتُ العَرَبِ. وقدْ ذَهَبَ د. خالِد عَبْد الكَريم جُمْعَة في دِراسَتِه لِشَواهِدِ الشِّعْرِ في كِتابِ سيبَوَيْه، إلى أنّ ما اسْتَشْهَدَ به سيبَوَيْه مِنْ شَواهِدَ يُناقِضُ في جُزْءٍ مِنْه ما صَرَّحَ به الفارابِيُّ في كِتابِه الْمُسَمّى بِـ "الأَلْفاظ والحُروف" إذْ ذَهَبَ الفارابِيُّ أَنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ عَنْ قَبيلَةِ قُضاعَةَ بَيْنَما اسْتَشْهَدَ سيبَوَيْه بِشُعَراءَ مِنْ قُضاعَةَ، وذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ عَنْ ثَقيف، واسْتَشْهَدَ سيبَوَيْه بِشِعْرِ أَبي مِحْجَنٍ الثَّقَفِيِّ والحارِثِ ابْن كَلَدَةَ وأُمَيَّةَ بْنِ أَبي الصَّلْتِ... وبالجُمْلَةِ اسْتَشْهَدَ سيبَوَيْه بِشُعَراءَ مِنْ تَميمٍ، وهَوازِنَ، وبَكْرٍ، وتَغْلِبَ، وأَسَدٍ، وغَطَفانَ، وقُرَيْشٍ، وهُذَيْلٍ، والرِّبابِ، وسُلَيْمٍ، وكِنانَةَ، وعَبْدِ الْقَيْسِ، وباهِلَةَ، وضُبَيْعَةَ، وغَنِيّ، ومُزَيْنَةَ، وإِيادٍ، وضَبَّةَ، وعدوانَ، والأَزْدِ، ومذْحِجٍ، وقُضاعَةَ، وطَيِّئٍ، وأَنْمار، وكِنْدَةَ، وعامِلَةَ، وهَمدانَ، وغَيْرِهِمْ. ومِنْ مَصادِرِهِ في رِوايَةِ اللُّغَةِ يونُسُ بْنُ حَبيبٍ والخَليلُ وأبو الْخَطّابِ الأَخْفَشُ وعيسى بْنُ عُمَرَ والأَصْمَعِيُّ. وسَمِعَ شَواهِدَ شِعْرِيَّةً مُشافَهَةً.

وَوَجَّه الباحِثُ د. خالِد عَبْد الكَريمِ جُمْعَة كَلامَ أَبي نَصْرٍ الفارابِيّ؛ إذْ ذَكَرَ أنّ مُرادَه هُوَ أنّ اللُّغَوِيّينَ العَرَبَ أخَذوا أَكْثَرَ اللُّغَةِ عَنْ قَيْسٍ وتَميمٍ وأَسَدٍ، ولَمْ يأخُذوا إلاّ القَليلَ عَنْ غيْرِهِمْ مِنَ القَبائِلِ. وأَمّا نَفْيُ الفارابِيّ القاطِعُ أن يَكونَ اللُّغَوِيّونَ قَدْ أَخَذوا عَنْ قُضاعَةَ وغَسّانَ وإِيادٍ وتَغْلِبَ وثَقيفٍ لِمُجاوَرَتِهِم لِغَيْرِ العَرَبِ أو مُخالَطَتِهِم التُّجّارَ،

وتُمَكِّنُهُ مَعْرِفَتُهُ "الْمُتَكَلِّمِيَّةُ" مِنْ دِقَّةِ الْحِسِّ وصِحَّةِ النَّظَرِ واسْتِقامَتِهِ، وتَبْنِي نَظَرَهُ عَلى أَساسٍ واقعِيٍّ مَكينٍ لا عَلى فَراغٍ وتَجْريدٍ.

هذا، وإنَّ **أَكْثَرَ الأَمْثِلَةِ التي يُدْلِي بِها سيبَوَيْهِ لِلْبَرْهَنَةِ عَلى القَواعِدِ يَبْلُغُ بِها إلى مُرادِ الْمُتَكَلِّمِ ومَقاصِدِهِ، ويَصِلُها بِعُمْقِها الْمَقامِيِّ والتَّداوُلِيِّ الذي تَأَلَّفَتْ فيه**. ومَعْنى ذلِكَ أَنَّهُ يَقيسُ أَقْوالَهُ النَّظَرِيَّةَ عَلى أَقْوالِ الْمُتَكَلِّمِ الْفِعْلِيَّةِ أَوْ يَجِدُ لَها نَظيراً فيها، وذلِكَ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْعَوامِلَ الْمُؤَثِّرَةَ في فَهْمِ الْجُمْلَةِ وتَأْويلِها غَيْرُ الْمَعاني الْحَرْفِيَّةِ الْمَفْهومَةِ مِنْ ظاهِرِ اللَّفْظِ[1].

إنَّ سيبَوَيْهِ، وهُوَ يُحيلُ إلى إرادَةِ الْمُتَكَلِّمِ في تَقْديمِ مَعاني التَّراكيبِ الْمُحْتَمِلَةِ عُموماً ومَعاني التَّراكيبِ غيرِ الْمُحْتَمِلَةِ عَلى وَجْهِ الْخُصوصِ، إنما يُحيلُ إلى أَصْلٍ مَكينٍ ومُتَصَوَّرٍ أَصيلٍ لا يُتَصَوَّرُ لِلُّغَةِ دَلالَةٌ ولا تَأْويلٌ إلاّ بِهِ[2]. وقيمَةُ الْمُتَكَلِّمِ الْمَرْجِعِيَّةُ في أَنَّهُ لا يَقْبَلُ كُلَّ

أو لِغَيْرِ ذلِكَ مِنَ الأَسْبابِ التي تَطْعَنُ في فَصاحَةِ بَعْضِ القَبائِلِ، فَتَفْسيرُه أنَ اللُّغَوِيّينَ أخَذوا عَنْ قَبائِلِ قَيْسٍ وأَسَدٍ وتَميمٍ وهُذَيْلٍ وكِنانَةَ وبَعْضِ الطّائِيّينَ الشِّعْرَ والنَّثْرَ مَعاً. أمّا القَبائِلُ الأُخْرى فَلَمْ يَأْخُذوا مِنْها إلاّ الشِّعْرَ فَحَسْبُ لانْتِشارِه في جَزيرَةِ العَرَبِ كُلِّها. [انْظُرْ مَقالَةَ الفارابِيّ كَما نَقَلَها السُّيوطِيّ عَنْ كِتابِه "الألْفاظ والحُروف" في كِتابِ "**الْمُزْهِر في عُلومِ اللُّغَةِ وأنْواعِها**". تح. محمّد أحمد جاد المَوْلى وعَلِيّ محمّد البجاوِيّ ومُحَمّد أبو الفَضْل إبْراهيم، دار الفِكْر لِلطِّباعَة والنَّشْرِ والتَّوزيع، دار الجيل، بَيْروت، 1/211-212. وانْظُر التَّعْليقَ على كَلامِ الفارابِيّ في الاسْتِشْهادِ بِلُغاتِ العَرَبِ، كِتابَ د. عَبْد الكَريم خالِد جُمْعَة. **شَواهِد الشِّعْر في كِتابِ سيبَوَيْه**. مَكْتَبَة دار العُروبَة، الكويت، ط.1، 1400-1980. الصَّفَحات: مِن 273 إلى 303.

(1) يُمْكِنُ أَنْ يُذْكَرَ مِنْ بابِ التَّرادُفِ النَّظَرِيِّ وتَوارُدِ الأَقْوالِ أَنَّ "النَّحْوَ التَّوْليدِيَّ" اعْتَرَفَ بِقيمَةِ هذِهِ الْعَوامِلِ الْمُؤَثِّرَةِ فَعَمِلَ عَلى إِدْراجِ ما سَمّاهُ بِـ"الْقُدْرَةِ التَّداوُلِيَّةِ" إلى جانِبِ "الْقُدْرَةِ النَّحْوِيَّةِ"، وضَرورَةِ التَّمْثيلِ لَها في جِهازِ النَّحْوِ. وتُعَدُّ الْقُدْرَتانِ مُؤَلِّفَيْنِ مِنْ مُؤَلِّفاتِ الْوَضْعِ الْمَعْرِفِيِّ الْمُكْتَسَبِ (*Essais sur la forme et le sens, p11*) ولَقَدْ نالَتْ قَضِيَّةُ "الْمَعْرِفَةِ اللُّغَوِيَّةِ" حَظّاً كَبيراً مِنَ الْبَحْثِ في النَّحْوِ التَّوْليدِيِّ، وامْتَزَجَ فيها "الْفَلْسَفِيُّ" بِـ"الْعِلْمِيِّ الْعَقْلانِيِّ" فَأُثيرَتْ أَسْئِلَةٌ حَوْلَ ماهِيَةِ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ وكَيْفِيَّةِ ظُهورِها وتَجَلّيها عِنْدَ الْفَرْدِ، وأَقْسامِها، وهِيَ أَسْئِلَةٌ لَها نَظائِرُها في أَنْظِمَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ أُخْرى كَنَسَقِ الْمُعْتَقَداتِ الْفَرْدِيَّةِ والْجَماعِيَّةِ... وحاوَلَ هذا النَّحْوُ أَنْ يُبَرْهِنَ عَلى أَنَّ الْفِكْرَ ذو طَبيعَةٍ "قالَبِيَّةٍ" أَيْ عَلى هَيْئَةِ نِظامٍ مِنَ الأَنْساقِ الْفَرْعِيَّةِ الْمُتَفاعِلَةِ، ولِكُلِّ نَسَقٍ خَصائِصُهُ الخاصَّةُ... انْظُرْ في هذا الْمَوْضوعِ: *Règles et Représentations, pp87-88*

وقَدْ رَجَعَ (*N. Chomsky*) بَعْضَ هذِهِ الأَسْئِلَةِ والْقَضايا إلى أُصولٍ فَلْسَفِيَّةٍ قَديمَةٍ، وصاغَها في إِطارِ مَسائِلَ دَعاها بِـ"الْمَسْأَلَةِ الأَفْلاطونِيَّةِ" و"الْمَسْأَلَةِ الدّيكارْتِيَّةِ"... اُنْظُرْ في الْمَوْضوعِ:

N. Chomsky(1988): Language and Problems of Knowledge: The Managua Lectures, pp3-4

(2) ذَكَرَ حازِمٌ هذا الْمَرْجِعَ النَّفْسِيَّ الذي تُحالُ إليه التَّراكيبُ مُقابَلاً بِما يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ مُكْتَسَبٍ قائِلاً: "فالْمُتَصَوَّراتُ التي في فِطْرَةِ النُّفوسِ ومُعْتَقَداتُها الْعادِيَةُ... هِيَ التي يَنْبَغي أَنْ نُسَمِّيَها الْمُتَصَوَّراتِ الأَصْلِيَّةَ، وما لَمْ يوجَدْ ذلِكَ لها في النُّفوسِ ولا مُعْتَقَداتِها الْعادِيَةِ فَهِيَ الْمُتَصَوَّراتُ الدَّخيلَةُ، وهِيَ الْمَعاني التي إِنَّما يَكونُ وُجودُها

ما يُلْقى إِلَيْهِ مِنْ تَراكيبَ ولكِنَّهُ يُصْدِرُعَلَيْها حُكْمَهُ بناءً عَلى نَسَقِ المَعْرِفَةِ اللُّغَوِيَّةِ الذي ثَقِفَهُ فَتَمَثَّلَ في ذِهْنِهِ نِظاماً سَوِيّاً. فَهُوَ بِذلِكَ مُتَكَلِّمٌ لَهُ وُجودٌ في التَّصَوُّرِ والواقِعِ مَعاً، ولا يُعْرَفُ لَهُ هذا الوُجودُ إلاّ بِاسْتِقْراءِ أَقْوالِهِ وأَفْعالِهِ ومَقاصِدِهِ؛ أيْ بِاسْتِقْصاءِ ما صَدَرَ عَنْهُ مِنْ جُزْئِيّاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُنَجَّمَةٍ بِحَسَبِ مَطالِبِ الْحالِ[1] مُريداً قاصِداً مُخْتاراً، وما نَطَقَ بِهِ مِنْ عِباراتٍ تُفْصِحُ عَنْ مَقاصِدِهِ وتَحْكي عَنْهُ. ولَيْسَ لَهُ حَدٌّ جامِعٌ مانِعٌ يُعَرِّفُ بِماهِيَتِهِ[2]. إنّ مَفْهومَ المُتَكَلِّمِ بِهذا المَعْنى المُزْدَوِجِ يَتَّجِهُ إلى دَلالَتَيْنِ: فَهُوَ بِاعْتِبارٍ مَرْجِعٌ ثابِتٌ أَوْ واضِعٌ مُشَرِّعٌ مُقَلَّدٌ مَنْحُوٌّ، وهُوَ بِاعْتِبارٍ آخَرَ مُسْتَعْمِلٌ مُقَلِّدٌ ناحٍ. أَمّا النّاظِرُ فَإِنَّهُ يَصِفُ مَلَكَةَ المُتَكَلِّمِ اللُّغَوِيَّةَ مِنْ خِلالِ ما يَعْرِضُهُ مِنْ شَواهِدَ وأَمْثِلَةٍ مِنْ لِسانِ الْعَرَبِ تَشْتَمِلُ عَلى المَوادِّ اللُّغَوِيَّةِ وتَتَضَمَّنُ نِظامَ تَخْريجِ الفُروعِ مِنَ الأُصولِ وطَريقَةَ قِياسِ المُمْكِنِ عَلى المَوْضوعِ.

"إنَّ المُتَكَلِّمَ -بِوَصْفِهِ واضِعاً مُشَرِّعاً- مُتَكَلِّمٌ صامِتٌ" يُرْجَعُ إِلَيْهِ في تَلَقّي الأَوْضاعِ الصَّحيحَةِ، وقَدْ قالَ كَلامَهُ الذي يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَقولَ و"صَمَتَ". ولكِنَّهُ إذا سُئِلَ عَنِ الحُكْمِ عَلى الجُمَلِ الجَديدَةِ فَإِنّ **النّاظِرَ النَّحْوِيَّ يَتَوَسَّطُ لِيَعْرِضَ الجَديدَ النّاطِقَ عَلى الْقَديمِ الصّامِتِ**، وأداةُ العَرْضِ القِياسُ.

وسَأَذْكُرُ بَعْضَ الأَمْثِلَةِ التي تُبَيِّنُ مَفْهومَيِ المُشارَكَةِ والمُطابَقَةِ، مُشارَكَةِ المُخاطَبِ لِلْمُتَكَلِّمِ في صِفَةِ الْكَلامِ، ومُطابَقَةِ المُتَكَلِّمِ أَقْوالَهُ لأَوْضاعِ الْواضِعِ. وقَدْ كانَ **سيبَوَيْهِ** صَريحاً في إِسْنادِ الأَفْعالِ الْكَلامِيَّةِ إلى المُتَكَلِّمِ كَالإرادَةِ والْقَصْدِ... يَقولُ: «هذا بابُ الفاعِلِ الذي يَتَعَدّاه فِعْلُه إلى مَفْعولٍ، وذلِكَ قَوْلُكَ "ضَرَبَ عَبْدُ اللهِ زَيْداً". فَعَبْدُ اللهِ ارْتَفَعَ هٰهُنا [...] وشَغَلْتَ "ضَرَبَ" بِهِ [...] وانْتَصَبَ "زَيْدٌ" لأَنَّهُ مَفْعولٌ [...] فَإِنْ قَدَّمْتَ المَفْعولَ وأَخَّرْتَ الْفاعِلَ جَرى اللَّفْظُ كَما جَرى في الأَوَّلِ [...] لأَنَّكَ إِنَّما أَرَدْتَ بِهِ مُؤَخَّراً ما أَرَدْتَ بِهِ مُقَدَّماً، ولم تُرِدْ أَنْ تَشْغَلَ الْفِعْلَ بِأَوَّلَ مِنْهُ [...] وهُوَ عَرَبِيٌّ جَيِّدٌ كَثيرٌ كَأَنَّهُمْ إِنَّما يُقَدِّمونَ الذي بَيانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وهُمْ بِبَيانِهِ أَعْنى، وإِنْ كانا جَميعاً يُهِمّانِهِمْ ويَعْنِيانِهِمْ»[3]. يُبَيِّنُ النَّصُّ أَنَّ إِرادَةَ المُتَكَلِّمِ اللُّغَوِيَّةَ

بِتَعَلُّمٍ وكَسْبٍ...» *أبو الحَسَن حازِم القَرْطاجِنّي، **مِنْهاجُ الْبُلَغاءِ وسِراجُ الأُدَباء**، تح. محمّد الحَبيب بن الخوجة* ط.3، دار الغَرْب الإسْلاميّ، بَيْروت، 1986، ص22.

(1) تَنْتَهي جُمَلُ المُتَكَلِّمِ بِانْتِهائِهِ. عَلى نَحْوِ ما قالَهُ الصَّلَتانُ الْعَبْدِيُّ:

تَموتُ مَعَ المَرْءِ حاجاتُهُ /// وتَبْقى لَهُ حاجَةٌ ما بَقي

المَرْزوقِيّ: **شَرْحُ ديوانِ الْحَماسَة**. تح. أحمَد أمين وعَبْد السَّلام هارون، ط.1. دار الجيل، بَيْروت،(1411-1991). 1210/2.

(2) قَدَّمَ *(N.Chomsky)* "مُتَكَلِّمَهُ" بِاعْتِبارِهِ مُتَصَوَّراً مِثالِيّاً يَعيشُ في بيئَةٍ مُتَجانِسَةٍ. *N.Chomsky (1965)*

(3) سيبويْه: **الْكِتاب**. تح. د.عبد السَّلام محمّد هارون، عالَم الكُتُب، بَيْروت، 34/1.

ومَقاصِدَهُ مِنْ وَضْعِ الأَلْفاظِ مُنَزَّلَةٌ عَلى إرادَةِ الواضِعِ ومَقاصِدِهِ ومَقاييسِهِ، فَلا يَشْغَلُ الْمُتَكَلِّمَ إلاّ ما شَغَلَ الْواضِعَ، فَلا يَرْفَعُ إلاّ ما رَفَعَهُ ولا يَنْصِبُ إلاّ ما نَصَبَهُ، وما وَضَعَهُ أَوَّلَ الأَمْرِ هُوَ الأَصْـلُ والحَدُّ، وما اسْـتَعْمَلَهُ مُغَيَّراً عَنْ أَصْـلِهِ هُوَ الْفَرْعُ المَقيسُ. ويُعدُّ الْمُتَكَلِّمُ تابِعاً لَهُ في التَّفْريعِ لأَنَّهُ تابِعٌ لَهُ في مَقاصِدِ التَّفْريعِ.

ويُلاحِظُ سيبَوَيْهِ، بِوصفِهِ ناظِراً وَسيطاً بَيْنَ الْواضِعِ والمُتَكَلِّمِ، أَشْباهاً ومُوافَقاتٍ بَيْنَ الْمَواقِعِ والمَعاني فَيَدْعو المُتَكَلِّمَ إلى اكْتِشافِ ذلِكَ، يَقولُ: «فَأمّا بِناءُ ما لم يَقَعْ فَإنَّهُ قَوْلُكَ آمِراً "اِذْهَبْ"... ومُخْبِراً "يَقْتُلُ"... وكَذلِكَ بِناءُ ما لَمْ يَنْقَطِعْ وهُوَ كائِنٌ إذا أَخْبَرْتَ»[1]، ويَقولُ: «وإنَّما ضارَعَتْ أسْماءَ الفاعِلينَ أَنَّكَ تَقولُ "إنَّ عَبْدَ اللهِ لَيَفْعَلُ" فَيُوافِقُ قَوْلَكَ "لَفاعِلٌ"، حَتّى كَأَنَّكَ قُلْتَ "إنَّ زَيْداً لَفاعِلٌ" فيما تُريدُ مِنَ المَعْنى...»[2].

ومِنْ ذلِكَ أَنْ يُنْسَبَ إلى الْمُتَكَلِّمِ أَنَّهُ يَصْدُرُ عَنْ أَوْضاعٍ مُسْتَقِرَّةٍ فَيُدْرِكُ ما يَفْعَلُ ويُرَتِّبُ كَلامَهُ وَفْقاً لِتَصَوُّرِهِ؛ فَقَدْ نُسِبَ إلى المُتَكَلِّمِ أَنَّهُ يَبْدَأُ كَلامَهُ بِالْيَقينِ ثُمَّ يَخْتِمُهُ بِالشَّكِّ، أَوْ يُريدُ الْيَقينَ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الشَّـكُّ. وبِناءً عَلى هذا الْقَصْـدِ يُؤَخِّرُ الْمُتَكَلِّمُ الْفِعْلَ لأَنَّهُ لا يُوافِقُ ابْتِداءَ الْيَقينِ ولأَنَّ التَّأْخيرَ والإِلْغاءَ يُوافِقُ إدْراكَ الشَّـكِّ بَعْدَ ابْتِداءِ الْيَقينِ، أَمّا إذا ابْتَدَأَ كَلامَهُ بِنِيَّةِ الشَّـكِّ فَإنَّهُ يُقَدِّمُ الْفِعْلَ ويُعْمِلُهُ[3]. وذلِكَ ضَـرْبٌ مِنَ التَّرْتيبِ في اللَّفْظِ يَأْتي بَعْدَ الْقَصْـدِ إلى صـورَةٍ وصِفَةٍ. ومِنَ الأَمْثِلَةِ أَيْضاً ما وَرَدَ في بابِ «ما يَكونُ في اللَّفْظِ مِنَ الأَعْراضِ»[4]؛ أَيْ بابِ ما يَعْرِضُ في الْكَلامِ فَيَجيءُ عَلى غَيْرِ ما يَنْبَغي أَنْ يَكونَ عَلَيْهِ قِياسُـهُ، حَيْثُ نُسِـبَ إلى الْمُتَكَلِّمِ "الْعارِفِ" بِلُغَتِهِ أَفْعالٌ لُغَوِيَّةٌ كَثيرَةٌ يُخْرِجُ بِها الْكَلامَ عَنْ أَوْضـاعِهِ الأَصْـلِيَّةِ. فَقَدْ نُسِـبَ إلى الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يَحْذِفونَ ويُعَوِّضـونَ، ويَسْـتَغْنونَ بِالشَّـيْءِ عَنِ الشَّـيْءِ... ويَقولونَ "يَدَعُ" ولا يَقولونَ "وَدَعَ"... فَهُمْ لا يَنْطِقونَ وحَسْـبُ، ولكِنَّهُمْ يَنْطِقونَ ويَعونَ ما يَفْعَلونَ بِكَلامِهِمْ؛ إذْ يُخْرِجونَهُ عَنِ الْمَعْهودِ الوَضْـعِيِّ، لأَنَّ عِلَلَ اللُّغَةِ قائِمَةٌ في نُفوسِـهِمْ، فَهِيَ لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمَلَكَةِ الرّاسِخَةِ و المَقْدِرَةِ الهادِيَةِ. إنَّهُمْ يَعْقِلونَ ما يَفْعَلونَ.

ولكِنَّ الذي هَداهُمْ إلى التَّصَـرُّفِ في لُغَتِهِمْ كَثْرَةُ الاسْـتِعْمالِ وطَلَبُ الْخِفَّةِ. وهِيَ دَواعٍ عامَّةٌ تَكادُ توجَدُ في سـائِرِ اللُّغاتِ البَشَـرِيَّةِ، عَلى خِلافِ بَعْضِ الضَّـرائِرِ التي تُلْجِئُ الْمُتَكَلِّمَ إلى ارْتِكابِ أَنْواعٍ أُخْرى مِنَ الْخُروجِ عَنِ الْمَعْهودِ، ولا يَكونُ سَـبَبُها الْخِفَّةَ وكَثْرَةَ الاسْـتِعْمالِ، ومِنْها

(1) المَصْدَرُ المصدر نفسه، 12/1.

(2) المصدر نفسه، 14/1.

(3) المصدر نفسه، 120/1.

(4) المصدر نفسه، 24/1-25.

ضَــرورَةُ الشِّــعْرِ حَيْثُ إنَّ الْمُتَكَلِّمَ -فيها- يَقولُ قَوْلاً غَيْرَ مُعْتادٍ يُخالِفُ فيهِ الْمُرادَ الْمُعْتادَ. أَمّا النّاظِرُ الْواسِــطُ الذي يَرْقُبُ عَلاقَةَ قوْلِ الْمُتَكَلِّمِ بِقَصْــدِهِ فَإِنَّهُ يَقيسُ بِمِقْياسِ الاطِّرادِ، فَما خَرَجَ عَنِ الاطِّرادِ احْتاجَ إلى تَعْليلٍ. والنَّماذِجُ عَلى هذا الضَّرْبِ مِنَ التَّصَرُّفِ في الْقَوْلِ الشِّعْرِيِّ كَثيرَةٌ في الْكِتابِ، مَعَ ما يُصــاحِبُها مِنْ تَعْليقاتِ النّاظِرِ النَّحْوِيِّ وإشــاراتِهِ. والمِثالُ عَلى ذلِكَ قَوْلُهُ: «قال الشّاعِرُ:

فَما أَدْري أَغَيَّرَهُمْ تَناءٍ /// وطولُ الْعَهْدِ أَمْ مالٌ أَصابوا

يُريدُ "أَصــابوهُ"»[1]. وهذا المِثالُ دَليلٌ عَلى غَيْرِهِ مِنَ المُثُلِ التي يَنْسُــبُ فيها ســيبَوَيْهِ إلى الشّاعِرِ أَنَّهُ قالَ قَوْلاً وأَرادَ خِلافَهُ.

ومِمّا تُنْسَبُ فيهِ الْقاعِدَةُ إلى الْمُتَكَلِّمِ أَنَّهُ جاءَ بِلَفْظِ التَّعَجُّبِ عَلى بِناءٍ مَخْصوصٍ واحِدٍ غَيْرِ مُتَصَــرِّفٍ، مُشْــتَقٍّ مِنْ أَبْنِيَةٍ فِعْلِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ (مِثْلِ "فَعَلَ" و"فَعِلَ" و"فَعُلَ" و"أَفْعَلَ") ولا يَجوزُ لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُقَدِّمَ الْمَنْصــوبَ بَعْدَ التَّعَجُّبِ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ يَحْكي عَدَمَ الْجَوازِ عَنِ الْواضِــعِ، فَمَثَلُ المُتَكَلِّمينَ كَمَثَلِ الواضِــعِ «لمْ يُريدوا أَنْ يَتَصَــرَّفَ [لَفْظُ التَّعَجُّبِ]، فَجَعَلوا لَهُ مِثالاً واحِداً يَجْري عَلَيْهِ، فَشُبِّهَ هذا بِما لَيْسَ مِنَ الْفِعْلِ نَحْو "لاتَ" و"ما"»[2].

ومِنَ الأَمْثِلَةِ أَيْضــاً أَنَّ المُتَكَلِّمَ يُنْسَــبُ إِلَيْهِ إعْمالُ الْفِعْلِ والفَرْقُ بَيْنَ جِهَةِ اللَّفْظِ في الكَلامِ وجِهَةِ الْمَعْنى، وذلِكَ ظاهِرٌ في قَوْلِ الشّاعِرِ:

ولَقَدْ أَرى تَغْنى بِهِ سَيْفانَة /// تُصْبي الْحَليمَ ومِثْلُها أَصْباهُ

«فَالْفِعْلُ الأَوَّلُ... مُعْمَلٌ في الْمَعْنى وغَيْرُ مُعْمَلٍ في اللَّفْظِ، والآخِرُ مُعْمَلٌ في اللَّفْظِ والمَعْنى»[3]. وقَدْ نُسِبَ إلى الشّاعِرِ في قَوْلِه:

فَلَوْ أَنَّما أَسْعى لأَدْنى مَعيشَةٍ /// كَفاني -ولمْ أَطْلُبْ- قَليلٌ مِنَ الْمالِ

أَنَّهُ «رَفَعَ لأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ الْقَليلَ مَطْلوباً، وإِنَّما كانَ المَطْلوبُ عِنْدَهُ الْمُلْكَ وجَعَلَ الْقَليلَ كافِياً، ولَوْ لَمْ يُرِدْ ذلِكَ ونَصَبَ فَسَدَ الْمَعْنى»[4]. إنَّ الْمُتَكَلِّمَ ههُنا رَفَعَ لأَنَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ صِحَّةَ الْمَعْنى

([1]) المصدر نفسه، 88/1.

([2]) المصدر نفسه، 73/1.

([3]) المصدر نفسه، 77/1.

([4]) المصدر نفسه، 79/1.

في الرَّفْعِ، ولَمْ يَنْصِبْ لأَنَّ النَّصْبَ نَقيضُ الْقَصْدِ. وقَدْ نُسِبَ إلى بَني تَميمٍ أَنَّهُمْ يُجْرونَ "ما" مُجْرى "أَمّا وهَلْ" أَيْ لا يُعْمِلونَها وأَنَّ أَهْلَ الْحِجازِ يُشَبِّهونَها بلَيْسَ كَما شَبَّهوا بِها "لاتَ"[1] ونُسِبَ إلى أَهْلِ الْجَفاءِ مِنَ العَرَبِ أَنَّهُمْ يُؤَخِّرونَ الظَّرْفَ غَيْرَ المُعْمَلِ، كَأَنَّهُمْ أَخَّروهُ حَيْثُ كانَ غَيْرَ مُسْتَقَرٍّ.

وكَثيراً ما **يُعَلَّلُ لَفْظُ الْمُتَكَلِّمِ بِمَعْناهُ ويُنْسَبُ إلَيْهِ الإعْرابُ**، يُؤَيِّدُ ذلِكَ قَوْلُهُ: «تَقولُ "ما زَيْدٌ كَعَمْرٍو ولا شَبيهاً بِهِ"... النَّصْبُ في هذا جَيِّدٌ، لأَنَّكَ إنَّما تُريدُ "ما هُوَ مِثْلَ فُلانٍ ولا مُفلِحاً"... فَإنْ أَرَدْتَ أَنْ تَقولَ "ولا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُشْبِهُهُ" جَرَرْتَ ... فَإنْ لَمْ تَجْعَلْ "قَريباً" [في المِثالِ "ما أَنْتَ بِزَيْدٍ ولا قَريباً مِنْهُ"] ظَرْفاً جازَ فيهِ الجَرُّ عَلى الْباءِ والنَّصْبُ عَلى المَوْضِعِ»[2]. والنُّصوصُ الدّالَّةُ عَلى هذا الضَّرْبِ مِنَ العَلاقَةِ بَيْنَ الإعْرابِ والمَعْنى، في كِتابِ **سيبَوَيْهِ**، كَثيرَةٌ. فَالْوَجْهُ مِنَ الأَلْفاظِ أَوِ الصُّوَرِ الْعامِلِيَّةِ هُوَ ما يُناسِبُ مُرادَ الْمُتَكَلِّمِ مِنَ المَعاني. وهكَذا فَإنَّ الأَلْفاظَ تَتَشَكَّلُ بِحَسَبِ المَعاني المُرادَةِ.

ومِنْ بابِ إحالَةِ الْكَلامِ إلى المُتَكَلِّمِ قَوْلُ **سيبَوَيْهِ** مُسْنِداً مَعْنى الْكَلامِ إلى إرادَةِ المُتَكَلِّمِ: «وإنْ قُلْتَ "رَأَيْتُ" فَأَرَدْتَ رُؤْيَةَ الْعَيْنِ، أَوْ "وَجَدْتُ" فَأَرَدْتَ وِجْدانَ الضّالَّةِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ "ضَرَبْتُ"، ولكِنَّكَ إنَّما تُريدُ بِوَجَدْتُ "عَلِمْتُ"، وبِرَأَيْتُ ذلِكَ أَيْضاً. أَلا تَرى أَنَّهُ يَجوزُ لِلأَعْمى أَنْ يَقولَ "رَأَيْتُ زَيْداً الصّالِحَ"»[3]. ويُعْتَبَرُ المُتَكَلِّمُ أَكْثَرَ اجْتِهاداً في إيقاظِ المَلَكَةِ مِنْ كُمونِها وفي اسْتِدْعاءِ الأَوْضاعِ المُسْتَقِرَّةِ في الذِّهْنِ، مِنَ المُخاطَبِ. وذلِكَ لأَنَّهُ يُعاني، أَكْثَرَ مِنَ المُخاطَبِ، في مُوافَقَةِ الأَلْفاظِ لِمُقْتَضى الحالِ وفي تَرْتيبِها تَبَعاً لِما تَشَكَّلَ في ذِهْنِهِ مِنَ المَقاصِدِ وما انْتَظَمَ مِنَ الْعَلاقاتِ. فَهُما لا يَسْتَوِيانِ في المَعْرِفَةِ وفي امْتِلاكِ صورَةِ المَعْنى؛ ذلِكَ لأَنَّ المُخاطَبَ أَقَلُّ عِلْماً مِنَ المُتَكَلِّمِ بِالحالِ. فَكانَ هذا التَّفاوُتُ مَثارَ الحاجَةِ إلى الْبَيانِ حَتّى يَسْتَوِيَ الطَّرَفانِ في الْعِلْمِ والمَعْرِفَةِ ويَتَنَزَّلَ المُخاطَبُ مَنْزِلَةَ المُتَكَلِّمِ. ولكِنَّ هذا الاسْتِواءَ مُقَيَّدٌ بِقُيودٍ وَضَعَها الْواضِعُ كَراهَةَ الْوُقوعِ في اللَّبْسِ، مِنْها أَنَّهُ لا يَسْتَقيمُ أَنْ يُخْبَرَ المُخاطَبُ عَنِ المَنْكورِ، ولَيْسَ هذا بِالذي يُنَزَّلُ بِهِ مَنْزِلَةَ الْمُتَكَلِّمِ في المَعْرِفَةِ، فَكَرِهوا أَنْ يَقْرَبوا بابَ لَبْسٍ. فَإذا اسْتَوَيا في العِلْمِ والمَعْرِفَةِ بِالحالِ جازَ الاسْتِغْناءُ عَنْ بَعْضِ الشُّروطِ وحَذْفُ بَعْضِ الأَلْفاظِ مِثْلَما يَحْدُثُ مِنْ إضْمارٍ في الْكَلامِ لِعِلْمِ المُخاطَبِ بِما يَعْني الْمُتَكَلِّمُ[4]. ومِنْ قُيودِ صِحَّةِ الْعِبارَةِ حَتّى

[1] المصدر نفسه، 1/57-59.

[2] المصدر نفسه، 1/69.

[3] المصدر نفسه، 1/40.

[4] المصدر نفسه، 1/47.

تَسْتَقيمَ لَدى المُخاطَبِ التِزامُ أَوْضاعِ الْواضِعِ، والمِثالُ عَلى ذلِكَ أَنَّ ما اسْتُعْمِلَ مِنَ المَصادِرِ نَكِرَةً لِلدُّعاءِ إِنَّما هُوَ مَحْدودٌ في بابِه كَما وَضَعَه الْواضِعُ: «فإنّما تُجْرِيها كَما أَجْرَتِ الْعَرَبُ وتَضَعُها في المَواضِعِ التي وُضِعْنَ فيها، ولا تُدْخِلَنَّ فيها ما لَمْ يُدْخِلوا مِنَ الحُروفِ؛ أَلا تَرى أَنّكَ لَوْ قُلْتَ "طَعاماً لَكَ" و"شَراباً لَكَ"... تُريدُ مَعْنى "سَقْياً"، أَوْ مَعْنى المرْفوعِ الذي فيهِ مَعْنى الدُّعاءِ لَمْ يَجُزْ لأَنَّهُ لَمْ يُسْتَعْمَلْ هذا الكَلامُ كَما اسْتُعْمِلَ ما قَبْلَهُ. فَهذا يَدُلُّكَ ويُبَصِّرُكَ أَنَّهُ يَنْبَغي لَكَ أَنْ تُجْرِيَ هذهِ الحُروفَ كَما أَجْرَتِ الْعَرَبُ، وأَنْ تَعْنِيَ ما عَنَوْا بِها»[1].

ومِنَ الأَمْثِلَةِ التي تُبَيِّنُ أَنَّ **اسْتِواءَ المُتَكَلِّمِ والمُخاطَبِ في العِلْمِ قَصْدٌ يَقْصِدُ إِلَيْهِ المتَكَلِّمُ ويَبْذُلُ لَهُ الشُّروطَ اللَّفْظِيَّةَ المُناسِبَةَ**، قَوْلُ سيبَوَيْهِ: «ومِنْ ذلِكَ "قَدْ عَلِمْتُ لَعَبْدُ اللهِ خَيْرٌ مِنْكَ". فَهذهِ اللامُ تَمْنَعُ الْعَمَلَ، كَما تَمْنَعُ أَلِفُ الاسْتِفْهامِ، لأَنَّها إِنَّما هِيَ لامُ الابْتِداءِ، وإِنّما أَدْخَلْتَ عَلَيْه "عَلِمْتُ" لِتُؤَكِّدَ وتَجْعَلَهُ يَقيناً قَدْ عَلِمْتَهُ، ولا تُحيلَ عَلى عِلْمِ غَيْرِكَ. كَما أَنَّكَ إِذا قُلْتَ "قَدْ عَلِمْتُ أَ زَيْدٌ ثَمَّ أَمْ عَمْرٌو"، أَرَدْتَ أَنْ تُخْبِرَ أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهُما ثَمَّ، وأَرَدْتَ أَنْ تُسَوِّيَ عِلْمَ المُخاطَبِ فيهِما كَما اسْتَوى عِلْمُكَ في المَسْأَلَةِ...»[2]. وهُناكَ أَمْثِلَةٌ أُخْرى تَتَّصِلُ بالإِضْمارِ اسْتِخْفافاً لأَنَّ المُخاطَبَ يَعْلَمُ ما يَعْني، وتَجْري بِمَنْزِلَةِ المَثَلِ، وذلِكَ نَحْو "لاعَلَيْكَ"، و "المُرادُ "لا بَأْسَ عَلَيْكَ" و"لا ضَرَّ عَلَيْك"، ولكِنَّهُ حُذِفَ لِكَثْرَتِهِ في الْكَلامِ، ولا يَكونُ هذا في غَيْرِ "عَلَيْكَ" أَيْ لا يَطَّرِدُ ولا يَنْقاسُ في غَيْرِ هذهِ الْكَلِمَةِ. ونَحْوُهُ "إذا كانَ غَداً فَأْتِني" كأنَه ذَكَرَ أَمْراً إِمّا خُصومَةً وإِمّا صُلْحاً فَقالَ ذلِكَ، ولكِنَّهُ لا يَطَّرِدُ في غَيْرِهِ، فَلا يَجوزُ "إِذا كانَ اللَّيْلَ فَأْتِني" إِلاّ إِذا أُريدَ بِهِ اللَّيْلُ كُلُّهُ[3].

وهكَذا فَإِنَ القَصْدَ مُحَكَّمٌ ومُعْتَبَرٌ في صِحَّةِ الْكَلامِ، ولَوْ جاءَ اللَّفْظُ مُخالِفاً لِلْقَصْدِ لَفَسَدَ، وهُوَ مَبْنىً لِلْحُكْمِ الذي يُصْدِرُهُ النّاظِرُ عَلى الْجُمْلَةِ.

***

2- "مَقامُ الْكَلامِ" أَوْ بابٌ في "ما دَخَلَ في القَصْدِ ودَخَلَ في دَلالَةِ اللَّفْظِ"

اِسْتَدَلَّ سيبَوَيْهِ بِكَثيرٍ مِنَ الشَّواهِدِ والأَمْثِلَةِ التي لَها دَلالَةٌ مِنْ ظُروفِ الخِطابِ، ومَرْجِعٌ في مَقامِ الْقَوْلِ، وأُصولٌ في ثَقافَةِ المُتَكَلِّمِ وعَقيدَتِهِ وأَعْرافِ قَوْمِهِ. وتَخْتَلِفُ هذِهِ

---

(1) المصدر نفسه، 1/330-331.

(2) المصدر نفسه، 1/236.

(3) المصدر نفسه، 1/224-225.

الأَمْثِلَةُ عَنْ كَثيرٍ مِنْ أَنْواعِ التَّمْثيلِ لأَنَّها لا يُرادُ مِنْها مُجَرَّدُ التَّمْثيلِ الصَّوريّ. ووَجْهُ الاخْتِلافِ ومَرْجِعُهُ أَنَّ كُلَّ ضَرْبٍ مِنَ الأَمْثِلَةِ مُناسِبٌ لِلْمُقَدِّماتِ النَّظَرِيَّةِ التي يَصْدُرُ عَنْها وتُعَدُّ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ. وأَمْثِلَةُ المَقامِ وظُروفِ الخِطابِ التي مَثَّلَ بِها سيبَوَيْه، وأَتْبَعَها بالشَّرْحِ والتَّفْسيرِ خاضِعَةٌ لاعْتِبارِ سُلوكِ الْكَلِماتِ داخِلَ الْكَلِمِ الذي يَعْكِسُ سُلوكَ المُتَكَلِّمينَ داخِلَ المُجْتَمَعِ. ويُعدُّ الصُّدورُ عَنْ جِهَةِ المَقامِ في تَفْسيرِ الكَلامِ قاعِدَةً تُلائِمُ بَيْنَ قَواعِدِ النَّحْوِ الثّابِتَةِ في نَفْسِ المُتَكَلِّمِ ومُتَغَيِّراتِ البيئَةِ الكَلامِيَّةِ التي تُحيطُ بِهِ. وجِهَةُ المَقامِ أَهْلٌ لِتَحْصيلِ المُلاءَمَةِ والتَّناسُبِ بَيْنَ الثّابِتِ والمُتَغَيِّرِ لِما فيها مِنْ مُرونَةٍ وقُدْرَةٍ على تَفْسيرِ الْفُروقِ الدَّلالِيَّةِ، المُناسِبَةِ لِلأَحْوالِ المَقامِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ. وهكَذا فَإِنَّ قاعِدَةَ المَقامِ وَسيطٌ بَيْنَ نَسَقٍ لُغَوِيٍّ مِنَ الْقَواعِدِ ونَسَقٍ مَقامِيٍّ هُوَ الْخارِجُ وما يَتْبَعُهُ مِنْ مَقاماتٍ وأَحْوالٍ مُخْتَلِفَةٍ.

لَقَدْ وَرَدَتْ في الكِتابِ أَمْثِلَةٌ كَثيرَةٌ لا تَضْبِطُها الْقَواعِدُ الصّورِيَّةُ ولا تَخْضَعُ لِمَقاييسِ الكَلامِ المَأْلوفِ، إلاّ أَنَّها آيِلَةٌ إلى تِلْكَ المَقاييسِ بِتَقْديرِ النّاظِرِ وتَأْويلِهِ: فَهِيَ أَمْثِلَةٌ مِنَ الْكَلامِ لَها مَقاييسُ في نُفوسِ المُتَخاطِبينَ ولَها نَظيرٌ في أَعْرافِهِمْ ومُثاقَفاتِهِمْ. فَقَدْ يَبْدو الوَهْلَةَ الأولى أَنَّ تِلْكَ العِباراتِ ناقِصَةٌ أَوْ شاذَّةٌ أَوْ لاحِنَةٌ، ولكِنَّ رَدَّها إلى الأُصولِ غَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ يُفَسِّرُ خُروجَها عَلى النِّظامِ، أَوْ يُفَسِّرُ عَلى الأَقَلِّ خُضوعَها لِنِظامٍ مُفارِقٍ.

أ- نَماذِجُ النَّظَرِ في تَصَوُّرِ الْمَقامِ: الاسْتِدْلالُ بِعِباراتٍ لَها دَلالاتٌ في أَبْوابِ الْفِقْهِ

مِنَ الْعِباراتِ التي يَكْثُرُ دَوْرُها في حَيِّزِ التَّمْثيلِ، في كِتابِ سيبَوَيْه، ما يَتَعَلَّقُ بِبابِ البُيوعِ خاصَّةً، وذلِكَ كَقَوْلِ العَرَبِ "بَيْعَ المَلَطى لا عَهْدَ ولا عَقْدَ". وأَهَمُّ مِنْهُ تَفْسيرُ سيبَوَيْه للحالِ في المِثالِ إذْ يَقولُ: «وذلِكَ إنْ كُنْتَ في حالِ مُساوَمَةٍ وحالِ بَيْعٍ، فَتَدَعُ "أُبايِعُكَ" اسْتِغْناءً لِما فيهِ مِنَ الحالِ...»[1]. ومِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ مُمَهِّداً لِطَريقِ فَهْمِ مِثالٍ مِنْ أَمْثِلَةِ الْبُيوعِ: «وتَبيعُ الدّارَ فَتَقولُ "حَدٌّ مِنْها كَذا وحَدٌّ مِنْها كَذا"»[2]. وقَدْ وَرَدَ المِثالُ في سِياقِ ما يُسَوِّغُ الابْتِداءَ بِالنَّكِرَةِ. ولكِنَّ الأَهَمَّ مِنْ ذلِكَ تَوْطِئَةُ سيبَوَيْه لِلإطارِ الْمَقامِيِّ الذي يَرِدُ فيهِ هذا النَّوْعُ مِنَ الْكَلامِ. ومِثْلُ ذلِكَ قَوْلُهُ: «ومِمّا يَنْتَصِبُ لأَنَّهُ حالٌ وَقَعَ فيهِ الْفِعْلُ قَوْلُكَ "بِعْتُ الشّاءَ شاةً و دِرْهَماً"... و"بِعْتُهُ داري ذِراعاً بِدِرْهَمٍ" و"بِعْتُ البُرَّ قَفيزَيْنِ بِدِرْهَمٍ" و"أَخَذْتُ زَكاةَ مالِهِ دِرْهَماً لِكُلِّ أَرْبَعينَ دِرْهَماً" و"بَيَّنْتُ لَهُ حِسابَهُ باباً باباً"... واعْلَمْ أَنَّ هذِهِ الأَشْياءَ لا يَنْفَرِدُ مِنْها شَيْءٌ دونَ ما بَعْدَهُ...

---

(1) المصدر نفسه، 272/1.

(2) المصدر نفسه، 329/1.

لا يَجوزُ أَنْ تَقولَ "بايَعْتُهُ يَداً" لأَنَّكَ إِنَّما تُريدُ "أَخَذَ مِنّي وأَعْطاني"، فإنّما يَصِحُّ المَعْنى إذا قُلْتَ "بِيَدٍ" لأَنَّهُما عَمَلانِ... ولا يَجوزُ أَنْ تَقولَ "بِعْتُ داري ذِراعاً" وأَنْتَ تُريدُ "بِدِرْهَمٍ"، فَيُرى المُخاطَبُ أنّ الدّارَ كُلَّها ذِراعٌ. ولا يَجوزُ أَنْ تَقولَ "بِعْتُ شائي شاةً شاةً" وأَنْتَ تُريدُ "بِدِرْهَمٍ"، فَيُرى المُخاطَبُ أَنَّكَ بِعْتَها الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ عَلى الوِلاءِ. ولا يَجوزُ أَنْ تَقولَ "بَيَّنْتُ لَهُ حِسابَهُ باباً" فَيُرى المُخاطَبُ أَنَّكَ إِنَّما جَعَلْتَ حِسابَهُ باباً واحِداً غَيْرَ مُفَسَّرٍ... وأَمّا قَوْلُ النّاسِ "كانَ البُرُّ قَفيزَيْنِ" و"كانَ السَّمْنُ مَنَوَيْنِ"، فَإِنَّما اسْتَغْنَوْا هٰهُنا عَنْ ذِكْرِ الدِّرْهَمِ لِما في صُدورِهِمْ مِنْ عِلْمِهِ... و بِعِلْمِ المُخاطَبِ، لأَنَّ المُخاطَبَ قَدْ عَلِمَ ما يَعْني... وكذلِكَ هذا وما أَشْبَهَهُ. فَأَجْرِهِ كَما أَجْرَتْهُ الْعَرَبُ»[1].

هذا، وقَدْ عَقَدَ سيبَوَيْهِ أَبْواباً لِهذا الضَّرْبِ مِنَ الأَمْثِلَةِ، مِنْها «بابُ ما يَنْتَصِبُ فيهِ الاسْمُ لأَنَّهُ حالٌ يَقَعُ فيهِ السِّعْرُ وإِنْ كُنْتَ لَمْ تَلْفِظْ بِفِعْلٍ، ولكِنَّهُ حالٌ يَقَعُ فيهِ السِّعْرُ، فَيَنْتَصِبُ كَما لَوْ كانَ حالاً وَقَعَ فيهِ الْفِعْلُ [...] وذلِكَ قَوْلُكَ "لَكَ الشّاءُ شاةً بِدِرْهَمٍ شاةً بِدِرْهَمٍ"...»[2]، و«بابُ ما يَنْتَصِبُ مِنَ الصِّفاتِ كَانْتِصابِ الأَسْماءِ في الْبابِ الأَوَّلِ، وذلِكَ قَوْلُكَ "أَبيعُكَهُ السّاعَةَ ناجِزاً بِناجِزٍ"»[3]. ومِمّا جاءَ في "بابِ ما جَرى عَلى حَرْفِ النِّداءِ وَصْفاً لَه ولَيْسَ مِنْ مُنادىً"، مِنْ أَمْثِلَةِ الْبُيوعِ قَوْلُهُ: «"عَلى الْمُضارِبِ الْوَضيعَةُ أَيُّها الْبائِعُ"...»[4]. ومِنْ أَمْثِلَةِ الْبُيوعِ أَيْضاً: «"إِنَّ في أَلْفِ دِرْهَمٍ لَمَضْرَباً"»[5] و«"لَهُ عَلَيَّ أَلْفُ دِرْهَمٍ عُرْفاً"»[6].

ومِمّا لَهُ صِلَةٌ بِمُلابساتِ السِّياقِ ويَصْدُرُ عَنْ ثَقافَةِ الْمُتَخاطِبينَ وعَقيدَتِهِمْ قَوْلُهُ [في «باب ما يُضْمَرُ فيهِ الْفِعْلُ الْمُسْتَعْمَلُ إِظْهارُهُ في غَيْرِ الأَمْرِ والنَّهْيِ»] مُمَهِّداً لِلْمَقالِ بِظُروفِ الْمَقامِ: «إِذا رَأَيْتَ رَجُلاً مُتَوَجِّهاً وِجْهَةَ الْحاجِّ، قاصِداً في هَيْئَةِ الْحاجِّ، فَقُلْتَ "مَكَّةَ وَ رَبِّ الْكَعْبَةِ" حَيْثُ زَكِنْتَ[7] أَنَّهُ يُريدُ مَكَّةَ، كَأَنَّكَ قُلْتَ "يُريدُ مَكَّةَ واللهِ"...»[8]. ومِمّا يُطْلَبُ فيهِ

---

(1) المصدر نفسه، 1/392-393. وانْظُرْ: د. نِهاد الموسى: «**الوِجْهَة الاجْتِماعِيَّةُ في مَنْهَجِ سيبَوَيْهِ في كِتابِهِ**»، بَحْثٌ نُشِرَ بِمَجَلَّةِ "حَضارَةِ الإِسْلام" (دِمَشْق، 1974) وشارَكَ بِهِ صاحِبُهُ في مُؤْتَمَرِ "ذِكْرى الْقَرْنِ الثّاني عَشَرَ لِوَفاةِ سيبَوَيْهِ"، بِشيراز سَنَةَ 1974م.

(2) الْكِتاب: 1/395-396.

(3) المصدر نفسه، 1/397.

(4) المصدر نفسه، 2/232.

(5) المصدر نفسه، 1/233.

(6) المصدر نفسه، 1/380.

(7) **زَكِنَ الخَبَرَ: عَلِمَه** [انظر: لسان العرب/مادّة زكن].

(8) المصدر نفسه، 1/257.

المَعْنى مِنَ السِّياقِ والأَعْرافِ المُتَداوَلَةِ لا مِنَ اللَّفْظِ وَحْدَهُ قَوْلُهُمْ "شاهِداكَ" أيْ ما "ثَبَتَ لَكَ شاهِداكَ". ويَشْرَحُ **الأَعْلَمُ الشَّنْتَمَريُّ** دَليلَ المَعْنى مِنَ الفِقْهِ قائِلاً: «ومَعْنى هذا أَنْ يَتَقَدَّمَ رَجُلانِ إلى حاكِمٍ أَوْ غَيْرِهِ فَيَدَّعي أَحَدُهُما عَلى الآخَرِ فَيُنْكِرُهُ فَيَقولُ الحاكِمُ "شاهِدَيْكَ"، عَلى مَعْنى "أَحْضِرْ شاهِدَيْكَ"، وإِنْ شاءَ قالَ "شاهِداكَ" أَيْ الشَّيْءُ الذي يَثْبُتُ لَكَ ويَصِحُّ شاهِداكَ، وحَقيقَةُ هذا الكَلامِ ما يَثْبُتُ لَكَ: شَهادَةُ شاهِدَيْكَ»[1].

و قَدْ يَصِلُ **سيبَوَيْهِ** بِالاحْتِفاءِ بِالسِّياقِ إلى أَنْ يَتَّخِذَهُ عِلَّةً ومِقْياساً لِلْفَصْلِ في الحُكْمِ عَلى التَّرْكيبِ، بِالخَطَإِ أَوِ الصَّوابِ، وهُوَ مِقْياسٌ لا يَنْبَغي التَّهاوُنُ بِهِ في الحُكْمِ: «فَإِنَّ النَّحْوِيِّينَ مِمّا يَتَهاوَنونَ بِالخَلْفِ إذا عَرَفوا الإِعْرابَ، وذلِكَ أَنَّ رَجُلاً مِنْ إِخْوانِكَ ومَعْرِفَتِكَ لَوْ أَرادَ أَنْ يُخْبِرَكَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ غَيْرِهِ بِأَمْرٍ فَقالَ "أَنا عَبْدُ اللهِ مُنْطَلِقاً"، و"هُوَ زَيْدٌ مُنْطَلِقاً"، كانَ مُحالاً لأَنَّهُ إنَّما أَرادَ أَنْ يُخْبِرَكَ بِالانْطِلاقِ ولم يَقُلْ "هُوَ" ولا "أَنا" حَتّى اسْتَغْنَيْتَ أَنْتَ عَنِ التَّسْمِيَةِ، لأَنَّ "هُوَ" و"أَنا" عَلامَتانِ لِلْمُضْمَرِ، وإِنَّما يُضْمِرُ إذا عَلِمَ أَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ مَنْ يَعْني، إلاّ أَنَّ رَجُلاً لَوْ كانَ خَلْفَ حائِطٍ، أَوْ في مَوْضِعٍ تَجْهَلُهُ فيهِ فَقُلْتَ "مَنْ أَنْتَ؟" فَقالَ "أَنا عَبْدُ اللهِ مُنْطَلِقاً في حاجَتِكَ" كانَ حَسَناً»[2].

فَفي كُلِّ هذِهِ الأَمْثِلَةِ وما شاكَلَها مُجاوَزَةٌ لِلدّائِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ والْتِفاتٌ إلى السِّياقِ ومُلابَساتِ الحالِ التي تَكْتَنِفُ التَّخاطُبَ. وهِيَ تَراكيبُ مَخْصوصَةٌ، مَرْدودَةٌ إلى أَنْماطٍ لُغَوِيَّةٍ مُقَرَّرَةٍ مِنْ قَبْلُ، ومُقَدَّرٌ فيها الأَغْراضُ اللَّفْظِيَّةُ التي حَصَلَتْ لَها فَأَخْرَجَتْها عَنْ مَعْهودِها. وهذا أَصْلٌ مِنْ أُصولِ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ في مُعايَنَةِ الظّاهِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ المُتَبَوِّئَةِ مَكانَها مِنْ مَقامِ الكَلامِ.

وتُعَدُّ الصِّيَغُ اللَّفْظِيَّةُ التي وَرَدَتْ بِها هذِهِ الأَنْماطُ القَوْلِيَّةُ صِيَغاً ثابِتَةً -سَماعًا-، ومُلْحَقَةً -نَظَراً- بِعِباراتٍ مُطَّرِدَةٍ، ولكِنَّها تُجْرى كَما أَجْراها العَرَبُ، وتوضَعُ في المَواضِعِ التي وَضَعوها فيها، ولا يُدْخَلُ فيها ما لَمْ يُدْخِلوا فيها، فَإِنَّ الخُروجَ عَلى أَوْضاعِهِمْ لا مُسَوِّغَ لَه، «ولكِنَّكَ تُضْمِرُ بَعْدَما أَضْمَرَتْ فيهِ العَرَبُ مِنَ الحُروفِ والمَواضِعِ، وتُظْهِرُ ما أَظْهَروا، وتُجْري هذِهِ الأَشْياءَ [...] عَلى ما أَجْرَوْا [...] فَقِفْ عَلى هذِهِ الأَشْياءِ حَيْثُ وَقَفوا ثُمَّ فَسِّرْ»[3].

ب- مِنْ مَناهِجِ النَّظَرِ في تَصَوُّرِ المَقامِ: "الاسْتِدْلالُ بِالأَمْثالِ عَلى كَلامِ العَرَبِ":

---

(1) الأَعْلَمُ الشَّنْتَمَرِيّ: **النُّكَتُ في تَفْسيرِ كِتابِ سيبَوَيْهِ**. تح. عَبْد المُحْسِن سُلْطان. نَشْر جامِعَة الدّوَل العَرَبِيّة: 267/1.

(2) **الكِتاب**: 2/80-81.

(3) المَصدَرُ نفسه، 1/265-266.

مِمّا يَتَّصِلُ بِمَقامِ الْكَلامِ وأَثَرِ السِّياقِ في فَهْمِ المَعْنى ضَرْبٌ مِنَ الأَلْفاظِ التي أَطْلَقَها الْعَرَبُ في مُناسَبَةٍ مُعَيَّنَةٍ وأَصْبَحَتْ تُسْتَحْضَرُ كُلَّما حَضَرَتِ المُناسَبَةُ، وتُؤَدّى عَلى ما فَرَطَ بِهِ أَوَّلُ أَحْوالِ وُقوعِها. وهذِهِ الأَلْفاظُ المَخْصوصَةُ هِيَ "أَمْثالُ الْعَرَبِ" التي تُعَدُّ نَوْعاً مِنْ أَنْواعِ الْكَلامِ اسْتَحَقَّ مِنَ النّاظِرِ أَنْ يَخُصَّهُ بِعِنايَةٍ مَلْحوظَةٍ، وأَنْ يَعُدَّهُ نَوْعاً مِنَ الْعِلْمِ والمَعْرِفَةِ بِالنَّظَرِ إِلى الجِهاتِ المُخْتَلِفَةِ التي تَعْمَلُ عَلى إِنْتاجِها وصِياغَتِها. فَقَدْ عُرِّفَ عِلْمُ الأَمْثالِ بِأَنَّهُ: «مِنْ فُروعِ عِلْمِ اللُّغَةِ، وهُوَ مَعْرِفَةُ الأَلْفاظِ الصّادِرَةِ عَنِ الْبَليغِ، المُشْتَهِرَةِ بَيْنَ الأَقْوامِ بِخُصوصِ أَلْفاظِها، وهَيْئاتِها، ومَوْرِدِها وسَبَبِ وُرودِها، وقائِلِها، وزَمانِها، ومَكانِها؛ لِئَلاّ يَقَعَ الْغَلَطُ عِنْدَ اسْتِعْمالِها في مَضارِبِها، وهِيَ المَواضِعُ والمَقاماتُ. ولا بُدَّ لِمَعاني تِلْكَ الأَلْفاظِ مِنْ غَرابَةٍ ولأَلْفاظِها مِنْ فَصاحَةٍ. ومَوْضوعُهُ: الأَلْفاظُ المَذْكورَةُ مِنْ حَيْثُ وُرودُها في مَوارِدِها وتَعْيينِ مَضارِبِها بِالنَّوْعِ»[1].

وتُخْتَصُّ الأَمْثالُ بِأَنَّها قَدْ تَخْرُجُ عَنِ الْقِياسِ، وتُحْكى كَما سُمِعَتْ، والعَرَبُ «تُجْري الأَمْثالَ عَلى ما جاءَتْ، ولا تَسْتَعْمِلُ فيها الإِعْرابَ»[2]. وقَدْ عَبَّرَ **سيبَوَيْهِ** عَنْ هذِهِ الصِّفَةِ بِقَوْلِهِ: «ومِنْ كَلامِهِمْ أَنْ يَجْعَلوا الشَّيْءَ في مَوْضِعٍ عَلى غَيْرِ حالِهِ في سائِرِ الْكَلامِ»[3]. وتَفْسيرُ الاخْتِصاصِ أَنَّ دلالَةَ المَقامِ وأَحْوالِ الخِطابِ مِنْ دلالَةِ اللَّفْظِ عَلى المَعْنى، وذلِكَ لِما اعْتَرى اللَّفْظَ مِنْ نَقْصٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ تَضْمينٍ أَوْ خُروجٍ عَنِ الأَقْيِسَةِ. ويُعدُّ المَثَلُ نَوْعاً مِنَ الْقَوْلِ مَخْصوصاً يُسْتَعارُ لِلتَّمْثيلِ. فَهُوَ عِبارَةٌ عَنِ اسْتِعارَةٍ تَمْثيلِيَّةٍ يُسْتَعارُ فيها لَفْظُ المُشَبَّهِ بِهِ لِلْمُشَبَّهِ[4].

وتُتَداوَلُ الأَمْثالُ كَما سُمِعَتْ عَنِ الْعَرَبِ، ولَوْ خالَفَتِ الْقِياسَ. ويُحافَظُ عَلى صِيَغِها بِلا تَبْديلٍ ولا تَصَرُّفٍ ولا تَغْييرٍ[5]. ويَجْري مَجْرى الأَمْثالِ كُلُّ ما كَثُرَ اسْتِعْمالُ الْعَرَبِ لَهُ عَلى وَجْهٍ مَخْصوصٍ، فَيَأْخُذُ حُكْمَها ويُعامَلُ مُعامَلَتَها. والمَشْهورُ في الأَمْثالِ أَنَّهُ يُتَرَخَّصُ فيها ما لا

---

(1) طاش كُبْري زادَة، **مِفْتاحُ السَّعادَة ومِصْباح السِّيادَة**، مَط.دار المَعارِف، حَيْدَر أباد1328هـ، 247/1.

(2) السّيوطِيّ، المُزْهِر، 487/1-488.

(3) الْكِتاب، 51/1.

(4) لَقَدْ وُضِعَتْ فِي الأَمْثالِ كُتُبٌ كَثيرَةٌ مِنْها كِتابُ **"الأَمْثالِ"** لأَبي عُبَيْدٍ الْقاسِمِ بْنِ سَلاّمٍ، و**"مَجْمَعُ الأَمْثالِ"** لِلْمَيْدانِيِّ و**"زَهْرُ الأَكَم"** لأَبي الْحَسَنِ الْيوسِيِّ، و**"جَمْهَرَةُ الأَمْثالِ"** لِلْعَسْكَرِيِّ و**"التَّمْثيلُ والمُحاضَرَةُ"** لأَبي مَنْصورٍ الثَّعالِبِيِّ.

(5) وهِيَ فِي ذلِكَ خاضِعَةٌ «لِقاعِدَةٍ مَشْهورَةٍ هِيَ: "الأَمْثالُ لا تُغَيَّرُ، بَلْ تَجْري كَما جاءَتْ"» (السّيوطِيّ، **المُزْهِر**: 487/1).

يُتَرَخَّصُ في غَيْرِها مِنْ أَنْواعِ الْقَوْلِ. ورُخَصُهُ كَضَرائِرِ الشِّعْرِ[1]، و«واسْتُجيزَ مِنَ الْحَذْفِ ومُضارِعِ ضَروراتِ الشِّعْرِ ما لا يُسْتَجازُ في سائِرِ الْكَلامِ»[2].

ومِنْ نَماذِجِ خُروجِ الأَمْثالِ عَنِ الْقِياسِ، كَما وَرَدَتْ في كِتابِ **سيبَوَيْهِ**، ما خَرَجَ عَنِ الْقِياسِ في بِنْيَةِ الكَلِمَةِ، نَحْو قَوْلِهِمْ: "تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِيّ لا أَنْ تَراهُ"، قالَ **سيبَوَيْهِ**: «لأَنَّهُ مَثَلٌ، وهُوَ أَكْثَرُ في كَلامِهِمْ مِنْ تَحْقيرِ "مَعَدِّيٍّ". فَإِنْ حَقَّرْتَ "مَعَدِّيّ" ثَقَّلْتَ الدالَ فَقُلْتَ "مُعَيْدِّيٌّ"»[3]. ومِنَ الأَمْثالِ ما خَرَجَ عَنْ أَقْيِسَةِ التَّراكيبِ، وذلِكَ نَحْو: "عَسى الْغُوَيْرُ أَبْؤُساً" حَيْثُ «جَعَلوا "عَسى" بِمَنْزِلَةِ "كانَ"»[4]، و«لَها [...] حالٌ لا تَكونُ في سائِرِ الأَشْياءِ»[5]، «فَهذا مَثَلٌ مِنْ أَمْثالِ الْعَرَبِ أَجْرَوْا فيهِ "عَسى" مَجْرى "كانَ"»[6]، ولَوْ حُمِلَ عَلى أَفْعالِ الْمُقارَبَةِ لَكانَ الْقِياسُ أَنْ يَأْتِيَ الخَبَرُ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً.

و مِمّا «يُضْمَرُ فيهِ الْفِعْلُ الْمُسْتَعْمَلُ إِظْهارُهُ بَعْدَ حَرْفٍ... قَوْلُ الْعَرَبِ في مَثَلٍ مِنْ أَمْثالِها: "إِنْ لا حَظِيَّةٌ فَلا أَلِيَّةٌ" أَيْ "إِنْ لا تَكُنْ لَهُ في النّاسِ حَظِيَّةٌ فَإِنّي غَيْرُ أَلِيَّةٍ"»[7].

ومِمّا يُحْذَفُ فيهِ الْفِعْلُ النّاصِبُ لِلْمَفْعولِ بِهِ في سِياقِ الأَمْرِ والنَّهْيِ أَوِ الدُّعاءِ «قَوْلُ الْعَرَبِ "أَمْرَ مُبْكِياتِكَ لا أَمْرَ مُضْحِكاتِكَ" و"الظِّباءَ عَلى الْبَقَرِ". يَقولُ "عَلَيْكَ أَمْرَ مُبْكِياتِكَ" و"خَلِّ الظِّباءَ عَلى الْبَقَرِ"»[8]. ومِنْ ذلِكَ قَوْلُ الْعَرَبِ "كِلَيْهِما وتَمْراً"، فَهذا مَثَلٌ قَدْ كَثُرَ في كَلامِهِمْ واسْتُعْمِلَ، وتُرِكَ ذِكْرُ الْفِعْلِ لِما كانَ قَبْلَ ذلِكَ مِنَ الْكَلامِ، كَأَنَّهُ قالَ "أَعْطِني كِلَيْهِما

---

(1) وقَدْ قالَ ابْنُ جِنّيّ في هذا الْمَعْنى: «الأَمْثالُ تَجْري مَجْرى الْمَنْظومِ في تَحَمُّلِهِ لِلضَّرورَةِ» (أبو الفَتْحِ عُثْمانُ بْنُ جِنّيّ، **الْمُحْتَسَب في تَبْيينِ شَواذِّ وُجوهِ القِراءاتِ**، تح. عَلِيّ الجُنْدِيّ ناصِف وعَبْد الحَليم النّجّار وعَبْد الفَتّاح إسْماعيل شَلَبي. لَجْنَة إحْياء التُّراث الإسْلاميّ، القاهِرة، 1386هـ، 19/1. وانْظُرْ أيْضًا: السّيوطِيّ، **الْمُزْهِر**: 487/1).

(2) السّيوطِيّ، **الْمُزْهِر**: 487/1. وقَدْ رَجَعَ بَعْضُ الْباحِثينَ سَبَبَ خُروجِ الأَمْثالِ عَنْ قِياسِ اللُّغَةِ إِلى حِرْصِ الْعَرَبِ على تَأْدِيَتِها بِضُروبِ الْمُحَسِّناتِ اللَّفْظِيَّةِ التي تَضْطَرُّهُمْ إلى الخُروجِ عَنِ الْقِياسِ. ومِنَ الأَمْثالِ ما خالَفَ القِياسَ لِصُدورِهِ عَنْ فِئاتٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمينَ لا تُحْكِمُ قَواعِدَ اللُّغَةِ، وتَقَعُ في اللَّحْنِ ثُمَّ تَسيرُ بِاللَّحْنِ الرُّكْبانُ (أُنْظُرْ: د.عَبْد المَجيد قطامِش "**الأَمْثالُ الْعَرَبِيَّةُ-دِراسَةٌ تارِيخِيَّةٌ**" دار الفِكْر، دمشق، ط.1، 1404-1988، ص208-209).

(3) الكتاب، 44/4.

(4) المَصْدَرُ نفسه، 51/1.

(5) المصدر نفسه، 159/1.

(6) المصدر نفسه، 158/3.

(7) المصدر نفسه، 260/3-261. الأَليّةُ فَعيلَة، مِنَ الأَلْوِ وهو التَقصيرُ، ونُصِبَ حَظيّة وأَلِيّة عَلى تَقديرِ إلاّ أَكُنْ حظيَةً فَلا أكونُ أَليّةً.

(8) المصدر نفسه، 256/1.

وتَمْراً". و«مِنْ ذلِكَ قَوْلُهُمْ: "كُلَّ شَيْءٍ ولا هذا" و"كُلَّ شَيْءٍ ولا شَتيمَةَ حُرٍّ" أيْ "إِئْتِ كُلَّ شَيْءٍ ولا تَرْتَكِبْ شَتيمَةَ حُرٍّ". فَحُذِفَ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمالِهِمْ إيّاهُ»[1] و«مِنْ ذلِكَ قَوْلُ الْعَرَبِ في مَثَلٍ مِنْ أَمْثالِهِمْ "اللَّهُمَّ ضَبُعاً وذِئْباً" إذا كانَ يَدْعو بِذلِكَ عَلى غَنَمِ رَجُلٍ. وإذا سَأَلْتَهُمْ ما يَعْنونَ قالوا "اللَّهُمَّ اجْمَعْ أَوِ اجْعَلْ فيها ضَبُعاً وَ ذِئْباً" وكُلُّهُمْ يُفَسِّرُ ما يَنْوي. وإِنَّما سَهُلَ تَفْسيرُهُ عِنْدَهُمْ لأَنَّ الْمُضْمَرَ قَد اسْتُعْمِلَ في هذا المَوْضِعِ عِنْدَهُمْ بِإِظْهارٍ»[2]. و«مِنْ ذلِكَ قَوْلُ بَعْضِ العَرَبِ "فاهَا لِفيكَ". وإنَّما تُريدُ "فا الدّاهِيَةِ" كَأَنَّهُ قالَ: "تُرْباً لِفيكَ" فَصارَ بَدَلاً مِنَ اللَّفْظِ بِالْفِعْلِ وأضْمَرَ لَهُ... فَصارَ بَدَلاً مِنَ اللَّفْظِ بِقَوْلِهِ "دَهاكَ اللهُ"...»[3]. و«مِنْ ذلِكَ قَوْلُ بَعْضِ العَرَبِ "أَغُدَّةً كَغُدَّةِ الْبَعيرِ ومَوْتاً في بَيْتِ سَلوليَّةٍ؟ "كَأَنَّهُ إنَّما أرادَ" أَأُغَدُّ غُدَّةً كَغُدَّةِ الْبَعيرِ وأموتُ مَوْتاً في بَيْتِ سَلوليَّةٍ؟"...»[4] وفيهِ دَليلٌ عَلى حَذْفِ عامِلِ المَصْدَرِ المَنْصوبِ بَعْدَ الاسْتِفْهامِ الإنْكاريّ.

ومِنَ المَواضِعِ التي وَرَدَ فيها الحَذْفُ شُذوذاً حَذْفُ حَرْفِ النِّداءِ إذا وَرَدَ الْمُنادى نَكِرَةً مَقْصودَةً «قالَ في مَثَلٍ "اِفْتَدِ مَخْنوقُ" و"أَصْبِحْ لَيْلُ" و"أَطْرِقْ كَرا" ولَيْسَ هذا بِكَثيرٍ ولا بِقَوِيٍّ»[5] ومِنْ مَواضِعِ نونِ التَّوْكيدِ الفِعْلُ الذي زيدَت قَبْلَه "ما" للتّوكيدِ يُشَبِّهونَها بِاللاّمِ اللاّزِمَةِ للفِعْلِ في القَسَمِ، «قَوْلُهُمْ في مَثَلٍ "في عِضَةٍ مَا يَنْبُتَنَّ شَكيرُها"[6]. وقالَ أَيْضاً في مَثَلٍ آخَرَ "بِأَلَمٍ مَا تُخْتَنِنَّه". وقالوا "بِعَيْنٍ مَا أَرَيَنَّكَ"...»[7].

---

(1) المصدر نفسه، 1/280-281.

(2) المصدر نفسه، 1/255.

(3) المصدر نفسه، 1/315.

(4) المصدر نفسه، 1/338.

(5) المصدر نفسه، 2/231.

(6) شَكِرَت الشَّجرَةُ تَشْكَرُ شَكَراً وأشْكَرَتْ، أي خَرَجَ منها الشَّكيرُ، وهو ما يَنبُتُ حَولَ الشّجرةِ من أصولها. يُضرَبُ في تَشْبيه الوَلَدِ بأبيه.

(7) المصدر نفسه، 3/517. وأصْلُ بَعْضِ هذِه الأمْثالِ شِعْرٌ، مِثْل قَوْلِهم: "في عِضَةٍ مَا يَنْبُتَنَّ شَكيرُها" فهذا مَثَلٌ دَخَلَ في شِعْرٍ. والبيتُ بِتَمامِه هُوَ:

وَمِنْ عِضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شَكيرُها /// قَديمًا ويقتطُ الزِّناد مِنَ الزَّنْدِ

"**خِزانَة الأدَب**" نَقْلاً عَن مُحَقّقِ كِتابِ سيبَوَيْه: الكِتاب: 3/517، هامش رقم 2، وانظُرْ: **لِسان العَرَب**: مادّة عضه. ومادّة شكر.

فَتِلْكَ نَماذِجُ شـاهِدَةٌ عَلى نَفْسِـها، دالَّةٌ عَلى غَيْرِها، تُفيدُ أَنَّ الأَمْثالَ أَنْماطٌ مِنَ الأَقْوالِ تَدُلُّ بِلَفْظِها. ولكِنَّ وَراءَ اللَّفْظِ مَقاصِـدَ وأَحْوالاً وظُروفَ خِطابٍ بِها تُفْهَمُ الأَمْثالُ ومِنْها يُبْلَغُ إلى مَعْناها.

ج- مِنْ مَناهِجِ النَّظَرِ في تَصَوُّرِ الْمَقامِ: تَصَوُّرُ الكَلامِ جَواباً عَنْ سُؤالٍ:

وفائِدَةُ تَصَـوُّرِ الكَلامِ جَواباً عَنْ سُـؤالٍ أَنَّ السُّـؤالَ اسْـتِفْهامٌ بَيانِيٌّ يوضِـحُ الْعُنْصُـرَ المُسْـتَفْهَمَ عَنْهُ أَوِ المُرادَ مَعْرِفَتُهُ، فَيَكونُ هذا المُسْـتَفْهَمُ عَنْهُ حَظِيّاً بِعِنايَةِ المُتَكَلِّمِ واهْتِمامِهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ عَناصِرِ الجُمْلَةِ.

ومِنَ الأَمْثِلَةِ عَلى هذا المَنْهَجِ ما جاءَ في "بابِ ما يَكونُ مِنَ المَصادِرِ مَفْعولاً" «وإنَّما يَجيءُ ذلِكَ عَلى أَنْ تُبَيِّنَ أَيَّ فِعْلٍ فَعَلْتَ أَوْ تَوْكيداً. فَمِنْ ذلِكَ قَوْلُكَ عَلى قَوْلِ السّائِلِ: "أَيَّ سَيْرٍ سيرَ عَلَيْهِ؟" فَتَقول: "سـيرَ عَلَيْهِ سَـيْرٌ شَـديدٌ"... فَأَجْرَيْتَهُ مَفْعولاً، والْفِعْلُ لَهُ». ومَعْلومٌ ههُنا أَنَّ الاسْتِفْهامَ تَصْويرٌ لأَصْلِ الْمَسْأَلَةِ وبَيانٌ لأَصْلِ اللَّفْظِ. وقَدْ وَرَدَ اللَّفْظُ المُرادُ مَعْرِفَتُهُ بَياناً لِنَوْعِ الْفِعْلِ الْواقِعِ. «تَقولُ عَلى قَوْلِ السّـائِلِ "كَمْ ضَـرْبَةً ضُـرِبَ بِهِ؟"، ولَيْسَ في هذا إضْـمارُ شَيْءٍ سِـوى "كَمْ"، والمَفْعولُ "كَمْ" فَتَقولُ "ضُـرِبَ بِهِ ضَـرْبَتانِ"، و"سـيرَ عَلَيْهِ سَـيْرَتانِ"، لأَنَّهُ أَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ الْعِدَّةَ، فَجَرى عَلى سَـعَةِ الْكَلامِ والاخْتِصـارِ»[1]. والاسْـتِفْهامُ إثارَةٌ لِمَعْدِنِ المَعْنى الْمُرادِ بَيانُهُ، والمَعْنى ههُنا مَعْرِفَةُ عِدَّةِ المَفْعولِ الْواقِعِ عَلَيْهِ الْفِعْلُ (ضُرِبَ بِهِ ضَرْبَتانِ).

و مِمّا جاءَ في هذا المَنْهَجِ ما وَرَدَ في «بابِ وُقوعِ الأَسْـماءِ ظُروفاً وتَصْـحيحِ اللَّفْظِ عَلى المَعْنى. فَمِنْ ذلِكَ قَوْلُكَ "مَتى يُسـارُ عَلَيْهِ؟" وهُوَ يَجْعَلُهُ ظَرْفاً، فَيَقولُ: اليَوْمَ أَوْ غَداً أَوْ بَعْدَ غَدٍ أَوْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ...»[2]. فَالاسْـتِفْهامُ في المِثالِ واقِعٌ عَلى زَمانِ الْفِعْلِ، واللَّفْظُ الذي يَحْمِلُ عِنايَةَ المُتَكَلِّمِ واهْتِمامَهُ هُوَ الدّالُّ عَلى الزَّمانِ.

ومِنَ الأَمْثِلَةِ عَلى الْبَيانِ المَذْكورِ ما وَرَدَ في المُخْتَصِّ بِالمَدْحِ، وذلِكَ نَحْو "عَبْدُ اللهِ نِعْمَ الرَّجُلُ"... كَأَنَّهُ قالَ "نِعْمَ الرَّجُلُ" فَقيلَ لَهُ: "مَنْ هُوَ؟" فَقالَ: "عَبْدُ اللهِ". وإذا قالَ "عَبْدُ اللهِ" فَكَأَنَّهُ قيلَ لَهُ: "ما شَـأْنُهُ؟" فَقالَ: "نِعْمَ الرَّجُلُ". فَنِعْمَ تَكونُ مَرَّةً عامِلَةً في مُضْـمَرٍ يُفَسِّـرُهُ ما بَعْدَهُ... وتَكونُ مَرَّةً أُخْرى تَعْمَلُ في مُظْهَرٍ لا تُجاوِزُهُ...»[3]. وهكَذا فَإنَّ مَنْهَجَ السُّؤالِ يُبَيِّنُ مَعْنى

---

(1) الكِتاب، 229/1.

(2) المَصْدَرُ نفسه، 216/1.

(3) المصدر نفسه، 177/2.

الجُمْلَةِ بِتَصَوُّرِها جَواباً، وذلِكَ لأَنَّ السُّؤالَ «يَهْمِزُ» اللَّفْظَ الْواقِعَ عَلَيْهِ الاهْتِمامُ و«يَنْبِرُهُ» و يُرَكِّزُ عَلى جِهَةِ الْعِنايَةِ فيهِ. ومِنَ الأَمْثِلَةِ أَيْضاً ما وَرَدَ في بابِ ما تَسْتَوي فيهِ الحُروفُ الخَمْسَةُ، وذلِكَ نَحْو "إِنَّ زَيْداً مُنْطَلِقٌ الْعاقِلُ اللَّبيبُ". «فَ"الْعاقِلُ اللَّبيبُ" يَرْتَفِعُ عَلى وَجْهَيْنِ: عَلى الاسْمِ المُضْمَرِ في "مُنْطَلِق" كَأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ، فَيَصيرُ كَقَوْلِكَ "مَرَرْتُ بِهِ زَيْدٌ" إذا أَرَدْتَ جَوابَ "بِمَنْ مَرَرْتَ؟" فَكَأَنَّهُ قيلَ لَهُ: "مَنْ يَنْطَلِقُ؟" فَقالَ: "زَيْدٌ الْعاقِلُ اللَّبيبُ" وإِنْ شاءَ رَفَعَهُ عَلى "مَرَرْتُ بِهِ زَيْدٌ" إذا كانَ جَوابَ "مَنْ هُوَ؟". فَتَقولُ "زَيْدٌ"، كَأَنَّهُ قيلَ لَهُ "مَنْ هُوَ؟" فَقالَ "الْعاقِلُ اللَّبيبُ"»[1].

فَالجُمْلَةُ مُتَصَوَّرَةٌ واقِعَةً في سِياقٍ مُعَيَّنٍ لا مُنْقَطِعَةً عَنْهُ. وجِهاتُ الرَّفْعِ أَوِ النَّصْبِ في الاسْمِ جِهاتٌ إِعْرابِيَّةٌ لَفْظِيَّةٌ مُقَيَّدَةٌ -في إِفادَتِها لِلْمَعْنى- بِالسِّياقِ ومَقاصِدِ المُتَكَلِّمِ. والذي يَكْشِفُ عَنِ السِّياقِ هُوَ رَجْعُ الْكَلامِ إِلى أَصْلِهِ في المَسْأَلَةِ، فَتَظْهَرُ الجُمْلَةُ مُنْتَهى سِلْسِلَةٍ مِنَ الْكَلامِ، يَعْمَلُ عَلى إِنْجازِها المُتَكَلِّمُ والمُخاطَبُ أَوِ السّائِلُ والمُجيبُ.

ومِثْلُهُ «قَوْلُكَ "إِنَّ الذي في الدّارِ أَخوكَ قائماً"، كَأَنَّهُ قالَ: "مَنِ الذي في الدّارِ؟" فَقالَ: "إِنَّ الذي في الدّارِ أَخوكَ قائماً"...»[2].

ومِمّا وَرَدَ فيهِ السُّؤالُ مُفَسِّراً الإِضْمارَ أَوِ الْحَذْفَ في الْجَوابِ، فَظَهَرَ السُّؤالُ كَأَنَّهُ كَلامٌ سابِقٌ أَوْ دَليلٌ مِنَ الْحالِ، ما حَدَّثَ بِهِ **أَبو الخَطّابِ الأَخْفَشُ** أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ الْعَرَبِ وقيلَ لَهُ: "لِمَ أَفْسَدْتُمْ مَكانَكُمْ هذا؟" فَقالَ: "الصِّبْيانَ بِأَبي"، كَأَنَّهُ حَذِرَ أَنْ يُلامَ فَقالَ: "لُمِ الصِّبْيانَ!"»[3]. فَعِبارَةُ الْجَوابِ [الصِّبْيانَ بِأَبي] لا يَفْهَمُ لَها المُخاطَبُ مَعْنىً إِلاّ إِذا رَتَّبَها عَلى سُؤالٍ سابِقٍ مُوَطِّئٍ، أَيْ إِذا أَوْرَدَها في تَرْتيبِ الْكَلامِ بَعْدَ مَسْأَلَةِ المُتَكَلِّمِ. وأَمّا النّاظِرُ النَّحْوِيُّ، فَإِنَّهُ لا يُعْرِبُ وَجْهَ النَّصْبِ، إِلاّ بِتَقْديرِ ناصِبٍ يُمْليهِ سِياقُ الْحالِ، ويُرَجِّحُهُ.

ومِمّا يُفْتَرَضُ أَنْ يَكونَ الْكَلامُ جَواباً مِنَ المُخاطَبِ عَنْ سُؤالٍ مِنَ المُتَكَلِّمِ فَيَكونُ الْخِطابُ مُنَزَّلاً بَيْنَهُما قَوْلُهُ "مَرَرْتُ بِرَجُلَيْنِ مُسْلِمٍ وكافِرٍ" جَمَعْتَ الاسْمَ وفَرَّقْتَ النَّعْتَ، وإِنْ شِئْتَ كانَ المُسْلِمُ والْكافِرُ بَدَلاً، كَأَنَّهُ أَجابَ مَنْ قالَ "بِأَيِّ ضَرْبٍ مَرَرْتَ؟"، وإِنْ شاءَ رَفَعَ كَأَنَّهُ

---

(1) الْكِتاب، 147/1.

(2) المصدر نفسه، 148/2-149.

(3) المصدر نفسه، 255/1.

أَجابَ مَنْ قالَ "فَما هُما؟". فَالْكَلامُ عَلى هذا وإِنْ لَمْ يَلْفِظْ بِهِ الْمُخاطَبُ، لأَنَّهُ إِنَّما يَجْري كَلامُهُ عَلى قَدْرِ مَسْأَلَتِكَ عِنْدَهُ لَوْ سَأَلْتَهُ»[1].

و"افْتِراضُ الْكَلامِ جَواباً" هُوَ تَقْديرُ "بِنْيَةٍ ذِهْنِيَّةٍ" ماثِلَةٍ خَلْفَ "الْبِنْيَةِ اللَّفْظِيَّةِ" وكاشِفَةٍ عَنْ نِيَّةِ الْمُتَكَلِّمِ وقَصْدِهِ إِلى جِهَةٍ في الْمَعْنى. ومِمّا جاءَ في هذا الْمَعْنى أَيْضاً قَوْلُهُ: «وقَدْ يَجوزُ أَنْ تَقولَ "مَرَرْتُ بِقَوْمِكَ، الْكِرامَ" إِذا جَعَلْتَ الْمُخاطَبَ كَأَنَّهُ قَدْ عَرَفَهُمْ، كَما قالَ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ زَيْدٌ" فَتُنَزِّلُهُ مَنْزِلَةَ مَنْ قالَ لَكَ: "مَنْ هُوَ؟" وإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ...»[2].

***

3- كَلامُ الْعَرَبِ وأَحْكامُ النّاظِرِ:

يَتّصِلُ حُكْمُ النّاظِرِ عَلى الْعِباراتِ اللُّغَوِيَّةِ بِمَسْأَلَةِ الاطِّرادِ والشُّذوذِ أَوِ الْقِلَّةِ والْكَثْرَةِ، ويَدورُ مَعَها حَيْثُ دارَتْ. وقَدْ وَرَدَتْ في كِتابِ **سيبَوَيْهِ** طائِفَةٌ مِنَ الأَلْفاظِ تَحْمِلُ دَلالَةَ الْحُكْمِ عَلى الْعِباراتِ، وذلِكَ نَحْو الحُسْنِ والْقُبْحِ، والضّعْفِ والْقُوَّةِ، والرَّداءَةِ والْجَوْدَةِ، والاسْتِقامَةِ والاسْتِحالَةِ، والاسْتِحْسانِ والاخْتِيارِ والسَّماعِ. ونَحْو الْجائِزِ والْمُمْتَنِعِ، والحَسَنِ والأَحْسَنِ والأَجْمَلِ...[3].

و الْمُلاحَظُ أَنَّ الكِتابَ حافِلٌ بِأَحْكامٍ نَحْوِيَّةٍ كَثيرَةٍ عَلى الشَّواهِدِ و الأَمْثِلَةِ مُتَعَدِّدَةٍ بِتَعَدُّدِ احْتِمالاتِ الْوُرودِ أَوْ عَدَمِ الْوُرودِ. وبَيانُ ذلِكَ أَنَّ الحُكْمَ بِالْكَثْرَةِ والجَوْدَةِ والحُسْنِ والْقُوَّةِ والوَجاهَةِ فَرْعٌ عَلى تَصَوُّرِ الْمُمْكِنِ مِنْ كَلامِ الْعَرَبِ والْمُطَّرِدِ مِنْهُ. وأَمّا الحُكْمُ بِالرَّداءَةِ والضّعْفِ والْقُبْحِ والْقِلَّةِ فَهِيَ فَرْعٌ عَلى تَصَوُّرِ الْمُحالِ والْمُمْتَنِعِ. ومَعْنى ذلِكَ أَنَّ النَّظَرَ النَّحْوِيَّ يُقَسِّمُ الْوُجودَ اللُّغَوِيَّ إِلى مُمْكِنٍ ومُمْتَنِعٍ، ويُبَرْهِنُ بِتَفْصيلٍ عَلى اسْتِحْقاقِ كُلِّ قِسْمٍ مِنْها الحُكْمَ النَّحْوِيَّ الْمُناسِبَ. وهُوَ في تَقْسيمِهِ هذا وإِصْدارِهِ الحُكْمَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَصَوَّرَ ما لا

---

(1) المصدر نفسه، 431/1.

(2) المصدر نفسه، 70/2.

(3) هُناكَ دِراساتٌ وُضِعَتْ عَلى بَعْضِ أَحْكامِ النَّحْوِيّينَ، انْظُرْ: د.مراجع عَبْد القادِر بلْقاسم الطّلْحي: **الجَوازُ النَّحْوِيّ ودَلالَةُ الإِعْرابِ عَلى الْمَعْنى**، مَنْشورات جامِعة قاريونس، بنغازي، ليبيا. وقَد فَصَّلَ فيهِ صاحِبُهُ القَوْلَ في الجَوازاتِ النَّحْوِيَّةِ أَساليبِها ومَسالِكِها وتَوْجيهِ النُّحاةِ لَها ودَلالَةِ الإِعْرابِ عَلى المَعْنى. وانْظُرْ أَيضًا د. مَحْمود سُلَيْمان ياقوت: **التَّراكيبُ غَيْرُ الصَّحيحَةِ نَحْوِياً في الكِتابِ لِسيبَوَيْهِ، دِراسَةٌ لُغَوِيَّةٌ**، ط.2، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 1988، ص:77-110. وَقَدْ أَنْهى الباحِثُ عَدَدَ الأَحْكامِ الصّادِرَةِ في الْكِتابِ الْمُخْتَصَّةِ بِما لا يَصِحُّ مِنَ التَّراكيبِ إِلى تِسْعٍ وأَرْبَعينَ مَرَّةً وسَبْعِمائَةِ مَرَّةٍ.

يَتَصَوَّرُهُ المُتَكَلِّمُ: أَيْ يَتَصَوَّر المُمْكِنَ والمُحالَ في آنٍ واحِدٍ، ويُبَرْهِن عَلى إمْكانِ المُمْكِنِ وصِحَّتِهِ وعَلى اسْتِحالَةِ المُحالِ وامْتِناعِهِ.

والمُلاحَظُ عَلى الأَحْكامِ التي يُصْدِرُها سيبَوَيْهِ عَلى بَعْضِ العِباراتِ اللُّغَوِيَّةِ أَنَّها لَيْسَتْ قَطْعِيَّةً كَقَطْعِيَّةِ الأَحْكامِ الفِقْهِيَّةِ[1]، ولكِنَّها مُقَيَّدَةٌ بالاسْتِقْراءِ النّاقِصِ الذي اسْتُقْرِيَتْ بِهِ مَوادُّ الْبابِ، فَهُوَ في أَكْثَرَ مِنْ بابٍ يَحْكُمُ بالحُسْنِ أَوِ الْقُبْحِ ثُمَّ يَتَدارَكُ في الأَخيرِ بِما يُفيدُ أَنَّ أَوْجُهَ الاسْتِعْمالِ المُخْتَلِفَةَ لِتَرْكيبٍ مَخْصوصٍ عَرَبِيَّةٌ جَيِّدَةٌ، وذلِكَ نَحْو قَوْلِهِ: «وجَميعُ ما ذَكَرْتُ لَكَ مِنَ التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ والإِلْغاءِ والاسْتِقْرارِ عَرَبِيٌّ جَيِّدٌ كَثيرٌ»[2]، أَيْ إنَّ الأَوْجُهَ الرّاجِحَةَ والمَرْجوحَةَ تَسْتَوي جَميعاً في أَنَّها عَرَبِيَّةٌ جَيِّدَةٌ كَثيرَةُ الْوُرودِ. ومِثْلُهُ أَنَّهُمْ «لَمّا اجْتَمَعَتْ حُروفٌ مُتَشابِهَةٌ حَذَفوا. وهُوَ أَحْسَنُ وأَكْثَرُ، وذلِكَ قَوْلُكَ "عَلَيْهِ يا فَتى" و"لَدَيْهِ فُلانٌ"... والإِتْمامُ عَرَبِيٌّ»[3].

أ- بَعْضُ أَقْسامِ الحُكْمِ النَّحْوِيِّ:

يُقَسِّمُ سيبَوَيْهِ الْكَلامَ -في بابٍ مِنَ الأَبْوابِ الأُولى التي هِيَ مَواضِعُ جُمَلٍ أُصولٍ، و هُوَ "بابُ الاسْتِقامَةِ مِنَ الْكَلامِ والإِحالَةِ"[4]- إلى خَمْسَةِ أَقْسامٍ هِيَ: المُسْتَقيمُ الْحَسَنُ، والمُحالُ، والمُسْتَقيمُ الْكَذِبُ، والمُسْتَقيمُ الْقَبيحُ، والمُحالُ الْكَذِبُ[5] وتَعْرِضُ هذِهِ الأَقْسامُ الْخَمْسَةُ ضَوابِطَ الحُكْمِ عَلى الجُمَلِ لَفْظاً ومَعْنىً، والظّاهِرُ مِنْها أَنَّ سيبَوَيْهِ لَمْ يَعْرِضْ تِلْكَ الجُمَلَ عَلى الواقِعِ أَوْ ظُروفِ الخِطابِ لِيَقيسَ بِهِ مُطابَقَةَ مَعْناها لَهُ أَوْ عَدَمَ مُطابَقَتِها[6]، ولكِنَّهُ حَصَرَ الْقِسْمَةَ في ظاهِرِ الْكَلامِ وعَدَّ هذا الظّاهِرَ مِقْياسَ الحُكْمِ عَلى الْكَلامِ بالاسْتِقامَةِ أَوِ الاسْتِحالَةِ. وفَرَّعَ مِنْ هذا المِقْياسِ وَسائِلَ لِلْحُكْمِ، مِنْها مُراعاةُ التَّناسُبِ بَيْنَ دَلالاتِ الْكَلِمِ أَوْ

---

(1) ولكِنَّها قَريبَةٌ مِنْها. ولذلِكَ قَسَّمَها السّيوطِيُّ في قَوْلِهِ: «الحُكْمُ النَّحْوِيُّ يَنْقَسِمُ إلى واجِبٍ، ومَمْنوعٍ، وحَسَنٍ، وقبيحٍ، وخِلافِ الأَوْلى وجائِزٍ عَلى السَّواءِ»، جَلال الدّين السّيوطيّ، **الاقْتِراحُ في عِلْمِ أصولِ النَّحْوِ**، ضَبْط وتَصْحيح أحمد سليم الحمصي ومحمّد أحمد قاسِم، ط.1، نشر جروس برس، 1988، ص29.

(2) الْكِتاب،56/1.

(3) المَصْدَرُ نفسه، 189/4.

(4) المصدر نفسه، 25/1.

(5) عُرِّفَ المُحالُ بِأَنَّهُ الْكَلامُ لِغَيْرِ شَيْءٍ، والمُسْتَقيمُ الْكَلامُ لِشَيْءٍ، والْغَلَطُ الْكَلامُ لِشَيْءٍ لَمْ تُرِدْهُ، واللَّغْوُ الكَلامُ لِشَيْءٍ لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ. والْكَذِبُ كَلامٌ لِشَيْءٍ تغرُّ بِهِ. وأَحالَ الرَّجُلُ: أَتى بِالمُحالِ وتَكَلَّمَ بِهِ. انظر: ابن منظور، **لِسانُ الْعَرَب**، دار الفكر، بيروت، مادّة حول، 186/11.

(6) وقَدِ تَنَبَّهَ أَبو الحَسَنِ الأَخْفَشُ لهذا المِقْياسِ الضّابِطِ حينَ عَرَضَ الْكَلامَ عَلى المُتَكَلِّمِ المُخْبِرِ، فَوَجَدَ أَنَّ الْكَلامَ قَدْ يُطْلَقُ ويُرادُ بِهِ مَعْنىً غَيْرُ الذي جاءَ عَلَيْهِ. انْظُرْ **حاشِيَةَ مُحَقِّقِ كِتابِ سيبَوَيْهِ**، الكِتاب: 26/1، هامش1.

عَدَمِ التَّناسُبِ، ومُراعاةُ مُطابَقَةِ أَجْزاءِ الْكَلِمِ ورَوابِطِهِ اللَّفْظِيَّةِ بَعْضِها لِبَعْضٍ أَوْ عَدَمِ مُطابَقَتِها.

وجماعُ الْكَلامِ في ضَوابِطِ سيبَوَيْهِ أَنَّها **تَصْطَنِعُ مِنْ ظاهِرِ الْكَلامِ أَحْكامَها ولا تُجاوِزُهُ**[1].

إنَّ الْمُحالَ -نَحْو "أَتَيْتُكَ غَداً" و"سَآتيكَ أَمْسِ"- أَنْ تَنْقُضَ أَوَّلَ كَلامِكَ بِآخِرِهِ. والإحالَةُ عَدَمُ مُوافَقَةِ الأَوَّلِ لِلآخِرِ لَفْظاً ومَعْنىً، لأَنَّ خَصائِصَ المَعْنى الْقائِمَةَ في الأَلْفاظِ لا تَتَناسَبُ فيما بَيْنَها ولا تَأْتَلِفُ. يَقولُ **السِّيرافِيُّ** في شَرْحِ مَعْنى "الإحالَةِ" بِوصْفِها نَقْضاً "لِلتَّناسُبِ": «مَعْنى المُحالِ أَنَّهُ أُحيلَ عَنْ وَجْهِهِ المُسْتَقيمِ الذي بِهِ يُفْهَمُ المَعْنى إذا تُكُلِّمَ بِهِ. وزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ المُحالَ هُوَ اجْتِماعُ المُتَضادّاتِ كَالْقِيامِ والْقُعودِ... والْكَلامُ الْفاسِدُ... مِنْ قَوْلِ الْقائِلِ "أَتَيْتُكَ غَداً" كَلامٌ مَوْجودٌ عَلى ما فيهِ مِنْ الْفَسادِ والْخَلَلِ. والمُحالُ لا يوجَدُ. والذي نَقولُ في هذا [...] أَنَّ المُحالَ هُوَ الْكَلامُ الذي يوجِبُ اجْتِماعَ المُتَضادّاتِ. وقَوْلُنا: إنَّ الْقِيامَ والْقُعودَ اجْتِماعُهُما مُحالٌ، إنَّما نُريدُ بِهِ: الْكَلام الذي يوجِبُ اجْتِماعَهُما مُحالٌ قَدْ أُحيلَ عَنْ وَجْهِهِ. أَلا تَرى أَنَّكَ تَقولُ لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ: قَدْ أَحَلْتَ في كَلامِكَ. فَالْكَلامُ هُوَ المُحالُ، كَما أَنَّ الْكَلامَ هُوَ الْكَذِبُ»[2].

يَظْهَرُ مِنَ النَّصِّ أَنَّ الْكَلامَ هُوَ المَوْصوفُ بِالمُحالِ أَوِ الإحالَةِ لأَنَّهُ هُوَ الذي يوجِبُ اجْتِماعَ المُتَضادّاتِ. وهذا مَظْهَرٌ نَظَرِيٌّ مِنْ مَظاهِرِ تَصَوُّرِ الْعَدَمِ أَوْ غَيْرِ المُمْكِنِ، في اللِّسانِ.

([1]) يُمْكِنُ أَنْ نُجْرِيَ مُوازَناتٍ بَيْنَ ضَوابِطِ الْحُكْمِ عِنْدَ سيبَوَيْهِ وضَوابِطِ الْحُكْمِ في بَعْضِ أَنْظارِ اللِّسانِيّاتِ المُعاصِرَةِ. فَقَدْ مَيَّزَ رائدُ اللِّسانِيّاتِ التَّوْليدِيَّةِ (*N. Chomsky*) بَيْنَ الجُمَلِ الدّالَّةِ والجُمَلِ النَّحْوِيَّةِ، وبَيَّنَ أَنَّ جُمَلاً مّا قَدْ تَكونُ صَحيحَةً إعْراباً خاطِئَةً مَعْنىً، ومَيَّزَ بَيْنَ مُسْتَوى المَقْبولِيَّةِ ومُسْتَوى النَّحْوِيَّةِ، وذَهَبَ إلى أنّ المَقْبولِيَّةَ مَفْهومٌ يَتَّصِلُ بِدِراسَةِ الإنْجازِ، وأنّ النَّحْوِيَّةَ مَفْهومٌ يَتَّصِلُ بِدِراسَةِ القُدْرَةِ. انظُرْ:

- *N.Chomsky, 1957, Syntactic Structures, Tr. Fr : Stuctures Syntaxiques, Ed. du Seuil, Paris 1969- pp 15-20.*

- *N.Chomsky, 1965, Aspects of the Theory of Syntax, Tr. Fr. Aspects de la Théorie syntaxique, Ed. du Seuil, Paris, 1971, p23.*

كَما تَحَدَّثَ عَنْ دَرَجاتِ النَّحْوِيَّةِ في الجُمَلِ. أيْ دَرَجاتِ الانْحِرافِ التَّرْكيبِيِّ. وهذا ضَرْبٌ مِنَ الأَحْكامِ النَّظَرِيَّةِ عَلى الْجُمَلِ اللُّغَوِيَّةِ.

([2]) أبو سَعيدٍ السّيرافِيّ، **شَرْحُ كِتابِ سيبَوَيْهِ**، تَح. رَمَضان عَبد التَّوّاب ومحمود فَهْمي حِجازي ومحمّد هاشِم عَبد الدّايم، مَرْكَز تحقيق التّراث، ط. الهيئة المِصْرِيّة العامّة للكِتاب، 1986، 90/2.

ومُقْتَضى النَّظَرِ والقِسْمَةِ المَنْطِقِيَّةِ أَنَّ المَوْجودَ يُقابِلُهُ المُحالُ. وتَصَوُّرُ المُحالِ في اللُّغَةِ أَمْرٌ مُمْكِنٌ، وذلِكَ بِإيجادِ أَمْثِلَةٍ مَصْنوعَةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ.

أَمّا **المُسْتَقيمُ الكَذِبُ** فَنَحْو "حَمَلْتُ الجَبَلَ" و"شَرِبْتُ ماءَ الْبَحْرِ". واللَّفْظُ بِهذا الْكَلامِ يَدُلُّ عَلى كَذِبِ قائِلِهِ قَبْلَ التَّصَفُّحِ والْبَحْثِ، وإلاّ فَكُلُّ كَلامٍ تُكُلِّمَ بِهِ وكانَ مَخْبَرُهُ عَلى خِلافِ ما يوجِبُهُ مَظْهَرُهُ فَهُوَ كَذِبٌ عُلِمَ أَوْ لَمْ يُعْلَمْ[1]. ومَعْناهُ أَنَّ خِلافَ الظّاهِرِ كَذِبٌ لا حاجَةَ إلى عَرْضِهِ عَلى الْواقِعِ، ولا يُعْدَلُ عَنْ هذا الظّاهِرِ إلى تَأْويلِهِ وصَرْفِهِ عَنْ مَعْناهُ إلى مَعْنىً آخَرَ.

أَمّا **الْمُسْتَقيمُ الْقَبيحُ** فَهُوَ وَضْعُ اللَّفْظِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، نَحْو "قَدْ زَيْداً رَأَيْتُ" و"كَيْ زَيْداً يَأْتيكَ" [...] فَهُوَ مُسْتَقيمٌ مَعْنىً قَبيحٌ تَرْكيباً وتَرْتيباً، لأَنَّهُ خَرْقٌ لِقَيْدِ الاخْتِصاصِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ الكَلِمِ: «وإنَّما قَبُحَ هذا لأَنَّ مِنْ حُكْمِ "قَدْ" أَنْ يَلِيَها الْفِعْلُ ولا يُفارِقُها، فَقَبُحَ أَنْ يُفْصَلَ بَيْنَ "قَدْ" وبَيْنَ الْفِعْلِ بِالاسْمِ [...] فَإيلاؤُهُمْ إيّاها الاسْمَ وَضْعُ الْكَلامِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ»[2].

أَمّا المُحالُ الْكَذِبُ فَهُوَ الْكَلامُ المَنْقوضُ مِنْ جِهَتَيْنِ: عَدَم مُوافَقَةِ الأَوَّلِ لِلآخِرِ لَفْظاً فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَكونَ مُحالاً، وعَدَم مُطابَقَةِ أَجْزاءِ الْكَلامِ لِما يوجِبُهُ الظّاهِرُ مَعْنىً، فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَكونَ كَذِباً[3]. وقَدْ أَتى المِثالُ "سَوْفَ أَشْرَبُ ماءَ الْبَحْرِ أَمْسِ" الإحالَةُ «لاجْتِماعِ "سَوْفَ" و"أَمْسِ" فيهِ، وهُما يَتَناقَضانِ ويَتَعاقَبانِ. وأَمّا الكَذِبُ فيهِ فَإنّا لَوْ أَزَلْنا عَنْهُ "أَمْسِ" الذي يوجِبُ الْمُناقَضَةَ والإحالَةَ لَبَقِيَ كَذِباً...»[4]. إنَّ الْكَذِبَ هُوَ «الإخْبارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلافِ ما هُوَ بِهِ»[5]. و«المُحالُ قَدْ يَكونُ كَذِباً وغَيْرَ كَذِبٍ، غَيْرَ أَنَّ الذي يَجْمَعُ ذلِكَ كُلَّهُ تَناقُضُ اللَّفْظِ فيهِ»[6].

وقَدْ أَضافَ **أبو الحَسَنِ الأَخْفَشُ** قِسْماً سادِساً هُوَ الخَطَأُ، وهُوَ «ما لا تَعَمُّدَ فيهِ نَحْو قَوْلِكَ "ضَرَبَني زَيْدٌ" وأَنْتَ تُريدُ "ضَرَبْتُ زَيْداً" وهذا مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ مُسْتَقيمٌ، فَيُقالُ عَلى

(1) الْمَصْدَرُ نفسه (بِتَصَرُّفٍ): 91/2، الأَعْلَم الشَّنْتَمَرِيّ، **النُّكَتُ في تَفْسيرِ كِتابِ سيبَوَيْه**، تح. عَبْد المُحْسِن سُلْطان، نَشْر جامِعَةِ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ، 133/1.

(2) السَّيْرافِيّ، **شَرْحُ الكِتاب**: 92/2.

(3) وقَدْ عَرَّفَ أَبو الحَسَنِ الأَخْفَشُ المُحالَ بِأَنَّهُ «ما لا يَصِحُّ لَهُ مَعْنىً ولا يَجوزُ أَنْ تَقولَ فيهِ صِدْقٌ ولا كَذِبٌ لأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مَعْنىً...» (الأَعْلَم الشَّنْتَمَرِيّ: النُّكَت، 134/1).

(4) شَرْحُ السِّيرافِيّ، 2/92-93.

(5) الْمَصْدَرُ نفسه، 93/2.

(6) المصدر نفسه، 94/2.

قِياسِ ما مَضى "مُسْتَقيمٌ خَطأٌ"...»[1]. لكِنَّ سيبَوَيْهِ لَمْ يَذْكُرْ هذا الْقِسْمَ لأَنَّ لَفْظَهُ لا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ خَطأٌ وإِنَّما ظاهِرُهُ صَوابٌ. وقَدْ حَكى سيبَوَيْهِ أَقْساماً خَمْسَةً ظاهِرُها دالٌّ عَلى ما قُصِدَ بِها، ولا داعِيَ إِلى تَمَحُّلِ لَفْظٍ آخَرَ يُخالِفُ مَعْناهُ مَقاصِدَ المُتَكَلِّمِ بِهِ.

ب- نَماذِجُ مِنَ الأَحْكامِ: أَمّا وُقوعُ مِثْلِ الأَحْكامِ المُشارِ إِلَيْها أَعْلاهُ عَلى لِسانِ الْعَرَبِ أَوْ عَلى الأَمْثِلَةِ المَقيسَةِ عَلى لِسانِ الْعَرَبِ، فَإِنَّهُ يَتَجَلّى في أَبْوابٍ كَثيرَةٍ مِنَ الْكِتابِ. فَمِنْ أَحْكامِ سيبَوَيْهِ النَّحْوِيَّةِ أَنَّهُ يَقْبُحُ طَرْحُ الْهاءِ مِنْ جُمْلَةِ "أَعَبْدُ اللهِ إِنْ تَرَهُ تَضْرِبْهُ؟" لأَنَّها رابِطٌ لِلآخِرِ بِالأَوَّلِ[2]. و«مِمّا يَقْبُحُ بَعْدَهُ ابْتِداءُ الأَسْماءِ ويَكونُ الاسْمُ بَعْدَهُ إِذا أَوْقَعْتَ الْفِعْلَ عَلى شَيْءٍ مِنْ سَبَبِهِ نَصْباً في الْقِياسِ "إِذا" و"حَيْثُ"... يَقْبُحُ إِنِ ابْتَدَأْتَ الاسْمَ بَعْدَهُما إِذا كانَ بَعْدَهُ الْفِعْلُ...»[3]. ومَعْنى ذلِكَ أَنَّهُ يَقْبُحُ خَرْقُ الاخْتِصاصِ: لأَنَّ الاخْتِصاصَ في نَظَرِ النَّحْوِ اطِّرادٌ ونِظامٌ، وخَرْقُهُ قُبْحٌ وخَطأٌ.

ومِمّا لا يَحْسُنُ مِنَ اللَّفْظِ، أَنْ يُنْصَبَ الاسْمُ وقَدْ وَقَعَ الْفِعْلُ بَعْدَهُ مَشْغولاً بِضَميرِهِ، فَإِذا شُغِلَ الْفِعْلُ بِالضَّميرِ ارْتَفَعَ الاسْمُ قَبْلَهُ «وإِنَّما حَسُنَ أَنْ يُبْنى الْفِعْلُ عَلى الاسْمِ حَيْثُ كانَ مُعْمَلاً في الْمُضْمَرِ وشَغَلْتَهُ بِهِ، ولَوْلا ذلِكَ لَمْ يَحْسُنْ لأَنَّكَ لَمْ تَشْغَلْهُ بِشَيْءٍ... فَالنَّصْبُ عَرَبِيٌّ كَثيرٌ، والرَّفْعُ أَجْوَدُ»[4].

ومِمّا ضَعُفَ النُّطْقُ بِهِ ما كانَ فيهِ الْفَصْلُ بَيْنَ اسْمِ "إِنَّ" وخَبَرِها وإِنْ كانَ فيهِ مَعْنى الاخْتِصاصِ ما وَرَدَ في قَوْلِهِ: «زَعَمَ الْخَليلُ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ يَقولُ "إِنَّهُ المِسْكينُ أَحْمَقُ"، عَلى الإِضْمارِ الذي جازَ في "مَرَرْتُ" كَأَنَّهُ قالَ "إِنَّهُ هُوَ الْمِسْكينُ أَحْمَقُ". وهُوَ ضَعيفٌ. وجازَ هذا أَنْ يَكونَ فَصْلاً بَيْنَ الاسْمِ والخَبَرِ لأَنَّ فيهِ مَعْنى المَنْصوبِ»[5] ومِمّا قَبُحَ «أَنْ تَقولَ "مَرَرْتُ بِهِ وبِزَيْدٍ هُما" كَما قَبُحَ أَنْ تَصِفَ الْمُظْهَرَ والْمُضْمَرَ بِما لا يَكونُ إِلاّ وَصْفاً لِلْمُظْهَرِ. أَلا تَرى أَنَّهُ قَبيحٌ أَنْ تَقولَ "مَرَرْتُ بِزَيْدٍ وبِهِ الظَّريفَيْنِ". وإِنْ أَرادَ الْبَدَلَ قالَ "مَرَرْتُ بِهِ و بِزَيْدٍ بِهِما" لا بُدَّ مِنَ الْباءِ الثّانِيَةِ في الْبَدَلِ»[6]. ومِنْ أَحْكامِ عَدَمِ الجَوازِ أَنَّهُ لا يَجوزُ "يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِنَّكَ ذاهِبٌ"

---

(1) المصدر نفسه، 94/2، النُّكَت، 134/1.

(2) المصدر نفسه، 132/1.

(3) المصدر نفسه، 106/1-107.

(4) المصدر نفسه، 82/1-83.

(5) المصدر نفسه، 76/2.

(6) المصدر نفسه، 387/2.

ولا "كَيْفَ إِنَّكَ صانِعٌ؟" حَيْثُ لا يَجوزُ الابْتِداءُ بِإِنَّ في هذا المَوْضِعِ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ وَصْلٍ لا قَطْعٍ[1]. ومِنْ ذلِكَ أَنَّ المِثالَ «"أَشْهَدُ بِأَنَّكَ لَذاهِبٌ" غَيْرُ جائِزٍ مِنْ قِبَلِ أَنَّ حُروفَ الجَرِّ لا تُعَلَّقُ»[2]، أَيْ غَيْرُ جائِزٍ لِدُخولِ الْباءِ في غَيْرِ مَوْضِعِها، وهِيَ غَيْرُ مُعَلَّقَةٍ عَنِ الْعَمَلِ، ولِدُخولِ اللّامِ في خَبَرِ "أَنَّ".

ومِمّا ضَعُفَ النُّطْقُ بِهِ أَيْضاً لأَنَّهُ مَوْضوعٌ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُهُ: «"إِنَّ أَحَداً لا يَقولُ ذاكَ" وهُوَ ضَعيفٌ خَبيثٌ، لأَنَّ أَحَداً لا يُسْتَعْمَلُ في الْواجِبِ، وإِنَّما نَفَيْتَ بَعْدَ أَنْ أَوْجَبْتَ، ولكِنَّهُ قَد احْتُمِلَ حَيْثُ كانَ مَعْناهُ النَّفْي»[3]. فَهُوَ مِنَ التَّراكيبِ الضَّعيفَةِ لأَنَّ فيهِ خَرْقاً لِقَيْدِ الاسْتِعْمالِ، اسْتِعْمالِ "أَحَدٍ" في النَّفْيِ. فَأَمّا إِذا حُمِلَ عَلى مَعْنى النَّفْيِ جازَ.

ومِمّا قَبُحَ، ما جاءَ في «باب ما يَنْتَصِبُ لأَنَّهُ قَبيحٌ أَنْ يوصَفَ بِما بَعْدَهُ ويُبْنى عَلى ما قَبْلَهُ، وذلِكَ قَوْلُكَ "هذا قائِماً رَجُلٌ" و"فيها قائِماً رَجُلٌ" لَمّا لَمْ يَجُزْ أَنْ توصَفَ الصِّفَةُ بِالاسْمِ، وقَبُحَ أَنْ تَقولَ "فيها قائِمٌ" فَتَضَعَ الصِّفَةَ في مَوْضِعِ الاسْمِ، كَما قَبُحَ "مَرَرْتُ بِقائِمٍ" و"أَتاني قائِمٌ" جَعَلْتَ الْقائِمَ حالاً وكانَ المَبْنِيُّ عَلى الْكَلامِ الأَوَّلِ ما بَعْدَهُ... وحُمِلَ هذا النَّصْبُ عَلى جَوازِ "فيها رَجُلٌ قائِماً"، وصارَ حينَ أُخِّرَ، وَجْهَ الْكَلامِ، فِراراً مِنَ الْقُبْحِ»[4].

ومِمّا كُرِهَ اسْتِعْمالُهُ ولمْ يُسْتَحْسَنْ ما جاءَ مُخالِفاً لِلسَّماعِ وإِنْ وافَقَ الْقِياسَ بِوَجْهٍ، نَحْو: «"قائِماً فيها رَجُلٌ". فَإِنْ قالَ قائِلٌ: أَجْعَلُهُ بِمَنْزِلَةِ "راكِباً مَرَّ زَيْدٌ" و"راكِباً مَرَّ الرَّجُلُ"، قيلَ لَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ في الْقِياسِ، لأَنَّ "فيها" بِمَنْزِلَةِ "مَرَّ"، ولكِنَّهُمْ كَرِهوا ذلِكَ فيما لَمْ يَكُنْ مِنَ الْفِعْلِ؛ لأَنَّ "فيها" وأَخَواتِها لا يَتَصَرَّفْنَ تَصَرُّفَ الْفِعْلِ ولَيْسَ بِفِعْلٍ، ولكِنَّهُنَّ أُنْزِلْنَ مَنْزِلَةَ ما يَسْتَغْني بِهِ الاسْمُ مِنَ الْفِعْلِ، فَأَجْرِهِ كَما أَجْرَتْهُ الْعَرَبُ واسْتَحْسَنَتْ. ومِنْ ثَمَّ صارَ "مَرَرْتُ قائِماً بِرَجُلٍ" لا يَجوزُ لأَنَّهُ صارَ قَبْلَ الْعامِلِ في الاسْمِ و لَيْسَ بِفِعْلٍ، والعامِلُ الْباءُ [...] فَإِنْ قالَ: أَقولُ "مَرَرْتُ بِقائِماً رَجُلٍ" فَهذا أَخْبَثُ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لا يُفْصَلُ بَيْنَ الْجارِّ والمَجْرورِ ومِنْ ثَمَّ أُسْقِطَ "رُبَّ قائِماً رَجُلٍ". فَهذا كَلامٌ قَبيحٌ ضَعيفٌ. فَاعْرِفْ قُبْحَهُ فَإِنَّ إِعْرابَهُ يَسيرٌ. ولَوِ اسْتَحْسَنّاهُ لَقُلْنا: هُوَ بِمَنْزِلَةِ "فيها قائِماً رَجُلٌ". ولكِنَّ مَعْرِفَةَ قُبْحِهِ أَمْثَلُ مِنْ إِعْرابِهِ»[5].

---

(1) نفسه، 145/3.

(2) نفسه، 147/3.

(3) نفسه، 318/2.

(4) نفسه، 122/2.

(5) نفسه، 124/2.

- **ومِمَّا يَقْبُحُ اسْتِعْمالُهُ** ما زَعَمَهُ يونُسُ أَنَّ «مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقولُ "إِنْ لا صالِحٍ فَطالِحٍ" عَلى: "إِنْ لا أَكُنْ مَرَرْتُ بِصالِحٍ فَبِطالِحٍ"؛ وهذا قَبيحٌ ضَعيفٌ لأَنَّكَ تُضْمِرُ بَعْدَ "إِنْ لا" فِعْلاً آخَرَ فيهِ حَذْفٌ غَيْرَ الذي تُضْمِرُ بَعْدَ "إِنْ لا" في قَوْلِكَ "إِنْ لا أَكُنْ صالِحاً فَطالِحٌ"، ولا يَجوزُ أَنْ يُضْمَرَ الجارُّ، ولكِنَّهُمْ لَمَّا ذَكَروهُ في أَوَّلِ كَلامِهِمْ شَبَّهوهُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْفِعْلِ»[1].

- **ومِمَّا فيهِ حُكْمٌ عَلى اللَّفْظِ بِالْقُبْحِ لِعَدَمِ وُجودِهِ في كَلامِ الْعَرَبِ** أَنْ يُقالَ: «إِنْ بَدَأَ بِالْمُخاطَبِ قَبْلَ نَفْسِهِ فَقالَ "أَعْطاكَني" أَوْ بَدَأَ بِالْغائِبِ قَبْلَ نَفْسِهِ فَقالَ "أَعْطاهوني"، فَهُوَ قَبيحٌ لا تَكَلَّمُ بِهِ الْعَرَبُ، ولكِنَّ النَّحْوِيّينَ قاسوهُ، وإِنَّما قَبُحَ عِنْدَ الْعَرَبِ كَراهِيَةَ أَنْ يَبْدَأَ الْمُتَكَلِّمُ في هذا الْمَوْضِعِ بِالأَبْعَدِ قَبْلَ الأَقْرَبِ، ولكِنْ تَقولُ "أَعْطاكَ إِيّايَ" و"أَعْطاهُ إِيّايَ"، فَهذا كَلامُ الْعَرَبِ، وجَعَلوا "إِيّا" تَقَعُ هذا الْمَوْقِعَ إِذْ قَبُحَ عِنْدَهُمْ كَما قالوا "إِيّاكَ رَأَيْتُ" و"إِيّايَ رَأَيْتَ" إِذْ لَمْ يَجُزْ عِنْدَهُمْ "ني رَأَيْتَ" ولا "كَ رَأَيْتُ"»[2].

فَاللَّفْظُ بِالْمِثالِ "أَعْطاهوني" «قَبيحٌ» لِعَدَمِ وُجودِهِ في كَلامِ الْعَرَبِ لأَنَّ فيهِ بَدْءاً بِخِطابِ الأَبْعَدِ قَبْلَ الأَقْرَبِ، وهُوَ أَمْرٌ مُمْكِنٌ تَصَوُّراً ونَظَراً ولكِنَّهُ مُسْتَحيلٌ اسْتِعْمالاً. وقِياسُ النَّحْوِيّينَ -نَظَرِيّاً- قَدْ يُصيبُ الْمَسْموعَ وقَدْ يُخْطِئُهُ.

ومِمَّا يَظْهَرُ فيهِ الحُكْمُ النَّحْوِيُّ جَلِيّاً بابٌ مِنَ النَّكِرَةِ «اسْتَكْرَهَهُ النَّحْوِيّونَ وهُوَ قَبيحٌ فَوَضَعوا الْكَلامَ فيهِ عَلى غَيْرِ ما وَضَعَتِ الْعَرَبُ. وذلِكَ قَوْلُكَ "وَيْحٌ لَهُ وتَبٌّ" و"تَبّاً لَكَ ووَيْحاً". فَجَعَلوا التَّبَّ بِمَنْزِلَةِ الْوَيْحِ، وجَعَلوا وَيْحٌ بِمَنْزِلَةِ التَّبِّ، فَوَضَعوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما عَلى غَيْرِ الْمَوْضِعِ الذي وَضَعَتْهُ الْعَرَبُ... فَأَمّا النَّحْوِيّونَ فَيَجْعَلونَها بِمَنْزِلَةِ "وَيْحٍ" ولا تُشْبِهُها، لأَنَّ "تَبّاً" تَسْتَغْني عَنْ "لَكَ" ولا تَسْتَغْني "وَيْحٌ" عَنْها»[3].

يُعَدُّ هذا الْبابُ *تَصَرُّفاً نَظَرِيّاً مِنَ النُّحاةِ مَعْقوداً لِذِكْرِ خَرْقِ النّاظِرِ لأَوْضاعِ الْواضِعِ،* وفيهِ وَضْعٌ لِلْكَلامِ في غَيْرِ مَواضِعِهِ وتَحَكُّمٌ لا مُسَوِّغَ لَه. فَقَدْ جَمَعوا بَيْنَ شَيْئَيْنِ لا تَجْمَعُ بَيْنَهُما الْعَرَبُ وهُما "وَيْحٌ لَكَ"، وما شابَهَهُ مِمّا يَكْثُرُ رَفْعُهُ في كَلامِهِمْ. ثُمَّ "تَبّاً لَكَ" والاخْتِيارُ نَصْبُهُ في كَلامِهِمْ. فَإِنْ جَمَعوا بَيْنَهُما فَقَدَّموا الذي يَسْتَحِقُّ الرَّفْعَ حَمَلوا الثّاني عَلَيْهِ وكانَ

---

(1) المصدر نفسه، 262/1-263.

(2) المصدر نفسه، 363/2-364.

(3) المصدر نفسه، 334/1، النُّكت، 376/1.

يَسْتَحِقُّ النَّصْبَ. و إنْ قَدَّموا الْمُسْتَحِقَّ لِلنَّصْبِ أَتْبَعوهُ الْمُسْتَحِقَّ لِلرَّفْعِ فَنَصَبوهُ. أَمّا **سيبَوَيْه** فَإِنَّهُ يَخْتارُ أَنْ يُحْمَلَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما على وَجْهٍ إذا أُفْرِدَ.

مِنْ صِفاتِ النَّظَرِ تَصَوُّرُ الْمُحالِ:

مِنْ أَبْرَزِ نَماذِجِ الحُكْمِ النَّحْوِيِّ التي وَرَدَتْ مَبْثوثَةً في الْكِتابِ وخُصَّتْ مِنْ قَبْلُ بِالْعِنايَةِ في «بابِ الاسْتِقامَةِ مِنَ الْكَلامِ والإحالَةِ» الحُكْمُ بِالْمُحالِ. وحَصيلَةُ تَصَوُّرِ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ لِمَراتِبِ الْوُجودِ أَنَّ إمْكانَ الْوُجودِ يَقْتَضي في التَّصَوُّرِ إمْكانَ الْعَدَمِ، لأَنَّ الشَّيْءَ يَسْتَلْزِمُ ضِدَّهُ. ولكِنَّ الْواقِعَ يَنْفي ذلِكَ ولا يُتيحُ إلاّ إمْكاناً واحِداً، وإنْ أَتاحَ الإمْكانَيْنِ فَفي ظُروفٍ مُخْتَلِفَةٍ. وهُناكَ حالَةٌ يُتَصَوَّرُ فيها جَوازُ الْوُجودِ وجَوازُ الْعَدَمِ، وهِيَ أَنَّ الاسْتِعْمالَ اللُّغَوِيَّ قَدْ يُمْنَعُ ويَقْبُحُ، فَهُوَ في حُكْمِ الْقَواعِدِ مَعْدومٌ، ولكِنَّهُ في حُكْمِ الاضْطِرارِ مَوْجودٌ، إذا وَرَدَ بِهِ الاسْتِعْمالُ في الرُّخَصِ والضَّرائِرِ. يَقولُ **سيبَوَيْه** عَنِ الأَفْعالِ المُضارِعَةِ: «ويُبَيِّنُ لَكَ أَنَّها لَيْسَتْ بِأَسْماءٍ أَنَّكَ لَوْ وَضَعْتَها مَواضِعَ الأَسْماءِ لَمْ يَجُزْ ذلِكَ، أَلا تَرى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ "إنَّ يَضْرِبَ يَأْتينا" وأَشْباهَ هذا لَمْ يَكُنْ كَلاماً»[1]، «لمْ يُسَكِّنوا آخِرَ "فَعَلَ" [...] كَما لَمْ يُسَكِّنوا مِنَ الأَسْماءِ ما ضارَعَ المُتَمَكِّنَ [...] والوَقْفُ قَوْلُهُمْ "اِضْرِبْ" في الأَمْرِ، لَمْ يُحَرِّكوها [...] ولا ضَمَّ في الْفِعْلِ [...]»[2]. وتُعَدُّ أَحْكامُ السَّلْبِ أَوْ نَفْيِ الْوُجودِ صيغَةً نَظَرِيَّةً تَرْسُمُ الحُدودَ حَوْلَ الْوُجودِ أَوِ الْواقِعِ اللُّغَوِيِّ الصَّحيحِ، وتَضْبِطُ الْكَلامَ وتَفْتَرِضُ وُجودَ "غَيْرِ الْكَلامِ" أَيْ تَرْسُمُ حُدوداً فاصِلَةً بَيْنَ "الْكَلامِ" و"غَيْرِ الْكَلامِ" وتَتَصَوَّرُ المُحالَ مَخافَةَ وُقوعِ المُتَكَلِّمِ فيهِ.

والظّاهِرُ أَنْ **سيبَوَيْه** اتَّخَذَ لِتَصَوُّرِ المُحالِ والحُكْمِ عَلى الْكَلامِ أُسُساً كَثيرَةً مِنْها:

- الاعْتِمادُ عَلى الْوَصْفِ النَّحْوِيِّ[3] في فَهْمِ المادَةِ اللُّغَوِيَّةِ وتَقْديمِها.
- اتِّخاذُ السَّماعِ مَصْدَراً أَوَّلَ في بِناءِ النَّحْوِ.
- تَتَبُّعُ سَنَنِ الْعَرَبِ وسُنَنِها في كَلامِها[4].
- اِلْتِزامُ الأَصْلِ وكَراهِيةُ تَرْكِهِ[5].
- بِناءُ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ عَلى الْعامِلِيَّةِ والإعْرابِ.

---

(1) الكِتاب، 14/1.

(2) المصدر نفسه، 1/16-17.

(3) المصدر نفسه، 102/2.

(4) المصدر نفسه، 124/2.

(5) المصدر نفسه، 217/2.

- تَرْجيحُ مَعْرِفَةِ الْقُبْحِ قَبْلَ مَعْرِفَةِ الإِعْرابِ إذا كانَ الإِعْرابُ يَسيراً[1].

ومِنْ بابِ تَصَوُّرِ غَيْرِ المُمْكِنِ تَصَوُّرُ الْمُسْتَكْرَهِ مِنَ الْكَلامِ الذي لا يُتَكَلَّمُ بِهِ، وذلِكَ كَجَعْلِ ضَميرِ الْفَصْلِ صِفَةً لِلْمُظْهَرِ. «وقَدْ زَعَمَ ناسٌ أَنَّ "هُوَ" [في المِثالِ "كانَ عَبْدُ اللهِ هُوَ الظَّريفَ"] هُنا صِفَةٌ، وكَيْفَ يَكونُ صِفَةً ولَيْسَ مِنَ الدُّنْيا عَرَبِيٌّ يَجْعَلُها هاهُنا صِفَةً لِلْمُظْهَرِ. ولَوْ كانَ ذلِكَ كَذلِكَ لَجازَ "مَرَرْتُ بِعَبْدِ اللهِ هُوَ نَفْسِهِ"، فَهُوَ هاهُنا مُسْتَكْرَهَةٌ لا يَتَكَلَّمُ بِها الْعَرَبُ لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَواضِعِها عِنْدَهُمْ»[2].

ومِنْ بابِ تَصَوُّرِ المُحالِ أَيْضاً «بابٌ لا يَكونُ فيهِ الْمُسْتَثْنى فيه إلاّ نَصْبًا [...] وذلِكَ نَحْو "أَتاني القَوْمُ إلاّ أَباكَ"... وإنَّما مَنَعَ الأبَ أَنْ يَكونَ بَدَلاً مِنَ الْقَوْمِ أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ "أَتاني إلاّ أَبوكَ" كانَ مُحالاً»[3]. ومِنْ ذلِكَ أَنَّكَ «لَوْ قُلْتَ "ما زَيْدٌ عَلى قَوْمِنا ولا عِنْدَنا" كانَ النَّصْبُ لَيْسَ غَيْرُ، لأَنَّهُ لا يَجوزُ حَمْلُهُ عَلى "عَلى". أَلا تَرى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ [...]"ولا عَلى عِنْدِنا" لَمْ يَكُنْ، لأَنَّ "عِنْدَنا" لا تُسْتَعْمَلُ إلاّ ظَرْفاً [...] وتَقولُ" أَخَذْتَنا بِالْجَوْدِ وفَوْقَهُ"، لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلامِهِمْ "وبِفَوْقِهِ"...»[4] ومِنْهُ «أَنَّ قَوْلَهُمْ "رَبِحْتُ الدِّرْهَمَ دِرْهَماً" مُحالٌ، حَتّى تَقولَ "في الدِّرْهَمِ" و"لِلدِّرْهَمِ"...»[5].

ومِمّا يوقِعُ في المُحالِ الاحْتِفاءُ بِالإِعْرابِ ولَوْ أُهْمِلَ المَعْنى «فَإِنَّ النَّحْوِيّينَ مِمّا يَتَهاوَنونَ بِالخَلْفِ إذا عَرَفوا الإِعْرابَ. وذلِكَ أَنَّ رَجُلاً مِنْ إِخْوانِكَ ومَعْرِفَتِكَ لَوْ أَرادَ أَنْ يُخْبِرَكَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ بِأَمْرٍ فَقالَ "أَنا عَبْدُ اللهِ مُنْطَلِقاً" و"هُوَ زَيْدٌ مُنْطَلِقاً" كانَ مُحالاً؛ لأَنَّهُ إِنَّما أَرادَ أَنْ يُخْبِرَكَ بِالانْطِلاقِ ولَمْ يَقُلْ "هُوَ" ولا "أَنا" حَتّى اسْتَغْنَيْتَ أَنْتَ عَنِ التَّسْمِيَةِ، لأَنَّ "هُوَ" و"أَنا" عَلامَتانِ لِلْمُضْمَرِ، وإِنَّما يُضْمِرُ إذا عَلِمَ أَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ مَنْ يَعْني...»[6].

---

(1) المصدر نفسه، 124/2. هُناكَ أُسُسٌ أُخرى كَثيرَةٌ يُمْكِنُ اسْتِخْراجُها مِنْ مَنْهَجِ سيبَوَيْهِ وطَريقَتِهِ في النَّظَرِ في المادَّةِ اللُّغَوِيَّةِ. يُنْظَرُ على سَبيلِ المِثالِ: مَحْمود سُلَيْمان ياقوت: **التَّراكيبُ غَيْرُ الصَّحيحَةِ نَحْوِياً في كِتابِ سيبَوَيْهِ**، ص:42...46.

(2) الكِتاب، 390/2-391.

(3) المَصْدَرُ نفسه، 331/2.

(4) المصدر نفسه، 68/1.

(5) المصدر نفسه، 395/1.

(6) المصدر نفسه، 80/2-81.

ومِمَا يَحْتَمِلُ المُحالَ والإمْكانَ قَوْلُنا «"مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حِمارٍ"، فَهُوَ عَلى وَجْهٍ مُحالٌ وعَلى وَجْهٍ حَسَـنٌ. فَأمّا المُحالُ فَأَنْ تَعْنِيَ أَنّ الرَّجُلَ حِمارٌ. وأمّا الذي يَحْسُـنُ فَهُوَ أَنْ تَقولَ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ" ثُمَّ تُبْدِلُ مَكانَ الرَّجُلِ فَتَقولُ "حِمارٍ"»[1].

مِنْ صِفاتِ النَّظَرِ: التَّمْثيلُ الذي لا يُتَكَلَّمُ بِهِ:

تُعَدُّ الأَمْثِلَةُ المَضْروبَةُ في الْكِتابِ أَمْثِلَةً صورِيَّةً يُرادُ بِها أَلْفاظُها. وهِيَ بَسيطَةٌ يَتَحَرّى فيها النّاظِرُ أَعْلى دَرَجاتِ **التَّبْسيطِ لِيَصْرِفَ الذِّهْنَ إلى مَحَلِّ التَّمْثيلِ فيها، ولا تَتَضَمَّنُ أَوْجُهاً اسْتِدْلالِيَّةً أُخْرى مِنَ المَعْنى تَسْتَرْعي الاهْتِمامَ**[2]. ومِنَ الأَمْثِلَةِ عَلى ذلِكَ "كُلَّ رَجُلٍ يَأْتيكَ فَاضْرِبْ"[3] وهُوَ مِثالٌ مَقيسٌ عَلى "كُلّ رَجُلٍ صالِحٍ فاضْرِبْ". فَقَدْ جيءَ بِالْمِثالِ مُجَرَّداً عَنْ كُلِّ سِياقٍ ومَقامٍ لِيَسْهُلَ بَيانُ الأَسْبابِ التَّرْكيبِيَّةِ الْقائِمَةِ فيهِ. والأَمْثِلَةُ بِهذا المَعْنى أَداةٌ يَتَوَسَّلُ بِها النّاظِرُ لِوَضْعِ الْقاعِدَةِ أَوْ تَفْسيرِ الْكَلامِ. وهِيَ غَيْرُ مُرادَةٍ لِذاتِها، وإِنَّما المُرادُ مِنْها الْبَرْهَنَةُ عَلى الْقَضايا. ولِهذِهِ الاعْتِباراتِ تَسْتَوي الشَّواهِدُ والأَمْثِلَةُ في قابِلِيَّةِ الصِّياغَةِ الصّورِيَّةِ. فَلَمْ يَعُدْ في الشَّواهِدِ مِنْ كَلامِ الْعَرَبِ إلاّ ما يَراهُ النّاظِرُ مِمّا هُوَ قائِمٌ في المِثالِ الصّورِيِّ، ويُظَنُّ أَنْ لَيْسَ في الشّاهِدِ إلاّ ما تُريكَ الأَمْثِلَةُ.

إنّ التَّمْثيلَ كَلامٌ لِلنّاظِرِ، يُفَسِّرُ بِهِ كَلامَ الْواضِعِ لِيَسْتَقيمَ لَهُ إِعْرابُهُ ووَصْفُهُ ووَضْعُهُ في نِظامِهِ. وقَدْ يُسْتَغْرَقُ بِالمِثالِ في عُمْقٍ نَظَرِيٍّ يَصِلُ بِهِ صاحِبُهُ إلى أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُ كَلاماً يُمَثَّلُ بِهِ ولا يُتَكَلَّمُ بِهِ. ومِنَ الأَمْثِلَةِ عَلى ذلِكَ: «تَقولُ "أَعَبْدُ اللهِ ضَرَبَ أَخوهُ غُلامَهُ"... فَيَصيرُ هذا تَفْسيراً لِشَيْءٍ رَفَعَ "عَبْدَ اللهِ" لأَنَّهُ يَكونُ موقِعاً الْفِعْلَ بِما يَكونُ مِنْ سَبَبِهِ... كَأَنَّهُ قالَ في التَّمْثيلِ وإِنْ لَمْ يُتَكَلَّمْ بِهِ "أَعَبْدُ اللهِ أَهانَ غُلامَهُ" أَوْ "عاقَبَ غُلامَهُ"، أَوْ صارَ في هذِهِ الْحالِ عِنْدَ السّائِلِ وإِنْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ فُسِّرَ»[4].

---

(1) المصدر نفسه، 439/1.

(2) دَأَبَ النُّحاةُ عَلى تَحْويلِ كَلامِ الْعَرَبِ وشَواهِدِهِمْ بَعْدَ النَّظَرِ فيها إلى أَمْثِلَةٍ تُناسِبُ مَطالِبَ النَّظَرِ. وهذا الإشْكالُ قَريبٌ مِنْ إِشْكالِ التَّمْثيلِ في اللِّسانِيّاتِ المُعاصِرَةِ. فَقَدْ كانَ هُناكَ مَيْلٌ في "لا شُعورِ" اللّسانِيّينَ الغَرْبِيّينَ إلى التَّمْثيلِ بِضَرْبٍ مِنَ الأَمْثِلَةِ "كَأَكْلِ التُّفّاحِ". وقَد «اعْتُبِرَ التُّفّاحُ فاكِهَةً دينِيَّةً لاهوتِيَّةً أَثَّرَتْ في التَّأَمُّلاتِ اللِّسانِيَّةِ والمَنْطِقِيَّةِ اللِّسانِيَّةِ، كَما هُوَ الشَّأْنُ عِنْدَ (R.THON , Quine , N.Chomsky) . وقَدْ عَرَضَ (Bloomfield) نَظَرِيَّتَهُ السُّلوكِيَّةَ بِالأَمْثِلَةِ المصدر نفسها. يُنْظَرُ في هذا المَوْضوعِ:

F.Gadet et M.Pecheux, 1981, La Langue Introuvable. ed Maspéro, Paris, 1981

(3) الكِتاب، 136/1.

(4) المصدر نفسه، 103/1.

وعِنْدَما يَزْعُمُ النّاظِرُ النَّحْوِيُّ أنَّ المُتَكَلِّمَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِمِثْلِ هذِهِ الْعِباراتِ المُقَدَّرَةِ المَصْنوعَةِ فَلأنَّهُ قَلَّدَ الْواضِعَ في ابْتِداعِ الْكَلامِ وصَنْعَةِ اللِّسانِ، مَعَ ما بَيْنَ الصُّنْعَيْنِ مِنْ فَوارِقَ، ونَسَبَ المُتَكَلِّمَ إلى التَّشْبيهِ بِمَنْ تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وما هُوَ بِمُتَكَلِّمٍ بِهِ ولكِنَّهُ ادِّعاءٌ عَلَيْهِ وادِّعاءُ النُّطْقِ بِهِ زَعْمٌ نَظَرِيٌّ. ويَتِمُّ الْوَضْعُ المُدَّعى بِتَبْسيطِ المِثالِ المَزْعومِ الذي لا يُتَكَلَّمُ بِهِ واخْتِزالِ مُفْرَداتِهِ، وذلِكَ لِلتَّرْكيزِ عَلى الإشْكالِ النَّظَرِيِّ المَدْروسِ والإشْكالُ في المِثالِ السّالِفِ عامِلِيٌّ وهُوَ: لِمَ ارْتَفَعَ ما بَعْدَ أَلِفِ الاسْتِفْهامِ أَوِ انْتَصَبَ: «وإِنْ جَعَلْتَ الغُلامَ في مَوْضِعِ "زَيْدٍ" حينَ رَفَعْتَ زَيْداً نَصَبْتَ فَقُلْتَ "أَعَبْدَ اللهِ ضَرَبَ أخاهُ غُلامُهُ؟" فَجَرى مجْرى "أعَبْدَ الله ضَرَبَه زَيْدٌ"، كَأَنَّهُ في التَّمْثيلِ تَفْسيرٌ لِقَوْلِهِ "أَعَبْدَ اللهِ ضَرَبَ أخاهُ غُلامُهُ" [...]»[1].

ويُعَدُّ التَّمْثيلُ غَيْرُ المُسْتَعْمَلِ ضَرْباً مِنَ الْعِباراتِ يُؤْتى بِهِ لِلتَّفْسيرِ والتَّقْريبِ ولِوَصْفِ المَعْنى. ومِنْ ذلِكَ ما وَرَدَ في وَصْفِ قَوْلِ الشّاعِرِ :

فَلأْياً بِلأْيٍ ما حَمَلْنا وَليدَنا /// عَلى ظَهْرِ مَحْبوكٍ ظِماءٍ مَفاصِلُهْ

«كَأَنَّهُ يَقولُ "حَمَلْنا وَليدَنا لأْياً بِلأْيٍ"، كَأَنَّهُ يَقولُ "حَمَلْناهُ جهْداً بَعْدَ جهْدٍ"، هذا لا يُتَكَلَّمُ بِهِ ولكِنَّهُ تَمْثيلٌ»[2]. و«زَعَمَ **الخَليلُ**... حَيْثُ مَثَّلَ نَصْبَ "وَحْدَهُ" و"خَمْسَتَهُمْ"، أَنَّهُ كَقَوْلِكَ "أَفْرَدْتُهُمْ إفْراداً"، فَهذا تَمْثيلٌ ولكِنَّهُ لَمْ يُسْتَعْمَلْ في الْكَلامِ»[3]. وهذا ضَرْبٌ مِنْ تَفْسيرِ عِبارَةِ الحالِ بِغَيْرِ الحالِ.

ومِنْهُ «"مَرَرْتُ بِهِمْ قاطِبَةً" و"مَرَرْتُ بِهِمْ طُرّاً" أَيْ جَميعاً [...] كَأَنَّهُ قالَ: "مَرَرْتُ بِهِمْ جَميعاً". فَهذا تَمْثيلٌ وإنْ لَمْ يُتَكَلَّمْ بِهِ...»[4]. ومِنْهُ «"دَفَعْتُ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ" عَلى قَوْلِكَ: "دَفَعَ النّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً"، ودُخولُ الْباءِ ههُنا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ "أَلْزَمْتُ"، كَأَنَّكَ قُلْتَ في التَّمْثيلِ "أَدْفَعْتُ"، كَما أَنَّكَ تَقولُ "ذَهَبْتَ مِنْ عِنْدِنا" و"أَذْهَبْتَهُ مِنْ عِنْدِنا"...»[5]. ومِنْهُ تَقْديرُ المُضْمَرِ وإِظْهارُهُ في آنٍ واحِدٍ: «ومِنْ ذلِكَ أَنْ تَقولَ "نَفْسَكَ يا فُلانُ" أَيْ "اِتَّقِ نَفْسَكَ"، إلاّ أَنَّ هذا لا يَجوزُ فيهِ إظْهارُ ما أَضْمَرْتَ، ولكِنْ ذَكَرْتُهُ لأُمَثِّلَ لَكَ ما لا يُظْهَرُ إضْمارُهُ»[6].

---

(1) المصدر نفسه، 103/1.

(2) المصدر نفسه، 371/1.

(3) المصدر نفسه، 374/1.

(4) المصدر نفسه، 375/1-376.

(5) المصدر نفسه، 153/1.

(6) المصدر نفسه، 273/1.

ومِمّا يَسْـتَبيحُ النّاظِرُ اسْـتِعْمالَهُ عَلى وَجْـهِ التَّمْثيلِ وهُوَ مُمْتَنِعٌ، ما جاءَ في بابِ ما يَنْصَـرِفُ حَيْثُ يَقولُ سـيبَوَيْهِ: «كُلُّ "أفْعَلٍ" يَكونُ وَصْـفاً لا تَصْـرِفُهُ في مَعْرِفَةٍ ولا نَكِرَةٍ، وكُلُّ "أَفْعَل" اسْـماً تَصْـرِفُهُ في النَّكِرَةِ. قُلْتَ: فَكَيْفَ تَصْـرِفُهُ وقَدْ قُلْتَ لا تَصْـرِفُهُ؟ قالَ: لأَنَّ هذا مِثالٌ يُمَثَّلُ بِهِ»[1]. ومِنْ ذلِكَ «"ما أَحْسَـنَ عَبْدَ اللّهِ"، زَعَمَ **الخَليلُ** أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ "شَـيْءٌ أَحْسَـنَ عَبْدَ اللّهِ"، ودَخَلَهُ مَعْنى التَّعَجُّبِ وهذا تَمْثيلٌ ولَمْ يُتَكَلَّمْ بِهِ»[2]. ومِنْهُ قَوْلُهُ: «فَإِنْ قُلْتَ "زَيْدٌ مَرَرْتُ بِهِ" فَهُوَ مِنَ النَّصْبِ أَبْعَدُ مِنْ ذلِكَ... فَصارَ كَقَوْلِكَ "زَيْدٌ لَقيتُ أَخاهُ"، وإِنْ شِـئْتَ قُلْتَ "زَيْداً مَرَرْتُ بِهِ"، تُريدُ أَنْ تُفَسِّـرَ بِهِ مُضْـمَراً كَأَنَّكَ قُلْتَ إذا مَثَّلْتَ ذلِكَ "جَعَلْتُ زَيْداً عَلى طَريقي مَرَرْتُ بِهِ" ولكِنَّكَ لا تُظْهِرُ هذا الأَوَّلَ [...] وإذا نَصَـبْتَ "زَيْداً لَقيتُ أَخاهُ" فَكَأَنَّهُ قالَ "لابَسْتُ زَيْداً لَقيتُ أَخاهُ"، وهذا تَمْثيلٌ ولا يُتَكَلَّمُ بِهِ [...]»[3].

ومِمّا يُضْـمَرُ لأَنَّهُ يُفَسِّـرُهُ ما بَعْدَهُ ولا يَكونُ في مَوْضِـعِهِ مُظْهَرٌ قَوْلُ الْعَرَبِ "إِنَّهُ كِرامٌ قَوْمُكَ" و"إِنَّهُ ذاهِبَةٌ أَمَتُكَ" [...] كَأَنَّهُ في التَّقْديرِ -وإِنْ كانَ لا يُتَكَلَّمُ بِهِ- قالَ "إِنَّ الأَمْرَ ذاهِبَةٌ أَمَتُكَ"...»[4].

ومِنَ التَّمْثيلِ الذي لا يُتَكَلَّمُ بِهِ الْعُدولُ عَنِ اتِّصـالِ الضَّـميرِ إلى الانْفِصـالِ إذا تَأَتّى الاتِّصالُ، وهُوَ جائِزٌ في التَّمْثيلِ ويَقْبُحُ في الْكَلامِ[5].

ومِمّا يَقْبُحُ الْكَلامُ بِهِ ولكِنَّ النَّحْوِيّينَ قاسوهُ لأَنَّهُ تَمْثيلٌ، أَنْ يَبْدَأَ الْمُتَكَلِّمُ بِالْمُخاطَبِ قَبْلَ نَفْسِـهِ فَيَقولَ "أَعْطاكَني" أَوْ يَبْدَأَ بِالْغائِبِ قَبْلَ نَفْسِـهِ فَيَقولَ "أَعْطاهوني"... «وإِنَّما قَبُحَ عِنْدَ الْعَرَبِ كَراهِيَةَ أَنْ يَبْدَأَ الْمُتَكَلِّمُ في هذا الْمَوْضِـعِ بِالأَبْعَدِ قَبْلَ الأَقْرَبِ [...] وأَمّا قَوْلُ النَّحْوِيّينَ: "قَدْ أَعْطاهوكَ وأَعْطاهوني" فإِنَّما هُوَ شَـيْءٌ قاسـوهُ ووَضَـعوا الْكَلامَ في غَيْرِ مَوْضِـعِهِ...»[6]. ومِثْلُهُ ما جاءَ في «باب ما يَنْتَصِـبُ لأَنَّهُ لَيْسَ مِن اسْـمِ ما قَبْلَهُ ولا هُوَ هُوَ، وذلِكَ قَوْلُكَ: "هُوَ ابْنُ عَمّي دِنْياً" و"هُوَ جاري بَيْتَ بَيْتَ"، فَهذِهِ أَحْوالٌ قَدْ وَقَعَ في كُلِّ واحِدٍ مِنْها شَـيْءٌ... ومِثْلُ ذلِكَ "هذا عَرَبِيٌّ حَسْبَهُ" جَعَلَهُ بِمَنْزِلَةِ الدِّنْيِ والْوَزْنِ، كَأَنَّهُ قالَ "هُوَ عَرَبِيٌّ اكْتِفاءً". فَهذا تَمْثيلٌ

---

(1) المصدر نفسه، 203/3.

(2) المصدر نفسه،72/1.

(3) الكِتاب، 83/1.

(4) الْمَصْدَرُ نفسه، 176/2.

(5) المصدر نفسه، 19/2.

(6) المصدر نفسه، 363/1-364.

ولا يُتَكَلَّمُ بِهِ... ومِثْلُ ذلِكَ "هذا دِرْهَمٌ سَواءً"، كَأَنَّهُ قالَ: "هذا دِرْهَمٌ اسْتِواءً"، فَهذا تَمْثيلٌ وإِنْ لَمْ يُتَكَلَّمْ بِهِ»[1].

ومِنَ المَصادِرِ التي تَلْزَمُها الإضافَةُ: « "رَجَعَ فُلانٌ عَوْدَهُ على بَدْئِهِ" و"انْثَنى فُلانٌ عَوْدَهُ عَلى بَدْئِهِ" كأنّهُ قالَ "انْثَنى عَوْدًا عَلى بَدْءٍ"، ولا يُسْتَعْمَلُ في الْكَلامِ "رَجَعَ عَوْداً عَلى بَدْءٍ" ولكِنَّهُ مُثِّلَ بِهِ»[2].

ومِنْ مَسائِلِ الإضافَةِ أَيْضاً «"لا غُلامَيْنِ ولا جارِيَتَيْ لَكَ" إذا جَعَلْتَ الآخَرَ مُضافاً ولَمْ تَجْعَلْهُ خَبَراً لَهُ، وصارَ الأَوَّلُ مُضْمَراً لَهُ خَبَرٌ كَأَنَّكَ قُلْتَ "لا غُلامَيْنِ في مِلْكِكَ ولا جارِيَتَيْ لَكَ"، كَأَنَّكَ قُلْتَ "ولا جارِيَتَيْكَ" في التَّمْثيلِ، ولكِنَّهُمْ لا يَتَكَلَّمونَ بِهِ»[3].

***

وهكَذا فَإنّ البَحْثَ في «قَضايا الواضِعِ والمُتَكَلِّمِ والنّاظِرِ» بَحْثٌ في عِدَّةِ قَضايا يَغْلِبُ عَلَيْها طابَعُ العَلاقَةِ بَيْنَ مَجالَيْنِ ذَوَيْ طَبيعَتَيْنِ مُتَبايِنَتَيْنِ هُما مَجالُ الْوَصْفِ، ومَجالُ الْمَوْصوفِ. وعَلاقَةُ الأَوَّلِ بالثّاني عَلاقَةُ تَفْسيرٍ وبَيانٍ وتَصْويرٍ لِنَماذِجَ كاشِفَةٍ عَنْهُ مُقَرِّبَةٍ إِلَيْهِ. وقَدْ حاوَلَ هذا المَبْحَثُ أَنْ يَبْحَثَ في بَعْضِ جِهاتِ هذِهِ الْعَلاقَةِ: فَمِنْها جِهَةُ المُتَكَلِّمِ والواضِعِ والمُخاطَبِ، وصِلَةِ النّاظِرِ بِهذِهِ الأَطْرافِ. ومِنْها جِهَةُ مَقامِ الكَلامِ وما يَتَّصِلُ بِها مِنْ قَضايا تداوليّةٍ كالسِّياقِ والمَقاصِدِ وظُروفِ الخِطابِ، على نحوِ ما بَيَّنَها به النَّظَرُ النَّحْوِيُّ السيبويهيُّ. ومِنْها جِهَةُ الأَحْكامِ التي يُفَسِّرُ بِها النَّظَرُ المَوادَّ اللُّغَوِيَّةَ. والمَسالِكِ التي يَسْلُكُها في تَصَوُّرِهِ لِهذِهِ الأحْكامِ بِوَصْفِها مَفاتيحَ نَظَرِيَّةً لِوُلوجِ نَسَقِ اللِّسانِ وما ينطوي عليْه من قيمٍ تركيبيّةٍ ودلاليّةٍ وتداوليّةٍ.

---

[1] المصدر نفسه، 2/118-119.

[2] المصدر نفسه، 1/391-392.

[3] المصدر نفسه، 2/281.

تَلحينُ النّحاة للقُرّاء:

أسهم علماء العربية القدماءُ ، رحمهم الله ، بحظٍّ غيرِ يسيرٍ في الذي تُعانيه العربيّة من **غربةٍ** ، ذلك بأنهم لم يستَوْفوا استقراءَ الظّواهرِ اللّغويّة، و لم يسلّموا بالواردِ من الشّواهد، وإنما اكتفوا بالتّقعيدِ لِما جمعوا و لم يزيدوا، وذلك خشيةَ وقوعِ قواعدهم في البلبلة والاضطرابِ والهدم ، هذا مع العلم أنّ ما انتهى إلينا ممّا قالت العرب إلاّ أقلّه ، كما قال أبو عمرو بن العلاء، ولو جاءَنا وافرًا لجاءَنا علم و شعرٌ كثيرٌ[1] ولكانت قواعدُ العربية على غير ما سطّره النّحاة، شموليةً و استيعابًا لظواهرِ العربيّة و مرونةً . بل تهيّبوا اعتمادَ بعض القراءات القرآنيّة المتواترة، وطعنوا على بعضِها ، مع العلم أن القرآن الكريم بقراءاتِه المتواترةِ المحكمة ، على رأسِ أصولِ الاسْتدلالِ ، و بنوا أكثرَ القَواعدِ على الواردِ من الشّعرِ . فجاءَ نحوُهُم نَحْوًا للكلامِ المأْلوفِ، وهو نَحْوٌ لا يَتَّسِعُ جُمْلَةً و تَفْصيلاً لِوَصْفِ أَوْجُهِ الاسْتِعْمالِ المَخْصوصةِ التي يَنْمازُ بِها النَّصُّ القُرْآنِيُّ، وما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ قيمٍ لفظيّةٍ و دلاليّةٍ و مَقامِيَّةٍ[2] .

و هم بالإضافةِ إلى نقصِ قواعدِهم في استقراءِ الظّواهرِ اللّغويّةِ ، حشا المتأخّرون منهم كُتُبَهم بزوائدَ كثّروا النّحوَ بها ، و فُضولِ قولٍ تكلّفوها ، و مَسائلَ عَويصةٍ تجشّموا الفكرَ فيها ، فأغْرَبوا على السّامعينَ . فهذا منَ **الغربةِ** التي أرهَقوا بها اللّغةَ .

أ- تلحين النّحاةِ للقرّاء : وَ مِنَ الْمَعْروفِ أَنَّ الْقُرّاءَ تَعَرَّضوا **لِلطَّعْنِ وَ النَّقْدِ وَالتَّلْحين** مِنْ قِبَلِ بَعْضِ النَّحْويّينَ وَ اللُّغَوِيّينَ وَ الْمُفَسِّرينَ ، مِثْلَما فَعَلَ الْفَرّاءُ مَعَ حَمْزَةَ عِنْدَما قَرَأَ:

---

[1] جاء الإسلام فتشاغلت العرب عن الشعر، و تشاغلوا بالجهاد و غزو فارس و الروم، و لهت عن الشعر و روايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب، وألفوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عليهم منه كثير [...] قال يونس بن حبيب قال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير [طبقات فحول الشعراء: 25/1] لابن سلام الجمحي، [المزهر في علوم اللّغة و أنواعها: 249/1 ، 474/2] للسيوطي .

[2] من الإنصاف في هذا المقامِ الإشارةُ إلى كتابيْنِ جليلَيْنِ ألّفَهُما الأستاذُ الدّكتور أحمد مكّي الأنصاري ، في ما اعترى قواعدَ النَّحْويّين من نقصٍ و ثغراتٍ ، و الرّدّ على كثيرٍ منهم و انتقادِهم في طعنهم على القراءاتِ المتواترةِ التي خالفت القواعدَ النّحويّة : أوّلُهما: [الدّفاعُ عن القرآن ضدّ النّحويّين و المستشرقين. القسم الأوّل] و الثّاني : [نظريّة النّحو القرآني، نشأتها و تطوّرها ومقوّماتُها الأساسيّة] . و كتابٍ مفيدٍ في الموضوعِ للأستاذ الدّكتور إبراهيم السّامرّائي عنوانُه: [من سعة العربيّة] انتقدَ فيه مناهجَ النّحاةِ العرب في نقصِ الاستقراء و الاقتصارِ على الكثيرِ الشّائع ، و عدم الوقوفِ الكافي على لغة الحديث النبويّ الشّريف ...

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْـرِخِيِّ﴾ بِكَسْـرِ الْياءِ الْمُشَـدَّدَةِ[1] ، وَ **كَتَخْطِئَةِ** الْمازِنِيِّ لِنافِعٍ الْمَدَنِيِّ في قِراءَةِ "مَعايِش" بِالهَمْزِ بَدَلاً مِنَ الْياءِ[2] ، وَ **تَخْطِئَةِ** ابْنِ قُتَيْبَةَ لِحَمْزَةَ[3] ، وَ قَدْ رَجَعَ أَبو الْفَتْحِ ابْنُ جِنِّيِّ أَسْبابَ ذلِكَ -في نَظَرِهِ- إلى **ضَعْفِ دِرايَةٍ لا ضَعْفِ أَمانَةٍ**[4]، وفي ذلِكَ يَقولُ الزَّمَخْشَرِيُّ: « **وَلا يَضْـبِطُ نَحْوَ هذا إلاّ أَهْلُ النَّحْوِ** »[5]. وَ يَزْعُمُ النَّحْوِيّونَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ ضَـبْطًا لِلْقِراءَةِ مِنَ الْقُرّاءِ أَنْفُسِـهِمْ ، كَما زَعَمَ ابْنُ جِنِّيِّ . وَ رَجَعَ الْمُحَقِّقونَ ذلِكَ إلى أَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ **قِيـاسـاتٌ يَسْتَعْصِمونَ بِها. وَإِنَّما كانوا يَخْلُدونَ إلى طَبائِعِهِمْ**[6] .

وَ قَدْ رَدَّ طائِفَةٌ مِنَ الْعُلَماءِ عَلى النَّحْوِيّينَ ، وَ اعْتَبَروا أَنَّ قَوْلَهُمْ لَيْسَ بِحُجَّـةٍ عِنْدَ الإِجْماعِ[7]. وَ مِنَ الْقُرّاءِ جَماعَةٌ مِنَ النَّحْوِيّينَ ، فَلا يَكونُ إِجْماعُ النَّحْوِيّينَ حُجَّةً مَعَ مُخالَفَةِ الْقُرّاءِ لَهُمْ ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ فيهِمْ نَحْوِيٌّ فَإِنَّهُمْ ناقِلونَ لِهذِهِ اللُّغَةِ ، وَ الْمَصيرُ إلى قَوْلِهِمْ أَوْلى: لأَنَّهُمْ ناقِلونَ لِلْقِراءاتِ بِالتَّواتُرِ .

وَ قَدْ ذَكَرَ أَبو حَيّان في مَواضِعَ كَثيرَةٍ أَنَّ **الْقِراءَةَ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ** - مِثْلَما ذَكَرَ سيبَوَيْهِ مِنْ قَبْلِهِ - وَ فيها الْفَصيحُ وَ الأَفْصَحُ[8] ، وَ لَيْسَ الْعِلْمُ مَحْصوراً عَلى نَقْلِ الْبَصْرِيّينَ وعِلْمِهِمْ . بَلِ الْقُرّاءُ الْكوفِيّونَ يَكادونَ يَكونونَ مِثْلَ قُرّاءِ الْبَصْـرَةِ[9] وَ « **أَنَّنا لَسْـنا مُتَعَبَّدينَ بِأَقْوالِ نُحاةِ**

---

[1] [مَعاني الْقُرآنِ : 75/2] للفراء . و [مَراتِبُ النحويّين: 26.27] لأبي الطَّيِّبِ عبد الواحِد اللُّغَوِيِّ .

[2] [اَلْمُنْصِفُ : 307/1] . [اَلْمُقْتَضَبُ : 123/1] .

[3] [تَأْويلُ مُشْكِلِ الْقُرْآنِ: 40-42] .

[4] [اَلْخَصائِصُ : 73/1] .

[5] [اَلْكَشّافُ : 171/1] .

[6] [اَلْمُنْصِفُ : 311/1] . [دِراساتٌ لأُسْلوبِ الْقُرْآنِ الْكَريم : 22/1 ، 23 ، 24] . وَ قَدْ رَجَعَ الأُسْتاذُ مُحَمَّد عَبْدُ الْخالِق عُضيْمة -رَحِمَهُ اللهُ- أَسْبابَ تَلْحينِ النَّحْوِيّينَ لِلْقُرّاءِ إلى :

* أَنَّهُمْ كانوا يَحْتَكِمونَ إلى ما وَضَعوهُ مِنْ قَواعِدَ وَ ما سَنّوهُ مِنْ قَوانينَ .
* وَ أَنَّهُمْ كانَ يَخْفى عَلى بَعْضِهِمْ تَوْجيهُ الْقِراءَةِ فَيُسارِعُ إلى تَلْحينِها .
* وَ أَنَّ بَعْضَهُمْ كانَ يَنْظُرُ إلى الشّائِعِ مِنَ اللُّغاتِ وَ يَغْفُلُ عَنْ غَيْرِهِ .
* وَ أَنَّ بَعْضَهُمْ كانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَحْصى أَوْزانَ الْعَرَبِيَّةِ ، فَوَجَدَها تَخْلو مِنْ بَعْضِ الأَوْزانِ ، فَيُلَحِّنُ ما جاءَ عَلَيْها مِنْ قِراءاتٍ .
* وَ مِنْهُمْ مَنْ لَحَّنَ بَعْضَ الْقِراءاتِ الْمُتَواتِرَةِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ مُوافَقَتِها لأَقْيِسَتِهِمْ ...

[7] لأَنَّهُمْ **أَهْلُ دِرايَةٍ وَ نَظَرٍ لا أَهْلُ رِوايَةٍ وَ خَبَرٍ.**

[8] اَلْبَحْرُ الْمُحيطُ : 261/7 .

[9] اَلْبَحْرُ : 362/2-363 .

الْبَصْرَةِ »[1] . وَ قَدْ رَدَّ أَبو حَيَّانَ عَنْ أَكْثَرِ الْقُرّاءِ ما تَعَرَّضوا لَهُ مِنْ تَلْحينِ النُّحاةِ بِقَوْلِهِ : « اِبْنُ عامِرٍ عَرَبِيٌّ صَريحٌ ، كانَ **مَوْجودًا قَبْلَ أَنْ يوجَدَ اللَّحْنُ** ؛ لأَنَّهُ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلى عُثْمانَ بْنِ عَفّان وَ نَصْرِ بْنِ عاصِمٍ أَحَدِ الأَئِمَّةِ في النَّحْوِ، وهُوَ مِمَّنْ أَخَذَ النَّحْوَ عَنْ أَبي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ مُسْتَنْبِطِ عِلْمِ النَّحْوِ»[2].

وَ مِنَ الْقُرّاءِ السَّبْعَةِ الذينَ تَعَرَّضوا لِتَلْحينِ النَّحْوِيِّينَ ابْنُ عامِرٍ وَ ابْنُ كَثيرٍ وَ أَبو عَمْرِو بْنُ الْعَلاءِ وَ نافِعٌ وَ عاصِمٌ وَ الْكِسائِيُّ وَ حَمْزَةُ ... وَ الْمِثالُ عَلى ذلِكَ وُرودُ التَّلْحينِ في الْكِتابِ ؛ فَقَدْ رَوى سيبَوَيْهِ عَنْ يونُسَ أَنَّ أَبا عَمْرِو بْنِ الْعَلاءِ رَأى قِراءَةَ مَنْ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعالى :﴿هَـٰؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾بِنَصْبِ "أَطْهَرَ" **لَحْنًا**[3] . وَ قَدْ رَدَّ سيبَوَيْهِ بَعْضَ الْقِراءاتِ وَعَدَّها **رَديئَةً**، وذلِكَ مِنْ **خَصائِصِ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ فيما خالَفَ الْقِياسَ وَ خَرَجَ عَنْهُ**[4]. فَمِنْ ذلِكَ أَنَّهُ رَدَّ قِراءَةَ مَنْ هَمَزَ "نَبِيّ" وَ "بَرِيَّة" ، فَقالَ : « وَ قالوا : "نَبِيّ" وَ "بَرِيَّة" فَأَلْزَمَها أَهْلُ التَّحْقيقِ [أَيْ تَحْقيقِ الْهَمْزَةِ] الْبَدَلَ ، وَ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ نَحْوهما يُفْعَلُ بِهِ ذا ، إِنَّما يُؤْخَذُ بِالسَّمْعِ . وَ قَدْ بَلَغَنا أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْحِجازِ مِنْ أَهْلِ التَّحْقيقِ يُحَقِّقونَ " نَبيء " وَ "بَريئة"، وَ **ذلِكَ رَديءٌ** »[5] .

وَ سُجِّلَ عَلى سيبَوَيْهِ أَنَّهُ **ذَكَرَ قُبْحَ "كُلّ" الْمُضافَةِ إِلى نَكِرَةٍ في أَنْ تَلِيَ الْعَوامِلَ** ، فَقالَ: «"أَكَلْتُ شاةً كُلَّ شاةٍ" حَسَنٌ ، وَ "أَكَلْتُ كُلَّ شاةٍ" ضَعيفٌ ؛ لأَنَّهُمْ لا يَعُمّونَ هكذا فيما زَعَمَ الْخَليلُ رَحِمَهُ اللهُ ... وَ ذلِكَ أَنَّ مَوْضِعَها في الْكَلامِ أَنْ يُعَمَّ بِبَعْضِها بَعْدَما يُذْكَرَ الاسْمُ...»[6]. وقَدْ جاءَتْ مُضافَةً إِلى نَكِرَةٍ مَفْعولاً بِهِ في مَواضِعَ شَتّى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَريمِ .

وَ مَنَعَ إِدْغامَ الرّاءِ في اللاّمِ : « وَ الرّاءُ لا تُدْغَمُ في اللاّمِ وَ لا في النّونِ ؛ لأَنَّها مُكَرَّرَةٌ﴾...﴿فَكَرِهوا أَنْ يُجْحِفوا بِها مَعَ ما لَيْسَ يَتَفَشّى في الْفَمِ مِثْلها وَ لا يُكَرَّرُ »[7]. وَقَدْ قَدَّمَ لِهذا الْمَنْعِ عِلَّةً هِيَ بِمَثابَةِ قانونٍ صَوْتِيٍّ يَحْكُمُ عَلاقَةَ الْحُروفِ بَعْضِها بِبَعْضٍ ، وَ لكِنَّ الْقِراءَةَ

---

[1] اَلْبَحْرُ : 271/4 .

[2] اَلْبَحْرُ : 136/4 ، 229 ، 271 ...

[3] اَلْكِتاب : 2/396-397 .

[4] خِلافًا لِما ذَهَبَتْ إِلَيْهِ دة. خَديجَةُ الْحديثِيّ مِنْ أَنَّ سيبَوَيْهِ « لَمْ يُخَطِّئْ قارِئًا وَ لَمْ يُلَحِّنْ قِراءَةً» [دِراساتٌ في كِتابِ سيبَوَيْهِ : 47]، و لِما ذهبَ إليه د. شوقي ضيف من أنه « ليس في كتابِ سيبويه تخطئةٌ واحدةٌ لقراءة من القراءات، مع كثرة ما استشهد منها » [المدارس النحوية: 157]

[5] اَلْكِتاب : 555/3 .

[6] اَلْمَصْدَرُ نَفْسُهُ : 116/2 .

[7] نَفْسُهُ : 448/4 .

وَرَدَتْ بِمِثْلِ هذا الإدْغامِ الذي مَنَعَهُ سـيبَوَيْهِ ، في قَوْلِهِ تَعالى :﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَـاءُ﴾[1] حَيْثُ أَدْغَمَ أَبو عَمْرٍو الرّاءَ في اللاّمِ[2] .

وَ مَنَعَ **الْفَصْـلَ بَيْنَ الْمُضـافِ وَ الْمُضـافِ إِلَيْهِ** . وَ هذِهِ قاعِدَةٌ مِنْ قَواعِدِ النَّحْوِيِّينَ الْمَشْهورَةِ ، قالَ في ذلِكَ : « [...] قَبُحَ أَنْ تَفْصِلَ بَيْنَ الْمُضافِ وَ الْمُضافِ إِلَيْهِ [...] وَهذا يَجوزُ في الشِّعْرِ ؛ لأَنَّ الشّاعِرَ إذا اضْطُرَّ فَصَلَ بَيْنَ الْمُضافِ وَ الْمُضافِ إِلَيْهِ ... »[3]. وَقَدْ وَرَدَ الْفَصْلُ في غَيْرِ ضَـرورَةِ الشِّـعْرِ ، في قِراءَةِ ابْنِ عامِرٍ :﴿وَ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[4] ، بِرَفْعِ "قَتْل" وَ جَرِّ "شُرَكائِهِمْ" وَ نَصْبِ "أَوْلادهمْ" مَفْعولاً لِلْمَصْدَرِ "قَتْل" ، وَجاءَ الْمَصْـدَرُ فاصِـلاً بَيْنَ الْمُضـافِ وَ الْمُضـافِ إِلَيْهِ . أَمّا سـيبَوَيْهِ فَقَدْ أَوْرَدَ قِراءَةَ الْحَسَـنِ بِرَفْعِ الْمَصْدَرِ وَ جَرِّ "الأَوْلادِ" بِالشُّرَكاءِ عَلى الفاعِلِيَّةِ ، وَ لَيْسَ فيهِ فَصْلٌ[5] .

وَ **غَلَّطَ مَنْ تَكَلَّمَ بِما فيهِ الْعَطْفُ بِالرَّفْعِ عَلى مَوْضِـعِ "إِنَّ" قَبْلَ اسْـتِكْمالِ خَبَرِها** ، فَقالَ: «واعْلَمْ أَنَّ ناسًـا مِنَ الْعَرَبِ يَغْلَطونَ فَيَقولونَ: "إِنَّهُمْ أَجْمَعونَ ذاهِبونَ" وَ "إِنَّكَ وَ زَيْدٌ ذاهِبانِ"؛ وذاكَ أَنَّ مَعْناهُ مَعْنى الابْتِداءِ ، فَيُرى أَنَّهُ قالَ: "هُمْ" ...»[6] . وَ عَلَّلَ ابْنُ الأَنْبارِيِّ غَلَطَ الْعَرَبِيِّ الْمُتَكَلِّمِ بِأَنَّهُ « يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ إِذا اسْتَهْواهُ ضَرْبٌ مِنَ **الْغَلَطِ** فَيَعْدِلُ عَنْ قِياسِ كَلامِهِ »[7] ، أَمّا قَوْلُهُ تَعالى :﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَ الذِينَ هَادُوا وَ الصَّـابِئُونَ﴾[8] فَقَدْ حَمَلَ فيهِ سـيبَوَيْهِ ﴿الصَّـابِئُونَ﴾ عَلى التَّقْديمِ وَ التَّأْخيرِ كَأَنَّهُ ابْتِداءُ كَلامٍ جَديدٍ بَعْدَ مُضِـيِّ خَبَرِ "إِنَّ"[9] . وَ لَكِنَّ الْمُفَسِّرينَ ذَكَروا لِلصَّابِئِينَ وُجوهًا إِعْرابِيَّةً عِدَّةً مِنْها قَوْلُ الْعُكْبَرِيِّ إِنَّهُ « يُقْرَأُ بِالْهَمْزِ وَالنَّصْبِ عَطْفًا عَلى "الذين" ، وَهُوَ شاذٌّ في الرِّوايَةِ صَحيحٌ في الْقِياسِ ... وَ **الْمَشْـهورُ في الْقِراءَةِ الرَّفْعُ** ، وَ فيها أَقْوالٌ: أَحَدُها قَوْلُ سـيبَوَيْهِ: وهُوَ أَنَّ النِّيَّةَ بِهِ التَّأْخيرُ بَعْدَ خَبَرِ "إِنَّ" ، وَ تَقْديرُهُ : " وَلا

---

[1] البقرة : 284

[2] اَلنَّشْرُ في الْقِراءاتِ الْعَشْرِ : 337/2 .

[3] اَلْكِتابُ : 280/2 .

[4] الأنعام: 137

[5] اَلْكِتابُ : 290/1 .

[6] اَلْمَصْدَرُ نَفْسُهُ : 155/2 .

[7] اَلإِنْصافُ في مَسائِلِ الْخِلافِ : 185 .

[8] المائدة : 69

[9] اَلْكِتابُ : 155/2 .

هُمْ يَحْزَنونَ "، و"الصّــابِئونَ " فَهُوَ مُبْتَدأٌ وَ الْخَبَرُ مَحْذوفٌ »[1] وَذَكَرَ الْعُكَبَرِيُّ أَوْجُهًا إعْرابِيَّةً أُخْرى صَحَّحَ بَعْضَها وَ رَدَّ بَعْضًا آخَرَ .

وَ مَنَعَ النَّصْــبَ في الْفِعْلِ الْمُضــارِعِ إذا وَقَعَ بَعْدَ الْفاءِ غَيْرَ جَوابٍ. وَ ذلِكَ نَحْو « "إنَّهُ عِنْدَنا فَيُحَدِّثُنا" و "سَوْفَ آتيهِ فَأُحَدِّثُهُ"، لَيْسَ إلاّ، إنْ شِئْتَ رَفَعْتَهُ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَوَّلِ، وإِنْ شِئْتَ كانَ مُنْقَطِعًا ؛ لأَنَّكَ قَدْ أَوْجَبْتَ أَنْ تَفْعَلَ، فَلا يَكونُ فيهِ إلاّ الرَّفْعُ... »[2] أَيْ رَفْعُ الْفِعْلِ الْمُضــارِعِ عَطْفًا عَلى ما قَبْلَهُ أَوْ عَلى الْقَطْعِ وَ الاسْــتِئْنافِ ، كَما وَرَدَ في قَوْلِهِ تَعالى :﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[3]، « كَأَنَّهُ قالَ : إنَّما أَمْرُنا ذاكَ فَيَكونُ . وَ قَدْ يَجوزُ النَّصْــبُ في الْواجِبِ في اضْطِرارِ الشِّعْرِ ، وَ نَصْبُهُ في الاضْطِرارِ ، مِنْ حَيْثُ انْتَصَبَ في غَيْرِ الْواجِبِ ؛ وَ ذلِكَ لأَنَّكَ تَجْعَلُ "أَنْ" الْعامِلَةَ »[4] . وَ قَدْ وَرَدَ النَّصْبُ في قِراءَةِ ابْنِ عامِرٍ وَ الْكِسائِيِّ لِــ"يَكونُ" مِنْ قَوْلِهِ تَعالى :﴿ إنَّما أَمْرُهُ إذا أَرادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ﴾[5] .

وهذا قليلٌ من كثيرٍ ، ممّا شــنّه النّحاة على القراءاتِ من طعونٍ و حملاتٍ ، وجاؤوا بقوانينَ لم يحتكموا فيها لأسلوبِ القرآنِ الكريم و لا لنصوصٍ عربيّةٍ فصيحةٍ أخرى كثيرةٍ ، فمنعوا أساليبَ كثيرةً ممّا جاءَ نظيرُه في القرآن و الحديثِ و لسانِ العرب.

---

[1] [التِّبْيان في إعْرابِ الْقُرآنِ لأبي الْبَقاءِ الْعُكْبَري: 185] .

[2] اَلْكِتابُ : 83/3 .

[3] البقرة:117 ، آل عمران:47،59 ، الأنعام:73 ، ...

[4] اَلْكِتابُ : 39/3 .

[5] يس: 82

بِنيةُ "الإسْنادِ إلى الفاعلِ" في اللُّغة العربيّة، دراسَة تَركيبيّة، -نماذجُ من كتاب سيبويْه-

تقديم:

يُقدّمُ البحثُ رؤيةً منهجيّةً في تَصنيفِ الفاعلِ، مُستنبَطةً من منهَج سيبويْه في مُعالجةِ "تَركيبِ الفاعِل" واعتُمدَت نُصوصُ الكتابِ وما ورَدَ فيه من أبوابٍ في الفاعل، لاستخراجِ الرؤية المنهجيّة التي تضبطُ بنية الإسناد عامّةً، وبنية الإسناد إلى الفاعل بصفة خاصة. وحاولَ البحثُ أن يَلفتَ النّظرَ إلى أنّ قضايا النّحو في الكتابِ لم تَستوفِ بعدُ حظّها من الدّرسِ اللغويّ العميقِ لاستخراجِ مقاصدِ صاحبِ الكتاب، بل يَزعُمُ أنّ مشروعَ الكتابِ يحتاجُ إلى إعادةِ قراءةٍ واستئنافِ نظرٍ في ضوءِ ما جدَّ في الدّراسات اللغويّة الحَديثَة.

الإسنادُ إطارٌ تركيبيٌّ لبابِ الفاعل:

يُعدُّ بابُ المُسْنَدِ و المُسْنَدِ إِلَيْهِ في النَّحْوِ العَرَبِيِّ رَأْسَ أَبْوابِ التَّرْكِيبِ وأَوَّلَ مَظِنَّةٍ لِعُدَّةِ بناءِ الكَلامِ. وقَدْ صَدَّرَ أَغْلَبُ النُّحاةِ – وَ عَلى رَأْسِهِمْ أبو بِشْرِ عَمْرُو بْنُ عُثْمانَ بْنِ قَنْبَر – أَبْوابَ النَّحْوِ بِصورَةٍ جامِعَةٍ ثابِتَةٍ هِيَ أَصْلُ وَضْعِ التَّرْكيبِ، ثُمَّ خَرَّجوا عَلَيْها صُوَراً مُتَفَرِّعَةً هِيَ الوُجوهُ المُسْتَعْمَلَةُ، و ذَكَروا شُروطاً لِبِناءِ الكَلامِ.

فَأَمّا الصّورَةُ الجامِعَةُ المُجَرَّدَةُ فَفي قَوْل سيبَوَيْهِ :«هذا بابُ المُسْنَدِ والمُسْنَدِ إِلَيْهِ. وهُما ما لا يغْنى واحِدٌ مِنْهُما عَنِ الآخَرِ ولا يَجِدُ المُتَكَلِّمُ مِنْهُ بُدّاً »[1] .

وأَمّا الصُّوَرُ المُتَخَرِّجَةُ فَيَدُلُّ عَلَيْها قَوْلُهُ:« فَمِنْ ذلِكَ الاسْمُ المُبْتَدَأُ والمَبْنِيُّ عَلَيْهِ، وهُوَ قَوْلُكَ: عَبْدُ اللهِ أَخوكَ، وهذا أَخوكَ. ومِثْلُ ذلِكَ: يَذْهَبُ عَبْدُ اللهِ» وأَمّا الفُروعُ المُسْتَعْمَلَةُ فَفي قَوْلِهِ: «[...] ومِمّا يَكونُ بِمَنْزِلَةِ الابْتِداءِ قَوْلُكَ: كانَ عَبْدُ اللهِ مُنْطَلِقاً ، ولَيْتَ زَيْداً مُنْطَلِقٌ؛ لأَنَّ هذا يَحْتاجُ إلى ما بَعْدَهُ كَاحْتِياجِ المُبْتَدَإِ إلى ما بَعْدَهُ [...] واعْلَمْ أَنَّ الاسْمَ أَوَّلُ أَحْوالِهِ الابْتِداءُ، وإِنَّما يَدْخُلُ النّاصِبُ والرّافِعُ سِوى الابْتِداءِ والجارُّ على المُبْتَدَإِ. أَلا تَرى أَنَّ ما كانَ مُبْتَدَأً تَدْخُلُ عَلَيْهِ هذِهِ الأَشْياءُ حَتّى يَكونَ غَيْرَ مُبْتَدَإٍ، ولا تَصِلُ إلى الابْتِداءِ ما دامَ ما ذَكَرْتُ لَكَ إلاّ أَنْ تَدَعَهُ. وذلِكَ أَنَّكَ إذا قُلْتَ: عَبْدُ اللهِ مُنْطَلِقٌ، إنْ شِئْتَ أَدْخَلْتَ "رَأَيْتُ" عَلَيْهِ فَقُلْتَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ مُنْطَلِقاً، أوْ قُلْتَ: كانَ عَبْدُ اللهِ مُنْطَلِقاً، أَوْ مَرَرْتُ بِعَبْدِ اللهِ مُنْطَلِقاً. فَالمُبْتَدَأُ أَوَّلُ جُزْءٍ كَما كانَ

---

[1] سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر: **الكتاب**: 23/1 .

الواحِدُ أَوَّلَ العَدَدِ والنَّكِرَةُ قَبْلَ المَعْرِفَةِ»[1] ، ويَقولُ:«تَجيءُ بالاسْتِفْهامِ بَعْدَ ما تَفْرُغُ مِنَ الابْتِداءِ»[2]. فَدَلَّ كُلُّ ذلِكَ على أَنَّ جُمْلَةَ الابْتِداءِ بِناءٌ عَميقٌ يَتَرَكَّبُ في الأَصْلِ مُجَرَّداً قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ دَواخِلُ مِنَ العَوامِلِ النّاسِخَةِ أَوْ مِنَ الأَدَواتِ الدّالَّةِ على مَعْنىً.

وتَتَخَرَّجُ الفُروعُ المُسْتَعْمَلَةُ بِدُخولِ أَدَواتِ تَشْكيلِ الفُروعِ [أَوِ النَّواسِخِ] التي تُغَيِّرُ المُبْتَدَأَ عَنْ أَصْلِهِ حتّى يَكونَ غَيْرَ مُبْتَدَإٍ. ولا يَعودُ الكَلامُ إلى أَصْلِهِ في الابْتِداءِ إلاّ بِتَجَرُّدِهِ عَنِ النَّواسِخِ والعَوامِلِ الزّائِدَةِ والأَدَواتِ الدّالَّةِ، «لا تَصِلُ إلى الابْتِداءِ ما دامَ ما ذَكَرْتُ لَكَ إلاّ أَنْ تَدَعَه»[3].

أَمّا شُروطُ بِناءِ الكَلامِ فَتُفيدُها مُصْطَلَحاتٌ تَدُلُّ في مُجْمَلِها على عَلاقَةِ المُسْنَدِ بالمُسْنَدِ إلَيْهِ، ومنها الإِسْنادُ -و هُوَ البابُ- والابْتِداءُ، والاحْتِياجُ[4]، والإِخْبارُ والبِناءُ[5]، والإِجْراءُ[6]. والاشْتِغالُ[7]، والاعْتِمادُ[8]. ويَخْتَصِرُ بابُ الإِسْنادِ سُلوكَ الكَلِمِ في إضافَةِ بَعْضِها إلى بَعْضٍ وإِمالَتِهِ إلَيْهِ ووَصْلِهِ وتَعْليقِهِ بِهِ. ويَتَحَقَّقُ بالرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ لا يَغْنى أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ ولا يَقومُ التَّرْكيبُ إلاّ بِهِما. أَمّا دَلالَتُهُ على السَّبَبِ الرّابِطِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ فَهِيَ أَظْهَرُ وأَعَمُّ.

ولِمَفْهومِ الإِسْنادِ وَجْهٌ آخَر هُوَ البِناءُ، ومَعْناهُ تَرْتيبُ الثّاني على الأَوَّلِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ الأَوَّلَ يُتَّخَذُ أَصْلاً لِما بَعْدَهُ فَيُبْنى ما بَعْدَهُ عَلَيْهِ لِحاجَتِهِ إلَيْهِ. أَمّا الإِخْبارُ والحَديثُ فَلَهُ دَلالَةٌ على السَّبَبِ المَعْنَوِيِّ أَوِ العَقْلِيِّ الذي يَرْبِطُ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ. وهذِهِ الدَّلالَةُ المَعْنَوِيَّةُ التي تَنْصَرِفُ إلى أَحْوالِ الخِطابِ والمُتَكَلِّمِ والمُخاطَبِ وفَحْوى الخِطابِ، تَمْلأُ الإطارَ اللَّفْظِيَّ الذي تَنْصَرِفُ إلَيْه دَلالَةُ الإِسْنادِ والبِناءِ. وعَلَيْهِ فَإِنَّ عَلاقَةَ الإِسْنادِ بِالإِخْبارِ عَلاقَةُ دالٍّ بِمَدْلولٍ[9].

---

[1] المصْدَرُ نَفْسُهُ: 1/23-24.

[2] نفسه : 1/128.

[3] سيبويه: **الكتاب** : 1/24. هذا ، و قَدْ شَرَحَ السِّيرافِيُّ كَلامَ سيبَوَيْهِ في مَوْضوعِ " **تَرْكِ نَواسِخِ الابْتِداءِ لِلْعَوْدَةِ إلَيْهِ** " بِقَوْلِهِ : « لا تَصِلُ إلى الابْتِداءِ... إلاّ أَنْ تَحْذِفَ العَوامِلَ فَيَصيرَ الاسْمُ مُبْتَدَأً . » [**السيرافي: شرح كتاب سيبَوَيْه**: 2/67].

[4] كاحْتِياجِ المُبْتَدَإِ إلى الخَبَرِ [**سيبويه: الكتاب**:1 /45] .

[5] أيْ بِناءُ الخَبَرِ على المُبْتَدَإِ .

[6] كإِجْراءِ الصِّفَةِ على الاسْمِ

[7] شَرَحَ السِّيرافِيُّ مُرادَ سيبَوَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ :" لَمْ تَشْغَلِ الفِعْلَ بِغَيْرِهِ " بِقَوْلِهِ : « و مَعْنى شَغْلِ الفِعْلِ بِغَيْرِهِ أَنَّكَ تَجْعَلُهُ خَبَراً غَيْرَ مُسْتَغْنٍ عَنْهُ و ذلِكَ مَعْنى قَوْلِ سيبَوَيْه " أَنَّكَ لَمْ تَشْغَلِ الفِعْلَ بِغَيْرِهِ » [**شرح الكتاب**: 2 [illegible]

[8] [**الكتاب**: 1/133] .

[9] لكِنَّ السّيرافِيَّ في شَرْحِهِ لِمُصْطَلَحاتِ سيبَوَيْهِ جَعَلَ بَعْضَها مُرادِفاً لِبَعْضٍ آخَر في قَوْلِهِ:« المُسْنَدُ مَعْناهُ الحَديث و الخَبَرُ، والمُسْنَدُ إلَيْهِ مَعْناهُ المُحَدَّثُ عَنْهُ ... فَالفِعْلُ حَديثٌ عَنِ الفاعِلِ، والخَبَرُ حَديثٌ عَنِ الاسْمِ» السيرافي

يَتَحَصَّلُ مِن اقْتِرانِ الرُّكْنَيْنِ واسْتيفاءِ شُروطِ البِناءِ قِيامُ الكَلامِ المُسْتَقيمِ المُسْتَغْني الذي يَحْسُنُ السُّكوتُ عَلَيْهِ. يُفيدُ هذا المَعْنى قَوْلُ سيبَوَيْهِ: «لو قُلْتَ: فيها عَبْدُ اللهِ حَسُنَ السُّكوتُ عَلَيْهِ وكانَ كَلاماً مُسْتَقيماً، كَما حَسُنَ واسْتَغْنى في قَوْلِكَ: هذا عَبْدُ اللهِ»[1]، وأمّا إنْ لَمْ تُسْتَوْفَ شُروطُ البِناءِ فإنَّهُ «لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِ السُّكوتُ [...] ولمْ يَكُنْ كَلاماً [...] »[2]. وذَكَرَ سيبَوَيْهِ في مَوْضِعٍ آخَرَ شَرْطاً لامْتِحانِ صِحَّةِ الكَلامِ وإفادَتِهِ، وهُوَ الحِكايَةُ بَعْدَ القَوْلِ: «اعْلَمْ أنَّ "قُلْتُ" [...] إنَّما وَقَعَتْ في كَلامِ العَرَبِ على أنْ يُحْكى بِها، وإنَّما تَحْكي بَعْدَ القَوْلِ ما كانَ كَلاماً لا قَوْلاً، نَحْو: "قُلْتُ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ" لأنَّهُ يَحْسُنُ أنْ تَقولَ: "زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ" ولا تُدْخِل "قُلْتُ". وما لَم يَكُنْ هكَذا أُسْقِطَ القَوْلُ عَنْهُ» [3].

***

وظيفةُ الفاعِل، وبنيتُه الإسناديّةُ:

أوّلُ ما يُصادفُ القارئَ للكتابِ بعدَ البحث والتّنقيرِ فيه عن البنية الإسناديّة للفاعل، أنّ الإسنادَ في الكتابِ أساسٌ باطنٌ مُجَرَّدٌ، ويَجِدُ عِبارَتَهُ في صُوَرٍ ظاهِرَةٍ مُتَحَقِّقَةٍ، ولا تَقومُ الصُّوَرُ عِبارَةً عَنِ الباطِنِ إلاّ وِفاقاً لِمَبْدَإٍ عامٍّ يَخْتَرِقُ كُلَّ عَلاقَةٍ إسْنادِيَّةٍ ويَسْري في ظَواهِرِها. ويُتَصَوَّرُ هذا المَبْدَأُ على هَيْئَةِ "حَرَكَةٍ عامِلِيَّةٍ" ذاتِ وِجْهَتَيْنِ: وِجْهَةٍ خَطِّيَّةٍ ووِجْهَةٍ رَأْسِيَّةٍ، ولِكُلِّ وِجْهَةٍ مُصْطَلَحاتٌ تَدُلُّ عَلَيْها. فَأَمّا الخَطِّيَّةُ فَتَجِدُ دَلالَتَها في التَّعَدّي وعَدَمِهِ[4]، وفي العَمَلِ[5]

---

[1] ...بو سعيد: **شرح كتاب سيبَوَيْهِ**: 59/2، و قَوْله: « وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُما مُحْتاجٌ إلى صاحِبِهِ ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُما مُسْنَدٌ ...ى صاحِبِهِ لاحْتياجِه إلى صاحِبِه » **شرح كتاب سيبَوَيْهِ**: 60/2. وقَدْ عَبَّرَ السّيْرافِيُّ في مَوْضِعٍ آخَرَ عَنْ **شُروطِ بِناءِ** ...الكَلامِ بِقَوْلِهِ :« الكَلامُ يوضَعُ **كُلَ كَلِمَةٍ مِنْهُ تَدُلُّ على مَعْنىً** ما . **ثُمَ تُرَكَّبُ** فَيقْتَرِنُ بعْضُها بِبَعْضٍ، فَيقَعُ بِها ...الفَوائِدُ **المُسْتَفادَةُ بِاقْتِرانِها** » **شرح كتاب سيبَوَيْهِ**: 64/2 .

[2] **الكتاب**: 88/2 .

[3] المصدر نفسُه: 90/2 . هذا و قَدْ تَرَدَّدَ اقْتِرانُ اسْتِغْناءِ الكَلامِ بِاسْتِقامَتِهِ و اكْتِفائِهِ ، في صَفَحاتٍ كَثيرَةٍ : كاسْتِغْنائِهِ بِالإخْبارِ (149/1) ، و اسْتِغْناءِ الكَلامِ الذي عَمِلَ بَعْضُهُ في بَعْضٍ (417/1) ، واسْتِغْنائِهِ واكْتِفائِهِ ... (38... .

[4] ...**الكتاب** : 122/1] . و قَدْ أَوْرَدَ السّيوطِيُّ في شَرْحِهِ لِكَلِمَةِ " مُفيد " في أَلْفِيَةِ ابْنِ مالِكٍ أَنَّهُ اسْتَثْنى [في شَرْحِ ...التّسْهيلِ] نَقْلاً عَنْ سيبَوَيْهِ و غَيْرِه. فَقالَ: «مُفيد. ما لا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ نَحْو " النّارُ حارَّةٌ " فَلَيْسَ بِكَلامٍ » **[جلال** ...**الدّين السّيوطي: البَهْجَة المَرْضِيَة، في شرح الألفية]** .

[5] ...سيبويه، **الكتاب**: 33/1-34 .

[6] ...المصدر نفسه : 33/1 .

والوُصولِ[1]، وغَيْرِها. وأَمّا الرَّأْسِيَّةُ فتَجِدُ عِبارَتَها في الإجْراءِ والحَمْلِ والنَّظيرِ، وكُلِّ ما يُفْهَمُ مِنْهُ تَنْزيلُ فُروعٍ مَنْزِلَةَ أُصولٍ في العَمَلِ والتَّأْثيرِ .

أَمّا السَّبَبُ الواصِلُ بَيْنَ وِجْهَتَي الحَرَكَةِ فَمفادُهُ أَنَّ الحَرَكَةَ الخَطِّيَّةَ قائِمَةٌ في اللَّفْظِ - الذي يَحْمِلُ تَأْثيرَ العَمَلِ، وتَنْتَظِمُ بِموجِبِهِ المَعْمولاتُ في التَّرْكيبِ - قِياماً وَضْعِيّاً. فَالعامِلُ نَشَأَ حامِلاً هذِهِ الحَرَكَةَ بِالقُوَّةِ، وتَتَحَقَّقُ بِالفِعْلِ في الجُمْلَةِ التي تُعَدُّ مَحَلَّ تَسْليطِ العامِلِ عَمَلَهُ على المَعْمولاتِ. ثُمَّ إِنَّ هذِهِ الحَرَكَةَ الأَصْلِيَّةَ المَوْجودَةَ قَبْلاً بِالوَضْعِ تَتَخَرَّجُ عَلَيْها حَرَكاتٌ فَرْعِيَّةٌ أَوْ صُوَرٌ مِنَ العَمَلِ جارِيَةٌ، في العامِلِيَّةِ والمَعْمولِيَّةِ، مجْرى الأَصْلِ .

مَهَمَّةُ "الحَرَكَةِ العاملية" أَنَّها تُخَرِّجُ خَصائِصَ العَمَلِ الكامِنَةَ في اللَّفْظِ مِنَ الكُمونِ إلى السَّطحِ، ومن السّكونِ إلى الحَرَكَةِ والفِعْلِ. وبِهذا الإِخْراجِ يَتَحَوَّلُ الاسْمُ المجَرَّدُ إلى فاعِلٍ مَعْمولٍ، أَوْ مَفْعولٍ مَعْمولٍ، ويَتَحَوَّلُ الفِعْلُ المُجَرَّدُ إلى عامِلٍ مُؤَثِّرٍ. والفاعِلُ والمَفْعولُ وغَيْرُهُما مِنَ المَعْمولاتِ مَفاهيمُ "عَلاقِيَّةٌ" أَوْ حالَةٌ عَلاقِيَّةٌ يُصبِحُ عليها الاسْمُ بعدَ دُخوله سياقَ التَّركيبِ، ويَنْتَقِلُ إِلَيْها مِنْ حالَةٍ مَقولِيَّةٍ أَوْ مِنْ مُجَرَّدِ قِسْمٍ مِنْ أَقْسامِ الكَلِمِ، وهِيَ مَفاهيمُ تُمَكِّنُ عَناصِرَ الجُمْلَةِ مِنْ أَنْ يَرْتَبِطَ بَعْضُها بِبَعْضٍ، وتكْسِبُها وَظائِفَ نَحْوِيَّةً ومَعانِيَ تَرْكيبِيَّةً هِيَ الفاعِلِيَّةُ والمَفْعولِيَّةُ والإِضافَةُ والإِتْباعُ وغَيْرُها ...

لَقَدْ قَدَّمَ سيبَوَيْهِ -في أَبْوابِ الفاعِلِ- أُنْموذَجاً يُبَيِّنُ الْتِقاءَ وِجْهَتَي الحَرَكَةِ وتَقاطُعَهُما. وتَظْهَرُ الحَرَكَةُ العامِلِيَّةُ فيهِ سابِقَةً في الوُجودِ والتَّصَوُّرِ والتَّرْتيبِ على حَرَكَةِ التَّفْريعِ الرَّأْسِيَّةِ. لأَنَّها مَبْدَأُ إيصالِ العَمَلِ إلى المَعْمولاتِ واسْتِخْراجِ الصُّوَرِ الفَرْعِيَّةِ بِالحَمْلِ والمشابَهَةِ .

مِنْ صُوَرِ الإِسْنادِ: جُمْلَةُ الفِعْلِ والفاعِلِ :

1– "بابُ الفاعِلِ" في كتابِ سيبَوَيْه، واسِطَةُ التَّعْدِيَةِ:

في الكِتابِ أَبْوابٌ كَثيرَةٌ عُقِدَتْ لِلْحَديثِ عَنْ أَنْواعِ الفاعِلِ[2]؛ يقولُ سيبويْه: « هذا باب الفاعل الذي لم يَتَعدَّه فعلُه إلى مَفعولٍ»، « هذا بابُ الفاعل الذي لم يتعدَّه فعلُه إلى مَفعولٍ آخر...»، « هذا بابُ الفاعل الذي يتعدّاه فعلُه إلى مَفعولٍ»، « هذا بابُ الفاعل الذي يتَعدّاه فعلُه إلى مَفعولَيْن، فإن شئتَ اقتصرْتَ على المفعولِ الأوّلِ...»، « هذا بابُ الفاعل الذي يتَعدّاه فعلُه إلى مَفعولَيْن، وليسَ لَكَ أن تقتصرَ على أحد المَفعولَيْن...» ويُمْكِن

[1] نفسه : 38/1 .

[2] انظر أَبْوابَ الفاعِلِ الخَمْسَةَ و ما يُلْحَقُ بِها في **الكتاب**: 33/1 إلى 43

يُتَساءَلَ عَنْ صَنيعِ سيبَوَيْهِ في أَبْوابِ الفاعِلِ الأولى لِمَ خَصَّ فيها الفاعِلَ بالذِّكرِ في صدرِ البابِ، وما هو إلاّ مَعْمولٌ مِنْ مَعْمولاتِ الفِعْلِ، فجَعَلَ له عُنْوانَ البابِ دونَ غَيْرِهِ ؟

تَفْسيرُ هَذا الاخْتِصاصِ يَأْتي مِنْ جِهَتَيْنِ:

* **أولاهُما أَنَّ المُرادَ بِبابِ الفاعِلِ «جُمْلَةُ الفاعِلِ» التي تَقومُ بِوُجودِ ثَلاثَةِ أَرْكانٍ هِيَ: المُتَعَدّي، والمُتَعَدَّى إِلَيْهِ، والواسِطَةُ.** وتُعَدُّ الواسِطَةُ –التي هِيَ الفاعِلُ- أَوِ المَعْبَرُ العامِلِيُّ أَهَمَّ الأَرْكانِ جَميعِها؛ لأَنَّ التَّعَدِّيَ و عَدَمَهُ إِنَّما يَتِمُّ عَبْرَها وبنسبةٍ منها، فَهِيَ المتَعَدّى مِنْها إلى غَيْرِها، وهِيَ التي عُقِدَ لَها البابُ وسُمِّيَ بِاسْمِها. أَمّا الأَبْوابُ الأُخْرى التي عُقِدَتْ لِلْمَفْعولِ[1] فَإِنَّ بابَ المَفْعولِ فيها صورَةٌ فَرْعِيَّةٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بابِ الفاعِلِ في العَمَلِ. ويَظَلُّ الأَصْلُ في هذهِ الأَبْوابِ ذاتِ الحَرَكَةِ العامِلِيَّةِ مَحْفوظاً لِبابِ الفاعِلِ؛ لأَنَّ المفْعولَ فيها هُوَ الفاعِلُ في اللَّفْظِ والمعْمولِيَّةِ[2]. وعِنْدَما يَعْرِضُ سيبَوَيْهِ الأَمْثِلَةَ لإيضاحِ البابِ فَإِنَّهُ يَقْرِنُ الفاعِلَ بِفِعْلِهِ، واقْتِرانُهُ بِفِعْلِهِ واضِحٌ في قَوْلِهِ: « واعْلَمْ أَنَّ المَفْعولَ الذي لَمْ يَتَعَدَّ إِلَيْهِ فِعْلُ فاعِلٍ في التَّعَدّي والاقْتِصارِ بِمَنْزِلَتِهِ إِذا تَعَدّى إِلَيْهِ فِعْلُ الفاعِلِ؛ لأَنَّ مَعْناهُ مُتَعَدِّياً إِلَيْهِ فِعْلُ الفاعِلِ وغَيْرَ مُتَعَدٍّ إِلَيْهِ فِعْلُهُ سَواء»[3]. فَذلِكَ يَدُلُّ على أَنَّ الفاعِلَ واسِطَةُ التَّعْدِيَةِ، ولا يُعَدُّ فاعِلاً إلاّ وهُوَ مَقْرونٌ بِفِعْلِهِ. ولا تُفْهَمُ واسِطَةُ التَّعْدِيَةِ هذهِ ولا تُدْرَكُ إلاّ بِخَصائِصِ فِعْلِها العامِلِيَّةِ. فالفاعِلُ بِلا فِعْلٍ اسْمٌ مُجَرَّدٌ قابِلٌ للاقْتِرانِ بِكَثيرٍ مِنَ الأَفْعالِ، وهُوَ في اقْتِرانِهِ بِفِعْلٍ مُعَيَّنٍ خارِجٌ مِنَ الاسْمِيَّةِ المُجَرَّدَةِ داخِلٌ في الوَظيفَةِ النَّحْوِيَّةِ والوَساطَةِ العامِلِيَّةِ. وتُعَدُّ خَصائِصُ التَّعَدّي وعَدَمِهِ أَشْياءَ قائِمَةً في الفِعْلِ قَبْلَ الاقْتِرانِ وبَعْدَهُ، ولكِنَّ الإِطْلاقَ في دَلالَةِ الفِعْلِ على العامِلِيَّةِ لا يَتَخَصَّصُ إلاّ بِالاقْتِرانِ بِالفاعِلِ. فَإِذا تَحَصَّلَ التَّناسُبُ بَيْنَ الفِعْلِ والفاعِلِ، فَكانَ الفِعْلُ مِمّا يُمْكِنُ أَنْ يُسْنَدَ إلى الفاعِلِ، وكانَ الفاعِلُ مِمّا يَصْلُحُ أَنْ يُسْنَدَ إِلَيْهِ ذلِكَ الفِعْلُ، فَتَفْسيرُ ذلِكَ أَنَّ الفاعِلَ – وهُوَ قُطْبُ البابِ[4] - هُوَ الذي أَخْرَجَ ما بِالفِعْلِ مِنْ

---

[1] **سيبويه، الكتاب** : 1/33-41-43 .

[2] هناكَ أَكْثَرُ مِنْ دَليلٍ يُثْبِتُ هذهِ الصِّلَةَ، منها قَوْلُهُ: «الفاعِلُ والمَفْعولُ في هذا سَواء، يَرْتَفِعُ المَفْعولُ كَما يَرْتَفِعُ الفاعِلُ لأَنَّكَ لَمْ تَشْغَلِ الفِعْلَ بِغَيْرِهِ و فَرَّغْتَهُ لَهُ كَما فَعَلْتَ ذلِكَ بِالفاعِلِ...» (**سيبويه، الكتاب**:1/33) .

[3] الكتاب : 1/42 .

[4] يُمْكِنُ أَنْ تُتَّخَذَ "مسأَلَةُ: ما الذي يَدُلُّ عَلَيْهِ الفِعْلُ؟"، في كِتابِ **"نَتائِجِ الفِكرِ"** للسُّهَيْلِيِّ، تَفْسيراً لِمَسْأَلَةِ كَوْنِ **الفاعِلِ قُطْبَ البابِ** عِنْدَ سيبَوَيْهِ: «الفِعْلُ لا يَعْمَلُ في الحَقيقَةِ إلاّ فيما يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُهُ كَالمَصْدَرِ والفاعِلِ والمَفْعولِ بِهِ، أَوْ فيما كانَ صِفَةً لِواحِدٍ مِنْ هذهِ ... وأَقْوى دَلالَتِهِ على المَصْدَرِ لأَنَّهُ هُوَ الفِعْلُ في المَعْنى... ثُمَّ دَلالَةُ الفِعْلِ على الفاعِلِ أَقْوى مِنْ دَلالَتِهِ على المَفْعولِ بَهِ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُما أَنَّهُ يَدُلُّ على الفاعِلِ بِعُمومِهِ وخُصوصِهِ نَحْو "فَعَلَ زَيْدٌ، وعَمِلَ زَيْدٌ"، وأَمّا الخُصوصُ فَنَحْوُ "ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْراً". والوَجْهُ الآخَرُ أَنَّ الفِعْلَ هُوَ

خَصائِصِ العَمَلِ مِنْ قُوَّةِ اللَّفْظِ إلى فِعْلِ التَّرْكيبِ حَتّى إنَّ سيبَوَيْهِ قَدْ نَسَبَ إلى الفاعِلِ ذاتِهِ العَمَلَ والتَّعْدِيَةَ مَجازاً[1]. إنَّ الفاعِلَ قُطْبُ البابِ؛ لأَنَّ دَلالَةَ الفِعْلِ عَلَيْهِ أَقْوى مِنْ دَلالَةِ الفِعْلِ على المَفْعولِ.

* **أمّا الجِهَةُ الثّانِيَةُ فَإنَّ الفاعِلَ هُوَ النُّقْطَةُ التي تَتَحَدَّدُ بِحَسَبِها المَواقِعُ العامِلِيَّةُ الأُخْرى.** وإذا جازَ أَنْ تُسَمّى جُمْلَتُهُ فَلْتُسَمَّ بـــ«الجُمْلَةِ الفاعِلِيَّةِ» أَوْ جُمْلَةِ الفاعِلِ في مُقابِلِ جُمْلَةِ الابْتِداءِ. وكِلْتا التَّسْمِيَتَيْنِ روعِيَ فيها حُضورُ الاسْمِ القَوِيُّ - مُبْتَدَأً كانَ أَوْ فاعِلاً - لأَنَّ الاسْمَ رَأْسُ المَقولاتِ في رُتْبَةِ الأَصْلِ والفَرْعِ. وقَدْ صَحَّ ذلِكَ لِلْفاعِلِ في الجُمْلَةِ التي يَرِدُ فيها الفِعْلُ والفاعِلُ، مِثْلَما صَحَّ للاسْمِ أَنَّ أَوَّلَ أَحْوالِهِ الابْتِداءُ، وأنّ الفِعْلَ إذا أُعْرِبَ - كَإِعْرابِ المُضارِعِ - فَإِنَّما يَرْتَفِعُ بِوُقوعِهِ مَوْقِعَ الاسْمِ أَيْ مَوْقِعَ مُبْتَدَإِ الكَلامِ[2].

ولا إخالُ تَراجِمَ سيبَوَيْهِ التي تُبَوِّئُ الفاعِلَ مَقاعِدَ العِنايَةِ والاهْتِمامِ مِمّا يَحْتاجُ إلى اسْتِصْفاءِ الخالِفِينَ مِنْ بَعْدِهِ، فَهذا أَمْرٌ يُمْكِنُ أَنْ يُقالَ عَنْهُ إِنَّهُ اخْتِيارٌ مِنْهُ مَقْصودٌ ومورَدٌ مُرادٌ.

حَرَكَةُ الفاعِلِ، والحَرَكَةُ لا تَقومُ بِنَفْسِها و إنَّما هِيَ مُتَّصِلَةٌ بِمَحَلِّها ، فَوَجَبَ أَنْ يَكونَ الفِعْلُ مُتَّصِلاً بِفاعِلِهِ لا بِمَفْعولِهِ... فَما عَدا هذِهِ الأَشْياء فَلا يَصِلُ إِلَيْهِ الفِعْلُ إلاّ بِواسِطَةِ حَرْفٍ... لأَنَّهُ لا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِلَفْظِهِ ولا بِبِنْيَتِهِ، وإِنَّما يَدُلُّ بِبِنْيَتِهِ على اخْتِلافِ أَحْوالِ الحَدَثِ، وبِلَفْظِهِ على الحَدَثِ نَفْسِهِ، وهكَذا قالَ سيبَوَيْهِ في أَوَّلِ الكِتابِ» السُّهيلِيّ، **نتائج الفكر**: 387-388.

[1] يُفيدُ ذلِكَ قَوْلُهُ : «... لَمّا كانَ **الفاعِلُ يَتَعَدّى** إلى ثَلاثَةٍ تَعَدّى المَفْعولُ إلى اثْنَيْنِ... » **الكتاب**:43/1

[2] قُوَّةُ المَواقِعِ الأَصْلِيَّةِ و قُوَّةُ الابْتِداءِ في الكَلامِ خَصائِصُ يَشْتَمِلُ عَلَيْها الاسْمُ . وقَدْ يَكونُ في هذا الاسْتِئْثارِ وفي أَسْبابٍ أُخْرى ما يُرَجِّحُ أَنْ تَكونَ جُمْلَةُ الابْتِداءِ في العَرَبِيَّةِ أَصْلاً لِغَيْرِها مِنَ الجُمَلِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكونَ غَيْرُها أَصْلاً لَها. وما يُقَدِّمُهُ الباحِثونَ اللِّسانِيّونَ مِنْ بَراهينَ على الاحْتِمالِ الثّاني يُمْكِنُ أَنْ يُعارَضَ بِبَراهينَ مُقابِلَةٍ، ومِنْ ذلِكَ ما قُدِّمَ على أَنَّ تَرْتيبَ [فعل+اسم](V.S) هُوَ الأَصْلُ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، حَيْثُ عُدَّتِ الجُمْلَةُ فِعْلِيَّةً إذا تَوَفَّرَ فيها الفِعْلُ في السَّطْحِ سَواء تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ. وعُدَّتْ اسْمِيَّةً إن لَمْ يَظْهَرْ في سطحِها الفِعْلُ:

A.F. FEHRI, **Linguistique Arabe . Forme et interprétation** . pp:40-41-42

ومِنَ الدّارِسِينَ مَن اعْتَمَدَ التَّرْتيبَ [فِعْل+فاعل+مفعول] و اعْتَبَرَهُ أَصْلاً تَتَحَوَّلُ عَنْهُ البِنْيَةُ [فاعل+فعل+مفعول] بِواسِطَةِ تَحْويلِ الاسْمِ إلى مَوْقِعِ الابْتِداءِ: (ميشال زكريا، **الألْسُنِيَّةُ التَوليديَةُ والتَحويليَةُ وقَواعدُ اللُّغَةِ العربيَةِ-الجُمْلَةُ البسيطَةُ**: ص: 29.)

2- "بابُ الفاعِلِ" قيمَةٌ مَوْضِعِيَّةٌ عَميقَةٌ:

"جُمْلَةُ الفاعِلِ" أو "الجُمْلَةُ الفاعِلِيّةُ" اصْطِلاحٌ غَيْرُ وارِدٍ في "الأَدَبِيّاتِ النَّحْوِيَّةِ" العَرَبِيَّةِ، وإنّما صَدَرُ الإِطْلاقِ هٰهُنا هُوَ الزَّعْمُ بِوُجودِ «مَفْهومٍ» وراءَ «مَنْطوقٍ» مُصْطَلَحِ "أبْوابِ الفاعِلِ" في الكِتابِ، أَوْ باطِنٍ وَراءَ ظاهِرِ الأَقْوالِ. وإذا صَحَّ هذا الزَّعْمُ كانَ إطْلاقُ "جُمْلَةِ الفاعِلِ" على صَنيعِ سيبَوَيْه مَبْدأً وتَوْطِئَةً لِلْقَوْلِ بِوُجودِ بِناءٍ خَفِيٍّ مُجَرَّدٍ مُتَصَوَّرٍ غَيْرِ مُسْتَعْمَلٍ، هُوَ الفاعِلُ والفِعْلُ، أَوِ الفاعِلُ والفِعْلُ والمَفاعيلُ، تَتفرَّعُ عنهُ أَبْنِيَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ هِيَ الفِعْلُ والفاعِلُ، أَوِ الفِعْلُ والفاعِلُ والمَفاعيلُ. وأداةُ اشْتِقاقِ المُسْتَعْمَلِ مِنَ المُجَرَّدِ النَّقْلُ، أَيْ نَقْلُ الفِعْلِ إلى مَرْتَبَةِ تَصْديرِ العَمَلِ والإِعْرابِ، والتَّرْتيبُ، وغَيْرُ ذلِكَ مِنَ الشُّروطِ التي تُمَكِّنُ الفِعْلَ مِنَ العَمَلِ فيما بَعْدَهُ في إطارِ اتّجاهِ إِسْنادِ الإِعْرابِ والعَمَلِ.

يَظْهَرُ مِنْ هذا التَّوْجيهِ الذي يَدْفَعُ بِنَظَرِ سيبَوَيْهِ إلى آفاقِ الاحْتِمالِ بِوُجودِ مُجاوَرَةٍ وتَرادُفٍ نَظَرِيٍّ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَنْظارٍ مِنْ عِلْمِ اللِّسانِ الحَديثِ يَجْمَعُهُ بِها، أَنَّ الفاعِلَ لَهُ قيمَةٌ مَوْقِعِيَّةٌ. فَهُوَ مَوْضِعٌ عَميقٌ في بِناءِ الجُمْلَةِ. والقَوْلُ بِوُجودِ "جُمْلَةٍ فاعِلِيَّةٍ" يَعْني القَوْلَ بِكَوْنِ الفاعِلِ فيها مَوْضِعاً عَميقاً صادِراً عَنْ مُعْجَمِ اللِّسانِ أَصْلاً، قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ إلى قِسْمٍ مِنْ أَقْسامِ الكَلِمِ حامِلٍ وَظيفَةً نَحْوِيَّةً ودلالَةً مُعْجَمِيَّةً، ومُتَبَوِّئٍ رُتْبَةً مَخْصوصَةً بَعْدَ الفِعْلِ .

وهذا القَوْلُ بِالقيمَةِ المَوْقِعِيَّةِ التي لِلْفاعِلِ تَصَوُّرٌ يَعْتَمِدُ على البِنْيَةِ لا على التَّرْتيبِ الخَطِّيِّ: لأَنَّ هذا التَّرْتيبَ تَجَلٍّ لا يَتَكَشَّفُ ولا يستقرُّ في السَّطْحِ إلاّ بَعْدَ بِناءِ العِبارَةِ في مُسْتَوىً باطِنٍ .

3- بِنْيَةُ الفاعِلِ الجامِعَةُ :

تَتَكَوَّنُ بِنْيَةُ الفاعِلِ الجامِعَةُ مِنْ كُلِّ الصُّوَرِ التَّرْكيبِيَّةِ التي عَقَدَ لَها سيبَوَيْهِ أَبْواباً، وعَرَضَ فيها أَشْكالَ الجُمَلِ الفاعِلِيَّةِ وقَواعِدَ تَرْكيبِها. وبِنْيَةُ الفاعِلِ بابٌ كَبيرٌ فيهِ الثَّوابِتُ وفيهِ المُتَغَيِّراتُ. فَأَمّا الثَّوابِتُ فَهِيَ المَواضِعُ الثّابِتَةُ التي تَحْمِلُ القيمَةَ التَّرْكيبِيَّةَ الأولى في جُمْلَةِ الفاعِلِ ولا تَخْلو مِنْها أَيَّةُ جُمْلَةٍ فاعِلِيَّةٍ، بَلْ تَدورُ مَعَها وُجوداً وعَدَماً. ومِنَ المَواضِعِ الثّابِتَةِ مَوْضِعُ الفِعْلِ، وهُوَ ثابِتٌ مِنْ جِهَتَيْنِ: أولاهُما أَنَّهُ ثابِتٌ بِاعْتِبارِهِ قيمَةً عامِلِيَّةً مُتَحَكِّمَةً في المَواضِعِ التي بَعْدَهُ. ولَهُ صُوَرٌ مُتَعَدِّدَةٌ، كَأَنْ يَأْتِيَ مُتَعَدِّياً أَوْ مُقْتَصِراً، أَوْ مَبْنِياً لِلْفاعِلِ أَوِ المَفْعولِ، أَوْ مُتَعَدِّياً إلى مَفْعولٍ أَوْ مَفْعولَيْنِ وُجوباً أَوْ جَوازاً، أَوْ إلى ثَلاثَةِ مَفاعيلَ. وكُلُّ هذِهِ الصُّوَرِ فُروعٌ يَجْمَعُها مَوْضِعٌ واحِدٌ ثابِتٌ. والجِهَةُ الثّانِيَةُ أَنَّ الفعلَ يَأْتي مُسْنَداً في كُلِّ الصُّوَرِ.

ويَأْتي بَعْدَ الفعلِ في الثُّبوتِ مَوْضِعُ الفاعِلِ، وهُوَ أَقَلُّ مِنْهُ دَرَجَةً في التَّرَدُّدِ على الجُمَلِ؛ لأَنَّ مِنَ الجُمَلِ جُمَلاً لا يُبْنى فيها الفِعْلُ على فاعِلٍ ولكِنْ يَنوبُ المَفْعولُ عَنِ الفاعِلِ، ويَتَّخِذُ قيمَتَهُ الإِعْرابِيَّةَ، ويَنوبُ عَنْهُ في الإِسْنادِ.

أَمّا المَواضِعُ الباقِيَةُ فَهِيَ مُتَغَيِّرَةٌ غَيْرُ مُطَّرِدَةٍ، يَتَحَدَّدُ الوُجودُ فيها والعَدَمُ بِحَسَبِ المَقامِ وظُروفِ الخِطابِ، وتَدْخُلُ فيها المَفاعيلُ المُتَعَدّى إِلَيْها.

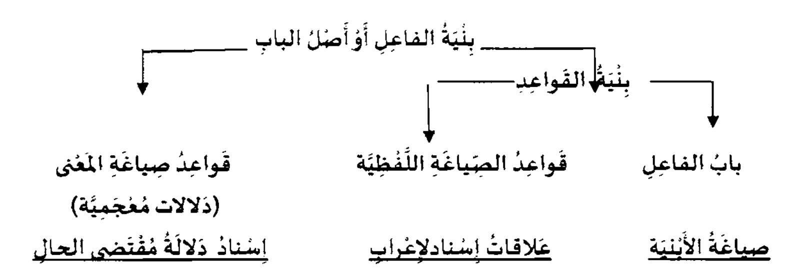
أَمّا القَواعِدُ التي تَصوغُ جُمَلَ [الفِعْلِ والفاعِلِ] فَهِيَ جُزْءٌ مِنْ بِنْيَةِ الفاعِلِ أَوْ أَصْلِ البابِ في الفاعِلِ. وتَنْقَسِمُ إلى قَواعِدَ ثابِتَةٍ تَعْمَلُ على صِياغَةِ كُلِّ جُمَلِ البابِ، وقَواعِدَ مُتَغَيِّرَةٍ قَدْ يَسْتَحْضِرُها النَّحْوِيُّ وقَدْ يَسْكُتُ عَنْها. فأَمّا القَواعِدُ الثّابِتَةُ فَهِيَ قَواعِدُ الصِّياغَةِ اللَّفْظِيَّةِ التي تُحَدِّدُ لِلْجُمْلَةِ شُروطَ العَمَلِ والإِعْرابِ، وتَمُدُّ بَيْنَها أَسْبابَ التَّرْكيبِ الصَّحيحِ. إِنَّها تَضَعُ لِلْجُمَلِ طُرُقَ التَّنْظيمِ وشُروطَهُ، وأَمّا سَمْتُ النِّظامِ والهَيْئَةُ التي هُوَ عَلَيْها فَهُوَ أَمْرٌ قائِمٌ مِنْ قَبْلُ في بِنْيَةِ اللَّفْظِ العامِلِ. إِنَّ قَواعِدَ الصِّياغَةِ قَواعِدُ كَشْفٍ وإِخْراجٍ لِما كانَ مَخْبوءاً لا بِناءٍ لِما كانَ مَعْدوماً.

أَمّا باقي القَواعِدِ فَمِنْها ما يَتَّصِلُ بِالمَعْنى والمُعْجَمِ، ويَتَعَلَّقُ الأَمْرُ فيهِ بِاخْتِيارِ الأَفْعالِ المَخْصوصَةِ المُناسِبَةِ لأَبْوابِها دونَ غَيْرِها، لأَنَّ هذِهِ الأَبْوابَ تَشْتَرِطُ أَفْعالاً ذاتَ سِماتٍ وخَصائِصَ بِأَعْيانِها، لَها مَعْنىً مَفْهومٌ مِنْ ظاهِرِ اللَّفْظِ. ومِنْها ما يَتَّصِلُ بِشُروطِ المَقامِ في الصِّياغَةِ، ويتَعلَّقُ الأَمْرُ ههُنا بِدَلالَةِ الأَوْضاعِ اللَّفْظِيَّةِ - كالتَّقْديمِ و التَّأْخيرِ - على أَحْوالِ الخِطابِ كَالعِنايَةِ والاهْتِمامِ، ودَلالَةِ مَقاصِدِ المُتَكَلِّمِ على المَعْنى المُرادِ. والمِثالُ على أَنَّ قَصْدَ المُتَكَلِّمِ قَرينَةٌ مُحَكِّمَةٌ أَنَّ المَعانيَ قَدْ تَتَعَدَّدُ واللَّفْظُ واحِدٌ، فَإِذا عُرِفَتْ مَقاصِدُ المُتَكَلِّمِ تَحَدَّدَ المَعْنى المُرادُ المُناسِبُ لِمُقْتَضى الحالِ وتَعَيَّنَ مِنْ بَيْنِ المَعاني المُحْتَمَلَةِ. ويَظْهَرُ هذا التَّحْديدُ في فِعْلِ "رَأى" الذي يَحْتَمِلُ مَعْنى الظَّنِّ و مَعْنى رُؤْيَةِ البَصَرِ. وفِعْلِ "وَجَدَ" الذي يَحْتَمِلُ مَعْنى العِلْمِ ومَعْنى وِجْدانِ الضّالَّةِ، وفِعْلِ "عَلِمَ" الذي يَحْتَمِلُ المَعْنى القَلْبِيَّ ومَعْنى المَعْرِفَةِ[1]. فَكُلُّ فِعْلٍ مِنْ هذِهِ الأَفْعالِ يُعَدُّ رَأْساً مُحْتَمِلاً في مَجالِ جُمْلَةٍ، وتَتَمَيَّزُ الجُمَلُ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ وإِنْ حَمَلَتِ الرَّأْسَ الفِعْلِيَّ نَفْسَهُ؛ ذلِكَ لأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ يَتَضَمَّنُ مَعْلوماتٍ مِنَ العَمَلِ والمَعْنى تُفيدُ اقْتِضاءَهُ مَفْعولاً أَوْ مَفْعولَيْنِ أَوْ غَيْرَ ذلِكَ، ويَخْتارُ المُتَكَلِّمُ الفِعْلَ المُناسِبَ لِمُرادِهِ، الذي

---

[1] [الكتاب:40/1] .

تُطابِقُ مُعْلوماتُهُ مُقْتَضى الحالِ[1] فإذا أُطْلِقَ اللَّفْظُ ثارَ الاحْتِمالُ، **وإذا دَخَلَ الاخْتِيارُ المُطابِقُ لِمُقْتَضى الحالِ تَعَيَّنَ المَطْلوبُ وتَبَيَّنَ أَنَّ مُرادَ المُتَكَلِّمِ أَساسُ دَفْعِ اللَّبْسِ.**



إنَّ بابَ الفاعِلِ واسِطَةٌ في التَّعْدِيَةِ، ولَهُ قيمَةٌ تَرْكيبِيَّةٌ في بِناءِ الجُمَلِ، ولَيْسَ المَقْصِدُ فيهِ أَنْ يَكونَ مُخْتَرِعاً لِلْفِعْلِ على الحَقيقَةِ، ولكِنَّ المَقْصِدَ إسْنادُ الفِعْلِ إليه ورَفْعُهُ بِالفعل، فَصارَ الفاعِلُ فاعِلاً مِنْ طَريقِ النَّحْوِ لا على حَقيقَةِ الفِعْلِ. و«جُمْلَةُ الفاعِلِ» صورَةٌ إسْنادِيَّةٌ كَصورَةِ الابْتِداءِ المَنْسوخِ وغَيْرِها مِنَ الصُّوَرِ المُشْتَقَّةِ مِنْ أَصْلِ الإسْنادِ. وتَدْخُلُ قَواعِدُ الصِّياغَةِ الثّابِتَةُ والمُتَغَيِّرَةُ لِتَنْقُلَ المُجَرَّدَ إلى مُحَقَّقٍ وتُحيلُ الهَيْئاتِ المُخْتَلِفَةَ إلى أَمْثِلَةٍ ظاهِرَةٍ يَسيرُ بِها البَيانُ. وهذِهِ الأَمْثِلَةُ والشَّواهِدُ بِمَثابَةِ مَجْمَعٍ تَلْتَقي فيهِ وتَنْتَظِمُ جِهاتُ وَصْفِ الكَلامِ. وتَسْتَقِرُّ عِنْدَهُ الأَعاريبُ المُخْتَلِفَةُ، ومِنْ هذِهِ الجِهاتِ أَقْسامُ الكَلِمِ [اسم-فعل-حرف]، والعَمَلُ [عامل-معمول-رفع-نصب-جرّ]، والدّلالاتُ النَّحْوِيَّةُ [فاعل-مفعول]، ومَعاني الأَلْفاظِ [دلالاتُ الأَلْفاظِ في المُعْجَم]، وجِهَةُ مُقْتَضى الخِطابِ [دلالَةُ المَقام].

4- "بابُ الفاعِلِ": مَعْنىً نَحْوِيٌّ:

يُمْكِنُ تَقْسيمُ مَباحِثِ الفاعِلِ في الكِتابِ مِنْ حَيْثُ المَعْنى النَّحْوِيّ إلى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ، فَمِنْها ما يَتَّصِلُ بِلَفْظِهِ، ومِنْها ما يَتَّصِلُ بِعَلاقَةِ العامِلِ فيهِ، ومِنْها ما يَتَّصِلُ بِجانِبِ المَعْنى فيهِ.

[1] و يَظْهَرُ في مَنْهَجِ سيبَوَيْهِ أَنَّهُ يَنْسِبُ إلى المُخاطَبِ، عِنْدَما يَتَكَلَّمُ بالأَمْثِلَةِ، قَوْلاً وإرادَةً و يُتْبِعُ ذلِكَ بالمَعْنى الذي يَتَرَتَّبُ على القَوْلِ المُرادِ: «وإنْ قُلْتَ "رَأَيْتُ" فَأَرَدْتَ رُؤْيَةَ العَيْنِ، أو "وَجَدْتُ" فَأَرَدْتَ وِجْدانَ الضّالَّةِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ "ضَرَبْتُ"، ولكِنَّكَ تُريدُ بـ"وَجَدْتُ" عَلِمْتُ وبِرَأَيْتُ ذلِكَ أَيْضاً...» (الكتاب: 40/1)

* أ- فَأمّا **لَفْظُ الفاعِلِ** فَيُفيدُ أَنَّهُ في الأَصْلِ اسْمٌ مُظْهَرٌ مَرْفوعٌ، مُسْنَدٌ إِلَيْهِ فِعْلٌ مَذْكورٌ أَوْ ما في مَعْناهُ[1] . وتُعَدُّ صِفاتُ الفاعِلِ الأَصْلِيَّةُ مُتَجانِسَةً يُوافِقُ بَعْضُها بَعْضاً إذا تَوارَدَتْ في لَفْظِ الفاعِلِ. ولكِنْ قَدْ يَرِدُ الفاعِلُ بِصِفاتٍ فَرْعِيَّةٍ ، كَأَنْ يَرِدَ ضَميراً إذا تَعَذَّرَ وُرودُهُ ظاهِراً .

ومِنَ الأَمْثِلَةِ التي تُفيدُ هذا الإِضْمارَ بَعْضُ «الجُمَلِ المُشْكِلَةِ» [كَجُمْلَةِ التَّنازُعِ] التي يرِدُ فيها أَحَدُ الفِعْلَيْنِ مُسْنَداً إلى فاعِلٍ مُضْمَرٍ «إذا قُلْتَ: ضَرَبوني وضَرَبْتُهُمْ قَوْمَكَ، جَعَلْتَ القَوْمَ بَدَلاً مِنْ "هُمْ" [...] والفاعِلُ هُنا جَماعَةٌ، وضَميرُ الجَماعَةِ الواوُ. وكَذلِكَ تَقولُ: ضَرَبوني وضَرَبْتُ قَوْمَكَ، إذا أَعْمَلْتَ الآخِرَ فَلا بُدَّ في الأَوَّلِ مِنْ ضَميرِ الفاعِلِ لِئَلاّ يَخْلُوَ مِنْ فاعِلٍ». فَلا تَسْتَقيمُ الجُمْلَةُ إلاّ بِهذا الإِجْراءِ لِئَلاّ يَتَرَتَّبَ تَكْريرٌ للاسْمِ الظّاهِرِ (ضَرَبوني قَوْمُكَ وضَرَبْتُهُمْ قَوْمَكَ)، وصِلَةُ هذا الضَّرْبِ مِنَ المَباحِثِ بِبابِ الفاعِلِ واضِحَةٌ في "بابِ الفاعِلَيْنِ والمَفْعولَيْنِ اللَّذَيْنِ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما يَفْعَلُ بِفاعِلِهِ مِثْلَ الذي يَفْعَلُ بِهِ وما كانَ نَحْوَ ذلِكَ"[2]. وهُوَ مِنَ التَّراكيبِ التي عُطِفَتْ فيها جُمْلَةٌ على جُمْلَةٍ لَفْظاً، وتَشْتَرِكُ الجُمْلَتانِ في رابِطٍ دَلالِيٍّ مُوَحِّدٍ يَجْعَلُ مِنْهُما كَلاماً واحِداً، مَعْنىً. والمِثالُ على ذلِكَ: "ضَرَبْتُ وضَرَبَني زَيْدٌ/ ضَرَبَني وضَرَبْتُ زَيْداً"، وقَوْلُ الشّاعِرِ:

ولكِنَّ نِصْفاً لَوْ سَبَبْتُ وسَبَّني /// بَنو عَبْدِ شَمْسٍ مِنْ مَنافٍ وهاشِمِ

وقَوْلُهُ:

وكُمْتاً مُدَمّاةً كَأَنَّ مُتونَها /// جَرى فَوْقَها واسْتَشْعَرَتْ لَوْنَ مُذْهَبِ

---

[1] قَدْ يُحْذَفُ الفِعْلُ فَيَتَعَيَّنُ أَنْ يُرْفَعَ الاسْمُ على الفاعِلِيَّةِ لا على الابْتِداءِ لِموجِبٍ يوجِبُ ذلِكَ، وذلِكَ إذا وَرَدَ الاسْمُ المَرْفوعُ بَعْدَ حَرْفٍ هُوَ في الأَصْلِ مُخْتَصٌّ بِالوُقوعِ على الأَفْعالِ، نَحْو قَوْلِهِ تَعالى: {وإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْه}. {إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ}. ويُشْتَرَطُ لِرَفْعِ هذِهِ الأَسْماءِ على الفاعِلِيَّةِ لا على الابْتِداءِ قَيْدُ التَّفْسيرِ. أَيْ أَنْ يُفَسِّرَ الفِعْلَ المَحْذوفُ بِالفِعْلِ المَذْكورِ بَعْدَهُ: {إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ}، {إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ}، {وإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشوزاً}، {وإِنْ طائِفَتانِ مِنَ المُؤْمِنينَ اقْتَتَلوا فَأَصْلِحوا بَيْنَهُما}. ويَتَرَجَّحُ أَنْ يُرْفَعَ على الفاعِلِيَّةِ في نَحْوِ قَوْلِهِ تَعالى: {أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهيمُ}. {أَأَنْتُمْ تَخْلُقونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالِقونَ}. {فَقالوا أَبَشَرٌ يَهْدونَنا فَكَفَروا وتَوَلَّوْا...}

[2] **الكتاب** : 1/73-74 .

فالاسْمُ مَحْمولٌ على الفِعْلِ الذي يُجاوِرُهُ و هُوَ العامِلُ فيهِ لَفْظاً لِقُرْبِ جِوارِهِ مِنْهُ. أمّا الفِعْلُ غَيْرُ المُعْمَلِ - لِبُعْدِ ما بَيْنَهُ و بَيْنَ الاسْمِ - فَإِنّ المُخاطَبَ يَعْلَمُ وُقوعَهُ عَلَيْهِ مَعْنىً، لا لَفْظاً وإِعْراباً. ويَزْدادُ المِثالُ وُضوحاً بِالبَيانِ التّالي :

ضَرَبْتُ (زَيْداً) و ضَرَبَني زَيْدٌ

ضَرَبَني (زَيْدٌ) و ضَرَبْتُ زَيْداً

ومَصْدَرُ الإِعْمالِ والإِهْمالِ هُوَ الاسْتِغْناءُ عَنِ المُكَرَّرِ لِعِلْمِ المُخاطَبِ ومَعْرِفَتِهِ، ولأَنَّهُ سَيَسْتَدِلُّ بِالمَذْكورِ على المَحْذوفِ. ولَوْ لَم يُحْمَلِ الكَلامُ على الجِوارِ لَقيلَ: "مَرَرْتُ ومَرَّ بي بِزَيْدٍ، وضَرَبْتُ وضَرَبوني قَوْمَكَ"[1] .

فَالفِعْلُ الأَوَّلُ في كُلِّ هذا مُعْمَلٌ في المَعْنى وغَيْرُ مُعْمَلٍ في اللَّفْظِ، والآخِرُ مُعْمَلٌ في اللَّفْظِ والمَعْنى مَعاً. ومِنْ خَصائِصِ التَّراكيبِ التي يَتَنازَعُ فيها الفِعْلانِ العَمَلَ في الاسْمِ المُظْهَرِ:

-**أَنَّ لِكُلِّ فِعْلٍ فاعِلَهُ**، وما زادَ على ذلِكَ فَهُوَ بَدَلٌ :« إذا قُلْتَ "ضَرَبوني وضَرَبْتُهُمْ قَوْمَكَ، جَعَلْتَ القَوْمَ بَدَلاً مِنْ "هُمْ" لأَنَّ الفِعْلَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ فاعِلٍ، والفاعِلُ هٰهُنا جَماعَةٌ، وضَميرُ الجَماعَةِ الواوُ»[2] .

-**وقَدْ يَخْلو الفِعْلُ مِنْ مَفْعولٍ فَيُحْذَفُ، ولا يَخْلو مِنْ فاعِلٍ**: «تَقولُ: ضَرَبوني وضَرَبْتُ قَوْمَكَ، إذا أَعْمَلْتَ الآخِرَ فَلا بُدَّ في الأَوَّلِ مِنْ ضَميرِ الفاعِلِ لِئَلاّ يَخْلُوَ مِنْ فاعِلٍ، وإِنَّما قُلْتَ "ضَرَبْتُ وضَرَبَني قَوْمُكَ" فَلَمْ تَجْعَلْ في الأَوَّلِ الهاءَ والميمَ لأَنَّ الفِعْلَ قَدْ يَكونُ بِغَيْرِ مَفْعولٍ ولا يَكونُ الفِعْلُ بِغَيْرِ فاعِلٍ ». أمّا قَوْلُ الشّاعِرِ: "كَفاني -ولَمْ أَطْلُبْ- قَليلٌ مِنَ المالِ" «فَإِنَّما رفعَ لأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ القَليلَ مَطْلوباً، وإِنَّما كانَ المَطْلوبُ عِنْدَهُ المُلْكَ وجَعَلَ القَليلَ كافِياً، ولَوْ لَمْ يُرِدْ ذلِكَ ونَصَبَ فَسَدَ المَعْنى». وهذا ضَرْبٌ مِنَ اللَّفْظِ مُعَلَّلٌ بِالمَعْنى المُرادِ مِنَ الخِطابِ.

أَمّا "ضَرَبَني وضَرَبْتُ قَوْمَكَ" فَوَجْهُ القُبْحِ فيهِ تَنْزيلُ الفِعْلِ الأَوَّلِ مَنْزِلَةَ الثّاني في جَعْلِ اللَّفْظِ لِلْواحِدِ، وفيهِ خَرْقٌ لِقَيْدِ الاحْتِياجِ، احْتِياجِ الفِعْلِ إلى فاعِلٍ .

---

[1] أمّا "ضَرَبْتُ و ضَرَبوني قَوْمُكَ" فَإِنَّهُ تَرْكيبٌ يُلْتَمَسُ لَهُ وَجْهٌ مِنَ الصِّحَّةِ على لُغَةِ "أَكَلوني البَراغيثُ" أو على الحَمْلِ على البَدَلِ مِنْ ضَميرِ الفاعِلِ، كَأَنَّ الكَلامَ: "ضَرَبْتُ وضَرَبَني ناسٌ بَنو فُلانٍ" .

[2] **الكتاب** : 79/1 .

-**لا بُدَّ مِنْ صِلَةٍ ورَبْطٍ بَيْنَ العامِلَيْنِ المُتَنازِعَيْنِ**: إمّا بِعَطْفٍ، أوْ بِعَمَلِ الأَوَّلِ في الثّاني، نَحْوَ قَوْلِه تَعالى: ﴿وأنَّهُ كانَ يَقولُ سَفيهُنا على اللهِ شَطَطاً﴾، ﴿وأنَّهُمْ ظَنّوا كَما ظَنَنْتُمْ أنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أحَداً﴾، أوْ أنْ يَكونَ الثّاني جَوابَ أمْرٍ في الأَوَّلِ نَحو﴿آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾، ﴿تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُم رَسولُ اللهِ﴾، أوْ جَواباً عَنْ سُؤالٍ في الأَوَّلِ نَحْو﴿يَسْتَفْتونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتيكُمْ في الكَلالَةِ﴾، أوْ بارْتِباطِ مَعْنىً نحو﴿فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾، فَقَدْ حُذِفَ المُتَبَيِّنُ لِدَلالَةِ ما بَعْدَهُ عَلَيْه[1] .

-**لا يَلْزَمُ اسْتِواءُ العامِلَيْنِ المُتَنازِعَيْنِ في جِهَةِ التَّعَدّي مُطْلَقاً**، بَلْ قَدْ يَخْتَلِفُ الطَّلَبُ، فَيَكونُ طَلَبُ أحَدِهِما على جِهَةِ الفاعِلِيَّةِ وطَلَبُ الآخَرِ على جِهَةِ المَفْعولِيَّةِ وذالكَ على جِهَةِ الظَّرْفِ[2]، فَمِنْ تَنازُعِ اللاّزِمِ والمُتَعَدّي "قامَ و ضَرَبْتُ زَيْداً" ومِثْلُهُ ﴿تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسولُ اللهِ﴾[3] .

-**إعْمالُ الثّاني أكْثَرُ في كَلامِ العَرَبِ بالاسْتِقْراءِ**، وكَذا ما وَرَدَ مِنْ جُمَلِ التَّنازُعِ في القُرْآنِ الكَريمِ أُهْمِلَ فيهِ الأَوَّلُ وأُعْمِلَ الثّاني؛ لأَنَّ إعْمالَ الأَوَّلِ يَقْتَضي الإِضْمارَ في الثّاني[4].

-**يَجوزُ أنْ يَكونَ العامِلانِ المُتَنازِعانِ فِعْلَيْنِ** كَما في "كُلوا واشْرَبوا مِنْ رِزْقِ الله"، أوْ **وَصْفَيْنِ** نحو "إنْ أَنا إلاّ نَذيرٌ و بَشيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ"، أوْ **فِعْلاً ووَصْفاً** نَحْو "فَنادَتْهُ المَلائِكَةُ وهُوَ قائِمٌ يُصَلّي في المِحْرابِ"، أوْ **مَصْدَرَيْنِ** نَحْو "ولَكُمْ في الأرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتاعٌ إلى حينٍ"، أوْ **ثَلاثَةَ مَصادِرَ** نحو "ونَزَّلْنا عَلَيْهِ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدىً ورَحْمَةً و بُشْرى لِلْمُسْلِمينَ"، أوِ **اسْمَ فِعْلٍ وفِعْلاً** نَحْو "هاؤُمُ اقْرَءوا كِتابِيَهْ"

-وقَدْ **يَكونُ المُتَنازَعُ فيهِ الفاعِلَ** نَحْو: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمونَ﴾ أوِ المَفْعولَ نحو﴿يُريدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ويَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. وقَدْ يَكونُ المَطْلوبُ الأَوَّلُ مَفْعولاً والثّاني فاعِلاً نحو: ﴿وإذا قيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤوسَهُمْ﴾.

---

[1] الزمخشري، **الكشاف** : 308/1 .

[2] أبو حيان، **البحر المحيط** : 130/7 .

[3] **المصدر نفسه** : 234/5 .

[4] نفسه: 127/3 ، 339/4 .

تِلْكَ بَعْضُ خَصائِصِ «تَرْكِيبِ التَّنازُعِ». هذا وقَدْ يَرِدُ لَفْظُ الفاعِلِ ضَميراً إذا ابْتُدِئَ الكَلامُ بِما يُفيدُهُ: «إذا بَدَأْتَ بِالاسْمِ قُلْتَ: قَوْمُكَ قالوا ذاكَ، وأَبَواكَ قَدْ ذَهَبا؛ لأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ هٰهُنا إضْمارٌ في الفِعْلِ وهُوَ أَسْماؤُهُمْ، فَلا بُدَّ لِلْمُضْمَرِ أَنْ يَجيءَ بِمَنْزِلَةِ المُظْهَرِ، وحينَ قُلْتَ: ذَهَبَ قَوْمُكَ، لَمْ يَكُنْ في ذَهَبَ إضْمارٌ، وكَذلِكَ قالَتْ جارِيَتاكَ، وجاءَتْ نِساؤُكَ»[1]، ولكِنْ لا يُجْمَعُ بَيْنَ إضْمارِ الفاعِلِ وذِكْرِهِ فيما بَعْدُ، فَلا إضْمارَ في الفِعْلِ إذا كانَ فاعِلُهُ اسْماً ظاهِراً «وإنّما قالَتِ العَرَبُ: "قالَ قَوْمُكَ وقالَ أَبَواكَ": لأَنَّهُمْ اكْتَفَوْا بِما أَظْهَروا عَنْ أَنْ يَقولوا "قالا أَبَواكَ، وقالوا قَوْمُكَ"، فَحَذَفوا ذلِكَ اكْتِفاءً بِما أَظْهَروا». والضّابِطُ في المَسْأَلَةِ أَنَّ الفاعِلَ يَأْتي ضَميراً إذا تَقَدَّمَ إظْهارُهُ أَوْ تَأَخَّرَ في الكَلامِ، فَيَكونُ الإضْمارُ بَدَلاً مِنَ الإظْهارِ وبِمَنْزِلَتِهِ، يُفيدُ ما يُفيدُهُ وَظيفَةً ومَعْنىً. وتَتَقَيَّدُ هذِهِ الصّورَةُ بِأَنْ يَكونَ هذا الضَّميرُ مَرْبوطاً بِالظّاهِرِ المُتَقَدِّمِ. وتَظَلُّ دَلالَةُ الفاعِلِ مَحْفوظَةً في سِياقِ الخِطابِ و مَقاصِدِ المُتَكَلِّمِ مَهْما تَخْتَلِفْ صُوَرُهُ ومَواقِعُهُ .

***

5- بنيةُ الفاعل الإسناديَةُ، صورٌ وفروعٌ :

- ويَدْخُلُ في لَفْظِ الفاعِلِ المَفْعولُ النّائِبُ عَنِ الفاعِلِ في الإعْرابِ؛ وذلِكَ لأَنَّ سيبَوَيْهِ دَعاهُ بِلَفْظِ الفاعِلِ: «بابُ المَفعولِ الذي تَعَدّاهُ فِعْلُهُ إلى مَفْعولٍ، وذلِكَ قَوْلُكَ "كُسِيَ عَبْدُ اللهِ الثَّوْبَ، وأُعْطِيَ عَبْدُ اللهِ المالَ" وإنْ شِئْتَ قَدّمْتَ وأَخَّرْتَ فَقُلْتَ "كُسِيَ الثَّوْبَ زَيْدٌ، وأُعْطِيَ المالَ عَبْدُ اللهِ". فَأَمْرُهُ في هذا كَأَمْرِ الفاعِلِ. وتَقولُ "كُسِيَ زَيْدٌ ثَوْباً" فَلا تُجاوِزُ الثَّوْبَ: لأَنَّ الأَوَّلَ بِمَنْزِلَةِ المَنْصوبِ لأَنَّ المَعْنى واحِدٌ وإنْ كانَ لَفْظُهُ لَفْظَ الفاعِلِ»[2]. فَهُوَ في بابِ اللَّفْظِ فاعِلٌ وفي المَعْنى مَفْعولٌ، ووَظيفَتُهُ النَّحْوِيَّةُ وَظيفَةُ الفاعِلِ لأَنَّهُ مَرْفوعٌ مِثْلُهُ، ويَجْري عَلَيْهِ في أَوْضاعِ اللَّفْظِ ما يَجْري على الفاعِلِ.

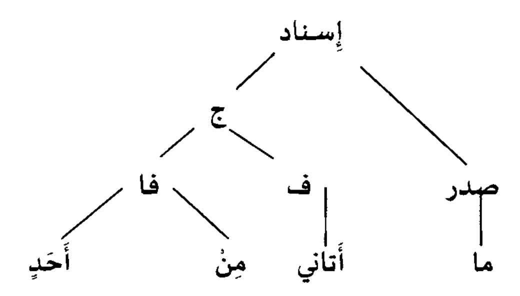
- ويَدْخُلُ في مَبْحَثِ لَفْظِ الفاعِلِ الفاعِلُ مَحَلاً واللَّفْظُ لَفْظُ الجَرِّ: «هذا بابُ ما حُمِلَ على مَوْضِعِ العامِلِ في الاسْمِ والاسْمِ. وذلِكَ قَوْلُكَ "ما أَتاني مِنْ أَحَدٍ إلاّ زَيْدٌ". وإنَّما مَنَعَكَ أَنْ تَحْمِلَ الكَلامَ على "مِنْ" أَنَّهُ خَلْفٌ أَنْ تَقولَ "ما أَتاني إلاّ مِنْ زَيْدٍ". فَلَمّا كانَ كذلِكَ حَمَلَهُ على المَوْضِعِ فَجَعَلَهُ بَدَلاً مِنْهُ كَأَنَّهُ قالَ "ما أَتاني أَحَدٌ إلاّ فُلانٌ": لأَنَّ مَعْنى "ما أَتاني أَحَدٌ" و"ما أَتاني مِنْ أَحَدٍ" واحِدٌ. ولكِنَّ "مِنْ" دَخَلَتْ هُنا تَوْكيداً كَما تَدْخُلُ الباءُ في قَوْلِكَ "كَفى بِالشَّيبِ

---

[1] الكتاب : 37/2 .

[2] المصدر نفسه : 1/41-42 .

والإسْــلامِ"»[1]. وقَدْ زيدَتِ الباءُ في فاعِلِ كَفى في مَواضِــعَ كَثيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ نَحْو قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وكَفى بِاللهِ وَلِيّاً وكَفى بِاللهِ نَصـيراً﴾ وتَخْريجُ الأَمْثِلَةِ والشَّـواهِدِ في هذا البابِ على أَنَّ المَحَلَّ مَحْفوظٌ لِلْفاعِلِ. أَمّا اللَّفْظُ فَفيهِ مانِعُ الظُّهورِ، وهُوَ حَرْفُ الجَرّ الزّائِدُ الذي جيءَ بِهِ لأَغْراضٍ دَلالِيَّةٍ هِيَ إفادَةُ التَّوْكيدِ في سِياقِ النَّفْيِ وإطْلاقِ السَّـلْبِ. ولَيْسَ مانِعُ الظُّهورِ بِشَيْءٍ زائِدٍ تَسْــتَوي مَعَهُ جُمْلَتا "ما أَتاني مِنْ أَحَدٍ" و"ما أَتاني أَحَدٌ"؛ لأَنَّ الاسْــتِواءَ مُتَصَــوَّرٌ في بِنْيَةِ المَعْنى النَّحْوِيِّ [أَوِ الوَظيفَةِ النَّحْوِيَّةِ المُسْـنَدَةِ إلى الأَلْفاظِ] حَيْثُ تَسْـتَوي دَلالَةُ "أَحَد" و"مِنْ أَحَدٍ" وهِيَ الفاعِلِيَّةُ، وتَحُلّانِ في المَوْضِــعِ نفسِــه. أَمّا مَقاصِــدُ الخِطابِ فَإنَّها لا تُسَــوّي دَلالَةَ الأَوَّلِ بِالثّاني لأَنَّ المُرادَ مِنَ الأَوَّلِ غَيْرُ المُرادِ مِنَ الثّاني. يُمْكِنُ أَنْ يورَدَ في هذا السِّــياقِ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ولَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ المُرْسَــلينَ﴾ حَيْثُ أُضْــمِرَ الفاعِلُ لِدَلالَةِ السِّــياقِ عَلَيْهِ، ولكِنَّ الجارَّ والمَجْرورَ هُنا في مَحَلِّ نَصْــبِ حالٌ مِنْ ضَــميرِ الفاعِلِ، والجارُّ هُنا أَصْـلِيٌّ غَيْرُ زائِدٌ لأَنَّ ســيبَوَيْهِ لا يُجيزُ زِيادَتَهُ في الواجِبِ[2]. ومِثْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُم بِذُنوبِهِمْ﴾، وقَريبٌ مِنْهُ ولكِنْ بِدونِ جارٍّ بَلْ بِحَذْفِ الفاعِلِ ودَلالَةِ السِّياقِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ويَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بِإذْنِهِ﴾، و﴿وما كانَ يُغْني عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إلاّ حاجَةً في نَفْسِ يَعْقوبَ قَضاها﴾... ويُمْكِنُ عَرْضُ بِنْيَةِ الجُمْلَةِ التي وَقَعَ فيها الفاعِلُ مَحَلاً في البَيانِ التّالي:



*** ب- وأَمّا عَلاقَةُ الفاعِلِ بِالعامِلِ فيهِ:** فَتُخْتَصَــرُ في حاجَةِ الفِعْلِ إلى فاعِلٍ، وفي الفَواعِلِ لِغَيْرِ الفِعْلِ. وفي قَيْدِ المُطابَقَةِ المَوْضوعِ على تِلْكَ العَلاقَةِ.

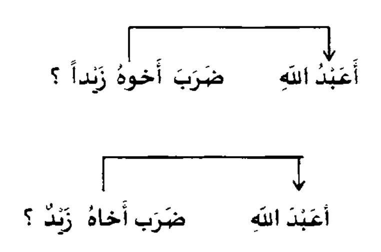
---

[1] **الكتاب**: 316/2.

[2] وهُناكَ مِنَ النُّحاةِ مَنْ ذَهَبَ إلى زِيادَتِها في قَوْلِهِ تَعالى: {لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذيرٍ}، و{ما يَكونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إلاّ هُوَ رابِعُهُمْ}، و{ما تَأْتيهِمْ مِنْ آيَةٍ} و{ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ} و{ما أَصابَ مِنْ مُصيبَةٍ} (**أبو حيان، البحر المحيط**: 97/7، 278/8).

- أَمَا حاجَةُ الفِعْلِ إلى فاعِلٍ فَقَدْ مَرَّ بِنا أَنَّ «الفِعْلَ لا بُدَّ لَهُ مِنَ الاسْـمِ وإلاّ لَمْ يَكُنْ كَلاماً»[1]، «والفِعْلُ لا بُدَّ لَهُ مِنْ فاعِلٍ»، «ولا يَكونُ الفِعْلُ بِغَيْرِ الفاعِلِ»[2]. ويُفيدُ الفاعِلُ مَعْنى نَحْوِيّاً مُحَدَّداً سـواء تَقَدَّمَ على المَفْعولِ أَوْ تَأَخَّرَ: «فَإِنْ قَدَّمْتَ المَفْعولَ وأَخَّرْتَ الفاعِلَ جَرى اللَّفْظُ كَما جَرى في الأَوَّلِ: لأَنَّكَ أَرَدْتَ بِهِ مُؤَخَّراً ما أَرَدْتَ بِهِ مُقَدَّماً، ولَمْ تُرِدْ أَنْ تَشْغَلَ الفِعْلَ بِأَوَّلَ مِنْهُ وإِنْ كانَ مُؤَخَّراً في اللَّفْظِ»[3] وقَدْ يُحْذَفُ الفِعْلُ شَريطَةَ التَّفْسيرِ.

وقَدْ يُحْذَفُ الفِعْلُ شَـريطَةَ التَّفْسـيرِ ويُذْكَرُ الفاعِلُ، وذَلِكَ في الاسْـتِفْهامِ، نَحْوُ "أَعَبْدُ اللهِ ضَـرَبَ أَخوهُ زَيْداً؟"، حَيْثُ قُدِّمَ الفاعِلُ لِلْعِنايَةِ والاهْتِمامِ، وتَصَـدَّرَ التَّرْكيبَ أَداةُ صَـدْرٍ. ويُشْـتَرَطُ هنا قَيْدُ التَّناسُـبِ، فَتَأْتي جُمْلَةُ الفِعْلِ والفاعِلِ بِصيغَةِ الاسْـتِفْهامِ مُصَـدَّرَةً بِأَداةِ اسْـتِفْهامٍ واقِعَةٍ على الفاعِلِ، فَيَكونُ الفاعِلُ مَوْضِـعَ عِنايَةٍ واهْتِمامٍ: لأَنَّهُ اللَّفْظُ المُسْـتَفْهَمُ عَنْهُ، والأَلِفُ أَداةُ اسْـتِفْهامٍ أَيْ لِطَلَبِ الفَهْمِ، والمُرادُ بِالاسْـتِفْهامِ فيهِ التَّصْـديقُ[4]. ويَنْتَهي التَّرْكيبُ بِضَميرٍ رابِطٍ يَرْجِعُ على الأَوَّلِ، ويُشْـتَرَطُ فيهِ قَيْدُ المُطابَقَةِ بَيْنَ صَدْرِ التَّرْكيبِ وعَجُزِهِ وإِجْراءُ حُكْمِهِ عَلَيْهِ. وقَدْ خَرَجَ الاسْـمُ المَرْفوعُ مِنْ أَنْ يُنْصَـبَ بِفِعْلٍ مُضْـمَرٍ لانْتِفاءِ النّاصِـبِ فَارْتَفَعَ على الفاعِلِيَّةِ. ويَتَجَلّى قَيْدُ التَّناسُـبِ في مُناسَبَةِ الرَّفْعِ في الاسْـمِ الأَوَّلِ مِنَ المِثالِ للرَّفْعِ في الفاعِلِ الثّاني، مِثْلَما ناسَبَ المَنْصوبُ المُتَأَخِّرُ المَنْصوبَ المُتَقَدِّمَ في نَحْوِ "أَعَبْدَ اللهِ ضَرَبَ أَخاهُ زَيْدٌ؟" حَيْثُ اتَّخَذَ المُسْتَفْهَمُ عَنْهُ الواقِعَةُ عَلَيْهِ هَمْزَةُ الاسْتِفْهامِ إِعْرابَ ما هُوَ مِنْ سَبَبِهِ. و يَتَجَلّى قَيْدُ التَّناسُـبِ في قَوْلِ سـيبَوَيْهِ: «الذي مِنْ سَـبَبِ عَبْدِ اللهِ مَرْفوعٌ فاعِلٌ، والذي لَيْسَ مِنْ سَبَبِهِ مَفْعولٌ، فَيَرْتَفِعِ الذي لَيْسَ مِنْ سَبَبِهِ كَما يَنْتَصِبُ إِذا انْتَصَبَ» [5] .



[1] الكتاب : 21/1-23 .

[2] المصدر نفسه : 31/1 .

[3] الكتاب : 34/1 .

[4] و قَدْ تَأْتي الأَلِفُ لِتَمامِ التَّصْديرِ، وتُقَدَّمُ على حَرْفِ العَطْفِ تَنْبيهاً على أَصالَتِها في التَّصْديرِ خِلافاً لأَخَواتِها. وقَدْ ذَكَرَ ابْنُ هِشامٍ أَنَّ هذا مَذْهَبُ سيبَوَيْهِ (ابنُ هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص:22).

[5] الكتاب : 102/1 .

وهذا ضَرْبٌ مِنَ التَّناسُبِ بَيْنَ الشَّيْءِ وسَبَبِيِّهِ، أَوْ ما يُمْكِنُ تَسْمِيَتُهُ بِ"تَشاكُلِ الجُمَلِ" [1].

أَمّا الفاعِلُ لِغَيْرِ الفِعْلِ فَهُوَ كُلُّ فاعِلٍ وَرَدَ وَصْفاً جارِياً على فِعْلِهِ في العَمَلِ سواء كانَ اسْمَ فاعِلٍ أَوْ صِفَةً مُشَبَّهَةً نَحْوَ قَوْلِنا "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُلازِمِكَ" حَيْثُ تكونُ الصِّفَةُ نَعْتاً للنَّكِرَةِ ، و مِنْهُ قَوْلُ الشّاعِرِ:

ونَظَرْنَ مِنْ خلَلِ الخُدورِ بِأَعْيُنٍ /// مَرْضى مُخالِطِها السّقامُ صِحاحِ

° **أَمّا اسْمُ الفاعِلِ الجاري على الفِعْلِ في رَفْعِ فاعِلِهِ** بَعْدَهُ فَقَدْ وَرَدَ في "بابِ ما يَجْري عَلَيْهِ صِفَةُ ما كانَ مِنْ سَبَبِهِ وصِفَةُ ما الْتَبَسَ بِهِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنْ سَبَبِهِ كَمجْرى صِفَتِهِ التي خَلصَتْ لَهُ "[2]. ومِنَ الأَمْثِلَةِ على البابِ :

1- مَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضارِبٍ أَبوهُ رَجُلاً
2- مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُلازِمٍ أَبوهُ رَجُلاً
3- مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُلازِمٍ أَباهُ رَجُلٌ
4- مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُخالِطٍ أَباهُ داءٌ
5- مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُنْطَلِقَةٍ جارِيَتانِ يُحِبُّهُما .

فالمِثالانِ الأَوَّلانِ يُفيدانِ الصِّفَةَ الجارِيَةَ على الفِعْلِ في العَمَلِ، وهِيَ عِبارَةٌ عَنْ مُرَكَّبٍ وَصْفِيٍّ مُكَوَّنٍ مِن اسْمِ فاعِلٍ [ضارب، ملازِم، مخالط]، ومِنَ الاسْمِ المَرْفوعِ بَعْدَهُ وهُوَ الفاعِلُ [الأب] وهُوَ مُضافٌ إلى ضَميرٍ [هو الهاء] هُوَ مِنْ سَبَبِ الرَّجُلِ الأَوَّلِ.

أَمّا المِثالُ الثّالِثُ فَهُوَ عَلَمٌ على ما الْتَبَسَ بِشَيْءٍ مِنْ سَبَبِهِ [الصِّفَةُ "ملازم" وفاعِلُها الرَّجُلُ الثّاني]، وتَنوينُ اسْمِ الفاعِلِ واطِّراحُهُ سَواء، حَيْثُ يَسْتَوي "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُلازِمٍ أَباهُ رَجُلٌ" و "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُلازِمِ أَبيهِ رَجُلٌ": «فَإِنْ أَلْقَيْتَ التَّنْوينَ جَرى مجْرى الأَوَّلِ إذا أَرَدْتَ ذلِكَ المَعْنى، ولكِنَّكَ تُلْقي التَّنْوينَ تَخْفيفاً»[3]، وتُعْتَبَرُ هُنا المُطابَقَةُ بَيْنَ الاسْمِ المَنْعوتِ وبَيْنَ المُرَكَّبِ الوَصْفِيِّ كُلِّهِ، الذي يَعودُ مِنْهُ ضَميرٌ رابِطٌ يَشُدُّهُ بِالمَنْعوتِ ويُحَصِّلُ بَيْنَهُما المُطابَقَةَ المَعْنِيَّةَ. إِنَّ التَّرْكيبَيْنِ [مُلازِمٍ أَباهُ] و[مُلازِمِ أَبيهِ] مُسْتَوِيانِ عِنْدَ سيبَوَيْهِ لَفْظاً وعَمَلاً. وتُعْتَبَرُ الإِضافَةُ مُلْحَقَةً بِالتَّنْوينِ ومُعاقِبَةً لَهُ وبِمَنْزِلَتِهِ، مَعَ قَيْدِ إِرادَةِ المُتَكَلِّمِ العَرَبِيِّ واسْتِعْمالِهِ، ولَيْسَ بِمُطْلَقِ

---

[1] أبو عليّ الفارسيّ، **التَّعْليقَةُ على كِتابِ سيبَوَيْهِ**: 126/1 .
[2] **الكتاب** : 18/2 .
[3] **المصدر نفسه** : 18/2-19-20 .

تَضْمينِ لَفْظٍ مَعْنى لَفْظٍ آخَرَ. وقَدْ بَيَّنَ القَيْدَ بِقَوْلِهِ: «الصِّفَةُ إذا كانَتْ للأَوَّلِ فَالتَّنْوينُ وغَيْرُ التَّنْوينِ سَواء، إذا أَرَدْتَ بِإسْقاطِ التَّنْوينِ مَعْنى التَّنْوينِ».

والقَيْدُ الآخَرُ أَنَّهُ إذا عُرِّفَتِ الصِّفَةُ العامِلَةُ تَعَيَّنَتِ الإضافَةُ ولا يُحتَمَلُ التَّنْوينُ حينَئِذٍ، وذلِكَ نَحْوُ "مَرَرْتُ بِعَبْدِ اللهِ المُلازِمِهِ أَبوهُ"، حَيْثُ جَرَتِ الصِّفَةُ المُعَرَّفَةُ على المَعْرِفَةِ. أَمّا في المَعْنى فَالإضافَةُ تَخْتَلِفُ عَنِ التَّنْوينِ في الزَّمانِ المُرادِ حُصولُ الصِّفَةِ فيهِ.

° أَمّا **الصِّفَةُ المُشَبَّهَةُ باسْمِ الفاعِلِ** فَيُفيدُها قَوْلُهُ: «هذا بابُ ما جَرى مِنَ الأَسْماءِ التي مِنَ الأَفْعالِ وما أَشْبَهَها مِنَ الصِّفاتِ التي لَيْسَتْ بِعَمَلٍ نَحْو الحَسَنِ والكَريمِ وما أَشْبَهَ ذلِكَ مجْرى الفِعْلِ إذا أَظْهَرْتَ بَعْدَهُ الأَسْماءَ أَوْ أَضْمَرْتَها وذلِكَ قَوْلُكَ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنٍ أَبَواهُ" و"أَحَسَنٌ أَبَواهُ؟" فَصارَ هذا بِمَنْزِلَةِ "قالَ أَبَواكَ" و"قالَ قَوْمُكَ"»[1]. فَقَدِ ارْتَفَعَ "أَبَواهُ" بِالصِّفَةِ "حَسَنٌ" جَرْياً على الفِعْلِ في الرَّفْعِ يُفيدُ ذلِكَ قَوْلُهُ أَيْضاً: «هذا بابُ ما جَرى مِنَ الصِّفاتِ غَيْرِ العَمَلِ على الاسْمِ الأَوَّلِ إذا كانَ لِشَيْءٍ مِنْ سَبَبِهِ، وذلِكَ قَوْلُكَ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنٍ أَبوهُ" ومَرَرْتُ بِرَجُلٍ كَريمٍ أَخوهُ" وما أَشْبَهَ هذا». وتَجْري الصِّفَةُ المُشَبَّهَةُ على مَوْصوفِها حَتّى تَصيرَ بِمَنْزِلَتِهِ، وذلِكَ نَحْوُ "مَرَرْتُ بِالْكَريمِ أَبوهُ" و"أَتاني الحَسَنَةُ أَخْلاقُهُ". فَالفِعْلُ (مَرَّ وأَتى) لَمْ يَقَعْ على الصِّفَةِ (الكَريم والحَسَنَة) بَلْ وَقَعَ على مُلابِسٍ لَها مَعْنىً مَعْمولِها، بِالرَّفْعِ لَفْظاً، وكَأَنَّهُ في اللَّفْظِ "مَرَرْتُ بِالكَريمِ" و"أَتاني الحَسَنُ"، فَجَرى مجْرى الاسْمِ مِثْلَما جَرى مجْرى الصِّفَةِ.

ويَظْهَرُ مِنْ هذِهِ الأَبْوابِ رَبْطُ اللَّفْظِ بِالمَعْنى أَوِ الإعْرابِ بِالدَّلالَةِ. فَمِنْ سِماتِ اللَّفْظِ والتَّرْكيبِ أَنَّ الوَصْفَ تابِعٌ للاسْمِ قَبْلَهُ، مُنَزَّلٌ مِنْهُ مَنْزِلَةَ الصِّفَةِ لَهُ. ومِنْ سِماتِ المَعْنى أَنَّ الذي جَوَّزَ الإجْراءَ أَوِ التَّنْزيلَ هُوَ أَنَّ المَوْصوفَ الحَقيقِيَّ مُتَّصِلٌ بِالاسْمِ بِسَبَبِيِّهِ، وأَداةُ الرَّبْطِ الهاءُ.

وبِالجُمْلَةِ فَإِنَّ الفاعِلَ يُلْتَمَسُ في كُلِّ مَقولَةٍ تُفيدُ في ذاتِها وَصْفاً، سَواء أَكانَتْ خَبَراً لِمُبْتَدَإٍ أَوْ لِفِعْلٍ ناقِصٍ أَوْ لِحَرْفٍ مُشَبَّهٍ بِالفِعْلِ، أَمْ كانَتْ حالاً. ويَكونُ مُسْتَتِراً إذا اكْتُفِيَ بِالصِّفَةِ أَوْ بارِزاً إذا الْتَبَسَ بِالوَصْفِ بِشَيْءٍ مِنْ سَبَبِهِ.

*** جـ-إشْكالُ المُطابَقَةِ بَيْنَ الفاعِلِ و العامِلِ فيهِ:** يَتَّصِلُ بِالجانِبِ العَلاقِيِّ في الفاعِلِ قَضِيَّةُ المُطابَقَةِ بَيْنَ العامِلِ والفاعِلِ بَعْدَهُ. فَإِذا كانَ العامِلُ فِعْلاً فَلا يَخْلو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:

---

[1] **الكتاب**: 36/2.

-إمّا أنْ يَتَأَخَّرَ عَلَيْهِ الاسْمُ فَيَكون فاعِلاً لَفْظاً ومَعْنىً، وتَكون المُطابَقَةُ بَيْنَ الفِعْلِ والفاعِلِ في التّذْكيرِ والتَّأْنيثِ دونَ العَدَدِ، وهِيَ مُطابَقَةٌ ناقِصَةٌ: «حينَ قُلْتَ "ذَهَبَ قَوْمُكَ" لَمْ يَكُنْ في ذلِكَ إضْمارٌ، وكذلِكَ "قالَتْ جارِيَتاكَ" و"جاءَتْ نِساؤُكَ"»[1]. وإذا عُطِفَ على الفاعِلِ فَإنَّهُ لا يُراعى إلاّ المَعْطوفُ عَلَيْهِ في المُطابَقَةِ، وذلِكَ وارِدٌ في القُرْآنِ الكَريمِ نَحْو: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ﴾، ﴿شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وأَهْلونا﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ﴾، ﴿لا تُلْهيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾، ﴿لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها ولا مَوْلودٌ..﴾، ﴿وما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ والإنْجيلُ إلاّ مِنْ بَعْدِهِ﴾، ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشِفاءٌ لِما في الصُّدورِ﴾. وقَدْ تَشُذُّ بَعْضُ العِباراتِ عَنْ قاعِدَةِ المُطابَقَةِ ولكِنْ بِقَيْدٍ كَقَيْدِ السَّماعِ فَيَنْقَلِبُ القِياسُ، حَيْثُ تَخْتَلُّ المُطابَقَةُ في التَّذْكيرِ والتَّأْنيثِ نَحْو قَوْلِ بَعْضِ العَرَبِ: "قالَ فُلانَةُ"[2]، وفي العَدَدِ نَحْو قَوْلِ بَعْضِ العَرَبِ: "ضَرَبوني قَوْمُكَ" و"ضَرَباني أَخَواكَ" فَشَبَّهوا هذا بِالتّاءِ التي يُظْهِرونَها في "قالَتْ فُلانَةُ" وكَأَنَّهُمْ أَرادوا أَنْ يَجْعَلوا لِلْجَمْعِ عَلامَةً كَما جَعَلوا لِلْمُؤَنَّثِ، وهِيَ قَليلَةٌ، نَحو قَوْلِ الشّاعِرِ:

ولكِنْ دِيافِيٌّ أَبوهُ وأُمُّهُ /// بِحَوْرانَ يَعْصِرْنَ السَّليطَ أَقارِبُهْ[3]

وقَدْ تَشُذُّ بِقَيْدِ طولِ الكَلامِ الذي فيهِ فَصْلٌ بَيْنَ الفِعْلِ والفاعِلِ، نَحْو "حَضَرَ القاضِيَ امْرَأَةٌ"، حَيْثُ يَكونُ الطّولُ بَدَلاً مِنْ ذِكْرِ عَلامَةِ المُطابَقَةِ «لأَنَّهُ إذا طالَ الكَلامُ كانَ الحَذْفُ أَجْمَلَ، وكَأَنَّهُ شَيْءٌ يَصيرُ بَدَلاً مِنْ شَيْءٍ. وإنَّما حَذَفوا التّاءَ [أَيْ خَرَجَ الكَلامُ عَنِ المُطابَقَةِ في التَّأْنيثِ] لأَنَّهُمْ صارَ عِنْدَهُمْ إظْهارُ المُؤَنَّثِ يَكْفيهِمْ عَنْ ذِكْرِهِمُ التّاءَ كَما كَفاهُمُ الجَميعُ والاثْنانِ -حينَ أَظْهَروهُمْ- عَنِ الواوِ والأَلِفِ»[4]. ومِثْلُهُ مِمّا فُصِلَ فيهِ بَيْنَ الفِعْلِ المُذَكَّرِ والفاعِلِ المُؤَنَّثِ في القُرْآنِ الكَريمِ كَثيرٌ نَحْو قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لِئَلاّ يَكونَ لِلنّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، ﴿فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ﴾، ﴿قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ في فِئَتَيْنِ الْتَقَتا﴾، ﴿وأَخَذَ الذينَ ظَلَموا الصَّيْحَةُ﴾، ﴿ولَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَراءِ﴾. وعَدَمُ المُطابَقَةِ -هذا- لُغَةٌ في الوَصْلِ شاذَّةٌ تُسْمَعُ مِنْ غَيْرِ قِياسٍ حَيْثُ جَعَلوا لِلْجَمْعِ عَلامَةً مِثْلَما جُعِلَتْ لِلْمُؤَنَّثِ، خِلافاً لِلُغَةِ الفاصِلَةِ نَحْو "انْطَلَقوا، بَنو فُلانٍ".

---

[1] الكتاب : 38/2 .

[2] الكتاب: 38/2 .

[3] الكتاب : 40/2 .

[4] الكتاب : 38/2 .

وقَدْ تَشُذُّ بِقَيْدِ البَدَلِيَّةِ «أَمّا قَوْلُهُ جَلَّ ثَناؤُهُ ﴿وأَسَرّوا النَّجْوى الذينَ ظَلَموا﴾ فإِنَّما يَجيءُ على البَدَلِ وكَأَنَّهُ قالَ "انْطَلَقوا" فَقيلَ لَهُ "مَنْ ؟" فَقالَ "بَنو فُلانٍ"...»[1].

أَوْ بِقَيْدِ المَعْنى، حَيْثُ تَرِدُ المُطابَقَةُ في المَعْنى لا في اللَّفْظِ نَحْو قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيّارَةِ﴾. ورُبَّما قالوا في بَعْضِ الكَلامِ "ذَهَبَتْ بَعْضُ أَصابِعِهِ"، وإِنَّما أُنِّثَ "بَعْض" لأَنَّهُ أُضيفَ إلى مُؤَنَّثٍ هُوَ مِنْهُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ لَمْ يُؤَنَّثْ، ولَوْ قيلَ "ذَهَبَتْ عَبْدُ أُمِّكَ لَمْ يَجُزْ". ومِنَ العَرَبِ مَنْ يَقولُ "اجْتَمَعَتْ أَهْلُ اليَمامَةِ، لأَنَّ أَصْلَ الكَلامِ "اجْتَمَعَتِ اليَمامَةُ، والمَعْنى "أَهْلُ اليَمامَةِ":«فَأَنَّثَ الفِعْلَ في اللَّفظِ إِذْ جَعَلَهُ في اللَّفْظِ لِلْيَمامَةِ، فَتَرَكَ اللَّفْظَ يَكونُ على ما يَكونُ عَلَيْهِ في سَعَةِ الكَلامِ»[2].

-أَمّا الأَمْرُ الثّاني في إِشْكالِ المُطابَقَةِ بَيْنَ الفاعِلِ و العامِلِ فيهِ فَهُوَ أَنَّ الاسْمَ قَدْ يَتَقَدَّمُ على الفِعْلِ فَيَكونُ مُبْتَدأً لَفْظاً، فاعِلاً في المَعْنى، وتُشْتَرَطُ المُطابَقَةُ التّامَّةُ بَيْنَ الاسْمِ والفِعْلِ: «إِذا بَدَأْتَ بِالاسْمِ قُلْتَ "قَوْمُكَ قالوا ذاكَ" و"أَبَواكَ قَدْ ذَهَبا": لأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ هَهُنا إِضْمارٌ في الفِعْلِ وهُوَ أَسْماؤُهُمْ، فَلا بُدَّ أَنْ يَجيءَ المُضْمَرُ بِمَنْزِلَةِ المُظْهَرِ» ويُطابِقَهُ. يَقولُ السّيرافِيُّ شارِحاً مَذْهَبَ سيبَوَيْهِ: «إِذا ثَنَّيْتَ شَيْئاً مِنْ هذا أَوْ جَمَعْتَهُ فَالوَجْهُ رَفْعُهُ بِالابْتِداءِ لأَنَّكَ أَخْرَجْتَهُ عَنْ مَذْهَبِ الفِعْلِ بِتَرْكِ التَّوْحيدِ»[3]. وتَأْويلُ المَسْأَلَةِ أَنَّ اسْمَ الفاعِلِ خَرَجَ عَنْ جَرَيانِهِ على الفِعْلِ إلى مَذْهَبِ الاسْمِ: «فَإِذا جَعَلَهُ اسْماً لَمْ يَكُنْ إِلاّ الرَّفْعُ على كُلِّ حالٍ. تَقولُ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُلازِمُهُ رَجُلٌ" أَيْ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ صاحِبُ مُلازَمَتِهِ رَجُلٌ"، فَصارَ هذا كَقَوْلِكَ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَخوهُ رَجُلٌ"، وتَقولُ على هذا الحَدِّ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُلازِموهُ بَنو فُلانٍ"، فَقَوْلُكَ "مُلازِموهُ" يَدُلُّكَ على أَنَّهُ اسْمٌ». ويَعْني ذلِكَ أَنَّ اسْمَ الفاعِلِ إِذا طابَقَ الاسْمَ المَرْفوعَ بَعْدَهُ مُطابَقَةً تامَّةً رُفِعَ بِالابْتِداءِ وانْقَطَعَ عَمّا قَبْلَهُ: لأَنَّهُ أُخْرِجَ عَنْ مَذْهَبِ الفِعْلِ بِتَرْكِ التَّوْحيدِ.

وقَدْ يَتَقَدَّمُ الاسْمُ -وهُوَ فاعِلٌ- على فِعْلِهِ بَعْدَ حَرْفٍ مِنَ الحُروفِ المُخْتَصَّةِ بِالأَفْعالِ. يَقولُ سيبَوَيْهِ: «هذا بابُ الحُروفِ التي لا يَليها بَعْدَها إِلاّ الفِعْلُ ولا تُغَيِّرُ الفِعْلَ عَنْ حالِهِ. فَمِنْ تِلْكَ الحُروفِ "قَدْ وسَوْفَ، ورُبَّما وقَلَّما وأَشْباهُهُما، وهَلاّ ولَوْلا وأَلا" [...] وقَدْ يَجوزُ في الشِّعْرِ تَقْديمُ الاسْمِ، نَحْو قَوْلِ الشّاعِرِ:

---

[1] **الكتاب** : 41/2 .

[2] **الكتاب** : 53/1 .

[3] **الكتاب** : 41/2 (الحاشية) .

صَدَدْتِ فَأَطْوَلْتِ الصُّدودَ وقَلَّما /// وِصالٌ على طولِ الصُّدودِ يَدومُ

وإنّما الكَلامُ: وقَلَّما يَدومُ وِصالٌ»[1].

وإذا كانَ العامِلُ غَيْرَ فِعْلٍ فَإِنَّ لِلْمُطابَقَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ الاسْمِ بَعْدَهُ صُوَراً، مِنْها **المُطابَقَةُ بَيْنَ اسْمِ الفاعِلِ** الجاري مجْرى الفِعْلِ في العَمَلِ **وبَيْنَ الفِعْلِ بَعْدَهُ**، في التَّذْكيرِ والتّأنيثِ دونَ العَدَدِ، وذلكَ نَحْو "أذاهِبَةٌ جارِيَتاكَ"[2]، ونَحْو "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضارِبٍ أبوهُ رَجُلاً" و"مَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضارِبٍ أَباهُ رَجُلٌ"[3]. عَلامَةُ إجْراءِ اسْمِ الفاعِلِ مجْرى الفِعْلِ في حُصولِ المُطابَقَةِ المَذْكورَةِ سَلامَةُ بِنائِهِ في الجَمْعِ، أَوْ ما يُمْكِنُ تَسْمِيَتُهُ بِقَيْدِ جَمْعِ السَّلامَةِ، وهُوَ قَيْدٌ لَفْظِيٌّ، «إنّما يَجْري مجْرى الفِعْلِ ما دَخَلَهُ الأَلِفُ والنّونُ والواوُ والنّونُ في التَّثْنِيَةِ والجَمْعِ ولمْ يُغَيِّرْهُ، نَحْو قَوْلِكَ: حَسَنٌ وحَسَنانِ، فَالتَّثْنِيَةُ لَمْ تُغَيِّرْ بِناءَهُ. وتقولُ: حَسَنونَ. فَالواوُ والنّونُ لَمْ تُغَيِّرِ الواحِدَ»[4].

ومِمّا يُلْحَقُ بِاسْمِ الفاعِلِ في جَرَيانِهِ على الفِعْلِ ومُوافَقَتِهِ لِقَيْدِ سَلامَةِ بِناءِ الجَمْعِ قَوْلُ الخَليلِ: «وكَذلِكَ شابٌّ وشَيْخٌ وكَهْلٌ، إذا أَرَدْتَ شابّينَ وشَيْخينَ وكَهْلينَ، تَقولُ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ كَهْلٍ أَصْحابُهُ، ومَرَرْتُ بِرَجُلٍ شابٍّ أَبَواهُ»[5] وقَدْ بَيَّنَ السِّيرافِيُّ هذا الجَرَيانَ وحُكْمَ المُطابَقَةِ بِقَوْلِهِ: «الصِّفَةُ الجارِيَةُ مجْرى الفِعْلِ تُجْمَعُ جَمْعَ سَلامَةٍ، كَما أَنَّ الفِعْلَ يَتَّصِلُ بِهِ تَثْنِيَةُ الضَّميرِ وجَمْعُهُ، فَلِذلِكَ صارَ "شابَّ أَبوهُ" على مَذْهَبِ شابّينَ وشَيْخينَ وكَهْلينَ أَيْ مَذْهَبِ شَبّوا وشاخوا واكْتَهَلوا. وإذا تَقَدَّمَ الفِعْلُ وُحِّدَ. واسْمُ الفاعِلِ المُوَحَّدُ المُقَدَّمُ بِمَنْزِلَةِ الفِعْلِ المُقَدَّمِ المُوَحَّدِ»[6].

وهُناكَ قَيْدٌ آخَر يَغْلِبُ أَنْ يُلازِمَ تَرْكيبَ اسْمِ الفاعِلِ العامِلِ عَمَلَ الفِعْلِ إذا ابْتُدِئَ بِهِ الكَلامُ، وهُوَ قَيْدُ الاعْتِمادِ، أَيْ اعْتِمادِ اسْمِ الفاعِلِ المُبْتَدَإِ على حَرْفِ اسْتِفْهامٍ أَوْ نَفْيٍ أَوْ على كَلامٍ سابِقٍ. وقَدْ تَسْقُطُ المُطابَقَةُ في المُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ فَيَأْتي الاسْمُ الجاري على الفِعْلِ مُذَكَّراً والفاعِلُ مُؤَنَّثاً، وذلِكَ لأَسْبابٍ دَلالِيَّةٍ تَتَّصِلُ بِمَقامِ الخِطابِ ويَكونُ اللَّبْسُ مَأْموناً. ومِنْ هذِهِ

---

[1] **الكتاب** : 31/1 .

[2] **الكتاب**: 36/2 .

[3] **الكتاب**: 18/2 .

[4] **الكتاب** : 42/2-43 .

[5] **الكتاب**: 41/2 .

[6] **الكتاب**: 41/2 (حاشية المحقق) .

الأَسْبابِ أَنَّ المُطابَقَةَ مَعَ الفِعْلِ يَحْظى بِها الفاعِلُ العاقِلُ تَفْضيلاً لَهُ وتَقْديماً على غَيْرِ الْعاقِلِ الذي يَجوزُ أَلاّ يُطابِقَ الفِعْلَ: «فرَّقوا بَيْنَ الآدَمِيّينَ وغَيْرِهِمْ [...] مِمّا جاءَ في القُرْآنِ مِنَ المَواتِ قَدْ حُذِفَتْ فيهِ التّاءُ قَوْلُهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ﴾، ﴿مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ البَيِّناتُ﴾، وهذا النَّحْوُ كَثيرٌ في القُرْآنِ. أَلا تَرى أَنَّ لَهُمْ في الجَميعِ حالاً لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ، لأَنَّهُمُ الأَوَّلونَ وأَنَّهُمْ قَدْ فُضِّلوا بما لمْ يُفَضَّلْ بِهِ غَيْرُهُمْ مِنَ العَقْلِ والعِلْمِ، وأمّا الجَميعُ مِنَ الحَيَوانِ الذي يُكَسَّرُ عَلَيْهِ الواحِدُ فَبِمَنْزِلَةِ الجَميعِ مِنْ غَيْرِهِ الذي يُكَسَّرُ عَلَيْهِ الواحِدُ في أَنَّهُ مُؤَنَّثٌ. وما أَشْبَهَ ذلِكَ يَجْري هذا المجْرى؛ لأَنَّ الجَميعَ يُؤَنَّثُ وإِنْ كانَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُ مُذَكَّراً مِنَ الحَيَوانِ. فَلَمّا كانَ ذلِكَ صَيَّروهُ بِمَنْزِلَةِ المَواتِ؛ لأَنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنَ الأَوَّلِ الأَمْكَنِ حَيْثُ أَرَدْتَ الجَميعَ، فَلَمّا كانَ ذلِكَ احْتَمَلوا أَنْ يُجْروهُ مجْرى الجَميعِ المَواتِ، قالوا: جاءَ جَواريكَ، وجاءَ نِساؤُكَ، وجاءَ بَناتُكَ، وقَوْلِه تَعالى: ﴿وقالَ نِسْوَةٌ في المَدينَةِ﴾ »[1]، ومِنْهُ قَوْلُهُ أَيْضاً: ﴿إذا جاءَكَ المؤْمِناتُ﴾، ﴿إذا جاءَكُمُ المُؤْمِناتُ﴾ مَعَ الفَصْلِ بَيْنَ الفِعْلِ المُذَكَّرِ والفاعِلِ المُؤَنَّث.

لَقَدْ فَرَّقَ سيبَوَيْهِ بَيْنَ المَواتِ والحَيَوانِ، ودَلَّتْ أَلْفاظُ المَواتِ والحَيَوانِ والآدَمِيّينَ أَنَّ لَهُ تَصَوُّراً في ما تَتَضَمَّنُهُ الأَلْفاظُ مِنْ سِماتٍ وخَصائِصَ دَلالِيَّةٍ وهِيَ قاعِدَةٌ دلالِيَّةٌ تَقومُ على أَساسِها المُطابَقَةُ أَوْ عَدَمُها؛ ذلِكَ أَنَّ العَرَبَ جَعَلَتْ لِلْعاقِلِ اخْتِصاصاً في اللَّفْظِ يَفْصِلُ بَيْنَهُ وبَيْنَ غَيْرِ العاقِلِ في جَمْعِ السَّلامَةِ؛ لأَنَّ العاقِلَ مُتَكَلِّمٌ ومُخاطَبٌ ولَهُ مَقاصِدُ خِطابٍ، أَمّا غَيْرُ العاقِلُ فَقَدْ أُلْحِقَ بِلَفْظِ المُؤَنَّثِ في لِسانِ العَرَبِ، لأَنَّهُ فَرْعٌ على العاقِلِ ومُنْحَطٌّ عَنْهُ دَرَجَةً، مِثْلَما تَفَرَّعَ المُؤَنَّثُ عَنِ المُذَكَّرِ وقَلَّ عَنْهُ. فَجُمِعَ غَيْرُ العاقِلِ بِالأَلِفِ والتّاءِ جَمْعَ سَلامَةٍ كَما جُمِعَ مُؤَنَّثُ العاقِلِ[2].

ومِنْ صُوَرِ المُطابَقَةِ أَيْضا **المُطابَقَةُ بَيْنَ الصِّفَةِ المُشَبَّهَةِ وفاعِلِها** حَمْلاً على مُطابَقَةِ الفاعِلِ لِلْفِعْلِ. وقَدْ صَرَّحَ بِهذا الحَمْلِ سيبَوَيْهِ في "بابِ ما جَرى مِنَ الأَسْماءِ التي مِنَ الأَفْعالِ وما أَشْبَهَها مِنَ الصِّفاتِ التي لَيْسَتْ بِعَمَلٍ نَحْو الحَسَنِ والكَريمِ وما أَشْبَهَ ذلِكَ مَجْرى الفِعْلِ

---

[1] **الكتاب** : 39/2 .

[2] أمّا إذا كُسِرَ بناءُ الجمْعِ فإنّهُ يَجوزُ عَدَمُ المُطابَقةِ، ويسْلُكُ العاقِلُ مَسْلَكَ المُؤَنَّثِ المُفْرَدِ، نحو {تِلْكَ الرُّسُل} و{قالَتِ الأعْرابُ}، {وقالَ نِسْوَةٌ}، و "هِيَ الرِّجالُ". وهذا بابٌ مِنْ أبوابِ المَعْنى في مَبْحَثِ الفاعِل.

إذا أَظْهَرْتَ بَعْدَهُ الأَسْماءَ أَوْ أَضْمَرْتَها. وذلِكَ قَوْلُكَ: "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنٍ أَبَواهُ"، و"أَحَسَنٌ أَبَواهُ ؟" و"أَخارِجٌ قَوْمُكَ؟" فَصارَ هذا بِمَنْزِلَةِ "قالَ أَبَواكَ" و"قالَ قَوْمُكَ"»[1].

أَمّا إذا سَقَطَ قَيْدُ جَمْعِ السَّلامَةِ فَإِنَّ المطابَقَةَ في العَدَدِ تَحْصُلُ، ويَكونُ ذلِكَ في الصِّفاتِ التي لا تَجْري مجْرى الفِعْلِ في عَمَلِ الرَّفْعِ، نَحْو "عورٌ قَوْمُكَ؟" ومَرَرْتُ بِرَجُلٍ صُمٍّ قَوْمُهُ" و"مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حِسانٍ قَوْمُهُ" «ولَيْسَ يَجْري هذا مجْرى الفِعْلِ. أَمّا حِسانٌ وعورٌ فَإِنَّهُ اسْمٌ كُسِرَ عَلَيْهِ الواحِدُ، فَجاءَ مَبْنِيّاً على مِثالٍ كَبِناءِ الواحِدِ، وخَرَجَ مِنْ بِناءِ الواحِدِ إلى بِناءٍ آخَرَ لا تَلْحَقُهُ في آخِرِهِ زِيادَةٌ. فَمِنْ ثَمَّ صارَ حِسانٌ وما أَشْبَهَهُ بِمَنْزِلَةِ الاسْمِ الواحِدِ، نَحْو مَرَرْتُ بِرَجُلٍ جُنُبٍ أَصْحابُهُ، ومَرَرْتُ بِرَجُلٍ صَرورَةٍ قَوْمُهُ. فَاللَّفْظُ واحِدٌ والمعْنى جَميعٌ»[2]، فَحُمِلَ المكَسَّرُ جَمْعاً (حِسان، صُمّ، عور) عَلى السّالِمِ إِفْراداً في رَفْعِ الاسْمِ بَعْدَهُ، ولكِنَّهُ لا يَجْري مجْراهُ في عَدَمِ المطابَقَةِ في العَدَدِ ههُنا. ومِنْهُ قَوْلُ أبي ذؤيب الهُذلِيّ:

بَعيدُ الغَزاةِ فَما إِنْ يَزا /// لُ مُضْطَمِرًا طُرَّتاهُ طَريحا

ومن ذلك هذه المقاطعُ الـمُقتَطَعَة من الشّواهدِ التي جَمَعَت بين الصفة والموصوف [المركّب الوصفيّ]، تدلُّ على عَدَمِ الـمُطابقَة بينهما لفظاً، ولكنّه يُشترَط رابط الضّمير الذي يقومُ مقام المطابَقَة المرجوَّة: [**طَويلاً سَوارِيهِ / شَديدًا دَعائِمُهُ / لَئيمٌ مَآثِرُهُ / مُسْتَحِنٌّ بِها الرِّياحُ / مَسْقَيٌّ بِها السِّمام / مَحْمولاً عَلَيَّ ضَغينَةٌ / أَذاهِبٌ فُلانَةُ؟ وأَحاضِرٌ القاضِيَ امْرَأَةٌ؟]**

فَقاعِدَةُ إِحالَةِ الضَّميرِ - في بِنْيَةِ المُرَكَّبِ الوَصْفِيِّ - إلى مَرْجِعِهِ تَتِمُّ خارِجَ المُرَكَّبِ الوَصْفِيِّ، أَيْ بَيْنَهُ و بَيْنَ «مُؤَلِّفِ الاعْتِمادِ» وقاعِدَةُ المُطابَقَةِ تَتِمُّ داخِلَ المُرَكَّبِ.

ومِمّا يُشْبِهُ صُوَرَ العامِلِ ومَرْفوعِهِ في المُطابَقَةِ أَوْ عَدَمِها ما يَرِدُ اسْماً غَيْرَ وَصْفٍ ويَكونُ هُوَ وما بَعْدَهُ مُبْتَدَأً وخَبَراً والمُطابَقَةُ بَيْنَهُما تامَّةٌ، والوَجْهُ فيها الرَّفْعُ لأَنَّها جَواهِرُ لا يُنْعَتُ بِها ولَيْسَتْ بِصِفاتٍ، «قالَ الخَليلُ رَحِمَهُ اللهُ: فَإِنْ ثَنَّيْتَ أَوْ جَمَعْتَ فَإِنَّ الأَحْسَنَ أَنْ تَقولَ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ قُرَشِيّانِ أَبَواهُ، و مَرَرْتُ بِرَجُلٍ كَهْلونَ أَصْحابُهُ" تَجْعَلُهُ اسْماً بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَزٌّ صُفَّتُهُ"»[3].

---

[1] **الكتاب** : 36/2 .

[2] **الكتاب**: 42/2-43 .

[3] **الكتاب** : 41/2 .

وقَدْ عَقَدَ سيبَوَيْهِ لِهذِهِ الصَّورَةِ باباً قالَ فيهِ: «هذا بابٌ الرَّفْعُ فيهِ وَجْهُ الكَلامِ. وهو قَوْلُ العامَّةِ، وذَلِكَ قَوْلُكَ "مَرَرْتُ بِسرْجٍ خَزٌّ صُفَّتُهُ، ومَرَرْتُ بِصَحيفَةٍ طينٌ خاتَمُها". وإنَّما كانَ الرَّفْعُ في هذا أَحْسَنَ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَيْسَ بِصِفَةٍ. ويَدُلُّكَ أَيْضاً على أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْزِلَةِ حَسَنٍ وكَريمٍ أَنَّكَ تَقولُ "مَرَرْتُ بِحَسَنٍ أبوهُ، وقَدْ مَرَرْتُ بِالحَسَنِ أَبوهُ" فَصارَ هذا بِمَنْزِلَةِ اسْمٍ واحِدٍ، فَمِنْ ثَمَّ قالوا "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنٍ أَبوهُ"، كَأَنَّهُمْ قالوا "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنٍ"، ولاتَقولُ "مَرَرْتُ بِخَزٍّ صُفَّتُهُ": لأَنَّ هذا اسْمٌ»[1]. ومِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ: «هذا بابُ ما يَكونُ مِنَ الأَسْماءِ صِفَةً مُفْرَداً ولَيْسَ بِفاعِلٍ ولا صِفَةٍ تُشَبَّهُ بِالفاعِلِ كَالحَسَنِ وأَشْباهِهِ، وذلِكَ قَوْلُكَ "مَرَرْتُ بِحَيَّةٍ ذِراعٌ طولُها، ومَرَرْتُ بِثَوْبٍ سَبْعٌ طولُهُ، ومَرَرْتُ بِرَجُلٍ مائَةٌ إِبِلُهُ". فَهذِهِ تَكونُ صِفاتٍ»[2].

-ومِمَا يَدْخُلُ في بابِ الفاعِلِ لِغَيْرِ الفِعْلِ ولَهُ بِمَبْحَثِ الفاعِلِ وَشيجَةٌ بابُ "كَمْ" التي يَكونُ لَها مَوْضِعانِ: أَحَدُهُما الاسْتِفْهامُ، وتَكونُ فيهِ أَداةً مُسْتَفْهَماً بِها، والآخَرُ مَوْضِعُ الخَبَرِ. وتَكونُ في المَوْضِعَيْنِ اسْماً فاعِلاً أَو مَفْعولاً أَو ظَرْفاً، ويُبْنى عَلَيْها[3]. وهِيَ في اللَّفْظِ مُبْتَدأٌ، وقَدْ تَرِدُ في المَعْنى فاعِلاً أَوْ مَفْعولاً، «لا تَقولُ "رَأَيْتُ كَمْ رَجُلاً". وإنّما تَقولُ "كَمْ رَأَيْتُ رَجُلاً" وتَقولُ "كَمْ رَجُلٍ أَتاني". ولا تَقولُ "أَتاني كَمْ رَجُلٍ". ولَوْ قالَ "أَتاكَ ثَلاثونَ اليَوْمَ دِرْهَماً" كانَ قَبيحاً في الكَلامِ: لأَنَّهُ لا يَقْوى قُوَّةَ الفاعِلِ ولَيْسَ مِثْلَ كَمْ. و"كَمْ رَجُلاً أَتاكَ" أَقْوى مِنْ "كَمْ أَتاكَ رَجُلاً"، وكَمْ ههُنا فاعِلَةٌ. و"كَمْ رَجُلاً ضَرَبْتَ" أَقْوى مِنْ "كَمْ ضَرَبْتَ رَجُلاً" وكَمْ ههُنا مَفْعولَةٌ»[4]. وبابُ كَمْ في الكِتابِ مَحْفوظٌ لِلْمَوْضِعِ لا لِلَّفْظِ، وهُوَ المَوْضِعُ الذي تَقَعُ فيهِ "كَمْ" مُنَزَّلَةً في المَعْنى والوَظيفَةِ النَّحْوِيَّةِ مَنْزِلَةَ الاسْمِ المُتَصَرِّفِ المُنَوَّنِ، العامِلِ فيما بَعْدَهُ، الدّالِّ على الاسْتِفْهامِ أَوِ الخَبَرِيَّةِ، المُفيدِ فاعِلِيَّةً أَوْ مَفْعولِيَّةً. ولَها صِلَةٌ بِمَوْضوعِ الفاعِلِ مِنْ بابِ المَعْنى فَحَسْبُ. أَمّا مَوْضوعُ مُطابَقَةِ "كَمْ" لِلْفِعْلِ فَهُوَ مُقَيَّدٌ بِالمَعْنى الذي تَؤولُ إِلَيْهِ لأَنَّ لَفْظَها ثابِتٌ على صورَةٍ واحِدَةٍ.

-ومِمّا يَدْخُلُ في بابِ الفاعِلِ فاعِلُ نِعْمَ. ومِنْ خَصائِصِ تَرْكيبِ "بابِ نِعْمَ" أَنَّ "نِعْمَ" وفاعِلَها مَحْمولانِ على جُمْلَةِ الفِعْلِ والفاعِلِ: «وأَمّا قَوْلُهُمْ "نِعْمَ الرَّجُلُ عبدُ اللهِ" فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ "ذَهَبَ أَخوهُ عَبْدُ اللهِ" عَمِلَ نِعْمَ في الرَّجُلِ ولم يَعْمَلْ في عَبْدِ الله. وإذا قالَ "عَبْدُ اللهِ نِعْمَ الرَّجُل، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ "عَبْدُ اللهِ ذَهَبَ أَخوهُ"»، وتَفْسيرُ دَلالَةِ التَّرْكيبِ، بِالعِنايَةِ والاهْتِمامِ

---

[1] الكتاب: 21/2 .

[2] الكتاب : 28/2 .

[3] الكتاب: 156/2 .

[4] الكتاب : 158/2-159 .

ذي يُصاحِبُ اللَّفظَ بِهِ نَبْرٌ صَوْتِيٌّ مُبَيِّنٌ لِلْمَخْصوصِ بِالمَدْحِ سواء تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ «كَأَنَّهُ قالَ نِعْمَ الرَّجُلُ" فَقيلَ لَهُ "مَنْ هُوَ ؟" فَقالَ "عَبْدُ اللهِ". وإذا قالَ "عَبْدُ اللهِ" فَكَأَنَّهُ قيلَ لَهُ "ما شَأْنُهُ ؟" فَقالَ "نِعْمَ الرَّجُلُ". فَنِعْمَ تَكونُ مَرَّةً عامِلَةً في مُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ ما بَعْدَهُ. وتَكونُ مَرَّةً أُخْرى تَعْمَلُ في مُظْهَرٍ لاتُجاوِزُهُ، فَهِيَ مَرَّةً بِمَنْزِلَةِ "رُبَّهُ رَجُلاً"، ومَرَّةً بِمَنْزِلَةِ "ذَهَبَ أَخوهُ" فَتَجْري مَجْرى المُضْمَرِ الذي قُدِّمَ لِما بَعْدَهُ مِنَ التَّفْسيرِ وسَدَّ مَكانَهُ، لأَنَّهُ قَدْ بَيَّنَهُ»[1] ومِنْ خَصائِصِ نِعْمَ أَنَّهُ مُعَرَّفٌ بِالأَلِفِ واللاّمِ، وهذا التَّلازُمُ صِفَةٌ مِنْ صِفاتِ التَّطابُقِ بَيْنَ نِعْمَ و فاعِلِها ، فَلا يَجوزُ القَوْلُ "قَوْمُكَ نِعْمَ صِغارُهُمْ وكِبارُهُمْ" إلاّ أَنْ تَقولَ "قَوْمُكَ نِعْمَ الصِّغارُ و نِعْمَ الكِبارُ"، و"قَوْمُكَ نِعْمَ القَوْمُ". ذلِكَ لأَنَّ مُقْتَضى المَعْنى أَلاّ يُضْمَرَ في لَفْظِ العُمومِ؛ لأَنَّ نِعْمَ فِعْلٌ عامٌّ يَقَعُ على فاعِلٍ عامٍّ ويُخَصَّصُ بِما بَعْدَهُ «أَرَدْتَ أَنْ تَجْعَلَهُمْ مِنْ جَماعاتٍ ومِنْ أُمَمٍ كُلُّهُمْ صالِحٌ، كَما أَنَّكَ إذا قُلْتَ: "عَبْدُ اللهِ نِعْمَ الرَّجُلُ"، فَإِنَّما تُريدُ أَنْ تَجْعَلَهُ مِنْ أُمَّةٍ كُلُّهُمْ صالِحٌ، ولم تُرِدْ أَنْ تُعَرِّفَ شَيْئاً بِعَيْنِهِ بِالصَّلاحِ بَعْدَ نِعْمَ»[2]. وهذا العُمومُ يَمْنَعُ الإِضْمارَ الذي لا يُفَسَّرُ «لا يَجوزُ أَنْ تَقولَ "نِعْمَ" ولا "رُبَّهُ" وتَسْكُتَ؛ لأَنَّهُمْ بَدَؤوا بِالإِضْمارِ على شَريطَةِ التَّفْسيرِ، وإِنَّما هُوَ إِضْمارٌ مُقَدَّمٌ قَبْلَ الاسْمِ»[3]

ومِنْ خَصائِصِ المُطابَقَةِ بَيْنَ نِعْمَ وفاعِلِها أَنَّ نِعْمَ تُذَكَّرُ و تُؤَنَّثُ فَتُطابِقُ فاعِلَها في ذلِكَ فَحَسْبُ، وذلِكَ نَحْوُ "نِعْمَتِ المَرْأَةُ"، وإِنْ شاءَ المُتَكَلِّمُ اكْتَفى بِالمُطابَقَةِ المُقَدَّرَةِ مَعْنىً نَحْو "نِعْمَ المَرْأَةُ"، كما قالوا "ذَهَبَ المَرْأَةُ"، والحَذْفُ في "نِعْمَتْ" أَكْثَرُ. وتَمْتَنِعُ المُطابَقَةُ اللَّفْظِيَّةُ في الجَمْعِ فَلا تَظْهَرُ عَلامَةُ المُضْمَرينَ في "نِعْمَ"، لايُقالُ "نِعْموا رِجالاً" بَلْ يُكْتَفى بِالمُفَسِّرِ[4].

أَمَا لَفْظُ العُمومِ ولَفْظُ الفاعِلِ المَخْصوصِ بِالمَدْحِ فَبَيْنَهُما شِرْكَةٌ إِحالِيَّةٌ، أَيْ يَشْتَرِكانِ في الإِحالَةِ إِلى المُتَحَدَّثِ عَنْهُ: «واعْلَمْ أَنَّهُ مُحالٌ أَنْ تَقولَ "عَبْدُ اللهِ نِعْمَ الرَّجُلُ" والرَّجُلُ غَيْرُ عَبْدِ اللهِ. كَما أَنَّهُ مُحالٌ أَنْ تَقولَ "عَبْدُ اللهِ هُوَ فيها" وهُوَ غَيْرُهُ»[5]. والرَّجُلُ يُحيلُ إِلى عَبْدِ اللهِ لأَنَّهُ هُوَ. ولكِنَّهُ مُنْفَصِلٌ مِنْهُ [كَانْفِصالِ "الأَخِ" مِنْهُ إذا قُلْنا "عَبْدُ اللهِ ذَهَبَ أَخوهُ"، فَهذا تَقْديرُهُ ولَيْسَ مَعْناهُ كَمَعْناهُ]. وهكَذا فَإِنَّ عُمومَ اللَّفْظِ يَجِبُ أَنْ يَجِدَ مَرْجِعَهُ وتَخْصيصَهُ في المَخْصوصِ بِالمَدْحِ .

---

[1] **الكتاب** : 2/176-177 .

[2] **الكتاب**: 2/177 .

[3] **الكتاب** : 2/176 .

[4] **الكتاب** : 2/178-179 .

[5] **الكتاب** : 2/177 .

-ومِمّا يَدْخُلُ في بابِ الفاعِلِ ما كانَ فاعِلاً لِبابِ التَّعَجُّبِ، أيْ فاعِلاً لِـــ«باب ما يَعْمَلُ عَمَلَ الفِعْلِ ولمْ يَجْرِ مجْرى الفِعْلِ ولمْ يَتَمَكَّنْ تَمَكُّنَهُ» [1] وهُوَ بابٌ مَضْــبوطٌ بِقاعِدَةِ الحَمْلِ على الفِعْلِ في العَمَلِ، وقاعِدَةِ الاخْتِصـاصِ اللَّفْظِيِّ التي تُفيدُ أنَّ فِعْلَ التَّعَجُّبِ مُخْتَصٌّ بِجُمودِهِ ولُزومِهِ طَريقَةً هِيَ وُقوعُهُ على مَعْنىً واحِدٍ وبِبِنائِهِ على وَزْنٍ مَخْصوصٍ هُوَ أنْ يَكونَ فِعْلُهُ ثُلاثِيّاً، وأنْ يُصاغَ مِنَ الفِعْلِ المُتَصَرِّفِ لا الجامِدِ، وأنْ يَكونَ مَعْناهُ قابِلاً لِلْمُفاضَلَةِ، وأنْ يَكونَ موجَباً لا مَنْفِيّاً، وألاّ يَكونَ الوَصْفُ مِنْهُ على أفْعَلَ مِمّا يَدُلُّ على الألْوانِ والخِلْقَةِ[2]. ويَظْهَرُ فاعِلُ التَّعَجُّبِ في تأويلِ جُمْلَتِهِ «وذلِكَ قَوْلُكَ "ما أحْسَنَ عَبْدَ اللهِ"، زَعَمَ الخَليلُ أنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ "شَيْءٌ أحْسَنَ عَبْدَ اللهِ"، ودَخَلَهُ مَعْنى التَّعَجُّبِ، وهذا تَمْثيلٌ ولم يُتَكَلَّمْ بِهِ»[3]. ومَعْنى ذلِكَ أنَّ "ما" تَحْمِلُ قيمَةً دَلالِيَّةً هِيَ التَّعَجُّبُ، وقيمَةً تَرْكيبِيَّةً هِيَ الفاعِلِيَّةُ.

ومِمّا يُمْكِنُ أنْ يُلْحَقَ بِبابِ الفاعِلِ بابٌ مِنَ النّائِبِ عَنِ الفاعِلِ لَهُ صِلَةٌ بِالاتِّساعِ في الكَلامِ والإيجازِ أكْثَرَ مِمّا لَهُ صِلَةٌ بِما حُذِفَ فاعِلُهُ ونابَ عَنْهُ المَفْعولُ وهُوَ "بابُ اسْتِعْمالِ الفِعْلِ في اللَّفْظِ لا في المَعْنى لاتِّساعِهِمْ في الكَلامِ، والإيجازِ والاخْتِصارِ"[4] «فَمِنْ ذلِكَ أنْ تَقولَ على قَوْلِ السّائِلِ "كَمْ صيدَ عَلَيْهِ ؟" وكَمْ غَيْرُ ظَرْفٍ لِما ذَكَرْتُ لَكَ مِنَ الاتِّساعِ والإيجازِ، فَتَقول "صيدَ عَلَيْهِ يَوْمانِ" وإنَّما صيدَ عَلَيْهِ الوَحْشُ في يَوْمَيْنِ، ولكِنَّهُ اتَّسَعَ واخْتَصَرَ، ولِذَلِكَ وَضَعَ السّائِلُ كَمْ غَيْرَ ظَرْفٍ. ومِنْ ذلِكَ أنْ تَقولَ:كَمْ وُلِدَ لَهُ؟ فَيَقول: سِتّونَ عاماً. فَالمَعْنى: وُلِدَ لَهُ الأوْلادُ ووُلِدَ لَهُ الوَلَدُ سِتّينَ عاماً، ولكِنَّهُ اتَّسَعَ وأوْجَزَ. ومِنْ ذلِكَ أنْ تَقولَ: كَمْ سيرَ عَلَيْهِ؛ وكَمْ غَيْرُ ظَرْفٍ، فَيَقول: يَوْمُ الجُمُعَةِ ويَوْمانِ، فَكَمْ هٰهُنا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: ما صيدَ عَلَيْهِ، وما وُلِدَ لَهُ مِنَ الدَّهْرِ والأيّامِ؟ فَلَيْسَ كَمْ ظَرْفاً. ومِنْ ذلِكَ أنْ يَقولَ كَمْ ضُرِبَ بِهِ؟ فَتَقول: ضُرِبَ بِهِ ضَرْبَتانِ، وضُرِبَ بِهِ ضَرْبٌ كَثيرٌ»[5].

فَالضَّميرُ في الفِعْلِ (وُلِدَ- سيرَ- ضُرِبَ) يَعودُ على كَمْ و يَقومُ مَقامَ الفاعِلِ ولَمْ يُجْعَلْ ظَرْفاً، وقَدْ أبانَ الجَوابُ عَنْ ذلِكَ المُضْمَرِ العائِدِ. أمّا إذا وَقَعَ الاسْتِفْهامُ ظَرْفاً فَإنَّ الجَوابَ يُفْصِحُ عَنِ الظَّرْفِ ، و الفِعْلُ المَبْنِيُّ لِلْمَفْعولِ يُقَيَّدُ بِالظَّرْفِ كَما بَيَّنَهُ البابُ " هذا بابُ وُقوعِ

---

[1] **الكتاب** : 72/1 .

[2] **الكتاب:** 72/1-73 ، 97/4-98 .

[3] **الكتاب** : 72/1 .

[4] **الكتاب** : 211/2 .

[5] **الكتاب** : 211/1

الأَسْــماءِ ظُروفاً وتَصْــحيحِ اللَّفظِ على المَعْنى "[1]. والمَقْصــودُ بِالبابِ إجْراءُ اللَّفْظِ على الكُلِّ والمُرادُ "البَعْضُ" وهذا مَعْلومٌ في كَلامِ العَرَبِ، فَمِنْ ذلِكَ:

الضَّميرُ في الفِعْلِ يَعودُ على الاسْتِفْهامِ .

مَتى | يُسارُ + عَلَيْه ؟

يَجْعَلُهُ المُتَكَلِّمُ ظَرْفاً. فَيَقولُ: اليَوْمَ أَوْ غَداً.

مَتى سيرَ + عَلَيْه ؟

فَيَقولُ المُتَكَلِّمُ: أَمْسِ. فَيَكونُ ظَرْفاً على أَنَّ السَّــيْرَ كانَ في ســاعَةٍ دونَ ســائِرِ ســاعاتِ اليَوْمِ. ويحْتَملُ أَنْ يَكونَ المُرادُ أَيْضــاً أَنَّ السَّــيْرَ في اليَوْمِ كُلِّهِ ســيرَ عَلَيْهِ اليَوْمُ [أَوِ الدَّهْرُ] فَيَرْفَعُ، والمَعْنى"في بَعْضِهِ" كَأَنَّهُ قيلَ: سيرَ عَلَيْهِ سَيْرُ اليَوْمِ فَكُثِّرَ.

والرَّفْعُ في "اليَوْمِ" وفي مِثْلِهِ عَرَبِيٌّ كَثيرٌ في جَميعِ لُغاتِ العَرَبِ على سَعَةِ الكَلامِ والإيجازِ، أَيْ أَنَّ الرَّفْعَ في اليَوْمِ نـائِـبٌ عَنِ المَرْفوعِ الحَقيقِيِّ، وخَرَجَ اليَوْمُ عَنِ الظَّرْفِيَّـةِ -بِرَفْعِـهِ- إلى النِّيابَةِ عَنِ الفاعِلِ على المَجازِ والاتِّساعِ في الكَلامِ .

ومِثْلُ ذلِكَ: ســيرَ عَلَيْهِ سَحَرَ، وصَباحاً ومَســاءً عَشِــيَّةً وعِشــاءً وذاتَ مَرَّةٍ وذا صَباحٍ وبُعَيْداتِ بَيْنٍ، ولَيْلاً ونَهاراً. إذا أُريدَ لَيْلُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ ونَهارُ ذلِكَ اليَوْمِ. إلاّ أَنْ يُريدَ المُتَكَلِّمُ «مَعْنى "ســيرَ عَلَيْهِ لَيْلٌ طَويلٌ" و"نَهارٌ طَويلٌ" فَهُوَ على ذلِكَ الحَدِّ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ، وفي هـذا الحـالِ مُتَمَكِّنٌ... »[2].

ويَظَلُّ قَصْدُ المُتَكَلِّمِ في مَذْهَبِ سيبَوَيْهِ شَـرْطَ جَوازٍ لِلْعِبارَةِ. وقَدْ فَصَّلَ في شَـكْلِ هذا القَصْـدِ وحالَةِ المُتَكَلِّمِ فيها بِتَعْليقِهِ الموجَزِ: "إلاّ أَنْ تُريدَ مَعْنى...". ولأَبي الفَتْحِ ابْنِ جِنّي مَنْهَجٌ دَقيقٌ في شَــرْحِ لَطائِفِ عِباراتِ ســيبَوَيْهِ مِمّا يَخْفى على كَثيرٍ مِنْ شُــرّاحِ الكِتابِ، ومِنْ ذلِكَ شَــرْحُهُ لِلْعِبارَةِ المَعْنِيَّةِ بِقَوْلِهِ: «وقَدْ حُذِفَتِ الصِّــفَةُ ودَلَّتِ الحالُ عَلَيْها، وذلِكَ فيما حَكاهُ صاحِبُ الكِتابِ مِنْ قَوْلِهِمْ "سيرَ عَلَيْهِ لَيْلٌ". وهُمْ يُريدونَ: لَيْلٌ طَويلٌ، وكَأَنَّ هذا إنَّما حُذِفَتِ الصِّــفَةُ لِما دَلَّ الحالُ مِنْ مَوْضِــعِها، وذلِكَ أَنَّكَ تُحِسُّ في كَلامِ القائِلِ لِذلِكَ مِنَ التَّطْويحِ والتَّطْريحِ والتَّفْخيمِ والتَّعْظيمِ ما يَقومُ مَقامَ قَوْلِهِ: طَويلٌ أَوْ نَحْوُ ذلِكَ. وأَنْتَ تُحِسُّ هذا مِنْ

---

[1] **الكتاب**: 216/1 .

[2] **الكتاب** : 226/1 .

نَفْسِكَ إذا تَأَمَّلْتَهُ، وذلِكَ أَنْ تَكونَ في مَدْحِ إِنْسانٍ والثَّناءِ عَلَيْهِ، فَتَقول: كانَ واللهِ رَجُلاً! فَتُريدُ في قُوَّةِ اللَّفْظِ بِاللهِ هذِهِ الكَلِمَةَ، وتَتَمَكَّنُ في تَمْطيطِ اللامِ وإطالَةِ الصَّوْتِ بِها وعَلَيْها: أَيْ رَجُلاً فاضِلاً أَوْ شُجاعاً أَوْ كَريماً أَوْ نَحْوَ ذلِكَ... فَعَلى هذا وما يَجْري مجْراهُ تَحْذِفُ الصِّفَةَ. فَأَمّا إِنْ عَرِيَتْ مِنَ الدَّلالَةِ عَلَيْها مِنَ اللَّفْظِ أَوْ مِنَ الحالِ فَإِنَّ حَذْفَها لا يَجوزُ» [1]. وهذا قَوْلٌ بَليغٌ في وَصْفِ فِعْلِ سيبَوَيْهِ والدَّلالَةِ على الاسْتِغْناءِ بِالحالِ عَنِ المَقالِ، والعِبارَةِ عَنِ الحالِ الخَفِيَّةِ بِالصّيغَةِ الصَّوْتِيَّةِ المُصاحِبَةِ لِلْجُمْلَةِ [أَوْ ما يُمْكِنُ تَسْمِيَتُهُ بِالتَّنْغيمِ]. وعِبارَةُ سيبَوَيْهِ -في التَّعْليقِ على المِثالِ "سيرَ عَلَيْهِ لَيْلٌ!"- المَذْكورَةُ آنِفاً تُفْهِمُنا -حَسَبَ ما بَيَّنَهُ ابْنُ جِنِّيٍّ- القيمَةَ الدَّلالِيَّةَ التي تَحْمِلُها الصّيغَةُ الصَّوْتِيَّةُ [أَوْ تَنْغيمُ الجُمْلَةِ][2].

ويُقالُ: أَيْنَ سيرَ عَلَيْهِ؟ فَيُجيبُ المُخاطَبُ: خَلْفَ دارِكَ، وفَوْقَ دارِكَ. فَإِنْ لَمْ يُجْعَلْ ظَرْفاً وجُعِلَ على سَعَةِ الكَلامِ رُفِعَ على غَيْرِ الظَّرْفِيَّةِ. وفي ذلِكَ تَصْحيحٌ لِلَّفْظِ على المَعْنى، أَيْ عَرْضٌ على المَعْنى المُرادِ عِنْدَ الإعْرابِ. وإذا رُفِعَ اللَفْظُ حَمْلاً على النِّيابَةِ عَنِ الفاعِلِ فَإِنَّهُ في المَعْنى على سَعَةِ الكَلامِ و الإيجازِ، كَما مَرَّ بِنا آنِفاً.

وقَدْ يَكونُ المَصْدَرُ نائِباً عَنِ الظَّرْفِ لِسَعَةِ الكَلامِ والاخْتِصارِ[3]، ومِثالُهُ: مَتى سيرَ عَلَيْهِ؟ فَيُقالُ: مَقْدَمَ الحاجِّ وخُفوقَ النَّجْمِ وخِلافَةَ فُلانٍ وصَلاةَ العَصْرِ. والتَّأْويلُ: زَمَنَ مَقْدَمِ الحاجِّ وحينَ خُفوقِ النَّجْمِ. ولكِنَّهُ على سَعَةِ الكَلامِ والاخْتِصارِ، ومِثْلُهُ أَيْضاً: أُنْتُظِرَ بِهِ نَحْرَ جَزورَيْنِ. وقَدْ يَجْتَمِعُ بَعْدَ الفِعْلِ اسْمانِ يَكونُ أَحَدُهُما مَرْفوعاً بِالفِعْلِ ويُنْصَبُ الآخَرُ على الظَّرْفِيَّةِ، وذلِكَ نَحْو: "سيرَ عَلَيْهِ فَرْسَخانِ يَوْمَيْنِ" و"سيرَ عَلَيْهِ فَرْسَخَيْنِ يَوْمانِ".

وأَيُّ الاسْمَيْنِ ارْتَفَعَ صارَ الآخَرُ ظَرْفاً. ومِثْلُهُ "صيدَ عَلَيْهِ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُدْوَةٌ"، والمَعْنى "السَّيْرُ في يَوْمِ الجُمُعَةِ في هذِهِ السّاعَةِ"، أَوْ "سيرَ عَلَيْهِ يَوْمُ الجُمُعَةِ غُدْوَةً". والمَعْنى "سيرَ عَلَيْهِ يَوْمُ الجُمُعَةِ صَباحاً"، أَيْ "سيرَ عَلَيْهِ يَوْمُ الجُمُعَةِ في هذِهِ السّاعَةِ" وإنّما المَعْنى "كانَ ابْتِداءُ السَّيْرِ في هذِهِ السّاعَةِ". ومِنْ ذلِكَ "سيرَ عَلَيْهِ أَيُّما سَيْرٍ سَيْراً شَديداً" وكَأَنَّ المَعْنى "سيرَ

---

[1] ابنْ جنّي: **الخصائص** : 1/370-371 .

[2] و قَدْ رَأى الباحِثونَ في مَذْهَبِ اسْتِنْباطِ دَلالَةِ الحالِ مِنَ الصَّوْتِ انْتِقالاً مِنْ بُعْدٍ دَلالِيٍّ مَنْطوقٍ إلى بُعْدٍ دَلالِيٍّ آخَرَ مَفْهومٍ بِالاسْتِنْباطِ ولا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ الصَّريحُ (يُنْظَرُ في هذا المَجالِ:

- **خليل أحمد عمايره: في نَحْوِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وتَراكيبِها "مَنْهَجٌ وتَطْبيقٌ"**: ط/دار عالم المعرفة. جدّة /1984

- خليل أحمد عمايره: **رَأْيٌ في بِناءِ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ و قَضاياها، دِراسة وَصْفِيَّةٌ**، مقالة منشورة بمجلّة التّواصل اللّساني، المجلّد2/العدد1/مارس1990/ص:24.

[3] **الكتاب** : 1/222 .

عَلَيْهِ بَعيرُكَ سَيْراً شَديداً". وتَقولُ "سيرَ عَلَيْهِ سَيْرَتانِ أَيَّما سَيْرٍ". كَأَنَّ المَعْنى "سيرَ عَلَيْهِ بَعيرُكَ أَيَّما سَيْرٍ"[1].

وقَدْ يَرْتَفِعُ المَصْدَرُ إذا شُغِلَ الفِعْلُ بِهِ، ويَنْتَصِبُ إذا شُغِلَ بِغَيْرِهِ، نَحْو "أَيَّ سَيْرٍ سيرَ عَلَيْهِ" والجَوابُ "سيرَ عَلَيْهِ سَيْرٌ شَديدٌ" و"ضُرِبَ بِهِ ضَرْبٌ ضَعيفٌ". أُجْرِيَ مَفْعولاً في المَعْنى والفِعْلُ مَشْغولٌ بِهِ عَمَلاً.

خاتمة البَحْث :

عالَجَ البحثُ إشْكالَ الفاعلِ في اللغة العربيّةِ، واتّخذَ كتابَ سيبويْه أنموذجاً في استخراجِ مَظاهرِ الفاعلِ التّركيبيّة، بوَصفه المصدرَ النّحويَّ الأوّلَ في عُلوم العربيّة، الذي لمْ تَحْظَ مَباحثُه بمُقاربةٍ منهجيّةٍ تَضعُ الظّواهرَ اللغويّةَ المدروسةَ في إطارِ إشكالاتٍ جَديدةٍ ورؤىً أشملَ وأعمَّ من التي عولجَت بها من قبلُ. وإنّما الغايةُ من اتّخاذ الكتابِ أنموذجاً، استئنافُ مَشْروعِ الأسُسِ المعرفيّةِ في العُلومِ العربيّةِ؛ التي بدأ تأسيسَها الرّعيلُ الأولُ من عُلَماء العربيّة، وحَملُ القارئِ اللّغويّ العَربيّ اليومَ على مُعاوَدَةِ الاطّلاعِ على المعالم الأولى لمشروع البَحث اللغوي العَرَبيّ الذي لم يَكتملْ. ولا شكّ في أنّ الذي يُرجّحُ الافتراضَ بأنَ سيبويْه انطَلَقَ في تصنيف كتابه من مَشروعٍ لغويّ متكاملٍ، أنّه تَسَلّمَ قوانينَ مَن قبْلَه وأنظارَهم فأسسَ عليها آلاته النظريةَ لقراءة ظواهرِ اللّسانِ العَربيّ وشَواهِدِه، فلم يكن مجردَ قارئ فرد، ولكنه كانَ صاحبَ مَشروع نظري مُتَنامٍ مُتَطوّرٍ، بدأ من قبلُ وأخذ معالمه وأصوله على يده، ثمّ انقَطَعَ واحتاجَ اليومَ إلى استئنافٍ...

---

[1] وقَدْ جاءَ في القُرْآنِ الكَريمِ كَثيرٌ مِنَ الآياتِ يَقومُ فيها الجارُّ والمَجْرورُ مقامَ الفاعِلِ، وهِيَ تَحْتاجُ إلى وَصْفٍ وتَفْسيرٍ قَبْلَ غَيْرِها مِنَ الأَمْثِلَةِ التي مَلأَ بِها سيبَوَيْهِ البابَ، وذلِكَ نَحْو قَوْلِهِ تَعالى -على سبيلِ الاسْتِدْلالِ لا الحَصْرِ-: {يُعْرَفُ المُجْرِمونَ بِسيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصي والأَقْدامِ}، {أُذِنَ لِلَّذينَ يُقاتَلونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِموا}، {وهُوَ يُجيرُ ولا يُجارُ عَلَيْهِ}، {يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعينٍ}، {وما قَتَلوهُ وما صَلَبوهُ ولكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} كَما وَرَدَ مِنَ الآياتِ ما يُفيدُ قِيامَ المَصْدَرِ مقامَ الفاعِلِ، نَحْو قَوْلِهِ تَعالى: {فَإِذا نُفِخَ في الصّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ} أَمّا إذا وُجِدَ المَفْعولُ بِهِ فلا يَقومُ غَيْرُهُ مقامَ الفاعِلِ، فَلَمْ يُجِزِ المُبَرِّدُ إقامَةَ المَصْدَرِ مقامَ الفاعِلِ إذا كانَ مَعَهُ مَفْعولٌ على الحَقيقَةِ، أَمّا إذا دَخَلَ المَفْعولَ مِنْ حُروفِ الجَرِّ ما يَمْنَعُهُ أَنْ يَقومَ مقامَ الفاعِلِ فَإِنَّهُ يَجوزُ إقامَةُ المَصْدَرِ والظُّروفِ مِنَ الأَزْمِنَةِ والأَمْكِنَةِ مقامَ الفاعِلِ : المبرد، أبو العبّاس: المقتضب: 51/4.

وقد أسهَمَ هذا البحثُ المختصَر في تقديم تصوُّرٍ لبنية الإسنادِ كما ورَدَ في أبوابِ الكتابِ، على النَّحو الذي يُبرهن على تميُّز "**باب الفاعل في الكتابِ**" عن باب الفاعلِ في كُتُبِ الخالفينَ من بعدِه، وعالَجَ البحثُ صورَ الإسناد الذي وَرَدَ فيه الفاعلُ، من خلالِ اقتراحِ مَفاهيمَ وصفيّةٍ، منها عَدُّ باب الفاعلِ واسِطَةً مركزيّةً في تَعْدِيَةِ الفعل إلى مَفْعول، ومنها أنّه قيمَةٌ مَوْضِعِيَّةٌ عَميقَةٌ، وأنّه لا يقومُ بوظيفته النّحويّة التّركيبيّة الإسناديّةِ إلاّ في إطارِ بنيةٍ تركيبيّةٍ جامعةٍ، وأنّه ذو أصلٍ تركيبيّ ثابتٍ، وله صورٌ وفروعٌ.

ويُرجى أن يُعادَ النّظرُ في كثيرٍ من أبوابِ النّحو العربيّ، بوصلِ القَديمِ بالحَديثِ؛ لأنّ التّراثَ اللّغويَّ العربيَّ وحدَه لا يُهيّءُ للباحث التَّحليلَ الذّاتيَّ المكتفيَ الكاملَ، بل ينبغي أنْ تُعادَ دراستُه دراسةً منهجيّةً تحليليّةً في ضوءِ ما جدَّ في عالَم علم اللغة، تُسهمُ في إغنائه، وأن يُقرأ قراءةً جديدةً واعيةً مُنفتحةً على الدّرس اللّغوي الحَديث، ويكون موضوع هذه القراءَةِ الجَديدة: القراءَة المستأنفَة لظواهر التراث اللغويّ، وإعادَة بنائها على النّحو الذي يُيسّرُ الانتفاعَ بثمارِ علم اللغةِ في مَراتبِه ومستوياته المتعدّدة المتكاملَة.

نحو النص عند الجاحظ (255هـ)

لَن نقفَ بتَفْصيلٍ عندَ عَرضِ دلالات المُصطلَحات، كَمُصطلَح "النّصّ" الذي لَه دلالاتٌ، تتَفاوتُ بينَ العُمومِ والخُصوصِ، فهُوَ النّسيجُ العامُّ الذي يتألّفُ من خُيوطٍ متناسقةٍ عَلى هيئةٍ مَخصوصةٍ، وهو عندَ عُلَماءِ الأصولِ نوعٌ من أنواعِ دلالةِ اللّفظِ عَلى مَعْناه، والأصلُ فيه مَصدرٌ للفعلِ نصَّ ينُصُّ بِمعنى الرّفعِ والإظهارِ والإسْنادِ، ونَصُّ القُرآنِ ونَصُّ السنَّة أي ما دَلَّ ظاهرُ لَفظِهما عَليه مِن الأحْكامِ. وسيسْتخدمُ هذا البحثُ مصطلَحَ النّصّ بِمعْناه المُتَداوَل لِما فيه من الشّمولِ والعُمومِ.

وليسَ من الضّروريّ أن نُسارعَ إلى إثْباتِ نحوٍ للنّصّ في أدبياتِ الجاحظِ أو نَفْيِه عَنه، بقدرِ من يُهمُّنا رأيُه في وسائلِ سَبْكِ النّصّ أو الشّروطِ التي يخرُج بها النّصّ إلى الوُجودِ والتّحقُّقِ، يُهمُّنا البحثُ عن رأيِه في سياقِ أدبياتِه ومؤلّفاتِه والقَضايا التي عالَجَها .

عندَما يبحثُ الباحثُ في مواضيعَ لسانيّةٍ مركزيّةٍ كلّيّة عندَ عَلَمٍ من الأعلامِ كالجاحِظ فإنّه لا يتقيّدُ بمُصنّفٍ مُعيّنٍ من مُصنّفاتِه لاستخْراجِ تصوّرِه للموضوع المَبْحوثِ فيه، ولكنّه يَبْحَثُ في كلِّ ما كَتَبَ في ذلِكَ المَوْضوعِ وفي ما اسْتطْرَدَ فيه أو ما أسْنِدَ إليْه من أقْوال مُتناثرةٍ في المَصادِر والمَراجعِ والتّراجِمِ .

يُمكنُ أن نتحدّثَ عن كلِّ الشّروطِ التي يُبْنى منها النّصّ، ابْتداءً من الصّنفِ الدّلاليّ الذي يتكوّنُ منه النّصُّ، وهو اللغةُ فالنّصُّ في الأصلِ ذو طَبيعةٍ لغويّةٍ، ولا يُتصوّرُ أن يُبْنى نَصٌّ من طبيعةٍ غيْرِ لغويّةٍ إلاّ على سبيلِ المَجازِ أو التّبعيّةِ

لا يُمكن الحَديثُ عن مصطلَح النّصّ أو مَفْهوم النص بمعزِلٍ عن المصطلَحاتِ أو المَفاهيم المُجاورَة التي تتقاسَمُ حقَلَ التأليفِ الكلاميّ كالجملة والقول والخطاب والنظم والتأليف والبيان. وهي مفاهيم حاضرة في نحو النص حضوراً قوياً. والسببُ في هذا التّداخُلِ أنّ النّصَّ لَم يُبْحثْ فيه بوصفِه بنيةً ذاتَ آلياتٍ لغويةٍ داخليّةٍ وذاتَ قَواعدِ ترابطٍ وانسجامٍ، بحثاً لغوياً نحوياً ونظمياً خالصاً، ولكنّه وردَ في مصنّفاتِ عُلماءٍ مُتقدّمينَ كالجاحظِ على هيئةِ خطابٍ محفوفٍ بأركانٍ مُؤلّفَةٍ هي المتكلّمُ والمُخاطَبُ والمَعْلوماتُ المُضمَّنَةُ وسياقُ التّخاطُبِ .

فليسَ النّصُّ في أدبياتِ اللغةِ العربيّةِ مادّةً للبحْثِ مجرّدَةً محدَّدةً، يسهلُ الوقوفُ عليْها وضبطُها بتعريفٍ جامعٍ مانعٍ كالتّعاريفِ التي قدَّمها دوبوغراند وهاليداي ورقية حسن ومحمد خطابي وبحيري وإبراهيم خليل ومحمد الأخضر الصبيحي وغيرُهُم ممّن تحدّثَ عن شروطِ

قيامِ النّصّ أو آلياتِ بناءِ النّصّ. والسببُ في ذلِك اتّساعُ رقعةِ النصوص وتنوُّعُ مواضيعِها ومناهجِها ومَساقاتِها

النص في المعجم:

و"النص" رفْع الشيء، وكلّ ما أُظْهِر فقد نُصّ، ومنه المنصة، و"النص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها، ومنه نصصت الرجل إذا استقصيت مسألته عن الشيء، حيث تستخرج كلّ ما عنده، ونصُّ الشيءِ ونصبُه استواؤه واستقامته.

فالنص يعني الرّفعَ بنوعيه الحسي والمعنويّ وأقصى الشيء وغايته، والاستقصاء والإظهار. والنص عند الفقهاء:" نص القرآن ونص السّنة" أي ما دلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام.

يتألّفُ النصّ من عناصرَ متفاوتَة بين الصّغَر والكِبَرِ ابْتداءً من الصّوتِ وانتهاءً بالنّص بوصفِه وحدةً كَبيرةً، وكلُّ عُنصرٍ يتألّفُ من العناصرِ التي تَحْتَه، والنّصُّ نفْسُه يتحدّدُ تحتَ مستَوى الكلامِ

لقد عزلَ الباحثونَ اللّسانيّونَ الغربيّونَ النّصَّ عن سياقِه الكلاميّ العامّ أو مظهرِه الخِطابيّ لكي يَدْرسوه مُفْرداً ويستخْرِجوا آلياتِه على نحوِ ما صنَعوا بالجملةِ إذْ عزَلوها عن سياقِها ومُحيطِها اللغويّ والدّلاليّ ليدرُسوها دراسةً موضوعيّةً بوصفِها أكبَرَ وحدةً لغويّةٍ قابلةٍ للوصفِ اللّسانيّ، مثلَما تناولَها العلماءُ العربُ بالوصفِ والإعرابِ، وميزوا فيها بينَ الجانبِ الصّوريّ أو النّواةِ التّركيبيّةِ وبينَ الجانبِ الوظيفيّ أي التّخاطُب بين متكلّم وسامعٍ لتحقيق الإفادَةِ. غير أنّ الجملةَ الواحدةَ في الغالبِ لا تُعدُّ نصاً ولا كَلاماً إذا جُرّدَتْ عن المَقامِ الذي أنجِزَتْ فيه، فلا بدّ للباحثِ منْ مُجاوزتِها إلى شبكةٍ من الجُملِ أو نسيجٍ كلاميّ تترابطُ فيه أطرافُ الكلامِ، ليصيرَ نصاً مكتوباً أو خطاباً منطوقاً

والحَقيقةُ أنّ الجملةَ جزءٌ من النّص. والنّصُّ جزءٌ من الكَلامِ، والكَلامُ إنجازٌ خطابيٌّ لا يُعرَّفُ إلاّ مقروناً بأركانِه الأربعَةِ: المتكلّم والمُخاطَب والمضمون والسّياق، أمّا إن كانَ هذا الإنجازُ الكَلاميُّ مكتوباً فإنّه يُثبَّتُ من خلالِ وحدةٍ محدّدةِ المَعالِمِ والآلياتِ هي النّصّ .

لكنّ هناكَ عنصراً آخَر دخلَ في تحديدِ النّصّ والخطابِ عندما اقْتَرن بالمتكلّمِ والمُخاطَبِ وبتحقيقِ مقاصدِ التّخاطُبِ على الوجهِ الأتمِّ الأبينِ، وهو مفهومُ البيانِ، الذي كان يعني قديماً كلّ ما يُحقّقُ التّبليغَ والتّواصُلَ والإفادةَ والفهمَ والإفهامَ.

أمّا عَقْد الأهمّية على مفهوم النّصّ بوصفِه إنجازاً كتابياً محدداً لَه بدايةٌ وله نهايةٌ وله ضوابطُ وقواعدُ تحكمُ انسجامَه وتماسُكَه، فمصدرُه أنّ النّصّ يرتبطُ بمشروع تأصيل المعرفة العربية الإسلامية وتوثيقها، ويُعدُّ خزّاناً للثّقافةِ والتاريخِ، وذلك يحتاج إلى ضبط الأصول ووضع القوانين والقواعد في تفسير الخطاب والنصوص. و الحديثُ عن النّصّ والنّصوصِ يستدعي مفاهيمَ أخرى يقتضيها النص مثل: الشرح والتفسير والتأويل، فالنص بوصفِه محوراً تتعدّدُ تفسيراته وتأويلاته، وهذا التّعدّد نفسُه يستدْعي مسألةَ قوانين تَحليل النصّ وتفسير الخطاب وتَوْليد الكلامِ.

لا نتحدّثُ عن النّصّ وشروطِ قيامِه، عند الجاحظِ إلاّ في ضوءِ العلمِ الذي تَرَكه عبد الله بن عَبّاسٍ رضي الله عنه (68هـ) ومُقاتل بن سُليمان (150هـ) والشّافعيّ (204؟) والفَرّاء (207هـ) وأبو عُبيْدَةَ مَعْمر بنُ المُثنّى (215هـ)، وهؤلاءِ العُلَماءُ الرّوّاد جميعاً اهتمّوا بشروطِ بيانِ النّصّ وإيضاحِه واستخراجِ قَوانين بِنائه، على تَفاوُتٍ بينَهُم في النّصوصِ المَدْروسَةِ وفي زاويةِ الرؤيَةِ والمَنْهَج.

النص والبيان عند الجاحظ:

جاء الجاحظُ فوجَدَ مصطلَحاً جديداً هو البَيان، استُعمِلَ قبلَه، استعملَه الإمامُ الشّافعيّ بوصفِه ذا صلةٍ بقوانينِ فهمِ النّصوص الشّرعيّة ودلالات الألفاظِ وبقواعد استنباطِ الأحكامِ، فبلَغَ الجاحظُ بمفهوم البَيانِ مبلغاً أعلى ممّا وضعَه لَه الشّافعيّ، فانتقَلَ به من تفسير النص إلى إنتاج قواعد الكتابَة والتّخاطُبِ. فاحتلّت الكتابةُ مكاناً عَلِيّاً وتبدّتْ معالمُ شُروطٍ وقَواعدَ لإنتاج النّصّ المَكْتوب مع الجاحظ في البيانِ، وابن قُتيْبَةَ في أدب الكاتِب... وقواعدُ إنتاج النّصّ عندَ الجاحظ هي قواعدُ تثبيتِ الثّقافَةِ الأدبيّةِ واللغويّةِ والنّقديّةِ ونقلها من الرّوايةِ الشفويّةِ إلى العلمِ المنصوصِ عليْه، قال الجاحظ في بيان قيمةِ الكتابَةِ في تثبيت النص خاصّةً والثّقافَةِ والعلمِ عامّةً.

تثبيت النص بالكتابة: عُنِيَ الجاحظُ بقيم تثبيتِ النصّ في حديثِه عن فضل الكتابة؛ قال:

«ولولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبارُ المخلَّدة، والحِكَمُ المَخطوطةُ التي تُحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبَطَلَ أكثرُ العلم، ولغلَب سُلطانُ النِّسيانِ سلطانَ الذِّكْر، ولَمّا كان للناس مَفزعٌ إلى موضعِ استذكار، ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنا أكثرَ النَّفع؛ إذ كنّا قد علمْنا أنَّ مِقدارَ حفْظ الناسِ لعَواجلِ حاجاتِهم وأوائلها، لا يَبلغُ من ذلك مبلغاً مذكوراً ولا يُغْنِي فيه غَنَاء محموداً، ولو كُلِّفَ عامَةُ مَن يطلب العلمَ ويصطَنِع الكُتبَ، ألاّ يزال حافظاً لفِهرست كتبه لأعجزه ذلك، ولكُلِّفَ شططاً، ولَشَغله ذلك عن كثيرٍ ممّا هو أولى به، وفهمُك لمعاني كلامِ الناس، ينقطع قبل انقطاعِ فهْمِ عينِ الصوتِ مجرَّداً، وأبعَدُ فهمِك لصوتِ صاحبك ومُعامِلك والمعاوِنِ لك، ما كان صياحاً صِرفاً، وصَوتاً مُصْمَتاً ونداءً خالصاً، ولا يكون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطْلٌ من الدَّلالة، فجُعِلَ اللفظُ لأقرَب الحاجاتِ، والصوتُ لأنفَسَ من ذلك قليلاً، والكتابُ للنّازحِ منَ الحاجاتِ»[1]

فتدوينُ النّصّ حفظٌ للعلمِ وتوثيقٌ لَه وضمانٌ للانتفاعِ به، ولا يتمّ له ذلِكَ إلاّ بقواعدَ وقوانينَ وضوابطَ تعصمُه من الضّياعِ وتحفظُ لَه اتّساقَه وتَماسُكَه لفظاً ومَعْنىً؛ إذ إنّ نقلَ الكَلام من مستوى التلفُّظِ إلى مستوى الكتابةِ الضّابطَةِ يقتضي عنايةً في التدوين و رعايةً خاصّةً نحويةً وصرفية ودلاليةً في التّأليف، لأنّ هذا النّصّ سيتأسَّسُ عليْه التّخاطُبُ بين الناسِ، وسيُبْنى عليْه خطابُ العلمِ والمعرِفَةِ، والحاجةُ إلى التواصُل والبيانِ.

إنّ فكرةَ النّصّ أو مَعْنى النّصّ وشروط بنائه عند الجاحِظ لا تكاد توجد منتظمَةً في بابٍ واحدٍ، والإبانَة عن حُدود النص وأقسامِه وشروطِه مبثوثةٌ في تَضاعيفِ كُتُبه منتثِرةٌ في أثنائه ، لا يُعثَرُ عليْها إلاّ بالفحص والتأمّل، حتّى يُعثَرَ على صورةٍ للنّصّ في أقسامِ البيانِ، وفي النصوص التي انتقاها من الشّعرِ والأسجاعِ والوَصايا والرّسائلِ والقِصَصِ والأخبارِ وغيْرِها من وَسائلِ البيانِ وضروبِ الاختياراتِ البلاغيّةِ التي ترسُمُ ملامحَ النّصّ.

عندَما يُصرّحُ الجاحظُ بأنَ البَيانَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيْءٍ كَشَفَ قِناعَ المَعْنى، فإنّه يُفيدُ بهذا التّعريفِ أنّ النّصّ لا يقومُ إلاّ بمُؤلّفاتِه التي يتألّفُ منها وهي كلُّ ما من شأنِه أن يكشفَ مَعْناه فلا يُعدّ نصاً كلُّ قولٍ لا يدلُّ عَلى مَعْنىً و لا يُمكّنُ سامعَه من الإفضاءِ إلى حَقيقتِه، فإذا أفادَ مَعْنىً وتركّبَ من حروفٍ وكلماتٍ وجُملٍ ورَوابِطَ فقد استَوى واستَقامَتْ لَه شُروطِ النّصّيّةِ .

[1] كتاب الحيوان، أبو عُثمانَ الجاحظ، تحقيق: عبد السَلام محمّد هارون، مط. مصطفى البابي الحلبي، مصر . ط.2. 1384هـ-1965م. 1/47-48.

وعندَما نتحدّثُ عن النّصّ عندَ الجاحظ فإنّما نتحدّثُ عن النّصّ الأدبيّ، عن نَظْمِ الشّعرِ وتأليفِ الخُطَبِ البَليغَة ذاتِ الكَلامِ الجيّد والبَيانِ الحَسَنِ، وكتابَةِ الرّسائلِ الطّوالِ والقصارِ والمُصنَّفاتِ الكبارِ والسّيَرِ الحسانِ

ولا نغفلُ ههنا أنّ شروطَ بناءِ الشّعرِ تجمَعُ بينَ العلمِ بالشّعرِ وبينَ نظمِه على السّواءِ، فلا تَكفي معرفَةَ الشّعرِ وحدَها شرطاً لقولِ الشّعرِ، ولا تَكْفي الموهبةُ من غيْرِ معرفةٍ ولا علمٍ؛ وفي ذلكَ ذكَر عبدُ القاهرِ الجرجانيّ حواراً دارَ بينَ عُبيد الله بنِ عبدِ الله بنِ طاهرٍ و الشّاعرِ البُحتريّ؛ فقدْ سألَ ابنُ طاهرٍ البُحتريَّ عن مُسلمٍ وأبي نوّاسٍ: أيّهما أشعَرُ، فقال البُحتريُّ: أبو نوّاس، فقال ابنُ طاهرٍ إنّ أبا العبّاسِ ثعلباً لا يُوافقُك الرأيَ على هذا، فقال: ليسَ هذا من شأنِ ثعلَبٍ وذَويه، من المُتعاطينَ لعلمِ الشّعرِ دونَ عَمَلِه، إنّما يعلَمُ ذلِكَ مَن دُفعَ في مَسلكِ طريقِ الشّعرِ إلى مَضايقِه وانتهى إلى ضروراتِه[1]. أي لا يَعْلَمُ الشعرَ وبناءَه إلاّ مَن عَلِمَه وكابَدَه، ذلكَ أنّ النّصّ الشّعريَّ لا يستقيمُ بناؤُه إلاّ لمَن أوتيَ حظّاً كَبيراً من العلمِ بنَظْمِه ووُهِبَ القُدرةَ على إنشادِه، وبابُ الشّعرِ لم تَضِق العبارةُ فيه ولم يقصُر اللّفظُ ولم يَنغلِق الكلامُ فيه إلاّ لأنّه قَد تَناهى في الغُموضِ والخَفاءِ إلى أقصى الغاياتِ[2]

---

[1] دَلائل الإعْجاز، عَبْد القاهِر الجُرجانيّ. تحقيق: محمود محمّد شاكِر، نَشْر مكتَبَة الخانجي للطّباعَة والنّشروالتّوزيع بالقاهِرة، مَط. المَدَني، القاهِرَة، ط.2، 1410هـ-1989م. ص:252-253. وص:271-272.

[2] دَلائل الإعْجاز، ص:271.

من شروط نصية النص :

1-تبدأ عناصر النّصّ من الحُروفِ والأصواتِ.

وبابُ الحروفِ بابٌ واسعٌ فيه وصفٌ للحُروفِ وائتلافِها وتنافُرِها، وما ذلِكَ إلاّ لأنّ حُسْنَ البيانِ الذي في النّصّ إنّما يتعلّقُ بحُسْنِ ائتلافِ الحُروفِ والأصواتِ وإعطاءِ الحُروفِ حُقوقَها من الفَصاحةِ. فالصّوتُ آلَةُ اللّفظِ ومادّتُه الأولى في التّقطيعِ والتأليفِ . قال الجاحظُ مُوضِحاً فائدةً لمُنْشئِ النّصّ، في طَبيعةِ الأصواتِ ومَدى قَبولِها للاقترانِ : «فأمّا في اقْترانِ الحُروفِ فإنّ الجيمَ لا تُقارِنُ الظّاءَ ولا القافَ ولا الطّاءَ ولا الغينَ، بتَقْديمٍ ولا بتأخيرٍ، والزّايُ لا تُقارِنُ الظّاءَ ولا السّينَ ولا الضّادَ ولا الذّالَ، بتقْديمٍ ولا تأخيرٍ. وهذا بابٌ كَبيرٌ، وقَد يُكْتَفَى بذِكْرِ القليلِ حتّى يُستدَلَّ بِهِ على الغايةِ التي إليْها يُجْرَى .

ولَم يفُتِ الجاحظَ أن يَستخلصَ العبْرَةَ من فعلِ واصل بنِ عَطاءٍ، ويقفَ عندَ أوّلِ مؤلّفٍ من مُؤلّفاتِ النّصّ، وهو الحُروفُ، فيتأمّلَ فيها ويُميّزَ فيها الحُروفَ التي تدخُلُها اللُّثغةُ، فتُتَجنّب، ويترتّبُ على صفاتِ الحُروفِ والأصواتِ صفاتُ الكَلماتِ؛ فإمّا أن تقَعَ الحُروفُ مُنسجمةً مُتآلفةً فتتبعُها في ذلِك الكَلماتُ، فإذا كانَت الكلماتُ مُتَنافِرَةً كأبْناءِ العَلاّتِ، وليسَ موقعُها إلى جَنْبِ أختِها مَرضيّاً مُوافقاً كانَ على اللّسانِ عندَ إنشادِ الشعرِ أو قراءَةِ النّصّ مَؤونَة ومَشقّة .

ويَبْدو أنّ الأساسَ في فكرَةِ تَلاحُمِ الأجْزاءِ عند الجاحِظِ هو تلاؤُم الأصواتِ وانْسجامُها المبنيُّ على تَباعُدِ المَخارجِ؛ لأنّ تباعُدَ المَخارجِ يُيسّرُ تَجاوُرَها لتَكوينِ الكلمةِ السّليمَةِ .

2- السّبْكُ المُعجميّ أو اقْترانُ الألفاظ ومُناسَبَتُها لمَعانيها:

ثُمّ يأتي بعدَ الحُروفِ الكَلماتُ و أفضلُ نموذجٍ نصّيّ في انتقاءِ الكلماتِ ونظمِها في الموقعِ المُناسبِ لها مبنىً ومعنىً، النّصُّ القرآنيُّ؛ وقَد انتقدَ الجاحظُ اختيارَ النّاسِ ألفاظاً في مواضِعَ وغيرُها أحقُّ بذلِكَ منها واستعمالَهُم القليلَ الورودِ في أصلِ اللّغةِ وتَركَهُم الأظْهَرَ الأبيْنَ؛ أمّا القُرآنُ الكَريمُ فهو النموذَجُ الأعلى في المُناسَبَةِ المُعجميّةِ؛ فقَد أورَدَ اللّفظَ المُناسبَ في المَكانِ المُناسبِ وراعى السياقَ في الوضْعِ مراعاةً دقيقةً؛ ذكَرَ الجوعَ في موضِعِ العقابِ أو الفقْرِ المُدقِعِ أو العَجْزِ الظّاهِرِ، والمَطَرَ في موضعِ الانتقامِ والغيْثَ في سياقِ الرّحمةِ...

وفي هذا السّياقِ رَوى الجاحظُ أبياتاً يُحتجُّ بِها في ما لا تَتباينُ ألفاظُه ولا تَتَنافرُ أجْزاؤُه، منها قولُ الأجرَدِ الثّقَفيّ:

مَن كانَ ذا عَضُدٍ يُدْرِكْ ظُلامَتَه /// إنّ الذَليلَ الذي ليسَ لَه عَضدُ

تَنْبو يَداه إذا ما قَلّ ناصرُه /// ويَأنَفُ الضَيمَ إنْ أثْرى له عَدَدُ

فمُفْرَداتُ البيْتَيْن مُتَناسبةٌ مُنْتَقاةٌ انْتقاءً يُناسبُ السّياقَ ومَقامَ الكَلامِ، وكُلّما كانَت الألفاظُ مُتَقاربةً مُتَجاورةً سَهُلَ فَهْمُ مَعْنى النّصّ وإدْراكُ أغْراضِه ومَقاصدِه .

3- ثُمّ يقترِنُ بالنّصّ فائدتُه العامّةُ وهي البيانُ والإفصاحُ

الإفصاحُ والإيضاحُ وجَودةُ الإفهامِ والتبليغِ، وقد نصّ الجاحظُ على أنّ مدارَ أمرِ الكلامِ على البيانِ والتّبيُّنِ والإفهامِ والتّفهُّم[1]، وهُما طَرَفا الكَلامِ وبِهما يقومُ النّصُّ.

فالنصُّ يلتقي بالبيانِ من الناحيّة الدّلاليّة: إذ لا يتحقّقُ ولا تظهرُ لَه وظيفةٌ ودلالَةٌ إلاّ بالبيانِ؛ قال الجاحظُ في هذا المَعْنى: «المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم...مستورة خفية... وإنّما يُحيي تلك المعاني ذكرُهُم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان...والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى... لأن مَدارَ الأمر والغايةَ التي يجري إليها القائلُ والسامع إنما هو الفهمُ والإفهام، فبأي شيء بَلغْتَ الإفهامَ وأوْضَحْتَ المعنى فذلك هو البيان»[2]. ومَراتبُ البيانِ مُتفاوتةٌ: فكُلّما كانَت العبارَةُ أدقّ وأوجَزَ كانت قيمُ الإبانَة أوفَرَ؛ ولذلِكَ كانَ أحسنُ الكلامِ ما أغْنى قليلُه عَن كثيرِه، وما كانَ مَعْناه في ظاهرِ لفْظِه. ونستطيعُ أن نَعُدّ عناوينَ الكُتُبِ الموضوعَةَ وضعاً حَسَناً، نصّاً؛ إذا كان مَعْنى الكتابِ في ظاهِرِ لفظِهِ، أو على الأقلّ نعدُّ العنوانَ عتبةً ومدخلاً صادقاً أميناً إلى مَعْنى الكتابِ ومَقاصدِ صاحبِه منه.

ومن بابِ اقْترانِ اللفظِ بمَعْناه ودلالتِه عليْه أن يكونَ الاسمُ طبْقاً لمعْناه ويَكونَ الاسمُ لا فاضلاً ولا مَفْضولاً. ومن صفاتِ النّصّ البَليغِ مُطابقَتُه لمُقْتَضى مَعْناه ومُوافقَتُه لسياقِه: و بُروزُه لمتلقّيه ويترتّبُ على ذلِكَ أنّ كلامَ النّاسِ على طَبقاتٍ في الجودةِ وعَدَمِها .

وكُلّما كان الكَلامُ مُطابقاً لمعْناه في الطّولِ أو القِصَرِ كانَ أجودَ: ألا تَرى أنّ العربَ مَدَحَت الخُطَبَ الطِّوالَ مثْلَما مَدَحَت الإيجازَ والحذفَ والإشارَة، على نحوِ ما قالَ الشّاعرُ:

---

[1] البيانُ والتّبيين: أبو عُثمانَ الجاحظ، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، نشر مكتبة الخانجي، مط. المَدَني بالقاهرة، ط.7. 1418هـ-1998م، 11/1

[2] البَيان والتّبيين: 1/75-76

يَرْمونَ بالخُطَبِ الطِوالِ وتارةً /// وَحْيَ المَلاحظِ خِيفةَ الرُقَباءِ[1]

فكَما يُحبُّ المتكلّمُ البَيانَ والطَلاقةَ، والتّحبيرَ والبَلاغةَ، فإنّه يكرَه الإسْهابَ والهَذَرَ، والتَزَيُّدَ والإكثارَ والمُنافسَةَ في الغلُوّ؛ «وكلُّ مِراءٍ في الأرضِ فإنّما هو من نتاجِ الفُضولِ»[2]، وكُلُّ صيغةٍ أخرجَ عليْها الكَلامُ إنّما تكونُ مُطابقةً للمَقامِ ولمَقاصدِ المُتكلّم؛ قال الجاحظُ في الرَّسائل: «ورُبَّما كانَ الإيجازُ مَحْموداً، والإكثارُ مَذْموماً. ورُبّما رَأيتَ الإكثارَ أحْمَدَ من الإيجاز. ولكُلٍّ مَذهبٌ ووَجْهٌ عندَ العاقِلِ. ولكُلِّ مَكانٍ مَقالٌ، ولكُلِّ كَلامٍ جَوابٌ. مع أنَّ الإيجازَ أسْهَلُ مَراماً وأيسَرُ مَطْلَباً منَ الإطْنابِ. ومَنْ قَدَرَ على الكَثيرِ كانَ على القَليلِ أقْدَرَ.

والتَّقْليلُ للتّخفيفِ، والتَّطويلُ للتَّعريفِ، والتَّكْرارُ للتَّوْكيدِ، والإكْثارُ للتَّشْديدِ... وأمّا المَذمومُ منَ المَقالِ، فَما دَعا إلى المَلالِ، وجاوَزَ المِقْدارَ، واشْتَمَلَ على الإكْثارِ، وخَرَجَ منْ مَجرى العادَةِ.

وكُلُّ شيءٍ أفرطَ في طَبْعِه، وتَجاوَزَ مِقْدارَ وُسْعِه، عادَ إلى ضِدِّ طِباعِه...»[3].

وهكذا فإنّ الجاحظَ غَلَبَ عليه حُبُّ البَيانِ والعنايَةُ به من أجلِ إظهارِ المَعْنى والقَصْدِ إليْه، فقَد مَدَحَ القصدَ إلى المَعْنى من أخْصَرِ طَريقٍ، وفَضّلَه على المُبالَغَةِ في تنميقِ اللّفظِ والعنايَةِ الزّائدَةِ بِه؛ وساقَ نصاً لبعض الأدباءِ يُحذِّرُ فيه من الإفراطِ في طَلَبِ الألفاظِ لذاتِها: «أنذِرُكُم حُسْنَ الألفاظِ وحَلاوةَ مَخارجِ الكَلامِ؛ فإنّ المَعْنى إذا اكْتَسى لَفظاً حَسَناً وأعارَه البَليغُ مَخْرجاً سَهلاً ومَنَحه المُتكلّمُ دَلاًّ مُتعشّقاً، صارَ في قلبِكَ أحْلى ولصدْرِكَ أمْلا. والمَعاني إذا كُسِيَت الألفاظَ الكَريمةَ، وأُلْبِسَت الأوصافَ الرَّفيعةَ، تَحوّلَت في العُيونِ عن مَقاديرِ صُوَرِها، وأرْبَتْ على حَقائقِ أقْدارِها، بقدرِ ما زُيِّنَت، وحَسَبِ ما زُخرِفَت...»[4]. وقَد علّقَ الجاحظُ على هذه المَقالَةِ بأنّ القصْدَ عندَ طَلَبِ المَعْنى أن يُتجَنّبَ السّوقيُّ من الألفاظِ والوَحْشيُّ، ولا يجْعَل الكاتبُ همّه في تَهذيبِ الألفاظِ وشُغْلَه في التّخلُّصِ إلى غَرائبِ المَعاني؛ ففي الاقتصادِ بَلاغٌ، وفي التَوسُّطِ مُجانبةٌ للوُعورَةِ وسَلامةٌ من التّقْصيرِ والمُغالاةِ. والكَلامُ إذا قلَّ وَقَعَ وُقوعاً لا يجوزُ تَغْييرُه، وإذا طالَ وَجدْتَ في القَوافي ما يَكونُ مُجتلَباً ومَطْلوباً مُستَكْرَهاً.

---

[1] البيان والتبيين: 155/1

[2] البيان والتبيين: 191/1

[3] رسائل الجاحظ. القسم الثاني من الفصول المُختارة من كُتب الجاحِظ. اختيار الإمام عُبَيْد الله بن حَسّان. تحقيق عبد السّلام محمّد هارون. دار الجيل. بيروت. ط.1، 1411هـ-1991م. ج:4/ص:152

[4] البيانُ والتّبيين: 254/1

وضَربَ الجاحظُ أمثلةً على القصدِ في الكَلامِ والتوسُّطِ في تَحسينِ الألفاظِ، بالشّعْرِ والخُطَبِ والحِكَمِ وكَلامِ النُّسّاكِ.

4- ويقترنُ بالبيانِ التَبْيينُ: أي يقترنُ بالكَلامِ المُتكلِّمُ والمُخاطَبُ:

وقد استعْرَضَ الجاحظُ لإثباتِ علاقة المتكلّمِ بصاحبِه: الخُطبَ القِصارَ ومَواعظَ النُّسّاكِ والزُّهّادِ والصّوفيّةِ من أهلِ البَيانِ، وكَلامَ القُصّاصِ. وقَد عُنِيَ الجاحظُ بأسمائِهم وأنسابِهم وقَبائلِهم وأخْبارِهم لتصحيحِ نسبةِ أقوالِهم إليْهِم، وللوقوفِ على مَقامِ كَلامِهم وظروفِ خِطابِهِمْ.

ويأتي مع المتكلّمِ العنايَةُ بالمُخاطَبِ: فالجاحظُ لا يتصوّرُ بناءَ النّصّ الأدبيّ إلاّ من مادّةِ القِصَرِ والإيجازِ، ومَعْدنِ التّشاكُلِ بين اللّفظِ والمَعْنى، وموافَقَةِ الكَلامِ لِمُقْتَضى الحالِ، وهي شُروطٌ تضَمنُ بُلوغَ النّصّ إلى المُخاطَبِ وتُنْشئُ لَه مَسالكَ العُبورِ إليْه. وقد ضربَ لذلِك مَثلاً بالقَصائدِ الحَولياتِ أو المُنقَّحاتِ أو المُقلَّداتِ التي يُراجعُها صاحبُها ويُهذّبُها فتستعْبِدُ جهْدَه وتستفْرِغُه، قبلَ أن يُرسلَها إلى المُخاطَبِ. ولكنّ المُبالغَةَ في حَكّ الشّعرِ ونَخْلِه ومُراجعَتِه وتَقْويمِ ثِقافِه، قدْ تُسقطُ صاحِبَها في التّكلُّفِ وتُدخِلُه في بابِ الصّنْعَةِ. وعليْه، ينبغي للخَطيبِ والنّاظمِ أن يسلُكَ سَبيلَ الاعتدالِ والقَصْدِ في إنشاءِ الكَلامِ وتَحْسينِ اللفظِ.

بَلْ إنَّ عنايَةَ المُخاطَبِ بالكلامِ أنْشَطُ للمتكلّمِ وأدْعى لاسترْسالِه في البَيانِ، وقد أورَدَ الجاحظُ في هذا السّياقِ أيضاً أقوالاً تُفيدُ عنايةَ المُخاطَبِ بالاستماعِ إلى الكَلامِ: قال: « قال أبو مُسهِر: ما حَدّثْتُ رَجلاً قَطُّ إلاّ أعجَبَني حُسْنُ إصغائه، حَفظَ عَنّي أم ضَيّعَ، وقال أبو عُقيْل بنُ دُرُسْتَ: نَشاطُ القائلِ على قدرِ فَهمِ المُستَمِعِ، وذَكر رَجلٌ مِن القُرشيّين عبدَ الملكِ بنَ مَرْوانَ، وعبدُ المَلكِ يومئذٍ غُلامٌ، فَقالَ: إنّه لآخِذٌ بأربعٍ، وتارِكٌ لأربع: آخذٌ بأحسَنِ الحَديثِ إذا حَدَّثَ، وبأحْسنِ الاسْتِماعِ إذا حُدِّثَ، وبأيسَرِ المَؤونة إذا خُولفَ، وبأحسنِ البِشْرِ إذا لَقِيَ، وتارِكٌ لِمُحادَثة اللّئيم، ومُنازَعَة اللّجوج، ومُماراة السّفيه، ومُصاحَبة المَأفون.»[1]

5- بنيةُ النّصّ :

لا يَفوتُ الجاحظَ وهو يستعرضُ شُروطَ بناءِ النّصّ الأدبيّ أنْ يتحَدّثَ عن مَقاييسِ بناءِ الخُطبةِ والقطعةِ الأدبيّةِ الجيّدَةِ، مُستمِدّاً إيّاها ممّا اسْتقرَّ في الأدبِ من خُطَبٍ بَليغةٍ؛ فقال: «ثُمّ اعلَمْ بَعد ذلِكَ أنّ جَميعَ خُطبِ العربِ من أهلِ المَدرِ والوَبرِ والبَدوِ والحَضرِ على ضَربَيْنِ منها الطِّوالُ ومنها القِصارُ، ولكلّ ذلِك مكانٌ يَليقُ بِه وموضعٌ يحسُنُ فيه، ومن الطّوالِ ما يَكونُ مُستوِياً

[1] البيانُ والتّبيين: 2/40-41.

في الجَودةِ ومُتَشاكلاً في استواءِ الصّنعةِ. ومنها ذَواتُ الفِقَرِ الحِسانِ... وليسَ فيها بعدَ ذلِكَ شيءٌ يستحقُّ الحفظَ، وإنّما حظُّه التّخليدُ في بُطونِ الصُّحُفِ. ووجدْنا عَددَ القِصارِ أكثَرَ، ورُواةَ العلمِ إلى حفظِها أسْرَعَ »[1].

وقد انْتَقى الجاحظُ جملةً من النَصوصِ جَمَعها من مُقطَعاتِ كلامِ العربِ الفُصحاءِ وأهلِ اللّسَنِ من قُريشٍ، وأهلِ الخطابَةِ من أهلِ الحِجازِ، وبعضِ كلامِ النّسّاكِ ومواعظِ الزُّهّادِ، على قلَّةِ كلامهم وشدّةِ تَوَقّيهم. وقد مَدَحَ القِطَعَ الأدبيّةَ القِصارَ لأنّ كثيراً منها يُغني قَليلُه عن كثيرِه، بلْ رُبَّ كلمةٍ تُغني عَن خُطبةٍ وتَنوبُ عن رِسالةٍ، ورُبَّ كلمةٍ تُربي عن إفْصاحٍ. ومَتى شاكلَ اللّفظُ مَعْناه، وأعربَ عَن فَحْواه، ووافَقَ حالَه، وسَلِمَ من التّكلُّفِ، كانَ جَديراً بحُسْنِ المَوقِعِ وبانتِفاعِ المُستمِعِ، والسّلامةِ من تَناولِ الطّامعينَ واعتراضِ العائبينَ. ومَتى كانَ اللّفظُ كَريماً في نفْسِه مُتخَيَّراً من جنسِه سَليماً من الزّوائدِ والفُضولِ بريئاً من التّعقيدِ حُبِّبَ إلى النّفوسِ واتّصلَ بالأذهانِ ومالَت إليْه الأسْماعُ وارْتاحَت لَه القُلوبُ وخَفَّ على ألسنةِ الرُّواةِ وسَهُل فَهمُه وحفظُه من غيْرِ تكلُّفٍ وأراحَ قارِئَه من عِلاجِ التّفهُّمِ، وشاعَ ذكْرُه وعَظُمَ في النّاسِ خطرُه وصارَ مادّةً للعُلَماءِ ورياضةً للمتعلّمينَ.

وقَد قدّمَ الجاحظُ نَماذجَ من جَوامعِ الكلِمِ النّبويّةِ[2] ممّا لم يسْبِقْ إليه عربيٌّ ولا ادّعاه أحدٌ، فاستُعمِلَ حَتّى صارَ مثلاً سائراً، وهو فَنٌّ من الكَلامِ قلّ عددُ حُروفِه وكَثُرَ عَددُ مَعانيه ونُزِّه عن الصّنعَةِ والتّكلُّفِ واستعمَلَ المبْسوطَ في مَوْضعِ البَسْطِ والمَقْصورَ في مَوضعِ القَصْرِ، وهجَرَ الغَريبَ الوحشيَّ والهَجينَ السّوقيَّ. قال عنه الجاحظُ: « وهو الكَلامُ الذي ألقى اللهُ عليْه المحَبّةَ وغَشّاه بالقَبولِ، وجمَعَ له بيْنَ المَهابةِ والحَلاوةِ، وبينَ حُسْنِ الإفهامِ وقلّةِ عَددِ الكَلامِ، مع اسْتغْنائه عَن إعادتِه وقلّةِ حاجةِ السّامعِ إلى مُعاوَدَتِه، لم تسقُطْ له كلمةٌ، ولا زَلّتْ به قَدمٌ، ولا بارَت له حُجّةٌ، ولم يقُمْ له خَصمٌ ولا أفحَمَه خَطيبٌ، بل يبُذُّ الخُطبَ الطِّوالَ بالكَلِمِ القِصارِ، ولا يلتمِسُ إسكاتَ الخَصمِ إلاّ بما يعْرِفُه الخَصمُ، ولا يحتجُّ إلاّ بالصّدقِ... ولا يستعملُ المُوارَبَةَ، ولا يهمزُ ولا يَلمزُ، ولا يُبْطئُ ولا يَعْجَلُ، ولا يُسهبُ ولا يَحْصَرُ... »[3]. وقد عرَضَ الجاحظُ طائفةً طيّبةً فصيحةً من آحاديثِ جَوامعِ الكَلِمِ النّبويّةِ، ومن أقوالِ الصّحابَةِ ورَسائلِ الخُلَفاءِ إلى وُلاتِهم،

---

[1] البيانُ والتّبيين: 7/2

[2] البيان والتّبيين: 2/16-17، الحَيوان: 1/335.

[3] البَيان والتّبيين: 1/17.

وغيرِ ذلِك من عُيونِ الخُطَبِ والفِقَرِ المُستَحْسَنَةِ والنُّتَفِ المُستخْرَجَةِ والمُقطَّعاتِ المُتخيَّرَةِ والجَواباتِ المُنتخَبَةِ.

بَل جاوزَ الجاحظُ هذه الأشكالَ الأدبيّةَ وصِيَغَ تأليفِ الكَلامِ، إلى فَنٍّ آخَر يَتناولُه تحليلُ النّصِّ، هو تأليفُ الكتابِ؛ فقد ذَكَرَ أنّ وجه التّدبيرِ في الكتابِ إذا طالَ أن يُداوِيَ مُؤلِّفُه نشاطَ قارئِه بالاحتيالِ لَه، من ذلِك أن يُخرِجَه من فَنٍّ إلى فَنٍّ ومن بابٍ إلى بابٍ، من غيْرِ أن يُخْرِجَه من ذلِك الفَنِّ ومن جُمهورِ ذلِك العلمِ[1].

لَقَد حَرَصَ الجاحظُ أن يُطلعَنا على هذه البنيَةِ النّظميّةِ للنّصّ الأدبيّ وما تنطوي عليْه من تَماسُكٍ وانسجامٍ، وتَمَكّنَ من إطلاعِنا على نظمِ الكَلامِ البليغِ، ببراعتِه في البَيانِ وانتقائه الألفاظَ الكبيرَةَ الوَقْعِ في النّفوس والعباراتِ المُحكَمَةَ الصّياغةِ

الانسجام Coherence

ويقصد بالانسجام ذلك المعيار الذي يختص باستمرار النص، وتوالي عناصر دلالته المتولدة عن علاقات النص. ويقوم الانسجام•النصي عن طريق تحقق العديد من العلاقات الدلالية بين أجزاء النص مثل :

أ - علاقات الربط: (الوصل والفصل، والإضافة، والعطف) .

ب- علاقات التبعية: (الإجمال والتفصيل، والسببية، والشرط، والعموم والخصوص) .

ويرى محمد خطابي أنه "ليس هناك نص منسجم في ذاته، وغير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي ، بل إن المتلقي هو الذي يحكم على نص بأنه منسجم ، وعلى آخر بأنه غير منسجم".

الاتساق والانسجام:

عبّرَ الجاحظُ عن قيامِ النّصّ وبِنائِه وتحقُّقِ هيْئتِه اللّغويَةِ واكتِمالِه، بالانتظامِ والاتِّساقِ، وذلِك في سياقِ حَديثِه عَن واصل بنِ عَطاءٍ المُعتزِليّ الذي كانَ يرومُ إسقاطَ الرّاءِ من كلامِه ويجتهدُ لذلِكَ ويُكابدُه ويَبْني النّصَّ على حذفِ الرّاءِ وانتقاءِ الكلماتِ من المُعجمِ خاليةً منها، هذا مع الحرصِ على إفحامِ المُعاندينَ ومُحاجّةِ الخُصومِ وتحقيقِ الغايَةِ

[1] البيان والتَّبْيين: 366/3.

الحجاجيّةِ، فاجتَمَعَ لواصلِ حُسنُ انتقاءِ الحروفِ الذي يَتعلّقُ بحُسنِ انتقاءِ كلماتِ المُعجَمِ، ثمّ تأليفُ الكلماتِ والجُمَلِ في بناءٍ نضيدٍ، ثُمّ بُلوغُ المُرادِ وإدراكُ المُؤمَّلِ من الكَلامِ، واستقامَ له من هذا المَجْموعِ نصٌّ منظومٌ مُتّسِقٌ؛ قالَ الجاحظُ: «حتّى انْتظَمَ لَه ما حاولَ واتّسَقَ له ما أمّلَ»[1].

ويزيدُ الجاحظُ هذه الصّفةَ بَياناً بقوله في تَحديدِ مَقاييسِ جَوْدَةِ الشّعرِ: «وأجودُ الشِّعْرِ ما رأيتَه مُتلاحمِ الأجزاءِ، سَهْلَ المَخارجِ، فتعلَمُ بذلِكَ أنّه قد أفْرِغَ إفراغاً واحداً، وسُبِكَ سَبْكاً واحداً. فهو يَجري على اللّسانِ كَما يَجري الدِّهانُ»[2] ، فقَد استعْرضَ في هذا النّصّ مَعاييرَ النّصيّةِ التي تُفضي به إلى التّلاحُم والتّماسُك والسّبْكِ: وما هذه الأجزاءُ إلاّ الأصواتُ والحُروفُ، ثُمّ الكَلماتُ المُعجميّةُ وما بيْنَها من رَوابطَ نحويّةٍ وإحكامِ تعليقٍ وإحالةٍ. فينتظمُ من هذا المَجْموعِ نصٌّ سَلِسُ النّظامِ لَيِّنُ المَعاطفِ رَطْبٌ مُتَواتٍ، حتّى كأنّه بأسرِه كلمةٌ واحدةٌ، وحَتّى كأنّ الكلمةَ بأسرِها حرفٌ واحدٌ.

وما خَرَجَ عن هذا المقْياسِ فهوَ شعرٌ مَذمومٌ مُفكّكٌ يتبرّأ بعضُ أطرافِه من بَعْضٍ، وقَد يُخْدَعُ النّاظرُ بِما قد يَراه في الشّعرِ من أنّ حُروفَه وأجْزاءَه .

و هكذا فالانسجامُ والتّآلُفُ يَدِقُّ حَتّى يشْمَلَ الأصْواتَ، ويكبُرُ حتّى يشمَلَ الكلمةَ والبيْتَ والخُطبَةَ والنّصّ كلَّه.

من شُروط النَّصّيَّة التَّمامُ، وسياق الاتصال:

يُشترَطُ في النّصّ أن يكونَ تامّاً مكتملاً بلفظِه ومَعْناه؛ فقَد علّقَ الجاحظُ على الرّواةِ الذينَ ذهَبَ كلُّ واحدٍ منهم إلى تَفْضيلِ نصفِ بيتٍ منَ الشّعرِ، ووصفِه بأنّه أحكمُ الشّعرِ وأوجَزُه: فمنهُم مَن قالَ: قول حُمَيْد بن ثَوْر : [وحَسْبُكَ داءً أن تصحَّ وتَسْلَما]، ومنهُم مَن قالَ: قولُ أبي العتاهيّةِ : [أسرَعُ في نقصِ امرئٍ تَمامُه]، ومنهُم مَن قالَ: قولُ أبي خِراشٍ الهُذلِيّ:

نُؤَكِّلُ بالأدْنى وإنْ جَلّ ما يَمْضي

ومنهُم مَن قالَ: بلْ قولُ أبي ذُؤيْبٍ الهُذليّ: [وإذا تُردُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ]. فقالَ الجاحظُ معلّقاً على هذا الاقْتطاعِ من الكَلامِ: إنّما كانَ الشّرطُ أن يأتوا بثلاثةِ أصْنافٍ مُستغْنياتٍ بأنْفُسِها،

[1] البيانُ والتّبيين: 15/1

[2] البيانُ والتّبيين: 67/1

والنّصفُ الذي لا يستغْني بنفْسِه و لا يفهمُ السّامعُ مَعْنى هذا النّصفِ حَتى يَكونَ موصولاً بالنّصْفِ الأوّلِ؛ لأنّك إذا أنشدْتَ رجُلاً لم يَسْمعْ بالنّصفِ الأوّلِ وسَمِعَ: [وإذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ]؛ قالَ: مَن هذه التي تُرَدُّ إلى قَليلٍ فَتَقْنَعُ؟[1].

فأنتَ تَرى ههنا كيفَ أنّ الجاحظَ عَقّبَ على مَن فَضّلَ نصفَ البيْتِ مُحتجّاً بأنّ الشّرطَ في بلاغةِ الكَلامِ وبيانِه اكتمالُ مَعْناه وتَمامُ بِنائه بذكْرِه برُمَّتِه

في توزيع الضّمائر

من وَظائفِ الضَّميرِ في اللغةِ العربيّة :

- النّيابَةُ عن الاسمِ الظّاهرِ والكنايةُ عَنه والإحالَةُ إليْه[2].
- الرّبْطُ به.
- الخفَّةُ والاختصارُ بذِكْرِه بدلاً من إعادَة الاسمِ بلفظِه وفي ذلكَ إطالةٌ لا مسوّغَ لَها.

ومن شُروط الربطِ به:

- مُطابقَتُه لمرجعِه في اللّفظِ
- مُطابقتُه لمَرجعِه في القَصد.

والشاهدُ على هذا الشّرطِ الأخيرِ في قولِه تعالى: « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ » [آل عمران/26] تكرّرَ لفظُ "المُلك" ولَم يُضمرْ الثاني. فلَم يَقلْ : [وتنزعُهُ ممن تَشاءُ] لأنّ المقصودَ بالمُلك وإن حَصَلَت المُطابقةُ بين المُلكَيْن لفظاً فقَد اخْتَلَفا قَصداً: فالمُلْكُ الأولُ حُكمٌ مُعْطىً والمُلْكُ الثاني حُكمٌ مَسلوبٌ. فاللفظانِ مُتَقابلانِ كَما تَقابلَ ما بَعدهُما في الآيَةِ نفسِها: « وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ » فتقابُلُ الفعليْن قَرينَةٌ على تقابُل مَعْنَيي "الملك" واختلافِهما في القَصد. **فعندَما اختلَفَ المَعْنى والقَصد واتَّحد اللفظُ امْتَنَعَ الإضمارُ: وتَعَيَّن التَّكْرارُ**، لأمن اللّبْس [3].

---

[1] **البيانُ والتّبيين: 1/153-154-155.**

[2] يَنبغي التنبيهُ على أنّ كُلّ لفظٍ فيه عُمومٍ صَلَحَ أن يَكونَ اداةً للإحالَةِ في اللغة العربيّة.

[3] **البَيانُ في رَوائع القُرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القُرآني**، تمام حسان، ط. عالَم الكتُب، 2003م، ص: 139.

ومثلُ ذلكَ في قولِه تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » [البَقرة/48] وكذلكَ في قوله تعالى: « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » [البقرَة/123]

وفي قوله تعالى: « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » [النّساء/115]، فمَن لا يُلقي بالاً لعلاقات الكلِمِ بعضِها ببعضٍ في الآيَة يحسبُ أنّ الهاء في [تبيَّنَ له] يَعودُ على الرّسول أو على الأقلِّ يحتملُ مرجعَيْن هما اسم الشّرط الجازم [مَنْ] والرسول، مَعاً. وهذا أمرٌ منفيٌّ قطعاً لأنّ توزيعَ الضّمائر ليس مَحْكوماً بقواعد التعليقِ والتّركيبِ والنّظمِ فقط، ولكنها مضبوطَةٌ بضابطٍ أكبَرَ وهو السياقُ الخارجيّ الذي يُعين على فهم دلالة النّصّ، ويدخلُ في السياقِ الخارجيّ أسبابُ النزولِ وواقع الحال والمَقام ...

وعليه ، فالضّمير في [لَه] يعود على اسم الشرط الجازم [مَن] والضّمير المستتر في [يتّبعْ] يعودُ أيضاً على [مَنْ] وليس على الرّسول لأنّ الرّسولَ صلى الله عليه وسلّمَ مُبلّغُ الهُدى وحاملُه والعاملُ به والقُدوةُ فية والإسوةُ الحَسَنَةُ فيه، فكيفَ يُشاقُّ الرّسولُ نفسَه، والهاءُ في [نُصلِه] عودُ أيضاً على [مَنْ] ويربطُ جوابَ الشّرطِ بأداتِه وعلى هذا المنوالُ يُقاسُ تَوزيعُ الضّميرِ في النصوص البليغَةِ الفصيحَة. أولُها القُرآن الكريمُ ثمّ الحديثُ النّبويّ الصّحيحُ، ثُمَ الشعرُ العربيّ الفصيحُ الرّصينُ قديمه وحَديثه.

مسألة في مَهْما، لم يُورِدْها النّحويّون

مهْما اسم شرطٍ جَازم، في الرّاجح من أقوال النّحاة، تدخلُ على المُضارع فتجزمُه، ولا تدخلُ على الماضي، ولم يُعرَفْ في القُرآن الكريم أو الحديث أو الشعر الفصيح في عُصور الاستشهاد، أنها دخَت على الفعل الماضي، أمّا في عصرنا فقَد ارتُكبَ هذا الوجه كثيراً كما في قصيدة لبدر شاكر السّيّاب [نشَرَها في سفر أيوب، لندن 1962/12/26]

تبدأ القصيدةُ بقوله: لَك الحمدُ مهما استطالَ البلاءُ ومَهْما استبدَّ الألَم...

وكذلك فَعَلَ إبراهيم الرباحي: مَلِكٌ تصَحَّحَ أنّه فردُ العُلَى /// مهما أَجَلْتَ الفكرَ في أَحواله

فأوقَعَ مَهْما على الماضي [استطالَ-استبدّ-أجالَ]، وهي لا تدخلُ إلاّ على المضارع فتجزمه، نحو قوله تعالى: (وقالوا مَهما تأتِنا به من آيةٍ لتَسحَرَنا بها فَما نحنُ لكَ بمؤمنينَ) [الأعراف:132]

وقال الشاعر:

ومهما تكنْ عندَ امرئٍ من خليقةٍ /// وإن خالها تخفى على النّاسِ تُعلمِ

وقالَ ساعدة الهذلي:

قد أوبيتُ كلَّ ماءٍ فهْي ضاويةٌ /// مهما تُصِبْ أفُقاً من بارقٍ تشِمِ

ويُروى: طاوية

وقد يقولُ القائلُ: إنها تُشبه إنْ الشرطية الجازمَة التي تدخلُ على المضارع [وإن تَعودوا نعُدْ] وعلى الماضي [وإن عُدتُم عُدْنا]

والرد على هذا الاعتراض، من جهَتَيْن:

1- أولاهُما أنّه لم يَرد في القرآن مطلقاً وُقوعُ مهما على ماضٍ، ولا في الشعر الفصيح الجاهليّ والإسلاميّ.....

2- والثانية: أنّ مهما تختلفُ عن إنْ في دخول إنْ على الماضي والمضارع، واقتصارها على المضارع، لأنّ [إنْ] الشرطية الجازمَة أمّ الباب في الشرط الجازم، ويَجوزُ في الأصول ما لا يَجوز في الفُروع.

ما ظاهرُه الاستفهامُ وتقديرُه الشَّرط

من شواهد سيبويْه في الكتاب: قولُ زياد بنِ زيدٍ العذريّ [ذكَره في باب [أوْ] في غير الاستفهام]

إذا ما انْتَهى عِلْمي تناهَيْتُ عندَه /// أَ طالَ فأَمْلى أو تَناهى فأَقْصَرا

في الشّاهد إرادةُ الشّرطِ لا الجمع بين المَعنيين مُطلقاً. وبنيتُه اللّفظيّةُ غيرُ بنيةِ قولِنا: سَواءٌ عليّ أطالَ علمي فأمْلى أم تَناهى فأقْصَرَ. فالمثالُ الثاني غيرُ المثال الأول المَقيسِ على الشّاهد الشّعريّ: إذْ ليسَ المرادُ في البيت الأوّل تَناهَيْتُ هذيْن الأمرَيْن، وإنّما المُرادُ أنّ الأمرَ يَقَعُ على إحْدى الحالَيْن لا على كلتَيهما، وعليْه لا يَجوزُ: لأضربنَّه أذهَب أو مَكَثَ؛ لأنَّك لو أردتَ مَعنى الإطلاق في الفعل قلتَ: أمِ مكث، كما يجوز: ما أدري أقام زيدٌ أو قعد. ولا يَجوزُ أن نَقولَ: لأضربنَّه أذهَب.

ومثلُه في شواهد الكتاب:

فلستُ أبالي بعدَ يَوم مُطرّفٍ /// حَتوفِ المَنايا أكثرت أو أقلَّت.

على أنه يجوزُ الإتيانُ بأوْ مجرداً عن الهمزة بعد سَواء، ولا أبالي، لأنّ المَعْنى مَعْنى الشّرط: بتقدير حرف الشرط، والتقدير: إن أكثرت، أو أقلت، فلست أبالي.

ومن المَعلوم أنّ "سواء"، إذا دَخَلَت بعدها ألفُ استفهامٍ لَزمَت "أم" بَعدَها، كقولك: سواء عَليَّ أقُمتَ أم قَعدْتَ، أمّا إذا كان بعدَ "سَواء" فعلان بغير استفهام، جازَ عطفُ أحدِهما على الآخَر "بأو"، كقولك: سواء عَليَّ قُمتَ أو قَعدتَ: فإن الكلام محمول على معنى الشَّرط. فإذا قلت: سواء علي قمت، أو قعدت، فتقديره: إن قمت، أو قعدت فهُما عَليَّ سَواء.

ظرْفُ الزَّمانِ رابطاً :

أهميةُ "إذْ" في تَحقيق الربط النصيّ: تأمَّلْ قولَه تعالى في أواخر سورةِ المائدَة :

« يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى

بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ. إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »

إذْ قال الله يا عيسى - إذ أيدْتُكَ - وإذ علَّمْتُكَ - وإذْ تَخلُقُ - وإذْ تُخرِجُ المَوْتَى - وإذْ كَففتُ بَني إسرائيلَ - إذ جئتَهُم - وإذْ أوحيْتُ إلى الحَواريّينَ - إذْ قالَ الحَواريّونَ

الأساسُ المَقاميُّ : مَنهَجُ حكايَةِ المُحاوَراتِ

الروابطُ كثيرةٌ جدا، ومنها الربطُ بالظَّرْفِ "إذْ" : ففي قوله تعالى {إذْ أيّدتُكَ بروح القُدُس} تعلَّقَ الظَّرفُ "إذْ" بـ {نعمتي} لأنها اسم مشتق فيه معنى المصدر إنعام، والتقدير: النعمة الحاصلة في وقت التأييد بروح القدس.

وتكرُّرُ الظرفِ "إذْ" دَليلٌ عَلى منزلَة ظرف الزمانِ في مَساقِ هذه الآياتِ، ومركزيَّته في إامةِ ترتيبٍ وعطفٍ بين الوَقائعِ التي يَنبغي تذكُّرُها، فهي أدلَّةٌ وَبَراهينُ زمنيَّةٌ على قضيَّةِ صدقِ الرسالَة، سيقَت عَلى هيئَة مُحاورات ولَفتِ انتباهٍ وتَذكيرٍ بما حَصَلَ من النعمِ التي سيترتَّبُ عليْها نتائجُ عظيمةٌ. فتَكرارُ أداةِ الدلالَة الزمنيَّةِ ربطٌ بينَ الآياتِ والعباراتِ برابطٍ يُرادُ له أن يَكونَ متصلاً بالتَّذكُّرِ وتَثبيتِ الوَقائعِ في الذّهنِ،وإشعارِ المُخاطَب بأنَ الأحداثَ الكبْرى تترتَّبُ عليْها نَتائجُ كُبْرَى.

الربطُ بإذْ. قَلَّ مَن عَدَّه أداةَ ربطٍ من النحويّين واللغويّين، فلم يَكادوا يَزيدونَ على البَحث عَن تعليقِ كلِّ ظرفٍ بما يدلُّ على الحدثِ مَعْنىً وأن يَكونَ مشتقاً لَفظاً وصَرفاً، أو جامداً مؤولاً بمشتقٍ أو حرفاً فيه رائحَة الفعلِ ومَعْناه. فإذا ألقيْنا الحَبْلَ الزَّمانيَّ رابطاً بين العباراتِ أُشْرِبَت اللآياتُ مَعْنى جديداً أو فَضاءً دلاليا جديداً أو حَقلاً خاصاً يُقرأ في ضَوْءِ الشُروط الزمانيةِ.

كافُ التشبيه رابطاً :

«فاسْتقمْ كَما أُمرْتَ ومَن تابَ مَعَكَ. إنّه بِما تَعْمَلونَ بَصيرٌ» [هود: 112]

كاف التّشبيه اسمٌ بمَعْنى مثل، والمَعنى مثْلَما أمرتَ أو على النحو الذي أمرتَ به، وهي في محل نصب حال من مَصدر مُنتَزَع من الفعل استقمْ، وتأويلُه: فاستقِمْ استقامةً مثلَ التي

أمرتَ بها. فقَد أُمرَ باستقامةٍ مُطابقةٍ لما أمرَ به من غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، وفي هذه الكاف تشبيهُ المُجمَل بالمُفصَّل، لأنه فصَّلَ أن تَكون الاستقامةُ طِبْقَ المأمورِ به .

وللكاف وجه آخَر يؤولُ غلى النتيجَة نفسها: وهو أن تَكونَ حرفَ جر في معنى (على) أي على النحو الذي أمِرْتَ به.

وفي كلتا الحالَتَيْن تظلُّ الكافُ رابطاً يَربطُ الشطرَ الأول من الكلام [استقم] وبالشطر الثاني [ما أمرْتَ به].

أداةُ الاستثناءِ رابطاً:

« ومَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » [يونس: 61]

1- فيه التَّلَبُّسُ بالشؤون الخاصَة. وفيه نَسَقٌ مناسبٌ: بدأ بالأخص ثم انتقلَ إلى الخاص فالعامّ؛ فشُؤون النبي عليه الصلاةُ والسلامُ أخصُّ؛ فقَد انتقلَ من استحضارِ الحال المهمّةِ من شأن النبي صلى الله عليه وسلم، ثمّ مِن قراءته القرآنَ، ثمّ ختَمَ بأعمال عموم الناس؛ فشؤونُه أهمَ لأنها تَعود على الأمة بالخير العَمَم.

2- وفيه من الناحيةِ الزَّمانيّة أنّه إذا دَخلَ النفيُ على المُضارع أخلصَه للحال: "وما تكون" "وما تتلو" "ولا تَعملونَ" أي: وما تكون الآنَ وما تتلو الآن ولا تعملون الآن.

3- وفيه تَحقُّقُ الربط بأداةِ الاستثناءِ: فإنّ وُجودَ حرف الاستثناء أغنى عن تَقدير رابطٍ لجملة الحال هو "قد"؛ فقَد أغنت "إلا" عَن "قَدْ": « إلاّ كنّا عليكُم شُهوداً إذ تُفيضون فيه».

مفهوم الزمن اللغوي في النحو و الصرف

الحَقيقةُ أنّ موضوعَ الزّمَن في اللغات الطّبيعيّة عامّةً وفي اللغة العربيّة على الخُصوص، ظاهرةٌ معقّدةٌ يدخلُ في تشكيلها عَناصرُ متنوّعةٌ. منها العلاماتُ النّحويّةُ الصّرفيّةُ ومنها العلاماتُ المنطقيّةُ الطّبيعيّةُ

*الزّمنُ في اللغاتِ الطّبيعيّةِ مفهومٌ نحويٌّ أولاً وقبل كلّ شيءٍ،

*وله لفظٌ ذو مظهرٍ صرفيٍّ ؛ إذ يدلّ الفعلُ على زمنه بصيغتِه الصّرفيّةِ

*ولا يُفهَمُ المَعْنى الزّمنيّ الدّقيقُ إلاّ بتوضُّعِ اللفظِ الدّالّ على الزّمن، في سياقِ التّركيبِ

* تتكوّنُ دلالةُ الزّمن في سياقِ الكَلامِ من تداخُل الصيغ فتجد الصيغةَ الدّالّةَ على المُضيّ تدلّ على الاستمرارِ . ومعنى هذا أنّ مرجعَ فهم الزّمن ليسَ صيغة الفعل الصّرفيّة وحدها ، ولكنّها الصيغة مُركّبةً في سياق الجملةِ،

لم يخصّص النحاةُ القُدماءُ بابا لموضوع الزّمَن النّحويّ، ولكنّ ملاحظاتِهم عنه جاءت متفرّقةً في أبوابٍ كثيرة، لأنّه لم يكن باباً رئيساً من أبوابِ النّحو؛ فإنّك تجد مباحثَ الزّمن موزَّعةً على الأفعال والمشتقّات والنّواسخ وظروفِ الزّمانِ ... خُذْ تَعريفَ الفعلِ مثلاً : فهو لا ينفكّ عن محتواه الزّمنيّ؛ فقد عرّفَه سيبويهِ بقولِه: « وأمّا الفعلُ فأمثلةٌ أخِذتْ من لفظِ أحداثِ الأسماء [أي أخِذت من المصادر] وبُنِيت لِما مَضى ولِما يكونُ ولم يَقَعْ وما هو كائنٌ لم ينقطعْ... ». وعرّفَه ابنُ يعيش في شرحِ المفصّل بأنّه: « ما دلّ على اقتِرانِ حدَثٍ بزمان ».

أمّا عن ترجمة الزّمان من لغة أجنبيّة إلى اللّغة العربيّة فلا يَكادُ يختلفُ إشكالُ ترجمة المفاهيم والأفكارِ عن إشكالِ التّرجمَة عامّةً: فالعبرَةُ في النقلِ والتّرجمَة إنّما تَكونُ بالمَعْنى المفهوم من عُموم التّركيب وليس بالصيغ الصّرفيّة وحدَها؛ فلا يُعزى لصورة اللفظِ وصيغتِه فضيلةٌ بمعزل عن سياق الكَلام وفَحْواه ومقاصد المتكلم منه. وفي ذلكَ مُخالَفَةٌ صريحةٌ لما كانَ عليه منهجُ النحويّينَ العربِ عندَما دافَعوا عن الفروق الزمنيّة بناء على اختلاف الصيغ الصرفية: وكأنّ الأبنيةَ أسس وقواعدُ لاختلاف الأزمنة.

وعليْه فالعبرةُ في التّرجمَة بترجمَة المَعْنى قبل اللّفظ: ويُعتَمَدُ استخراجُ معنى الزّمن في التّركيبِ الأجنبيّ على الجهةِ التي يُشيرُ إليْها هذا الزّمنُ : أهي جهةٌ من جهاتِ المُضيّ: ماضٍ بعيد أو قريبٌ أو وسطٌ ، أم جهةٌ من جهاتِ الحُضور. ومن الجهات أيضاً الماضي المستمرُ والماضي

المنقطعُ ، هذاعن المضيّ ، ثمّ يأتي الحُضورُ وله جهاتٌ، ثمّ الاستقبالُ وله جهاتٌ، ثمّ الزّمنُ الافتراضيّ الذي يدخلُ في حيّز الممكنِ ولكنّه لم يقعْ ... ولكلّ مَعْنىً صيغةٌ أو تركيبٌ يُعبّرُ عنه.

رأيٌ في الزمن النحوي

1- لم يخصّص النحاةُ القُدماءُ بابا لموضوع الزّمَن النّحويّ، ولكنّ ملاحظاتِهم عنه جاءت متفرّقةً في أبوابٍ كثيرة. لأنّه لم يكن باباً رئيساً من أبوابِ النّحو؛ فإنّك تجد مباحثَ الزّمن موزّعةً على الأفعال والمشتقّات والنّواسخ وظروفِ الزّمانِ...

خُذْ تَعريفَ الفعلِ مثلاً : فهو لا ينفكّ عن محتواه الزّمنيّ؛ فقد عرّفه سيبويهِ بقوله: « وأمّا الفعلُ فأمثلةٌ أخِذتْ من لفظِ أحداثِ الأسماء [أي أخِذت من المصادر] وبُنِيت لِما مَضى ولِما يكونُ ولم يَقَعْ وما هو كائنٌ لم ينقطعْ... » وعرّفه ابنُ يعيش في شرحِ المفصّل بأنّه: « ما دلّ على اقترانِ حدَثٍ بزمان »

2- الجُملةُ الشرطيّة هي الجُملةُ المركّبَة تركيباً شرطيّاً. أي المُكَوّنَة من أداةٍ شرطيّةٍ عاملةٍ أو غيرِ عاملةٍ، ومِن جملتَي الشّرطِ والجواب .

3- عندما نتكلّم عن الدّلالات الزّمنيّة للجُمَلِ الشّرطيّة فإنّ الاهتمامَ يتوجّه إلى أدواتِ الشَّرْطِ أوّلاً :

*أ- فلننظُرْ إلى أصل أدوات الشّرط وهي "إنْ": تدخُلُ "إنْ" على المُضارعِ لأنّ جَوابَ الشرطِ مُعلَّقٌ وُقوعُه بفعلِ الشّرطِ: فزَمانُ فعلِ الشّرطِ مُستقْبَل، وهي لعقدِ السّببيّةِ والمسبَّبِيَةِ في المستقبَل، نحو قوله تعالى: (إنْ يَنْتَهوا يُغْفَرْ لهم) الأنفال:39، (وإنْ تعودوا نَعُدْ) الأنفال:19، (إلاّ تَغْفِرْ لي وتَرْحَمْني أكُنْ من الخاسِرين) هود:47. زمانُ الفِعْلِ هو المُستقْبَلُ ولو جاء على صيغةِ الماضي، نحو قوله تعالى: (وإنْ عُدْتُمْ عُدْنا) الإسراء:8، أي: وإن عدتم إلى المعصية مرة ثالثة في المستقبل عدنا إلى العقوبة وقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة

*ب- أمّا حرف لو فإنّها تُفيدُ، إلى جانبِ عقدِ السّببيّةِ والمسبّبِيَّةِ بين الجملتيْن بعدها، تقييد الجملةِ الشَّرْطِيَّةِ بالزَّمَن الماضي، وهي بهذا الوجه تخْتلِفُ عن حرف الشّرطِ الجازمِ "إنْ" التي تفيد الشّرط في المستقبل. ولذلك فالشَرطُ بإن سابقٌ على الشّرط بلو: وذلك لأنّ الزّمن المستقبَل سابقٌ على الزّمنِ الماضي؛ ألا ترى أنّنا نقولُ: إنْ جئتَني غداً أكرمْتُك، فإذا انقضى الغدُ ولم يجئْ قلنا: لو جئتَني أمسِ أكرمْتُكَ

*ج- أمّا "لولا" فهي تدخلُ على جملتيْنِ اسميّةٍ ففعليّةٍ لربط امتناعِ الثّانيةِ بوجود الأولى (لولا زيدٌ لأكرمتُك) امتنع الإكرامُ لوجودِ زيدٍ

*د- أمّا "إذا" فالغالب فيها أن تكون ظرفاً للمستقبل مضمَّنة معنى الشرط، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية. نحو قوله تعالى (ثمّ إذا دعاكم دعوةً من الأرضِ إذا أنتم تَخرُجونَ) وقوله تعالى) :فإذا أصابَ به من يشاءُ من عبادهِ إذا هم يستبشرونَ) ويكون الفعل بعدها ماضياً كثيراً، ومضارعاً دون ذلك، وقد اجتمعا في قول أبي ذؤيب:

والنّفسُ راغبة إذا رغّبتها \\//\ وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

ما مَعْنى الحرف الفارِق، أو الأداة الفارقَة ؟

الأداةُ الفارقةُ: التي يُؤتَى بها للفَرقِ بينَ مَعْنيين تَحتَملُهُما أداةٌ أخرى في العبارَة نفْسِها، وذلك لرفعِ اللَّبْس:

-كاللاّم الفارقة، كما في قوله تعالى: «وإنْ كلُّ ذلكَ لَمَا مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا، وقولكَ: إنْ زَيدٌ لَقائمٌ، وتلزم هذه اللاَمُ الفارقةُ الجملةَ المُصدَّرَةَ بإن المُخفَّفة.

- والهاء الفارقة وهي هاء التأنيث، وهي الفارقة بين المُذكّر والمؤنّث

- والألف الفارقة بين الفعل الذي أُسند إلى واو الجماعة -كتبوا-، والفعل المعتل الواوي: يدنو

- والواو الفارقة كما في أولئك، زيدت لئلا تلتبس بإليك...

- والواوُ الفارقَةُ، في عَمْرو، وهي التي زيدَت ليُفرَقَ بها بينَ عَمْرو وبينَ عُمَرَ؛ إذ لَولاها لالتبسَ الأوّلُ بالثّاني

- وقَد تُعدُّ الباءُ فارقةً، على مذهَب الكوفيين، في نحو قوله تعالى: أسمِعْ بِهم وأبصِرْ.

كِفايةُ السّالِك في بَيانِ مَوقعِ "مِنْ أجْلِ ذلِكَ"

في سياق الرّدّ على مَن علَّقَ "من أجل ذلِكَ" بما قَبْلَها. وقَطَعَها عَمّا بعدَها

قالَ الله تعالى: «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» [المائدَة:31-32]

1- القولُ في قولِه تعالى: "من أجلِ ذلِكَ" :

الأَجْلُ الجَرّاءُ والتَّسبُّبُ أصله مصدر أجَلَ يأجُل ويأجِل كنصر وضرب بمعنى جَنَى واكتسب، "من أجلِ ذلِكَ" أي من جَرَّاء ذلكَ، وربَّما حَذفَت العربُ"مِنْ" فقالتْ: «فعلتُ ذلكَ أَجْلَ كذا». ويُعَدَّى بغيرِ مِنْ: قالَ عَديّ بنُ زيدٍ:

أَجْلَ إنَّ اللهَ قَد فَضَّلَكُم /// فَوقَ مَن أَحكَأَ صُلباً بِإِزارِ

والأَصل التعديةُ بمِنْ. نحو: فَعلتُه مِن أَجْلِكَ.

2- القولُ في صلَة شبه الجُملة "من أجلِ ذلكَ" بما قبلَها و ما بعدَها :

الظّاهرُ أنَّ «مِنْ أجْلِ ذلكَ» تعليلٌ للفعل الواقِع بعدَها «كَتَبْنا». ولا تعلُّقَ لَها بما قبلَها «من النّادمينَ». وإنّما يترجَّحُ أن يكونَ «من أجلِ ذلكَ» مَبْدأً للجُملة التالية «كتبْنا» لا مُنتَهىً لما قبلَها. والدَّليلُ على أنّ شبه الجملَةِ مَبْدأ ما بعدَها لا مُنتَهى ما قبْلَها أنَّ ما قبلَها وهو «النّادمين» مُستغْنٍ بما تُفيدُ الفاءُ في قوله «فأصبَحَ»: «فأصْبَحَ من النّادِمينَ».

و " مِن" للابتداء المَجازيّ: إذْ شُبّه سَببُ الشيء بابتداء صُدوره ، وهو مَثارُ قولِهم : إنّ من معاني (مِنْ) التَّعليلَ ، فإنّ كثرَةَ دخولها على كلمة «أجْل» أحدثَ فيها معنى التّعليل، وكثرةُ حذفِ كلمة "أجْل" بعدها أحْدَثَ فيها معنى التّعليل؛ كما في قول الأعشى :

فآليْت لا أرثي لها من كلالة /// ولا من حَفى حتّى ألاقي محمّداً

واستُفيد التّعليلُ من مفادِ الجملة . وكان التّعليل بالجارّ والمَجْرورِ "مِن أجْل" أقوى منه بمجرّد اللاّم ، ولذلكَ اختير هنا ليُدَلَّ على أنّ هذه الواقعةَ كانتْ هي السَّبَب في تهويل أمر القتل وإظهارِ مَثالِبه. واسمُ الإشارَة "ذلِكَ" فيه خُصوصٌ يُقصَدُ به استيعابُ جميع المذْكور .

ومعنى "كَتَبنا" شَرعْنا؛ كقَوله تعالى: «كُتِبَ عَليكُم الصِّيامُ» [البقرة: 183]. ومَفعول "كتبنا" مضمونُ جملة: «أنّه مَن قَتلَ نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعاً». و"أنَّ" تفيدُ المصدَريّةَ، وضمير «أنّه» ضمير الشأن، أي كَتبنا عَليهم شأناً مهمّاً هو مماثلةُ قاتِلِ النّفسِ الواحدةِ بقاتِلِ النّاسِ أجمعين. ومَعْنى "كتبْنا عليهم هذا الشأنَ" يُفيدُه موقعُ "أنّ" وهو وُقوعُها في كلامٍ معمولٍ لعامل قبله يقتضيه. فالحرفُ أنّ والجملةُ بعدَه مؤوّلة بمصدر هو مَعْمولُ "كَتَبْنا".

وخبر "أنّ" في هذه الآية: جملةُ "مَن قَتل نفساً بغير نفسٍ أو فَسادٍ في الأرضِ فكأنَّما قَتلَ النّاسَ جَميعاً". وهي أيضاً مفسّرةٌ لضمير الشأن.

فتبيَّنَ أنّ قتلَ النّفس بغير حقّ جُرم عَظيمٌ، كعِظَمِ قَتلِ النّاسِ جَميعاً.

3- تَرجيحُ الوُقوفِ على "النادمين" والابتداء بـ"من أجلِ ذلِكَ" :

قالَ الشيخُ أبو الفضل عبدُ الله بنُ الصّدّيق الغُماريّ، في معرِضِ الرّدّ على وَقفِ الهبطي: «الوَقْفُ عَلى "النّادِمينَ" كَما في حفصٍ وقالونَ؛ وهو وَقفٌ لازمٌ لانتهاءِ الآيَة. ثمّ يُستَأنَفُ الكَلامُ بقولِه: «مِنْ أجلِ ذلِكَ كَتَبْنا»، و"منْ أجْل" جارٌّ ومَجرورٌ، مُتعلّقٌ بـ"كَتَبْنا"، وهو علّةٌ له. والمَعنى: "من أجلِ" قَتلِ أحَد ابْنَي آدمَ لأخيه ظلماً، كتبْنا على بَني إسرائيلَ تغليظَ الإثمِ في القَتل العَمدِ. وهذا المَعْنى واضحٌ موافقٌ للسّياقِ. ولكنَّ الهبطَ وقَفَ على ذلكَ، ففصَل بين الفعلِ ومُتعلَّقِه، وقطَعَ العلّةَ عن مَعْلولِها، وصارَت جملةُ "كَتبْنا عَلى بَني إسرائيلَ" مُنقطعةً عمّا قبلَه، لا رابطَ بينهُما، وهذا إفْسادٌ لمَعْنى الآيَة...»[1].

4- الحكمةُ من مشروعية القِصاص:

قالَ الشيخ الطّاهر بن عاشور رحمه الله: « والمقصودُ التّوطئةُ لمشروعيّة القِصاص المصرَّح به في الآية الآتية: «وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفسَ بالنّفس» [المائدة : 45] الآية .

والمقصودُ من الإخبار بما كُتب على بني إسرائيلَ بيانٌ للمسلمين أنّ حُكمَ القِصاص شَرعٌ سالفٌ ومرادٌ لله قديمٌ؛ لأنّ لمعرفةِ تاريخ الشّرائع تَبصرةً للمُتفقّهين وتَطميناً لنُفوس المخاطبينَ وإزالةً لما عسى أن يَعتَرِضَ من الشُّبه في أحْكامٍ خَفيتْ مَصالحُها، كَمَشروعية القِصاصِ، فإنّه قَد يبدو للأنظار القاصرة أنّه مُداواةٌ بمثل الدّاء المتداوَى منه، حتّى دَعا ذلكَ

[1] مِنْحَةُ الرَّؤوف المُعطي في ضعفِ وُقوفِ الشَّيْخ الهبطي» ص:14، دار الطِّباعَة الحَديثة، الدّار البيضاء.

الاشتباهُ بعضَ الأمم إلى إبطالِ حُكْمِ القِصاصِ بعلَةِ أنّهُم لا يُعاقِبونَ المذنبَ بذَنْب آخرَ، وهي غَفلةٌ دَقَّ مَسلكُها عَن انحصارِ الارْتداعِ عن القَتلِ في تَحقُّق المُجازاة بالقتل؛ لأنَّ النفوسَ جُبلت على حُبّ البَقاء وعلى حُبّ إرضاء القُوّة الغَضبيّة، فإذا عُلِمَ عندَ الغَضَبِ أنّه إذا قَتَلَ فَجزاؤه القَتلُ ارْتَدعَ، وإذا طَمِعَ في أن يكونَ الجزاءُ دونَ القتلِ أقْدَمَ على إرضاءِ قُوّته الغَضَبيّة ، ثُمّ عَلّلَ نَفسَه بأنّ ما دون القِصاصِ يُمكنُ الصَبْرُ عليه والتّفادي منه» [التّحرير والتّنوير: تفسير آيات سورَة المائدَة].

5- الغرضُ من التشبيه في قوله :

"فَكأنّما قَتلَ النّاسَ جميعاً" حثٌّ على تَعقُّب قاتِلِ النّفسِ أيْنَما يكُنْ، من وَليّ الأمرِ حتّى العامّيّ، والغرضُ من التّشبيه تَشنيعُ صورَةِ القتلِ وتَهْويلُها في النُّفوسِ، لا أنّ قاتلَ نفْسٍ واحدةٍ قد قتلَ الناسَ جَميعاً على وجه الحَقيقَة. أمّا الغرَضُ من التّشبيه في قوله: "ومَن أحْياها" فهو إرادَةُ استنقاذِ النّفوسِ من المَوْتِ والذَّبّ عَنها، فمَن فعلَ فكأنّما أحيى النّاسَ من غيرِ الطّريقِ المَعْهودِ، لأنّ الإحياءَ على وجه الحَقيقةِ ليسَ في المَقْدورِ.

جور الصنعة الإعرابية على البيان القرآني

تمتلئُ كُتُبُ التّفسيرِ بِما لا يَكادُ يُحْصى من التَّخْريجاتِ النَّحْويّة و الأعاريبِ المُقَدَّرَة ، التي أثْقَلَ بِها كَثيرٌ من المُفَسِّرين كاهِلَ الآياتِ القُرْآنيّةِ ، ممّا هي في غِنىً عنه ، حيثُ أثاروا مُشْكلاتٍ نحويّةً قدَّروها تقديرًا ، و فَرَضوا على النّصوصِ البليغةِ قَواعدَ و مُقَرَّراتٍ مُتَكَلَّفَةً

من ذلك قولُهم في قولِه تَعالى : «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» إنّ اللاّمَ في (وَ لَسَوْفَ) إن كانت للقسَم لا تَدْخُلُ على المُضارعِ إلاّ مع نونِ التّوكيدِ ، و إن كانت للابْتِداءِ فإنّها لا تدخُلُ إلاّ على جملةِ المبتدَإ و الخبر ، فإذا كانت الآيةُ لا تستجيبُ للقاعدةِ النّحويّةِ فإنّه يتعيَّنُ تقديرُ ما به تَسْتَقيمُ الصَّنْعَة : فقد ذَهَبَ جارُ الله الزّمخشريّ في "الكَشّاف"[1]، إلى أنه «لا بُدَّ من تَقديرِ مبتدإ محذوفٍ، وأن يكونَ أَصلُ العبارة : و لأنت سوفَ يعطيك ربُّك فَتَرْضى» [سورة الضحى:5] ، وإلى مثلِ ذلك ذَهَبَ أبو حيّانَ النّحويُّ المُفَسّر في كِتابه "البَحْر المُحيط."

فالعِبارةُ القُرآنيّةُ على قدرٍ كبيرٍ من البَيانِ و البلاغةِ ، و لا تَحْتاجُ إلى تَقْديرِ لفظٍ مَحذوفٍ أو تأويلٍ أو زِيادةٍ أو نُقصان ، و هي حُجّةٌ في ذاتِها و أصلٌ تُعْرَضُ عليه كلُّ قاعدةٍ لُغويّةٍ ، و لا تَحْتاجُ إلى تَقْديرِ أصلٍ مَوْهومٍ نَقيسُها عليه.

وممّا ذَكروه أيضًا في الآيةِ نفسِها ، قولُهم : كيفَ تجتمعُ لامُ التّوكيدِ مع سوْفَ التي تُفيدُ التّسويفَ والمُماطَلَة؟ و الجوابُ أنّ العَطاءَ حاصلٌ لا مَحالةَ، و لا يَتَخَلَّفُ و إن تأخَّرَ لِما في التّأخيرِ من مَصلَحة. والظّاهرُ أنّ حسَّ العربيّةَ ومألوفَها، يقضي بأنّ العبارةَ القرآنيّةَ ، تُفيدُ أنّ البيانَ يتّسقُ هنا و يتكاملُ بلفظِ "سوفَ" ، إيناسًا للرّسولِ صلّى الله عليه و سلَّم ، بأنّه كانَ و سَوْفَ يظلُّ موضعَ عنايةٍ من ربّه سُبْحانَه[2].

وممّا ذكَروه أيضًا أنّ "إذا الشّرطيّة" لا تدخُلُ على الجملةِ الاسميّةِ ، و هي واردةٌ في كثيرٍ من آياتِ القرآن ، نحو قولِه تعالى : «إذا السّماءُ انْشَقَّت» [الانشقاق: 5] ، فتأوّلوها بأنّ الاسْمَ المرفوعَ هو فاعلٌ لفعلٍ محذوفٍ يُفَسّرُه المَذكورُ ، و التّقديرُ : إذا انشقَّت السّماءُ انشقّت ، و

[1] الكَشّاف عن حَقائق التّنزيلِ و عُيون الأقاويل: 219/4] جار الله محمود بن عُمَر الزّمَخشريّ ، دار الفكر ط.1 / 1977-1397

[2] انظر في تفصيلِ هذا المعنى: التَّفسير البياني للقرآن الكريم: 1/40-41] د. عائشة عبد الرّحمن، دار المعارف ، القاهرة ، ط.5 / 1397-1977

الحقيقةُ أنّ تقديرَ أصلٍ مَوْهومٍ لهذه العِبارةِ ، لا يُصلِحُ العبارةَ و لا يُقيمُها ، و لكنّه يُخْرِجُها عن أصلِها و سَلامَتِها و جَمالِها ، و لا يميزُ بين "إذا الشّرطيّةِ" التي دَخَلَت على الفعلِ ، و "إذا الشّرطيّة" التي دَخَلَت على الاسمِ المرفوع ؛ فلكلِّ مَقامٍ مقالٌ ، و لكلِّ لفظٍ مَعنى.

والأمثلةُ على تأويلاتِ النُّحاةِ للعباراتِ القُرآنيّةِ أكثرُ من أن تُحْصى ، امتلأت بها كُتُبُهم و تَفاسيرُ كثيرٍ من المُفَسِّرينَ ذَوي المَنْزع النّحويّ.

الحاجة إلى "نحْوٍ عربيٍّ جديد:"

هكذا حجبَ عنّا النّحاةُ –من خلالِ قواعِدِهم القاصرة– كثيرًا من القيم اللّغويّة والبلاغيّة التي تمتلئ بها القراءاتُ القرآنيّةُ و نُصوصُ الحديثِ النّبويّ و كثيرٌ من الموادِ اللّغويّة المبثوثة في بطونِ كتبِ اللّغةِ و الأمثالِ و الأخبارِ، وبنوا على الوارِدِ من الشّواهدِ ، ففرضوا بقواعِدِهم الصّارمةِ غرْبَةً على لسانِ العربِ و على المتكلّمين الذين خَلَفوا من بعدِهم على مرّ التّاريخ.

ولقد أصبحْنا أمام هذا الوضعِ الذي أَلزَمت به قواعدُ النّحاة لسانَ العربِ، وإزاءَ هذه الغربةِ التي فرضتْها عليه ، في حاجةٍ إلى "نَحْوٍ جديدٍ" يفكُّ الطّوقَ عن اللّسانِ ويُحرّرُه من قيودِ القواعدِ الصّارمةِ ، و يُطْلِقُ العنانَ لمادّةٍ لغويّةٍ ضخمةٍ، ما زالت حبيسةَ المصادرِ.

وقد تنبّه كثيرٌ من العلماءِ منذ القديم إلى قصورِ هذه القواعد، منهم شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ، وفخر الدّين الرّازي المفسّر ، و أبو حيّان النّحويُّ الأندلسيّ صاحبُ تفسير "البحر المحيط" ، و أبو عمرو الدّاني المُقْرِئ ، و ابنُ حزمٍ الظّاهريّ صاحب "الفصلِ بين الأهواءِ و الملل و النّحل"، و الحريري صاحب "درة الغوّاص في أوهام الخواصّ"، و ابنُ المنير صاحب "الانتصاف من الكشّاف"، وجلال الدّين السّيوطي صاحب "الاقتراح في أصول النّحو"، وغيرُهم...

و نادى كثيرٌ من الباحثين المعاصرين بوضعِ نحوٍ جديدٍ للعربيّة يُدرج في الاستشهادِ النّصوصَ الكثيرةَ التي أهمَلَها النّحويّون [نادى كثيرٌ من الباحثين بوضعِ نحوٍ جديدٍ للعربيّة يُدرج في الاستشهادِ النُّصوصَ الكثيرةَ التي أُهْمِلت من قبل النّحويّين[1].

أجَل، نادَوْا بوضع نحو جديد للعربية يُدرجُ في الاستشهاد النصوصَ الكثيرةَ التي أهمَلَها النحويونَ، ويوسِعُ القواعدَ حتّى تُصبِحَ ذاتَ طاقةٍ استيعابيّةٍ عاليةٍ ، و قدرةٍ وصفيّةٍ و تفسيريّةٍ لِلِسانِ العربِ شاملةٍ ، و ليس هذا النّحوُ الجديدُ سوى إعادةِ بناءٍ لنحوِ النّحاةِ المألوفِ و إجراءِ تعديلٍ واسعٍ في قواعدِه التي تصطدمُ بالنُّصوصِ اللّغويّةِ الفصيحةِ كالقراءاتِ السبعيّةِ ، حتّى يستقيمَ و يسهلَ تحصيلُه و تعلُّمُه [انظر مواطن الاتّفاق بين قواعد النّحاة و بين القراءات القرآنية ونماذج من الحديث النّبوي، ومواطن الاختلاف و التّعارض، وضرورة تعديل القواعدِ وتوسيعِها حتّى تعبّرَ بصدقٍ عن اللّسان العربيّ، وفَكِّ عنها طوق الغربةِ الذي فُرِضَ عليها منذ قرون... واقْتِراحاتٍ منهجيّةً أوردَها الأستاذان أحمد مكّي الأنصاري وإبراهيم السّامرّائي في كتابَيْهما المذكورينِ آنفًا. ثمّ إنّه يمثِّلُ أعلى مراتبِ القواعدِ فصاحةً وبيانًا : لأنّه يتأسّسُ على لغةٍ نالت حظًّا وافرًا من التّهذيبِ والصّقل، والتّشذيبِ والتّصفية والتّطويرِ ، حتّى أضحت على رأسِ اللّهجاتِ العربيّةِ الفصيحة[2]. وأصحِّها نُصوصًا وأوثقِها سَنَدًا ومتنًا وأدقِّها تعبيرًا عن المقاصدِ القريبة والبعيدة[3].

---

[1] انظرْ كتابَ: نظريّة النّحو القرآنيّ أحمد مكّي الأنصاري، في اتّجاه وضعِ خطّةٍ عمليّةٍ لتطبيقِ "نحوٍ قرآنيّ" بعد تعديلِ القواعدِ التي تحتاجُ إلى تعديلٍ حتّى تُسايرَ النّصَّ القرآنيَّ المُحْكَم . و كتاب: من سعة العربية / هل من "نحوٍ جديد ؟" إبراهيم السّامرّائي . ص:205.

[2] ذكر عُلماءُ اللّغةِ قديمًا و رُواةُ الشّعرِ و العارِفون بلغات العربِ و أيّامِهم و محالِهم أن قُرَيْشًا أفصحُ العربِ ألسنةً و أصفاهم لغةً، و كانت وفودُ العربِ يفدون إلى مكّةَ للحجّ و يتحاكمون إلى قريشٍ في دارِهم. و كانت قريش مع فصاحتِها و حسنِ لغاتِها ورقّة ألسنتِها إذا أتتهم الوفودُ من العربِ تخيّروا من كلامِهم و أشعارِهم أحسنَ لغاتِهم ، فاجتمع ما تَخيّروا من تلك اللّغاتِ إلى سلائقِهم التي طُبِعوا عليها، فصاروا بذلك أفصحَ العرب . انظر: [الصّاحبي في فقه اللّغة] لابن فارس ، و [المزهر] للسيوطي.

[3] انظر ما ذكره أ.د. فخر الدّين قباوة عن "النّحو القرآني" في حديثه عن وظيفة القرآن الكريم في الدّرس النّحوي وتكوين المهارات اللّغوية، في كتابه : [المهاراتُ اللّغويّة و عُروبةُ اللّسان: 93-...

عَود إلى نسيج النص وشَبَكة تَوزيع الألفاظ. شبكة الضمائر في القرآن الكريم وقانون توزيعها:

وظائفُ الضّـميرِ في العربيّةِ كثيرةٌ منها الاختصـارُ، ومنها الإحالَةُ، ومنها الرّبطُ، ومنها الالتفات؛ ومَصدرُ الاختصـارِ في الضّمير أنّه وُضـعَ في الأصـلِ لهذه الغايَةِ، وله مَرجعٌ يعودُ إليه ويكونُ ملفوظاً به سـابقاً مُطابِقاً، نحو قولِه تَعالى: «ونادى نوحٌ ابنَه»[1]، «وعَصى آدَمُ رَبّه فَغَوى»[2]، أومتضـمناً له نحو: «اعْدِلوا هُوَ أقربُ للتّقْوى»[3]، فإنه عائدٌ عَلى العَدلِ المتضَـمَن لَـه "اعدلوا"، أو دالاً عليه بالالتزامِ، نحو «إنّا أنزلناه في لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ»[4]، أي القُرآن، لأنّ الإنزالَ يدلُّ عليه التزاماً.

بل الضّميرُ في القُرآن الكَريم يَعودُ على ما اقْتَضاه المَعْنى وليسَ على أقربِ مَذكورٍ ممّا نَصّ عليْه النّحويّونَ في قَواعدِهم: إذْ لو قُلْنا إنّ الضّميرَ في "أصبْناهُم" من قولِه تعالى: «أوَلَمْ يَهدِ للذينَ يَرثونَ الأرضَ مِن بعدِ أهلِها أن لوْ نَشاءُ أصبْناهُم بِذُنوبِهِم»[5] يعودُ على "أهلِها" لفسَد المَعْنى إذْ سيدلّ على أنّ الخَلَفَ يُعاقَبونَ بذُنوبِ السّلَف وهذا أمرٌ يتَعارَضُ وآيةً أخرى في سورةٍ أخرى: «ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى»[6]، وعليْه سيكونُ الضّميرُ عائداً على "الذينَ يَرِثونَ الأرضَ".

أ - شبَكَة تَوزيع الضّمائر:

* قَد يَكونُ رُجوعُ الضَّمير إلى أكثرَ من مَرجعٍ مُحتَمَلاً يؤيّدُه المَعْنى: من ذلك مثلاً قول الله تعالى: "ما أصابَ منْ مُصيبَةٍ في الأرْضِ ولا في أنفُسِكُمْ إلاّ في كِتابٍ مِنْ قَبلِ أنْ نَبْرَأها" (الحديد: 22)، هل يَعودُ الضميرُ في (نبرأها) على المصيبة أو الأرض أو أنفسكم؛ وإنّما حصلَ التّطابُقُ بينَها في إمكان رُجوعها إلى أحدِ هذه المَراجعِ الثّلاثَةِ: من قبل أن نبرأ الأرض. من قبل أن نبرأ المصيبة. من قبل أن نبرأ النفس. و (ما) نافية و (مِن) زائدة في النفي للدلالة على نفي الجنس قصداً للعموم، ومفعول "أصابَ" محذوف تقديره: ما أصابَكُم أو ما أصاب أحداً. وقوله: "في الأرض" إشارة إلى المصائب العامة كالقَحط والفَيضانِ ومَوتانِ الأنعامِ وتَلَفِ

---

[1] هود: جزء من الآية: 42.

[2] طه: جزء من الآية: 121.

[3] المائدة: جزء من الآية: 8.

[4] الدُّخَان: الآية: 3.

[5] **الأعراف: جزء من الآية: 100.**

[6] **الأنعام: جزء من الآية: 164.**

الأمْوالِ. وقوله: "ولا في أنفُسِكُم" إشارةٌ إلى المَصائب اللاّحقة لذَوات الناس من الأمراض وقَطْعِ الأعْضاءِ والأسْرِ في الحَربِ ومَوتِ الأحْبابِ ومَوتِ المَرءِ نفسِه. وتَكريرُ حَرف النَّفيِ في المَعطوفِ عَلى المَنفيّ في قَوله: "ولا في أنفُسِكُم" لقَصدِ الاهتمامِ بذلكَ المَذكورِ بخُصوصِه؛ فإنّ المَصائبَ الخاصّةَ بالنّفسِ أشدُّ وَقعاً على المُصابِ، فإنّ المَصائبَ العامةَ إذا اخْطأَتْه فإنّما يتأثرُ لها تأثُّراً بالتَّعقُّلِ لا بالحِسّ فلا تَدوم ملاحظة النفس إياه. والاستثناءُ في قوله: "إلا في كتابٍ" استثناءٌ من أحوالٍ مَنفيةٍ بـ (ما)؛ إذ التّقديرُ: ما أصابَ من مُصيبةٍ في الأرض كائنةٍ في حالٍ إلاّ في حالِ كونِها مَكتوبةً في كتاب، أي مُثبتةً فيه. والكتابُ: مَجازٌ عَن علم الله تعالى، ووَجْه المُشابَهَة عَدمُ قَبولِه التَّبديلَ والتّغييرَ والتَّخلفَ. القصرُ المُفادُ بـ (إلاّ) قصرٌ مَوصوفٌ على صفةٍ وهو قَصرٌ إضافي، أي إلاّ في حال كونها في كتاب دون عدم سبق تقديرها في علم الله. والبَرءُ: الخَلْق، وضميرُ النصبِ في "نبرأها" عائد إلى الأرض أو إلى الأنفس أو إلى المُصيبَة.

والخُلاصةُ أنّ المَراجعَ الثلاثةَ مُحْتَمَلَةٌ، لا يَدفَعُها المَعْنى العامّ في الآيَة: لأنّ كلّ شيءٍ كائنٌ في كتاب أي في علمِ الله بمقدار في لوحٍ محفوظٍ قبل أن يَبْرأَ الخلقَ. فالنّفيُ نفيٌ للمعنى مُطلَقاً؛ وكلُّ شيءٍ يحلُّ بالنّفسِ والأرضِ بل يحلُّ في هيئةِ مُصيبةٍ من المَصائبِ مَكتوبٌ في علمِ الله مُقدَّرٌ قبلَ أن يبرأ الله الأرضَ أو الخلقَ أو المُصيبة ذاتَها.

* وقد يتعذّرُ تَوزيعُ الضّمائرِ المُختلفةِ الواردَة في عبارةٍ واحدةٍ على أكثرَ من مَرجعٍ وإن احتُمِلَت المَراجعُ، حَذَرَ التّشْتيتِ وتَنافُرِ النَّظمِ: وذلكَ كقولِ مَن قالَ إنّ الضَّمائرَ في قَوله تعالى: «ولَقَدْ مَنَنّا عَلَيْكَ مَرّةً أُخْرى. إذْ أوْحَيْنا إلى أُمّكَ ما يُوحى. أنِ اقْذِفيهِ في التّابوتِ فَاقْذِفيهِ في اليَمّ فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بالسّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وعَدُوٌّ لَهُ. وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي ولِتُصْنَعَ على عَيْني»[1]، كُلّها راجعةٌ إلى موسى، وأنّ في القَولِ برُجوعِ بَعْضِها إليه وبَعضِها إلى التّابوتِ فيه هجنةٌ، لِما يؤدّي إليه من تَنافر النَّظم وبَلاغة التّنسيقِ؛ فإنْ قالَ قائلٌ إنّ المَقذوفَ في البَحر هو التّابوتُ، وكَذلكَ المُلقَى إلى السّاحل. قيلَ له: «ما ضَرّكَ لو قُلتَ: المَقذوفُ والمُلْقَى هو موسى في جَوْفِ التّابوت؟ حتّى لا تُفرّقَ الضّمائرُ فيَتَنافرَ عَليكَ النَّظمُ الذي هو أمُّ إعْجاز القُرآنِ والقانونُ الذي وَقعَ عليه التّحدّي، ومُراعاتُه أهَمُّ ما يَجبُ على المُفسّر»[2].

---

[1] طه، الآيات: 37-38-39.

[2] تَفسير الكَشّاف عَن حَقائق التّنزيل وعُيون الأقاويل في وُجوه التّأويل، لأبي القاسم جار الله الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط.3، 1430-2009. ص:655.

إذا تأمّلْنا شَبكاتِ الضّمائرِ في الآيَة الواحدةِ، بوصفها أصغرَ مجالٍ لحَرَكَةِ العلاقات الضّميريّة، فسنجدُ أنّ وظيفةَ الضّمير لا تقتصرُ على الإحالَة أو الوَظيفَة الإحاليّة ولكنّها تتجاوزُ ذلِكَ إلى مَقاصدَ كثيرةٍ منها الإيجاز والاختصار وعَدَم تَكرار الاسم الظّاهر، ومنها التَّعْميم لأغراضٍ مقاميّة ومنها الإحالَة المقاميّة الخارجيّة، ومنها الالتفاتُ. أمّا الإحالَةُ فليسَت قصراً على الضّمائرِ بل يشركها فيها أدواتٌ وعناصرُ لغويّةٌ أخرى[1] مثل أسماء الإشارَة وأسماء الموصول وأدوات التعريف وغيرها من المُبهَمات. أمّا الضّمائرُ فإنّها تتوزّع في النّصّ في إطارِ نظامٍ مُحكَم أو نسيجٍ متماسكٍ يَرتبطُ بموجبِه الدّالّ بالمَدلول، والمَقالُ بالمَقام. وهذه الحَركيّةُ النّظميّةُ التي تتحكّمُ في توزيعِ الضّمائرِ أصلٌ **من أصولِ بَيانِ القُرآن الكَريم.**

ب- أنموذج أول في توزيع الضّمائر:

تَوزيع الضّمائرِ في قَوله تعالى : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا النّساء/115: مَن لا يُلقي بالاً لعلاقاتِ الكَلمِ بَعضِها ببعضٍ في الآيَة يَحسب أنّ الهاءَ في [تبيَّنَ له] يعودُ على الرّسول أو على الأقلّ يحتملُ مَرجعَيْن هما اسم الشّرط الجازم مَنْ ولفظ الرسول، مَعاً . وهذا أمرٌ منفيٌّ قطعاً لأنّ توزيعَ الضّمائر ليس مَحْكوماً بقواعد التعليقِ والتّركيبِ والنّظمِ فقط، ولكنها مضبوطَةٌ بضابطٍ أكبَرَ وهو السياقُ الخارجيّ الذي يُعين على فهم دلالة النّصّ، ويدخلُ في السياقِ الخارجيّ أسبابُ النزولِ وزَمانُ النُّزول ومَكانُه، وواقعُ الحال والمَقام... ويَدخلُ في السّياقِ الخارجيّ أيضاً الحديثُ النبويُّ الشَّريفُ، وعَناصرُ من المُجتمَع والتّاريخ وسُنَن العرب في كلامِها. وقَواعدُ تَلقّي القُرآن الكَريم المُستخرَجَةُ من ثقافةِ القُرآن وآدابِ قراءَته وفَهمِه وتأويلِه...

وعليه، نجدُ الضّميرَ في [لَه] يعود على اسم الشرط الجازم [مَن] والضّمير المستتر في [يتّبعْ] يعودُ أيضاً على [مَنْ] وليس على لفظ الرّسول لأنّ الرّسولَ صلى الله عليه وسلّمَ مُبلِّغُ الهُدى وحاملُه والعاملُ به والقُدوةُ فيه والإسوةُ الحَسَنَةُ فيه. فكيفَ يُشاقُّ الرّسولُ نفسَه والهاءُ في [نُصلِه] تَعودُ على [مَنْ] وتَربطُ جوابَ الشّرطِ بأداتِه .

---

[1] يُستفاد في تَعريف الإحالَة بتَفاصيلها النّظريّة والتّطبيقيّة، من كتاب: الإحالَة وأثَرها في تَماسُك النّصّ في القَصَص القُرآنيّ، د.أنس بن محمود فجّال. إصدار نادي الأحساء الأدبي، 1434-2013.

وعلى هذا المنوالِ يُقاسُ تَوزيعُ الضَميرِ في النصوص البليغَةِ الفصيحَة، أولُها القُرآنُ الكريمُ ثمَ الحديثُ النّبويَ الصّحيحُ، ثُمَ الشعرُ العربيَ الفصيحُ الرّصينُ قديمه وحَديثُه.

ج- أنموذج ثان في توزيع الضمائر:

يا أيُّها الذينَ آمَنوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الذينَ مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ والذينَ لَمْ يَبْلُغوا الحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ وحينَ تَضَعونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظّهيرَةِ ومِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ولا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوّافونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيّنُ اللّهُ لَكُمُ الآياتِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ سورة النور، الآية:58.

في الآية ضمائرُ كثيرةٌ، موزّعةٌ على الكلماتِ ورابطةٌ بينها، في نظامٍ لغويّ تركيبيّ مُحكمٍ، يتحكّمُ فيه نظامٌ سياقيٌّ مقاميٌّ مُحدَّدٌ، يضبطُ قانونَ توزيعِ تلك الضّمائرِ:

-من الضّمائر ضمائرُ المُخاطَبَة: الكاف في "ليستأذنكم" – "أيمانكم" – "منكم" – "تضعون" – "ثيابكم" –"لكم" – "عليكم" – "بعضكم"

-وضمائر الغياب: جمع الغائبين: "آمنوا"، "يبلغوا"، "عليهم"، "طوّافون"، "بعدهن" [يرجع إلى العوْرات أو المَرّات، والأرجَح عَوْدُه على العَوْرات لقُربِ ذكْرِه، وقد نُزّلَ غير العاقل منزلَةَ العاقل لمُلابسَةٍ بينَهُما]

- وأسماءٌ مبهمةٌ تتنزّلُ منزلةَ الضّمائر، كأسماء الموصول: "الذينَ" (التي تعود على المؤمنين) و"الذين" (التي تعود على مَملوكي اليَمين) و"الذين" (التي تعودُ على القاصرين) وحروفٌ تتنزّلُ منزلةَ الضّمائرِ مَعْنىً لا نحواً : "ها" التي للتنبيه، التي جاءَت متصلةً بالمُنادى.

ويَتجلّى قانونُ توزيع الضّمائرِ والمُبهماتِ في الآيَة :

*في شبكةٍ تتداخلُ فيها ضمائرُ الخطابِ والغَيْبة، وضمائرُ أو مُبهماتٌ اتّحدَت لفظاً واختلَفَت معنى ومرجعاً.

*في مُلابسَة الضّميرِ لقيمِ الزّمانِ أو المَكانِ أو المَوضوع: "حين تَضعونَ ثيابكُم من الظّهيرَة" خلافاً لـ: "صلاة الفجر" و"صلاة العشاء"، فالظّرفُ الأوّل فيه مُلابسَةُ المُخاطَبينَ، فقد عبّرَ بزمنِ وَضْعِهِمْ ملابسَهُم، تمييزاً لفترة محدَّدة وتبييتاً وتَقْييداً، حتّى لا تلتبسَ بفتراتٍ

أخرى من الظَّهيرَةِ نفسِها، ففي الظَّهيرَةِ مُتَّسعٌ يتقيّدُ بمِنْ البيانيّةِ، ويجوزُ وجه آخَر، وهو أنّ الجارّ والمَجْرورَ [من الظّهيرة] يُقيّدانِ زمَن وضعِ الثّيابِ حتّى لا يُرادَ به مُطلقُ زَمنِ الوَضعِ.

*في ملابسَة المُخاطَبين للغائبينَ [ليستأذنكم الذينَ - لم يبلُغوا الحُلُمَ منكُم – طوّافون عليكم]

*في ملابسَة المُخاطَبينَ للأحوالِ المختلفةِ[1] : ثلاث عوراتٍ لكم، وهي حالةٌ مركزيّةٌ جامعةٌ تختصرُ الأوقاتَ الثّلاثةَ و ما يُلابسُها من صفاتٍ وأحوالٍ.

*فهذه بعضُ خَصائصِ قانون توزيع الضّمائرِ في الآيَة، وينبغي التّنبيه على حقيقةٍ ثابتةٍ: وهي أنّ قانونَ توزيعِ الضّمائرِ لغةً وتركيباً تابعٌ لقوانين توزيعِ الأحوالِ الاجتماعيّةِ والآدابِ والأعرافِ والمَقاماتِ؛ فشبكةُ توزيعِ الألفاظِ في التركيبِ، تابعةٌ للشبكةِ الاجتماعيّةِ الواسعةِ ومُقيَّدةٌ بها، ولكنّ مع التنبيه أيضاً على أنّ اللغةَ العربيّةَ تشتملُ على ما يَكْفي من الأدواتِ ومن المُرونَةِ والاتّساعِ حتّى تَسَعَ آياتِ الله عزّ وجلّ وتُبلّغَها للناسِ في أبلغِ صورةٍ.

فظهَرَ بعدَ ذلِكَ أنّ أوضاعَ التَّركيبِ البلاغيّةَ واللغويّةَ لها أثرٌ بالغٌ في توجيه بَيان الآياتِ، ولا حاجةَ إلى التّذكيرِ بشَرطِ مَقاصدِ الشّارعِ المُستَفادَةِ من الكتابِ والسّنّةِ وأقوالِ الصَّحابَةِ وأسبابِ النّزولِ، وهو شرطٌ كبيرٌ، في دائرته يتحرّكُ بَيانُ الآياتِ المُشارُ إليه، والجهلُ بذلكَ يوقعُ في الإشكالاتِ ويُخرجُ النّصوصَ من حدِّ البَيانِ والتّفصيلِ إلى حدّ الإجمالِ.

* اسْتحضارُ الشَّبكَةِ الضَّميريّة لفَهم العلاقاتِ الإحاليّة :

« وراوَدَتْهُ التي هو في بَيْتِها عن نَفسِه وغلَّقَت الأبوابَ وقالَتْ هيتَ لكَ » [يوسف: 23]

الضّمائر التي في هذه الآيَة هي: الهاء في "راودته" وها في "بيتها" والكاف في "لك"، والضمائرُ المستترةُ في "غَلَّقَتط و"قالَت"... تُحيل على مذكور سابِقٍ "امرأة العَزيز" ونُسبَت إلى العَزيز ولم تُسمَّ باسمها. والضَّميرُ المنفصلُ "هو" يُحيل على يوسفَ، ولم يُذْكَرْ بالاسم.

والمراوَدَة مُفاعلةٌ تدلُّ على المُعاوَدَة ولا تدلُّ على المُشارَكَة؛ لأن المراوِدَ امرأةُ العزيز وحدَها، وفي المراوَدَة تكثير للفعل أو تكريره كلما أخفقَت. والإخفاقُ بسبب أن المراوَدَةَ تُقابَلُ

[1] قالَ الحافِظُ أبو عُمَرَ يوسُفَ بن عبد البَرّ النَّمريّ القُرطبيّ في شِيَمِ العُلَماء، وعدَّ العلمَ بالعصرِ شرطاً: «أن يَكونَ عارِفاً بزَمانِه مُقبِلاً على شأنه» : **الكافي في فقه أهلِ المَدينَةِ المالِكيّ**، دار الكُتُب العلميّة، بيروت، 1413-1992، ص:610

بالمُمانَعَة. وفاعل المراوَدَة اسمُ الموصول، أسند الفعلُ إلى اسم الموصول للَفت الانتباه إلى سلطة المُراوِد وتمكُّنه وإلى عفّة يوسف وعصمته؛ فهي التي تَملكُ البيتَ وتملكُ القرارَ.

و"عن" حرفُ جرَ يدلُّ على المُجاوَزَة والانصراف، والمعنى أنها تَصرفُه عن نفسه وتُبعدُه عنها لتُخلصَه لَها. وفي المُجاوَزَة كنايَةٌ عَن الغَرَض من المراودَة. والكافُ في "لَكَ" لبَيان المقصود من الخطاب وإخْلاص اسم فعل الأمر للمُخاطَب دون غيره، واللامُ للاختصاص.

* في الشَّبَكة الضَّميريّة مَرّةً أخرى :

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» [يوسف/88].

تعدَّدت أنماطُ الضَّمائر: الغَيْبَةُ (دَخلوا - قالوا - يَجْزي)، ثُمّ الذّاتُ المتكلِّمَة (مَسَّنا – أهلنا- جئنا - لنا - علينا)، ثُمّ المُخاطَب (يا أيها العزيز - أوْفِ - تصدقْ).

فأنتَ تَرى أنّ الشَّخصَ الواحدَ قد يتلبَّسُ طَوْراً بضمير الغَيْبَة وطَوراً بضمير التكلُّم وطوراً بضمير المُخاطَب: فالذي دَخَلَ، وكانَ من قبلُ غائبا عن المَشهَد، هو الذي تَكلَّمَ عن نفسه فصارَ مُتكلِّماً، ثُمّ خاطَبَ غيرَه فصارَ مَن أمامَه مُخاطباً، وانتظَمَ المشهَدُ مَع تَوزيع الضَّمائرِ وفقَ شبكةٍ مَعلومةٍ. ولَقَد اختلَفَت جهاتُ الضَّمائرِ لاختلاف المواقف والمواقع، ففي كل تَخطيط لموقفٍ جَديد يُبْنَى مَشهَدٌ جديدٌ بعد تَفكيكِ عَناصرِ القَديم وإعادة تَركيبها. فلا تُفهَمُ شبكةُ الإحالات الضميرية إلا بالعلم بالمواقف والخطط التي تُعيد تَوزيعَ العناصر. ولكل مشهد عناصرُه اللّغويّةُ المُركّبَةُ.

د- أنموذجٌ ثالثٌ : قراءَة في شبكة الربط والإحالَة:

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [المائدة/89].

محورُ الآيَة: اليَمينُ ولَغوُ اليَمين واليَمينُ المَشروعَةُ وطُرُقُ الكفّارَة. والملحوظُ فيها من حيثُ الإحالَة:

- الإحالَةُ بالتكرار: الاسمُ المكررُ يُحيلُ إلى ما قبلَه مما هو من لفظه ومَعناه. والملحوظُ تكرُّرُ الأيْمانِ أربعَ مرات، والتكريرُ للتقرير، وقُسمَت الأيْمان إلى أيْمانٍ لاغية وأيْمانٍ مَعقود عليْها عَمَلٌ.

- الإحالَةُ بالضمائر [ضمائر المخاطَب والغائب]: فضميرُ الكاف في "يُؤاخذُكم" و"أيمانكم" و"أهليكم" و"لَكم"، والتاء في "عقَّدتُم" و"حلفتم"، والواو في "تُطعمون" و"احفظوا" و"تشكرون"، والضمير المستتر في "يَجِدُ" على تقدير فمن لم يجد منكم...: لعامة المُخاطَبين من المسلمين. الهاء في "كفارتُه" يعود على "ما عقّدتم به الأيْمانَ" أي ما قصدتُم به الحَلف، أي المحلوف عليْه.

- الإحالَةُ ببعض حروف الجر مثل "مِنْ" البيانية في قوله "من أوسط" وفي التبيين إشارةٌ إلى المبيَّن "مَساكين" وإحالةٌ إليْه بتَقْييد المراد إذْ لَو لم يُبيِّنْ لفُهِمَ أنّ مُطلقَ المساكين يَجوزُ إطعامُهم سواء أكانوا من أوسط ما يأكل الناسُ أم من أقلَ أو أكثَرَ.

-الإحالَةُ بالإشارَة: ذلك كفّارةُ أيمانكم"، وفيه إشارة إلى المَذكور سابقاً وهو التَّحَلُّلُ من الأيْمان بالتكفير، والإشارَةُ زيادة في الإيضاح.

- الإحالَةُ إلى عِظَم المسألَة، بالمُبالَغَة في اللفظ: صيغة التَّشديد في "عقَّدتُم" للمُبالَغَة في عَقْد الأيمان ممّا كَسَبَت القلوبُ، والتشديد في فاء الكفّارة؛ وقد جاءت في اللفظ دلالتان اثنتان على المبالغة هما التضعيف والتاء الزائدة

- تَقْييد الإشارَة بالشرط، وفيه إحالَة إلى أنّ الحُكمَ مقيَّد بالشرط : "إذا حلفتم" وأردتم التحلّل من القَسَم؛ إذْ ليست الكفّارةُ على مُطلَق صُدور الحَلِف بل على عَدَم الوَفاءِ به وعَدَم البُرورِ بالقَسَم، أمّا إذا نُقِضَ الحَلِفُ لَزِمَت الكَفّارةُ؛ لأنّ النّقضَ إثمٌ يستوجبُ الكفارةَ .

هـ- أنموذجٌ رابعٌ : الإحالَةُ بالضمير في ظرف المكان :

«سُبْحانَ الذي أسْرى بِعَبْدِه لَيْلاً مِنَ المَسجدِ الحَرامِ إلى المَسجِدِ الأقْصَى الذي بارَكْنا حَوْلَه» [الإسراء]

بورِكَ حَوْلَه، "حَوْلَه" ظرفُ مَكان يدلُّ على مَكان قَريب من المسجد الأقصى. وفي التعبير "بالبركة حولَه" كنايةٌ عن حصول البركة فيه أولاً، لأنها إذا حصلت حَوله فقَد تَجاوزَت ما

فيه؛ ففيه تلازمٌ بينه وبين ما حَولَه، وفيه فحوَى خطاب، وفيه مبالغة بالتكثير، ومثلُه حرفُ الجر "في" في قولِ زياد الأعجم:

إنّ السماحةَ والمروءة والندى *** في قبةٍ ضُربت على ابن الحشرج

"ظرف المَكان "حَوْلَه" يُعبرُ عن أسباب بركة المسجد الأقصى الكثيرة كما أشارَ إليه ظرفُ: واضعه إبراهيم عليه السلام / ما لَحقه من البركة بمن صلى به من الأنبياء من داوود وسليمان ومن بعدهما / بركة من دُفن حوله من الأنبياء / أعظم تلك البركات حلول النبي صلى الله عليه وسلم فيه وصلاته فيه بالأنبياء كلهم.

قيمةُ ظرف الزَّمان "حوْلَه" تَظهَرُ في تَعليل الإسراءِ: لقَد بورك حَولَ المَسْرى وليس فيه فَقَط؛ لإظهارِ الآياتِ للنبي صلى الله عليه وسلَّمَ وإطلاعِه عليْها، فيخبرهم بما سألوه عن وصف المسجد الأقصى. ولام التعليل لا تفيد حصر الغرض من متعلقها في مدخولها .

وإنما اقتُصر في التعليل على إراءة الآيات لأن تلك العلة أعلق بتكريم المُسرَى به والعناية بشأنه؛ لأن إظْهارَ الآيات تزيد يقينَ الناظر.

لاحظْ أنّ ظرفَ المَكانِ "حَولَه" يُحيلُ إلى هذه المَعاني كلها، أما الظروفُ التي قبَله في الآيَة نفسِها [ليلاً - مِن - إلى] فتُفيدُ تَقييد ما تَعَلَّقَت به مباشَرَةً ومن ثَمَ تُحيلُ إلى زمان مُتعلَّقاتها أو مَكانه: [أسرى ليلاً - أسرى من المسجد الحرام - أسرى إلى المَسجد الأقصى].

وقَريبٌ منه قولُه تَعالى: « وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» [يوسف/21]

فقَد أحال بالضَّميرِ إلى "المَثْوى" ولم يَقتصرْ على المُرادِ إكْرامُه؛ وحقيقةُ المَثْوى المَحلُّ الذي يَثْوي إليه الإنسانُ، وهو كِنايةٌ عن حالِ الإقامة وهيئَة المَكان وما يتَّصلُ بالمُقامِ كلِّه.

فالحالُ كلُّها مَحْفوفةٌ بكَمال نَوع الكَرَم، من أجلِ المُكْرَم. اجعلي إقامته عندك كريمة ، أي كاملة في نوعها.

الفصلُ السّابعُ :

نَماذجُ تطبيقيةٌ في تحليل النص ومُعالَجَته:

- أنموذج أول: في التنبيه عَلى عَدَم كفايَة نحو الجملَة
- أنموذج ثانٍ: بلاغة التظاهُروالإظهار
- أنموذج ثالث: القاعدة التداولية وتناسُب النص
- أنموذج رابع: في النص والإحالَة
- النصُّ والتّأويلُ النَحويُّ للشّعر

هيمَنَة تأويل النّحاة للشّعر، وتوجيه مَعْناه

دوران المعنى الشعري وانتقاله

استنباطُ دلالَةُ الغَرور، من الصيغَة والسياق

- أنموذجٌ آخَر: التماسُك البَليغ
- أنموذج آخَر: انسجام التأويل في تمثُّل الشّعر العربيَ
- أنموذج آخَر: بَلاغةُ التَّقْديم والتأخير. والعُدول عن الأصل
- دلالَة التّشبيه وجهاته الفرعيّة في "كأنّ"
- أنموذجٌ في الانتقال من النحو إلى البلاغَة
- فعلُ تبيَّنَ في القرآن الكَريم وأحوالُه التَّركيبيَةُ والدّلاليَةُ

نماذجُ تطبيقية في معالَجَة النص

أنموذج أولُ : في التنبيه عَلى عدم كفايَة نحو الجملَة :

-التنبيه على عدم كفايَة نحو الجملَة في تحليل الكلام والنصوص، وأن المباحثَ اللسانيةَ الحديثة انتقَلَت اليومَ من لسانيات الجملَة إلى لسانيات النص، التي تركز على أنَّ النص وحدة لغوية مؤلَّفَة من أكثر من جملَة، شريطَةَ أن يَكونَ بين الجمل والكلمات والعبارات وجميع وحَدات النص: تماسُكٌ لغوي نحوي تركيبيّ، وانسجامٌ دلالي فكري منطقي، ووظيفة تواصليّة. فإن غابَ التماسُك والانسجام والوظيفَة التواصلية أو المقاصد تفكّك النصُّ.

-أهمُّ معيارٍ من مَعايير النَّصّ تلك الشروطُ التي وَضَعَها دي بوغراند[1]، التي لا يقوم النص إلاّ بوجودها، وتؤدي إلى حصول التماسك النحوي والانسجام المنطقي. وهذه المعايير: الترابط النحوي، والانسجام المنطقي، وخضوع النص لمقاصد المتكلم، وخضوعه لقَبول المتلقّي، وارتباطه بمقام الكلام أو السياق، والإفادَة، والتّناصّ.

-إذا انتقلْنا من التعريف بشروط قيام النص منذ عهد أوائل اللسانيين النصيين ومروراً بدي بوغراند ثم وصولاً إلى هاليداي، وفان دايك... إذا انتقلنا من النظريات النصية إلى دراسة نص عربيٍّ ما، وتطبيق بعض الأدوات التحليلية عليْه؛ فسنجدُ أنّ المطلوبَ استخراج كل الروابط النحوية والبلاغية التي تشد الكلمات لتصير جملَة وتربط بين الجمل لتصيرَ نصاً.

-مثلاً لنأخذ قصيدةً من قصائد كتاب "الأمالي" لأبي علي القالي، هي قطعَة من شعر معن بن أوس أعجِبَ بها الخليفةُ الأمويّ عبدُ الملك بنُ مروانَ [2] :

---

[1] **النص والخطاب والإجراء، روبيرت دي بوجراند**، ترجمة د.تمام حسان، عالَم الكتب، القاهرة، ط.2، 2007م.

[2] **كتاب الأمالي**، لأبي علي القالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج:2، ص:101-102-103.

وذي رَحِمٍ قَلَّمتُ أظفارَ ضِغْنِه	بحلمي عنه وهو ليس له حِلم
يُحاولُ رَغمي لا يحاولُ غيره	وكالموت عندي أن يَحُلَّ به الرَّغْم
فإن أعْفُ عنه أُغضِ عَيْناً على قَذى	وليس له بالصفح عن ذنبه عِلم
وإن أنتصر منه أكُنْ مثل رائشٍ	سهامَ عَدُوٍ يُستهاض بها العظم
صبرتُ على ماكان بيني وبينه	وما تستوي حربُ الأقارب والسلمُ
وبادرتُ منه النأيَ والمرءُ قادر	على سهمه مادام في كفهِ السهمُ
ويَشْتمُ عرضِي في المُغَيَّب جاهدا	وليس له عندي هوانٌ ولا شَتْمُ
إذا سمتُه وَصْلَ القرابة سامني	قطيعتها تلك السفاهةُ والإثمُ
وإن أدْعُهُ للنِّصف يأبَ ويَعصني	ويدعُو لحُكْم جائر غَيْرهُ الحكم
فلولا اتقاءُ الله والرحم التي	رِعايتُها حقٌ وتَعطيلُها ظُلْمُ
إذاً لعلاهُ بارقي وخَطَمْتُهُ	بوسم شَنَارٍ لا يشاكِهُه وَسمُ
ويسعى إذا أبني ليهدم صالحي	وليس الذي يبني كمن شأنه الهدمُ
يودُ لو أني مُعْدِمٌ ذو خَصَاصةٍ	وأكره جُهدي أن يُخالطه العُدْمُ
ويَعتَدُّ غُنْماً في الحوادث نَكبتي	وما إن له فيها سَنَاءٌ ولا غُنْمُ
فما زلت في ليني له وتعطفي	عليه كما تحنو على الولد الأمُ
وخفضٍ له مني الجناح تألفاً	لتدنيه مني القرابةُ والرَّحْمُ
وقولي إذا أخشى عليه مصيبة	ألا اسلم فداك الخالُ ذو العَقْد والعَمُّ
وصبري على أشياءَ منه تُريبُني	وكظمي على غيظي وقد ينفع الكَظمُ
لأستل منه الضِّغن حتى استللتُه	وقد كان ذا ضِغْنٍ يضيقُ به الجِرْمُ
رأيتُ انْثلاماً بيننا فرقعته	برفقي وإحيائي وقد يُرقَعَ الثَلمُ
وأبرأتُ غِلَّ الصَّدْر منه تَوَسُّعاً	بحلمي كما يُشفى بالأدْوِيَة الكَلْمُ
فداويته حتى ارْفأَنَّ نِفاره	فَعُدنا كأنا لم يكن بيننا صَرْم
وأطفأ نار الحرب بيني وبينه	فأصبح بعد الحرب وهو لنا سَلْمُ

هذا النص الشعريُّ جديرٌ بأن يُحلَّلَ بأدواتٍ تَكشفُ مَواضعَ التماسُك والانسجام، وأهمّ الأدواتِ النّحوُ أولاً، ثمّ الصرفُ ثمّ البلاغَةُ والدّلالاتُ المعجميّةُ، فلا يَسَعُنا ونحن نفكك النصَّ ونكشفُ أجزاءَه ومؤلّفاتِه اللغويّةَ لنخلصَ إلى مؤلفاته البلاغيّة والدّلاليّةِ والمَقاميّةِ، إلاّ أن ننظر في الروابط اللغوية النحويّةِ التي في القصيدة، أولاً:

الروابط النحوية: الروابط النحوية كثيرة الأنواع والأصناف، منها المبهماتُ وهي الضمائر وأسماء الإشارَة وأسماء الموصول وأسماءُ الشرط والاستفهام والأدواتُ، ومنها حُروف المَعاني... ومنها القرائنُ المعنويّةُ غيرُ اللفظيّة الدّالّةُ على مَعْنىً وَظيفيّ مُقدّرٍ مفهومٍ من السّياق.

ومن الأمثلَة على ذلك في القصيدَة: روابط الجملة الواحدَة:

نحو: واو رُبّ التي تفيد في البيت الأول التكثيرَ، ثم ضمير المتكلم في (قلمتُ) فهو يعود على المتكلم الشاعر معن بن أوس، وليسَ اسماً سَبَق ذكْرُه فيُحال عليْه، ولكنّ نسبةَ الشعر إليه تدل عليْه، فاللبسُ مأمون. ويأتي بعدَه الضمير في (ضغنه) الذي يَعودُ على ذي الرّحم، ليُفيدَ صفةً من صفاتِ المُتحدَّثِ عنه، وهي سوءُ أخلاقه وكثرةُ ضغائنُه. والباءُ في قوله (بحلمي) جارّةٌ تدلّ على الاستعانَة. و دلّ بالحلم على أداة التَّقليم أظفار الضغن، وهي أداة مجازية؛ فجاء بصورة شعريةٍ مركّبَة حيثُ استعارَ للضّغن أظفاراً تنشب في النفوس وتؤذيها، ثمّ شبّه استلالَ الضّغنِ من نفسِ قريبه بمَن يُقلّمُ أظفاراً خشيةَ الخدش والإيذاء. أما الجار والمَجرور: عنه فحرف الجر يدلّ على المُجاوزَة المكانية المَجازيّة أي مُجاوزاً قَريبَه . وضمير الغائب المنفصل (هو) رأس الجملَة الحاليَة، ويُحيلُ على ذي الرحم، وقَد وقَعَ ههنا مبتدأ بُؤرةً في الكلام، أما قولُه: (وهو ليسَ له حلم) اللام ههنا للاستحقاق، والحصيلَة نفيُ استحقاق الحِلم في الحال.

هذا أنموذج للروابط داخلَ الجملَة، ووظيفةُ تلك الروابط تهيئة الجملَة لتكونَ متماسكةً مأتلفةَ الأجزاء، حتى توصَلَ بالتي بعدَها وتُحيلَ على التي قبلَها.

أمّا ترابُط الجمل فلَه صور كثيرة:

منها أن تأتي جملةٌ ما مركبةً من جملَتَيْن: كما في البيت الأول من القصيدَة: (وذي رحم قلمتُ)... فهي جملةٌ اسميّةٌ كبرى مركبةٌ من المبتدأ والخبر الذي هو جملَة (قلمتُ)، والرابطُ بين الجملَة الصدر والجملَة الصغرى الضمير الهاءُ في (ضغنه) الذي يَعود على المبتدأ، ثم تأتي جملَة اسمية كبرى مركبَة من الضمير المنفصل المبتدأ، والخَبَر جملَة اسمية صغرى (ليس له حلم)، والرابط الضمير المتصلُ الهاء في (له).

من روابط الجملِ ألفاظٌ تُفيدُ بؤرَةَ القصيدَة وهما الشاعر وذو رَحِمِه؛ فكلّ ما أشارَ إليْهما أو رَجَعَ إليْهما أو كنّى عنهُما فهو من الروابط العامّة التي تضمنُ للقصيدَة تماسُكها

وبنيويتَها، وأبرزُ سلكٍ ينتظمُ تلك عِقْدَ المَعاني سلكُ الثنائيّاتِ أو الموازَناتِ المتضادّة أو المُتقابلَة: [حلمي عنه/ليسَ له حلمُ]، [يُحاولُ رَغمي/كالموت عندي أن يحلّ به الرَّغمُ]، [يشتمُ عرضي/ليسَ له عندي هوانٌ ولا شَتم]، [سُمْتُه وَصلَ القَرابة/سامَني قَطيعَتَها]، [إن أدْعُه للنّصفِ/يأبَ، ويَدْعو لحُكم جائرٍ] [يَسْعى إذا أبْني/ليَهدمَ صالحي]، [يودُّ لو أنّي مُعدمٌ ذو خصاصةٍ/أكره جهدي أن يُخالطَه العُدم]. وقَد عبَّر عن هذه الموازَنات بألفاظ وأدواتٍ تدلّ عليها، كالإثبات والنفي، وألفاظ تدلّ على الإحسان وأخرى تدلّ على الإساءَة، ومنها ما يدلّ على الوَصلِ في مقابل القَطيعَة، كَما في مُقابَلَة جملة أدعو بجملة يأبى، ومُقابَلَة جملة يودُّ عُدمي بجملة أكْرَه عُدمَه.

انسجامُ المَعاني والأحداث ووحدتُها

يؤلِّفُ الشّاعرُ وذو رحِمِه بؤرةَ القَصيدَةِ وذروةَ سَنامِها ومركَزَها، وتتوزَّعُ من خلالِ هذه البؤرةُ خُيوط شباك القصيدَة، فالقيمُ اللفظيّةُ والمعنويّةُ كلُّها تخدمُ البؤرةَ وتوحِّدُ أجزاءَ القصيدةَ: فقَد توزّعَت على تلك الشبكَة طائفةٌ من الأفعال التي تدلّ على طائفَة من الأحداث، وقُيِّدَت تلك الأحداثُ بقُيود الأحوالِ والصّفاتِ والظّروف، وأمّا الزّمانُ فينتظمُه الماضي والحاضر، ففي الزّمَن الماضي كانَ الحَدَثُ الكبيرُ أو عُقْدَة الحكايةِ، وهي ظلمُ ذي الرّحِمِ للشاعر وإضمارُه له الضغينةَ والكراهيّةَ، واستمرَّ ذلِكَ حتّى الحاضر، ليجدَ الانفراجَ وينتهيَ بعدَ مُعالجاتٍ وصبرٍ واحتمالٍ، وينتقلَ حالُ ذي الرحم إلى ما سَعى إليه الشّاعر من استلالِ الضّغنِ وإطفاءِ نارِ الحَرب.

فهذا أنموذجٌ من نماذج النّظرِ إلى النصّ من خلالِ الرّوابط النّحويّةِ والمعنويّة؛ لأنّ تلك الروابطَ شرطٌ من شروطِ بناءِ النصّ، ولا يُسمّى النصُّ نصاً بمَعنى النّسيج إلاّ إذا تحقَّق له شرطُ الربط والتّضامّ لفظاً ومَعْنىً.

- **أنموذج ثانٍ : بلاغة التظاهُر والإظهار**

وَقَد يَتَزَيّا بِالهَوى غَيرُ أَهلِهِ /// وَيَستَصحِبُ الإِنسانُ مَن لا يُلائِمُه

وَقَد يَتَزَيّا بِالهَوى غَيرُ أَهلِهِ: إنه المرءُ يلبس ثيابَ أهل الهَوى يريدُ بذلك الناسَ، ويُظهر من الرّقّة والتّجمّل أكثر مما في قلبه. فهو متشبع بما لا يملك وهو كلابس ثوبي زور، يتكثر بما ليس عنده ويُري الناسَ أنه شبعان وليس كذلك.

وَيَستَصحِبُ الإنسانُ مَن لا يُلائِمُه: سوء اختيار الصديق والخطأ في انتقاء الرفيق، ورُكوب المَفاوزِ وقطْعُ المسافات بغير قَصْد ولا هِداية ولا تَوَخِّي صَوْب في سُلوك الطَّريق

بَليتُ بِلى الأَطلالِ إن لَم أَقِف بِها /// وُقوفَ شَحيحٍ ضاعَ في التُّربِ خاتَمُه

ما أجملَ صورةَ الشَّحيح الباحثِ عن نَفيسٍ ضاعَ في تُربٍ، الشاعرُ يبحثُ في الأطلال عن مفقودٍ هاجَرَ الدّيارَ منذ أمدٍ بَعيد حتّى بَلِيَت وبَلِيَ هو مَعها، وما زال يبحثُ بحثَ الشحيح عن نَفيسٍ : إنه ضنينٌ بما افتَقَد والمَفقودُ نفيسٌ ضاع حيثُ لا يُرجى العُثورُ عليْه، والباحثُ عَلاه البِلى والشيبُ

- **أنموذج ثالث: القاعدة التداولية وتناسُب النص**

تناسُب أجزاء النص تُمليها القاعدةُ التداوليةُ أمَا الصيغُ الصرفيةُ فهي تَبَعٌ، وإن تعارَضَت:

أسلوب **الانْتِقال من صيغةٍ فعليّةٍ إلى أخرى داخلَ الكلامِ** الواحد، وذلكَ **كالإخبارِ بالفعلِ المستقبلِ عن الماضي** لا لغرضٍ بلاغيّ يُرادُ به تحسينُ الكلامِ، ولكن لغرضِ الدّلالةِ على أنّ ذلك الفعلَ مُسْتَمِرُّ الوُجودِ لم يَمْضِ[1] ، ولأنّ فيه نَوْعَ خُصوصيّةٍ أو تَميزٍ تُهِمُّ المُخاطَبَ، **وكعطفِ المُستقبلِ على الماضي**، وذلكَ نحو:

أ- قولِه تعالى : ﴿اللهُ الذي أَرْسَلَ الرِيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[2] . فوقعَ مُسْتَقْبَلٌ بين ماضيَيْنِ و ذلكَ لحكايةِ الحالِ التي يقعُ فيها إثارةُ الرِيحِ السَّحابَ، وإحضارِ تلك الصّورةِ البديعةِ الدّالّةِ على القدرةِ الباهرةِ من إثارةِ السَحابِ، تبدو أوّلاً قِطَعًا ثمّ تتضامُّ متقلّبةً بين أطوارٍ حتّى تصيرَ رُكامًا[3] .

ب- وقولِه تعالى: ﴿ذَلِكَ ومَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ، فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ و اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ، ومَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخطفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِيحُ مِنْ مَكَانٍ

---

[1] **[المَثَلُ السَائرُ في أدبِ الكاتبِ والشّاعر**: 181/2] لضياء الدّين بن الأثير. تح. د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة. دار نهضة مصر للطّبع و النّشر ، القاهرة .

[2] فاطر : 9

[3] **[مغني اللّبيب**: 905-906] و [المثل السّائر: 181/2]

سَحِيقٍ﴾[1]، فَجاءَ قولُه "خَرَّ من السَّماءِ" بلفظِ الماضي، ثمّ عطفَ عليه المُسْقبَل لاسْتِحْضارِ صورةِ خطفِ الطّيرِ إيّاه وهُوِيَ الرّيحِ به[2].

ج- و ماجاءَ في حديثِ الزّبيرِ بنِ العوّامِ في غزوةِ بدرٍ؛ فإنّه قالَ : **لقيتُ** عُبَيْدَةَ بنَ سعيدِ ابْنِ العاصِ و هو على فرسٍ و عليه لأمةٌ[3] كاملةٌ لا يُرى منه إلاّ عيناه ، و هو يقولُ : « أنا أبو ذاتِ الكؤوسِ و في يدي عَنَزَةٌ[4] ، **فأطْعَنُ بها في عينِه، فوقَعَ** ، و **أَطأُ** بِرِجْلي على خدّه ، حتّى **خرجَت** العَنَزَةُ مُتَعَقِّفَةً »، فقولُه: فأطعنُ بها في عينِه و أطأُ برجلي ، **معدولٌ به عن لفظِ الماضي إلى المستقبلِ:** ليُمثِّلَ للسّامعِ الصّورةَ التي فعَلَ فيها ما فَعَلَ من الإقدامِ و الجراءةِ على قتلِ ذلك الفارسِ، و لو عطَفَ لقالَ : لقيتُ ... فَطَعَنْتُ[5].

د- و من عطفِ المستقبلِ على الماضي قولُه تعالى : ﴿إنَّ الذينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[6] ، عَطَفَ المستقبلَ على الماضي لأنّ كفرَهُم كانَ و وُجِدَ و سيظلُّ كما هو لا يستجدّونَ بعدَه كفرًا ثانيًا ، أمّا صدُّهم فهو متجدِّدٌ مستمرٌّ ، يُسْتَأْنَفُ كلَّ حينٍ[7].

هـ- و مثلُه قولُه تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَأَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً، إنَّ اللهَ لَطيفٌ خَبيرٌ﴾[8] ، عَدَلَ عن لفظِ الماضي إلى المستقبلِ لإفادةِ أثرِ المطرِ زَمانًا بعدَ زمانٍ ، فإنزالُ المطرِ مضى وجودُه ، و اخضِرارُ الأرْضِ باقٍ لم يمضِ[9].

و- و أمّا الإخْبارُ بالماضي عن المستقبلِ ففائدتُه التّأكيدُ على تحقيقِ الفعلِ وإيجادِه، وتبيينُ هيئتِه واسْتِحْضارُ صورتِه ليكونَ السّامعُ كأنّه يُشاهِدُها. ومن الشّواهدِ عليه قولُه

---

[1] الحجّ : 30-31

[2] [المَثَلُ السّائرُفي أدبِ الكاتبِ و الشّاعر: 184/2]

[3] أداةُ حربٍ

[4] رمح قصير

[5] [المثل السّائر: 182/2]

[6] الحجّ : 25

[7] [المثل السّائر: 184/2]

[8] الحجّ : 63

[9] [المثلُ السّائر: 184/2-185]

تعالى : ﴿وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ﴾[1]: فجاءَ بالماضي بعد المستقبَلِ للإشعارِ بتحقيقِ الفَزَعِ و أنّه كائنٌ لا مَحالَةَ[2].

ز- و قولُه تعالى أيضًا : ﴿وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبالَ وَ تَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[3] ؛ فَدَلَّ على أنّ حَشْرَهُم قَبلَ تَسْييرِ الجِبالِ و بُروزِ الأَرْضِ؛ ليُشاهِدوا تلكَ الأحوالَ كأنّه قالَ : و حَشَرْناهُم قَبلَ ذلكَ[4].

<u>أنموذجٌ رابع: في النّصّ والإحالَة : حَوْضُ النَّهَلِ. في الإحالَة بفَعَلَ</u>

الإحالَة[5] : ربطٌ بين عنصرَيْن مُحيلٍ ومُحالٍ إليه، أو بين عائدٍ ومَرْجعٍ مَعودٍ عليه، وتتحققُ الإحالَةُ بألفاظٍ كثيرةٍ، منها المُبْهَماتُ كأسماء الإشارَة والضّمائر وأسماء الموصول ولام التعريف وتَكْرار اللّفظ...

ونُضيفُ في هذه الكلمةِ صنفاً آخَرَ غيرَ مألوفٍ عندَ الباحثينَ، من أدَواتِ الإحالَة له قُوّةٌ في الإشارة إلى ما قبلَه والدّلالَة عليه من غيرِ تَكرارِ لفظِه، لم يُلتَفَتْ إلى قيمَتِه الإحاليّةِ من قبلُ، هو الجذرُ المُعجميُّ المؤلَّفُ من الفاء والعينِ واللاّمِ [فعل] وصيغُه المتصرِّفَةُ المُشتقَّةُ منه، التي تأتي في القرآن الكريم على ألفاظٍ مختلفةٍ يجمعُها ذلكَ الجذرُ المُعجميّ نحو: فَعلَ يَفعلُ افْعلْ فاعلٌ فاعلونَ... وفائدةُ هذه الصِّيَغِ الإحاليّةِ أنّها مجرَّدةٌ غيرُ محدَّدةٍ بحَدثٍ، وهي بمنزلَةِ الكونِ العامّ المُطلَقِ المُعلَّقِ في ذاتِها، غيرِ المَفْهومَةِ إلاّ بتأويلِ "الإحالَةِ إلى سابقٍ". فهي آثارٌ لفظيّةٌ عامّةٌ مُنعكسةٌ عن ألفاظٍ سابقةٍ في أول النّصّ سَبَقَ ذكرُها. فيُؤتى بهذِه الآثارِ اللفظيّةِ العامّةِ للإشارَةِ إلى ذلكَ الحدَثِ السّابق والتّنبيه عليه وتضمُّنِ مَعْناه على سبيلِ الاختصارِ والإيجازِ وجَمْعِ الكَلِم. وقد يَكونُ الغرضُ من الاقتصارِ على عُموم صيغة فَعَلَ وأخواتِها وما فيها من إبْهامٍ، والإحالَةِ بها على فعلٍ سَبَقَ، إخفاءَ الحَدَثِ السّابقِ المُحالِ إليه، والكنايَةَ عَنه؛ لأنّه لا يستحقُّ أن يُعادَ ذكرُه لطولِه، أو شَناعَتِه، أو مُساعَدَةِ السّامعِ وحملِه على التّذكُّرِ بأيسرِ الألفاظِ، من غيرِ أن يتوزّعَ انتباهُه ويتشتّتَ فكرُه، ومن غيرِ تَكرارِ

---

[1] النّمل : 87

[2] [المثل السّائر: 185/2]

[3] الكهف : 47

[4] [المثل السّائر: 186/2]

[5] يُرجَعُ إلى الدّراسةِ الدقيقةِ الشاملةِ المُستوعبة، في باب الإحالَة: الإحالَة وأثرها في تَماسُك النّصّ في القَصَص القُرآنيّ، د.أنس بن محمود فجّال، إصدر نادي الأحساء الأدبي، 1434-2013

ما سَبَقَ. وفي الإحالة باللفظِ العامّ فائدةٌ أخرى وهي مُساعدةُ الذّاكرةِ على الاهتداءِ بآثارِ الألفاظِ السّابقَة. فيكونُ للمتكلِّمِ والسّامعِ أثرٌ في حركةِ النّصّ ودلالته وتماسُكه، عند استخدامِ هذه الطّرُق الإحاليّةِ المُختصِرَة[1].

الجذرُ المُعجميُّ المجرَّدُ "فَعلَ" ومُشتقّاتُه الاسميّةُ والفعليّةُ الأخْرى تدلُّ بالصّيغَة العامَّة على عُموم الحَدثِ وشُموله؛ كلُّ ذلِكَ لا يتحقَّقُ بنوعٍ معيَّنٍ من الأفعالِ ولا يتَخصّصُ إلاّ بمُطابقَتِه لِما سَبَقَه وربطه به رَبطاً إحالياً.

نَماذجُ من النصوص القرآنيّة ورَد فيها لفظُ العُموم :

1* وظيفة الإحالَة باللفظ العامّ: الاختصاروتجنُّب التّكرار

وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (البقرة:23- 24).

فإن لم تفعلوا أي : إن لم تأتوا بسورةٍ من مثلِه ولم تُعارضوه، وتبينَ لكم أن أحداً لا يستطيع معارضته، ولن تَستطيعوا مُعارضَتَه والإتيانَ بمثله فاتقوا ...

2*وظيفة الإحالَة باللفظ العامّ: الاختصاروتجنُّب التّكرار، وشناعةُ الإعادة لما فيها من إنكار.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (البقرة: (279

فإن لم تفعلوا أي : إن لم تَذَروا ما بقيَ من الرّبا فأذنوا بحرب من الله ورسوله. أحالَ بالفعل العامّ "تَفْعَلوا" لإخفاء شناعَة الربا

3* الإحالَة بصيغةِ "تَفْعَلوا" على مَعْنى المُضارّة التي هي شناعةٌ وفعلٌ منكرٌ

[1] يَنبغي التنبيهُ على أنّ كُلَّ لفظٍ فيه عُمومٍ يَصلُحُ أن يَكونَ اداةً للإحالَةِ في اللغة العربيّة.

وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة: 282)

ولا يضارَّ: نهي عن المضارّة وهي تحتمل أن يكونَ الكاتبُ والشهيدُ مَصدراً للإضرار، أو أن يكونَ المكتوبُ له والمشهودُ له مصدراً للإضرار، لأنّ الفعلَ يحتملُ أن يَكونَ مبنياً للمَعلوم والمَفْعولِ معاً. لا يحصلُ ضررٌ منهم ولا عليهم. والمضارّة: إدخال الضُّرّ بأن يُوقِعَ المُتعاقدانِ الشّاهِدَيْنِ والكاتبَ في الحَرَج والخَسارة، أو ما يَجرُّ إلى العُقوبة، وأن يُوقِعَ الشّاهدانِ أحدَ المُتعاقدينِ في إضاعة حَقٍ أو تَعبٍ في الإجابة إلى الشّهادةِ

«وإنْ تَفْعَلوا» حُذفَ مَفعولُ تَفعلوا وهو مَعلوم، لأنّه الإضْرارُ المُستفادُ من لا يُضارَّ مثلُ «اعْدِلوا هو أقربُ»، إن تَفْعَالوا ما نُهيتُم عنه من الضِّرارِ وغيره «فإنه فسوقٌ بكُم» أي خُروجٌ عن الشرعِ، وفي صيغة فُعول تأكيد فيه وتشديد في النّذارة. والمُضارَّةُ أن يُمنعَ الكاتبُ أن يكتبَ، ويُمنع الشّاهدُ أن يَشهدَ. «وإن تفعلوا فإنّه فُسوقٌ بكُم»

4* الإتيانُ بصيغة "تَفْعَلوا" مَنفيةً، وفيها إحالةٌ إلى عَدَم تقديم الصَّدقة بين يدي النَّجوى، وهو كلام طويلٌ يستغرقُ جمعُه من الزَمن ما يتشتَّتُ فيه اهتمامُ المُخاطَبين، ففي الصيغة اختصارٌودلالةٌ على أمرٍ يُلامون عليه.

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المجادلة: 13)

الإشفاقُ تَوقُّع حُصولِ ما لا يُبْتَغى، ومَفعولُ «أأشْفقتُم» هو «أن تُقدِّموا» أي مِن أن تُقدِّموا، أي أأشفقتُم عاقبةَ ذلكَ وهو الفَقرُ. والاستفهامُ للَّومِ والتَّوبيخِ عَلى تَجهُّم تلكَ الصَّدقةِ مع ما فيها من نفعٍ للفقراء. ثم جاءَ التَّجاوزُ رحمةً بهم بقَوله تعالى: «فإذْ لمْ تَفعلوا وتابَ الله عليكم فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاة». وفيه استفهامٌ توبيخيّ. و(إذْ) ظرفيةٌ للتَّعليل، أي فَحينَ لم تُقدِّموا بينَ يَدَي نَجْواكُم صدقاتٍ – وتابَ الله عَلَيكُم- فأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزّكاةَ. والفاء «فإذ لم تفعلوا» لتَفريعِ ما بَعدها على الاسْتفهامِ التَّوبيخيّ. [يُنظر تفسير التَّحرير والتَّنوير]

5* الإحالةُ بصيغة "فَعَلتُم" إلى سابقِ مَعْنى، لاختصارِ مَعانٍ كثيرةٍ سبَقَ ذكْرُها في أماكنَ متفرّقَةٍ، ولِمَا في هذه المَعاني من مُنكرٍ وشَناعةٍ يُعرَضُ عن إعادةِ ذكْرِه ويُكْتَفى بالتلميحِ له والإحالَةِ إليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (الحجرات:6)

نداءٌ فيه تَحذيرٌ من الوقوع في موجِباتِ النّدامةِ، وما يَتبعُ ذلِكَ من موجباتِ التَّوبة من الإصابةِ، ففي الصيغَة "فَعَلتُم" كنايةٌ عن الإثم في إصابة الناسِ وإحالةٌ إليه. وتقديم المجرور على متعلَّقه في قوله : «على ما فعلتم نادمين» للعنايَة والاهتمام بذلك الفعل، وهو الإصابة بدون تثبت والتنبيه على خطر أمره.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (يوسف: 89)

الاستفهام للتَّوبيخ، وهَلْ تُفيدُ هنا ما تُفيدُه قَدْ من مَعْنى التحْقيق. فهو توبيخٌ على ما يَعلَمه إخوةُ يوسُفَ مُحقَّقاً من أفْعالِهم الذَّميمة مَعه، من إهانةٍ له ولأخيه، وسوءِ خُلُقٍ. وقد اكتُفِيَ بصيغة فَعَلْتُم للإحالَة إلى فعلٍ مُنكرٍ سَبقَ ذكْرُه في مَكانٍ بَعيدٍ من السّورةِ.

6* صيغة "تفعل" تُحيلُ إلى مذكورٍ سبقَ ذكْرُه، بغيرِ لفظه، للاختصار

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة: 67)

أُمِرَ بتَبْليغِ الرّسالَة، فإن لم يَفعَلْ: يعني إن كتمَ آيةً ممّا أنزلَ عليه فما بلَّغَ رسالَتَه ولم يَمتثلْ لجَميع الأمرِ.

7* الإحالَةُ إلى حادثٍ سابقٍ على سَبيل التشنيع والتهويل والتشهير

«وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ» (الشعراء: 19)

الفَعْلة: المَرّةُ الواحدةُ من الفِعْل، و"فَعَل" للإحالَة على حادثٍ حصلَ؛ هو قَتْلُ موسى القبطيَّ انتصاراً لرجلٍ من بَني إسرائيلَ مظلومٍ، وأضافَها المتحدّثُ إلى ضَمير المُخاطب

"فعْلَتَكَ"، ووصفَها باسمٍ موصولٍ لعلم موسى بها، وفي ذلكَ تَهويلٌ للفَعلةِ يكْني به عن تَذكيره بما يوجبُ تَوبيخَه. وفي العدول عن ذكر فَعلة معيَّنة إلى ذكرها مبهمةً مُضافةً إلى ضميره ثم وصفها بما لا يزيد على معنى الموصوف تهويلٌ مرادٌ به والتَّشهيرُ وأنها مَعلومةٌ مُلْصَقَةُ التَّبعةِ به حتّى لا يجدَ سبيلاً إلى التّبرُّؤ منها.

ولهذا ذكَرَ موسى تشنيعَهُم لقتلِه القبطيَّ المُعْتَديَ، وأنَهم يرونَه ذنباً، يستحقُّ القَتل.

النصُّ والتّأويلُ النّحويُّ للشّعر

هيمَنَة تأويل النّحاة للشّعر، وفي توجيه النّظر إليه:

تَنوَّرْتُها من أذرعاتٍ، وأهلُها /// بيَثربَ، أدْنى دارِها نَظرٌ عالي

البيتُ لامرئ القَيس بن حجر الكندي، من قصيدة مطلعها:

ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطّلَلُ البالي /// وهلْ يَعِمَنْ مَن كانَ في العصر الخالي

ثُمّ يَقولُ:

وَهَل يَعِمَن إلّا سَعيدٌ مُخَلَّدٌ /// قَليلُ الهُمومِ ما يَبيتُ بِأَوجالِ
وَهَل يَعِمَن مَن كانَ أَحدَثُ عَهدِهِ /// ثَلاثينَ شَهراً في ثَلاثَةِ أَحوالِ
دِيارٌلِسَلمى عافِياتٌ بِذي خالٍ /// أَلَحَّ عَلَيها كُلُّ أَسحَمَ هَطّالِ

إلى أن يَقولَ: تنوَّرْتُها... والضَّميرُ يعودُ على سَلْمى أو ديار أهلها

والغريبُ أنَ الشعرَ الفصيحَ مثل الذي ذكرْنا منه المطلَعَ والبيتَ، أكثر ما نَتذكّره ونستحضرُه، إنّما نتذكّرُه على النّحو الذي يَرويه النّحاةُ ويستَدلّونَ به ويبحثونَ فيه عن وجه الاسْتشْهاد.

ولا يَكادُ يُساوي البيتُ كلّه قيمةً إلاّ بكلمة أذرعات التي هي مَدارُ الكلام: فأهمّ ما في البيت عندهُم هذه الكلمةُ التي تُرْوى بِكَسرِ التّاء مُنوّنةً، وبكَسْرِها بلا تَنوينٍ، وبِفَتْحِها، وكلُّ وجهٍ يُناسبُ مذهَباً في النّحو.

وقلّما يُلتَفَتُ إلى دلالاتِ الألفاظِ الأخْرى كالفعلِ تَنوَّرتُها الذي يَعْني أنّ امرأ القيس نَظَرَ إليها مِنْ بُعدٍ، وأصلُ التّنوُّر النّظرُ إلى النّارِ من بُعدٍ؛ واستطاعَ الشاعرُ أن يَراها لأنّه حريصٌ على رؤيتِها لا يُخطئُها عن ناظرَيْه البُعدُ. وأصلُ الأذرعاتِ بَلدٌ في أطراف الشّام، وأهلُ سَلْمى بيثربَ، فبيْنَه وبيْنَها مسافةٌ عظيمةٌ ومَراحلُ كثيرةٌ، لا تَحولُ دون تَنَوُّرِها وتمييز صورتها...

وكأنّي بامرئ القيسِ يُنشئُ هذا المَشهدَ من مخيّلتِه، فلا هو بأذرعات ولا هي بيثربَ، ولكنّها المُغامَرَةُ المَجازيّةُ تُنطقُ الكلماتِ بما وقعَ و بما لَم يَقعْ

هلّا وُجّه الإعراب بما يُفيد دلالَة الشعر وسياقَه :

فمن وَحي نَحو النَّصّ تَرجيح رواية النصب على الرفع في بيتِ أوسِ بْنِ حجر:

اَلأَلمَعِيّ: الذي يَظنُّ بك الظَّـــــــ.......ـــــــنَّ كأنْ قَدْ رأى وقَد سَمِعَا

يُروى بنصب الألمعيّ على البَدَل ممَا قبلَه [إنّ الذي جَمع السماحَة والنجدَة والحزمَ....] وبالرفع على الابتداء واسم المَوصول بعدَه خبر له. ولكنّ روايَة الرفع أضعفُ: لأنّها ستقطَع البيتَ عمّا قبلَه وتجعلُه مجرَّدَ تعريفٍ للألمعيّ. أما النصبُ فيجعلُ البيتَ متصلاً بالذي قبلَه

دوران المعنى الشعري وانتقاله:

قال الشاعرُ الأمويُّ جرير في مَدحِ الخليفَةِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ:

أَتَصحو بَل فُؤادُكَ غَيرُ صاحِ /// عَشِيَّةَ هَمَّ صَحبُكَ بِالرَواحِ

ولأبي نواس مثلُها:

أَتَصحو أَم فُؤادُكَ غَيرُ صاحِ /// عَشِيَّةَ هَمَّ صَحبُكَ بِالرَواحِ

غير أن أبا نواس جاء بأمْ التسوية بعد الاستفهام، وهو أنسَبُ نحواً وأوفَقُ مَعْنىً. ثم إن بيتَ جرير هو المَطلَع لقصيدَته، أما أبو نواس فالبيت جزء من قصيدة مطلعُها:

تُعاتِبُني عَلى شُربِ إِصطِباحِ /// وَوَصلِ اللَيلِ مِن فَلَقِ الصَباحِ.

طَبعاً جرير أسبَق من أبي نواس فقد توفي الأول سنةَ 110هـ. وتوفي الثاني سنةَ 198هـ. ويدلّ ذلك على سَبْقه إلى أصل المعنى، أي مَعْنى الإنكار على نفسه وتنبيهها على الصحو من الغفلَة. أما أبو نواس فقَد أخذ معنى جرير وغيرّ فيه وأدخل عليْه ما ذكرْنا آنفاً. ولعلّ جريراً نفسَه أفادَ من أصل آخَر في تركيب مَعْناه، وهو جَميل بنُ مَعْمَر في قوله: تَنادى آلُ بَثْنَةَ بِالرَواحِ وَقَد تَرَكوا فُؤادَكَ غَيرَ صاحِ فقَد جَمَعَ في البيت بين صحو الفؤاد وبين الرواح ، وكذلكَ فَعَلَ جريرٌ بعَده ثمّ أبو نواس بعدَهُما.

استنباطُ دلالَةُ الغَرور، من الصيغَة والسياق

الغَرورُ، في قَوله تعالى:

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [القمان 33]
فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ. إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا [فاطر:5]
الغُرورُ بضم الغين يأتي مَصْدراً ويأتي اسماً؛ والغَرورُ بفتح الغين: الشَّديدُ التّغريرِ، ولا يَكونُ شديدَ التغريرِ إلاّ الشَّيْطانُ، لأنه يزيّنُ لهم القَبائحَ ويُقبّحُ المَحاسنَ، بما يُلائمُ نُفوسَهم، والذي دلّ على أنّه الشّيطانُ أمْرانِ من داخلِ السياقِ اللغويّ:
- دلالَة الصّيغَةِ على المُبالَغَةِ، فهو أشدّ المَخْلوقاتِ تَغريراً بالإنسانِ، ولا يَفوقُه في ذلكَ أحدٌ على الإطلاقِ. وقَد ورَدَ التّحذيرُ الشديدُ منه،مَدلولاً عليْه بلا الناهيةِ وبنون التوكيد الثقيلَة.
- الأمرُ الثاني: وُرودُ لَفظ الشيطانِ بعدَ الغَرور: « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّ »، فالمَذكورُ بعدَ الغَرور مَرجعٌ مُفسّرٌ. والتَّعريفُ في الغَرور للعَهْد، فَتَقَرَّرَ المسندُ إليه بالبيانِ بَعد الإبْهامِ . أمّا تَكريرُ فعل النَّهي [فلا تَغُرَّنكم ولا يَغُرّنّكم] فَلِلمُبالغة فيه وإنّما اختلافُ الغَرورين في الكَيفية.

إشكال إعرابيّ:

الفرقُ بين تَرْكيبَيْ العبارَتَيْن من قوله تَعالى: «وإن يُقاتلوكُم يُولّوكُم الأدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرونَ» [آل عمْران: 111]، « وإن تتولَّوْا يَستبْدلْ قوماً غيْرَكُم ثُمَّ لا يَكونوا أمثالَكُم» [محمد: 38]...

1- في هذا الآيَة ما يُعرَفُ عند البلاغيّين بالإيضاح، وهو الإتْيانُ بكلامٍ ظاهرُه فيه لَبسٌ، ثمّ يأتي بما يوضِحُه في بقيّة الكَلامِ ففي الظّاهرِ عَطفُ غيرِ المَجْزومِ على المَجْزوم، والجوابُ من جهةِ المَعْنى أنّ صدرَ الآيَةِ يُغْني عن فاصلتِها، فإنّ توليَتَهُم الأدْبارَ دليلٌ كافٍ على الخذلانِ، وهم مَع تولّيهم لن يُنْصَروا، ففي الفعل الأخيرِ دلالةُ التّكميلِ أي تكميل المَعْنى بالإفادَةِ أنّ العدوّ مع تولّيه محكومٌ عليه مستقبلاً بالهَزيمَةِ قاتَلَ أم لم يُقاتلْ، فلم يأت الفعلُ الأخيرُ مرتّباً على ما قبلَه بل جاءَ لإفادَةِ معنى الهَزيمَةِ مُطْلَقا و لو لَم يُذكَر الفعلُ [لا يُنصَرونَ] واقْتُصِرَ على الفاصلَةِ لم يُوفَّ المُرادُ من الكَلامِ، لأنّه لا يلْزَمُ دائماً من مُقاتَلَةِ المُسْلمينَ عدوَّهُم أن يتولّى عدوُّهُم، فهذا غيرُ واردٍ، ففي الفعلِ استئنافٌ لا عَطفٌ

لإدخالِ الطّمأنينةِ في نُفوسِ المؤمنينَ أنّ النّصرَسيَكونَ حَليفَهُم، ولإفادَةِ اليقينِ بأنّ النّصرَ إلى جانبِ المؤمنينَ فلا ينبغي أن يستسلموا وأنّ الهَزيمَةَ تُلاحقُ عدوّهُم.

2- عُدلَ عن الجَزْمِ إلى الرّفعِ وعن العَطْفِ إلى الاستئنافِ ليُعْلَمَ أنّ عدَمَ النّصرِ للكُفّارِ هو
عهدٌ قَطَعَه الله على نفسِه، و لا عِبْرَةَ بتحديدِ الهزائمِ بالأزمنةِ والأوقاتِ والظّروفِ والطّوارئ، فالهَزيمَة تُلاحقُهُم وإن تغلّبوا في الظّاهرِ في بعض الحُروبِ، فلَم تأت الأفعالُ معطوفاً بعضها على بعضٍ حتّى لا يُفهَم أنّ الأحداثَ متعاقبةٌ متسلسلة

3- أفادَت ثمّ الاستئنافيّةُ مَعْنى آخَرَ هو التّعليقُ، وهو أن يتعلّقَ الكلامُ إلى حينٍ، ودلّ على
التعليق حرفُ ثمّ لِما فغيها من مَعْنة المُهلَةِ والتّراخي اللّذَيْن يُناسبانِ دلالة المُضارع على الحالِ أو الاستقبالِ، كأنّه قال: ثمّ هَهنا مزيدُ امتنانٍ من الله لعبادِه المُجاهدين: وهو أنّ اليهودَ قومٌ مهزومون لا يُنصَرون البتّةَ

4- وإلى جانبِ الإيضاحِ والتّعليقِ هناك فنّ آخَر هو الاحتراسُ وهو أنّ الكلامَ لو عُطفَ بالواوِ
لظنّ مَن لا يُنعمُ النّظرَ أنّ الآيَةَ تُفيدُ مجرّدَ الوعدِ بالنّصرِ في تلك الحالَةِ لا غير، فدُفِعَ الظّنّ بحرف ثُمّ التي تُفيدُ قطعاً أنّ النّصرَ للمؤمنينَ بلا أدنى شكٍّ، مُطلَقاً، حتّى لا يتوهّمَ متوهّمٌ أنّهم وُعِدوا بالنّصر في تلك المعركةِ بالذّاتِ فيندفعَ المُتباطئونَ لأنّهم وُعدوا بالنّصرِ. وأنّ الحربَ
قد تكونَ سجالاً

إشكال إعرابي آخَر

قالَ الزّمخشري رحمه الله في تَفسيرِ آية آل عمران، في كتاب الكَشّاف: « "ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ" ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم. وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذنونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأنّ عاقبة أمرهم الخذلان والذل.

فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: "ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ"؟ قلت عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون.

فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم، كتولية الأدبار. وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوّة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثمَّ؟ قلت : التراخي في المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار»[1]

أنموذج آخَرفي التماسُك البَليغ

من مَظاهر التماسُك النصي البَليغ ما تحققَ من غير رابط لفظي ظاهر، ولكنه يتحقق بقرينة معنوية مَلحوظَة؛ قال الزمخشري في تفسير الكشاف [سورة هود/الآيَة 93: سَوف تَعلَمون]:

إدخال الفاء : وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها : وصل خفي تقديريّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا : فماذا يكون إن عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه

---

[1] الكَشّاف : تفسير سورة آل عمران، الآيَة: 111

إعراب القُرآن الكَريم وبيانه، مُحْيي الدّين الدرويش: مجلد: 1/ ص::504

*** أنموذج آخَر: بَلاغةُ التَّقْديم والتأخير، والعُدول عن الأصل**

بلاغةُ التّقديم والتأخير في قوله تَعالى: "يَوْمَ تَبْيَضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وأما الذين ابيضَّتْ وُجوهُهُم ففي رَحمة الله هُم فيها خالدونَ" آل عمران106-107

أثِيرَ في مجلسٍ من مَجالسِ العلم نقاشٌ حول الآيَة الكريمَة، وذهبَ أحدُهُم إلى أنّ الابْيِضَاضَ قُدّمَ في الأوّلِ على الأصلِ، ثمّ أخِّرَ من بعدُ، عُدولاً عن الأصلِ، ويظلُّ السؤالُ المُثار: كيفَ يكونُ تَقْديمُ الشَّيء عَلى الشَّيء للعنايةِ والاهتمامِ، في موضعٍ، ثمّ يكونُ تقديمُ ما أُخِّرَ سابقاً، على ما قُدِّمَ سابقاً، للعناية والاهتمام أيضاً، على سبيل العدول عن الأصل؟

فهل العدولُ عن الأصل مُسوِّغٌ للتصرف في الرتبة ، أم هَلْ تتحكَّمُ في التّرتيبِ بواعثُ من المَعْنى ومَقاصد المُتكلّمِ، وليس يتحكّمُ فيه التصرفُ في الأصل، لأنّ التصرف في الأصلِ أو العدولَ عنه، لا يبدو مُسوِّغاً منطقياً أو بلاغياً تَداولياً لتعليل التّصرُّف في ترتيب الكلامِ، ويبدو أن المُخاطَبَ يعلَمُ بوقوع ابْيِضَاضِ الوُجوه واسْودادِها في ذلك اليوم، يعلمُ المُخاطبُ ذلِكَ مِن طريقِ إحالَة الظّرْفِ "يومَ" على مَعْلومٍ عندَه؛ ويدلُّ على هذا العلمِ السابقِ قولُه تعالى: «ويومَ القيامة تَرى الَّذين كَذَبوا على الله وُجوهُهم مُسوَدّة» [الزمر: 60] وقوله: «وُجوهٌ يَومَئذٍ مُسفرةٌ ضاحكةٌ مُستبشرةٌ، ووُجوه يَومئذٍ عَليها غَبَرَةٌ تَرهَقُها قَتَرَة» [عبس: 38-41] فلعِلْمِه بذلك اليوم أحيلَ على وقوع الابيضاض والاسوداد...

أمّا مسألةُ التّرتيبِ ففي قوله تعالى: «فأمّا الذينَ اسْوَدَّتْ وُجوهُهم أكَفَرتُم بَعدَ إيمانكم»، نشْرٌ مَعْكوسٌ للَّفِ السّابقِ، وعكسٌ في التّرتيبِ؛ ففي اللّفّ تقدّمَ الابيضاضُ وفي النّشرِ الذي هو تفصيلٌ للإجمال السابق، تقدّمَ الاسودادُ، وفيه إيجاز.

ومن المُفيدُ ههنا إيرادُ تَعليل الشيخ الطّاهر بن عاشور رحمه الله للترتيب في اللّفّ، ولعكس الترتيب في النشر: « قَدّم عند وصف اليوم ذكرَ البياض، الّذي هو شعارُ أهلِ النَّعيم، تَشريفاً لذلك اليوم بأنّه يوم ظُهور رحمة الله ونعمته، ولأنّ رحمة الله سَبَقت غَضَبَه، ولأنّ في ذكر سِمَة أهل النَّعيم، عَقب وَعيد بالعَذاب، حسرةً عليهم: إذْ يَعلمُ السَّامع أنّ لهم عذاباً عظيماً في يومٍ فيه نَعيمٌ عَظيمٌ، ثُمّ قدّم في التّفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساءتهم.» [انظر التحرير والتنوير/تفسير سورة آل عمران].

فتبيّنَ أنَ العنايةَ والاهتمامَ مَعْقودان وواقعانِ على ترتيب اللّفّ لأنّه هو الذي ورَدَ به الإخبارِ عن أحوالِهم وهو أوّل ما يطرقُ سمعَ المُخاطبِ. والله أعلَمُ

دلالَة التّشبيه وجهاته الفرعيّة في "كأنّ"

1- كأنّ حرفٌ يُفيدُ التشبيه؛ فإذا قُلتَ: كأنّ زيداً أسدٌ فالأصلُ فيه: إنّ زيداً كأسد. فقُدّم حرفُ التّشبيه عنايةً واهتماماً. وهي حرفٌ لا يتعلّقُ بشيءٍ: لمُفارقَته لموضع الذي يَتعلّقُ، أي لأنّها قُدِّمَت عن مَكانها في الأصل، خلافاً لحروف الجرّ التي تَتعلّقُ بمُشتقٍ ليكتمل معناها.

2- والغالبُ في كأنّ إفادة مَعْنى التّشبيه، وإذا جاءَ خبرُها اسماً جامداً أفادَت التشبيه نحو: كأنّ زيداً أسدٌ، وإذا جاءَ الخبرُ مُشتقاً أفادَت مَعْنى الشّكّ والظّنّ، نحو: كأنّ زيداً قائمٌ، وكأنّك بالشّتاءِ مُقبلٌ أي أظنّه مقبلاً. والشكّ ههنا جهة من جهات التّشبيه؛ إذ يشتبَه عندَكَ القيامُ وعدمُه

3- وإذا نُظرَ إلى سياقِ الكلامِ الذي فيه كأنّ عُلمَ أنّها لإفادَة التشبيه أو الظّنّ، وقد تُفيدُ عكسَ ذلكَ كما في بيت الحارث بن خالد المخزوميّ يَرثي هشامَ بنَ المغيرَة

فأصبحَ بطنُ مكّةَ مُقشعِراً *** كأنّ الأرضَ ليسَ بها هِشامُ

فهو لا يقصد التّشبيه ولكنّ أرادَ التّحقيقَ: لأنّ الأرضَ ليسَ بها هشام أصلاً. وأمّا اللاّم المقدّرة [الدّاخلَة على أنّ] فتُفيد التّعليلَ، وقد جاءَها التعليلُ من جهةِ أنّ الكلامَ في معنى الجواب عن سؤال عن العلّةِ مُقدّرٍ؛ لِمَ أصبحَ وجه الأرض مُقشعراً؟ لأنّ الأرضَ ليسَ بها هشامٌ. وفي البيت نكتةٌ لطيفةٌ وهي أنّه من شدّة الهَولِ لم يُصدّقْ أنّ الأرضَ خَلَت من هشام، فقالَ "كأنّ الأرضَ ليسَ بها هِشامُ " متوهّماً ما يُشبه خلوَّ الأرضِ منه. وهذه جهةٌ أخرى من جهات التّشبيه.

4- وقد تأتي كأنّ في عباراتٍ تُفيدُ جهةً أخرى في التّشبيه هي التّقريب، نحو قولنا: "كأنّكَ بالشّتاء

مُقبلٌ"، و"كأنّكَ بالفرَج آتٍ"، و"كأنّكَ بالدُّنيا لم تَكُنْ وبالآخرة لم تَزلْ" وقول الحريري:

كأني بكَ تنحطُّ، إلى اللَّحدِ وتنغطّ[1]

قالَ ابن عصفور في إعراب الأمثلَة: الكاف والياء في كأنك وكأنّي زائدتان كافّتانِ لكأنّ عن العمل كما تكفها ما، والباء زائدة في المبتدأ، وقال ابن عمرون: المتصل بكأنّ اسمُها، والظرف خبرها، والجملة بعده حال، بدليل قولهم كأنّكَ بالشّمسِ وقد طلعتْ بالواو، ورواية بعضهم ولم تكن، ولم تزل بالواو، وهذه الحالُ متممة لمعنى الكلام كالحال في قوله تعالى (فما لهم عن التّذكِرةِ مُعرضين) وكحتى وما بعدها في قولك مازلت بزيد حتى فعلَ وقال المطرزي: الأصل كأني أبصرك تنحط، وكأني أبصر الدنيا لم تكن، ثم حذف الفعل وزيدت الباء[2]

---

[1] المقامَة الحادية عشرة وهي السّاوية: شرح مَقامات الحريري لأبي العبّاس الشّريشيّ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة 1412-1992، ج:2، ص:3

[2] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط.1، 1421-2000، ج:3، ص:80-81

فعلُ "تبيَّنَ" في القرآن الكَريم وأحوالُه التَّركيبيّةُ والدّلاليّةُ:

الفعلُ "تَبَيّنَ" مأخوذٌ من البَيانِ وهو إظهارُ المقصودِ بأبلغِ لَفظٍ، و"تبيَّنَ" لازمٌ، والمُتعدّي منه "بيَّنَ"، والتّبيُّنُ شدّةُ البَيانِ والوُضوحِ والظّهور، وقد تبيَّن الصُّبحُ لذي عَيْنين؛ والتِّبْيان مصدرٌ شاذٌّ لأَنّ المَصادرَ إنّما تَجيءُ عَلى التَّفْعال بفتح التاء، مثل التَّذْكار والتَّكْرار والتَّوْكاف، ولم يجيءْ بكَسر التّاءِ إلا مَصدران وهما التِّبْيان والتِّلْقاء؛ والفعلُ "تبيَّنَ" يَكونُ لازماً ومتعدّياً، تَقولُ: بَيَّنْتُ الأمرَ فتَبيَّن أي تَبَيَّنَ، **وتبيَّنَ فلانٌ الخَبَرَ**. ومنه: "إذا ضَرَبتم في سبيل الله فتبيَّنُوا" أي تثبَّتوا.

هذا عن التّعدية أمّا إسنادُ الفعل إلى فاعلٍ، فقَد أُسنِدَ إلى فاعلٍ صَريحٍ في المشهور من الشواهدِ؛ نحو قوله تعالى: « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا **تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** » [البقرة:109]، وقوله: « **قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ** مِنَ الْغَيِّ » [البقرة:256].

وقَد يَكونُ الفاعلُ مقدّراً دلّ عليْه ما سبقَ، ففي الكَلام السابق ما يُحيلُ على الفاعل: « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا **تَبَيَّنَ** كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » [الأنفال:6]، وفاعل تبيَّن في الآيَة هو الحقُّ، حسب قَرينة السياق.

وقَد يَكون الفاعلُ مؤوّلاً من أنّ واسمِها وخَبرِها، نحو قوله تعالى: « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا **تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** »[التوبة:113].

ومن أنواع الفاعل المحذوف ما قُدّرَ بقرينةٍ من المَقامِ ومَساقِ الكلامِ، نحو: « وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ **تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ** » [العنكبوت:38]، ففي الفعل "تَبيَّنَ" ضميرٌ مُستترٌ يَعودُ إلى المَصدر المأخوذ من الفعل المقدَّر، أي يتبين لكُم إهلاكُهُم أو أخذُنا إيّاهم، وهو مُستَفادٌ من قوله: « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ».

وقَد يُسنَد الفعلُ "تبيَّنَ" إسناداً مُبْهماً، لا يُفسَّرُ إلاّ بالسياقِ؛ نحو قوله تعالى: « فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» [سبأ:14]؛ ففي "تَبيَّنَت الجنُّ" إسنادُ مُبْهمٍ فَصَّله قَولُه: « أنْ لَو كانوا يَعلَمون الغيبَ ما لَبثوا في العَذاب المُهين»؛ فـ"أَنْ" مَصدريةٌ والمَصدرُ المنسبِكُ منها بَدَل من "الجن" بدلَ اشتمال، أي تَبينَت الجنُّ للناس، أي

تبينَ أمرُهُم أنهم لا يعلمون الغيبَ، أي تبينَ عَدمُ عِلْمِهِم الغَيبَ، ودليلُ المَحذوفِ هو جُملةُ الشرط والجواب. »[1]

الوقف وأثره في تغيير المعنى :

كِفايةُ السّالِك في بَيانِ مَوقعِ "مِنْ أجْلِ ذلِك"

في الرّدّ على مَن وَقَفَ على "من أجل ذلِكَ" ولَم يَبْتَدئْ بها؛ قالَ الله تعالى: «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» [المائدَة:31-32]

1- **القولُ في قولِه تعالى: "من أجلِ ذلِكَ"** : الأَجْلُ الجَرَاءُ والتَّسبُّبُ أصله مصدر أجَلَ يأجُل ويأجِل كنصر وضرب بمعنى جَنَى واكتسب، "من أجلِ ذلِكَ" أي من جَرَّاء ذلكَ، وربّما حَذفَت العربُ"مِنْ" فقالتْ: «فعلتُ ذلكَ أجْلَ كذا». ويُعَدَّى بغَير مِنْ؛ قالَ عَديّ بنُ زيدٍ:

أَجْلَ إنَّ اللهَ قَد فَضَّلَكُم /// فَوقَ مَن أَحكَأَ صُلباً بِإزارِ

والأَصل التعديةُ بمِنْ، نحو: فَعلتُه مِن أَجْلِكَ.

2- القولُ في صلَة شبه الجُملة "من أجلِ ذلكَ" بما قبلَها و ما بعدَها:

الظّاهِرُ أنَّ «مِنْ أجْلِ ذلكَ» تعليلٌ للفعل الواقِعِ بعدَها «كَتَبْنا»، ولا تعلُّقَ لَها بما قبلَها «من النّادمينَ»، وإنّما يترجَّحُ أن يكونَ «من أجلِ ذلكَ» مَبْدأً للجُملة التالية «كتبْنا» لا مُنتَهىً لما قبلَها. والدَّليلُ على أنّ شبه الجملَةِ مَبْدأ ما بعدَها لا مُنتَهى ما قبْلَها أنَّ ما قبلَها وهو «النّادمين» مُستغْنٍ بما تُفيدُه الفاءُ في قوله «فأصبَحَ»: «فأصْبَحَ من النّادِمينَ» و " مِن" للابتداء المَجازيّ؛ إذْ شُبّه سَببُ الشيء بابتداء صُدوره ، وهو مَثارُ قولِهم : إنّ من معاني (مِنْ) التَّعليلَ، فإنّ كثرةَ دخولها على كلمة «أجْل» أحدثَ فيها معنى التّعليل، وكثرةُ حذفِ كلمة "أجْل" بعدها أحْدَثَ فيها معنى التّعليل؛ كما في قول الأعشى :

---

[1] **التحريروالتنوير**، الشيخ الطاهر ابن عاشور، الدّار التونسية للنشر، ج:22، ص:164.

فآليْت لا أرثي لها من كلالة /// ولا من حَفى حتّى ألاقي محمّداً

واستُفيد التّعليلُ من مفادِ الجملة . وكان التّعليل بالجارِّ والمَجْرورِ "مِن أجْل" أقوى منه بمجرّد اللاّم، ولذلكَ اختير هنا ليُدَلَّ على أنّ هذه الواقعةَ كانتْ هي السّبَب في تَهويل أمر القتل وإظهارِ مَثالبِه. واسمُ الإشارَة "ذلِكَ" فيه خُصوصٌ يُقصَدُ به استيعابُ جميع المذْكور. ومعنى "كَتَبنا" شَرعْنا؛ كقَوله تعالى: «كُتبَ عَليكُم الصّيامُ» [البقرة: 183]. ومَفعول "كتبنا" مضمونُ جملة: «أنّه مَن قَتلَ نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعاً» . و"أنَّ" تفيدُ المصدَريّةَ، وضمير «أنّه» ضمير الشّأن، أي كَتبنا عَليهم شأناً مهمّاً هو مماثلةُ قاتِلِ النّفسِ الواحدةِ بقاتِلِ النّاسِ أجمعين. ومَعْنى "كتبْنا عليهم هذا الشّأنَ" يُفيدُه موقعُ "أنّ" وهو وُقوعُها في كلامٍ معمولٍ لعامل قبله يقتضيه، فالحرفُ أنّ والجملةُ بعدَه مؤوّلة بمصدر هو مَعْمولُ "كَتَبْنا". وخبر "أنّ" في هذه الآية: جملةُ "مَن قَتل نفساً بغير نفسٍ أو فَسادٍ في الأرضِ فكأنَّما قَتلَ النّاسَ جَميعاً". وهي أيضاً مفسّرةٌ لضمير الشّأن. فتبيَّنَ أنّ قتلَ النّفس بغير حقّ جُرم عَظيمٌ، كعِظَمِ قَتلِ النّاسِ جَميعاً.

تَرجيحُ الوُقوفِ على "النادمين" والابتداء بـ"من أجلِ ذلِكَ"

قالَ الشيخُ أبو الفضل عبدُ الله بنُ الصّدّيق الغُماريّ، في معرِضِ الرّدّ على وَقفِ الهبطي: «الوَقْفُ عَلى "النّادِمينَ" كَما في حفصٍ وقالونَ؛ وهو وَقفٌ لازمٌ لانتهاءِ الآيَة. ثمّ يُستَأنَفُ الكَلامُ بقولِه:

« مِنْ أجلِ ذلِكَ كَتَبْنا»، و"منْ أجْل" جارٌّ ومَجرورٌ، مُتعلّقٌ بـ"كَتَبْنا"، وهو علّةٌ له. والمَعنى: "من أجلِ" قَتلِ أحَد ابْنَي آدمَ لأخيه ظلماً، كتبْنا على بَني إسرائيلَ تغليظَ الإثمِ في القَتل العَمدِ.

وهذا المَعْنى واضحٌ موافقٌ للسّياقِ، ولكنَّ الهبطيّ وقَفَ على ذلكَ، ففصَل بين الفعلِ ومُتعلَّقِه، وقطَعَ العلّةَ عن مَعْلولِها، وصارَت جملةُ "كَتبْنا عَلى بَني إسرائيلَ" مُنقطعةً عمّا قبلَه، لا رابطَ بينهُما، وهذا إفْسادٌ لمَعْنى الآيَة...»[1].

---

[1] انظر رسالَة صغيرة في الرّدّ على الشّيخ الهبطيّ في الوَقف: **مِنْحَةُ الرَّؤوف المُعطي في ضعفِ وُقوفِ الشَّيْخ الهبطي**، ص:14، دار الطّباعَة الحَديثة، الدّار البيضاء.

3- الحكمةُ من مشروعية القصاص: قالَ الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله: « والمقصودُ التّوطئةُ لمشروعيّة القصاص المصرّح به في الآية الآتية: «وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفسَ بالنّفس» [المائدة : 45] الآية .

والمقصودُ من الإخبار بما كُتب على بني إسرائيلَ بيانٌ للمسلمين أنَ حُكمَ القِصاص شَرعٌ سالفٌ ومرادٌ لله قديمٌ؛ لأنّ لمعرفةِ تاريخ الشّرائع تَبصرةً للمُتفقّهين وتَطميناً لنُفوس المخاطبينَ وإزالةً لما عسى أن يَعتَرِضَ من الشُّبه في أحْكامٍ خَفيتْ مَصالحُها، كَمَشروعية القِصاصِ، فإنّه قَد يبدو للأنظار القاصرة أنّه مُداواةٌ بمثل الدّاء المتداوَى منه، حتّى دَعا ذلكَ الاشتباهُ بعضَ الأمم إلى إبطالِ حُكمِ القِصاصِ بعلّةِ أنّهم لا يُعاقِبونَ المذنبَ بذَنْب آخرَ، وهي غَفلةٌ دَقَّ مَسلكُها عَن انحصارِ الارْتداعِ عن القَتلِ في تَحقُّق المُجازاة بالقتل؛ لأنّ النفوسَ جُبلت على حُبّ البَقاء وعلى حُبّ إرضاء القُوّة الغَضبيّة، فإذا عُلِمَ عندَ الغَضَبِ أنّه إذا قَتَلَ فَجزاؤه القَتلُ ارْتَدَعَ، وإذا طَمِعَ في أن يكونَ الجزاءُ دونَ القتلِ أقْدَمَ على إرضاءِ قُوّته الغَضَبيّة ، ثُمّ عَلّلَ نَفسَه بأنّ ما دون القِصاصِ يُمكنُ الصّبرُ عليه والتّفادي منه»[1] .

4- والغرضُ من التشبيه في قوله : "فَكأنّما قَتلَ النّاسَ جميعاً" حثٌّ على تَعقُّب قاتِلِ النّفسِ أيْنَما كانَ، من وَليّ الأمرِ حتّى العامّيّ، والغرضُ من التّشبيه تَشنيعُ صورَةِ القتلِ وتَهْويلُها في النُّفوسِ، لا أنّ قاتلَ نفْسٍ واحدةٍ قد قتلَ الناسَ جَميعاً على وجه الحَقيقَة. أمّا الغرَضُ من التّشبيه في قوله: "ومَن أحْياها" فهو إرادَةُ استنقاذِ النّفوسِ من المَوْتِ والذّبّ عَنها، فمَن فعلَ فكأنّما أحيى النّاسَ من غيرِ الطّريقِ المَعْهودِ، لأنّ الإحياءَ على وجه الحَقيقةِ ليسَ في المَقْدورِ.

إنزال اللباس من السماء

اللباس ما يَلبَسُه الإنسانُ ليتّقيَ به الحرَّ والقرَّ، وإنزالُ اللباسِ من السّماءِ في قوله تعالى:

[يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاس التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ] [الأعراف: 26]،

---

[1] التّحريروالتّنوير،للشيخ الطاهر بن عاشور، تفسير آيات سورَة المائدَة. طبعَة تونس

فيه نُكتةٌ بلاغيّة؛ فاللباسُ البشريُّ الواقي السّاترُ لم ينْزلْ من السّماءِ على هيئة ما هو عليْه، بل الذي نَزَلَ من السّماء أسبابُ اللّباسِ وما به يُصبحُ اللباسُ شيئاً يتّخذُه الإنسانُ وقايةً لبدَنه، لكنه أضيفَ إليه لأنه كان بأسباب من السّماء، فكان له في معنى الإنزال مزيدُ اختصاص، يحسِّن استعارةَ فعل الإنزال إليه، تشريفاً لشأنه، وعَدَلَ عن ذِكر إنزالِ المَطرِ الذي به تُروى البهائمُ ويُتخذُ من أشعارِها وأوبارِها المَتاعُ واللّباسُ، إلى اللّباسِ مُباشرةً، إدماجاً للامتنان في الاستدلال، أدمَجَ اللباسَ في المَطَر لأن الدليل في كونه مَطراً يحيي الأرض بعد موتها . وفيه قياسُ تَمثيل، أي في السماء المطر الذي ترزقون بسببه الكسوةَ واللباسَ الساترَ الواقيَ.

وذكرُ اللباسِ وحذفُ السبب من بابِ التشويق والاهتمام بمَكان الإنزالِ. وشارَكَه في هذا المعنى كلُّ ما فيه عظيمُ النّفع، من المُلهَمات، كما في قوله تَعالى: {وأنزلْنا الحَديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنّاس} [الحديد: 25] أي أنزلنا الإلهام إلى استعماله والدّفاعِ به ، وكذلك قوله : { وأنزل لكُم من الأنعام ثمانيةَ أزواج } [الزمر :6] أي : خلَقها لكم في الأرض بتدبيره ، وعلَّمكم استخدامَها والانتفاعَ بما فيها، ولا يطرد في جميع ما أُلهم إليه البشر ممّا هو دون هذه في الجدوى، وقد كان ذلك اللّباسُ الذي نزل به آدم هو أصل اللّباس الذي يستعمله البشر.

وهذا تنبيه على أنّ اللّباس من أصل الفطرة الإنسانيّة، والفطرة أوّل أصول الإسْلام، وأنّه ممّا كرم الله به النّوع منذ ظهوره في الأرض. وفي هذا تعريض بالمشركين إذ جعلوا من قرباتهم نزع لباسهم بأن يحجّوا عُراة.

كلَّما ازدادَ سترُ الجسمِ تقدَّمَت البشريّةُ وارتَفعَت الحَضارةُ وحَسُنَ الذّوقُ، وتنحدرُ البشريةُ إلى أسفلَ بقدرِ استغنائها عن اللباسِ.

"الْقَصيدُ" وتَماسُكُ النَّصِّ الشِّعْريّ

قال ابنُ قتيبةَ في "الشّعر والشّعراء" باب أقسام الشّعر:

« سَمِعتُ بعضَ أهلِ الأدبِ يَذكُر أن مُقصِّدَ القصيدِ إنما ابتدأ فيها بذكر الدِّيار والدِّمَنِ والآثار، فبَكى وشَكا، وخاطبَ الرَّبعَ، واسْتوْقَفَ الرَّفيقَ، ليجعلَ ذلكَ سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثمّ وَصلَ ذلكَ بالنَّسيب، فشَكا شدّةَ الوَجْد وألمَ الفراق وفَرْطَ الصَّبابة، والشَّوق، ليُميلَ نحوَه القُلوبَ، ويَصرفَ إليه الوجوهَ، وليَستدْعِيَ به إصْغاءَ الأسماع إليه، لأنّ التَّشبيبَ قَريبٌ من النُّفوس لائطٌ بالقُلوب... فإذا علمَ أنه قد استوثقَ من الإصغاء إليه، والاسْتماعِ له، عَقبَ بإيجاب الحُقوق، فرَحَلَ في شِعْرِه، وشكا النّصَبَ والسّهرَ وسُرى اللّيلِ

وحرَّ الهجير، وإنْضاءَ الرّاحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل... بدأ في المديح، فبَعَثه على المُكافاة، وهَزّه للسَّماح، وفَضَّلَه على الأشْباهِ، وصَغَّرَ في قَدرِه الجَزيلَ.

فالشاعر المُجيدُ مَن سَلَكَ هذِه الأساليبَ، وعدلَ بين هذه الأقسام، فلم يجعلْ واحداً منها أغلبَ على الشعر، ولم يُطِلْ فيُملَّ السّامعينَ، ولم يَقطعْ وبالنفوس ظمأ إلى المزيد »[1]

فهذا تعريفُ ابنِ قتيبَةَ للقصيد، والقصيدُ هو الشّعر الطّويلُ الذي نُظمَ على البُحورِ الطّويلَة والأوزانِ الثّقيلَة، وطافَ بالمَواضيعِ المختلفَةِ واصلاً بينَها غيرَ فاصلٍ، ويُقابِلُ القصيدَ الرّجزُ -في أحَدِ مَعْنَيَيْه-، فهو بحرٌ خفيف سريع الإيقاع فيه طرب وخفّةٌ. ولا شكَّ في أنّ القصيدَ يصدقُ عليه أنّه شعرٌ اتّحدَ وزنُه واتّحدَت قافيتُه، ولم يخرجْ إلى أنواعٍ أخرى من القوافي، أو ألوانٍ أخرى من الأوزان.

ثمّ لا شكَّ في أنَّ أغراضَ القصيدِ التي سَلَكَها الشّاعرُ القَديمُ سِرٌّ من أسرارِ تَماسُكِ القصيدَةِ ووحدتِها ظاهراً وباطناً.

والقَصيدُ نمَطٌ أو مَنهجٌ في نَظمِ الشّعرِ لا يُدركُه إلاّ مَن أدركَ فروقَ النظم، واختلافَ البحث والنثر وعَرَفَ القصيدَ من الرجز، والمُخَمَّسَ من الأسجاع، والمزدوجَ من المنثور، والخُطَبَ من الرسائل [كَما قال الجاحظُ في بعض رَسائلِه، في مَقالة العُثمانيّة]، وذكَرَ الجاحظُ في البَيان والتّبيُّن أنّ الخليلَ وَضَعَ لأوزان القصيد وقِصارِ الأرجاز ألقاباً لم تكن العربُ تتعارف تلك الأعاريضَ بتلك الألقابِ، وتلك الأوزانَ بتلك الأسماء، كما ذكرَ الخليلُ الطَّويلَ، والبسيطَ، والمديدَ، والوافرَ، والكامل، وأشباه ذلك، وذكرَ الأوتادَ والأسبابَ، والخَرْم والزِّحاف، وقد ذكرت العرب في أشعارها السِّناد والإقواء والإكفاء، وقالوا في القصيدة والرّجَز والسّجع والخُطَب، وذكرُوا حروفَ الرويّ والقوافي.

ومن أبْيَن ما قيلَ في تَميِيز القَصيد عن الرّجَزِ [في أحَد مَعْنَييه، وهو البحرُ القَصيرُ]، قولُ الجاحظِ: «وفي الشُّعراء مَن لا يستطيع مجاوزةَ القصيد إلى الرَّجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزةَ الرّجز إلى القصيد، ومنهم من يجمعُهما كجرير وعُمَر بن لجأ، وأبي النَّجم، وحُميد الأرقط، والعُمَانيَ. وليس الفرزدق في طِوالِه بأشعَرَ منه في قصاره، وفي الشعراء مَن يخطب

[1] **الشعروالشعراء**، لابن قتيبة الدينوري (ت.276هـ)، نشر دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ج:1، ص:75.

وفيهم من لا يستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء في قريض الشعر، والشّاعرُ نفسه قد تختلف حالاتُه...» البْيان والتّبيُّن، باب في الصّمت.

وكانَ النّقّادُ يَجعَلونَ الرّجزَ مُقابلاً للقَصيد: «إذا ادّعينا للعرب أصنافَ البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعَنا العلم أن ذلك لهم شاهدٌ صادق من الدِّيباجة الكريمة، والرَّونق العجيب، والسَّبْك والنَّحت، الذي لا يستطيع أشعَرُ الناس اليومَ، ولا أرفعهُم في البيان أن يقول مثلَ ذلك إلاّ في اليسير، والنَّبْذ القليل»[1].

ففي كلام النّقّاد تَميزٌ واضحٌ بينَ النّمطَيْن، وأنّ الفرقَ بيْنَهُما كانَ مَعهوداً عندَ الشعَراءِ ومَهَرَة النّظمِ والنّثرِ. يدلُّ عليْه قولُ مَن سألَ يونُسَ النّحويَّ: « قيلَ ليونسَ النّحويّ: مَن أشعرُ الناس؟ قال: العَجّاجُ ورُؤبةُ. فقيل له: لم نَعْنِ الرُّجّازَ. قال: هُما أشعرُ أهل القَصيد، وإنما الشعرُ كلامٌ فأجْوَدُه أشْعرُه». [خزانَة الأدَب، الشاهد الخامِس]

وقالَ أبو العَلاءِ المَعرّي في رسالة الصّاهل والشّاحجِ: «وما أدْفعُ أنّ الرَّجَزَ أضعفُ من القَصيد، ولكنّهُما جنسٌ واحدٌ».

وممّا يدلُّ على أنّ القَصيدَ نصٌّ مبنيٌّ في مُنتَهى الاتّساقِ والحَبْكِ، قولُ ابنِ أبي الإصْبَع في تَحرير التّحبير مُخاطباً الشّاعرَ المُقصِّدَ: «واعْمَل الأبياتَ مُفرَّقةً بحسبِ ما يجودُ بها الخاطرُ، ثم انظمْها في الآخِر، واحترسْ عندَ جَمعِها مِن عَدَم التّرتيب، وتَوَخَّ حُسنَ التنسيق عند التهذيب، ليكونَ كلامُك بعضُه آخذاً بأعناق بَعضٍ، فهو أكملُ لحسنه، وأمتنُ لرَصفه وجَمِّل المَبْدَأ والتّخلصَ والمَقطعَ، فإنّ ذلكَ أصعبُ ما في القصيد، واجتهدْ في تجويدِ هذه المواضعِ، وتَجنَّبْ مَعاريضَ أرباب الخواطر فيها، وتَوارُدَهُم عليها، ومَيِّزْ في فكركَ مَحَطَّ الرِّسالة، ومَصبَّ القَصيدةِ قبلَ العَمل، فإنّ ذلكَ أسهلُ عليك، وأشْعِرْها أولاً، ونَقِّحْها ثانياً، وكَرِّر التنقيحَ، وعاوِدْ التهذيبَ، ولا تُخرجْها عنك إلا بَعد تَدقيق النّقدِ وإنعام النظر، وقد كانَ الحطيئةُ يَعملُ القصيدةَ في شهرين، ويُنقِّحُها في شهرين اقتداءً بزهير، فإنّه كانَ راويَتَه، وقد

[1] **البيان والتّبيّن**، لأبي عُثمان الجاحظ. تحقيق عبد السلام محمد هارون: كتاب العَصَا

كانَ زهيرٌ يعملُ القصيدةَ في شهر واحد ويُنقحُها في حَوْلٍ كاملٍ، حتّى قيلَ لشِعْره: المُنَقَّحُ الحَوْليُّ، والحَوْليُّ المُحَكَّكُ.»[1].

[1] تَحرير التَّحبير في صِناعَة الشِّعْرِ والنَّثرِ وبَيانِ إعْجازِ القُرآن، لابن أبي الإصْبَع المِصْريّ (ت.654هـ)، تحقيق: حَنفي محمد شرف، لَجنة إحياء التّراث الإسلاميّ مصر، ص:413-414

فهرس المواد

